الجنرال جون هاكيت

الحربُ العالميّة الثالثة

ترجمة : موسى الزعبي



مركز الدّراسات العسكريّة

دمشق - ١٩٨١

صدر هذا الكتاب باللغة الانكليزية بعنوان :

THE THIRD WORLD WAR AUGUST 1985

GENERAL SIR JOHN HACKETT
& OTHER TOP-RANKING
NATO GENERALS & ADVISORS

BERKLEY BOOKS, NEW YORK

الجنرال : السير ــ جون هاكيت
وآخرون من كبار جنرالات
منظمة حلف شمال الاطلسي

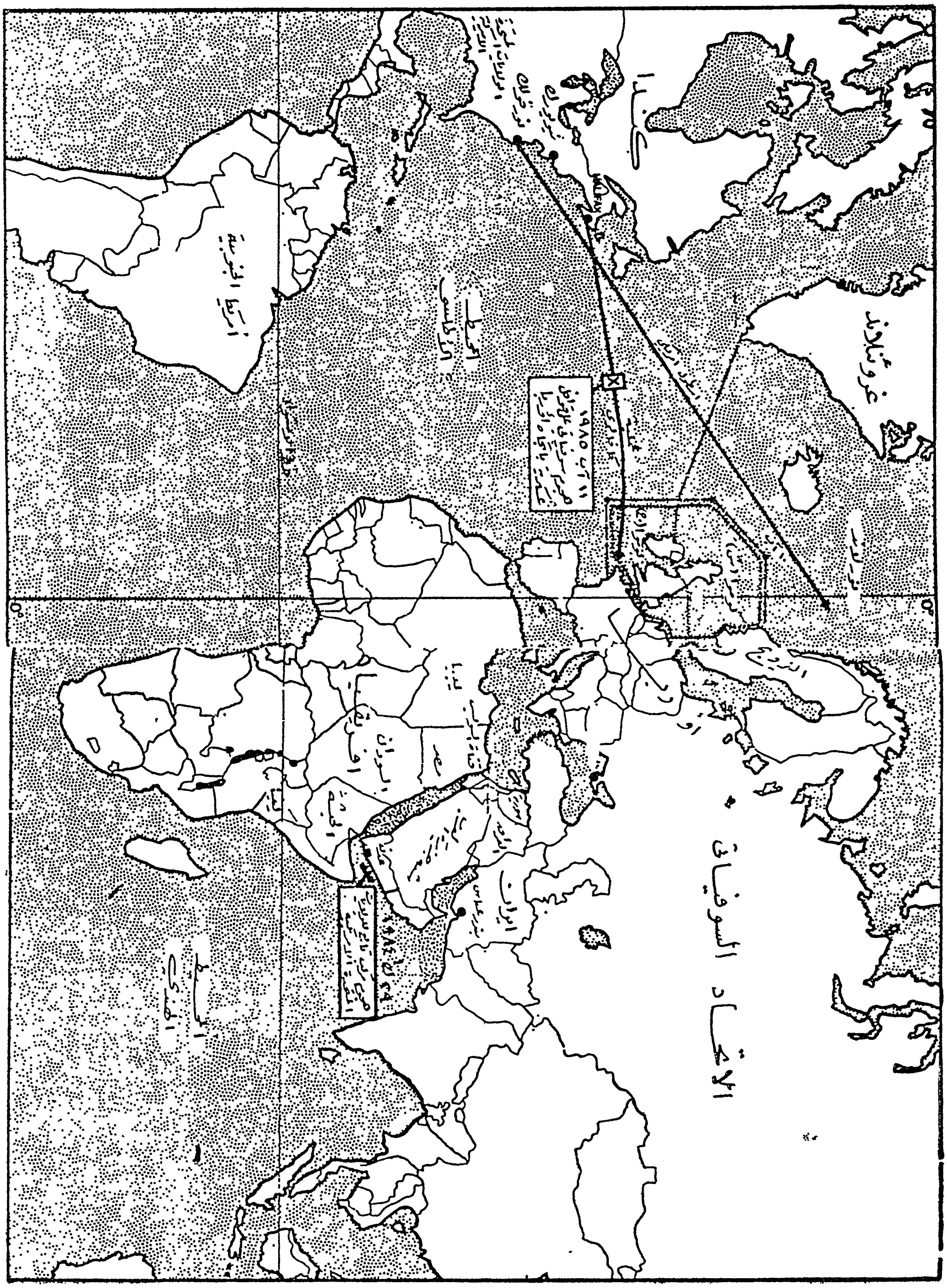
الحرب العالمية الثالثة

آب ١٩٨٥

ترجمة
موسى الزعبي

اصدار
مركز الدراسات العسكرية
دمشق - ١٩٨١

استناداً لتوجيهـات السيد الرئيس حافظ الأسـد رئيس الجمهورية العربية السورية ـ القائد العام للجيش والقوات المسلحـة ـ يصـدر مركـز الدراسـات العسكرية الكتب الثقافية المتنوعة التي تهـدف الى اغناء معارف ضباط القوات المسلحة والمهتمين بالثقافة العسكرية.


الاتحاد السوفياتي
غرونلاند
أمريكا الجنوبية
المحيط الأطلسي
المحيط الهندي

تقديم

ونحن في عام ١٩٨١ ، يطالع القارىء على غلاف هـذا الكتاب عنواناً مثيراً عن ((**حرب عالمية ثالثة**)) تندلع حوادثها صبيحة يوم الاحد في الخامس من شهر آب عام ١٩٨٥ وقد أُرخ لها في عام ١٩٨٧ ؛ ((وهو عام صدور الكتاب نظرياً بينما صدرت طبعته الاولى باللغة الانكليزية عملياً في عام ١٩٧٩)) .

ان مجرد التفكير فيما وصلت اليه ادوات الحرب الحديثة من تطور ، أمر بالغ الاهمية نظراً لما بلغته تلك الادوات من قدرة على التدمير الشامل ، وافناء ملايين البشر ، ودك صروح الحضارة في عالمنا المعاصر .

فماذا جرى في هذه الحرب ــ المتوقعة ــ ؟ التي دامت في هـذا الكتاب ثلاثة اسابيع فقط . هل استخدمت فيها القنابل النووية ، أم كانت حرباً تقليدية تصارعت فيها القوى والجيوش والاساطيل في الجو والبر والبحر ؟ ولمن أنعقد النصر فيها ، هل لقوات حلف ((**وارسو**)) أم ((**الناتو**)) أو بمعنى آخر من كان المنتصر في هذه الحرب المعسكر الاشتراكي أم المعسكر الرأسمالي ؟

هذا ما يعالجه الجنرال ((**السير ــ جون هاكيت**)) بالاشتراك مع ستة آخرين من كبار جنرالات حلف شمال الاطلسي في هذا الكتاب على ضوء الحقائق الثابتة والمعطيات الراهنة لدى القوى العظمى على الصعيدين السياسي والعسكري .

ان القوى العظمى في العالم لا يهمها سوى السيطرة على موارده الطبيعية وتأمين مصالحها ــ وهو سر الصراع القائم على معظم الساحات الدولية سياسيا وعسكريا ــ بغض النظر عن مصالح الشعوب الاخرى ؛ وباعتبار ان الامة العربية ليست بمعزل عما يجري حولها من صراع بين تلك الدول ((العظمى))

للسيطرة على موارد شعوب العالم الثالث ونهب ثرواته ، فقد عمل مركز الدراسات العسكرية بناء على تعليمات السيد العماد نائب القائد العام — وزير الدفاع ، على ترجمة هذا الكتاب متوخياً اغناء معارف الضباط والمهتمين بالثقافة العسكرية .

حزيران ١٩٨١

مركز الدراسات العسكرية

تمهيد

ان نشر هذا الكتاب مباشرة في أعقاب وقف الاعمال العدائية بين الاطراف الرئيسية المشاركة في الحرب العالمية الثالثة ، سيعني أن كثيرا مما يتضمنه سيظل مبتسرا بل وحدسيا . وخلال الظروف الفوضوية التي سادت قبل نهاية هذه الاعمال العدائية ، اختفت كميات كبيرة من الوثائق من بعض مراكز القوى الهامة . ومنذئذ ظهر بعضها بينما لم يتح لبعضها الآخر الظهور .

ومع ذلك بدأ للكتّاب ، وكل منهم قد لعب دورا في احداث عام ١٩٨٥ ومابعده سواء أكان في اللباس العسكري أو خارجه . ان من الاهمية بمكان وضع رواية مهما كانت ناقصة لمجريات الاحداث في فترة زمنية ذات أهمية متوارثة للجنس البشري .

اننا نكتب كبريطانيين يعون وعيا عميقا لما يدفعون به للاخرين ، ومن الممكن أن تكون النتيجة مختلفة جدا ، وهكذا كانت تقريبا .

لقد وقف العالم على شفا الهاوية . وبفضل العناية الالهية أمكن وقف سقوطه فيها وتدميره ، وذلك من خلال تحول هام ومتدرج في الموقف العام ومن خلال جهود أعداد كبيرة من ذوي الحصافة وبعد النظر خلال السنوات القليلة الاخيرة التي سبقت نشوب الحرب .هذا العمل الذي كثيرا ماتم في وجه معارضة عاطفية صاخبة ، وكل الناس يعرفون الآن ان الهامش كان بين النجاة والهاوية ضيقا جدا . ولا ريب أن السنوات القليلة القادمة ستحفل بالكثير مما سيقال وسيكتب حول هذه الاحداث ، مع ازدياد ظهور مصادر جديدة وأفكار أخرى تكرس هذه الحقبة من تاريخ عالمنا .

ان هذا السرد الذي بنذىء به الآن هو في خطوطه العريضة فحسب وباختيار متعمد سيتضخم كثيرا هنا وهناك ، كما سيصحح أيضا وبدون شك . وعلى كل حال فقد بدا لنا معقولا أن نبحث عن أجوبة لبعض الاسئلة على أمل أن يقلل ذلك من احتمال كارثة أخرى قد لانستطيع التخلص منها هذه المرة ، وذلك قبل ان تترسخ هذه الاحداث في خلفية حياتنا . أما الاسئلة فهي بسيطة : ماذا حدث ؟ ولماذا حدث ذلك ؟ ماذا يمكن ان يكون قد حدث ؟ ولماذا لم يحدث ؟

لندن ــ ايستر ١٩٨٧

* * *

الفصل الأول

فجر آب
الضربات الأولى

« الحصان الاسود واحد صفر ، الاسود واحد صفر ، هنا مجرفة ستة تؤكد مشاهدات « شارلي » واحد : تشكيلات مدرعة كبيرة اجتازت الحـدود الالمانية الداخلية . صفر ـ ثلاثة ـ صفر ـ خمسة زولو (١) تقريبا في حجـم لواء مشكلا من بابا تانغو ٧٦ ، وبرافا تانغو روميـو ٦٢ ، وتانغو ٧٢ . أعلموا الحصان الاسود ستة أن المجرفة مشتبكة ، انتهى » .

هذا ما كان يقوله « جاك لانفتري » في المهتاف « الميكروفون » وهو قائد الوحدة ل من السرية الثالثة ، في كتيبة المدرعات ، في صباح مبكر من يوم ٤ آب ١٩٨٥ بينما كان يقف على التلة ٤٠٢ في «وايلدش» ، وهويسرح بنظره عبرمنطقة الحدود على التلال المنحدرة نحو ألمانيا الشرقية من « أيزناش » . ومن خلال ضوء الفجر استطاع أن يرى العشرات من العربات المدرعـة تتحرك مسرعـة باتجاهه ، على طرفي الاوتوبان (٢) .

لقد عرف « لانفتري » ماهية الامر : انه طليعة متقدمة لتشكيل سوفييتي يهاجم ولا يمكن أن يكون شيئا آخر . وكانت فرقة(٣) الفرسان رقم (١١) تشكل

---

(١) توقيت عـالمي مثل غرينتش .

(٢) الطريق العريض « الاوتوستراد » .

(٣) « فرقـة ألفرسان » أينما وردت في هـذا الكتاب هي ترجمة لكلمة « Cavalry » تعني قوات محمولة على عربات مدرعة أو بالحوامات (قوات التدخل السريع) . (المترجم)

القوة الرئيسية لقوات التغطية الامريكية للفيلق الخامس . اذ كانت مهمتها اعطاء أقصى مايمكن من الوقت للفيلق عن طريق عملية تأخير القوات المهاجمة . في الشمال كانت «كاسل» تقع خارج منطقة عمل الفيلق . وفي الجنوب انفتحت ثغرة في منطقة « فولدا » على نحو خطر قريبا من الحدود التي تبعد حوالي ١٥ كيلو مترا فقط .

وكانت دبابات من طراز « شريدان » الخفيفة الخمس عشرة التي كانت تطلق صواريخ « شيللاغ » تصطف في رتل واحد خلفه مباشرة على امتداد التلال المرتفعة المشرفة على الاوتوبان الذي يمتد من الحدود الى « باد سفيلد » . وكانت فصائله الثلاث قد تدربت على الاشتباك مع عدد وهمي على هذا الطريق نفسه عدة مرات ، لكن اشتباك اليوم كان اشتباكا حقيقيا . لقد أمسك بالمهتاف وسمع صوته يصدر الاوامر قائلا : **« مجرفة هنا ستة ، اشتبك ساعة تشاء انتهى »** .

وقبل أن يرخي قبضته من على مقبض المهتاف سمع زمجرة صواريخ « شيللاغ » تندفع موجهة الى أهدافها ، في صباح ذلك اليوم الحزين القاتم من أيام شهر آب .

وكانت كتيبة الحصان الاسود تتحمل عبء الدفاع عن البلاد كما تحملته من قبل في الفلبين والمكسيك وأوروبا والفييتنام . الى جانب « لانغتري »وقف الجندي « ايرل ويت » الذي صاح فجأة **« سيدي : انظر هناك ، لقد اصابت تسعة من الخمسة عشر صاروخا أهدافها »** ، محدثة فيها فجأة نوافير من الكرات الملتهبة المتطايرة . وكانت دبابات « شريدان » قد تحركت الى مواقع النار التبادلية ، عندما كانت التلة ٤٠٢ تتداعى تحت ضربات نار المدفعية السوفييتية . وقتل الجندي « ويت » فورا ، وجرح اثنان من أعضاء مركز القيادة التكتيكي . وسارع « لانغتري » الذي نجا من الموت الى نقل فريق القيادة الى مركز رصد ومراقبة آخر يبعد حوالي مسافة خمسمائة متر ، الى الغرب من قرية « سبيتزهوت » . أما التشكيل السوفييتي المدرع فبعد توقفه فترة قصيرة تابع التقدم في اتجاهه العام ، وشوهدت وحدة منه تحاول تطويق

وحدة « ل » فادرك « لانغتري » أن هذا التشكيل سيصطدم بصواريخ موجهة ضد الدبابات من طراز « XM - LS » من سرية الدبابات السابعة عشرة .

هكذا كان حظه العاثر ، فقد رأى احدى دبابات فصيلة « شريدان »تتطاير لدى اصابتها بصاروخ سوفييتي مضاد للدبابات ، وقال بصوت عال :
« بحق جهنم لماذا عرض نفسه بوقوفه على الافق ! ألم أعلمه طيلة ثمانية عشر شهرا كيف يقود دبابته ؟! » .

وبعد ذلك سمع صوت الطائرات الحوامة فوق ساحة المعركة ، فيما بدأت مدافع « تاو » المضادة للدبابات التابعة لكتيبة الحصان الاسود لعبة « الاختفاء والبحث » مع دبابات ت ٧٢ على جانبي الاوتوبان باتجاه « هيرنفن » . وعلى نحو ما ألفى « لانغتري » نفسه معزولا تماما عن المعركة المحيطة به ، فأصدر أوامره كما لوكان الامر في أحداالتمارين الميدانية. وتصرف مركز قيادته تماما كما سبق له ذلك عدة مرات من قبل في تمارين المعركة التي كان يأمل أن لاتقع أبدا.

« **مجرفة ــ هنا ستة ــ نفذ الفا ٣** » لقد كان ذلك أيعازا بالتراجع الى الموضع التأخيري التالي ــ الارض المشرفة على «لوترباخ» ــ وبدا الفصيل الاول بالتحرك ، وعندما وصل الى منتصف المسافة في طريقه الى موضعه التبادلي التالي ، حاول الفصيل الثاني التملص واشار « لانغتري » بيده ، وبدأت الآليات ، من طراز : « م١١٣ » ، الثلاث بالتحرك الى مركز القيادة التكتيكي . وفيما كانت العربة الاولى تجتاز الجسر على نهر « لوتر » ظهر بريق هائل ، وفجأة اختفى الجسر . وشعر « لانغتري » نفسه يطير في الهواء ثم يسقط على الارض على كتفه الايمن وقد سبب له ذلك آلاما حادة ، وفيما كانت عربتان من عربات القيادة الثلاث تحترقان ، كانت العربة الثالثة تندفع على الطريق في الجانب الآخر من مجرى النهر تبحث لها عن ساتر . وجلس « لانغتري »وتمتم بصوت مسموع :

« يا الهي . ارجو أن يكون الضابط المنفذ قد استلم القيادة على عجل

والا أصبحت الوحدة منتهية)) وشعر بنفسه وحيدا يحتضر وكان الوقت ٤٤٧ زولو من آب ١٩٨٥ .

كان الظلام مخيما ولم تحن الساعة الثالثة من صباح الاحد ٤ آب ، عندما تلقى قائد سرية (س) من كتيبة الدبابات (٨) التابع لقوات التغطية التابعة للفيلق البريطاني الاول في المنطقة الوسطى ، الامر عبر اللاسلكي بأن يكون على أتم الاستعداد ، وكان وقت الاستنفار النظامي اليومي يبدأ عادة قبل أول ضوء .أما هذه المرة فقد كان الامر مختلفا بشكل واضح .

وبدا خط الافق على بعد كيلو متر واحد الى الشرق يتضح تدريجيا مع شحوب السماء ، عندما وقف في برج دبابته مصغيا لجهاز اللاسلكي ، غير مبال بضجيج دبابات سريته ، الاربع عشرة ، والآليات المرافقة لها والتي كانت تستعد للانتشار عند بزوغ ضوء النهار . وتناول قدحا من القهوة دون أن يأكل شيئا ، اذ كان من المستحيل عليه في وقت الانتظار هذا ان لاينساق في تخيل ماقد يقع في وقت لاحق . وتذكر على أية حال وعده باستنفار رجال التلفاز « التلفزيون » عند ظهور شيء خاص . وجاءه صوت من رئاسة الاركان ثانية يقول له : ((**العدو يتحرك ، استعد للتحرك ((برافو)) خلال ثلاثين دقيقة**)) .

ومن المفروض ان جميع دباباته ومحطات اللاسلكي الخارجية تكون قد سمعت هذه الرسالة ولم يكن لديه ما يضيفه عليها .

أما « برافو » فكانت تعني تحرك الكتيبة واتخاذ ترتيب القتال على الف متر من قمة الذرى ، على خط الحدود تقريبا .

وكان معظمهم يعرف المكان من خلال استطلاعاتهم الحذرة الراجلة ، بينما كانت دباباتهم في الخلف في أرض مستورة عن أنظار العدو لتجنب حوادث الحدود التي كانت تتحاشاها الفرقة . وفي أقل من عشر دقائق جاء الصوت مرة ثانية ((**تحرك الآن**)) ، وكان في الصوت نبرة تدل على الأمر بسرعة التنفيذ . وكان ضوء النهار يزداد انتشارا عندما أعطي الأمر على موجات اللاسلكي الداخلية للتحرك سريعا مع تلقيم المدافع وتجهيزها استعدادا للعمل .

وعادت الحياة لدباباته . وما ان أخذت دبابته تقترب من القمة وهي تتخبط على أرض متموجة مليئة بجذور الاشجار حتى جاءه صوت قائده مرة أخرى باللاسلكي ليخبره « **ان العدو هو أقرب مما كنا نظن ، فتوقــع تماسا مبكرا ، وأعلمنا عن أول ظهور له** » .

وصلت دبابته للقمة مع نهاية الكلمات الاخيرة لقائده ، وتجلى أمامه منظر مخيف رآه في حياته ، حيث كانت الارض التي تمتد أمام بصره تعج بأشباح سوداء مخيفة تتقدم نحوه من وراء صف من الاشجار ، تبعـد عنه حوالي كيلومترين . تلك الاشباح كانت تطوي هذا المدى بسرعة ، فيما كان نسق ثان يتبعها ، ونسق ثالث أيضا يخرج لتوه من وراء صف الاشجار . لقد بدا له ان الدنيا تمتلىء بالدبابات السوفييتية .

« **كان من الممكن أن تعلمني** » ، قال ذلك على مهتاف اللاسلكي . ومضى يقول « **انني مشتبك الآن انتهى** » . وأصدر أوامره سريعة لسريته والى رامي دبابته ، ولكنه قد شاهد فجأة من خلال منظاره الشخصي وميضا تبعتــه سحابة سوداء من الدخان يتوسطها لهيب كالبركان في ثورتــه ، فأدرك أن قاذفة صواريخ مضادة للدبابات تتمركز في مكان ما خلفه والى اليسار ، قد أصابت أول أهدافها .

في نفس اللحظة كاد يصعق ويصاب بالصمم من جراء ضربــة مدوية وكأنها ضربــة هائلة وقعت على الجانب الايمن والاسفل من دبابتــه قذفت به بعنف الى جانب برجها في الوقت الذي استدارت فيه الدبابــة حول نفسها واهتزت بشدة ثم توقفت عن الحركة ، وفي الوقت نفسه أصابت قذيفة أخرى قوية برج الدبابة ولدى انزلاقها عنــه كادت تحطم جمجمته . وهكذا أصبح السلاح الرئيسي للدبابة عــديم الفائدة ، وكان الشيء الذي يجب عليــه أن يعمله هو اخراج طاقم دبابته ، وعددهم ثلاثة لا يزالون على قيد الحياة وذلك قبل أن يعاجلهم صاروخ آخر . وفي غمرة الذهول ، وجد نفســه طريحا

على الارض لا يدري كيف وصل اليها ، يجثم في حفرة وهو يرتجف كورقة شجرة ، بينما امتلأت السماء بالطائرات المقاتلة التي أخذت تزرع السماء بسرعة البرق وتطلق صواريخها عند مرورها . وشاهد الدبابات المعادية من نوع « ت ٧٢ » تهاجم على موجات لا تكاد تنتهي ، وكانت الارض تهتز من تحتها بينما كان الجو يمتلىء بصرير عجلاتها . فيما كانت حاملات الجنود من طراز « ب م ب » عربات مشاة للقتال تتبعها ، ووميض المدافع يرى من على جوانبها . بينما كانت ألسنة النار ترتفع الى عنان السماء ، وأعمدة الدخان تنطلق من الدبابات المحترقة بذخائرها .

لم يعد يستطيع مشاهدة أي أثر لسريته واختفى طاقم دبابته . لقد كانت هذه الحرب تلك التي كانوا يتخيلونها دون أن يعلموا حقيقة ما كانوا يتوقعون في المستقبل .

أما هو فقد خرج سالما لكن وحيدا لا حول له ولا قوة . وكانت الامور بالنسبة له أفضل من سواه .

* * *

ان الانطباع التالي عن عمليات القوات الجوية الالمانية والاميركية لطائرات « تورنادو » و « إف ١٥ » في اليوم الاول للهجوم ، مأخوذ عن كليـة اركان حرب الجيش الاميركي « فورت كارليسل » في خريف ١٩٨٦ .

عادت أول موجة من طائرات « تورنادو » الالمانيـة الى قاعدتهـا في « نورفينيش » سالمة باستثناء فقدان واحدة منها . كان ذلك في الساعة ٩ر٣٠ من صباح ٤ آب . أما الموجة الثانيـة من نفس الجناح التابع للقوات الجوية الالمانية يجب ان تكون في هـذا الوقت فوق المانيا الشرقية تهاجم ثلاثة مطارات تابعة لحلف « وارسو » ، بينما استعدت الموجة الاولى للقيام بمهمات جويـة مضادة جديدة .

كان الملازم الاول « كارل فون مارشال » مغتبطا مرتاحا لنجاح مهمتـه الاولى في الحرب ، وكان يقف ليأخذ قسطا من الراحة عندما دخل ملجأ طاقم طائرته ، بينما كانت طائرته من طراز « تورنادو » يعاد تزويدها بالذخـيرة وبالوقود . لقد قاد ثمان منها عند أول ضوء في الهجوم على مطارات المانيا الشرقيـة في « زيربست » ، وهو غير متأكد من نجـاح مهمته اذ كان على ارتفاع ستين مترا ، وكان ضباب الفجر يغلف الهدف . لكن ملاح طائرتـه قد لعب دورا رئيسيا في الوصول للهدف فما ان لمح المطار من خلال الضباب حتى امتلأ ثقة في دقة الهجوم ، وانطلقوا بسرعة تفوق سرعة الصوت فوق جبال « هارس » .

شعر « فون مارشال » انه ربما كان الجزء المتعلق بالمهمة الاولى ، قـد

نفذ بشكل آلي وعن ظهر قلب وذلك لانهم كثيرا ما أجروا تدريبا في ظل ظروف مشابهة .

أما المهمة الثانية التي نفذت على غرار الاولى في ظروف أكثر ملاءمة ، فقد تمت في وضح النهار وكانت لهولها تدفع شعر الرأس الى الوقوف ، فيما كانوا يندفعون على ارتفاع منخفض فوق الاشجار والمنازل . وشعر بعد أن قام بتنفيذ مهمته بدون رؤية أنه يستطيع بكل ثقة ، في ظل الاثارة الناجمة عن المعركة ، تنفيذها الآن في ظروف أوضح ، وكان تواقا للاقلاع وقيادة هجوم آخر .

وفيما كانوا في طريق العودة يطيرون بسرعة كبيرة فوق الاشجار ، شاهدوا أعدادا كبيرة من طائرات « الميغ » فوقهم ، لكن هذه الطائرات لم تستطع توجيه مدافعها وصواريخها على طائرات « التورنادو » ، التي كانت تطير فوق الارض تحتهم بسرعة كبيرة . وقد بدا مؤكدا أن هذا الاسلوب من العمليات التي تتم على ارتفاعات منخفضة جدا ستنجح في اختراق الدفاعات الجوية الكثيفة . ومما لا شك فيه أن الامور ستصبح أكثر عنفا وقسوة عندما يكتشف العدو ذلك ، ولكن هذه العمليات ما زالت جيدة الاستخدام . وقد وضعت تجهيزات خاصة لمنع تحطم الطائرات في مواضعها على المدرج ، الامر الذي يعني أن بعض الطائرات كانت تحاول الاقتراب بصعوبة . ونظر نحو الشرق باتجاه طائرة عالية أخذت تهبط هبوطا حادا ، وما هي الا ثوان حتى كانت طائرة « اف ١٥ » الاميركية تهبط على دولاب واحد وترتطم بالمدرج بسرعة وقوة .

وعندما استخدم الطيار مكابح طائرته انفجر دولاب الطائرة « اف ١٥ » وخرجت عن المدرج وكادت تصيب ملجأ طائرة « مارشال » طراز « تورنادو » ، ولكنها لم تلبث أن دارت حول نفسها وتحطم هيكلها على بعد بضعة أقدام منه .

لم تحترق الطائرة ، وأسرع « كارل » نحوها لتقديم المساعدة لطيارها

ولحسن الحظ لم يصب الطيار بأذى وخرج من طائرته وعلى وجهه ابتسامة فيما كان يرفع خوذته عن رأسه .

مرحبا يا رائد « ديك جيلكرايست » أنا « بيت بورغ » هذا الطائر لن يستطيع الطيران لفترة ما ، أريد العودة الى ذلك المكان حيث العمل . فهل أستطيع أن أشق طريقي الى قاعدة « أوبس بيت بورغ » ؟ فهز « كارل » رأسه بالايجاب .

« ماذا تصنعون أيها الفتيان هنا ؟ » .

« حتى الآن في المقاومة الجوية بطائرات تورنادو » قال « كارل » .

« هذا عظيم واظبوا عليها . اننا نقوم بعمل جيد في « السماء » ولكن هناك العديد من طائرات « الميغ » والامر أشبه ما يكون بوضع الرأس في خلية نحل . لقد أسقطت ثلاث طائرات وان هذا معدل حسن . ولكن هناك الكثير من هذه الطائرات وهذا يقتضي ان تتولى جهة ما منع هذه الطائرات من الصعود الى الجو ، وأحسب ان هذه الجهة هي أنتم أيها الفتيان والقوات الجوية الملكية بطلعاتها المنخفضة الارتفاع » .

وكان كلاهما تواقا لمقايضة خبراته المستفادة حول الساعات الاولى من المعركة مع الآخر . وبينما كانا يستقلان « كراش تندر »(١) الى مقر عمليات الجناح ، قص « كارل » كيفية هجومه على موقع « زيربست » .

ثم جاء دور « جيل كرايست » فقال : **« كنت أقود القطاع الثاني خارج « بيت بورغ » وكانت المعلومات التي أعطيت لنا من القيادة الارضية ، تفيد بأن منطقة الحشود تقع في الشمال وكانت هذه الرسالة السريعة المشوشة آخر شيء سمعته بجهازي اللاسلكي . كان التشويش بسيطا ، واذا ما استطعت أن تحصل على قناة للاتصال غير مشغولة ، فانها تكون مشوشة بأصوات**

---

(١) « كراش تندر » : عربة صغيرة مخصصة لنقل الطيارين الى طائراتهم .

مختلفة ، وعندها استعضنا عن ذلك باستعمال الاشارات اليدوية . صدقني يا أخي لم نكن بحاجة الى التوجيه الارضي ، فقد كانت السماء فوقنا مليئة بطائرات « الميغ » و « اف ٤ واف ١٥ » ، وسقطت ثلاث من طائراتي ، هكذا « مشيرا بيده الى كيفية سقوطها » . وبعد قليل ارتطم شيء ما بطائرتي بعنف ، كانت طلقة قد أصابتها بزاوية عمودية عليها ، وبدرت مني لمسة لزر مدفعي فاستدار سريعا ، ولو كنت في مدرسة المدفعية لكانوا فخورين بي .

وأضاف بطريقة حزينة **« لكن على ما يظهر كان الامر شيئا آخر ، وفيما كانت طائرة تهبط شاهدت العلامات على ذيلها ، وكانت « اف ١٦ » بلجيكية وخلفها مباشرة « ميغ ٢٣ » ، وأعتقد أن « الميغ » هي التي أطلقت النار علي . على كل حال لقد تعطل محرك طيارتي الايسر ، ودمرت أجهزة المراقبة فيها أيضا ، وهذا ما أتى بي الى هنا على هذا النحو من الهبوط اللعين » .**

وابتسم « كارل » ابتسامة مشجعة ، فيما كان « جيل كرايست » يتابع حديثه **« وشعرت بالانزعاج للقيام بعمل « ايفان » ومن أجله ، مع أنه كانت لدي متاعبي الخاصة ، وبالتأكيد كنت آمل أن يكون الطيار البلجيكي قد خرج سالما ، ولكن تبا لما حدث ، حيث يجب أن تتجنب طائرات « اف ١٦ » في هذا الجانب حزام الصواريخ من نوع « سام » . واذا ما استمر الامر على هذا المنوال ، ومع عدم وجود اللاسلكي أيضا ، فلا خيار الا في البقاء بالجو أو بالنزول الى الارض » .**

لقد حان الوقت الذي كان فيه على « فون مارشال » ان يلتحق بسربه لاعطاء أو تلقي التعليمات فافترقا ، بعد أن تمنى كل منهما للآخر حظا جيدا ، ولما كانت حالة استنفار الدفاعات عن المطار في وضع هادىء ، ترك « جيل كرايست » في غرفة التدريب الارضي التابعة للجناح . وكانت الجدران مغطاة بأشكال تمييز الطائرات خصوصا من طراز « اف ١٦ » ، وذلك من أجل التعرف عليها ، وهذا سيكون مفيدا جدا له .

وفي تلك الليلة نفسها انتشرت اثنتا عشرة مفرزة تابعة لبطارية الدفاع الجوي « إل ١٤٦ » من المدفعية الملكية « رابير » على خط ذري « هوتنبرغ » وفي السهل الممتد الى الشرق منها . وكانت مهمتها تتألف من الدفاع عن قيادة وأركان الجيش البريطاني المتمركزة في قرية « نايدر انبيكين » ، وكانت كل مفرزة مزودة بقاذف مؤلف من أربعة صواريخ مضادة من نوع « رابير » طويلة ورفيعة وكل منها مزود بموجه آلي ومطلي باللون الاخضر . وتضم كل مفرزة قائدا برتبة رقيب وأربعة عناصر مدفعية .

لم تكن هناك دلائل على وجود معركة فلا دخان ولا ضجيج ، باستثناء صوت ارغن منخفض خفيف قادم من الشمال الشرقي . وأجال الرقيب « ادوارد » ببصره بين الصواريخ الاربعة المحمولة على قوإذفها وعلى أجهزة التوجيه الموهة . فيما كان المدفعي « هنري » منحنيا على جهاز التوجيه يدفن وجهه وراء واقيته . وامتد به النظر الى حقل الهليون ، على مقربة منه ، ووجد نفسه يقول « ما أحرى أن يسمى هذا الفصل بفصل الضباب اللطيف .. » .

« الى السلاح » وعندما وصل هذا الانذار الى مسمع « هنري » ، اندفع نحو جهاز التوجيه وغطس في شباك التمويه ، ورأى طائرة تقترب ببطء شديد ، على ارتفاع منخفض جدا . وأدرك أنه لا بد من خطأ هناك . « انها ليست طائرة معادية » انها طائرة « تورنادو » . انها احدى طائراتنا تتجه خطأ نحو الغرب ووراءها خط من الدخان الابيض ، ويبدو أنها تواجه صعوبات ما وكال « ادوارد » جملة من الشتائم الى الطيار لكونه خرج عن مجاله الجوي الامين قريبا جدا من مقر قيادة الاركان .

وفي اللحظة التي اجتازت فيها طائرة « التورنادو » ذروة « هوتنبرغ » أحس فجأة بالقلق يستولي على نفسه ، وبسرعة مدهشة ، أصدر أمره الشخصي الى بقية عناصر المفرزة بالاستعداد ، وظهر من اتجاه الافق الشرقي

أربع نقاط صامتة تقترب بسرعة فائقة على ارتفاع منخفض جدا . **((شوهدت الاهداف المعادية))** . صرخ المسؤول عن جهاز التوجيه ، وظهر في المدى البعيد وميضان كالبرق خرجا من الارض فاختفت الطائرة السوفييتية اليسارية ، في كرة من اللهيب الاصفر ، فيما أخطأ الصاروخ الثاني هدفه ، وشق طريقه في الفضاء بلا فائدة .

((الى الملاجىء)) صرخ هنري .

وهنا أصدر أدوارد أمره الى هنري بأن يوجه الرمي على الطائـرة الوسطى من الطائرات الثلاث الباقية ، وعلى الفور انطلق صاروخ من على قاعدته ، وانعطف على مداره برشاقة باتجاه هدفه ، وراقبت المفرزة الصاروخ من طراز « فيتر » باعجاب محفوف بالحذر والخوف وهو يبدد نفســه على الطائرة على شكل كتلة متألقة من أسهم الالعاب النارية .

وفي الوقت نفسه انفجر الجانب الايمن من الصاروخ « فيتر » في الطائرة فسقطت سقوطا مغزليا وغطى الزيت المحترق جزءا من حقل الهليون .

وقبل أن يتمكن ادوارد من التصرف على نحو ما ، انطلق صاروخ « رابير » آخر باتجاه الطائرة الروسية التي تمكنت من النجاة بزيادة سرعتها وبانحرافها نحو اليسار بحدة للتخلص من الصاروخ ، وبدت كوحش كاسر وهي تبث الذعر في نفوس أفراد المفرزة . وتابعت اندفاعها على ارتفاع منخفض فوق خط الذرى . وهكذا أخطأ صاروخهم الثاني هدفه وضاع سدى . واستمرت العملية أكثر من دقيقتين بقليل . وبعد مضي ربع ساعة تساءل أدوارد أيضا **((لماذا لم تهاجم تلك الطائرات الاربع مباشرة مركز القيادة ؟))** ، في تلك اللحظة شاهد أربعة صواريخ من طراز « فيتر » تعبر سريعا من اتجاه الافق الشرقي لتحمي مركز القيادة . وهنا فهم السبب .

* * *

ان الرواية التالية المتعلقة بعملية الأسلحة الموجهة المضادة للدرع التي قامت بها مجموعة الحرس الايرلندي ، هي من وضع قائدها والناجي الوحيد منها الى « ر٠ج٠ كلينتوك » الذي بدوره ضمنها كتابه « الايرلنديون في المعركة : مع الحرس الايرلندي في ساكسونيا المنخفضة » لندن ١٩٨٦ :

« ٠٠ تشاهد حوالي ثلاثين دبابة ت ٧٢ وعلى الاقل ضعف هذا العدد من ناقلات الجنود ب م ب الى الغرب من الحاجز ، وهناك اصوات قوة كبيرة تلحق بها ، انتهى ٠ » ٠

هذا ما سمعه الرقيب « باترسون » من الهتاف الموجود تحت بدلته الخاصة بالوقاية من الاسلحة الكيميائية والذرية والبكترولوجية الملطخة بالوحل ٠ وحتى الآن ظل مستيقظا نيفاً وثمان وأربعين ساعة ، وان آخر مرة نام فيها نوما حقيقيا كان قبل ثلاث ليال في بيته القريب من المعسكر ٠

وبصمت كان قد صلى من أجل أن تكون زوجته وابنته الصغيرة قد عادتا بأمان الى انكلترا ٠ ثم انتزع تفكيره من هذه المخاوف التي لا تحصى الى التفكير بالموقف الحاضر والى الصواريخ الموجهة ضد الدرع من طراز « ميلان » ، التي يقود زمرتها التابعة لمجموعة الحرس الايرلندي الذين احتلوا مواقع القتال المخصصة لهم ، ومضوا يحفرونها طيلة اليومين الاخيرين ٠

٠٠ ولكن هذا الصباح بدأت الاعمال الهجومية السوفييتية ، التي لم يتوقعها أحد ٠ وظلوا في مواقعهم طيلة النهار عند تخوم قرية مهجورة ، بينما

كان الطيران السوفييتي يزمجر فوق رؤوسهم ، كما كان ضجيج الحرب يقترب شيئا فشيئا من جهة الشرق كأنــه هدير الرعد . لقد شاهدوا العناصر الناجية المذعورة من قوة التغطية وهي تنسحب بشكل يثير الخوف والشفقة . كانت عرباتهم المحملة بالجرحى ، وهي تسير متثاقلة على الطريق العام ، معرضة للقصف الجوي الدائم ، وشواهد من بقايا عربة مدرعــة لنقل الجنود ، كانت محملة بالرجال ، انفجرت على بعد مائة متر من على يمينهم وقد علقت بقايا حطامها على سور مقهى الماني اشتهر سابقا بنظافته .

ثم جاء دورهم بالقصف ، فقد اهتزت الارض واسودت السماء ، لمدة عشرين دقيقة ، عندما سقطت أطنان المتفجرات حول « باترسون » . وباصابة مباشرة سقط أخوه الشاب « سين » قتيلا ، وكذلك الجندي « نيفــين » . أما المركزان الاول والرابع فقد نجيــا من القصف . بينما جرح جنود المركز الثالث ولكنهم بقوا أحياء ، ولم يبق لديهم سوى ثلاثة صواريخ صالحــة للرمي فقط .

انه لم يصدق عينيه عندما شاهد الدبابات السوفييتية من خلال الغبار والدخان ، وهي تتقدم على أنساق وتقترب عبر حقول الذرة المخربة . تلك الحقول التي كانت تذكره بقوة في ظل شمس هذا الصباح بمزرعة « سليكو » أيام الطفولة . وبحقد مرير ، تابع مراقبة الدبابات بمنظاره ، محاولا التعرف على دبابة القيادة . فقد تعلم هو وزملاؤه كيفية التعرف عليها ، بأقل ما يمكن من الصعوبة من خلال طريقة تحركها . ووقعت عيناه عليها عندما مرت أمامه ، وأطلق عليها النار ، وهو يتمتم بالدعاء لاصابتها وبقي مركز تصالب منظــاره على الهدف بالرغم من قطرات العرق التي دخلت الى عينيه ، وتابع يعُــد ثمانية ، تسعة ، عشرة ، وينطلق وميض هائل حيث تتوقف الدبابة « ت ــ ٧٢ » ويتصاعد منها الدخان ، وتحول بنظره عنها ليرى دبابة اخرى مجاورة وهي تنفجر ، لقد أصابها المركز رقم أربعة أيضا باصابة مدمرة ، واستمرت الدقائق التالية كأنما هي النهاية .

ومن خلال الدخان والغبار الذي أخذ يزداد انتشاره كثافة أكثر فأكثر ، أوعز «**لقم ـ سدد ـ نار**» ثم «**ازحفوا على بطونكم الى موقع آخر**» وبأنفاس لاهثة تم التلقيم وفتح النار مرة أخرى ، وبعد عشر دقائق اختفى المركز رقم أربعة ، وأصيب الجندي « فلـين » ، الذي يقوم بوظيفة مساعد له بشظية ، فصلت خاصرته عن جذعه حتى كتفه .

ولم يبق لديهم سوى ثلاثة صواريخ فقط . ونظر « باترسون » المتهك من خلال منظاره ، فشاهد دبابة واقفة يتجه برجها نحوه ، فألقى بنفسه ، مع « فلين » خلف أحجار مستودع مهدم مهجور . ومن ثم شعر أن الدنيا قد انفجرت ولفها الظلام . وبعد ساعات وجد نفسه ، أنـه كان الانسان الوحيد ، الذي بقي على قيد الحياة من الزمرة الاولى ، من فصيلة الصواريخ المضادة للدبابات من طراز « ميلان » التابعة لفوج الحرس الايرلندي الأول .

* * *

أما التقرير التالي ، فهو حول بطارية مدفعية من طراز « م ١٠٧ » عيار ١٧٥ مليمتر مدافع ذاتية الحركة أثناء المعركة. وقد نشر ذلك التقرير في جريدة « ديلي ميل » بتاريخ ٨ آب ١٩٨٥ ، وقد اعتمد على معلومات معطاة الى مراسل تلك الجريدة من قبل أحد رماة بطارية المدفعية .

كانت مدافع البطارية الاولى الستة من العيار المتوسط ، التابعة للمدفعية الملكية البريطانية مموهة بشكل جيد ، وقد بدا أنها لم تكن تبالي بالطائرات السوفييتية التي كانت تطير فوقها محدثة أصواتا كالرعد ، لانها كانت معنية على ما يبدو بأهداف تقع الى الغرب منها أو أنها لم تكن في عداد أهدافها . كان السكون ، يخيم على مربض هذه البطارية بعد مرور تلك الطائرات فوقها في ذهابها وايابها ، سكون غريب يلفه الترقب ، ترقب بحدوث شيء ما ، لكن لا يعرف كنهه أحد .

وفي الصباح الباكر من ذلك اليوم انتشرت البطارية داخل وحول القرية المهجورة ، وطلب منها مركز الرصد القيام على الفور بالرمي بالاشتراك مع قوات التغطية . واستمر الرمي دون توقف بايقاع من ثلاث الى أربع قنابل بالدقيقة ، ولهذا أحس السيدين « ويلسون » وكأنه يعيش بالقرب من مدفعه منذ قرون ، في جو مملوء بغيوم الغبار والدخان ورائحة البارود القوية ، حتى انه أحس كأنه يزدرد تلك الرائحة .

ان جسمه الذي أصبح فاقد الحس لم يعد يقوم برد فعل طبيعي ، أو يتجاوب مع الانفجارات أو الضجيج . لقد أصبح منهكا جدا وكأنه آلي

الحركة ، ولم يسبق له أن شعر من قبل بمثل هذا التعب طيلة أيام حياته ، ولما يمض على الحرب سوى ثلاث ساعات فقط . ثم ساد صمت مروع ما كان ينقطع فقط الا بصوت متقطع صادر عن جهاز اللاسلكي الخاص .

ان الاشارات الصادرة والواردة عن جهاز اللاسلكي الذي يعمل بالبطارية لا بد أنها قد التقطت بواسطة احدى الراشدات السوفييتية وحددت مكان صدور تلك الاشارات وأعطتها الى مدفعيتها . وعلى بعد ست عشرة كيلو مترا من المربض والى الشرق ، كانت هناك بطارية صواريخ جاهزة للرمي وموجهة بدقة من قبل العدو ، وبأقل من دقيقتين تبدد الصمت على أثر انفجار شديد لتسعة أطنان من المتفجرات ألقيت على قرية « ويلسون » .

كان « ويلسون » وصديقه « ماكنزي » يركضان للبحث عن الذخيرة الباقية . الا أن « ماكنزي » لم يصلها قطعاً ، لأن القرية كانت تتفجر باللهيب والدخان والضجيج من حوله ، وتلا ذلك انفجار مرعب جدا وعصفت رياح ساخنة كانت تحمل معها ذوب المعادن المتطايرة والحطام من مختلف الاحجام . وكأنها سهم قذفت به الارض ، فاندفع « ويلسون » بغزيرة لا تقاوم من حب البقاء يتلمس طريقه ما بين قاطرات المدافع ، ثم تمدد على الارض ، مغلقا عينيه ، وقد أحس أنه قد حمى نفسه ضد لهيب جهنم لبعض الوقت .

وبعد وقت قليل تأكد أنه لم تعد هناك أية ضجة ، فلا مدافع تطلق نيرانها ولا قذائف تتفجر ، ثم عاد فسمع من جديد حشرجة حيوان يعوي بالقرب منه . رفع رأسه ببطء وهو يرتعد ، فرأى أن الصوت يصدر عما بقي من « ما كنزي » الذي انتزعت أحشاؤه من جراء شظية قذيفة بينما كان يصرخ من الالم وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة .

وأحس بالوحدة مع هذا الرعب المخيف . ثم تحول خوفه الى ذعر مصحوبة بعاطفة مؤثرة عندما رأى هذا المشهد الذي لا يحتمل .

وسمع صرير باب يفتح وكان الصوت الاول الذي أيقظه من وحدته يقول له « **اسرع يا رجل الى المدفع ، نحن نتحرك ، نحن لسنا مجبرين على البقاء حتى نتلقى الضربة القادمة** » وقد أحس بيدين تمسكان برسغه وتجرانه الى مدفع ذاتي الحركة ملطخ بالزيت ، حيث الدفء ، ومع هدير الناقلة تحركوا باتجاه الغرب الى موقع جديد . لتلقي مهمة أخرى .

* * *

أما الموضوع التالي فقد ظهر على صفحات المجلة الالمانية « شترن » خلال الاسبوع الثاني من شهر آب ، وقد اعتمد على تقرير أحد الناجين من احدى وحدات الدبابات من « بوند سوير » أثناء العمليات .

كان ضابط الصف « غانتر كلاوس » واقفا داخل برج دبابته من طراز « ليوبارد ٢ » يتناول فطوره . وجد هذا الطعام غير شهي ، اذ يتكون من قطعة من الخبز الاسمر عليها بعض الجبن ، ومن قطعة من لحم السجق ومن بيضة مسلوقة قد ناوله اياها رامي دبابته ، أعقبه فنجان من القهوة . وقد بذل جهداً ليحمل نفسه على الاكل .

وقبل نصف ساعة ، أي في الساعة السابعة صباحاً ، أعطى قائد سريته الامر أن يكونوا جاهزين للتحرك في الساعة الثامنة . مع البقاء خلال ذلك في وضع المراقبة . لقد كانوا على ارض مرتفعة الى الجنوب الشرقي من « ولفنتبل » . وكان كلاوس هو « الزوغفوهرر » قائدالفصيلة (أي قائد الثلاث دبابات) بالاضافة الى دبابته من طراز « ليوبارد » وكان تابعا للكتيبة السادسة عشر من فوج البانزر الثالث .

وقد أشارت المعلومات الى اجتياز فرقة آلية سوفياتية للحدود خلال الليل ، وانها تتحرك باتجاههم . في هذا الصباح وعند اول ضوء قامت طائرة هيلوكبتر بالاستطلاع ولكنها لم تؤكد هذه المعلومات ، وكل ما شاهده » كلاوس « كان عبارة عن مجموعات متراجعة من العربات الخفيفة البريطانية والالمانية . ولم يمر أحد بالقرب منهم ليسأل عما حوله من أخبار .

وكان اثنان من قادة دباباته يراقبان قطاع الرصد التابع لفصيلته . وكان عليه أن يأخذ مكان أحدهما بعد وقت قليل ، وبينما كان يرفع قدح قهوته ليرشف منه ، جاءه أمر صارم صادر عن الجهاز اللاسلكي عبر سماعته الرأسية :

((استعد للتحرك خلال عشر دقائق)) .

لقد استلم الامر ، وأبلغه بسرعة الى قادة دباباته الثلاث وأمر طاقم دبابته أن يستعد للعمل ، ولحسن الحظ كان لديه الوقت الكافي ليشرب قهوته ، فعشر دقائق هي فترة طويلة أثناء الحرب .

وبعد نصف ساعة كان الموقف مختلفا تماما ، فقد كان جميع عناصر سريته يتقدمون بنظام قتال عادي ، حيث كانت فصيلتان تتقدمان الى موقع تكتيكي متقدم حوالي كيلومتر نحو الامام ، وذلك تحت دعم وتغطية الفصيلتين الاخريين بالنار . وعندما بلغت الفصائل المتقدمة المواقع المحددة لها ، جاء دورها لتقوم بمساعدة الفصيلتين الاخريين على التقدم من جديد ، ولم يحدث اطلاق للنار عليه ، بينما كانت كل دبابة جاهزة لاطلاق النار حالما يطلب منها ذلك أثناء قيامها بالتقدم للموضع الجديد .

((يا غانزشنيل الى الامام)) ..

جاءه الامر صارما حاسما ، بجهاز اللاسلكي ، عندما كانت دباباته الاربع تتقدم بحذر باتجاه الذروة على بعد نصف كيلو متر الى الامام ، تسير بخطوط متعرجة من جانب الى آخر كما لو أنها تقوم باجراءات احتياطية من أجل أن لا تصبح هدفا قابلا للاصابة .

وفجأة شعر أن العالم كله مليء بأصوات قطارات سريعة تجتازه . وسمع طلقة من سلاح مضاد للدرع ، وبدوره أطلق أوعية الدخان الساترة على الفور وغيّر اتجاه سيره . وأعلم فصيلته ان تحذو حذوه ، وان تلتمس غطاء أو حماية في غابة صغيرة من الاشجار تقع في الامام والى اليسار . بدت السماء وقد

امتلأت بطائرات حوامة ضاربة (الحوامات م/د) ، وقد ظهرت عليها علامات غريبة لم يرها من قبل ، وكانت تطلق صواريخها من جوانبها .

وفجأة توقفت دبابة « الليوبارد » التي كانت تتبعه ، وتدفق الدخان منها بغزارة وقفز أحد سدنتها عنها ، بينما وصل سدين آخر الى برجها سرعان ماسقط نحو الخلف جثة هامدة . وفي تلك اللحظة فكر « كلاوس » بجملة كانت قد لقنت له والى رفاقه في « بانزر اوسبلد نغشيل » وقد كررت مرارا بشكل يلفت النظر « **ان الشيء العظيم في دبابة الليوبارد والتي يجعلها تتميز بنوع من التفوق على جميع الدبابات الحليفة الاخرى ، وحتى على احسن الدبابات السوفييتية ، هو خفة حركتها ، فهي تؤمن الحماية من خلال سرعتها** » .

« **أسرع** » صرخ في سائق دبابته بجهاز الاتصال الداخلي « **وراوغ لانقاذ حياتك** » .

ولكن قبل أن يتمكن من زيادة سرعته ، انزلقت الدبابة متوقفة عن أية حركة وبدأت تهتز ويصدر عنها صرير ارتجاج مفاجىء أخذ يهزها بعنف وقد حطم جانبيها .

حدق « كلاوس » بنظرة عاجلة حول البرج فبدا له مليئا بالدم ، وقد التصقت به قطع اللحم البشري فيما تنبعث منه رائحة شواء بشعة .

وتذكر « **سرعتها هي حمايتك** » آه فكر كلاوس « **أي سقط متاع** » وقفز الى الارض ، ثم بدأ يركض . وبعد لحظة فقط كانت جميع أجزاء الليوبارد متمزقة وتتطاير قطعا من المعدن الملتوي والمعدات والحطام البشري ، وما لايمكن وصفه من خليط الحروب .

* * *

ومثل هذه الرواية ، يبين مدى عنف الهجوم الصاعق الذي بدأ في صباح يوم الرابع من آب باكرا على القوات البرية في المنطقة الوسطى لقيادة الحلفاء في

أوروبا . وكذلك ضراوة الهجوم الجوي ، فلقد كان عنيفا جدا بحيث أبقى الذين استطاعوا تحمله أن يحتفظوا باحساس عميق بالصدمة . لقد كان تأثيره مذهلا . فبعض القوات الارضية التي نجت خلال اليوم الاول من الأذى، أصيبت في المساء بنوع من الذهول نتيجة الضربات العنيفة وافقدتهم حس المكان والزمان كما لو انهم ناجون من حادث سير مروع .

فقليل جدا من الرجال الذين خاضوا المعركة الحديثة هذه التي تشبه ثورة البركان ، اتيح لهم ان يتعرضوا الى أي شيء مشابه من قبل ولو من بعيد. ولقد أحدث الصراخ المدوي والانفجارات الوحشية والسنة اللهيب وسحب الدخان الاسود الكثيف التي تلف الكون بالفوضى والذهول ، وكذلك الروائح الكريهة للدم والانفجارات الشديدة ، وأكثر من هذا كله أحدثت الاصوات المذكورة كلها مجتمعة ذعرا شديدا ودافعا للفرار لا يمكن مقاومته . وقد بدا العدو لرجال الوحدات الامامية كما لو انه يوجد في كل مكان ، وان طائراته كانت تملأ الفضاء وهي تمزق الارض بنيران مدافعها .

وكانت دباباته التي تتقدم على شكل حشود سوداء تقذف الحمم والرعود، وكانت عربات قتال مشاتهم تشق طريقها بين المواقع الامامية لدفاع الحلفاء كأنها اسراب التنين تنفث اللهب . وقد بدت وكأن لاشيء يستطيع ان يوقف موجاتها المتقدمة التي لاتنقطع . وان لا امل ولا رجاء ، ولا ملاذ في أي مكان .. وساد الهلع هنا وهناك . فبعض الاحتياطيين المدعوون حديثا للخدمة ، وحتى لمن هم في الخدمة الطويلة النظامية ممن امتهنوا الجيش . قد وجد ان هذا التعرض المفاجيء لهذا النوع من الضغط الهائل أكثر مما يستطيع تحمله . وبين الفينة والاخرى وتحت تأثير العدوى السريعة من القلق والترقب والخوف، فان بعض وحدات منظمة حلف الاطلسي « NATO » تلاشت ببساطة وتبددت شذرا ، لكن ليس في كل الاحوال .

فالرجال يتكيفون بسرعة وحتى في الشروط المخيفة المشابهة لظروف المعركة ، وخصوصا حيث يوجد عمل يجب انجازه ويعرفون كيف يؤدونه

وبتوفر لديهم من اجل انجازه الادوات المناسبة ، وخاصة عندما يعملون برفقة اصدقائهم تحت قيادة جديرة بهم . فاليوم الاول كان كابوسا مخيفا ، ولكن كان بعيدا عن إن يكون كارثة كليــة .

ولكن لماذا حدث ذلك ؟ وما الذي سبَّب ذلك ؟ وكيف أمكن الوصول في مجرى هذه الإحداث الى هذا الحد ؟. وماذا كان التالي ؟

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني

العالم في عام ١٩٨٤

في عشية يوم تولي رئيس الولايات المتحدة الاميركية الاربعين منصب رئيس الجمهورية في مطلع شهر كانون الثاني ١٩٨٥ ، كان العالم يجتاز مرحلة الانتقال من اوضاع النزاعات التقليدية القائمة على التنافس من أجل السلطة عسكريا وسياسيا الى اساليب أحدث ، بما في ذلك حرب العصابات في المدن « الثورة الصناعية في بلدان العالم الثالث » . ان هذا يعتبر حسابا خاطئا في بعض المواضيع ، فالصراع بين الشمال الغني والجنوب الفقير أخذ يطغى على مثيله ما بين الشرق والغرب .

كانت هناك مائة وثمانون حكومة في العالم ، وكما كان الامر عام ١٩٧٧ ، اثناء حفلة تنصيب الرئيس الامريكي كارتر . كان من بينها فقط حوالي خمس وثلاثون يمكن ان تتوقع اجراء تغيير على حكامها السياسيين عن طريق الانتخابات التشريعية ، وان الاسلوب الغالب في تغيير الحكومات كان يجري عن طريق الانقلاب او عن طريق التعاقب الدكتاتوري .

الا ان تكرار الانقلابات العسكرية كان يزداد باضطراد وغالبا ما تكون انقلابات دموية . وكان لدى البيروقراطيين في بعض البلدان الشيوعية ، أسبابهم للخشية من احتمال امتداد هذه الانقلابات اليهم . ومن اكثر عناصر هذه الفئة

تخوفا أناس من الاتحاد السوفييتي ، هذا البلد الذي ظل لعدة عقود زمنية يغير حكومته عادة ليس عن طريق الانقلاب العنيف ولكن بتدبير دكتاتوري لطيف . وبالمقارنة كانت الصين تركز على أن تصبح « يابان جديدة » من خلال توسعها الاقتصادي . ويجري الحديث الآن عن محور للرخاء والازدهار الاقتصادي مابين الصين واليابان .

وكان رئيس الولايات المتحدة الاميركية المنتخب ، الحاكم « تومبسون » وهو من الحزب الجمهوري ، ومن ولايات الجنوب « ولهذا فهو يعتبر محافظا » ولم يكن معروفا تماما على المستوى الوطني قبل سنتين من انتخابه في عام ١٩٨٤ . تماما كما هو الامر بالنسبة لسلفه الرئيس كارتر . اذ كان الامر مشابها قبل انتخابه عام ١٩٧٦ بسنتين .

كان السيد « تومبسون » قد قاد حملة انتخابية بفعالية ضد منافسه « الليبرالي غير المتشدد » مرشح الحزب الديمقراطي نائب الرئيس كارتر السيد « موندل » . وعلى أي حال ، كان الرئيس المنتخب ، قلقاً بسبب معرفته المحدودة نسبيا بالشؤون الدولية . لذا استدعى الى منزله في ولاية كارولينا الجنوبية بعد الاسبوع الاول من انتخابه ، اثنين من المستشارين المهتمين في هذا المجال. وكان أحد المستشارين مديرا للمجمع العلمي لاتحاد الجامعات الجديدة « الثينك ــ تانك » ، أما الثاني فكان السكرتير السابق للولاية .

وقد طلب من الاثنين ان يضعا خلاصة عن وجهات نظرهم حول التحديات الاساسية التي يمكن ان تواجهها ادارة « تومبسون » ــ كما ستلقى على عاتقه ــ خلال السنوات ١٩٨٥ ــ ١٩٩٣ ، ومقارنتها بفترة رئاسة الرئيس كارتر اعتبارا من يوم تنصيبه عام ١٩٧٧ . وقد تركز تقرير « ثينك تانك » حول « الجنوب الفقير » في العالم . اما تقرير السكرتير السابق فقد تركز حول الاتحاد السوفييتي والشمال الغني من العالم .

وخلال الاسبوع الذي تلا الانتخابات في شهر تشرين الثاني ١٩٨٤ ، أي قبل أحد عشر اسبوعا من يوم الاحتفال بتنصيبه رئيسا للجمهورية في شهر كانون الثاني ١٩٨٥ تلقى الرئيس « تومبسون » هذين التقريرين .

كان تقرير « الثينك ــ تانك » قد أثار استياءه ، وقال لزوجته انه بدا وكأنه من قبل عقل الكتروني له قلب ودم .

* * *

تقرير ((الثينك ـ تانك))
حـول
الجنوب الفقير ، في تشرين الثاني ١٩٨٤

في اليوم الذي جرى فيه الاحتفال بتنضيب الرئيس كارتر في شهر كانون الثاني ١٩٧٧ كرئيس للولايات المتحدة الامريكية بلغ عدد سكان العالم اربعة بلايين من البشر ، وان ثلثي هـذا العدد « أي ٢ر٧ بليون » يعيش في بلدان يبلغ فيها متوسط الدخل الفردي أقل من ٣٠٠ دولار سنويا . بينما ثلث هذا العدد فقط يعيش في بلدان يبلغ متوسط دخل الفرد فيها أكثر من ٣٠٠٠ دولار ، وحوالي ٥٥٪ أي « ١ر٥ بليون نسمة » من (الـ ٢ر٧) بليون نسمة من الذين يعيشون في بلدان فقيرة جدا هم في سن دون الحادية والعشرين سنة.

وهذا يعني في الحقيقة ان ذلك هو السبب الرئيسي الذي جعل هـذه البلدان فقيرة . ففي عام ١٩٧٧ كان العالم معظمه من الاطفال . وهذا يعني انه عالم غير منتج ، فاليافعون منهم انتاجهم قليل جدا ، ومن الممكن ان تصدر عنهم حوادث الشغب والاخلال بالامن .

ان التغيير الرئيسي الذي يكون قد تم في يوم الاحتفال بتنصيبكم كرئيس لجمهورية الولايات المتحدة الاميركية في عام ١٩٨٥ انه سيكون لهؤلاء (الـ ١ر٥) مليار نسمة ثماني سنوات زيادة في اعمارهم عما كانوا عليه عام١٩٧٧ ، والتغيير الرئيسي أيضا في يوم انتهاء مدة رئاستكم في عام ١٩٩٣ سيكون هناك ستة عشر عاما زيادة في أعمارهم ، وهذا هو التغيير الاكبر .

لما كان (الـ ١ر٥) بليون نسمة قد بلغ سن التكاثر ، فان سكان العالم

سيزدادون قليلا بشكل حتمي ، وسيصل الى حوالي « ٤ر٥ بليون نسمة » ومع ذلك ، فان نسبة المواليد استمرت ، ولحسن الحظ ، في الانخفاض ، بالمعدل الذي كان عليه ، في مطلع عام ١٩٧٠ .

ان البلدان الفقيرة في الفترة الواقعة مابين الاعوام ١٩٨٥ ـ ١٩٩٣ لم تعد بلدانا للاطفال واليافعين ، وانما أصبحت بلدانا لمتزوجين ، لم تستغل طاقاتهم تماما في مجموعات اعمار ، تعتبر الاكثر انتاجا ، والاكثر فعالية من الناحية العسكرية ، سن العشرينات واوائل الثلاثينات .

ان الغالبية العظمى من هذه الزيادة في اليد العاملة التي لاسابقة لها والمؤلفة من ٥ر١ بليونا من البشر ، التي ستضاف الى القوى العاملة في العالم منذ عام ١٩٧٧ ، هي ليست من العرق الابيض وهي أيضا أقل في تعليمها من العمال الاتراك مثلا ، وكذلك العمال المتواجدون في جمهورية المانيا الاتحادية عام ١٩٧٧ مثلا ، حيث ان المستوى المتوسط لاجورهم ، يصل الى حوالي خمسة آلاف دولار في العام . واذا ماوجدت البنية التقنية الملائمة ، فانه لايوجد سبب ما ، يحول دون حصول هذه الزيادة البشرية ، على اجور مشابهة لنفس المستوى ، وبذلك فان « الـ ٥ر١ » بليونا من العمال الشباب ، ستحقق زيادة مفاجئة جدا ، وسريعة جدا ، في الانتاج القومي الخام العالمي الحقيقي ، والذي لم يعرفه العالم من قبل . فالمأساة هي اذن في عدم توفر البنية التقنية الضرورية في كثير من الاماكن . ويمكن تقسيم الجنوب الفقير من هذا العالم الى اربع مجموعات .

١ ـ قليل من البلدان ، الذي وصل فيها الانتاج القومي الخام الحقيقي ، الى زيادة سنوية تتراوح بين ٧ ـ ١٢٪ كل عام ، واستطاعت المحافظة على التماسك الاجتماعي بنفس الوقت . وباستثناء الجمهورية الصينية الشعبية ، فان معظم هذه البلدان ، يستمر في تطبيق نظام الاقتصاد الحر في العرض والطلب : فمثلا البرازيل في اميركا الجنوبية وسنغافورة ، وماليزيا ، والفلبين ، في آسيا ، ومعظم هذه البلدان يقع في شرق آسيا ، قد حقق نجاحات اقتصادية ملحوظة في النمو الاقتصادي المتميز ، الذي تتصف به الصين منذ

وفاة الرئيس « ماوتسي تونغ » وبشكل اكثر من تلاقي المعجزتين الاقتصاديتين، الصينية واليابانية « انظر التقرير المرفق لسكرتير الدولة السابق » فالغالبيـة العظمى من هذه البلاد الآسيوية المنطلقة ترغب في البقاء على الحياد ، في الصراع مابين القوى العظمى وتستمر في استغلال ثمار نموها . كما كان الامر بالنسبة للولايات المتحدة الاميركية في الفترة ما بين الاعوام ١٩١٤ ـ ١٩١٦ و ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ .

٢ ـ هناك عدد معين من البلدان اليمينية غير المستقرة مثل المكسيك ، والارجنتين في اميركا الجنوبيـة ، ودول اكثر غنى كاتحـاد جنوب افريقيـا السابق . ودول نصف رأسمالية كالاتحاد الهندي المنحل .. هذه البلـدان تتبع نظاما اقتصاديا حرا ، وقد احرزت بصورة عامة ، معدلات نمو اقتصادي عالية خلال الفترة ١٩٧٧ ـ ١٩٨٤ ، الا انها كانت ولاتزال عاجزة عن معـالجة المشاكل الاجتماعية الخاصة التي واجهت الطبقة العاملة في المجال الاجتماعـي والناتجة عن مشاكل البروليتاريا ، وتحضير القسم الاعظم من اليد العاملة .

ولهذا فان اعمال العصابات ، والسطو ، والاعتداء ، اخذت تعبث بأرواح الناس ، وخاصة في المدن المكتظة بالسكان ، وانتشرت الرشوة والمحسوبية لدى الموظفين ، وكذلك لدى سلطات الشرطة ، واحيانا تكون حكومات هذه البلدان، في ايدي دكتاتوريات تخضع للرجال الاغنيـاء المكروهين ، ممن بنـوا ثروتهم بطريق الاستيلاء على الاموال العامة ، فهم وزبائنهم من السماسرة والمحسوبين على السلطـة .

وبعض هذه البلدان يعلن عن صداقته للولايات المتحدة الاميركية ، مع ان هذه الاخيرة لاترحب دوما بأن يكون لها ويحسب عليها مثل هذه الدول الحليفة.

٣ ـ مجموعة البلدان اليسارية غير المستقرة ، مثل مصر ومعظم البلـدان الافريقية الاخرى ، من بينها زمبابوي وبنغلاديش والدول الفقيرة جـدا ، التي كانت تابعة للاتحاد الهندي المنحل ، وكذلك الى حد ما ، الباكستان . ففي

هذه البلدان يجري تغيير الحكومات غالبا عن طريق الانقلابات العسكرية ولـذا فان هذه « الطبقة الجديدة » من التكنوقراطيين القائمين على السلطة ، تعيش في جو دائم من الخوف من هذه الانقلابات .

٤ ـ البلدان الشيوعية « التي تتبع نظام موسكو » والمتبقية في الجنوب الفقير من هـذا العالم تقع الآن في البحر الكاريبي ، وتتزعمها جامايكا وكوبا . ولكن بعضا من هذه البلدان « اليسار غير المستقر » والتي من اهمها جميعا مصر تحاول كما يبدو التقرب في الوقت الحاضر من موسكـو ، أما البلـدان الشيوعية الصغيرة سابقا ، في شرق آسيا مثل « الفييتنام وكوريا الشمالية » التي مازالت تسمي نفسها شيوعية ، كما يفعل رئيس الصين الشعبية « هوا » فانها تنخرط في الحقيقة في دائرة ازدهار الشرق الاسيوي في ظل التقارب الصيني ـ الياباني ، ومن الجدير بالذكر ان بعض الجمهوريات الاسيوية التابعة للاتحاد السوفييتي نفسها التي تظهر عليها بعض علامات الاستقرار أخذت فعلا تتجه نسبيا نحو استقلال اداري .

الا ان شعوب هذه الجمهوريات ستحصل على فوائـد اكثر فيما لو استطاعت اقامة علاقات اكثر استقلالية ، وان تسير في فلك التعاون الاقتصادي الصيني ـ الياباني وان تقلل من وصاية موسكو عليها ، تماما كما فعلت دول الاتحاد الهندي المنحل وكذلك دول اتحاد جنوب افريقيا السابق حين تحللت من روابطها مع دلهي وبريتوريا .

لقد أشار الدخل القومي الاجمالي الحقيقي لبلدان هذه المجموعات الاربع ، كما اشار نموها الاقتصادي منذ عام ١٩٧٧ الى ان حكومات البلدان المتقدمة علميا وتقنيا ، وكذلك بلدان **« اليمين غير المستقر »** هي التي جعلت شعوبها اكثر ازدهارا من الناحية الاقتصادية من الدول الاخرى خلال مسار السنوات ١٩٧٧ ـ ١٩٨٤ . بينما اخفقت « كليا » في تحقيق هذا الازدهار جميع بلدان **« اليسار غير المستقر »** « وجزئيا » بعض البلدان الشيوعية الحليفة لموسكو ، وانه من الافضل لجميع شعوب العالم ، اذا أمكن ، انتشال المزيد من البلدان

من صفوف « اليسار غير المستقر » الى أي من القوتين العظميين .

مع ذلك فان مصادر الاضطراب المحتمل الاربعة في ثلثي العالم الفقير في بداية رئاستكم مرتبط بمحاولات ممكنة يقوم بها اما « اليسار غير المستقر » او البلدان الشيوعية الحليفة لموسكو لاستلام او قلب السلطة في بلدان « اليمين غير المستقر » ونعتقد ان هـذه النقاط الاربع هي اكثر النقاط الساخنة في العالم وهي :

١ ـ **في الشرق الاوسط :** ان ابرام صلح مع اسرائيل بموجب تسوية « جنيف » خلال فترة رئاسة « كارتر » اتاحت للعرب حرية اكثر لنزاعاتهم الداخلية . وبما ان حكومة « اليسار غير المستقر » الجديدة في مصر ما زالت تذكر الاضطرابات التي نجمت عن الغلاء ، والتي استطاع مؤيدوها قلب الرئيس السابق ، فان هناك ما يغري مصر بالتوجه نحو بترول المملكة العربية السعودية وبترول الخليج ، ويمكن ان يتم ذلك بطريقة التخريب والاضطرابات داخل هذه البلدان . ثم يلي ذلك الاعلان عن جمهورية عربية متحدة جديدة غنية جدا والتي تضم العربية السعودية والكويت ، وان هذه الجمهورية ستشارك في وضع خط جديد متصلب في منظمة الدول المصدرة للنفط . وكانت مصر ولا تزال تحاول استدراج الاتحاد السوفييتي للحصول على دعمه بهدف التشجيع على قيام انقلاب في العربية السعودية ، وفي امارات الخليج . لكن مثل هـذا المسعى قد رفض وانه لمن الممكن تماما ان يحظى اي انقلاب يستهدف اقامة جمهورية عربية متحدة جديدة ، بتأييد شعبي واسع وأكيد في اوساط شباب الخليج ، لان كثيرين منهم يرون ان مشايخهم فاسدون ومنحطون ومبـذرون على غرار ما كان يقوم به السلاطين العثمانيون قديما . فاذا ما اعلن عن قيـام جمهورية عربية متحدة جديدة من هذا النوع فان بعض الناس سيقول ان التهديد الذي ستشكله مثل هذه الجمهورية العربية المتحدة على امداد البترول سيبرر بحد ذاته تدخل الولايات المتحدة الاميركية عسكريا في المنطقة .

وسوف لن نكون من المؤيدين لاجراء من هذا القبيل . لكن الخيار ما بين

الحرب او السلام وحتى الحرب الذرية يمكن ان لا يكون مرتبطا بالاميركيين وحدهم . ومن المحتمل ان الدولة اليمينية المستقرة الوحيدة في المنطقة « المزدهرة »(١) ونعني بذلك ايران الشاه قد لا تقف مكتوفة الايدي . ومن المحتمل ان تكون لايران قدرة نووية تقوم على التكنولوجيا الفرنسية على الرغم من انها لم تجر أية تجربة بعد .

٢ ـ ان البلدان الشيوعية في منطقة بحر الكاريبي (التي تتزعمها جامايكا بدلا من كوبا) والحكومات غير المستقرة في اميركا الوسطى ، يمكنها ان تقوم بعمل انقلاب عسكري في المكسيك ، اذ ان رئيسها الذي يتصف بالحيوية والنشاط يستحق دعم الولايات المتحدة الاميركية .

٣ ـ ان القوات الافريقية السوداء من « زمبابوي وناميبيا » ، وهي بلدان يسارية غير مستقرة ، معززة بمتطوعين من كوبا وجامايكا وربما أيضا من الاتحاد السوفييتي الذين انزلوا في انغولا وموزامبيق ، هذه القوات قد تهاجم تلك الدول التي كانت في اتحاد جنوب افريقيا السابق والتي تشكلت فيها حكومات يمينية ، اذ ان بعضها يعتبر احيانا من عداد الحكومات اليمينية غير المستقرة . وان أغنى هذه الدول بالطبع هي الاوطان التي يسكنها قبائل البيض في مقاطعة الكاب الجنوبية وناتال الشرقية وكروغرلاند « بريتوريا ـ جوهانسبورغ » . الا ان رخاء حقيقيا امكن احرازه في الدول السوداء التي كانت أعضاء في اتحاد جنوب افريقيا السابق ، والتي أقامت علاقات اقتصادية ناجحة مع مناطق البيض الثلاث ، **« وكانت تسمى أحيانا علاقات العم توم »** . فاذا وجب القيام بغزو فعلي على هذه المنطقة من قبل الشمال فان ادارتكم ستصطدم بعقبات من نوعين :

آ ـ عقبة اقتصادية : لان نموا ينتشر من المناطق الديناميكية التي كانت قبلا تابعة لجنوب افريقيا يبدو أنها الامل الوحيد بالنسبة لنمو اقتصادي غير قائم على البترول في هذه المنطقة من هذا القرن .

---

(١) لم يعد هذا الكلام واردا بعد موت الشاه واستلام الخميني للسلطة في ايران . (المترجم)

ب ـ عقبات عسكرية ومعنوية : لان القبائل البيضاء في جنوب افريقيا التي اتفقت بموجب معاهدة بريتوريا التي عقدت عام ١٩٧٢ على انه لن يكون لها ولا للقبائل السوداء في جنوب افريقيا سابقا قوات عسكرية ذات أهمية ، وأنه سيتم الاعتماد على قوات الامم المتحدة المتمركزة على حدودهم الشمالية ، من المؤسف أنها مشكلة من قوات مكسيكية وبولونية وهندية ، وربما هناك بعض الآمال حول تدخل مسلح من قبل الولايات المتحدة الاميركية .

٤ ـ وقد تتولى الاحزاب المتخاصمة والدول فيما يسمى بالاتحاد الهندي السابق كل على انفراد ، التقرب من الاتحاد السوفييتي والصين . وقد تقوم حرب أهلية للمرة الثانية في كل المنطقة التي تضم الهند والباكستان وبنغلاديش .

الا أن التهديد الاعظم للسلام يمكن أن يأتي من المصاعب التي قد يواجهها الاتحادالسوفييتي والدول الدائرة في فلكه . وقد ورد هذا في « تقرير سكرتير الدولة السابق حول الشمال الغني » .

وتلقى الرئيس المنتخب « **تومبسون** » تقرير « **الثينك ـ تانك** » في نفس الوقت الذي قدم اليه تقرير سكرتير الدولة السابق والذي يعالج موضوعات محببة اليه .

تقرير سكرتير الدولة السابق
حول
الشمال الغني ، تشرين الثاني ١٩٨٤

« ان مظاهر عدم الاستقرار الرئيسي في نصف الكرة الشمالي الغني في الفترة الواقعة ما بين ١٩٧٧ ــ ١٩٨٤ ، قامت في البلدان والكتل التقليدية التي أخفقت في التكيف بالوقت المناسب مع الاسس الجديدة للبقاء ، وقد اظهر الاتحاد السوفييتي قدرة اقل على التكيف في عالم متغير ، ولهذا فان موسكو الآن هي مشغولة بالازمات التي تملأ أرجاءها ، غربا وشرقا وجنوبا .

ولاسباب مختلفة فان بولونيا ويوغوسلافيا هما البلدان اللذان يعتبران أكثر المناطق خطورة في الغرب . فان بولونيا قد انحرفت بطريقة ذات مغزى عن معايير المجتمع الشيوعي ، فصادراتها الى الاتحاد السوفييتي بموجب قوانين منظمة « الكوميكون » تؤثر في مستوى المعيشة ، بينما تحول العقيدة السياسية دون ادخال النظام الاقتصادي الحر في الصناعات البولونية . ويفضل العمال البولونيون العمل في مؤسسات متعددة الجنسيات عندما تقوم بالعمل في بلادهم على العمل لدى الدولة البولونية .

ومع أن الدولة البولونية تعتبر المستخدم الاكبر والاقوى فانها المقوتة أكثر ، وحيثما تتجه بولونيا غدا فمن المحتمل أن تلحق بها في اليوم التالي كل من تشيكوسلوفاكيا وهنغاريا .

أما المانيا الشرقية فمن المؤكد أنها ستقوم بالبحث عن لعب دور سياسي أكثر أهمية يتناسب مع تفوقها كقوة اقتصادية أولى في أوروبا

الشرقية . فألمانيا الشرقية تتميز اليوم بدخل قومي خام لكل فرد يصل الى ٤٠٠٠ دولار سنويا أي أكثر بمرتين من مثيله في الجمهوريات الاوروبية من الاتحاد السوفييتي . أما المانيا الغربية فقد بلغ مقدار دخل الفرد القومي الخام الى ١١٠٠٠ دولار في العام . والالمان الشرقيون يعرفون جيدا أنهم يستطيعون بلوغ هذا المستوى اذا ما استطاعوا التخلص من نير الاتحاد السوفييتي .

ان المشاركة الناجحة للشيوعيين الايطاليين في الحكومة اعتبارا من عام ١٩٨٢ ولحكومة الجبهة الشعبية في فرنسا قد أدى الى اعاقة التقدم نحو الوحدة الاوروبية ، كما أن ذلك قد أضعف منظمة حلف الاطلسي .

ولكن التجربة الايطالية خلقت مخاطر غير متوقعة للاتحاد السوفييتي ، لانها أظهرت من خلال الممارسة نجاح الطرق الاخرى للاشتراكية ، وبذلك شجعت بولونيا على اقتفاء أثرها .

ولعل هذا نموذجا يحتمل تقليده أكثر من ذلك النظام الجديد الهزيل في يوغوسلافيا فيما بعد « تيتو » . ذلك ان النظام الذي لم يستطع ان يقاوم انشاء خلايا موالية للاتحاد السوفييتي في صربيا ، لكن يوغوسلافيا تعتبر نقطة خطرة أخرى محتملة ، لانها بالضبط ضعيفة جدا . فاذا ما وقعت حركات تمردية في بولونيا وفي المانيا الشرقية ، فانني لا أعتقد بأن الاتحاد السوفييتي سيكون تواقا لارسال قواته للقضاء عليها ، ولكنه يستطيع تماما أن يتدبر الامر بأن تقوم الخلايا الشيوعية الموالية له في صربيا بدعوته من أجل القضاء على ما يدعى بثورة مضادة رأسمالية في « سلوفيني » و « كرواتيا » .

وان تدخلا من هذا القبيل سيكون أقل خطرا وأقل تكلفة بالنسبة للاتحاد السوفييتي وسيوظف للدلالة على أن الجيش الاحمر لا يزال قويا وقادرا على التحرك بسرعة وبشكل مثير عندما يلزم الامر ذلك ، أمام أعين

البولونيين وغيرهم . ولذلك فان الاخطر من ذلك أن تبقى سياسة منظمة حلف الاطلسي مبهمة وغير واضحة تجاه يوغوسلافيا . ففي الظروف الراهنة يعتبر الروس على ما يبدو أنهم اذا ما برهنوا على قوتهم وبأسهم في بولونيا ، فان تدخلهم هذا قد يجر الى خطر يؤدي بدوره الى ردود فعل من الجانب الغربي ((**ويحتمل ان يكون من المانيا الغربية ؟**)) لكن اذا أرادوا كذلك اثبات قوتهم في يوغوسلافيا ، فمن المحتمل ان ذلك لن يؤدي بالغرب الى رد فعل أكثر قوة من تقديم احتجاج فقط .

اما المانيا الغربية فقد خيب آمالها الركود الاقتصادي والعسكري لدى السوق الاوروبية المشتركة ومنظمة حلف الاطلسي . كما أن المعارضة التي يقودها الاتحاد الديمقراطي المسيحي تسعى للوصول الى السلطة في « بون » وذلك عن طريق ايقاظ الآمال في اعادة توحيد الدولتين الالمانيتين . فان « بون » تقوم اليوم برد فعل بطريقة أكثر ايجابية في حال قيام تمرد في بولونيا أو المانيا الشرقية . وان هذا الاحتمال يقلق الاتحاد السوفييتي كثيرا ، لان التمرد الداخلي في بولونيا وفي المانيا الشرقية سيحمل معه ردا ايجابيا أكبر من « بون » . الامر الذي يشعر الاتحاد السوفييتي بالخوف .

فالجيل السابق للحرب العالمية الثانية لا يزال على رأس السلطة في الاتحاد السوفييتي ويعتقد أن القوة هي أساس النظام ، لذلك يعتمد على القسوة مع الجماهير وتخويفهم بالغول الاجنبي لدفعهم للرضوخ واطاعة الحكام . ان حكومة موسكو بدأت تقلق بسبب امكانية قيام السخط في أوساط الجيش الاحمر . فالجيل الجديد من الشباب المثقف لم يعد متحمسا للخدمة العسكرية الاجبارية التي تدوم ثلاث سنوات .

كما ان موسكو قلقة أكثر بسبب نمو الروح القومية لدى شعوب الجمهوريات الآسيوية من الاتحاد السوفييتي التي اخذت تتأثر بالازدهار الصيني والياباني المضطرد .

ولعل أسرع نمو اقتصادي عبر السنوات ١٩٧٧ ـ ١٩٨٤ كان في اليابان والصين وفي البلدان التي تقيم مع هذين البلدين علاقات وثيقة تجارية واقتصادية . فمنذ عام ١٩٥٠ وحتى عام ١٩٧٣ واليابان تتزعم عصبة دول النمو الصناعي ، ومن المحتمل ان تقوم الصين باتباع اليابان بالمثل . فالصين واليابان تتشاطران العديد من الصفات المشتركة ، التي تشتمل على التقاليد نفسها في الطاعة الفردية ضمن الجماعة وصولا الى تحقيق الانسجام فيما بين أفراد الجماعة نفسها ، وكذلك في الحيوية التي تكاد لا تصدق والتي هي مختلفة تماما عنها في الهند ، كما أنها أقل ارتباطا بالبواعث المادية كما هو الامر بالنسبة للغرب . وأخيرا في القدرة على تنظيم ذاتي حرفي . فالصين في زمن الرئيس « ماوتسي تونغ » قد خلقت أسس انطلاقة اقتصادية غن طريق الاستخدام الكامل للقوة البشرية للعمل في الريف . كما أن الرئيس « هوا » فتح الابواب على مصراعيها امام التكنولوجيا الاجنبية . وقد كان طبيعيا ان يأتي بمعظم هذه التكنولوجيا من اليابان بالاضافة أيضا للوسائل الضرورية التي تهدف الى زيادة انتاج البترول الصيني .

فالتحالف الاقتصادي ما بين الصين واليابان يجب أن يصل بالنتيجة الى تحالف سياسي ما بين البلدين ، ومع أن الصين تتابع تسمية نفسها شيوعية فانها تبدو الآن كنسخة عن السويد من اليابان . وهذا يساهم اذن في المحافظة على جو من الامان النسبي في هذا الربع من العالم .

وفي الثلاثة أرباع الباقية من كرتنا الارضية فان هذا الامن غير موجود ، ويجب ان يقع جزء من المسؤولية في ذلك على التنافس الاميركي ـ السوفييتي المستمر . من الناحية الاستراتيجية فانه بعد مرور ثماني سنوات على قيادة الحزب الديمقراطي للولايات المتحدة الاميركية ومع عدم جدوى معاهدات الحد من سباق التسلح « سالت » ، فانه يترتب على ادارتكم الجمهورية ان تقرر كيف ترد على وضع يكون فيه للاتحاد السوفييتي تفوق نووي وقوة سوفييتية ثابتة قادرة على تدمير مواقع المراقبة والتوابع الصنعية (الاقمار الاصطناعية).

ان اعمال الردع المتبادلة تزداد تعقيدا وتضعف حدتها بسبب انتشار الاسلحة النووية فيما بين دول العالم الثالث المتخاصمة .

أما حصيلة التفوق الاميركية من الناحية التقنية فهي في القدرة على التدخل من مسافات بعيدة بشكل عام ، والتفوق كذلك بالالكترونيات بشكل خاص ، وان بعضا منها ستصبح نووية على كل حال .

وقد يرى كل من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية فائدة في تمرير بعض أسرار التكنولوجيا والمعلومات الذرية الضرورية الى بعض زبائنهم الاقوياء . ومن بينهم بكلمة أخرى بعض الحكومات « غير المستقرة من اليسار » أو « غير المستقرة من اليمين » بهدف كسب مواقع قوة جديدة . باعتقادهم أن ذلك سيعطيهم حظا أفضل في الاشراف على تفشي المعلومات الذرية .

انني أسمح لنفسي أن أنصح الادارة الجديدة بعدم السماح لاي انتشار كهذا ، وأنصح حقا بعدم الايقاع أو توريط الدب الروسي القلق في هذه المرحلة الآن . ومن الممكن أن تنشب الحرب العالمية الثالثة بطريق الخطأ اذا ما أصبحت اثنتان أو أكثر من نقاط عدم الاستقرار في العالم حرجة في الوقت نفسه .

لقد تمت بنجاح معالجة أزمة كوبا في عام ١٩٦٣ والحرب العربية الاسرائيلية في عام ١٩٦٧ الواحدة بمعزل عن الاخرى ، وكذلك أزمة السويس وأزمة هنغاريا معا عام ١٩٥٦ . لكن أيا من هذه الازمات لم يستدرج أيا من القوتين الاعظم للتورط فيها . ان أنظمتنا الراهنة قد تتعرض للارهاق من جراء احتواء الازمات في عالم مليء بها ، اذ ترى الدول العظمى أن مصالحها الحيوية متشابكة على عدة جبهات في وقت واحد . فقيام أزمات بوقت واحد مثلا في الشرق الاوسط ، او افريقيا الجنوبية في بولونيا او يوغوسلافيا قد يتسبب في مثل هذا الارهاق .

ومن المحتمل ان تنشأ مثل هذه الازمات المتعددة اذا ما بدأت الامبراطورية السوفييتية بالانهيار تحت ضغوطها الداخلية . وقد تنشأ تطورات هامة خلال الاحد عشر اسبوعا التي تسبق يوم استلامكم لمنصبكم .

لقد برهنت الكلمات الاخيرة لتقرير السكرتير السابق صحة ما تنبأ به .

* * *

الفصل الثالث

مهد الصراع
الشرق الأوسط وأفريقيا

عندما سئل الجنرال « بورغوين » من قبل أحد ضباطه عما يقوله التاريخ عن مجيئه وذهابه ، أجاب الجنرال دون تردد **« التاريخ يا سيدي سوف يكذب »** . السيد « جوني » يعرف عما كان يتحدث عنه .

فالمؤرخون كما يبدو على الارجح أنهم سيحددون بداية الحرب العالمية الثالثة في يوم من عام ١٩٨٥ ، لكن بالنسبة للشعب الافريقي والشعب العربي فقد بدأت قبل ذلك بكثير ، فقد كانا متورطين بها قبل ذلك بأكثر من ربع قرن . خلال صيف عام ١٩٨٥ بدأت الحرب وأدت بالعديد من البلدان لخوضها لبواعث مختلفة ، وبطرق ومشاركين مختلفين على نحو متميز وملحوظ ، في قارة مشهورة بهذا التنوع . وكانت النتائج غير حاسمة ، لان العمليات العسكرية كانت غير منظمة تماما كما حدث في القرن الافريقي .

دارت الاحداث هناك حول أثيوبيا ، كما باءت خطة الاتحاد السوفييتي بالفشل لانشاء اتحاد ، وكانت هناك أسباب كثيرة للنزاع ، فقد نجح الجنرال السوفييتي « مادكوشو » في الاحتفاظ بالسلطة في أديس أبابا ، وليس أكثر من ذلك .

لقد ترأس الفوضى في بلاده وعمل على اعدام خصمه اللدود العقيد

« ابناتو » واستطاع بهذه الطريقة الحفاظ على موقعه في « ديرغي »(١) ، ولكن وضعه في البلاد ككل لم يكن أقل شعورا بالامن منه في أي وقت آخر ، ولم يكن ذلك أكثر مما يستحقه فعلا . ولما كان هذا الجنرال متسرعا في أحكامه ، ثوريا من أجل الانتقام ، قائدا عسكريا من أجل ممارسة الاضطهاد ، فقد تفرد في مؤهلاته الجيدة لينفذ دور الدكتاتور والمخرب لبلاده . لقد تلقى أسلحة وعونا كافيا من قبل الاتحاد السوفييتي لكنه لم ينجح في أكثر من اثارة الرعب في المنطقة المركزية المحيطة بأديس أبابا . لقد أخفق في متابعة العمليات الموجهة ضد ارتيريا والسودان كما لم يفد شيئا من دعم كينيا الذي كان عمليا اكثر مما كان متوقعا . ولم يستطع « مادكوشو » تأكيد السلطة المركزية لحكومته على اقليمي « التيغر وباجمدر » وقد تستطيع القوات السوفييتية والمستشارون الكوبيون اسداء النصح وكذلك القيام بالتدريب وتقديم المساعدة ، لكنه لم يكن في وسعهم التغلب على الخمول واللامبالاة والنزاعات القبلية والعجز التام .

وعلى الرغم من الانقسامات العميقة بين صفوف جبهة تحرير أرتيريا فان شخصا واحدا ظل يحظى بتأييد عام يكفي لتمكينه من تحقيق وحدة الصفوف بطريقة أو بأخرى ، وهو القائد السابق سليمان سال ، وتكمن قوته في الدعم الذي يتلقاه من السودان ، مثل التدريب والاسلحة والذخائر وحتى منحه حق اللجوء عند الضرورة ، وهذه هي نقاط ساحة قوته . أما بقية الانفصاليين الاريتريين فهم في الوقت الذي يلعبون لعبتهم في الانتظار لم يجدوا شخصا آخر يستطيعون استخدامه لرأب الصدع بين صفوفهم . وأصبح سليمان سال أول رئيس لارتيريا . وقد يكون طاعنا في السن ، ولكن لا يهم ذلك كثيرا فالتاريخ مليء بأمثلة مشجعة من المعمرين القابعين على كراسي السلطة . وقد يكون « مادكوشو » ساخطا وخطرا كبيرا عليه يتهدده بكل أنواع الانتقام ، الا ان

---

(١) مجلس قيادة الثورة .

مشاغله في جيبوتي والمزيد من الحركات الانفصالية في « التيغر والباجمدر » كانت تكفي لمنعه من القيام بأي شيء أكثر من تنظيم اعمال عصابات قتل في ارتيريا ، وعلى الرغم من ان اثيوبيا اعادت احتلالها للاوغادين الا ان هذه المنطقة ظلت مصدر تهديد لأمنه . وسأل « مادكوشو » نفسه كيف يقدم الاتحاد السوفييتي على دعم الصومال أولا ، في الوقت الذي كانوا فيه أعداء ألداء ؟ . وكان الجواب بالطبع هو لانهما كانا عدوين لدودين ، فكما تقول القاعدة اذا دعمت كلا الطرفين فهناك فرصة افضل للربح ـ أنا أربح الرؤوس وأنت تخسر الاذناب ـ وكانت تلك فكرة ذكية .

وعلى اثر انسحاب الحامية الفرنسية عام ١٩٧٧ من جيبوتي وبموافقة « حسن غوبتيدان » ومؤيديه من قبائل « اسحق » ، لم يجد الصوماليون صعوبة في تثبيت أقدامهم في جيبوتي ، وعلى الرغم من الخلافات والطرد المؤقت للمستشارين الكوبيين والسوفييت والدعم المتقلب ، وعلى الرغم أيضا من مساعدة أثيوبيا ضدهم استطاع الاتحاد السوفييتي العودة الى الصومال بقوة واستمر في دعمها بالسلاح والمعدات . بالمقابل حصل الاتحاد السوفييتي على الامن المطلق لقواعده الجوية والبحرية في « بربره كيسا مايو » . واذا ما كان ذلك مطلبا هاما في زمن ما درج العالم على تسميته بالانفراج ، أمكن تخيل السرعة والتصميم اللذين أحكم بهما الاتحاد السوفييتي قبضته على القرن الافريقي في الحرب . ولم يكن ذلك بالامر العسير نظرا لاستخدام عشرة آلاف جندي سوفييتي والفي كوبي في الصومال ثانية . وكانت سيطرتهم على الجانب الآخر من خليج عدن ـ حيث سنشق طريقنا بعد قليل ـ بنفس القدر من الشمولية .

وبصرف النظر عن غرب افريقيا وشمال غربها فان المنطقة الاكثر هدوءا في القارة والتي تتوسط منطقتين كبيرتين معروفتين بشدة اضطرابهما كانت شرق أفريقيا . وقد كانت كل من غينيا وتانزانيا وأوغندا ومالاوي لا تتمتع بعلاقات

تسامح وانسجام احداها مع الاخرى فحسب ، بل أيضا بدرجة من الهدوء والاستقرار الداخلي لم تشهد لها مثيلا منذ ايام الحماية البريطانية . وبينما استمرت تانزانيا في دعم « فريليمو » وفي حشد القوات في شمال موزامبيق ، فان بقية البلدان الاخرى لم تسمح بتخريب هذا الانسجام بما كان يحدث في موزامبيق أو تسمح بقطع مساعداتها عن أعداء « الفريليمو » . لقد كانت لعبة شارك فيها الجميع على كلتا الجبهتين . وخلف « كينياتا » بعد اختفائه عن مسرح كينيا بعدة سنوات مجلس عسكري . وقد حدث ذلك بيسر وسهولة يشبهان مهارة حاكم تانزانيا بالاستخدام الماهر لسلطاته . فبينما كان يقبل المساعدة العسكرية الكوبية لتدريب قواته المسلحة كان في الوقت نفسه قد صمم على رفض أية نصيحة سياسية تقدم له . ونهجت ملاوي لنفسها نهجا خاصا بها . ومنذ وفاة المارشال الطاغية « اوموتين » بدأت ملاوي شأنها شأن اوغندا في ظل حكومتها الاتحادية الجديدة ، بتوطيد درجة من الثقة والازدهار بفضل المساعدات الغربية الوفيرة .

ولعل آخر التصرفات الحمقاء التي أقدم عليها « أوموتين » في السنوات الاولى من الثمانينات قد خلفت أثرها ندبة من الجراحات . كان قراره بمهاجمة غينيا خلال نوبة من الحقد ، رغبة جامحة في أمجاد عسكرية كان قد حققها من قبل زائير وزمبابوي والسودان . ذلك القرار اثر امتعاض جميع مستشاريه الكبار الذين أهلتهم تجربتهم لتقديم الرأي والنصح . لكن هذا الاجماع في الرأي المخالف ، لم يثن عزيمة الفيلد مارشال عن تحقيق قراره في القيام بهجومه الخاطف . وفي الوقت نفسه ، عملت أجهزة المخابرات اليقظة والموجودة في كل مكان والتي أعدتها القوات المسلحة الكينية ، من تبديد قوات « اوموتين » وآماله على حد سواء . وقد اعتمد « اوموتين » في ضربته على قوة دباباته وطائراته السوفييتية التي لا تقهر على حد زعمه ، وقد تحولت دباباته الى صناديق قمامة من جراء الاستخدام الجيد لصواريخ « ميلان » المضادة للدرع ، كما اختفت طائراته الميغ من الاجواء بواسطة صواريخ « بلوبايت ورابير » .

وقد كان ذروة هذا الاذلال القاء القبض على « أموتين » نفسه ، ليس من قبل عدوه المعروف ولكن من قبل فئة من مواطنيه . من قبائل « الآشولي واللانجي » الذين صب على قبائلهم جام احتقاره وحقده . وفي محاولة لرفع معنويات جنوده قام بجولة بطائرة حوامة من نوع « أوغستابيك » لكن تقديراته خابت . فقد ارتفعت معنويات كل من كينيا وابناء بلده المضطهدين عندما جاءتهم أنباء وقوعه أسيرا في أيدي ضحاياه السابقين نتيجة هبوط طائرته اضطراريا بينهم . لقد انتقموا لانفسهم منه بوضعه مباشرة أمام مدفع ٧٦ مم والتسديد عليه ورميه بقذيفة المدفع .

في شمال شرق افريقيا كما هو الامر في القرن الافريقي والمنطقة المنكوبة المضطربة ، والى الجنوب منه كان النضال يتواصل من أجل جنوب افريقيا ، معركة واحدة كانت حاسمة وهي المعركة من أجل زمبابوي . فقد غادر الروديسيون البيض روديسيا واستقر القسم الاعظم منهم في جمهورية جنوب افريقيا . وبحلول عام ١٩٨٥ لم تكن قد بدأت بعد المعركة الخطيرة والهامة من أجل جنوب افريقيا نفسها على الرغم من كل المناوشات والاستعدادات والوعود . أما في زمبابوي نفسها فقد انتصر الاسقف « زيلوتي » من المجلس الوطني الافريقي المتحد ، ولم يتيسر له ذلك بدون الولاء الذي اظهرته نحوه قبيلة « كارانجا » القوية والوحدات العسكرية والبوليس الاسود من بقايا العهد البائد . ولا تنسى في هذا المجال المساعدة التي قدمتها الموزامبيق وزامبيا وبتسوانا . فقد عقد زعماء هذه البلدان العزم على ألا ينسوا زمبابوي . لقد كان من السهل التعرف اسما وفعلا على زعيمي « زامبيا وبتسوانا » بينما لم يكن الامر كذلك بالنسبة لموزامبيق .

لقد كانت المشكلة الكبرى لافريقيا الجنوبية وللقارة الافريقية بالكامل هي معرفة كيف ومتى تتمكن دول المواجهة الافريقية من اخضاع القوة البيضاء

المتبقية هناك في ثلاث من الدول الاربع المعنية وهي الموزامبيق وزمبابوي وناميبيا . ولم تكن مواردها وخبرتها في القتال من أجل الاستقلال وحدها في الميدان بل كان هناك الدعم الكبير الخارجي الوافر والسريع . ففي موزامبيق كانت القوات السوفييتية والكوبية والصومالية مزودة بالدبابات والطائرات والصواريخ . أما في زمبابوي فقد كان هناك الخليط من الجيش النظامي ورجال العصابات والشرطة . وفي ناميبيا كان الكوبيون والنايجيريون والجامايكيون معززين جيدا بالمستشارين السوفييت والاساحة السوفييتية . بدا على الورق أن المسألة هي مسألة مكان وزمان وكيفية وليست مسألة احتمال فالسياسة السوفييتية قد حظيت في نجاحات لا تنتهي في افريقيا الجنوبية ، والسؤال : ما الذي يوقف هذا النجاح الآن ؟ .

غير أن البيض في جنوب افريقيا لم يتوانوا ولم يسمحوا بضياع الوقت « وربما فرنسا » ؟ أما السؤال الثاني فهو : ماذا سيفعل سكان البانتونات نارية كبيرة وسرعة حركة ونظام مخابرات جيد وأمن للموارد العسكرية ودورات تدريبية صارمة . وكان هناك سؤالان كبيران من أين سيحصلون على السلاح اذا ما تنكرت لطلباتهم الولايات المتحدة الاميركية والمملكة المتحدة ؟ « وربما فرنسا » ؟ أما السؤال الثاني فهو : ماذا سيفعل سكان البانتونات والسكان السود المتبقين في مناطق البيض ازاء ذلك كله ؟

ولم يكن هذا السؤال هو الاخير الذي يقلق دول المواجهة الافريقية . وكانت مشاكلهم الداخلية كثيرة جدا . ولقد دلت الاحداث في الموزامبيق باستمرار على ان قوات العصابات العديدة الفظة لم تكن وقفا على الماركسيين وحدهم . حيث لم يستطع رئيس الماركسيين « شاتيلا » أن يعرف ما اذا كان سيظل رئيسا من يوم لآخر خلال أسبوع واحد ، في الوقت الذي كان فيه المستشارون الروس لا يأبهون كثيرا لمخاوفه ، وكان اهتمامهم منصبا على ضمان وصول قوى كوبية أخرى ، وعلى أمن القاعدة الجوية الجديدة في

« بازاروتو » لاستعمالهم الخاص . وتقع بازاروتو على بعد ٢٤٠ كيلو مترا الى الجنوب من « بيرا » وموانيء « مابوتو » وتاكالا وبورتو اميليا وبيرا نفسها ، من جهة ثانية كان شاتيلا يعزي نفسه بفكرة وهي أن حرسه الخاص مؤلف بصورة كبيرة من المرتزقة البرتغاليين والالمان الشرقيين وما دامت رواتبهم تصل اليهم فان امكانياته تظل موضع الحديث .

أما في زمبابوي فان أنماط القوة والخديعة كانت تتحدى الميل السوفييتي للتحزب والتحزب المضاد والثورة والثورة المضادة . على كل حال كان هناك خيط رئيسي واضح الا وهو التحالف الصعب ما بين الاسقف « زيلوتي » وقادة رجال العصابات . وأثير سؤال حول طول فترة التحالف وبقائه وسؤال آخر حول المدى الذي تستطيع أن تذهب اليه زمبابوي في أن تلزم نفسها وقواتها في النضال من اجل جنوب افريقيا . وقد كانت هذه مسألة يعود النظر فيها الى القيادة العليا لاتحاد الجيش الشعبي في جنوب افريقيا .

واذا كان الحماس الى الجيش الشعبي في اتحاد جنوب افريقيا يقاس فقط بمدى المساهمات العسكرية ، فان « بتسوانا » تأتي في ذيل قائمة دول خط المواجهة . ففي الحقيقة ليس لديها قوات مسلحة يمكن ارسالها الى خارج البلاد . أما كيف تختلف امكانيات ناميبيا ونواياها فسنراه فيما بعد .

في ناميبيا نجحت قوات « سوابو »(١) ولكن ليس بدون مساعدة خارجية، فقد كان تدخل القوات النيجيرية القوية لصالح ناميبيا انطلاقا من انغولا حاسما. ولقد سمح ذلك بقيام ائتلاف بين قائد «السوابو» وهو زعيم قبائل «الهيريروز» وقبيلة « اوفامبوس » أكثر قبائل ناميبيا عددا من أجل القضاء على نفوذ الحزب الوطني ، مما أدى كما هو الحال في زمبابوي الى أن غالبية السكان البيض وعددهم حوالي مائة الف الى نزوحهم الى جنوب افريقيا . وقد

(١) سوابو : المنظمة الشعبية لجنوب غرب افريقيا .

ذاقت قوات سوابو طعم الحرب ، وبمساعدة قوات الحركة الشعبية لتحرير انغولا « مبـلا » والقوات الكوبية والنيجيرية استطاعت « سوابو » طرد خمسين ألف جندي جنوب افريقي من ناميبيا ، علما أنهم كانوا مزودين بالاسـلحة الحديثة ومدعومين بطائرات قتالية . وقد تمكنوا بعد هذا النصر من وضـع أيديهم على مصادر اليورانيوم الرئيسية في العالم ، ولن ينسوا ذلك مطلقا . وقد تعهد رئيس ناميبيا وسوابو نفسها وكل قوات اوفامبو بسحق جنوب افريقيا على أن تأتي قوات الهجوم الرئيسية من نامبيا وموزامبيق .

ومن المتوقع أن تصبح جنوب افريقيا نفسها ساحة معركة هامة في الحرب العالمية الثالثة خارج اوروبا ، بينما الساحة التي تليها في الاهمية هي الخليج العربي وجنوب شبه الجزيرة العربيـة . ولكن جنوب افريقيـا لم تغـير من موقفهـا المتصلب خـلال خمس وعشرين سنة من الآراء المتقلبـة حول ما كان يعتقد انه خيانة من قبل الولايات المتحدة الاميركية وتفسخ أوروبي . وقد عملت هذه السنوات على جعل سكانها البيض أشداء متصلبين وجعلتهم يدركون انه اذا لم تتغير السياسة الاميركية باتجاه معاكس تماما فلن تلقى العون هناك ابدا ، وعليهم الاعتماد على شعبهم نفسه وعلى شجاعتهم ومواردهم الذاتية ، ولم يضيعوا وقتا في هذا السبيل . فمنذ اللحظة التي وجدت فيها زمبابوي عام ١٩٧٩ وخسارتها لناميبيا في السنة التالية كانت الاستعدادات تمضي على قدم وساق ليلا ونهارا ، وقد سهل استقلال « البانتوستان » الامور فقد تقلصت الاماكن الحصينة البيضاء لتصبح أوطـان البيض في « ترانسفال » « ودولة الاورانج الحرة ومقاطعة الناتال والكاب » ، على الرغم من انها ظلت تعتمد على اليد العاملة السوداء في كل من المدينة والريف . في تلك المقاطعات كان عدد السكان البيض حوالي ٤٫٥ مليون نسمة ، بينما كان عدد الملونين يصل الى نصف هذا العدد وربع هذا العدد من الآسيويين ، أما السود فقد بلغ عددهم حوالي السبع ملايين .

على أن ما كان يجري في تلك المقاطعات من الناحية العسكرية لم تكن له سابقة الا في سويسرا واسرائيل . فجميع المواطنين الذكور ومعظم المواطنات النساء كانوا يخضعون لتدريب أولي لمدة تتراوح من ستة أشهر الى اثني عشر شهرا .

ويدعى الى التدريب سنويا ولمدة شهر واحد كل من هم دون الخمسين سنة من العمر ، وقد بلغ حجم القوات المسلحة النظامية لجنوب افريقيا في عام ١٩٨٥ حوالي ٦٠٠٠٠ رجل مع احتياط يصل الى رقم مساو ، أما القوات المشتركة من الوحدات غير النظامية « الميليشيات » التي يمكن دعوتها خلال ثمان واربعين ساعة فيصل عددها الى حوالي نصف مليون . ومنها حوالي مائة الف من الكوماندوس ، بوحداتهم الخاصة الجوية والمدرعة ووحدات الاشارة وهي منظمة على شكل ألوية يضم كل منها عدة آلاف . ويبدو ان « البوير » قرروا بالاضافة لذلك أن لا يؤخذوا على حين غرة ، بل وأكثر من ذلك فانهم تمكنوا من استيعاب مائتين وخمسين الفا من الروديسيين البيض ومائة الف لاجيء أبيض من ناميبيا الذين صمموا على البقاء وعدم التحول الى لاجئين مرة اخرى ، وقد انضم اليهم العديد من المتطوعين من اوستراليا ونيوزيلاندا .

ان مشاعر الكراهية لدى الكثيرين في العالم خارج جنوب افريقيا حيال سياستها العنصرية التي تنتهجها هناك تجاه الشعوب الملونة من جهة ، وامتناع حكومتي الولايات المتحدة الاميركية والمملكة المتحدة العنيد لتقديم العون العسكري لجنوب افريقيا حتى في حالة الكفاح ضد اتساع النفوذ السوفييتي من جهة أخرى ، يعنى أنه لا يمكن توقع قيام قوات من أي من البلدين بمساعدتها في الحرب كما يعني أنه لن يكون هناك أمل في الحصول على امدادات عسكرية بأي قدر من مصادر غربية أخرى ، علما أن بعض هذه الامدادات أمكن الحصول عليها من فرنسا لكنها لم تكن كافية . واتجهت حكومة جنوب افريقيا الى اليابان وأعوانها من بلدان جنوب شرق آسيا . ثم

تحول الامدادات بالعتاد الحربي الى جنوب افريقيا من كميات محدودة بل وقليلة جدا في نهاية السبعينات ، الى كميات كبيرة بدأت تتدفق بوفرة في أوائل الثمانينات . ولم تعد جنوب افريقيا بعد ذلك بحاجة الى التزود بالعتاد الغربي ، اذ لجأت الى الاعتماد على نفسها وعلى قدراتها البشرية من أجل الدفاع عن نفسها .

أما في أنغولا فقد اجتمع على صعيد واحد أكبر وجود سوفييتي الى أكبر نشاط معاد للشيوعية في وقت واحد . ولما لم تنته المعركة بعد من أجل انغولا . وقد تعثر حكم الرئيس « اجيتو » ووصل الى خاتمة مهينة وذلك بسبب مضايقات حركة « أونيتا » . وكذلك بسبب المعاملة السيئة من قبل زائير بالاضافة الى الكوبيين «الدمى» والوجود المتغطرس للسوفييت ، وحل محله تآلف من بين أخصامه الماركسيين يؤيدهم السوفييت والكوبيون . وقد زاد عدد الحامية العسكرية الكوبية والنيجيرية من عشرين ألفا الى أربعين ألفا على التوالي معززين بفوجين اضافيين من جامايكا ، بينما بلغ عدد المستشارين الروس حوالي خمسة عشر الف شخص في عدادهم خبراء في مجالات الرادار والاتصالات من المهندسين وكذلك خبراء في ادارة الموانيء . ولكن حتى هذا الدعم الاجنبي لم يستطع أن يغير من حقيقة كون قوات « يونيتا » في الجنوب تزداد قوة وانها وصلت الى خمسة وعشرين ألف مقاتل ، وحتى أن قوات حركة « فنلا ـ جبهة التحرير الوطنية الانغولية » كانت لا تزال ناشطة في الشمال . كما وان حركة تحرير « كابيندا » كانت تتلقى الدعم والتأييد من زائير . أما الاتحاد السوفييتي ، أيا كانت الصعوبات التي يواجهها من أجل السيطرة المطلقة على كل من أنغولا فكان مصمما على احكام قبضته على المرافق التي يحتاج اليها كثيرا ، كالموانيء والمطارات وقواعد الانطلاق للاندفاع عبر ناميبيا الى جنوب افريقيا وعلى منطقة عامة يمكن استعمالها كقاعدة أمينة لقواته ، لتستطيع التحرك في كل اتجاه في جنوب ووسط وحتى غرب افريقيا . وقد كان النصر السوفييتي في انغولا من الناحية الاستراتيجية عظيم الاهمية ، وقد رأى رئيس وزراء جنوب افريقيا في ذلك الوقت النصر كالزوبعة التي

تسبق العاصفة أو ببساطة كتمرين من سلسلة تمرينات تهدف الى ايجاد قواعد لقوات المقاومة السوداء والمرتزقة لحساب السوفييت من أجل شن هجومهم على الهدف النهائي الا وهو جنوب افريقيا .

لقد وقفت زامبيا ورئيسها « لوغاندا » في طليعة سائر الدول الافريقية السوداء وقادتها الذين حبذوا انتهاج سياسة الاعتدال والتطور . فقد أيد تأييدا تاما قيام زمبابوي . ولم يكن متأكدا بعـد حتى في عام ١٩٨٥ من أن الوقت قد حان لتصفية الحساب مع جنوب افريقيا ، فقد كان يشعر ان دول خط المواجهة الافريقية لا تستطيع أن تباشر ذلك دون مساعدة سوفييتية وكوبية متطورة وكبيرة . اذ أن مثل هذا الوجود في افريقيا الجنوبية على هذا النطاق يعني وبكل بساطة تبديل نوع من العبودية بأخرى . وقد لا تستطيع زامبيا أن تسهم في حركة الزحف العظيم نحو الجنوب في ظل قيام القلق على الحدود مع انغولا وبقوات مسلحة لا تتجاوز الثمانية آلاف رجل .

أما في زائير المجـاورة ، فعلى الرغم من مواردها الضخمة في الرجـال والمواد الاولية ، أظهرت حماسا قليلا لشن حرب خارج حدودها الاقليمية ، وان تجربتهم التي اكتسبوها من التدخل الشيوعي في أواخر السبعينات لم تجعل الاتحاد السوفييتي ولا جنوده محببين من قبل حكام زائير أكثر من حبهم للفوائد التي أسفر عنها التمرد في كاتانغا . فالرئيس السابق لزائير قد تقاعد واستقر في منتجعه على بحيرة ليمان. أما الرئيس الجديد الذي مضى عليه في منصبه حوالي خمس سنوات عمل خلالها على اعادة تنظيم قواته المسلحة واتجه أكثر فأكثر نحو فرنسا وبلجيكا من أجل العون الاقتصادي مشيحا بوجهه عن محاولات الاتحاد السوفييتي لجر زائير الى عالمه الماركسي . وعلى كل حال فان زائير تظل بلدا غنيا بفضل ما فيها من ماس ونحاس وزنك وكوبالت وزنك . وسكانها لا يتجاوزون الثلاثين مليون نسمة . واستمرت الغارات الحدودية من انغولا ومن كونغو وبرازافيل ومن بوروندي ، ولم ينجح الجيش في السيطرة على تحرر قبائل « السيمبا » على حدود زائير الشرقية ومع ذلك فان زائير تظل اجمالا مطمئنة .

فالنفوذ والتواجد السوفييتي والكوبي والجامايكي لم يقتصر فقط على افريقيا الوسطى ، وقد توطد هذا التواجد غالبا في كل مكان في غرب افريقيا . أما في غينيا الاستوائية فالمدربون والمستشارون والقوات المسلحة كل ذلك كان يمثل الماركسية ويشجع على انتشارها ونموها في بلدان غينيا الاستوائية في نيجيريا وأخيرا مالي . فاذا ما تركنا جانبا القيمة الاستراتيجية للموانىء والمطارات والمواصلات الواقعة في الجنوب ، فان العامل الرئيسي في غرب افريقيا بالطبع هو نيجيريا التي تعد حوالي سبعين مليون نسمة وقواتها المسلحة تقارب مائتين وخمسين ألف عسكري . وان جيشها مزود بالدبابات والمدفعية الثقيلة ، أما القوات البحرية فلديها البوارج البحرية وبعض وحدات الانزال . وبالنسبة لقواتها الجوية فلديها عدد كاف من الطائرات الاعتراضية ، والقاذفات الارضية وطائرات النقل والحوامات. وأكثرمن ذلك فلدى الجيش النيجيري تجربة قتالية تمتد الى عشرين عاما من حرب أهلية ، في المعركة وسط افريقيا . أما الانتصار العظيم ففي ناميبيا . وستكون لهذه القوات النيجيرية قوة يحسب حسابها في الحرب من أجل جنوب افريقيا وذلك لانها مزودة بالعتاد الروسي والكوبي وتحت اشرافهما وتشجيعهما . وقد تبين لرئيس الدولة وهو رئيس أركان سابق للقوات المسلحة ويساري (راديكالي) معروف تبين له أن وجوده في سدة الحكم خير من عودة البلاد للنظام الدستوري . ولا ريب أن تزويد نيجيريا للولايات المتحدة الاميركية بقسم كبير من وارداتها البترولية كان له أثر غير بسيط في هذا المجال . وقد تبعد نيجيريا عن بريتوريا مسافة طويلة ، ومع ذلك فقد عنيت نيجيريا بألا يسمح في تلك الحقبة باسكات صوتها أو بالحد من عدائها نحوها . أما منطقة شمال غرب افريقيا فكانت تتمتع بقلة الاضطرابات التي سادت وسط وجنوب وشمال شرق افريقيا . ولقد مر معظم دول شمال غرب افريقيا بسلسلة من التجارب . فقد خاض كل منها الكفاح المسلح من أجل الاستقلال ضد القوى المستعمرة وكان لكل منها أيضا نضالها الداخلي من أجل اختيارها لحكوماتها الخاصة بها وكانت لها تجارب في الاصطياد في المياه العكرة في الخارج ، ولكنها الآن تريد أن تترك وشأنها .

وفي الوقت نفسه لم تكن هذه الدول تريد أن تستثني نفسها كليا من لعبة عدم ترك الآخرين وشأنهم . فقد كانت المغرب على استعداد لتقديم المشورة والقوات المسلحة ، ولكن احتمال اشتراك القوات المغربية في ساحة القتال الجديدة في الجنوب البعيد لم يكن كبيرا . وعلى كل حال فقد ظلت نزاعاتها مع الجزائر وموريتانيا تلك النزاعات التي أخذت في الظهور من جديد .

أما الجزائر فقد كانت الجوكر في ورق اللعب ، فلم تكن على استعداد لان تغامر بجندي بربري واحد أو بدينار واحد من أجل قضية لا تفيد منها افادة مباشرة اقتصاديا وسياسيا . ولم تكن محاولة الجزائريين ولمدة طويلة لتذهب عبثا في حفظ دور الفرنسيين للحلول مكانهم عند الاقتضاء .

أما ليبيا فقد كانت الاوضاع فيها مضطربة من جديد . فقد تمكن العقيد فاروق وهو الزعيم الليبي الوطني الراديكالي من الاستمرار في الحكم ، وقد صد معظم البلدان محاولاته للتدخل في شؤونها . وقد كان دوما يبحث عن المشاكل ، ولكنه كان لا يحمل السلاح من اجلها . كما كان يتدخل كثيرا في شؤون الآخرين ويتوعد ويهدد كثيرا ، ولكنه لا ينفذ وعيده أو تهديده ، وشعاره : لا تدخل المعركة أبدا ولا تخرج منها أبدا ، حاضرا دوما وليس غائبا أيضا فهو حاضر في كل الازمات الا في الحروب .

كل هذا كان مرتبطا بما يحدث في مصر . ولطالما حلم الرئيس حسن الصمدي بالسيطرة على مموليه ـ العربية السعودية ودول الخليج الغنية بالنفط ـ لقد كانت هذه المهمة ملقاة على عاتق خلفائه في الحكم . وعندما أطيح بالرئيس الصمدي نتيجة المظاهرات من أجل الغذاء والتحرر الشعبي من أوهام الصلح مع اسرائيل ، فخلفه ائتلاف يتكون من نائب الرئيس أحمد محمد ووزير الحربية القائد العام وهو الجنرال عزيز توفيق .

ولقد كادت العلاقة ان تكون تكرارا لما كانت عليه بين نجيب وناصر . فقد كان محمد واجهة في هذا الفريق المؤتلف والاكثر احتراما نسبيا ، وكانت

له أيضا علاقات طبيعية مع العائلات المحافظة الحاكمة في السعودية والكويت . أما توفيق فقد كان يحظى من جهة أخرى بالدعم التام من قبل العناصر الشابة في القوات المسلحة وأجهزة المخابرات . وكانت هذه الاخيرة قد تقدمت بخطط طموحة من أجل اقامة جمهورية عربية متحدة جديدة ، لا تضم هذه المرة الليبيين الفوضويين والسوريين الذين لا يساسون ، ولكنها تضم مصادر الثروة العربية في شبه الجزيرة العربية . ومن المعلوم أن أجهزة المخابرات هذه كانت مغلولة اليدين في ظل الحكومة السابقة .

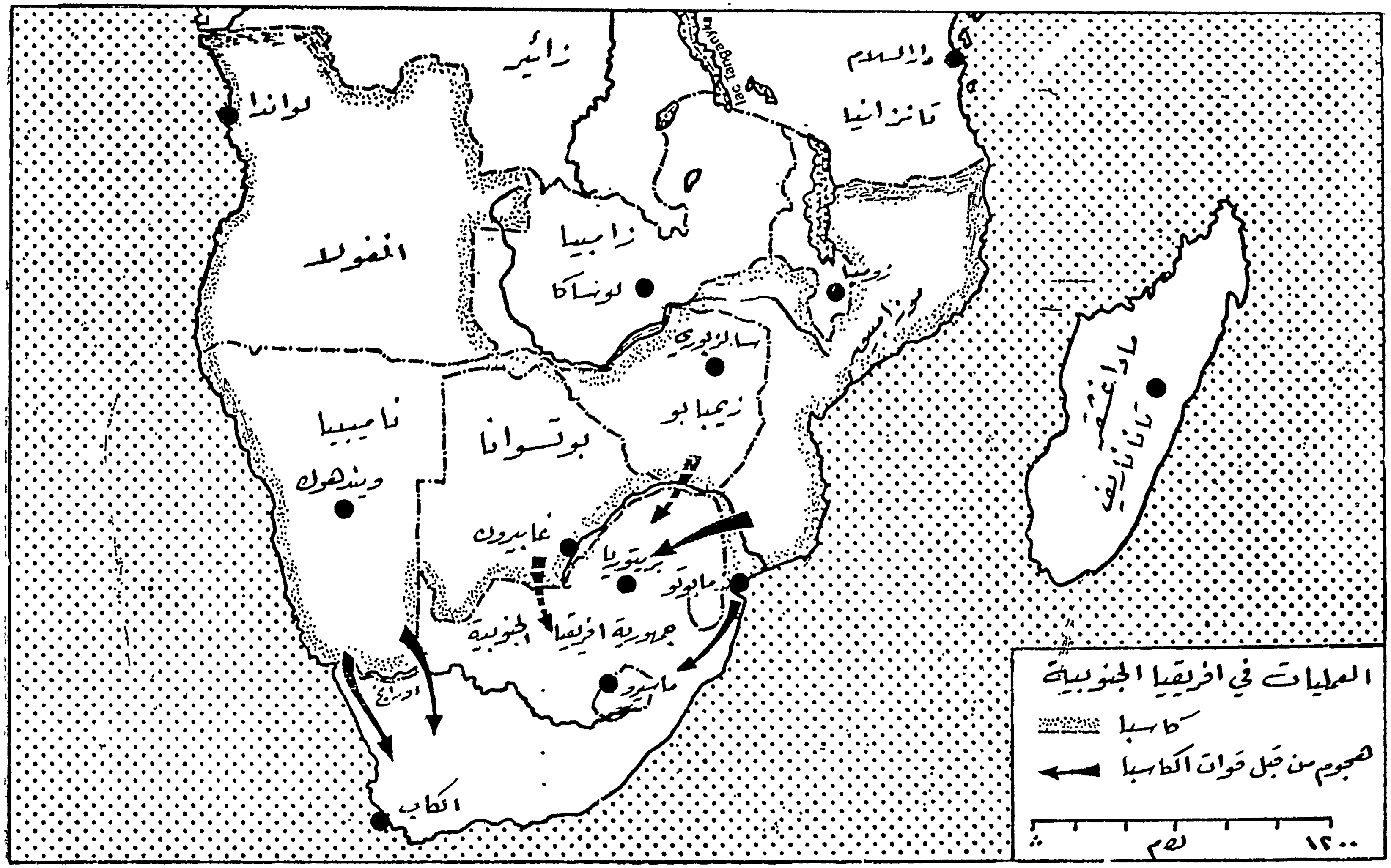
وبقيت هناك مشكلة واحدة : وهي أن هذه الطموحات يمكن تحقيقها فقط بمساعدة سوفييتية كبيرة من شأنها أن تمكن من الاستيلاء على السلطة بانقلاب عسكري ، وتدرأ أي محاولة اميركية للتدخل لصالح بقاء الوضع الراهن وأيضا للحفاظ على الاستمرار بالتزود ببترول الشرق الاوسط . وهذا يعني تبدلا رئيسيا في السياسة الخارجية المصرية . لكن مصر لم تشتهر بالثبات على المبدأ في هذه الامور ، فقد كان قبولها للمساعدة الروسية في الخمسينات ثم رفضها لها في السبعينات مفاجئا ومستغربا في كلتا الحالتين . لقد تنفست مصر الصعداء عند انتهاء حالة الحرب مع اسرائيل عام ١٩٨٠ ، لكن التخفيف في الجهد العسكري الناجم عن ذلك لم تواكبه زيادة في الموارد الصناعية تكفي للتمشي مع الزيادة السكانية في مصر ، يضاف الى ذلك تقليص عدد القوات المسلحة اذ فقد كثير من الضباط أعمالهم فشكلوا مجموعة متذمرة على استعداد للتطلع الى مغامرة خارجية جديدة من أجل استعادة سلطاتهم والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها سابقا .

ولم يأت السلام بالخبز الى الجماهير كما لم يأت أيضا بالوظائف المناسبة للطبقة المثقفة . كما أن تجدد الاعمال العدوانية مع اسرائيل لا يبدو أنه يقدم نتائج أفضل من مثيلاتها في المناسبات السابقة وخاصة أن العالم العربي أكثر انقساما عما كان عليه من قبل .

وربما كانت الحاجة الملحة تدعو الى خلق مركز قوة عربية بالقوة اذا ما دعت الضرورة تنجذب اليه تدريجيا الفئات الاخرى المتخاصمة ، وبذلك يتيح هــذا للعالم العربي على الاقل بأن يقرر مستقبله . وكان التمسك بهــذا الهدف سببا لتبرير مخاطر تحقيقه بواسطة الدعم السوفييتي .

وليس من الواضح ما اذا كانت أجهزة المخابرات المصرية أيدت بشــكل مفاجيء « قلب التحالفات » أو ما اذا كانت من وحي السوفييت الذين احتفظوا لانفسهم بوجود في المخابرات المصرية حتى عندما أوقف نشاطها العلني . وعلى كل حال فقد أمكن اقناع توفيق من خلال الحاجة الاقتصادية والطموح الشخصي بدرجة متساوية ، فأعطى موافقته سرا على برنامج تخريب شريطة ضمان تقديم المساعدة السوفييتية . وسنصف فيما بعد التدابير السوفييتية التي أمسكت بهذه الصفقة بقوة .

* * *


العمليات في افريقيا الجنوبية
زائير
لواندا
دار السلام
تانزانيا
انغولا
زامبيا
لوساكا
سالزبوري
زيمبابو
ناميبيا
ويندهوك
بوتسوانا
غابيرون
بريتوريا
مابوتو
جمهورية افريقيا الجنوبية
ماسيرو
الكاب
مدغشقر
تاناناريف
١٢٠٠ كلم

٥

الفصل الرابع

الردّ المتنبّه في الغرب

لقد تميزت أواخر السبعينات في أوروبا الغربية بتحول جزئي في علاقات الشرق والغرب ، ولقد عملت خيبة الامل الناجمة عن رفض السوفييت القاطع ، لتقديم تنازلات حقيقية فيما يقلق الغرب حول حقوق الانسان والاتفاقات الدولية ، على تعزيز النظرة الواقعية . وأخذت الثقة تزداد فيما كان يذهب اليه السوفييت باستمرار ومنذ زمن طويل ، والمجتمعات الرأسمالية الغربية محكوم عليها بالتراجع امام التقدم العنيد للماركسية اللينينية ، وان القوات المسلحة للبلدان الاشتراكية بزعامة الاتحاد السوفييتي لا بد إنها ستلعب دورا حاسما في الاطاحة بها .

لقد كان التحذير واضحا وجليا مثلما كان تحذير « هتلر » قبل الحرب العالمية الثانية ، وكان بناء قوة الهجوم العسكري الدائم في الاتحاد السوفييتي على حساب العديد من الامور الاخرى متمشيا مع التصميم على فرض المرامي السوفييتية على المجتمعات الاخرى بقوة السلاح عند الاقتضاء .

وفي الغرب كان هناك من يعتقد بوجود خطة سوفييتية للاستيلاء على العالم بحيث كانت كل خطوة على كل مستوى مدروسة بموجب هذه الخطة . ولم يكن بُعدها عن الواقعية على أي حال غير مفيد للمصالح السوفييتية . ولقد كان للسخرية والاستخفاف بهذه الخطة أثر في صرف الانتباه عما كان

يجري حقا ، الا وهو خلق موقف تفوق عسكري يمكن ان يسمح للاتحاد السوفييتي في أي وضع دولي من استغلاله لصالحهم .

وكانت السياسة السوفييتية سياسة انتهازية بلا حدود ضمن سلسلة عريضة من الاحتمالات الممكنة ، اذ كان الكثير جدا من الخطط العسكرية التفصيلية فيها تعديل مستمر لتبقى معاصرة . وقد استمدت هذه السياسة قوتها من مصدرين رئيسيين ، فمن جهة جاءت من عقيدة المادة الجدلية القائلة بحتمية اختفاء الرأسمالية تحت ضغوط تناقضاتها الداخلية ، والتي أضيف اليها أيضا أن واجب جميع الاشتراكيين سيظل تحقيق هذا الهدف على الرغم من الايمان بحتمية وقوعه . ومن جهة أخرى جاءت أيضا من التوسع الامبريالي الروسي الذي لا يدين بصلة للجدلية الماركسية وهو مستمر في ظل أي نوع من أنواع الحكم .

ولقد استولت تهديدات الاتحاد السوفييتي للديمقراطيات البرلمانية في الغرب خلال السنوات الثلاثين الماضية على اهتمام حكوماتها . وقام نتيجة لذلك التحالف الاطلسي وذراعه العسكري « الناتو » . وعلى كل حال أظهر الرأي العام في الدول الاعضاء بهذا التحالف ترددا في دعم الاجراءات العسكرية المطلوبة لمواجهة التهديد . وبهذا الصدد شهدت أواخر السبعينات شيئا من التحول كان نتيجة خروج الدفاعات العسكرية للحلف من حالات الضعف الخطيرة جدا التي كانت عليها عام ١٩٧٧ .

وكان وضع المملكة المتحدة ، وهي دولة ذات أهمية حاسمة بالنسبة للحلف بسبب موقعها الجغرافي ، ان لم يكن لسبب آخر ، مماثلا على نحو ما للوضع بين الحلفاء الاوروبيين بشكل عام ، وهو على كل حال يستحق الاهتمام الخاص .

وكانت لبريطانيا مشاكلها الخاصة ، من ذلك الانسحابات من الامبراطورية التي كانت تحدث عدم الاستقرار فيها ، ومع ان ذلك تم بسرعة خلال الخمسة

وعشرين عاما منذ الحرب العالمية الثانية ، فان الوقت لم يكن كافيا حتى عام ١٩٧٥ بحيث يسمح باستعادة التوازن الوطني في دورها الجديد كدولة من الدرجة الثانية ، ولم يبق لها الا القليل من ممتلكاتها فيما وراء البحار . ولقد استحوذ على أذهان الناس في بريطانيا شعور غريب من أجل توزيع الثروة لا من أجل خلقها وانتاجها ، الامر الذي عرقل في الوقت نفسه الاقتصاد الوطني . وسار ذلك جنبا الى جنب مع التشجيع بالاعتماد على الاعانات التي تقدمها الدولة بدلا من الاعتماد على أنفسهم ، كما كان يتميز به البريطانيون في السابق . بينما كان هناك إستغلال بشع لسياسات الحسد . وبدأت الامور تزداد وضوحا على كل حال حتى بين أولئك السياسيين الذين لهم قلوب أقوى من رؤوسهم ، وان الانعاش الوطني يعتمد أساسا على الثروة الوطنية وان الدولة لم تنتج شيئا لتوزعه .

وفي الوقت ذاته بدأ عبء الاتحادات العمالية في بريطانيا يثبت أنه غير مرغوب فيه بالنسبة للطبقة العاملة التي تتحمل هذا العبء ، وليس هناك أدنى شك في قيام الرغبة منذ أن فتحت الثورة الصناعية أبوابها في الجمع بين حماية العمال وتطوير مصالحهم تجاه الغرائز المستحكمة والعبقرية المبدعة للمغامرين من سكان هذه الجزيرة . ولا يمكن التقليل من أهمية الحماية التي قدمتها النقابات للعمال والفوائد التي عادت بها عليهم في الايام الاولى . ولا ريب ان الصدقات والهبات العشوائية التي درج السياسيون على تقديمها الى الاتحادات والنقابات العمالية ، في الوقت الذي نشطت فيه الاتحادات العمالية بقيام الحركة « اللدية »(١) على نطاق غير محدود التي مهدت لردود الفعل وممارسات المنع والحظر كي تكبح على نحو فظ الاقتصاد الحر والمبادهات الشخصية الخلاقة . وعندما بدأت النشاطات التي هدفت أصلا الى تحسين مستوى معيشة الافراد تؤدي الى

---

(١) اللدية Luddism حركة عمالية قامت في مطلع القرن التاسع عشر في انكلترا لتحطيم الآلات في المصانع لاعتقادها ان استعمال هذه الآلات سيؤدي الى تناقص الطلب على الايدي العاملة .

نتائج عكسية ، أخذت أغلبية الامة التي لم تكن تنتمي الى الاتحادات والنقابات العمالية تحقد شيئا فشيئا نتيجة لاخضاعها لارادة الاقلية . وعلى الرغم من أن الاحداث في بريطانيا في منتصف السبعينات أظهرت أن السياسيين الذين يستطيعون في ظل الديمقراطية البرلمانية أن يستمروا في الحكم على نحو غير محبب الى الجماهير لمدة من الزمن ، الا انهم لا يستطيعون ان يستمروا في ذلك الى ما لا نهاية . ولقد آلت جميع محاولات المواجهة والصدام التي مارستها الاحزاب السياسية الرئيسية مع الاتحادات العمالية الى الفشل الذريع خلال وجودها في الحكم . لم يكن الرأي العام في بريطانيا حتى منتصف السبعينات يدرك على نحو كاف التهديد الصادر عن قوة الاتحادات العمالية . وقد فشلت محاولات كلا الحزبين في احباطها .

وبعد سنوات قليلة ذاق الشعب البريطاني الكفاية من هذا التصرف . وعندما رأى رجال السياسة ذوو الآراء الحصيفة والنقابيون ذوو العقول الراجحة من الجانبين ، وهم كثيرون ، انه لم يعد من السهل استغفال الجماهير أكثر من ذلك فعمدوا برفق وبراعة الى التخفيف من حدة الوضع قليلا . ولم ينطفىء نشاط الاتحادات العمالية البريطانية كنتيجة لضربات عنيفة تلقتها ـ كما يأمل البعض ـ حتى أنها لم تكن في حالة من التذمر والتشنج ، لانها ما لبثت ان عادت تدريجيا الى حجمها وشكلها الطبيعيين لتلعب دورها الهام الذي خلقت له أصلا .

ويعتبر ان ما حدث في الاتحادات العمالية دليل على روح التجديد والترحيب بالواقعية والعقلانية اللتين بدأتا تدريجيا في الظهور في مختلف اوساط الرأي العام البريطاني في أواخر السبعينات . وقد اتضح قيام طريقة سياسية جديدة في معالجة الامور مثل مسألة الدفاع الوطني ، هذه الطريقة أظهرت ان السياسيين يسترشدون حتما بتحولات الرأي العام .

وشهدت هذه السنوات تبدلات هامة في بريطانيا اذ استبدلت شيئا فشيئا

سياسات اعادة التوزيع الاقتصادي والمالي ، هـذه السياسات التـي وصفت بعدائها نحو تحقيق الارباح وفرض الضرائب على المشاريع الصناعية ، قد استبدلت بمواقف أكثر وعيا ومعقولية كان من شأنها زيادة الثروة الوطنية . وقد اسهمت هذه التبدلات الى جانب خروج حركة التجارة العالمية من الكساد ، كما أسهمت عائدات بترول بحر الشمال ، في تحسين مستوى الحياة في بريطانيا ، باحياء الثقة القومية الى حد كبير .

ومنذ أن بدأت المملكة المتحدة تنبه الى هويتهـا القومية في فترة ما بعـد العهد الامبريالي قل سماع أصوات الحركات الانفصالية في أرجائها . وقد قلت مظاهر الانحطاط ، كما قل الحديث عما يدين به العالم لبريطانيا من فضل ، وقل أيضا الحديث عما يدين به العالم نحو بريطانيا من اعتبارات خاصة وهو قول كان له ما يبرره في يوم ما ، والقول بأن العالم مدين بأسباب معيشته اليها أمر لم يقع أبدا . وقد تناقص تأييد ماكان يعرف سابقا بالتعليم التقدمي في حين كان هناك تقبل لضرورة ذهاب الاطفال للمدارس للتعليم حتى ولو لم يكونوا يرغبون بذلك . ولم يعد تنوع اساليب التعليم يعتبر عملا آثما فقـد سمح للمدارس الخاصة بأن تزدهر وفقا لمشيئة الآباء الجامحة . وحتى ان المدارس التابعـة للدولة لم تعد تتعرض للهجوم العنيف علما ان هذه المدارس ذات نظام قديـم وكانت موضع ازدراء الراديكاليين وهم الذين كانوا يرسلون أبناءهم للافادة منها .

وقد تعاظم الميل نحو تقديم الخدمات الطوعية ، وبدأت في الازدهار تلك الاعمال الخيرية التي لم تكن محببة لدى انصار الدولة « التي يفترض بها ان تكون مسؤولة عن تقديم هذه الخدمات » فالكشافة ، والمرشدون والاسعاف ومنظمات طوعية أخرى لاتحصى سجلت ارتفاعا كبيرا في أعداد المتطوعين فيها . ومثل ذلك حصل على صعيد احتياط القوات المسلحة . أما في الجامعات فقد أصبح التحاق الطلاب بقوات التدريب أمرا عاديا . وكانت هناك أيضا حركة نحو التطوع في نظام الدفاع المدني ذلك النظام الذي اهملته الدولة مدة طويلة .

وفي هذا المناخ المتقلب للرأي العام كان لابد من تفحص أمن بريطانيا في

العالم . فازداد الاهتمام بما يهدد ذلك الامن ودار التساؤل عن مدى اضطلاع بريطانيا بنصيب الدفاع عن نفسها . وهناك من ذهب الى القول « وربما قولا غير منصف » انه لم يعد كافيا الاعتماد على التحالف المهين مع الولايات المتحدة الاميركيــة .

وبتفحص سجل بريطانيا في مجال الدفاع المشترك يتبين انه لم يكن مشرفا. فعند نهاية الحرب الكورية في عام ١٩٥٢ كانت نسبة الدخل القومي الاجمــالي المخصصة لاغراض الدفاع ١١٫٢٪ وربما كانت هذه النسبة عالية نوعا ما . أما في ميزانية عام ١٩٧٦ ــ ١٩٧٧ فقد هبطت الى ٤٫٩٪ وبالتأكيد كان ذلك قليلا جدا . بل ان بعضهم كان يطالب بمزيد من التخفيضات . وفي عام ١٩٧٧ طالبت اللجنة التنفيذية القومية لحزب العمال البريطاني « وهي اللجنة التي كــانت حكومة العمال في ذلك الوقت سعيدة للتخلص من نفوذها » بتخفيضات في نفقات الدفاع بنسبة الثلث .

وقد يكون مبكرا تحديد موقع المسؤولية عن حالة الضعف الخطيرة التي انحدرت اليها دفاعات بريطانيا في عام ١٩٧٧ . ومن المحتمل ان يتفق المؤرخون على عدم اعفاء أي حزب ساسي من اللوم الخطير ، الا انهم بـدأوا يتقبلون ان التعفن بدا حقا في السياسات الدفاعية التي تضمنها الكتاب الابيض الخــاص بدفاعات بريطانيا عام ١٩٥٧ . وعلى الرغم من ان الاقتصاديات التي تحققت في منتصف السبعينات في ظل تحسين الفعالية الاقتصادية ، فان النتيجة يؤسف لها . وهنا يبدأ ظهور المؤشرات الحقيقية الاولى في مجال الدفاع عن بريطانيا بشأن نزوعها الى التهرب من المسؤولية واللجوء الى التظاهر والادعاء ، وهذا الميل هو الذي عمل على تعكير صفو العلاقات ما بين بريطانيا وحلفائها في السنوات التي تلــت .

وكانت الفكرة الاساسية للكتاب الابيض الصــادر عام ١٩٥٧ تقــوم على الاعتماد على القوة النووية الاستراتيجية الاميركية كونها الضمان الرئيسي للسلام في أوروبــا .

وقد اسهمت بريطانيا في بناء قوة قاذفات قنابل نووية ، وبالاضافة الى ماطلب منها القيام به قدمت المساعدة على بناء جهاز اتصال مخصص لتحديد هوية أي هجوم كبير بحيث يتم الرد عليه فيما بعد ردا ذريا كبيرا من قبل الولايات المتحدة الاميركية . ولا شك ان هذا سيوفر الكثير من المال والرجال وهذا ما حدث فعلا ، وقد خاض الحزب السياسي الذي كان في السلطة في ذلك الوقت الانتخابات العامة التالية في البلاد على انه الحزب الذي حرر الامة من التجنيد العسكري في زمن السلم .

وقد لازمت روح الكتاب الابيض المشؤومة السياسات الدفاعية البريطانية لمدة عشرين عاما ، وعندما حقق الاتحاد السوفييتي تكافؤا في القوة النووية الاستراتيجية مع الولايات المتحدة الاميركية ، انتقلت هذه الاخيرة من مفهوم الردع من خلال التهديد باللجوء الى الانتقام النووي الشامل اذا ما هوجم أحد حلفائها ، الى مفهوم الدفاع على أي مستوى من مستويات الهجوم. وهو مفهوم أكثر واقعية ـ مفهوم الرد المرن ـ ولم تظهر الحكومات البريطانية المتعاقبة أي اهتمام يذكر بهذه السياسة التي أصبحت سياسة لدول « الناتو » ، وكان واضحا ان ما اعتمدت عليه دول حلف الاطلسي لمنع الاتحاد السوفييتي من مهاجمة الغرب حتى بالوسائط العادية وحدها كان التهديد بتصعيد تبادل نووي استراتيجي بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية . وتم دمج أنظمة تسليم الاسلحة النووية التكتيكية التي احتفظت الولايات المتحدة الاميركية لنفسها بالاشراف على رؤوسها الذرية « والتي تعد حوالي سبعة آلاف في مسرح العمليات الاوروبي عام ١٩٧٧ » في القيادة البريطانية لمجموعة جيوش الشمال في الحلف الاطلسي ، كما كان عليه الامر بالنسبة للقيادة الحليفة في اوروبا. وكان أساس تخطيط الدفاع للحلفاء هو مفهوم « ترياد » أي :

« مزيج من الدفاعات العادية والاسلحة النووية التكتيكية والعمل النووي الاستراتيجي في تتابع متواتر . يتم التصديق عليه في الولايات المتحدة الاميركية كما في بقية بلدان الحلف . أما مدى الجدية التي أخذ الامر بها في أماكن اخرى

فهو موضع جدل اذ لم يقم هناك أدنى دليل على انها اخذت على محمل الجد في المملكــة المتحدة » .

وان مفهوم الناتو « للترياد » يقوم على اساس نشر قوات عادية كافية في المناطق الامامية برصد أي هجوم رئيسي ، ومن ثم تأخيره في الوقت نفسه ليتم التحضير لتدخل مبكر بالاسلحة النووية التكتيكية الى ان يتوقف الهجوم ، على أن يلي ذلك عند الضرورة استخدام السلاح النووي الاستراتيجي ، وبالطبــع لايستطيع أحد ان يعرف بالضبط ماذا يمكن ان يحدث اذا ما اطلقت الاسلحة النووية التكتيكية من عقالها . لكن الامر المتفق عليه ضمن الحلف انه لايمكــن لمعركة بالاسلحة النووية التكتيكية ان تستمر طويلاً دون ان تسفر عن تصعيد لتبادل التراشق بالاسلحة النووية الاستراتيجية ، من جهة اخرى استنتج احد مراقبي سياسة الجيش البريطاني فيما يتعلق بالتدريب والتسليح انه مهما حدث فان البريطانيين لا يتوقعون ان يشتركوا في أية معركة بالاسلحة النووية التكتيكية ، ولا بأي شكل من اشكال الاسلحة النووية « ج » قياسا على ما لاحظه من تسريح عناصر جهاز الدفاع المدني .

ولقد اشير في موضع آخر من الكتاب الابيض الى سياسة الدفاع الامامية او المتقدمة عن اراضي جمهورية المانيا الاتحادية ، والتي أخذ الاهتمام بها يزداد مع ازدياد مكانة المانيا نفسها بين حلفائها . هذه السياسة اقتضت ، اذا ما تقرر عدم تسليم أي شبر من الاراضي الالمانية ، استخدام قوات عاديــة قوية وعلى نطاق واسع وهي القوات المنتشرة على طول الحدود أو الرد الفوري بالســلاح النووي . فالخيارالاول يبدو انه كان مستحيلا ، فحكومات دول الحلف أعلنت بوضوح انها غير مستعدة لتقديم القوات العسكريــة الضرورية لذلك . أمــا الثاني فان اطلاق الاسلحة النووية السريع يعتبر أمرا غير محتمل . وان مشكلة وضع الخطة الدفاعية عن دولة المانيا الاتحاديــة لم تكن عويصة فيمــا يتعلق بالنصف الجنوبي من البلاد ، حيث منحت الارض الصعبــة للقوات الحليفــة المتواجدة هناك فرصة ايقاف أي هجوم عدو قــوي « تحت القيادة الاميركيــة

لمجموعة الجيوش المركزية » . اما بالنسبة للقوات الاضعف المنشورة في الارض السهلة المفتوحة تحت القيادة البريطانية في مجموعة الجيوش الشمالية ، فقد كان الامل اقل كثيرا مما هو في الجنوب . وهناك عديدون ممن يعتقدون ان الامل الوحيد في صد هجوم يشن في الشمال بالوسائل العادية يكمن في التخلي عما كان يدعي « بالدفاع الامامي او المتقدم » على ان يتم القتال بدلا عن ذلك في معركة مناورة بالعمق .

ونظرا لاحتمال تسليم بعض الاراضي التابعة لالمانيا الغربية فانذلك اضطر مجموعة جيوش الشمال لوضع خطة لمعركة امامية . واذا امكن حشد القوات في الوقت المناسب « بعض هذه القوات موجود على مسافة بعيدة الى الخلف في بلادها كبلجيكا وهولندا » فان الهجوم بموجب هذا المفهوم يمكن ملاقاته قرب خط الحدود مع المانيا الشرقية ، ومن المحتمل ان لاتلوح فرصة ايقاف هجوم كهذا هناك بسبب قوته وشدته من جهة ، وبسبب أخذه المبادهة في الزمان والمكان من جهة أخرى . وايا كان النحو الذي يبدأ به الهجوم فان المعركة ستتطور في العمق وستتحدد نتائج دور قوات الاحتياط التي يحتفظ بها في الخلف من أجل عمليات وقف الخرق أولا والهجوم المعاكس فيما بعد .

لكن هذا الاحتياط لايتوفر حتى على الورق . لماذا ؟ لانه أصبح جليا ان القوات الكلاسيكية المتوفرة لاتستطيع وقف العدو وانما يتم ذلك باستخدام الاسلحة النووية التكتيكية . وعليه فلم تعد هناك حاجة لاستخدام القوات الكلاسيكية المنتشرة في العمق .

ولعل وجود مواقع متقدمة لمستودعات الاسلحة الخاصة « حيث تحفظ الرؤوس النووية » يمكن ان يعرضها الى الاجتياح قبل ان تستعمل تلك الاسلحة الا ان الكثير منها سيبقى سالما . ولعل التأخير في استعمال هذه الاسلحة امر محتوم ، حتى لو امكن حل المشكلة العويصة المقلقة التي سيطرت على المانيا الاتحادية حيث يوجد الكثير من هذه الرؤوس الذرية في أراضيها ان لم نقل معظمها . وتحظر تعليمات الحلفاء حظرا تاما استخدام هذه الاسلحة النووية

قبل تجريب واستنفاذ جميع الوسائل الكلاسيكية ، أي عمليا قبل التأكـد من فقدان المعركة التقليدية (الكلاسيكية) مخلفة موقفا لايمكن بالتأكيد استعادتـه كما كان سابقـا .

وفي عام ١٩٧٧ تم التساؤل عن الحكمة من وراء تخزين الرؤوس الذريـة في مستودعات مكشوفة واقعة في المواقع المتقدمة . اذ أشير الى ان أي هجـوم بالاسلحة النووية يمكن أن يستهدف اهدافا وتجمعات ثابتة اكثر من استهدافه لتشكيلات في الميدان . ونتيجة لذلك فان هجوما بالصواريخ من الغواصات هو اكثر احتمالا من قاذفات موجودة على ارض المعركة . وفي عام ١٩٨٤ جرى هناك تخفيض جزئي من المستودعات المتقدمة ، مع ذلك فقد ظلت كثيرة العدد نسبيـا وذات أهميـة .

وعلى كل حال فان القبول بمفهوم الناتو « للترياد » ، وافتراض ادخـال اسلحة نووية تكتيكية لابد ان يؤدي ذلك الى نشوب معركة نووية . ولمواجهـة مثل هذه المعركة كان السوفييت مجهزين ومدربين بينما البريطانيون « واعضاء الحلف الآخرين » لم يكونوا مستعدين . ولم يكن لدى بريطانيا في عام ١٩٧٨ أي سلاح ، حتى الجديد منه ، يؤمن حماية كافية للطواقم المحاربة في محيط نووي .

وكان التدريب على التحرك فوق مناطق ملوثة بدائيا ، كما كانت الاجهزة المضادة للتلوث واستعمالاتهـا حتى فيما يتعلـق في الحصول على معلومـات الاشعاعات الذرية وتوزيعها أبعد من أن يكون ملائما . ولم تتضمن السياسة الدفاعية البريطانية ـ بالمقارنة مع نظيرتها السوفييتية ـ الحاجة للقتال في معركة نووية . وقد بدا ان مساهمة بريطانيا في الدفاع عن اوروبا في المنطقة الوسطى لقيادة الحلفاء تضمنت نقصا متعمدا ، الغرض منه اجبار الولايات المتحدة الاميركية ليس على خوض معركة بالاسلحة النووية التكتيكية فقط بل على هجوم بالاسلحة النووية الاستراتيجية وربما على الاتحاد السوفييتي نفسه . وطبقا لهذه المحاكمة لاشك ان السوفييت يعرفون ذلك أيضا . ويبدو ان البريطانيين يظنون ان العمل التأخيري الحقيقي يكمن هنا .

وبدا للساسة البريطانيين في السبعينات ، وبضغط من بعض اعوانهم من أجل تخفيض نفقات الدفاع بأي ثمن ، بدا ذلك فكرة جذابة جدا ، لاتختلف في جوهرها كثيرا عما جاء في الكتاب الابيض عام ١٩٥٧ . ومهما اطلقنا عليها من تسمية بقيت سياسة انذار ورد عنيف . وقد شوه هذه السياسة لحد ما الادعاء بأن اقتصاديات البلاد كانت تساهم في الحقيقة مساهمة جادة في الفعالية العسكرية . بينما كانت وحدات الخطوط الامامية اقل قدرة على القتال .

ولا يعلم ما اذا كانت هذه السياسة ستظل مقبولة من الولايات المتحدة الاميركية التي يقع عليها العبء الاكبر في هذا المجال .

ومن المعروف ان العسكريين المحترفين فيبلدان انظمة الديمقراطية البرلمانية في الغرب مشهود لهم بأنهم اناس شرفاء عامة ومخلصون في خدمتهم ويمتنعون عن المشاركة في السياسة . وكثير من هؤلاء أصيب بالانزعاج وبالقلق بشأن الموقف الآنف الذكر . ولكن نظرا لان الشعب لم يطلب المزيد من السياسيين ولم يظهر ميلا لانفاق المال في سبيل أي شيء أفضل فان العسكريين لم يجدوا مجالا للقيام بأي عمل ما . ومن المعروف في بريطانيا ان الموظفين المدنيين كانوا يتمتعون بحرية أكبر في التعبير عن آرائهم السياسية خلال أواخر السبعينات ، اما التقاليد التي تقتضي بان لايسمح للعسكريين بمناقشة سياسة الحكومة الدفاعية علنا ، فقد كانت مطبقة بشدة .

ولا ريب ان من الظواهر المحيرة في بلد ما حيث يسمح بحرية الكلام ، أن نرى في الوقت نفسه أفواه العسكريين مكمومة بشدة ، وعلى كل حال اخذ الوعي بين صفوف الناس المسؤولين ينمو شيئا فشيئا حول الموقف الحقيقي ، وبشكل خاص حول طبيعة التهديد الجوي الخطر ، الذي يستهدف الجزر البريطانية والحاجة الملحة لاصلاح دفاعاتها الجوية . مثل هذا الشعور حيال مناقشة الامور العامة كان يدور في المعاهد والجمعيات التي تزخر بها بريطانيا.

وظلت الولايات المتحدة الاميركية قلب هذا التحالف كما كانت من قبل

بصورة دائمة . وفي أواسط السبعينات بدأت اربعة اتجاهات تتلافى حول نقطة واحدة . أولا : كان هناك وعي متزايد لابعاد التهديد الحقيقية لايرافقه أي من أنواع الهستيريا التي كانت واضحة في الخمسينات . ثانيا : رافق امتناع الحلفاء الاوروبيين في المساهمة بنصيب في دفاعاتهم شعور بالتململ ونفاذ الصبر ، لاسيما وأن الازدهار الاقتصادي لم يترك للحلفاء الاوروبيين أي عذر لهـذا التمنع . ثالثا : بدأت اوروبا تتساءل عما اذا كان من السهل اقناع أي رئيس اميركـي للتضحية بشيكاغو مثلا في حال خرق دفاعات مجموعة جيوش الشمال في المانيا مع عدم ابقاء أي شيء للقيادة العليا لقوات الحلفـاء في اوروبا سـوى اللجوء للاسلحة النووية . أخيرا ازداد الشعور بأن الرد المرن يجب ان يعني الرد المرن وهذا يعني أيضا وجوب مراجعة راديكالية لدفاعات الحلف على الصعيد غـير النووي بما في ذلك اشتراك الولايات المتحدة الاميركية نفسها .

ولم يعد الحلفاء الاوروبيون يتجاهلون اتجاهات الجانب الآخر من حلف الاطلسي والقوة المحركة له . ففي بريطانيا التي كانت مؤشرا للرأي العـام الاوروبي إخذت الجماهير تتقبل ذلك اكثر من قبل ، فقد لاقى الضغط من اجل تحسين الدفاعات الجوية عن الجزر البريطانية تجاوبا حسنا الامر الذي سيعتمد عليه الجهد الاميركي في اوروبا كثيرا . وقد بدأت بعض البلدان التي وضعـت قواتها تحت أمرة القيادة المتحالفة في اوروبا باتباع خطوات الولايات المتحـدة الاميركية وطريقتها ومبادراتها . ومن الواضح بشكل أكيد ان الرأي العام في بريطانيا اخذ يهتم بشكل ايجابي في امور الدفاع الامر الذي لم يستطع السياسيون تجاهله الى الابـد .

وقـد ثبت للقيادة العليا لقوات الحلفاء في اوروبا « Saceur » ان نقص القوات الاحتياطية في عمق منطقة مجموعة الجيوش الشمالية ، الى جانب عجز مجموعة الجيوش الشمالية نفسها عن : اما تقديم دفاعات متقدمة يعتمد عليها بقوات غير نووية ، أو دعم اشتباك نووي تكتيكي ، كما ثبت لها ثبت بما يشبه اليقين ان تدخلا ذريا استراتيجيا من الولايات المتحدة الاميركية لن يأتي في اعقاب خرق

تلك الجبهة كما كان يأمل البريطانيون ـ كل ذلك خلق وضعا خطيرا ـ وللمساعدة على تصحيح الاوضاع نشر لواءان اميركيان في قطاع مجموعة جيوش الشمال « والتي لم يكن تحت امرتها اية قوات اميركية من قبل » حيث يمكن ان يوضع الإحتياط لمجموعة جيوش الشمال لو كان هناك احتياط فعلا .

وفي بريطانيا لم تفهم المضاعفات الناجمة عن ذلك للوهلة الاولى ، وعندما أصبح معروفا على نطاق واسع ان الاميركيين يقدمون للبريطانيين ما كانوا هم أنفسهم يتقاعسون عن صنعه او يبخلون في الانفاق عليه او يظهرون عدم المبالاة تجاهه . اخذ القلق الشعبي يظهر ، في كل مكان ، الامر الذي لم يكن واضحا قبل سنة او اثنتين ، ولعل هذا يتعارض وما لاحظه المراقبون من تيقظ الشعور بالهوية الوطنية . وكان لابد لهذا ان يؤثر تأثيرا كبيرا على سياسة الدفاع البريطانية .

واذ أخذ تيار الاهتمام الشعبي بالامن القومي يزداد في بريطانيا في أواخر السبعينات ، بدا واضحا ان تخفيض النفقات الدفاعية التي كانت الاحزاب السياسية تميل اليها بين الحين والآخر بدرجات متفاوتة والتي اصبحت جزءا من مطالب الراديكاليين ، بدا واضحا أنها لم تنسجم مع رغبات الشعب . وقد تبين ان استمرار التخفيضات وحتى بعض الزيادات التي بدىء بها يتردد في عام ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ انها تلاقي استحسانا شعبيا . وقد سمح الرخاء الاقتصادي بتحمل ذلك بسهولة. وفي عام ١٩٨٣ تم تجاوزالسقف المفروض على نفقات الدفاع قبل خمس سنوات ، والذي اعتبر في حينه انه ثابت لايمكن تغييره بأكثر من ثلثين . وقد كانت هناك ثلاث نقاط اشد ما تكون الحاجة اليها من اجل وضع تحسينات مبكرة على الدفاعات الوطنية : اولها وضع خط معاكس للميل الانتحاري الذي كان يهدف الى اضعاف الناتو برا بابعاد الجيش البريطاني عن الراين « BAOR » . أما الثاني فكان توجيه اهتمام أكثر الى الوضع الذي لا يقل خطورة ألا وهو الدفاعات الجوية عن المملكة المتحدة . وثالثا وأخيرا اجراء تحسينات على الدفاعات المضادة للغواصات « ASM » والقوات الجوية التابعة للبحرية .

ان هذا العرض الموجز للتطورات التي وقعت في المملكة المتحدة في نهاية السبعينات والذي رأت فيه الدول الاوروبية الاعضاء في حلف الاطلسي مؤشرا الى اتجاه معين ، انما هو امر مبالغ فيه كما هو معروض في الفهرس في نهاية الكتاب وخاصة الجوانب الهامة منه . ويكفي ان نقول هنا ان احساسا قويا بتهديد السلم من القوة العسكرية المتطورة للاتحادالسوفييتي ، وعنادهالسياسي فيما يتصل ببعض الحلفاء الاوروبيين يفضي وبدرجات متفاوتة الى تحسين مساهمات هذه الدول في الدفاع عن الغرب . وسنستعرض في الفصل الثاني عشر ومع اقتراب نقطة الحسم ما آل اليه حلف منظمة الاطلسي .

* * *

الفصل الخامس

اضطرابات في بولونيا

يقول الكثيرون ان الحرب العالمية الثالثة نشبت في نفس مكان وزمان الحرب العالمية الثانية ، أي في بولونيا في الحادي عشر من الشهر الحادي عشر لعام ١٩٨٤ أي في الذكرى السادسة والستين لانتهاء الحرب العالمية الاولى ، ولم تظهر عندما نشبت في أول الامر كحرب عالمية . وفي الحقيقة هناك من يلقي اللوم في ذلك على الاضطرابات العمالية في بولونيا حول ما يمكن اعتباره حادثا عرضيا خلال حملة انتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة الاميركية .

وخلال مناقشة تلفزيونية بين مرشحي الرئاسة الاميركية « تومبسون وموندل » طرح عليهما سؤال فيما اذا كانا يعتبران ان الحكومة البولونية الحالية تابعة للاتحاد السوفييتي أم لا ؟ وفي الرد على السؤال حرص الحاكم «تومبسون» وهو الذي لا يزال يذكر ان الرئيس « فورد » قد خسر ولاية شيكاغو وغيرها من خلال اجابة لينة حيال الشيوعية في رد على نفس السؤال عام ١٩٧٦ ، اذ حرص على ابراز الجانب المتشدد من آراء موندل حيال الموضوع . واحس أحد اعوانه انه ربما كان متشددا أكثر من اللازم ، فحاول مباشرة حثه على سحب كلامه قبل انعقاد المؤتمر الصحافي .

ومن سوء الحظ ان احد مكبرات الصوت بقي مفتوحا سهوا في غرفة انتظار الصحافيين عن غير قصد ، وسمع جواب السيد تومبسون يقول : **« يا الهي ، لا أريد ان اقول انني أرغب ان اوضح انه اذا ماثار الشعب البولوني الشجاع ضدمضطهديه الروس فان ادارة « تومبسون » بالتأكيد لن تتركهم .. »**

وأحس « تومبسون » ان كلماته التي كانت توجه للسياسيين الاميركيين كانت تسمع أيضا من قبل الصحافيين في قاعة الانتظار .

وانتشرت موجة من التصفيق من قبل الصحافيين . وفي تصريحات لاحقة بذل السيد « تومبسون » جهودا كبيرة بالتأكيد على انه لم يكن يهدد أحد . مع ذلك لازالت آثار تصريحه المتسرب للصحافيين تلاحقه ، ولا شك ان التنصل بشكل مفاجيء من هذا التصريح سيكون له من الناحية السياسية نتائج مدمرة . وقد حاول السيد سكرتير الدولة في ادارة كارتر السيد « زبيغنيو بريزنسكي» (وهو بولوني المولد) باستعداده الكلي لبيع وطنه الام فورا وبلا مقابل . ما من أحد من الذين حللوا تصريحات الرئيس المنتخب « تومبسون » يستطيع ان يفترض بجدية انه يشجع على القيام بعصيان في بولونيا ، الا ان هناك كثيرين بين الناس الطيبين (بما فيهم بعض البولونيين) الذين خشوا من أن يفتقد البولونيين القلقين — بعد أن سمعوا ، ولو بشكل مشوش ، ما صرح به « تومبسون » مرارا — ان ما يقوله ينفذه فعلا .

وبعد انتخاب السيد « تومبسون » كرئيس للجمهورية في أول يوم ثلاثاء من شهر تشرين الثاني . صدر بلاغ عن وزير الامن الداخلي في بولونيا يأمر فيه الشرطة السياسية وبمساعدة الجيش اذا لزم الامر ، ان تقوم سرا بتوقيف جميع قادة الاضراب المحتملين في جميع المعامل في كل المدن باستثناء وارسو . فقد علمت الوزارة بنبأ اشاعة تفيد أنه سيدعى للقيام باضراب عام في بعض المقاطعات احتفالا بتنصيب الرئيس « تومبسون » في العشرين من شهر كانون الثاني .

وكانت الاشاعة كاذبة ، الا ان الاعتقالات تسببت في قيام أزمة ، فقد قامت كل من الشرطة السياسية والجيش بمحاولة لاعتقال قادة العمال بتاريخ ١١ تشرين الثاني وقد لاقت هذه الاعتقالات مقاومة ، ففي بعض الامكنة جرى تبادل في اطلاق النار ، أكثر من ذلك ان بعض الوحدات مانعت في اطاعة الاوامر والاستمرار في اعتقال العمال .

وفي تاريخ ١٢ تشرين الثاني أصبحت المعامل في عديد من مدن المقاطعات

في بولونيا تحت سيطرة العمال ، وقد رفعوا علم بولونيا قبل الحرب ، ومزقوا الشعارات الشيوعية ، وقامت مجموعة من المنشقين من الذين يعملون في التلفزيون البولوني بتقديم شهادة جزئية درامية لتلك الاحداث . أما في «غدانسك» فقد سيطر الفنيون الذين كانوا يتعاطفون مع المضربين من عمال محطة التلفزيون لعدة ساعات ، ومع ان الحكومة ردت ردا سريعا فأمرت الشرطة باقتحام محطة التلفزيون بصرف النظر عما ينتج عن ذلك ، الا ان تلك المجموعة استطاعت ان تبث صور العصيان باتجاه الدانمارك والسويد خلال الوقت المتيسر . وفي السويد أذعنت السلطات على الفور للتهديدات التي تتالت سريعا من الاتحاد السوفييتي ومن بولونيا معا . وقد منعت على حد سواء استخدام المادة التلفزيونية في السويد او من بثها الى الخارج ، اما الدانماركيون فعلى العكس فقد مرروا البرنامج على الفور على « الاوروفزيون »(١) .

ومن هناك فقد بلغ جميع انحاء العالم نبأ قيام الاضرابات من جهة وتقديم الرهان في الوقت نفسه على شدة مشاعر كره البولونيين ضد النظام ، ولعل أحد ذيول الحادث كان وبشكل خاص اشد ما يكون تدميرا للاتحاد السوفييتي وذلك عندما ظهرت القوات البولونية تقف متفرجة ، بينما كان المضربون يقومون بتحطيم المركز الثقافي في « ستيتين » بالحجارة وفي « وروكلو » قام قادة الحزب الشيوعي بزيارة للمعامل من اجل « التفاوض » . وفي كلا المكانين حاولوا نقض ما وعدوا به في المفاوضات واعتقال قادة العمال أما في « وروكلو » فقد أخفقوا وتم قتل محافظها الشيوعي رميا بالرصاص من قبل المتظاهرين ، كما ألقوا القبض على بعض القادة الشيوعيين كرهائن . وفي « ستيتين » استطاع الحزب الشيوعي استعادة سيطرته على المدينة سريعا .

ثم دخلت الحكومة المركزية بمفاوضات ، ووعدت بأن لاتصدر أي عقوبات ضد هؤلاء وحتى من أظهر منهم صراحة كبيرة في تحديه للسلطة ، ومن ضمن هؤلاء

---

(١) برنامج تلفزيوني ينقل بواسطة الاقمار الصناعية لجميع انحاء اوروبا .

من أطلقوا النار على محافظ « وروكلو » . وقد أحترم هذا الوعد حتى منتصف شهر كانون الثاني . واستمرت الحكومة الشيوعية في ادارة البلاد اسميا فقط هذا ما بدا لبعض الشيوعيين ولبعض حكام المحافظات بشكل خاص .

كان الاهتمام بذلك في موسكو يزداد يوما بعد يوم اذ دعي المكتب السياسي السوفييتي الى اجتماع خاص بتاريخ الرابع عشر من تشرين الثاني بالاضافة الى رؤساء حكومات جمهوريات الاتحاد السوفييتي . ومن اجل هذا اللقاء فقد طلب قادة الكرملين من الاكاديمي « ي. ريابوخين » وهو من موسكو وقد تلقى علومه في جامعة « هارفارد » وعرف في الغرب في وقت من الاوقات على انه افضل شبيه لـ « كيسنجر » لدى الروس ، طلب منه ان يعد تقريرا حول الوضع . وهذا ما قد أعده « ريابوخين » على وثيقة تحمل صفة « سري للغاية » .

تقرير « ريابوخين »

١ ــ على الرغم من ان الرئيس المنتخب قد قال بعض الاشياء الداعية للاسف ، فمن غير المحتمل ابدا ان يقر هجوما ذريا على الاتحاد السوفييتي ، تماما كما لانرغب ان تتعرض الولايات المتحدة لهذا الهجوم . فعلى كلتا القوتين العظميين ان تضعا نصب اعينهما الاحتمال الكبير للتدمير الذي سينتج عن الضربة الذرية الثانية .

٢ ــ على الرغم من هذا ، نحن في الجهاز الحاكم في الاتحاد السوفييتي نواجه اوضاعا تتطلب الحذر فمن بين مائة وثمانين رئيس حكومة في مختلف بلدان العالم يتساءل معظمهم عندما يأوون الى فراشهم فيما اذا كانوا سيقتلون برصاص انقلابيين في صباح اليوم الثاني .

واذا ما استثنينا عهد « ستالين » فان كبار الشخصيات التي شغلت

مناصب رفيعة في الاتحاد السوفييتي لم يساورها في يوم من الايام مثل هذا الخوف . ويمكن القول انه بعد إحداث بولونيا ، فان امكان وقوع انقلابات عسكرية ضد عدة حكومات اشتراكية في أوروبا اصبح أمرا واضحا ، كما لايمكن استبعاد مثل ذلك في بعض جمهوريات الاتحاد السوفييتي نفسه وخاصة في الشرق الاقصى وفي الجنوب .

٣ ــ وعلى كل حال ، يجب علينا في هذه المرحلة من الزمن ان لانرسل القوات السوفييتية الى بولونيا لاعتقال أولئك العمال في « وروكلو » مثلا ، وهم الذين أعفوا من جرائم القتل . وكان يعتقد ان ليس من الحكمة اصدار الاوامر الى وحدات الجيش البولوني لفتح النار على العمال المعنيين ، كما يعتقد ايضا ان بعض وحدات الجيش الاحمر قد تتردد في اطاعة مثل هذه الاوامر . وقد لاترسل قوات سوفييتية لتصحيح الاوضاع الا اذا أطيح بالحكومة البولونية من قبل نظام موتور او اذا ما ماوقعت احداث مماثلة في بلدان اشتراكية اخرى « وخاصة في المانيا الديمقراطية » . أما يوغوسلافيا فان أمرها مختلف « انظر الحاشية حول الموقف اليوغوسلافي » .

٤ ــ ولعل الموقف في بولونيا يجعل من الاهمية بمكان وضع الاميركيين في موقف ضعيف في مكان آخر . والتأكد من اجبارهم على تراجعات مذلة خلال الاسابيع الاولى من ادارة الرئيس « تومبسون » . وهذا ما يمكن تسميته باستراتيجية خليج الخنازير .

٥ ــ ويذكر انه خلال الايام الاولى لادارة الرئيس كندي عام ١٩٦١ تمكن عملاؤنا المندسون بين صفوف المهاجرين الكوبيين الى امريكا من الايحاء بالهجوم الذي سيحبط في خليج الخنازير ضد « كاسترو » الذي كان يعلم مسبقاً بكل تفاصيل خطة الهجوم . ان هذه الاهانة للولايات المتحدة الاميركية مكنت الاتحاد السوفييتي من النفاذ الى جنوب امريكا دونما اعتراض طيلة عهد الادارة الديمقراطية الامريكية في الفترة ١٩٦١ ــ ١٩٦٨ باستثناء وضع الصواريخ

الهجومية في كوبا عام ١٩٦٣ من قبل « خروشوف » الامر الذي دفع الاميركيين بعيـدا جدا .

٦ ـ ولسوء الطالع لا نستطيع ان نعيد بدقة عملية خليج الخنازير لان الولايات المتحدة الاميركية ليست مستعدة لمهاجمة أي مكان خلال الايام الاولى من ادارة الرئيس « تومبسون » . وعلينا والامر كذلك ان نحاول خلق أوضاع يضطر معها الرئيس « تومبسون » في أوائل ايامه ان يقبل بانسحاب اميركـا وحلفائها من موقف نحن نخلقه .

٧ ـ ان فرض انسحاب من هذا النوع على « تومبسون » يجب تدبيره والتحضير له كي يعمل على كبح القوة الدافعة للعصيان ، والا فانه يؤثر بعمق على الاتحاد السوفييتي ويعرض ارواح الكثيرين في الجهاز السوفييتي الحاكم للخطر . كما يعرض حلفاءه ايضا في حال عدم تنفيـذ هذا الانسحاب في وقت مبكر . واذا ما قدر لقوة العصيان هـذه ان تنتشر من بولونيا فان الكثيرين سيذهبون للنوم كل ليلة وهم يخشون الموت برصاص الانقلابيين في الصباح التالي . وبالطبع ليس هناك ادنى احتمال في ان تغامر الولايات المتحدة الاميركية بتحويل الارض الى كوكب مقفر بعمل نووي نقوم بـه لمجرد اننا أثرنا غضب السيد الرئيس . ومن غير المحتمل أيضا ان يسمح لحلفاء أقل استقرارا كايران من أن تغامر بعمل كهذا أيضا ، بل على النقيض اذ ان « تومبسون » سيتصرف وفاقا للرأي العـام الذي سيصاب بالذعر والهلع على نحو أسرع مما يتأثر به الرأي العام عندنا « لكونه معزولا بالرقابة » فيأمر « تومبسون » بالتراجع في مرحلة مبكرة أكثر منا ، وان التهديد الباشر بمذبحة نووية لا يحمل في طياته اقتناعا باحتمال القيام به ، ومن جهة اخرى يوفر تصعيد التهديد به فوائد للاتحاد السوفييتي . وعلينا ان نستثمر هذا باستمرار .

٨ ـ واذا ما استطعنا ان نحمل « تومبستون » على تراجع أو اكثر علينـا ان نتملق الرئيس الجديد وان نعود الى الانفراج . وعلينا أيضا ان لانصر على احتفاظ حلفائنا المصريين أو غيرهم بما تحقق لهم من مكاسب « بعض هذه المكاسب

تفيض عن امكانيات الاحتفاظ بها من قبلهم » خـلال تراجعات « تومبسون » الاولية . وعلينا أيضا أن نداعب غرور الرئيس المنتخب بدفـع ادارة كارتر (البطة العرجاء) من أجل اتخاذ خطوات تمهيدية استعدادا لحرب ممكنة قبل ٢٠ كانون الثاني يوم الاحتفال باستلامه الرئاسة .

وعلينا ان نعلن في يوم مباشرته مهامه « **كانت الادارات الديمقراطيـة في التاريخ الامريكي هي البادئة دوما بشن الحروب بينما الادارات الجمهورية كانت تتولى دوما وقفها** » ولندع بذلك « تومبسون » يحس انه صانع سلام بدلا من كونه ديماغوجي ضعيف . ان اتباع هذا البرنامج يعني ان علينا ان نتحـرك بسرعـة .

٩ ـ اما الخطط الخمس « بعضها تبادلي » التي يمكن وضعها موضـع التنفيذ بسرعة فهي :

آ ـ عملية الشرق الاوسط .
ب ـ عملية الهنـد .
ج ـ عملية اميركـا الوسطى .
د ـ عملية افريقيـا الجنوبية .
هـ ـ عمليـة يوغوسلافيـا .

ونحن نعلم من خلال عملائنا في الولايات المتحدة الاميركية ان مستشاري تومبسون ـ مثال التقرير السري لما يدعى « بثينك ـ تانك » والتقرير السري لسكرتير الدولة السابق ـ قلقون حيال هذه الخطط الخمس وانهم يعيشون حالة من الفوضى الرأسمالية لا يستطيعون معها معرفة كيفية التصرف تجـاه أي منهـا .

وبدوري فاني أوصي فقط بعملية الشرق الاوسط وعملية افريقيا الجنوبية وانني أعارض لاسباب سأذكرها فيما بعد عمليتي الهند واميركا الوسطى ، ولا أحبذ حتى الآن تطبيق عملية يوغوسلافيا . لكن لندع الاميركيين قلقين لمدة من الزمن حول اين نبدأ ؟

١٠ ـ عمليـة الشرق الاوسط : بعض الشخصيـات في الجمهوريـة الديمقراطية الاشتراكية المصرية حبذت ومنذ أمد طويل تدبير انقلاب عسكري في الدول الغنية بالبترول في العربيـة السعودية والعراق والخليج ، واعـلان الجمهورية العربية المتحدة ، لقد كنا حتى اليوم ننصح بالتريث وبضبط النفس ولكن علينا الآن ان نشجع على القيام بالانقلاب بسرعة وفعالية . فيجب احداث فريق تخطيط للشرق الاوسط يقوم اعتبارا من الآن بتقديم تقارير يومية الى المكتب السياسي في الساعة السادسة مساء .

الهدف الاول « والممكن تحقيقه » في يوم تدشين رئاسته في ٢٠ كـانون الثاني ، هو دفع الرئيس الامريكي الجديد الى اتخاذ خطوات لردع ايران وتأمين تزويد اميركا بالبترول من خلال توريطه في عمليات مهينة هي من صنعنا .

الهدف الثاني « وتحقيقه أكثر صعوبة » ففيما تسيطر مصر على بترول الجمهورية العربية المتحدة سيكون من المفيد جدا أن نسيطر نحن على مصر .

١١ ـ عملية الهند : تخشى بعض الجمهوريـات الآسيوية في الاتحـاد السوفييتي بأن تنجذب الدول الاكثر نجاحا من دول الاتحاد الهندي السابـق (وهي الاكثر رأسمالية مع الاسف) نحو دائرة الازدهار الصينية اليابانية ، وهي سياسة ما يسمى بتحويل الهند الى مائة « هونغ ـ كونغ » . ويقول رفاقنـا الآسيويون ان هذا سيزيد من الضغوط في الجمهوريات السوفييتية الاسيوية التي هي في طريق التصنيع لان تتحـرك في نفس الاتجاه وتعمل على احـداث انقلاب عسكري في « خاباروفسك » ، حيث يسمح للعديد من رجال الاعمـال اليابانيين بالتنقل بين طوكيو والاتحاد السوفييتي فيمـا له علاقة بالمشاريـع المشتركة للتنمية في سيبيريا . ولذا فانـه يقترح تحت عملية الهند تشجيـع الدول الاشتراكية من اتحاد الهند السابق على اجتياح الدول الرأسمالية المجاورة المزدهرة (وخصوصا أصغرها واكثرها رأسمالية ونجاحا) وهـذا ما يسمى باستراتيجية « تحويل المائة هونغ ـ كونغ هندية الى مائة غوا » .

وانني شخصيا أعارض تنفيذ عملية الهند في هذه المرحلة للاسباب التالية:

آ ـ لست متأكدا اننا سننجح لاننا سنتحالف مع القوى الاضعف في المنطقة وليس الاقوى .

ب ـ لا أريد ان ازعج محور الصين ـ اليابان في هذا الوقت اذ انــه من المهم ابقاء الصين واليابان بمعزل عن الولايات المتحدة الاميركية بدلا من دفعهما الى اقامة تحالف بينهما .

ج ـ يجب علينا ان لا نبعثر جهودنا في هذه الاسابيع القليلة التالية التي تعتبر حرجة وحاسمة ، وعلينا على كل حال وبكل الوسائل ان نجعل الاميركيين يفكرون قلقين من أن عملية الهند لا بد قادمة على جناح السرعة . وربما وجب علينا تشجيع القيام ببعض الاضرابات العمالية في أماكن رأسمالية ملائمة من الهند والقيام ببعض الاغتيالات أيضا . وأنا أقترح اسناد هــذه المهمة الى فريق تخطيط من الدرجة الثانية تابع للمخابرات الروسية « K.G.B. » والهدف هو : الابقاء على الابريق في حالة غليان دون أن يؤدي ذلك الى احداث أي تغيير في النظام باستثناء السماح لبعض التفاحات الرأسمالية الهندية العفنة بالسقوط في سلالنا .

١٢ ـ عملية أميركا الوسطى : يقول أصدقاؤنا الكاريبيون ـ حيث تعتبر جامايكا أكثر أهمية من كوبا الآن ـ ان الرئيس الجديد للمكسيك رجل ديناميكي مقتدر وربما استطاع تحويل المكسيك الى بلد متقدم ومزدهر . وهذا يعني اثارة خطر وقوع انقلابات عسكرية ضد حكومات أميركا الجنوبية . وعلى هذا فان الجامايكيين والكوبيين يتوقون الى انقلاب في المكسيك خلال الاسابيع المتبقية من رئاسة « كارتر » العرجاء . وانني أعارض عملية أميركا الوسطى لنفس الاسباب التي أعارض فيها عملية الهند .

آ ـ قد لا ننجح و ..

ب ـ المكسيك قريبة جدا من الولايات المتحدة الاميركية وان محــاولة أي انقلاب شيوعي هنــاك قد يوحــد الاميركيين حول الرئيسين « كــارتر

وتومبسون » . وقد يؤدي الى عمل أميركي حاسم فيما يكون هدفنا الكلي هو ايجاد عمليات لا تنجم عنها الوحدة . وحيث لا تستطيع الولايات المتحدة الاميركية اتخاذ أي عمل حاسم لان الادارتين الصاعدة والنازلة لن تتفقا . ومرة ثانية وكما هو الحال في عملية الهند ، قد توجد حالة جديدة تدعو للجوء الى صيغة معدلة من عملية أميركا الوسطى . وقد يفيد اغتيال الرئيس المكسيكي من قبل شخص لا يمكن تتبع علاقته بنا ، في الوقت الذي نبدي فيه أحر التعازي الى نائب الرئيس المكسيكي الضعيف والرأسمالي ايضا والذي يمكن ارضاء غروره برفعه الى سدة الرئاسة المكسيكية . ويجب تكليف فريق من المخابرات « K.G.B. » بتقديم تقرير عن امكاناتها حول ذلك .

١٣ ــ عملية افريقيا الجنوبية : يرغب الجامايكيون ان تقوم الدول الصديقة في افريقيا السوداء بمد حرب العصابات داخليا وخارجيا ، ضد الدول البيضاء في اتحاد جنوب افريقيا السابق ودول العم توم المرتبطة بها . وهناك ثلاثة اسباب لدعمنا لهذا العمل ، شريطة ان ينظم في حينه .

أولا ــ ان نجاح دول العم توم اقتصاديا واستمرار الازدهار في الدول البيضاء ، يعني أن سلسلة انقلابات يمينية يمكن ان تنتشر في طول افريقيا وعرضها وايضا في بلدان الكاريبي السوداء الامر الذي يقلق بالطبع جامايكا .

ثانيا ــ ما تزال الدول البيضاء تنهج سياسة عنصرية في بعض جوانبها ، فهناك اميركيون كثيرون ، وخاصة منهم الاميركيون السود ، سوف لا يعتبرونهم حلفاء جديرين بالاحترام يتوجب على القوات الاميركية ان تحارب الى جانبهم .

ثالثا ــ يجب أن نفيد من الجهاز العسكري الفوضوي في جنوب افريقيا . فلدينا القدرة هناك لان يعمل لصالحنا في الاستمرار بوضع الاميركيين في مواقف محرجة حقا . وبسبب المتاعب في الشرق الاوسط الناجمة عن عمليتنا هناك سيظل الاميركيون قلقين حيال خطوط امدادهم بالبترول حول رأس الرجاء الصالح .

يضاف الى ذلك أني أقترح عليكم فقط وبشكل سري للغاية ، أن نرسل ضباط الجيش الاحمر المتطوعين الذين نرسلهم الى افريقيا ، ممن لا نثق بهم ونرغب بوجودهم خارج موسكو ، الى افريقيا الجنوبية لقمع العمال في وارسو .

وبدلا من تكرار تطهير الجيش الاحمر على غرار ما فعل « ستالين » في عام ١٩٣٠ ـ وهو ما لا نملك القدرة على عمله ـ دعونا نرسل الضباط الذين لا يعتمد عليهم كليا لقيادة عصابات المواطنين السود المتجولة في البطاح غير المدافع عنها . وسيحول المواطنون السود دون صيرورة هؤلاء السادة أكثر ليبرالية . وقد لا يهم عدم توفر الوقت الكافي لخطة عسكرية متماسكة لان عملية افريقيا الجنوبية لن يكون لها هدف عسكري مطابق بل ستكون لها الاهداف السياسية التالية :

آ ـ وضع الاميركيين في موقف حرج باجبار ادارة الرئيس « كارتر » العرجاء لوضع قوات أميركية تلتزم بالدفاع عن جنوب افريقيا البيضاء الامر الذي سيضطر الرئيس « تومبسون » الى التراجع عنه وهو أمر محرج .

ب ـ ان نوضح الى دنيا رجال الاعمال أن استمرار الاستثمارات في الدول البيضاء ودول العم توم لن يستمر في جو سلمي ومربح لمدة طويلة ، وقد يكون من المرغوب فيه في نهاية عملية جنوب افريقيا نقل احدى الدول البيضاء الثلاث الى الحكم الاسود وذلك من أجل اذلال « تومبسون » .

١٤ ـ عملية يوغوسلافيا : اذا أردنا أن نقوم بتحرك في أوروبا فمن المفضل أن « نستولي على يوغوسلافيا » بدلا من « اعادة الاستيلاء على بولونيا » (التي لم تسقط على أي حال) وان محاسن عملية يوغوسلافيا هي :

آ ـ ان الحكومة الفدرالية الضعيفة في يوغوسلافيا لا تتمتع بالشعبية لدى

شعب يوغوسلافيا ، وان حكومات الدول المتعددة لا تتمتع بشـعبية سكأن الدول الاخرى .

ب ــ اذا تدخلت القوات السوفييتية الى جانـب احـدى الدول ضد أخرى فسنحصل على دعم الشـعب « بينما في بولونيا عمليا لن يكون لنـا شيء من ذلك » .

ج ــ ان أصدقاء الشيوعيين في اللجنة الصربية للدفاع عن يوغوسلافيا التي يديرها السوفييت تريد وضع قوات الجيش الاحمـر في يوغوسلافيا « بعد مقتل رئيس بلدية « روكلو » يشعرون بانهم عزل وان لا حماية لهم الا بوجود الروس هناك » .

د ــ أما في « سلوفينيا وكرواتيا » فان قواتنـا ستعتقل السياسيين بـدلا من اقتحام المصانع التي يسيطر عليها العمال .

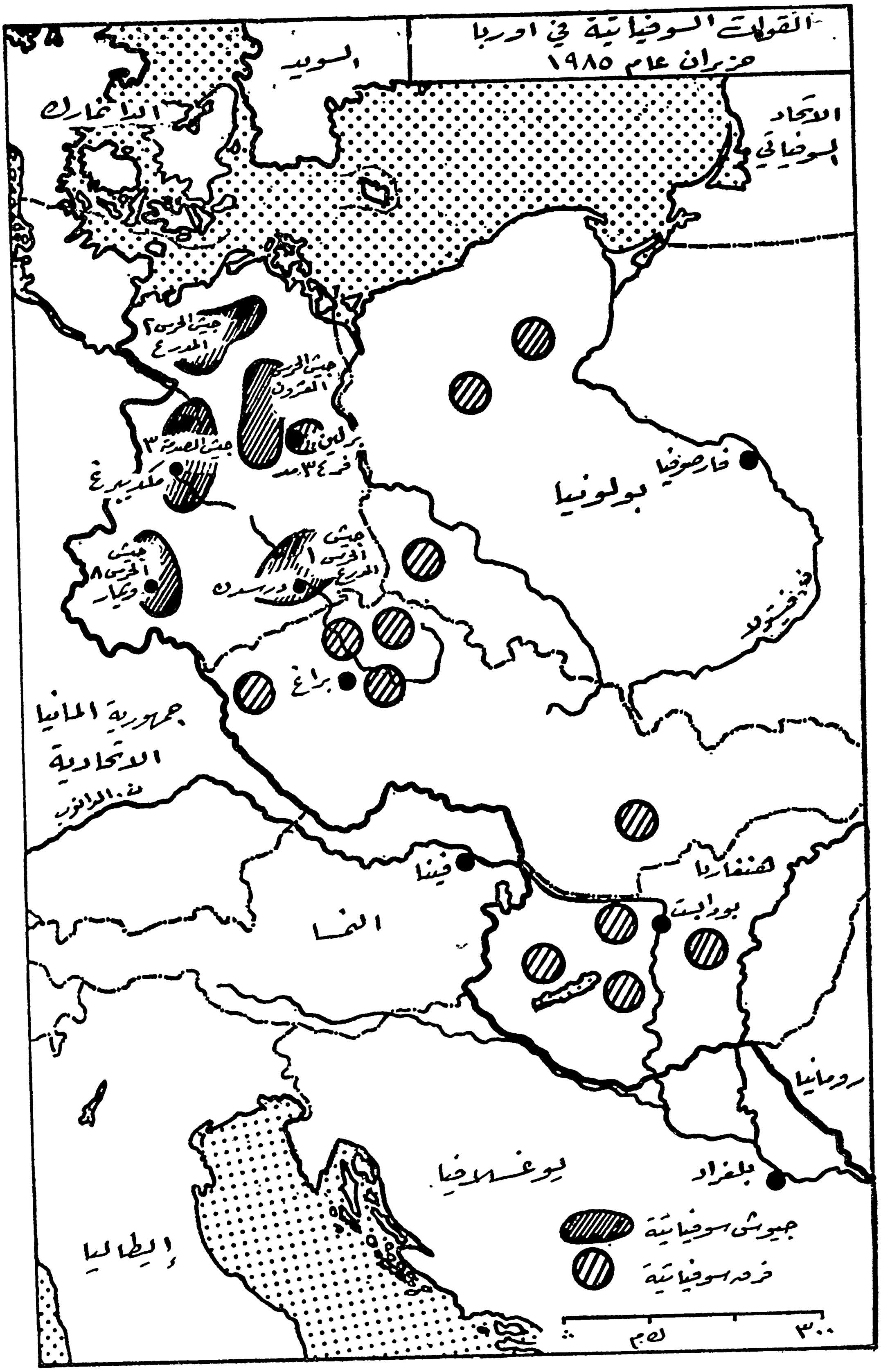
هـ ــ ان التحرك العاجل من هذا النوع تجربة لقواتنا وسيذكر البولونيون وغيرهم من العمال أن الجيش الاحمـر في حالة ابتعداد عالية وان باستطاعته ان يتحرك بسرعة .

. أما عن اعتراضي على عملية يوغوسلافيا في هذه المرحلة : هو احتمال ان تكون لها مضاعفات واسعة اكثر من العمليات الاربع الاخرى . وفي الواقع ان عملية يوغوسلافيا أُخـذت بالاعتبار من قبل القيادة السوفييتية العليـا في نفس الخطة الاستراتيجية المعدة لاقتحام المانيا الغربية . فاذا ما حسبنا ان جميع الدول الشيوعية في أوربا الشرقية ستتعرض لانقلابات عسكرية يتبعها انقلاب عسكري في الاتحاد السوفييتي نفسه ، فانني في هذه الحال أحبذ القيام بمهاجمة اما يوغوسلافيا أو المانيا الغربية أو كلتيهما . ولكننا لم نصل بعد الى ذلك الموقف . لقد وصلنا فقط الى موقف يكون من المرغوب فيـه اهانة وتعرية الرئيس « تومبسون » . اذن فلنبدأ بتوجيه هذه الاهانة في الشرق الاوسـط وفي افريقيا الجنوبية .

١٥ ـ ويجب علينا خلال العمليات في الاسابيع القليلة القادمة ان نبقي على محور الصين ـ اليابان محايدا ، ويجب علينا ايضا ان نبقي على أوروبا الغربية محايدة حتى ولو عن طريق التخويف .

ما أبعد السـلم عن عيـد الميـلاد .

* * *



القوات السوفياتية في اوربا
حزيران عام ١٩٨٥
السويد
الدانمارك
الاتحاد السوفياتي
بولونيا
برلين
براغ
فينا
النمسا
هنغاريا
بودابست
رومانيا
بلغراد
يوغسلافيا
ايطاليا
جمهورية المانيا الاتحادية
جيوش سوفياتية
فرق سوفياتية
٣٠٠

الفصل السادس

لا سلام في عيد الميلاد

لقد قبلت خطة « ريابوخين » من قبل المكتب السياسي . لكن تسارع الاحداث جعل تلك الخطة تفلت من زمام السيطرة عليها . أما تلك الاحداث المتعاقبة فقد توالت كما يلي :

ـ الثلاثون من تشرين الثاني ١٩٨٤ ، تمكنت مصر التي أعادت علاقاتها العسكرية مع روسيا السوفييتية ، من قلب حكومات كل من العربية السعودية والعراق والكويت عن طريق التخريب . ثم تعلن عن قيام الجمهورية العربية المتحدة الجديدة الواسعة الثراء ، وتدعو الى اجتماع لرؤساء حكومات الدول المصدرة للنفط في السابق من كانون الاول . وتدعى ايران الى اجتماع الدول المصدرة للنفط هذا الذي سيعقد على أرض محايدة الا أن الجمهورية العربية المتحدة الجديدة تهدد بعمل عسكري ضد أي دولة تتدخل في منطقة مصالحها وترسل قوات مسلحة الى ساحل القرصان وعمان ، من الواضح أن هذا تهديد لايران . أما اسرائيل فقد حصلت على ضمانات تكفل حيادها .

ـ الثاني من كانون الاول : تقوم اضطرابات يقودها الطلاب في « سوويتو » وفي غيرها من المدن الصغيرة التي تعتبر عواصم لكانتونات العم توم السوداء من اتحاد جنوب افريقيا السابق . وهناك بعض الدول السوداء التي ترتبط بعلاقات اقتصادية جيدة مع الدول البيضاء الثلاث في جنوب افريقيا ، وترسل يوميا كثيرا من العمال للعمل هناك . وقد أخمد بعض هذه الاضطرابات من قبل الشرطة المحلية السوداء باراقة الدماء .

ـ الثالث من كانون الاول : اضرابات في مدارس تظهر وكأنها موحى بها سياسيا . طائرة « بان امريكان » تخطف وهي في طريقها الى سنغافورة ثم تهبط في بنغلاديش في « شيتا غونغ » وعلى متنها رئيسا وزراء دولتين رأسماليتين في اتحاد الهند السابق ، مع بعض مديري الشركات الاميركية متعددة الجنسية العاملة في مدراس . ويعلن المختطفون أن هؤلاء سيحتفظ بهم كرهائن الى أن تستجاب مطالب المضربين في مدراس . وبعد يومين حاول رجال البحرية الاميركية اقتحام الطائرة « يقال أنهم دعوا لذلك من قبل بنغلاديش » كما فعل الالمان عام ١٩٧٧ في الصومال . وتفشل العملية الاميركية وتنسف الطائرة بمن عليها فيقتل جميع ركابها .

ـ الخامس من كانون الاول : في اجتماع عقد في زمبابوي ادعت منظمة الدول الافريقية الاشتراكية ، ان البوليس الفاشستي في « سوويتو » استعمل بتاريخ الثاني من كانون الاول أسلحة ثقيلة أكبر مما هو مسموح به في دول اتحاد جنوب افريقيا ، بموجب اتفاقية « بريزينسكي » وبهذا تكون الاتفاقية لاغية .

ويجب حمل الدول البيضاء ودول العم توم لتدخل في اتحاد جنوب افريقيا جديد يحكمه السود . وسيتخذ الاجراء العسكري لتنفيذ هذا الالحاق أو الضم .

ـ السابع من كانون الاول : في اجتماع الدول المصدرة للنفط طلبت الجمهورية العربية المتحدة الجديدة زيادة في أسعار البترول وأعلنت مقاطعة بترولية ضد أي بلد لا يستجيب لمطالبها السياسية . وستفرض مقاطعة دقيقة ضد كل من يساعد الدول البيضاء ويحرض عليها . وتصر الجمهورية العربية المتحدة على أن غالبية الاصوات في الدول المصدرة للنفط ملزمة لجميع الاعضاء وان المقاطعة يمكن التأكد من تنفيذها من قبل قوات بحرية صديقة ، وهي كما تقول الصحف تعني الاتحاد السوفييتي . هنا تعارض ايران ذلك بشدة .

ــ الثامن من كانون الاول : يعلن الاتحاد السوفييتي دعمه لقرار منظمة الدول المصدرة للنفط ويجهز قاعدته القائمة هناك بالافراد والعتاد وبامكانيات الصواريخ الخاصة في عدن . ويمكن ان يكون هذا عاملا مساعدا لفرض الحظر على البترول .

ــ التاسع من كانون الاول : وقوع محاولة غير ناجحة بخطف طائرة تحمل وزيري البترول والمالية الايرانيين وهما في طريقهما من اجتماع منظمة الدول المصدرة للنفط الى طهران ، وفي اليوم نفسه تقع محاولة غير ناجحة لاغتيال الشاه(١) .

ــ الحادي عشر من كانون الاول : اعمال غزو واغارة من زمبابوي وناميبيا تقع في الاتحاد السابق لجنوب افريقيا وبولونيا ، وبعض الدول الهندية تعلن انها ستسحب وحداتها من قوات الامم المتحدة العاملة على الحدود . ويعلن القادة البولونيون والمكسيكيون والهنود على الفور أنهم تحت تصرف الامم المتحدة وأنهم سيطيعون أوامرها . وبذلك تقوم الدلائل على أن القوات البولونية والهندية في افريقيا على اتفاق مع المنشقين اليمنيين في بلادهم أكثر مما هم على وفاق مع حكوماتهم .

ــ الثالث عشر من كانون الاول : أنباء عن اعتقالات المثقفين وبعض زعماء العمال في المانيا الشرقية ، تشيكوسلوفاكيا ، هنغاريا ، والمانيا الشرقية . ولا يبدو انها ناجحة . وتظهر تقارير في الصحف الغربية عن بلاغات صادرة عن تنظيم سري في هذه البلدان وعما هو حقا حركة انفصال مكشوفة في بولونيا .

ــ العشرون من شهر كانون الاول : تبين أن القوات الافريقية السوداء التي تتقدم بشيء من الفوضى من ناميبيا ، وزمبابوي ، وموزامبيق ، هي

(١) يفترض الكاتب أن الشاه لايزال على قيد الحياة حيث ان الكتاب صدر قبل وفاة الشاه وخروجه من ايران . (المترجم)

بأمرة ضباط من السوفييت والكوبيين والجامايكيين ، ومن الواضح أنهم لا يسيطرون على القوات الموضوعة تحت أمرتهم انضباطيا .

ـ الرابع والعشرون من شهر كانون الاول : أعلنت الجمهورية العربية المتحدة أنها اكتشفت خطة ايرانية لارسال قوات الى دول الخليج ، وهددت انه اذا حدث ذلك فستقوم بعمل عسكري ضد ايران بما في ذلك هجوم جوي على طهران . في حين تهدد ايران بالرد الفوري وتطلب المساعدة من الولايات المتحدة الاميركية .

ـ الخامس والعشرون من شهر كانون الاول : في رسالة موجهة الى العالم يقترح الرئيس كارتر « البطة العرجاء »(١) اجراء مباحثات على مستوى عال مع الاتحاد السوفييتي بموجب اتفاقية منع الحروب النووية لعام ١٩٧٣ . وذلك للنظر في الوسائل المؤدية لانهاء التوتر في افريقيا والشرق الاوسط ، واقتراحه بهذا الشأن حول وجوب توقف القوات العسكرية المنتشرة في انحاء العالم في مواقعها الراهنة مع فرض حظر على تصدير الإسلحة الى أية جهة في افريقيا والشرق الاوسط . ويقترح أن يتولى اسطول الولايات المتحدة الاميركية فرض حصار على الساحل الغربي لافريقيا . وفي نفس الوقت يتولى الاسطول السوفييتي فرض حصار مماثل على الساحل الشرقي لافريقيا والخليج بمساعدة من الاسطول الاميركي ، على ان تقوم الدولتان العمتان بفرض حصار على السفن الناقلة للاسلحة من المرور عبر المتوسط .

ـ السادس والعشرون من كانون الاول : يقول الاتحاد السوفييتي انه سيتحدث فقط مع الرئيس « تومبسون » بعد تسلمه مهام منصبه في العشرين بمساعدة من الاسطول الاميركي ، على ان تقوم الدولتان العظيمتان بفرض حصار من كانون الثاني. وينحي باللائمة على الرئيس كارتر « البطة العرجاء » بسبب

(١) **البطة العرجاء .** ترجمة لـ (Lame Duck) وهو اصطلاح يقصد به التشهير بصاحب منصب رفيع يواصل النهوض بأعباء مهمته فترة موقتة بين هزيمته في انتخابات جديدة وبين تولي الفائز بتلك الانتخابات مهام منصبه رسميا . (المترجم)

الشرور الحالية التي تعم العالم ، ولكنه في الوقت نفسه ، يوافق على تجميد القوات العسكرية من قبل الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفييتي .

ـ الثامن والعشرون من كانون الاول : ايران تعلن أنها لا تلتزم باتفاقية التجميد ، وخلافا لنصيحة الولايات المتحدة ، تعزز قواتها المتواجدة في عُمان وتؤمن دعوة من اتحاد الامارات العربية لارسال قوات دفاعية من ايران الى أبو ظبي . وقد أمكن توزيع صور تلفزيونية في أرجاء العالم (وكان فريق اميركي للتصوير قد حصل عليها) عن القوات الايرانية وهي تنزل في عُمان ، ولسيارات مدرعة تحمل علامات ايرانية الى جانب القوات العمانية . ويستغل الاتحاد السوفييتي هذه الصور استغلالا ناجحا لدعم ادعائه بعدوانية ايران . والاتحاد السوفييتي يقول هذا وهو يخرق اتفاقية التجميد ويقول أيضا أنْ القوات البحرية التابعة للولايات المتحدة الاميركية (والمفروض أنها تتعاون مع الاتحاد السوفييتي من أجل منع حوادث الانتهاك والخرق هـذه) قـد تواطأت معها .

ـ التاسع والعشرون من شهر كانون الاول : غواصة سوفييتية تغرق ناقلة ايرانية ، وتتعرض سفينة تجسس اميركية الى هجوم بالصواريخ في خليج عدن .

ويمكن القول أن الهجمات السوفييتية في التاسع والعشرين من كانون الاول تعتبر بقليل من التبرير الطلقات الاولى للحرب العالميـة الثالثة . لقد جاء اطلاقها في الميـاه الشرق أوسطية . وكانت كل من شؤون البحرية وشؤون الشرق الاوسط بؤرة اهتمام سوفييتي مركزة وتخطط لسنوات عديدة « انظر الملحق رقم ٢ » . وبعد ان افاقت الحكومة الايرانية من الصدمة الاولى التي أحدثها هجوم الغواصة ، اتخذت سلسلة من الاجراءات للسيطرة التامة على مياه الخليج ومضيق هرمز . أما سفينة المخابرات الاميركيـة العاثرة الحظ ، فتوجهت الى « مومباسا » على أثر عرض للمسـاعدة قدمته حكومة غينيـا الى الرئيس النـازل في آخر ايام ادارتـه ، ترافقها مجموعة

ناقلات اميركية كانت تعبر البحر الاحمر جنوبا في استراحة لقوات اسطول الولايات المتحدة الاميركية في المحيط الهندي . بعد أن نظفت هذه المجموعة من الناقلات مضيق باب المندب تلقت أوامر للقيام بعملية استطلاع مسلح لعدن ، حيث حددت بدقة مواقع وهوية مجموعة سريعة من زوارق الصواريخ من اصل سوفييتي كانت قد قامت بمهاجمة سفينة التجسس الاميركية ، كما اعلمت عن وجود قوات حديثة من طيران الاستطلاع القاذف التابع للبحرية السوفييتية ، وقد رفض طلب الموافقة الموجه الى واشنطن لضرب كل من زوارق الصواريخ السريعة وطيران البحرية . وهكذا ظلت سفينة التجسس عائمة مؤقتا ولكن بدون أن يؤخذ لها بالثأر .

وكان من الممكن للادارة الاميركية أن تمتنع ، ودون اراقة ماء الوجه سواء داخليا أم خارجيا ، عن الادعاء بانها تتصرف من أجل الحفاظ على السلام مع القيام بهجوم عاجل ردا على الهجوم الذي تعرضت له سفينة التجسس ، وبدلا عن ذلك زادت مجموعة الناقلات الاميركية من سرعتها للانضمام الى السفينة المعطوبة ومرافقتها الى « مومباسا » . وفي الوقت نفسه قدمت الاحتجاجات القوية الى موسكو مع المطالبة بمحكمة دولية للتحقيق وتقديم الاعتذار والتعويض . ثم جاءت الانباء عن اخراج غواصة دورية سوفييتية من نوع « التانغو » الى سطح الماء في خليج هرمز من قبل قوات ايرانية مضادة للغواصات وأخذ طاقم الغواصة أسرى . وباختصار فان أول اختبار للبحرية السوفييتية في مجال استخدام القوة الحقيقية لدعم سياسة الكرملين قد مني مبدئيا بخيبة أمل .

وقد أصدرت القيادة البحرية السوفييتية في أعقاب أخطائها الاولى أمرا الى غواصة من طراز « فيكتور » المسيَّرة بالقوة النووية لاغراق سفينة التجسس الاميركية وهي التي كانت مكلفة أصلا باعتراضها وتعقبها . ومن المحتمل أن هذا الامر الصادر عن القيادة البحرية السوفييتية يأتي في أعقاب توبيخ شديد من ادميرال الاسطول « غورتشكوف » ابن السبعينات وبناء على نصائحه . والمعلوم أن هذا الادميرال كان يصر ولعدة سنوات على

ضرورة تحقيق السيادة السوفييتية على البحار من أجل انتصار الماركسية ـ اللينينية . ونفذت الغواصة مهمتها على الرغم من وجود مجموعة النقل الاميركية دون أن يكشف أمرها . ناهيك عن تدميرها . واستعاد المكتب السياسي ثقته بقدرة البحرية السوفييتية على العمل لدعم الاهداف السياسية .

ودرست بعناية وثيقة هيئة أركان البحرية عن « ارتباط القوات » وبدا جليا أن العمليات الجوية ـ البحرية ، التي تضمنت قتالا حقيقيا تختلف اختلافا كبيرا عن الدعاية البحرية للاختراق السلمي لفضاء المحيط ، التي اعتاد الاسطول السوفييتي ان ينفذها بطريقة نموذجية منذ ان وصل الى مياه المحيطات في الستينات . وقد واجه قائد الاسطول السوفييتي الجديد صعوبة في اقامة علاقات مرضية مع مختلف الانظمة السياسية وقيادات القوات المسلحة في الشرق الاوسط . وحتى الآن كان الوجود السوفييتي يقوم على اتفاقات سياسية أبرمت من قبل وزارة الخارجية السوفييتية وحددت فيها التزامات الفريقين المتعاقدين بتفصيل كبير ، وتنهى عن أي انحراف ، وكل توضيح بشأنها يحال الى موسكو .

وعندما بدأت الاحداث تتعاقب بسرعة ظهر ضعف هذا الموقف بوضوح . فبعد اعلان الجمهورية العربية المتحدة الجديدة أن البحر الاحمر منطقة حرب ، واغلاق مضيق باب المندب ، وجد على سبيل المثال عدد من السفن الحربية السوفييتية والقوات البحرية الاضافية والسفن التجارية بعضها في عرض البحر وبعضها الآخر في الموانىء ، تتطلب تدخلا دبلوماسيا مع السلطات الوطنية المحلية ، وكل ما كان بوسع الادميرال قائد الاسطول السوفييتي في الشرق الاوسط « فوزميف » عمله ، هو اعلام موسكو ، وانتظار توجيهها .

ومن وجهة النظر البحرية فقد قيدت صلاحياته على نحو مماثل . وكانت الوحدات البحرية والجوية السوفييتية العاملة في الشرق الاوسط تنتمي الى احد الاساطيل الرئيسية ـ في الشمال او في البحر الاسود أو

الباسفيكي ـ . واذ تنقل القيادة البحرية السوفييتية فجأة الى قائد قوات الشرق الاوسط« فوزميف » حق السيطرة العملياتية على عدد من السفن الحربية والغواصات والطائرات العاملة بعيدا عن قواعدها الرئيسية ، فانها انما تخلق مشاكل في العلاقات القيادية المتداخلة . ولا يتسنى حلها بسهولة من قبل قائد واركان حربه لانهم ليسوا قادرين اصلا على استخدام بداهتهم في أمور ادارية .

وحتى في الميدان العملياتي ألفى « فوزميف » قائد قوات الشرق الاوسط نفسه معزولا بعض الشيء . وقد تلقى شرحا للوضع في الشرق الاوسط قبل مغادرته موسكو . ونظرا لضيق الوقت لم يشرح له الوضع بدقة عما كانيجري في افريقيا الجنوبية . لقد علم بالطبع ، ان المستشارين السوفييت والاسلحة والعتاد الروسيين وكذلك القواعد السوفييتية ، كانت جميعها تسهم في القوة العسكرية لاتحاد الجيش الشعبي الجنوب افريقي . ولكن من هو بالضبط آمر كل هذه الفعاليات والقوات السوفييتية ؟ وما هو التوجيه الذي تقوم عليه التصرفات السوفييتية ؟. لذلك قرر قائد القوات ارسال ضابط ركن كبير ليقف عما كان يجري . وسافر الضابط في ألبسته المدنية وعلى متن طائرأت مدنية ليصل أخيرا الى « بيرا » ، حيث اتصل بعضو من البعثة العسكرية السوفييتية . ولكن للاسف كانت الاحداث تسير بسرعة كبيرة . فالبحرية السوفييتية التي بدأت نشاطها بخطوة خاطئة ، ثم صححت خطأها : قد فشلت على الرغم من ذلك في الاحتفاظ بسيطرتها على الاحداث التي يطلبها التنفيذ الفعال للعمليات السياسية الدقيقة والمعقدة للاتحادالسوفييتي.

وإذ يزداد الدليل ، بحيث لا يمكن التغاضي عنه مدة أطول ، على أن حالة العداء قد تقوم بين الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفييتي ، فقد عمد كلا الطرفين الى اخراج خطط الطوارىء ونفض الغبار عنها ، أما الصعوبة التي واجهها الاميركيون بالاضافة الى فقدان سفينة التجسس فهي فقدان المبادهة ، اما الروس من جهة اخرى وعلى الرغم من قلة براعتهم في

التنفيذ الا انهم كانوا يعملون بالضبط ما كانوا يحاولون عمله ، يضاف الى ذلك وفي هذه المرحلة بالذات انه على الرغم من انهماك الطرفين سياسيا وعسكريا في الشرق الاوسط ، وفي افريقيا الجنوبية فقد استفاد الروس من عاملين اضافيين ملائمين . أولا : علاقة التبعية لحلفائهم في حلف وارسو . بينما كان للسبب الرئيسي في الاستياء المتصاعد الذي كان وراء الضغط السوفييتي الحالي على الولايات المتحدة الاميركية فائدة اخرى ، ألا وهي احكام سيطرتهم التامة على القوات المسلحة للحلف ، وعلى طرق استخدامها في العمليات ، ولم يكن الحال مماثلا لدى الاميركيين . ولقد دأبت حكومة الولايات المتحدة الاميركية على تبرير انتسابها للاحلاف على انه امر لا يستغنى عنه لأمنها القومي وخاصة حلف منظمة شمال الاطلسي . ومثل ذلك كانت حكومات الدول الاعضاء في الحلف تبرر لشعوبها ضرورة انتسابها له على اعتبار ان ذلك لصالح أمنها القومي أيضا . من هنا فان مسألة اتخاذ القرار يجب ان تكون مشتركة .

وكان على الولايات المتحدة الاميركية بالتالي ، وعلى نقيض الاتحاد السوفييتي أن تتشاور مع حلفائها حيال أي عمل عسكري . ولم يكن هذا كل شيء فاذا لم يتعمد الروس مهاجمة منطقة حلف الاطلسي فانهم يظلون مطمئنين الى أن حلف الاطلسي لن يقوم بأي عمل لمد يد المساعدة للولايات المتحدة الاميركية .

ولعل هذا الضعف في أحكام معاهدة حلف شمال الاطلسي تستحق التوضيح . فعندما تم التوقيع عليها في الرابع من نيسان عام ١٩٤٩ ، لم يكن الاتحاد السوفييتي قوة بحرية رئيسية . اذ بدأ بانشاء قوة من الغواصات مقرها في مضيق « كولا » ، حيث سيكون لهم ممر الى شمالي الاطلسي لا يتجلد اطلاقا . لكن من المفروض أن لا تعامل البحار والمحيطات في العالم كامتدادات من الاراضي ذات السيادة « الاراضي الوطنية » . وكل ما كان يحتاج اليه هو اعتبار أي هجوم على سفن وطائرات عضو في الحلف سببا لعمل دفاعي جماعي ، كما لو كان الهجوم يتم عبر الحدود البرية . وكان

يعتقد بوجوب وضع حد جغرافي في البحر . ومن الواضح أنه يجب أن تكون المياه المتاخمة للسواحل الشرقية للولايات المتحدة الاميركية ضمنا . ويقترح ان تمتد الحدود الى أبعد مسافة يمكن للغواصات العاملة في مضيق « كولا » أن تسير عليه في دورياتها . وقد اختير مدار السرطان ليكون هذا الحد .

وقد اتخذت عدة اجراءات خلال السنوات الاخيرة للتخفيف من الآثار السيئة التي حلت بمنظمة حلف الاطلسي نتيجة تحديد مدار السرطان . وكان من أهم هذه الاجراءات تجميع استخبارات البحرية المتحالفة . ومن الواضح أن ذلك لا يمكن اقتصاره على منطقة معاهدة حلف الاطلسي . ومع ذلك وحيثما وجدت السفن التجارية للدول الاعضاء فان معظمها ، ان عاجلا أو آجلا ، يجب أن يمر في شمال الاطلسي . فكيف يمكن تنسيق الاجراءات المتخذة لحمايتها دون معرفة أوقات وطرق ابحارها .؟ وكيف يمكن تنظيم أهم الاستخدامات الاقتصادية للسفن ، من أجل دعم الشعوب والمجهود الحربي ، اذا لم يتم استعراض عالمي شامل للموارد المتاحة ؟ وقد نصت خطط منظمة حلف الاطلسي ، والامر كذلك ، على اقامة مجموعتين ، وهما الاشراف البحري على منظمة ملاحة ، وكذلك مجلس تطيط للملاحة غبر المحيطات . ومن خلال اعضاء هاتين المجموعتين الذين كانوا سيتصرفون كأفراد وبصفة غير رسمية ، وبالتنسيق مع مجموعة الملاحة الدولية أمكن وضع رد مناسب على نشاطات البحرية السوفييتية في البحر العربي والخليج العربي .

وكان السفير البريطاني في واشنطن ، هو أول من نقل الى رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، التماسا عاجلا من أصحاب السفن ، لكيلا تتخذ ردا عنيفا تجاه التحرشات البحرية السوفييتية . أما الايرانيون فسيظلون ملتزمين من خلال اشرافهم على الملاحة في الخليج ، بضمان استمرار حركة ناقلات النفط الى الدول الاخرى غير الولايات المتحدة الاميركية . فاليابانيون مثلا

بقوا يعتمدون كليـــا على بترول الشرق الاوسط . واذا لم يتم قطع البترول من مصـــدره ، (واذا لم تتغاض ايران عن ذلك !) فكل شيء سيكون على ما يرام . وبتحويل اتجاهات العديد من ناقلات البترول المتواجدة في أعالي البحار ، وبالاعتماد على المخزون وعلى مصادر التموين التبادلية ، كان لزاما على الولايات المتحدة الاميركية والامر كذلك أن تحاول ركوب العاصفة لتجنبها. وكان الشيء الهام هو امكانية تحديد الاهداف السياسية التي أمل الاتحاد السوفييتي في الوصول اليها باحداث ضغط بحري على شحنات بترول الشرق الاوسط الى أميركا ، والنظر في الاجراءات المضادة .

وقد عملت الهجمات البحرية السوفييتية والرد الايراني ، على تنبيه حلف الاطلسي ، « الذي كان يخشى ذيول الاضطرابات في بولونيا والتوتر في يوغوسلافيا » الى امكانية وجود علاقة مباشرة بين الاحداث في أوروبا وتلك في الشرق الاوسط : وفي الحقيقة لفتت اللجنة العسكرية لحلف الاطلسي الانتباه الى ذلك من خلال تقريرها عن نسف بئر بترولية في بحر الشـــمال بعد قليل من مرورالبواخرالسوفييتية في تلك المنطقة ، وذلك فيالثالث من شهر كانون الثاني عام ١٩٨٣ . وكان النفي الروسي لمسؤوليتهم عن الحـــادث ، وافتراضهم انه كان سببا وجيها ، يدفع اوروبا الغربية للابتعاد عن المشاكل ، ذا دلالة كبيرة .

وقد ترتب على كون بئر البترول لبريطانيا تأثير لم يستطع « الكرملين » تقدير عواقبه . واتخذت بريطانيا عملا عاجلا ، لقي الموافقة الضمنية للجنة السياسية الفرعية لمجلس حلف الاطلسي المنعقد في دورة طارئة . وكان هذا العمل هو الاعلان عن اقامة وكالة اشراف على حماية البيئة في بحر الشمال وذلك بالاتفاق بين الدول المعنية في بحر الشمال . على ان يكون لها جهـــاز تنفيذي مقره في « بتريفي » حيث يتواجد هنـــاك مقر القيادة البحرية لقائد البحرية الملكية ، وسكوتلاندا وشمال ايرلندا ، وزميله قائد القوة الجويـــة الملكية . وقد أصبح مقر القيادة في « بتريفي » قادرا على أن يضـــع موضع

التنفيذ وبسرعة وسهولة خطط لوكالة الاشراف على حماية البيئة في بحر الشمال ، تلك الخطط التي كانت مهيئة منذ سنوات ، وذلك منذ أن أصبح مقر تنسيق عمليات الانقاذ البحرية والجوية متمرسا وذا خبرة جيدة في تنفيذ العمليات ، بالتنسيق بين السلطات المدنية والعسكرية حول بحر الشمال . وتقتضي المرحلة الاولية احداث طرق بحرية عبر بحر الشمال على أن يكون التقيد بها اجباريا اذا ما أريد التمتع بالاستمرار بحق المرور في المنطقة . وكانت هذه الطرق تتحاشى منشآت الغاز والبترول . كما أعلن عن مناطق صيد السمك المتحركة وذلك لاستعمال وسيلة « اعلانات البحارة » .

وقد هيأت لتطبيق هذه الخطة ، وربما لعدة سنوات ، التغييرات الهامة في بنية قيادة منظمة حلف الاطلسي « الناتو » التي جرت ووضعت قيد التنفيد عام ١٩٨٣ « انظر الملحق ٣ » . وكان من المعترف به منذ مدة طويلة ، ان بنية القيادة وخاصة فيما يتصل بالقوات الجوية والبحرية لقوات حلف الاطلسي وبحر الشمال والقنال الانجليزي ، قد توقفت عن التمشي مع الحقائق الاستراتيجية والعملياتية . بل لقد كان يدور تساؤل عما اذا كانت تتمشى معها في أي وقت من الاوقات .

وقد دعيت كل من السويد وروسيا السوفييتية وبولونيا والمانيا الشرقية وهي الدول التي كانت سفنها ومراكب صيد الاسماك التابعة لها تعمل في بحر الشمال بانتظام ، لارسال من يمثلها اذا رغبت ذلك في مجلس وكالة الاشراف على حماية البيئة الى جانب الدول الساحلية . وفي الوقت نفسه اتفق القائد العام للبحرية البريطانية مع زميله قائد القوات الجوية الملكية « R.A.F » « القيادة الضاربة » على توبير مراقبة مسلحة للاسطول الحربي السوفييتي الذي بدا أنه كان مسؤولا عن نسف بئر البترول في بحر الشمال .

أما الاحداث في الاماكن الاخرى فكانت تسير أيضا بايقاع مثير بشكل مماثل . .

ـ الواحد والثلاثون من كانون الاول عام ١٩٨٤ تقع الاضطرابات في برلين الشرقية ، بينما يقف سكان برلين الغربية بالقرب من الحائط يراقبونهم ويشجعونهم على العصيان ، ويحيون المتظاهرين ، في ظل تغطية تلفزيونيـة كاملة للاحداث . وتخمد الاضطرابات من قبل القوات السوفييتية التي استلمت زمام الامور من شرطة المانيا الشرقية وعلى نحو أشد صرامة ودموية مما جرى في بولونيا في الشهر الاسبق .

وقد لوحظ هنا أن التغطية التلفزيونية الذي قصد منها أن تلعب دورا هاما في الاحداث الموصوفة في هذا الكتاب ، كانت لها في هذه الاحداث أيضا أهمية كبيرة تستحق التوسع في تفحصها والاستفادة منها .

تجري التغطية التلفزيونية للاحداث ، في البلدان المتقدمة ، بواسطة كاميرات الكترونية خفيفة قادرة على تسجيل صورها على شريط فيديو ٢٥ مم ، أو بارسال مادتها المصورة حية من مسرح الاحداث مباشرة . وفي الواحد والثلاثين من كانون الاول وصلت « كاميرات ENG » وهي كاميرات لتجميع الاخبار الكترونيا من بلدان عديدة واحتشدت في نقاط على طول جدار برلين ، وكانت تقوم بأخذ لقطات حية للتظاهرات وارسالها للعالم كما أمكن تأمين مجموعة لقطات من داخل برلين نفسها ، فيما كانت وحدة توثيق اميركية تعد برنامجا عن جمهورية المانيا الديمقراطية . وكان مدير هذه الوحدة قد مُنح من قبل سلطات المانيا الديمقراطية حرية الحركة حول برلين ، اذ كان قـد سبق له ان اكتسب شهرة خلال حرب فييتنام بمعارضته الشديدة لتلك الحرب .

وقد اتفق أنه كان مع المصورين وحملة آلات التصوير من أعضاء وحدته في الطريق لمقابلة زعيم عمالي الماني شرقي ، عندما بدأ المتظاهرون يهددون مقر اتحاد العمال ، واستطاع حملة عدسات التصوير تأمين صور حية من مسافة قريبة ، قبل أن يشعر أفراد الشرطة بوجودهم . وعندما اعترضهم ضابطان بالملابس المدنية من ضباط المخابرات بهدف وقف التصوير ، صرخ سائق سيارتهم ، وهو الماني شرقي قائلا « **الي بشريط التسجيل** » وأمسك

بكرة التسجيل واختفى بين الجماهير ، واعتقل على الاثر المصور والمسجل ومدير التوثيق . ولكن الفيلم الذي أمكن تهريبه من قبل المنشقين عبر الجدار ، ظهر على شاشات تلفزيون برلين الغربية . وقد أظهرت الصور بوضوح لايقبل الجدل أن المتظاهرين لم يكونوا من سواد سكان المدينة المتذمرين ، وانما كانوا من شخصيات مسؤولة ومنضبطة ، وتضمن الفيلم أيضا لقطات بشعة لشرطي الماني شرقي ، وهو يطلق النار عمدا على المتظاهرين بلا مبالاة وبدم بارد ويطاردهم ويضربهم بوحشية .

واتهم الفريق الاميركي ومديره بالتحريض على الاضطرابات وبالمسؤولية الى حد كبير عن وفاة اثنين من شرطة المانيا الشرقية . ومن سخرية القدر ان هذا المدير كان معروفا بأفكاره اليسارية ومتعاطفا معهم ، ولكن في الحقيقة لم يشفع له ذلك بشيء .

ولم تقم جمهورية المانيا الاتحادية بأية حركة . وتتلبد سماء العلاقات بين أوروبا الغربية والولايات المتحدة الاميركية بالتوتر ، فقد أخذت مجموعة دول السوق الاوروبية المشتركة تتأثر بوقف تدفق البترول من الشرق الاوسط ، وباعاقة الملاحة في البحر الابيض المتوسط ، وأخذت تدعي ان مصالحها الخاصة في النزاع لم تؤخذ بعين الاعتبار . فالمجموعة الاوروبية تؤكد على حقها في استيراد البترول من ايران وعلى حرية حركة الملاحة لاعضائها وتصر على ان تكون طرفا في مباحثات القمة القادمة .

ـ الثالث من كانون الثاني ١٩٨٥ : في المكسيك تقع جريمة اغتيال رئيس الجمهورية .

ـ في التاسع من كانون الثاني : جمهورية المانيا الديمقراطية تعلن الآن عن اعتقالها لفريق التلفزيون الاميركي . وانه سيحاكم بتهمة خطيرة تتعلق بالتحريض على الاضطرابات وبقتل اثنين من شرطة برلين الشرقية في الواحد والثلاثين من كانون الاول عام ١٩٨٤ .

ـ من العاشر الى الثامن عشر من كانون الثاني : الولايات المتحدة

الاميركية تعلن : عن وجوب توفير مزيد من قوات البحرية في الخليج ، من أجل تثبيت الوضع هناك وترسل قوات تدخل أميركية سريعة الى بندر عباس .

ـ التاسع عشر من كانون الثاني : مصر تدعو الاتحاد السوفييتي لمباشرة الاشراف على قناة السويس ، والاسطول السادس الاميركي يغلق المخرج الشمالي للقناة جديا .

ـ العشرون من كانون الثاني : تستقبل رسالة الرئيس السوفياتي « فوروتنيكوف » الى الرئيس « تومبسون » في يوم تنصيبه رئيسا للولايات المتحدة الاميركية ، من قبل العالم المذعور على أنها رسالة لطيفة الى حد يبعث على الدهشة وانها تبشر بانفراج دولي جديد. اذ يقول الرئيس «فوروتنيكوف»

آ ـ لقد طلبت الحكومة المصرية اليوم من الاتحاد السوفييتي أن يشرف على قنال السويس . لكن الاتحاد السوفييتي قال : انه يرغب ان يقوم بذلك فقط بالتعاون مع المراقبين الاميركيين في المنطقة ، لان الغرض السوفييتي الوحيد هو تنفيذ التجميد المتبادل المتفق عليه مع الرئيس « كارتر » بعد رسالة عيد الميلاد . وقد يشعر كل من الاميركيين والسوفييت بطرقهم المختلفة ان الطرف الآخر قد خرق اتفاقية التجميد خلال الاسابيع الثلاثة الماضية « **ولكن في مطلق عهد رئاستك أرجو أن نعمل سويا لحل هذه القضايا** » .

ب ـ أما أعضاء فريق التلفزيون الاميركي المتهمون بجريمة قتل الشرطيين في برلين الشرقية ، فستجري اعادتهم الى ديارهم عن طريق برلين الغربية . وفي الوقت نفسه يكشف النقاب عن أن السائق الذي أخذ الفيلم مع عدد من المنشقين الآخرين جرى اعدامهم لكونهم مسؤولين بصورة رئيسية عن جرائم القتل التي كان الصحافيون الاميركيون يشاركون فيها عن طريق « المشاهدة » ، وان عقوبة الاعدام قد نفذت على بولونيين معادين للثورة الذين شاركوا في شهر تشرين الثاني بقتل رئيس بلدية « برسلو » بغلظة كبيرة . .

ج ــ يدعو الرئيس « فوروتنيكوف » على جناح السرعة الرئيس « تومبسون » لاجتماع قمة ، ويأمل أن ينعقد « **خلال هذا الاسبوع الاول من وجودك في الرئاسة** » .

وهذا « النداء السوفييتي لانفراج ميونيخ » كما دعته جريدة بكين ديلي . قد سبقه هذا التقرير السري من وزير خارجية السوفييت « بارونتزوف » الى المكتب السياسي بتاريخ التاسع عشر من كانون الثاني .

مذكرة « بارونزوف BARONZOV »

لقد حققنا الآن أهداف عملياتنا في الشرق الاوسط وجنوب افريقيا ، واننا في هذا الوقت أقوى مما توقعنا أن نكون أصلا :

١ ــ لقد أعدنا التأكيد على اشرافنا على بولونيا والمانيا الشرقية ، وعلى الرغم من أننا نفذنا حكم الاعدام بالمعادين للثورة هناك ، فان الصحف الاميركية ستقتنع بسهولة لتقول أننا متسامحون ، لاننا نعيد طاقم تلفزيون الولايات المتحدة الاميركية وقد أصبح معلوما لدى المعادين للثورة من البولونيين ومن الالمان الشرقيين ، ان الغرب لن يدعمهم خلال فترة رئاسة « تومبسون » وهكذا يتكشف بأنه أضعف من أن يعتمد عليه .

فاذا وقعت اضطرابات في بولونيا أو في دول اشتراكية أوروبية شرقية في عام ١٩٨٥ أو عام ١٩٨٦ فسيكون من السهل الآن التدخل في يوغوسلافيا وتنفيذ الخطط الراهنة للهجوم على المانيا الغربية اذا احتاج الامر . وبذلك يظهر أن النظام في الاتحاد السوفييتي لا يمكن أخذه بالتخريب وبالانقلاب العسكري .

٢ ــ لقد استولينا على موقع قوي جدا في الشرق الاوسط ، وإن

امدادات البترول من الشمال العربي (العربية السعودية والعراق) هي الآن في أيدي المصريين ويجب علينا أن نضمن أن هذا يعني البقاء في ايــدي السوفييت ، وقد حيدت اسرائيل بموجب ضمانات يجب احترامها في الوقت الراهــن .

واننا نستطيع ان نسمح للايرانيين بارسال البترول الى الولايات المتحدة الاميركيــة واوربــا عبر الخطوط البحريــة التي يجب ان نسيطر عليهــا باضطراد لانــه سيكون هناك نقص بالتموين بالبترول من شأنــه أن يعرض البلدان الرأسمالية الى وضع صعب . وان القوانين الرأسمالية الخاصــة بالعرض والطلب تعني أن أسعار البترول ستبقى عالية جدا . وأن ذلك سيحث خطى هذه البلدان باتجاه الاعتماد على الطاقة النووية . على الرغم من اننا نتفق في تنشيط ودعم حماة البيئة العديدين في هذه البلدان الذين يقولون ان هذا النوع من الطاقــة خطر ولااخلاقي .

وسيقولون بأن الامر أكثر خطورة ولاأخلاقية عند وصول التكنولوجيا الذرية للبلدان الفقيرة جدا ، وهكذا فان هذه البلدان الفقيرة سترى لزاما عليها ان تعتمد بشكل متزايد على أولئك الذين يسيطرون على امداد البترول من الشمال العربي ، أي على المصريين والاتحاد السوفييتي . ونستطيع أيضا استخدام سلاح النفط من أجل زيادة اشرافنا على اقتصاد البلدان الاشتراكية في اوروبا ، خصوصا بولونيا وجمهورية المانيا الديمقراطية ، مقتصدين جــدا فلا نسمح لأية جهة ان تحصل على كمية كبيرة من بترول شبه الجزيرة العربية. وان احد اهدافنا الرئيسية في مباحثات القمة مع الرئيس « تومبسون » هو محاولة وضع يدنا على البترول العربي ، واذا امكن ليس بترول العربيــة السعودية والعراق فحسب بل وبترول بعض دول الخليج الادنى أيضا .

٣ ــ التسوية في جنوب افريقيا : أما التسوية في افريقيا الجنوبية فهي أقل أهمية ، اذ نستطيع من الناحية السياسية أن نقدم تنازلات للاميركيين

بينما نترك الكوبيين والجامايكيين يكمنون هناك . وهذه مسألة من شأن المكتب السياسي أن يبت فيها بالتشاور مع وزارة الدفاع .

وترغب وزارة خارجية الاتحاد السوفييتي ان تسجل اعجابها للفاعلية والجرأة اللتين أظهرتهما القوات المسلحة السوفييتية خلال الاسابيع الثلاثة الصعبة ، في الشرق الاوسط ، وفي افريقيا ، وفي بحر الشمال ثم في برلين الشرقية . ولا ريب أن الانفاق الضخم على القوات المسلحة خلال العقد الماضي قد مكن من تنفيذ السياسة السوفييتية بسهولة في هذا الوقت الحرج . حقا لقد كان لها ما يبررها .

وكان السيد « بارونزوف » في جملته الاخيرة يرمي الى هدف ما .

* * *

الفصل السابع

مؤتمر القمة وما بعده

استمرت الاستعدادات لعقد مؤتمر القمة بموافقة الطرفين بسرعة أقل نوعا ما من السرعة التي طلبتها موسكو أصلا ، وكخطوة أولى قام كل من وزير خارجية الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفييتي بزيارة حلفائه في أوروبا . ووجد سكرتير الدولة الاميركية الرأي العام الاوروبي موزعا بين نقطتين مقلقتين متعارضتين . فبالرغم من بترول بحر الشمال فان أوروبا الغربية لا تزال تعتمد اعتمادا كبيرا على بترول الشرق الاوسط ، وعلى هذا الاساس فقد املت ان تؤمن الولايات المتحدة الاميركية فتح طريق البترول بعمل حازم في الخليج والمحيط الهندي وافريقيا الجنوبية . لكن الاوروبيين كانوا مترددين بطلب ذلك بشكل صريح لانهم كانوا يخشون الرد الاميركي الواضح وهو : **« اذا ما أردتم الحصول على البترول بنفس القدر الذي نريده فتعالوا وساعدونا في الحصول عليه »** وقليل من هذه الدول لديه قدرة تذكر للعمل عسكريا خارج أوروبا ، ولكن معظم هذه الدول كان يتمسح بالفكرة القديمة وهي أن مسؤولية منظمة حلف الاطلسي « الناتو » قاصرة على منطقة أوروبا والمنطقة المحددة بشمال الاطلسي — اي شمال مدار السرطان — ومن المحتمل أن يقع ذلك العمل ، خارج تلك الحدود ، وقد جوبهوا ، ليس للمرة الاولى بالتباين الاساسي بين نصوص التحالف والموقف الحقيقي على الارض ؛ وقد كان خط الحدود لقارة أوروبا محددا بوضوح ويرجع استقراره الى خمس وثلاثين سنة سابقة ، بسبب تركيز دفاعات منظمة حلف الاطلسي على الحفاظ على خط الحدود ذاك بعيدا عن الانتهاك . ولكن اذا ما ظهرت

أسباب التوتر خارج أوروبا حيث لا توجد خطوط حدود واضحة ، واذا ما انتشر التوتر حول العالم الى أن تحاصر أوروبا بالصراع فهل تستطيع دول أوروبا الغربية البقاء في قوقعتهم الصغيرة ؟

وبالمقابل كان السؤال الذي طرحه الجانب الاميركي مختلفا تماما ، وفيه شيء من الحزم . اذا كان الاوروبيون لا يستطيعون أو لا يريدون المساعدة على احتفاظ البلدان المنتجة للبترول بحريتها وبقاء الطرق البحرية مفتوحة ، فهل هم على استعداد ، في أن يعملوا في أوروبا وفي الاطلسي على نحو يمكن التعزيزات الاميركية جزئيا من أن توجه من أوروبا الى مناطق أخرى مهددة باخطار عاجلة ؟ وعند هذه النقطة كانت نقطة القلق الاخرى عند الاوروبيين تظهر بمزيد من الوضوح شيئا فشيئا . فاذا ما اتخذت الولايات المتحدة الاميركية خطا متشددا سواء بمساعدة مباشرة أو غير مباشرة من أوروبا من الاتحاد السوفييتي أو أعدائه في الشرق الاوسط أو الافريقيين . واذا ما كتب النجاح لهذا العمل ، الا يجد الاتحاد السوفييتي نفسه مدفوعا لاستعادة مكانته الشاملة ويتخذ من مهاجمته لاوروبا منطلقا رئيسيا للمساومة ؟

ان وضعا مثل هذا يعتبر مغريا بشكل خاص ، لا سيما اذا أنقصت القوات الاميركية في أوروبا أو اذا عرف أن تعزيزاتها قليلة .

أما ارادة أوروبا لاحراز النصر وقدرتها على اتخاذ القرارات فقد أضعفتهما التطورات الداخلية . فبعد أن اتسعت المجموعة الاقتصادية الاوروبية « السوق المشتركة » بانضمام اسبانيا ، والبرتغال ، واليونان . خطت بعض الخطوات باتجاه انتاج مشترك للعتاد العسكري ، ولكنها لم تحدد المؤسسات الضرورية لصياغة سياستها الخارجية العامة أو سياسة فعالة لتجميع القوات العسكرية في الميدان . يضاف الى ذلك أن أوروبا الغربية لم تقرر تماما كيف تتعايش مع الشيوعية الاوروبية .

ففي ايطاليا اصبح الحزب الشيوعي يتمتع بقاعدة شعبية-عريضة بسبب الشهرة التي اكتسبها باعادته للقانون والنظام للبلاد ، لكن نجاحه هذا ومشاركته في الحكومة الايطالية جعلاه أكثر تعرضا لفساد السلطة الحاكمة . ومن ناحية اخرى ، فقد غدا الحزب الشيوعي اليوم قويا للدرجة التي كان يريدها لنفسه في ايطاليا ، دون تحمل عبء المسؤولية الكاملة عن المشاكل المحدقة بالبلاد . وبهذا لم يعد الحزب الشيوعي ميالا أكثر من قبل الى سيادة سوفييتية على السلطة والدولة في ايطاليا ، الامر الذي جعله يحافظ خلال سني السلام القلقة هذه على درجة مرضية ومعقولة من المساهمة الايطالية في حلف شمال الاطلسي .

أما في فرنسا من جهة اخرى ، وهي التي أصبحت تحت سلطة الجبهة الشعبية فان نيران القوى السياسية كانت أكثر خطورة . اذ ان الحزب الشيوعي الفرنسي كان لا يزال منقسما على نفسه بين فئتين : المتمسكين بصفاء العقيدة الشيوعية فوق كل اعتبار ، وأولئك الراغبين في الابقاء على الوحدة المتخبطة لليسار كي يكسبوا المزيد من اصوات اليمين بعد موت ديغول. أما موقف فرنسا من الدفاع المشترك عن اوروبا فقد بدا أنه يتلاءم ومختلف القناعات السياسية . ولكن كان هناك تباين كبير حول كيفية معالجة المشكلة في مطلع إلثمانينات ، وقد قيد برنامج القوة النووية نتيجة معارضة انصار حماية البيئة ، وأصبحت هذه المحطات لا تعمل بالطاقة الكاملة وفق الشكل المخفض الذي حدد لها ، وذلك لان فرنسا لا تملك الا القليل من البترول المحلي لذا أصبحت تعتمد اعتمادا كبيرا على الطاقة المستوردة . ويتساءل الفرنسيون ، أيهما أكثر أمنا وضمانا والحدود بين الشرق والغرب تقسم موردي البترول في الشرق الاوسط نصفين . أيهما أكثر أمنا وضمانا للحصول على البترول ؟ طريق صفقات خاصة تعقد مع مصر والاتحاد السوفييتي ، أم بدعم هجوم أميركي معاكس لفتح الطرق البحرية التقليدية ؟ أم أن مزيجا ذكيا من الاثنين هو الافضل ، أي بمعنى المباحثات في كل الاتجاهات ؟

اما المملكة المتحدة وانتاج البترول لديها في الذروة فكانت أقل من

الآخرين حماسة تجاه تهديد خارجي للموردين ، وحتى أن العودة الى الازدهار النسبي واحتمال عودة حكومة المحافظين لم يعملا الكثير للتقليل من ضيق الافق الذي كان سائدا في السبعينات .

وأما في المانيا الاتحادية ، فقد تم بصعوبة احتواء التجاوزات المتطرفة لليسار في المدن ، ولم يخل ذلك من محاسبة الضمير حول ازدياد قوة الشرطة ، وقد ساعد الركود الاقتصادي في السوق الاوروبية المشتركة على احياء الاعتقاد التاريخي ان الازدهار الاقتصادي يعتمد الى حد كبير على تطوير أسواق وواردات أوروبا الشرقية . فالتفوق الصناعي والتجاري في جمهورية المانيا الاتحادية وفي أوروبا الغربية قد قوبل بما يماثله لدى جمهورية المانيا الديمقراطية في الشرق . وقد أغرت هذه المصادفة بعض السياسيين الجريئين للتساؤل عما يمكن أن يصنعه البلدان معا ، وأغلبية الالمان الذين كانوا حتى الآن يرفضون مجرد تصور وجود المانيا موحدة كقوة عظمى اقتصاديا ، كانوا يتقبلون على كل حال أهمية الحفاظ على الفوائد التي يحصل عليها شعب يضع قدما في كل جهة من المعسكرين . ومع أنه قد يكون من الخطورة بمكان تصور رفع الحواجز بينهما ، الا ان تصعيد الخلافات بينهما من خلال تجدد الصراع ما بين الشرق والغرب سيكون ولا شك غير مريح ابدا .

وهكذا فان سكرتير الدولة الاميركية لم يحصل على انطباع موحد أو محدد للمشاعر الاوروبية من خلال جولته على بعض العواصم الغربية الهامة . وهكذا يترتب على الولايات المتحدة الاميركية كالعادة ان تمضي بمفردها في الشرق الاوسط وفي جنوب الاطلسي . وستلام ولا شك على النتائج اذا ما سارت الامور سيرا خاطئا . (كالتعرض المرير الاكثر من المعتاد للنقص والحرمان الناجمين عن السياسات الدولية الخشنة الصعبة في الوضع الحاضر) علما أن هذه الامور مجتمعة قد تشجع الحمائم الاوروبيين على أن يكون لهم

ظفر وناب . وعلى الورق وفوقه في الادارة الاميركية ظلت الخيارات مفتوحة ومزعجـة .

ولم يكن وزير الخارجية السوفييتية أسعد حظا في جولته عـلى العواصم الشرقية من زميله الاميركي ، فقد رأت هذه الدول أن مكاسبها في الازدهار الاقتصادي والذي حصلت عليه بشق الانفس معرض الآن الى خطر اللعبة بالاقتراب من حافة الهاوية السوفييتية ، وقد صعب عليهم أن يصدقـوا التحذيرات السوفييتية عن نقص الطاقة في أواخر القرن . هذا النقص الذي يمكن علاجه فقط عن طريق الاستيلاء مباشرة أو بالواسطة على قسم كبير من واردات بترول الشرق الاوسط . وهي التي بنى عليها السوفييت دعمهم لهجوم مصر على شبه الجزيرة العربية . وقد خشيت هذه البلدان من أن تحرك السوفييت الى حافـة الحرب سيفرض مزيـدا من الضغط غـير المحتمل للحصول على البضائع الاستهلاكية بما في ذلك الاغذية وغلاء اسعارها .

وأشاروا عبثا الى أنـه بينما يهتم البوليس السري السوفييتي بحفنة من المثقفين المنشقين المعروفين ، فانهم (في بولونيا مثلا) كانوا يواجهون حركة أكثر اتساعا وصلابة تقوم على توقع العمال الوصول الى مستوى معيشـة يقترب من مستوى عمال المانيا الشرقية أولا ثم المانيا الغربية ثانيا . وباستثناء معظم مجالات التقنية العسكرية وتقنية الفضاء فان الثغرة كانت تزداد بين الانتاج السوفييتي غير الفعال من جهة ، والمهارات الادارية والتقنية الافضل لدى المانيا الشرقية ، وهنغاريا ، وبولونيا ، وتشيكوسلوفاكيا من جهة أخرى. وكانت الاساليب والتكنولوجيا الغربية مرغوبة أكثر . وقد رأى قادة الاحزاب الشيوعية في دول أوروبا الشـرقية الشيوعية نموذجـا يحتذى به . اذ باستطاعتهم استرداد بعض شعبيتهم الملطخة عن طريق الابتعاد عن الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي .

وهكذا عندما التقى سكرتير الدولة الاميركية بوزير خارجية الاتحـاد السوفييتي « بارونزون » في جنيف في نهاية كانون الثاني ١٩٨٥ لم يكتف كل

منهما بالنظر الى نظيره عبر الطاولة ، وانما الى الصفوف الصامتة من الاعوان والحلفاء التي تجلس خلف كل منهما وقد انقضى اسبوع للاتفاق على جدول اعمال اجتماعهم ، واسبوعان على جدول اعمال القمة المقبلة . وأخيرا تقرر أن يلتقي الرئيس الاميركي « تومبسون » والرئيس السوفييتي « فوروتنيكوف » في الخامس عشر من شهر شباط ، لبحث جميع تهديدات السلام وأي موقف يحتمل أن يؤدي الى اعمال عدوانية نووية « ويذكر ان مكاتب رئيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وسكرتير الحزب الشيوعي السوفييتي أصبحت موحدة منذ مدة » .

لقد وجد المراقبون السياسيون والمعلقون الصحافيون انفسهم في حيرة وانقسام حول أوضاع المشاركين ، وحول توقعات السلام والحرب . وقد خطا كل طرف من الطرفين مسافة أبعد في ميدان المواجهة بينهما ، تجاوزت ماسبقهما اليه اسلافهم منذ كوبا وحصار برلين . ووجد كل منهما رجلا متحمسا يمكن الاعتماد عليه كواجهة ، فبينما وجد الاميركيون في ايران وجده الاتحاد السوفييتي في مصر (وكلاهما كان يدرك حالة عدم الاستقرار التي يعيشها هذا الرجلان الواجهتان) . أما حلفاء كل منهما فقد كانوا مترددين أكثر من المعتاد . ففي أحد المجالات كان لكل منهم مطلب واحد : التأكد من الحصول على امدادات البترول من الشرق الاوسط الى حين الحصول على مصادر بديلة ، والرأي العام في الولايات المتحدة الاميركية كان لايزال يشعر أن حصوله على طاقة رخيصة وافرة حق من حقوق الشعب الاميركي . وقد انتخبوا الرئيس « تومبسون » لاعتقادهم انه اذ يحصل لهم على الطاقة سيكون أفضل من « كارتر » في محاولته اقناعهم بعدم حاجتهم للكثير منها . أما « فوروتنيكوف » فكان مشغولا بأمور أخرى . فالشعب السوفييتي يعتمد عليه في قبول ما يعطى اليه ، أما بالنسبة لشعوب أوروبا الشرقية فان الخيار كان أصعب : فاما التقدم بسرعة نحو مستويات استهلاكية غربية أو العودة الى الدكتاتورية المهترئة نوعا ما للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، والعمل على قبول مستوى ادنى مفروض . فالخيار الاول يحتاج الى المزيد من البترول بينما الثاني يحتاج الى المزيد من القوات السوفييتية.

وكلا الامرين يعانيان من نقص في الامداد في ظل التهديد المتعاظم من الصين . فوجود شبح مفزع اجنبي سيعمل وكما هي العادة على تشجيع القبول . لكن شبحا في المحيط الهندي قد لا يكون مناسبا لهذا الفرض .

وبعد يومين من التهديد والمهاترات ، ظهرت النتيجة ، التي يمكن التنبؤ بها بسهولة : ((**سلام مشرف**)) . وتم الاتفاق على تثبيت الاوضاع مجمدة ، وبقيت السيطرة على حقول البترول وآبارها كما هي ، أي بقيت السعودية والكويت والعراق مع مصر والاتحاد السوفييتي ، بينما بقيت مع الغرب كل من ايران والجزء الجنوبي من الخليج العربي ، كما وفرض حظر شحن الاسلحة الى أية جهة في افريقيا والجزيرة العربية (وما كانت له دلالته انه لم تكن هناك أية اشارة الى ايران او كوبا او جامايكا) واتفق على الاخطار المتبادل عن حركة الاساطيل البحرية مع تبادل الصور المأخوذة عن طريق الاقمار الاصطناعية وكذا التوابع للتأكد منها من كلا الطرفين . وسيكون هناك استئناف لمباحثات خاصة بتحديد الاسلحة الاستراتيجية « SALT » والمفاوضات بشأن التخفيضات المتبادلة والمتوازنة على القوى « M.B.F.R » .

في الحقيقة ما من أحد كان راضيا تماما بما تم احرازه ، لكن بعضهم كان اكثر رضاء من بعضهم الآخر . وتفاخر « تومبسون » الى حد المغالاة بأنه انتزع السلام من بين فكي الحرب (وهو تعبير كان يمتزج في ذاكرة «تومبسون» المشوشة بين عبارة « تشامبرلين » ونقيضها من « تشرشل ») وانه كسب الوقت من اجل بناء المزيد من السفن وتطوير مصادر الطاقة الوطنية . انه لم يقم فعلا بالتلويح بصفحة من الورق من شرفة البيت الابيض ، الا ان الجو عموما كان ينطوي على اكثر من تلميح الى شهر آب من عام ١٩٣٨ .

وبدأ الاتحاد السوفييتي ببناء خطوط لأنابيب البترول ومحطات الضخ لايصال بتروله الى الشمال بدلا من الجنوب حيث كان الاتجاه السابق . ومن الامور المهمة على المدى القصير التي عني بها القادة السوفييت تخصيص اهتمام

عاجل الى وسائل وطرق استعادة السوفييت لسلطتهم في شرق أوروبا ، والنفاذ الى الاحزاب الشيوعية في غرب أوروبا ، وحماية جمهورياتهم الامامية من الوجود الصيني المتزايد ، واستمر بناء القوة العسكرية السوفييتية .

ولعل الصينيين كانوا أكثر الجميع قنوطا واكتئابا ، ففي مثلث القوى القلق الذي تنبأ به بدقة « جورج اورويل » عام ١٩٨٤ كانوا يتوقعون حصول الكثير نتيجة حدة المجابهة الاميركية السوفييتية في الشرق الاوسط وفي افريقيا الجنوبية . ولم يكونوا يخشون الولايات المتحدة الاميركية بكثير أو قليل .

وقد عملت مبادئهم على حملهم على الاعتقاد بانتصار نظامهم الحتمي على الرأسمالية وان بوسعهم الانتظار كيما يثبت التاريخ هذه النتيجة الحتمية . لكن تنافسهم مع مركز قوة شيوعية اخرى كان مختلفا ، وليس في الاسفار الشيوعية المقدسة مايشير الى ماذا سيتحول هذا التنافس . يضاف الى ذلك ان الحدود البرية ، حتى في عصر الصواريخ ، تبدو اكثر قابلية للخرق أكثر من آلاف الكيلو مترات في المحيط الهادي . واتفاقية التجميد التي تم التوصل اليها خلال القمة الاميركية السوفييتية أضاعت على الصين فرصة طيبة كانت فيطريقها اليهم من خلال صراع متصاعد بين العملاقين المتخاصمين . وقد أظهرت تقديرات القوى ان الصين لا تزال متخلفة في المقدرة النووية وفي تطوير الاسلحة التقليدية ، وانه ليس للطاقة البشرية في أن تسد هذا النقص . وعلى ذلك كان لزاما البحث عن طريقة اخرى للتعويض عن التفوق السوفييتي في مجال الاسلحة .

أما الجبهة الداخلية للاتحاد السوفييتي او على الاقل في المناطق السوفييتية المتاخمة للصين ، فكانت تشكل هدفا محتملا وربما كان اقحام الصين للناحية القومية كشعار تخريبي ، خطرا جدا عليها قبل ان تتم السيطرة التامة على كل من « سينكيانغ » والتيبت ، وكان خطر قيام العصيان الاقليمي في الصين أقل منه بكثير في جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية . يضاف الى ذلك أنه كانت

هناك عناصر من هذه الشعوب المسلمة التي تتكلم اللغة التركية تعيش في اقصى غرب الصين . ومع ازدياد الحرية الثقافية والتطور الاقتصادي الناجم عن الاستثمارات اليابانية في دائرة الازدهار الجديدة ، لم يكن من الصعب خلق مراكز جذب في الصين للاوزباكستانيين والغازاخستانيين . فاذا ما قامت حركة تطالب بحكم ذاتي حقيقي في الجمهوريات السوفييتية الواقعة على الحدود الصينية السوفييتية ، فسيعود ذلك بالنفع العظيم على الصين على الاقل في مجال انشغال صانعي السياسة السوفييتية ، وفي ابعاد القوات السوفييتية التي يمكن ان تهدد الصين ، وفي خلق الشك في ولاء هذه الوحدات المجندة من تلك المناطق.

وفي الوقت نفسه فان السلام الصوري في الغرب أخذ يضمحل شيئا فشيئا ومن نافلة القول أن أيا من أميركا أو الاتحاد السوفييتي كان يثق بالآخر الى الحد الذي يمكن معه محاولة التوصل الى نزع حقيقي للسلاح ، بل على العكس ازدادت استعدادات حلف « وارسو » الى نفس المعدل السابق ، بينما استمرت منظمة حلف الاطلسي في تحقيق تحسينات متواضعة واستؤنفت المهاترات السياسية ، وقد اسهمت ثلاثة عناصر بشكل خاص في حالة عدم الاستقرار وهي :

البترول ، والشرق الاوسط ، والبلقان . وليست هي بالعناصر الجديدة ، ولكن الدلائل أخذت تشير الى ان تأثيرات كل منها بدأت تبرز من جديد بعد عملية غير ناجحة ، وان انقطاع الامداد بالبترول وما ينتج عن ذلك من نقص في هذه المادة في جميع أرجاء العالم يحدث فيه ، ما يحدثه الجرح المبرح في الجسم ، فيعطل التفكير الهادىء لدى الانسان ، بينما يؤدي الى توترات في الداخل وفي الخارج في انحاء العالم ويمزق الاقتصاديات ويزيد في البطالة . اما قواعد توزيع البترول الجديدة فهي هشة وعرضة للتقلبات السياسية . ويمكن القول ان السيطرة على واردات شمال الجزيرة العربية من البترول من قبل الجمهورية العربية المتحدة الواقعة عمليا تحت سيطرة مصر ليست ضمانا للاستقرار .

ومن المعلوم ان محاولة الوحدة هذه التي تكون مصر طرفا فيها هي السادسة من نوعها . وقد أخفقت المحاولات السابقة بعد فترة من الزمن تطول احيانا وتقصر أخرى . ويمكن السيطرة على مراكز تجمع السكان القليلة في العربية السعودية عن طريق القوة العسكرية . أما المشاركة مع العراق فكانت أمرا اكثر اقلاقا . فالدعوة للوحدة العربية القديمة قدم الزمان كان يلطخها وجود الفنيين السوفييت في موضعين ، حقول البترول والموانىء . ومن المحتمل ان تتفجر الاحقاد والكراهيات القديمة بين السنة والشيعة والقائمة حتى يومنا في هذا العصر بين السعوديين والعراقيين اذا امكن اختلاطهم بعضهم ببعض . والوحدة العربية حلم طالما داعب كبار المفكرين من أفراد الجيش العربي ، لكن التاريخ يحدثنا عن أن الانقسام بين صفوف العرب هو أكثر استمرارا وتأثيرا . والخصومات الشخصية بين السياسيين العرب كانت تتغذى دوما من التناقضات القبلية والعقائدية والتباين الطبقي الاجتماعي .

وقد انهار الاتحاد الجديد قبل ان يحقق اغراضه كاملة . وكان من الممكن ان يسهم البترول العربي كله في تحقيق الوصول الى استقلال حقيقي ، خاصة اذا ما غرقت ايران في الفوضى كما يمني بعض العرب انفسهم بحصوله . وكان من الممكن أيضا ان يرغم هذا الاتحاد العربي الدول الكبرى على دفع الفدية اعتبارا من اللحظة التي يصبح فيها بترول الشرق الاوسط هاما واساسيا لبقائها . لكن الآن واذ يقع نصف شبه الجزيرة العربية تحت نفوذ احدى القوتين العظميين في الوقت الذي تبعث فيه ايران من جديد وهي أفضل تسليحا ، فان الانقسامات في العالم العربي تزداد اتساعا وخطورة بسبب التنافس بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية . فقد عادت الامبريالية للمنطقة تحت اسماء أخرى .

ولم تكن الاغتيالات بعيدة عن المسرح وآثار الجمع بين الشيعة في العراق والروس الملحدين انبعاثا جديدا للتعصب المتزمت الذي اطاح بعدد كبير من الضحايا السياسيين في الماضي . وقد تسبب مقتل رئيس الوزراء المصري في

احداث فراغ في مجلس الاتحاد ، بل كانت له أصداء بين الشعوب المسلمة في الاتحاد السوفييتي التي تعرضت من قبل الى مغازلة من قبل الصين .

وشكلت حكومة جديدة باشتراك العسكريين فيها ، لكن بذور الشك كانت قد بذرت في المكتب السياسي ، بشأن امكانية السيطرة على منطقة هامة كهذه ، من خلال دولة عميلة . وأعدت الخطط وخصصت القوات لتدخل سوفييتي مباشر ، وصدرت التعليمات بتهيئة العتاد والملابس والتجهيزات الحربية التي تلائم عمليات المناطق الحارة ، وكما وضع برنامج عاجل لاجراء تعديلات على العربات والاسلحة ، ونظمت دروس عاجلة لتعلم اللغة العربية ، كما اعيدت صياغة بعض الفقرات في الموسوعة للبرهان على وجود تناسق اساسي بين المبادىء الاجتماعية في العقيدة الاسلامية ، وكذلك في الماركسية اللينينية .

وفي هذا الوقت بدأت طلائع أزمة جديدة في الظهور قريبا من حدودنا . فبعد اختفاء « تيتو » من المسرح السياسي ، اجتازت يوغوسلافيا مشكلة خلافته في المرة الاولى بصعوبة اقل مما كان مقدرا . وحصلت المناطق على سلطات اكثر قليلا من ذي قبل ، اما الترتيبات الاقتصادية في كل منطقة فقد انحرفت قليلا عن المفاهيم العامة باتجاه اقتصاديات السوق ، « العرض والطلب » . لكن المنظمة الفدرالية الاساسية بقيت كما هي على كل حال . أما الآن فقد اضيفت الصعوبات العامة التي سببها نقص البترول وازدياد الاسعار الى التوترات القائمة بين الشمال الغني والجنوب الفقير من الاتحاد اليوغوسلافي . كما نقصت مجموعة دول عدم الانحياز حيث تعتبر يوغوسلافيا ومصر عضوين مؤسسين فيها وذلك بقبول مصر للوصاية السوفييتية . وبدأت مقاطعة « سلوفينيا » بالانزلاق نحو الغرب . فيما بدأت الصرب بالاتجاه نحو الشرق . وذلك نتيجة لكون الالتزام نحو المنظمة الاتحادية أخذ يضيق شيئا فشيئا .

وقد اعتبرت المانيا الغربية ، ومنذ وقت طويل . ان مدينة « لوبليانا » هي واحدة من بوابات تطوير التجارة مع اوروبا الشرقية ، التي كانت صناعتها تحتاج اليها باضطراد . واستجابت الادارة الاقليمية لسلوفينيا لمغازلات المانيا الغربية

بسرور ، ذهب الى ابعد من الفوائد الاقتصادية ، وكأنما يدور في الاذهان شكل جديد من البلقنة على الطريقة السويسرية ، حيث يستطيع الشرق والغرب ان يلتقيا على قدم المساواة . وخشيت الحكومة المركزية اليوغسلافية مثل هـذا الاتجاه الانفصالي ، فحاولت اعادة التوازن ، باغماض عينيها عن الجماعات المؤيدة للسوفييت القائمة منذ امد بعيد ، والتي بدأت مؤخرا تحشد امكانياتها في اثارة الاضطرابات مثل هذه المحاولات ، ولم تضيع وقتا في ايصال اشارات الانذار الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي ، ووضعت مسألة سيطرة الشيوعية المتشددة في يوغوسلافيا في رأس لائحة اهداف الكرملين .

* * *

الفصل الثامن

« هايدبرغ HEIDEBERG »

٢٧ تموز ١٩٨٥

الوقت بعد ظهر يوم دافىء من ايام الصيف في هايدبرغ . وكان الزوار من

الوقت بعد ظهر يوم دافىء من أيام الصيف في «هايدبرغ» . وكان من الزوار
اركان جيش الولايات المتحدة الاميركية في اوروبا « USAREUR » بغياب التلفزيون ورجال الصحافة .

·اننا نرحب بزيارتكم هذه بحرارة في رئاسة اركان جيش الولايات المتحدة الاميركية في اوروبا واني متأكد انكم لقيتم ترحابا هذا الصباح في الكلمة الافتتاحية والعرض غير الرسمي الذي وجهه القائد العام . وان زيارتكم هذه لهي برهان على الاهتمام والدعم اللذين نعتمد عليهما في الولايات المتحدة الاميركية ، مع تعاظم التوتر الدولي في الجنوب ، ومع مابذلناه باضطراد من أجل تحسين استعدادنا في هذه القيادة .

« ما سأقوله لكم سري ، لكن هذه هي رغبتكم كما هي مدونة هنا ، وأنا أعلم أنكم ستتحملون حديثي في الناحية التكتيكية البحتة » .

ثم استدار الى الخريطة .

« تعرفون الاوضاع في مجموعة جيوش الوسط وليس لدي في هذه المرحلة أي تعليق حيالها . وانه لمما يؤسف له ان التوصيات الواردة في تقرير « نان ـ بارليت » لعام ١٩٧٧ ، وفي التقرير الوزاري السنوي الصادر عن وزير الدفاع

« رامز فيلد » للسنة المالية ١٩٧٨ لم تنفذ بكاملها ، لاسباب مالية ، مع ذلك فقد حققنا تقدما مستمرا منذ الفترة التي أعدت فيها هذه التقارير ، وهي فترة خطيرة كان مستوى الاستعدادات فيها متدنيا . ومثل هذا التقدم ، انعكس وبدرجات متفاوتة ، على حلفائنا . وان جيش الولايات المتحدة الاميركية في اوروبا هو اليوم افضل منه في أي وقت مضى خلال السنوات العشر الماضية . وان تقدما بهذا المعدل ، — مع بقاء الامور الاخرى متساوية — سيوصل الحلف الى وضع امين في مواجهة أي هجوم عادي يقوم به حلف وارسو .

وسأقتصر حديثي الآن ، عن المعدات الاعتيادية ، أما التسلح النووي فسأتعرض له في المرة القادمة .

فالدبابة (XM - 1) هي أفضل بثلاث مرات من الدبابة (M - 60) التي تحل محلها ، وهي موضوعة في الخدمة على جميع المستويات وعلى نطاق واسع ، اما عربة قتال المشاة الآلية (MICV) فلم توضع في الخدمة مع ان استخدامها المبكر كان من الممكن ان يضاعف فعالية مشاتنا . فمدفعها ذاتي التوازن الذي يصلح لاخماد النيران المعادية والمدفعان المضادان للدبابات من طراز «تاو او هيلفاير» ذات المدى المجدي على مسافة ثلاثة آلاف متر ، واحتمال اصابة الهدف من الطلقة الاولى تصل الى ٩٠٪ هي أسلحة عالية الدقة لاتقدر بثمن ، ومدافعها المضادة موجهة ذاتيا . وقد أخذت الموافقة على وضعها في الخدمة ولدينا بعض منها . لكنه غير كاف .

ومن جهة أخرى فقد تحققت لنا نسبة ٥٠٪ من التحسين في مجال التوجيه الآلي لرمايات المدفعية والحاسبات الالكترونية الخاصة ببطاريات المدفعية ، وزيادة في مدى المدافع العادية ذات العيار ٢٠٠ ملمتر و ١٥٥ ملمتر ، حيث يصل مداها من ثلاثين الى اربعين كيلومتراً . وقد ساعد هذا التحسين على قدرة النيران المعاكسة وعلى تصحيح الضعف في جبهة مجموعة جيوش الوسط « GENTAG »

والضعف الذي اشير اليه هو صعوبة تحويل الدعم بالنار جانبيا ، في حال مواجهة عدو يأخذ بزمام المبادرة من حيث محاور الهجوم ومن حيث كون الارض لاتسمح بالانتقــال جانبيــا .

وكنا نرحب بالحصول على رادارات كاشفة لمواقع بطاريات العدو من اجل القيام بالرمايات المعاكسة ، وبالحصول على المقذوفــات الصاروخية الموجهــة بأشعة « لايزر » الفعالة ضد الدبابات . وكما تعلمون فانه على كل حال قد تمت الموافقة على وضع هذه الاسلحة في الخدمة ، الا ان تمويل انتاجها قد أوقف حتى الآن . ونحن سعداء بتزويدنا بألغام يمكن نشرها بواسطة المدفعية والتي ستسلم حالما يتم الكشف عن نمط الهجوم ، وستدخل هذه الالغام في مسرح العمليات قريبــا .

اما بالنسبة للدفاع الجوي فاننا نشعر بالرضى ، لان اختراعنا للجيــل الثالث من صواريخ الدفاع الجوي قد تم الآن . فالصاروخ « باتريوت » مخصص للدفاعات على الارتفاعات المتوسطة والعالية . والصاروخ « رولاند » للدفــاعات على الارتفاعات المتوسطة والمنخفضة ، أما الصاروخ « ستنجر » فهو مخصص للارتفاعات المنخفضة أيضا ويحل محل (رد آي) .

ونحن بحاجة الى المزيد من الحوامات المضادة للدرع ، ذات القــدرة على الطيران ليلا ونهارا ، ومن الرمي من مسافة ۳۰۰۰ متر ، ولدينا بعض منها ولكننا بحاجــة الى المزيد .

ونحن بحاجة الى المزيد من الاسلحة الموجهة المضادة للدرع ، كما بينا من قبل مرارا لتركيبها على عربات الاستعمالات الخاصة . ومن المفضل ان تكون في عربات قتال المشأة الآلية من اجل التصدي لنيران العدو ، التي ستكون بلاريب قوية جدا . وما نحتاجه حقا في الفرق الاميركية العاملة في المنطقة الوسطى ، هو تجميع حوالي الف مدفع مضاد للدبابات في كل منها . مكونة على النحو التالي: حوالي ثلاثمائة مركبة على الدبابات . وسبعمائة مدفع مضاد للدبابات موجــه

« ATGW » للاستعمال بطرق أخرى . ولدينا الدبابات ولكن لاتتوفر لنا الاعداد المطلوبة من الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات .

وقد كنا بأمس الحاجة الى مستويات متطورة في مجالات المخابرات والاستطلاع وانظمة الكشف عن الاهداف وتحديدها . وفي السنتين الاخيرتين تم احراز بعض التقدم فيها. فقد استفاد سلاح مخابرات الاشارة من الطرق المحسنة والمعدات الافضل . فلدينا أنواع جيدة من العربات الموجهة عن بعد ، من اجل الاستطلاع وكشف الاهداف وتحديدها ، الى جانب رادارات متحركة ومحمولة جوا لتحديد الاهداف وكذلك طائرات وحوامات واجهزة للكشف وتحديد الرادارات المعادية . على ان درجة الرؤيا التي نملكها فوق ساحة المعركة ستساعد على اعتراض قواتنا الصغيرة على المحاور الرئيسية لجهد العدو وعلى تطوير عمليات الاعاقة الفعالة لمنعه في ساحة المعركة .

وقد ازدادت فعالية مخابراتنا في ساحة المعركة زيادة كبيرة بادخال جهاز توزيع المعلومات التكتيكية المشتركة « JTIDS » ولا زلنا نعمم هذا النظام ولكنه لم يستخدم بكل طاقته ، وقد لانستطيع ان نحدد استخدامه الافضل الا اذا طبقناه بكامل طاقته .

وفي هذا المجال كما في غيره من المجالات حيث تعتبر الالكترونيات ذات أهمية حيوية ، فاننا ندرك قيمة هذه الطاقة الهائلة التي تشكل باعثا للثقة على كافة المستويات .

ويسرني ان استطيع اعلامكم عن الاجراءات والقدرات العملياتية المحسنة في حرب جوية ارضية مشتركة . فالعمل المشترك هو فعال الآن في مجال عمليات الرصد والاستطلاع . وبدرجة أقل في مجال ابطال دفاعات العدو ، الجوية وفي عمليات الاعاقة ، في ساحة المعركة وفي الحرب الالكترونية . ولكن أفضل من ذلك كله في السيطرة المشتركة على الدعم الجوي القريب باستعمال مراصد المدفعية المتقدمة والمجهزة باجهزة مراقبة باستخدام اشعة لايزر .

وان انخفاض كمية المخزون في مسرح العمليات من المعدات والاسلحة نتيجة لسحبها لدعم عمليات في أماكن اخرى من قبل قوميات أخرى « **كالتي قدمت من قبل لاسرائيل** » فقد تم تعويضه كما تعلمون ومنذ وقت طويل . أما المخزون من العتاد المخصص لتعزيز الوحدات فهو كامل ، ولن تكون هناك صعوبة في تجهيز الفرق الثقيلة المرتقبة لتصبح في وضع الجاهزية للقتال في مرحلة مبكرة. ويجري حاليا تجهيز واحدة من هذه الفرق . وان المخزون من الذخائر الآن يصل للحد المطلوب . والاكثر من كل هذا اهمية ان المفاوضات مع المانيا الاتحادية التي بدىء بها منذ عام ١٩٨٠ من اجل تحديد منشآت هامة ومعينة الى الشرق من نهر الراين قد اختتمت بنجاح منذ سنتين ، وان المخزون الحيوي من الاعتدة والاسلحة لن يكون بعيدا عن متناول القوات الامامية ، في حال انقطاع خطوط مواصلاتها . وستنشأ فوائد مشابهة من خلال استبدال خط المواصلات المار بهولندا بذلك الذي يمر من« بريمو هافن » في شمال المانيا ، مع ان هذا الخط لم ينته بعد من جهة ، وأن مسألة الدفاع الجوي عنه لم تحل بعد تماما من جهة أخرى . وقد تم احراز تقدم في التحرك نحو تكامل في أجهزة تموين الحلفاء . ونحن سعداء لان متاعبنا في هذا المجال لمجموعة جيوش الوسط أقل منها لدى مجموعة جيوش الشمال .

وأعلمكم أيضا من جهة أخرى عن تحسن مستمر في انظمة القيادة والاشراف سواء في الدفاع الجوي أو في الاجراءات التي تحول دون وقوع مباغتة .

وأخيرا نعلمكم جوابا على سؤالين اثارهما السادة اعضاء مجلس الشيوخ بالطبع ، انه على الرغم من ان السياسة الفرنسية القومية ستبقى فرنسا خارج منظمة حلف الاطلسي مع ذلك فان اشتراك قيادة واركان الفيلق الفرنسي الثاني في تخطيطنا وثيق ، علما ان هذا الفيلق يضم فرقتين ووحدات دعم خاصة به متمركزة في المانيا الاتحادية ــ وهذه معلومات سرية بالطبع ــ اما اللواءان الاميركيان اللذان كانا منتشرين في شمال المانيا لمواجهة نقطة الضعف في عمق مجموعة جيوش الشمال « NORTHAG » فقد اعيد نشرهما من جديد ، لان مجموعة جيوش الشمال اتخذت مؤخرا خطوات مشجعة لتلافي نقطة الضعف . وان كلا من هذين

اللوائين يعتبر نواة لفرقة الدعم التي ستشكل عنصرا هاما في احتياطي المنطقة الذي تنشئه القوات المتحالفة في أوروبا الوسطى « AFCENT » .

وتنحى رئيس الاركان جانبا حالما فرغ من حديثه ، ثم نهض ليتحدث القائد العام للجيش الإميركي في أوروبا ؛ وكان طويل القامة ، بهي الطلعة ، في منتصف الخمسينات من العمر ، وذا قــوام حسن ، حليق الذقن ، مصفف الشعر الذي بدأ الشيب يخالط سواده . وكانت طريقته في الكلام هادئة ، كما كان حديثه متقنا وموزونا .· لقد كان معه الحق « الفريدريك » الاكبر عندماقال: « كل الجنرالات على المسرح دائما » ، اذ كانت معلوماته عن الجنرالات غزيرة ووافرة . ولم يكن القائد العام للجيش الاميركي في اوروبا حالة استثنائية . فقد كان يلعب دورا يعرف حق المعرفة كيف ينبغي عليه ان يلعبه . ولما كان هو المخرج لهذا الدور فقد بدا ذكيا وفعالا وطموحا . كان دوره متقنا ، وكان أيضا كغيره من الجنرالات العتيدين ، شجاعا ، ومخلصا وغيريا . لقد عرف ما كان ضروريا وما هو المطلوب ، وعرف أيضا قدرا كبيرا عن اسلوب تحقيق هــذا الدور وانجــازه .

وبدأ فقال « ان جيشكم في اوروبا هو افضل حالا مما يعتقد أي شخص وخاصة الروس » .

لقد اختفت آثار تجربة الفييتنام من نظامنا ، وان شبابنا جدد ، وسرنــا على الاساليب الحديثة ، وركزنا على التدريب القتالي ووجد ذلك صدى طيبا لدى جنودنــا .

ومنذ عدة سنوات كان الاهتمام الرئيسي لعقيدة الجيش الاميركي القتالية وتدريباته منصبا على المنطقة الوسطى من حلف الاطلسي على النحو الذي هي عليه الآن تماما ، ويمكن القول ان كل ضابط مقاتل من قوات الجيش الاميركي خدم مرة في المانيا ، فنحن نعرف الارض والطقس والعدو .

وقد وضعت الفرق الاميركية موضع المتفائل في اوروبا بنتيجة المعركــة ، ضد قوات حلف وارسو المزودة بالدبابات الثقيلة . لقد دربت هذه الفرق على

الاعتقاد ان بامكانها ان تحرز النصر حتى في مواجهة التفوق العددي . ودربنا طواقم دباباتنا أولا على اطلاق النار ، وتحقيق الاصابة من الطلقة الاولى ، على مسافة ميل واحد أو اكثر ، وذلك خلال معظم الوقت المتوفر (٦٠ — ٧٠٪ منه).

لقد دربت المشاة والدبابات التي تعمل جنبا الى جنب ، على استعمال الارض جيدا : منحدراتها ، وغاباتها ، ومدنها ، من اجل الحماية بالاختفاء .

كما دربت قواتنا ، على مواجهة قوات تمثل اكثر ما يكون من القوة والعتاد والتكتيك السوفييتي .

ومن المتوقع ان يحارب العقداء والجنرالات معارك حية ، متحركة ، محاولين جهدهم الاستفادة من الارض والمفاجأة والحركة . ويتوقع من الجنرالات ان يحشدوا القوات المدافعة في مواجهة الاندفاعات الرئيسية للعدو وعلى نقاط الخرق المحتملة . وذلك كي تتمكن القوات المحاربة من مواجهة قوات معادية تزيد من معدلها عن نسبة ثلاثة او اربعة الى واحد .

أما الضباط الصغار وجنودهم فقد تعلموا ان يحاربوا في دفاعات أمامية الى جانب حلفائهم الالمان .

كما ان النقباء وجنودهم تعلموا ان الاسلحة الحديثة في الدفاع تستطيع بل يجب عليها ان توقع خسائر في صفوف المهاجم بنسبة تفوق ثلاثة الى واحد . وباختصار فقد تعلموا كيف يدافعون بنجاح لمواجهة احتمالات عديدة .

بمثل هذه المعتقدات والمفاهيم التكتيكية تستعد القوات الاميركية في مجموعة جيوش الوسط لمواجهة الهجوم السوفييتي .

اسمحوا لي ان اضيف كلمة حول حلفائنا الالمان . فالفيلقان الالمانيان في منطقة مجموعة جيوش الوسط على درجة مشابهة لقواتنا من القوة والتدريب والتنظيم ، وبعض اعتدتهما هي من نفس عتادنا لكن معظمها من تصميمهم الخاص .

وقد جهزت قواتهم مؤخرا مثلا بدبابة حديثة هي « الليوبارد رقم ٢ » . وهي تمثل فلسفة مختلفة في مجال الدروع عن تلك التي تقوم عليها دبابتنا (XM-1) أو الدبابة البريطانية من طراز « شفتين » ، ولكني استطيع ان اقول انها دبابة جيدة جدا ، وسائر عتادهم جيد أيضا. وقد حقق الجيش الالماني تقدما كبيرا ، في تنظيم وتدريب وحدات الاحتياط للدفاع عن البلاد داخليا . ويتوقع أن تلعب هذه الوحدات دورا هاما في الدفاع عن بلادها ، وخاصة ضد أخطار داخليـــة .

كما اننا على صلات وثيقة مع حلفائنا الالمان ، فالمشاريع التكتيكية الاميركية ــ الالمانية المشتركة ولعب الحرب والمناظرات ، والمناقشات أدت جميعا الـــى اجماع ملحوظ بين جيشين وطنيين كانت آخر تجربة لهما في القتال ، في اوروبا، الواحد في مواجهة الآخر .

وبالطبع لابد من قيام خلافات ، بيننا بعضها صغير وبعضها كبير أيضا ، ومثال ذلك ، الاعتماد الكبير على الدعم الجوي الذي ينقص القوات الاميركية . اما الفرق الاعظم الذي تظهر المعركة اهميته ، هو ان حربا هنا سيتقاتل فيهـــا الالمـــان في المانيـــا .

ولم يقل القائد العام كل ماكان يدور في ذهنه ، فقد فتح باب غرفة الاجتماع ودخل أحد ضباط الاركان على عجل وناول الجنرال قصاصة من الورق .

في صمت مشحون جدا بالترقب قال **« لقد أعلمت أن وحدات سوفييتية عبرت الحدود الى يوغوسلافيا قبل ساعات قليلة »** .

وقف أحد أعضاء مجلس الشيوخ . وقال :

أيها الجنرال ، لديك ما يشغلك فلست بحاجة الى وجودنا هنا ، لقد حان الوقت لننصرف الى بيوتنا على كل حال .

* * *

الفصل التاسع

غزو يوغوسلافيا

كان الموقف في أوائل صيف عام ١٩٨٥ حافلا بأزمات وشكوك وامور غامضة من نواح كثيرة . وقد بدأت السنة ، بمشروع سوفييتي على استعمال القوة العسكرية من اجل تحقيق اهداف سياسية ، بالحط من الدور الذي تلعبه الولايات المتحدة الاميركية في العالم . وقد ظهر عدم الاستقرار في الجانب السوفييتي بسبب وجود كثير من نقاط الضعف ، بقدر ما هي موجودة في الجانب الاميركي ، وخشي الروس من تعاظم مصادر القلق بطريقة أو بأخرى — كالضغط الصيني على جمهورية آسيا ألوسطى ، انهيار البيت الكرتوني في الشرق الاوسط ، الميول اليوغوسلافية بالتحرك اكثر نحو الغرب ، والآثار المتراكمة من نقص البترول في دول اوروبا الشرقية الواقعة تحت السيطرة السوفييتية ، وزيادة اسعار المواد الغذائية ، والمجهود الحربي المتزايد على حساب الاستهلاك المدني — .

لم تسفر السياسات الحذرة نسبيا التي كانت متبعة حتى الآن (وهي التي يمكن وصفها بشعار الوكالة الخارجية) عن النتائج المرجوة ، فقد لقيت محاولة تحويل المساحة البرية الاوروبية — الآسيوية الواسعة الى قاعدة عمليات بحرية عالمية انتكاسات من غير الممكن تفاديها على الصعيدين الجغرافي والطبيعي . وتحددالخيار بين أحد اتجاهين ، اما قبول عودة مهينة الى مجالات النفوذ السابقة ، او استعمال الامكانيات الحقيقية السوفييتية بعنف وبسرعة للهجوم على اوروبا بالطرق الاعتيادية ، واخماد الحركات الانفصالية حيثما تواجد الجيش الاحمر .

ولم يتجاهل الغرب كليا ، النقاش الذي كان يجري في الكرملين ، وادى الاعتقاد بان احد الخيارات المتاحة للاتحاد السوفييتي هو الحرب في اوروبا ، بما في ذلك اعادة احتلال يوغوسلافيا . ادى هذا الاعتقاد الى قيام الغرب بجهد حقيقي لتدارك النقص في القوات التقليدية المتوفرة التابعة للقيادة الحليفة في اوروبا ، وفي الدفاعات الجوية الهامة جدا في المملكة المتحدة ، والتي تعتبر كرأس جسر للتعزيزات الاميركية للوقوف على الاجراءات المتخذة لتحسين قدرات الدفاعات عن المملكة المتحدة « انظر الملحق — رقم واحد » . وكانت وسائل الرد المضاد في يوغوسلافيا قليلة وبشكل يبعث على الكآبة ولكنها مقلقة بالنسبة للغرب ، وكانت الاحوال فيها مواتية من وجهة النظر السياسية الغربية . كما يمكن الاعتماد على الحزب الشيوعي الايطالي « كان ذلك أمنية » الذي بقي مؤهلا نوعا ما لدعم دفاع نظام شيوعي مستقل يبحث عن طريقه الخاص الى الاشتراكية في مواجهة السيطرة السوفييتية القوية . وتعتبر يوغوسلافيا من الناحية التاريخية نموذجا للشيوعية الاوروبية ومن الناحية الجغرافية معقلا في مواجهة الضغط السوفييتي . وبناء على ذلك يمكن القيام ببعض الاستعدادات من قبل القوات الاميركية في ايطاليا للرد على إنقلاب ممكن مؤيد للسوفييت ومعزز بقوات الجيش الاحمر المتمركزة في هنغاريا .

وفي المراحل الاخيرة من النقاش السوفييتي ، تباينت الآراء حول ما اذا كانت يوغوسلافيا ستعالج كقضية منعزلة ؟ . أم ان السوفييت سيتقدمون في اوروبا على جبهة عريضة ؟ أما أولئك الذين أيدوا اتخاذ عمل عام (أو القيام بهجوم عام) ، فانهم لم يشددوا فقط على أهمية مواصلة السياسة الخارجية السوفييتية خط سيرها ككل متماسك ، بل رأوا أيضا ان ذلك وبشكل خاص يحقق عددا من المنافع والفوائد . فالاستيلاء على القسم الاعظم من أوروبا الغربية سيوسع رقعة النفوذ السوفييتي التي كانت تقتصر حتى الآن على الدول الشيوعية في شرق أوروبا . ومثل ذلك قد يمحو ولعدة سنوات قدرة الولايات المتحدة الاميركية على العمل في الجناح الغربي . ومن المفضل تحقيق ذلك قبل ان تستكمل الصين استعدادها ، وقبل ان يتدهور موقف

السوفييت في الشرق الاوسط تدهوزا كبيرا ، وقبل اجراء تحسينات على دفاعات منظمة حلف الاطلسي . وسيسمح ذلك بل سيحتم اتخاذ اجراءات قوية ضد تلك العناصر في بولونيا وتشيكوسلوفاكيا التي تطالب الآن ليس بحرية الكلام فحسب ، بل بطعام رخيص . وسيتيح الدمار الذي تجلبه الحرب الى كل من الالمانيتين مجالا لتنفس الصعداء قبل ان تشكل القضية الالمانية خطرا على الاتحاد السوفييتي . وستصبح يوغوسلافيا غير هامة نسبيا في أي صراع رئيسي مع منظمة حلف الاطلسي ويمكن معالجتها بشكل سريع . وقد يكون العمل السوفييتي المحدود استجابة لطلب المساعدة من داخل البلاد ، جذابا على كل حال . أما قيام الولايات المتحدة الاميركية بتدخل مضاد فعال فهو غير محتمل ، ولكن اذا ما حدث هذا التدخل المضاد فقد يلتمس مبررا لهجوم عام على الغرب من خلال بولونيا والمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا .

وفي النهاية وكالعادة سيطرت الاحداث على ساحة المعركة . وقامت لجنة الدفاع عن يوغوسلافيا الموحى بها من قبل السوفييت بتمرد صوري في سلوفينيا مخلفة صداما بين حكومة سلوفينيا الاقليمية وبين الحكومة الفدرالية في بلغراد . وطلبت اللجنة المساعدة السوفييتية . وفي الوقت نفسه أغلقت بعض المخابز أبوابها في « غدانسك » « ودرسدن » نتيجة تحويل الوقود الى المعامل التي تنتج آليات للنقل العسكري . وهددت الاضطرابات الناجمة عن ذلك بافلات زمام الامور من السيطرة . ولم يكن من الممكن تجنب رد الفعل السوفييتي وفاز المتشددون .

وفي الوقت نفسه حل موسم المناورات . وكانت القيادة السوفييتية تقوم بمشروعين رئيسيين ، الواحد في هنغاريا ، والآخر وهو على نطاق واسع في المانيا الشرقية . وبمقتضى الوثيقة الاخيرة الموقع عليها في مؤتمر الامن والتعاون الاوروبي ، يتوجب على الجهة التي تقوم بالمناورات التي تتجاوز حجما معينا ، ان تشعر بقية الدول بها ، وان تدعوها لارسال مراقبين عنها لحضورها مع بقية الدول الموقعة . وقد تصرف الروس في هذا المجال بطريقتين ، فلم يعلنوا عن

مناوراتهم في هنغاريا على أساس انها ذات أهمية بسيطة نسبيا ، معتقدين أيضا ان هذه المناورات هي الاولى التي يمكن تحويلها الى عمل حقيقي حربي . ولكنهم ابلغوا عن المناورات الالمانية من خلال القنوات الاعتيادية .

وفي تاريخ السابع والعشرين من شهر تموز عام ١٩٨٥ ، تمكنت فرقـــة سوفييتية محمولة جوا ، من الهبوط بالقرب من بلغراد بدون ان تلاقي أية مقاومة وسيطرت على الطرق المؤدية اليها. وفي نفس الوقت عبرت فرقة آلية سوفييتية قادمة من هنغاريا الحدود اليوغوسلافية على طريق بودابست ــ زغرب تتبعها فرقــة أخرى . وتم الاعتراف باللجنــة الموالية للسوفييت حكومة مؤقتــة ليوغوسلافيا ، وبعد اشتباك قصير انسحبت قوة الحدود اليوغوسلافية بسرعة نحو زغرب . وكانت الخطة السوفييتية ترمي الى احتلال زغرب ومنها يتم الاتصال بسرعة مع القوات المحمولة جوا الى الشرق من بلغراد ثم الاتجاه غربا نحو بولونيا . وفي الوقت ذاته كثرت المشاريع في المانيا الشرقية ، فيما كانت تشكيلات كبيرة تتحرك الى الامام من المقاطعات العسكرية الغربية في الاتحــاد السوفييتي عبر بولونيا .

أما جانب منظمة حلف الاطلسي ، فعلى الرغم من التحذيرات العديدة فانها أخفقت في أن تستعد لمثل هذا التهديد في يوغوسلافيا . وبقيت تلك البلاد « منطقة رمادية ــ أي حيادية » فلم تكن هي مشمولة بالتزام منظمة حلف الاطلسي بالدفاع عنها (بصورة آلية) . وفي الوقت نفسه ، وعلى قدر مساو ، لم يتخل الغرب عما حدث هناك ، كما حدث في هنغاريا عام ١٩٥٦ وفي تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ . فاستمرار حياد يوغوسلافيا كان موضع اهتمام غربي واضح ، وذا أهمية قصوى . ولكن من الصعب ضمان (انحياز) بلد تقوم سياسته على الحيــاد . كما وجــدت بريطانيــا وفرنسا الوضع في باجيكا عام ١٩٣٩ . وعلى ذلك فالرمادية (الحياد) كانت فضيلة : اذ ان الشك بحد ذاته في رد فعل الغرب قد تحول الى مبدأ ردع .

وعادت الدجاجات الرمادية الى قنها وترتب على الناتو ان يقــرر ،

بل ان الولايات المتحدة الاميركية هي التي قررت . ولحق بها باقي الاعضاء باستثناء ايطاليا المترددة . وعلى أمل قيام ردِ فعل يوغوسلافي موات ، وبالنظر الى تاريخ الصراع اليوغوسلافي ـ الايطالي الطويل كان من الاهمية بمكان تجنب استخدام القوات الايطالية . ولكن بعد بضعة ايام من الدبلوماسية الغاضبة في بلغراد وزغرب ولوبليانا تمكنت قوات المشاة المحمولة جوا التابعة للولايات المتحدة الاميركية والقوات البحرية من ايطاليا من الانزال دون مقاومة في « ربيكا وفيومي » في لوبليانا وبعض جزر « دالماتيا » . والاخطر من ذلك ان هذه القوات اشتبكت خلال اربع وعشرين ساعة مع القوات السوفييتية المحمولة جوا والقوات المدرعة السوفييتية . في هذه المرحلة كانت حكومة الولايات المتحدة الاميركية لا تزال يخامرها الامل بامكان عزل أحداث يوغوسلافيا ، عن المسرح الاوروبي الاوسع ، وان يكون بوسعها فوق ذلك ان تحجب الصدمة عن الرأي العام في الولايات المتحدة الاميركية الناجمة عن القتال هناك . فدعت مجلس الامن الى عقد اجتماع طارىء ، وأمرت القادة الاميركيين للوهلة الاولى ان لا يجتازوا حدود « سلوفينيا » وذلك بالاضافة الى منع اثارة الرأي العام في الولايات المتحدة الاميركية ، ووضع حظر فوري على سائر التغطيات التلفزيونية للعمليات العسكرية .

لكن الحكومة الاميركية كانت متأخرة جدا ، فلم تحسب حساب مصور تلفزيوني ايطالي عنيد ، هو السيد « ماريو سالفادوري » الذي لم يكن موظفا في محطة « التلفزيون الايطالي Raï » ، بل في وكالة دولية للاخبار المصورة . وقد عاش لبعض الوقت في الولايات المتحدة الاميركية ، وفي ايطاليا . كان له أصدقاء كثيرون من بين قوات البحرية الاميركية التي هيأت له مناوراتها واستعراضاتها زمن السلم مادة مفيدة في الوقت الذي كانت به الاخطار الاخرى قليلة . وقد اتفق وجوده في قاعدتهم ، عندما بدأ الاستنفار ، وأخذه أصدقاؤه معهم « لرحلة » عندما نقلوا جوا الى « لوبليانا » .

وهكذا كان مقدرا وبطريق الصدفة ان تقع أولى الاشتباكات بين القوات

السوفييتية وقوات البحرية الاميركية في الحرب العالمية الثالثة تحت أعين آلة تصوير تلفزيونية . اذ كان « سالفادوري » حاضرا وجاهزا بمعداته الالكترونية الخفيفة الوزن والمحمولة على كتفه ، لتصوير أول احتكاك عندما وجدت القوات السوفييتية المندفعة الى سلوفينيا نفسها وجها لوجه مع قوات البحرية الاميركية في تخوم « كوستانيفيكا » الواقعة بين لوبليانا وزغرب. وفيما كانت ثلاث دبابات سوفييتية تتحرك للامام ، وهي تعتقد انها لم تصل بعد قوات اميركية للمنطقة ، فوجئت بوحدة من وحدات قوات البحرية الاميركية التي كانت مجهزة بأسلحة مضادة للدبابات بصواريخ من طراز « ميلان » . وبسرعة كبيرة ، أمكن وضع الدبابات الثلاث خارج المعركة من الرشقة الاولى . واستدعيت على وجه السرعة سرية مشاة سوفييتية كانت متمركزة على سفح التل خلف المدينة لتنتشر في موضع أكثر قوة الى الخلف مباشرة . وفي الوقت نفسه قامت الطائرات المقاتلة السوفييتية بهجوم بالصواريخ على الاميركيين محدثة اصابات بشعة .

وسجل « سالفادوري » ، وهو المصور الذكي الجريء الكثير من ذلك على شريط ، لقد كانت مادة لدراما فائقة الحد ، وأوحت نوعية الصور الاخبارية المتقنة جدا ، بانطباع حقيقي وحيوي ، أفضل كثيرا من تلك التي ظهرت في صور الافلام الاميركية خلال حرب فييتنام السابقة . فتدمير الدبابات السوفييتية التي انفجرت احداها على بعد مائة متر من موضع المصور الايطالي، الى جانب الوجوه الشاحبة للاسرى الروس ، الذين يساقون تحت الحراسة نحو الخلف . وكذلك منظر المشاة السوفييت ينسحبون فجأة الى حد ان سفح التل الصغير بدا وكأنه يتحرك ، كل ذلك نقل وبعبارات الفرح ، انه يمكن قهر الجيش الاحمر . وقد تكون العين العسكرية المدربة ، لاحظت ان المشاة السوفييت في تراجعهم السريع ، كانوا يقدمون مثالا عن كيفية تنفيذ العملية الصعبة ، ألا وهي الانسحاب تحت النار ، مع المحافظة على التماس مع العدو ، وبالتأكيد قد يعترف مراقب عسكري ان ثلاث دبابات لا تشكل قوة ذات أهمية . ولكن هذا الحادث الصغير أعطى انطباعا بأنه نصر اميركي واضح ،

ولم يشوهه سوى صور الضحايا المشوهين نتيجة الهجوم الصاروخي ، وكان أحدهم يصرخ بألم ، هذه الصور فقط هي التي كانت تذكر بفداحة الثمن .

ولم يكن « سالفادوري » مصورا بارعا فحسب ، بل كانت لديه خبرة في تخطي الادارة الرسمية . فتوجه سريعا الى « لوبيليانا » دون ان يعلن عن محتويات أشرطته ، وتمكن من ان يعود جوا الى ايطاليا ، وهناك تم بث المادة المسجلة عن طريق الاقمار الصناعية الى العالم ، واصبحت بين أيدي شبكات التلفزيون الاميركية قبل أن يحس بوجودها أي من البيت الابيض أو وزارة الدفاع الاميركية . وعلمت شبكات التلفزيون ايضا ، ان هذه المادة قد وزعت على نطاق واسع ، حتى في بلدان الستار الحديدي الذين لم يترددوا في تحويل أجهزتهم لالتقاط البث التلفزيوني للمحطات العالمية . وهكذا وصلت مشاهد أول قتال بين الروس والاميركان الى بيوت الاميركيين دون تخطيط أو رقابة ، وحتى دون أي تعليق . باستثناء لقطة غريبة لجندي من جنود البحرية الاميركية وقد نسف وجهه .

وبقلق بالغ ترقبت سلطات الولايات المتحدة الاميركية رد فعل شعبها على تلك الاحداث . لحسن حظهم من جهة ولدهشتهم من جهة اخرى ، وحتى لدهشة معظم المعلقين في الصحافة فان النتائج لم تكن توحي بالخوف والخيبة بقدر ما كانت مزيجا من غضب وكبرياء معا ، وكان هناك غضب بسبب المعاناة التي أحدثها القصف ، والذي شوهد عن كثب على شاشة التلفزيون ، ولكن كان هناك أيضا زهو وفخار نتيجة لمنظر قوات السوفييت أثناء ايقافها ثم انسحابها . وفي لحظة دونما اعلان رسمي للحرب أحس الرأي العام الاميركي أنه يخوض الحرب فعلا وقد جمعتهم غريزة حب البقاء بعضا الى بعض . وكانت معركة « كوستانيفيكا » عملية صغيرة جدا بالمقارنة مع ملاحم القتال الهائلة التي تلت ذلك . وقد قدر للتغطية الرهيبة والدرامية لهذه الملاحم الهائلة ، من القتال أن تتفوق كثيرا على صور « سالفادوري » . مع

ذلك فان قليلا من هذه التسجيلات التلفزيونية الاولى للحرب كان له مثل هذا التأثير . وليس من شك الآن ، ليس في عقول الاميركيين فقط ، بل وفي عقول الناس في جميع انحاء العالم ، ان الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية هما في حالة حرب ، وأن المشاهد الاولى المسجلة لهذه الحرب كانت مشاهد للقوات السوفييتية وهي تولي الادبار .

وأمكن بسهولة عرض هذا الحادث على بلدان حلف وارسو ، على أنه هجوم من قبل الغرب على دولة شيوعية ، تماما كما كان بعض الصقور السوفييت يريدون ذلك . والواقع أن الذي سيطر الآن هو زخم الاحداث أكثر من الحادث الحقيقي نفسه ، فقد التقت قوات الاتحاد السوفييتي على أرض المعركة بقوات الولايات المتحدة الاميركية . لقد كان هذا اللقاء هو الحدث الهائل المخيف والذي لا يكاد يصدق ، وهو الذي أبرز ما كان موضع خشية لمدة طويلة وتلك هي الحقيقةالقاسية ، فقد اصبح الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية يتقاتلان على أرض المعركة كل منهما ضد الآخر مباشرة . وانتهت الصدامات وأخذت الحشود العسكرية الضخمة للاتحاد السوفييتي بالتحرك على الطرق . ولم يكن هناك من بديل ممكن للاتحاد السوفييتي سوى شن هجوم محضر مسبقا وواسع النطاق ، على أوروبا الغربية . والتقدم نحو نهر الراين لتدمير وحدات حلف الاطلسي ، وازالة تهديد الامبريالية الاميركية العاملة من القاعدة الامامية في جمهورية المانيا الاتحادية .

* * *

الفصل العاشر

التخطيط السوفياتي

شهدت سنة ١٩٨٤ بعض الاختلاف في وجهة نظر الكرملين ، حول أنسب الطرق فائدة لاستغلال موقف القوة العسكرية التي يتمتع بها الاتحاد السوفييتي . وان هذه الفروق سيكون لها أهمية كبيرة على بعض الاحداث التالية .

كان الرجال المتقدمون في السن ممن توفرت لهم الخبرة من خلال الحرب العالمية الثانية يرون في المانيا مصدر التهديد الخطير والدائم على أمن الاتحاد السوفييتي . وهم لا يتجاهلون تأثير وقوة أميركا الرأسمالية ، وبالخطر الكبير الذي تنطوي عليه وهي القوة العظمى الاخرى . واذا لم تتفكك الولايات المتحدة الاميركية تحت ضغوط التناقضات الرأسمالية ، تلك الضغوط التي يبدو أنه لا دليل كبير على وجودها في الوقت الراهن على الاقل ، فانه لابد أن يحسب لها حساب في وقت آخر . ولكن الخطر القادم من المانيا الغربية ذات القوة الصناعية والتسليح الجديد ومصدره الرغبة في الانتقام كان حقيقيا ووشيكا معا ، سواء من الدولة نفسها أو من خلال تأثيرها القوي على دول الغرب . وهؤلاء الرجال يمثلون في الاتحاد السوفييتي الجيل الماضي القديم وهم يميلون الى رؤية المشاكل الخارجية من خلال أعين أوروبا وامتدادها الى أميركا الشمالية ، أكثر من رؤيتهم لها بأعين العالم الخارجي . وكان هذا الجيل على الاقل روسيا بقدر ما هو ماركسي لينيني ، بل ربما غلبت الاولى على الثانية في بعض الحالات .

أما الجيل الشاب ، من الذين لم يتح لهم عمرهم فرصة المشاركة في الحرب العالمية الثانية ، فكانوا يرون الامور من خلال العالم أكثر من رؤيتهم له ، من خلال أوروبا . وحتى في أوروبا ، على الرغم من أنهم كانوا يتحسسون خطر المانيا ، الا أنهم لم يعتبروه لب المشكلة الخارجية بأسرها . وكان هذا الجيل أيضا غير مهادن في موقفه ، وُلِد وترعرع في ظل النظام الشيوعي ، يكرس حياته لخدمته وظل مدركا تماما ان هذا النظام ربما كان الشرط الوحيد لوجوده كانسان وضمن هذا الواقع بالذات. وكانهذا الجيلماركسيا لينينيا ، بل ربما غلبت الاولى على الثانية في بعض الحالات .

ولم يكن هناك أي اختلاف في وجهات النظر حول التهديد المستمر للنظام من العالم الامبريالي الرأسمالي ، الذي تلعب المانيا الغربية دورا رئيسيا فيه تحت زعامة الولايات المتحدة الاميركية . كما لم يكن هناك اختلاف حول احتمال تهديد من الصين في المستقبل ، وكذلك بالنسبة لاخطار الهرطقة الشيوعية الوطنية القطرية ، والحاجة المطلقة لابقاء كلمة الحزب ومنزلته العالية في أي قضية رئيسية . وكان هناك أيضا اتفاق تام حول حتمية الانتصار النهائي للنظام الشيوعي في كل مكان . وحول ضرورة استغلال كل فرصة خارجية لتقديم المصلحة السوفييتية . وحول ضرورة استغلال كل فرصة خارجية لتقديم المصلحة السوفييتية . وحول الحكمة في استخدام التحركات التكتيكية القصيرة الاجل ، بغية الوصول الى مكاسب أعظم في المدى البعيد . وحول الضرورة القصوى لتأمين وضع عسكري مسيطر وقوي في الخارج ، كنقطة ارتكاز لرافعة القوة السياسية السوفييتية — حتى ولو كان ذلك — على حساب التقدم .

وتكمن الاختلافات في وجهات النظر بشكل رئيسي ، حول اختيار مناطق الاستقلال ، فالجيل القديم كان يميل للنظر باتجاه الوسط أو باتجاه التناقضات الواضحة في المجتمعات الرأسمالية المتطورة والعلاقات المهزوزة . أما الجيل الشاب فكان يتجه بأنظاره الى الحواشي والتخوم والى الفرص المتاحة في

دول العالم الثالث والى العلاقات ليست بين هذه المجتمعات فحسب بل بين بلدان العالم الثالث والعالم الصناعي المتقدم .

ولم يكن هناك من جهة ثانية خلاف مطلقا ، حول ضرورة تحييد المانيا الغربية في وقت ما ، باستخدام القوة العسكرية عند الضرورة . أما أنصار الوسط ـ من الجيل القديم ـ فقد كانوا يضعون هذه المسألة في لائحة أولوياتهم ، ربما أكثر مما يفعل الآخرون ـ أي جيل الشباب ـ وربما كانوا ميالين اكثر الى عمل وقائي . وكانت محاولة شق صفوف حلف الاطلسي حيثما أمكن ذلك عمل سياسي يحظى برضا الجميع ، وكذلك الحد من القوة العسكرية لمنظمة حلف الاطلسي واضعافها بأية وسيلة متاحة ، والحفاظ على قدرة عسكرية قوية ذات جاهزية عالية كفيلة بتحويل أي أزمة في أوروبا الوسطى « حتى ولو أدت الى نشوب حرب على نطاق واسع » لصالح السوفييت .

وعلى الصعيد السياسي ، شهدت السنوات التي تمت فيها اعادة تسليح ألمانيا الغربية ـ هو أمر يعتبر نكسة رئيسية ـ تحسينات كبيرة في الموقف السوفييتي ، فانسحاب فرنسا من منظمة حلف الاطلسي كان مكسبا كبيرا ، وكانت حرب فييتنام تحويلا للانظار مفيدا . وكانت هناك فائدة في تحرك الولايات المتحدة الاميركية نحو درجة من فك الارتباط في أوروبا . وفي المتاعب المالية والاقتصادية للمملكة المتحدة ، خصوصا حيث ساهم ميزان المدفوعات ، ومصاعب الموازنة ، في تخفيف انتشار القوات في أوروبا ، وأيضا كما يقول انصار المحافظة على البيئة في الانسحاب البريطاني من الشرق ، وفي قوة نمو العناصر اليسارية في سياسات كل أعضاء دول منظمة حلف الاطلسي ، وفي التدني المستمر لدى الرأي العام للاهتمام بأمور الدفاع في بلدان الغرب الديمقراطية ، وفي تطورات أخرى معينة .

وكان انتهاج سياسة الانفراج الدولي مفيدا لمصالح الاتحاد السوفييتي ،

مثلما كانت مفاوضات الحد من الاسلحة النووية وتخفيضات القوات تحقق مكاسب مفيدة ، وان كانت بدرجة اقل .

ووقعت في أيدي الحلفاء بعد انتهاء القتال ، وثيقة تخطيط سرية جدا مؤرخة في تشرين الاول عام ١٩٨٣ ومحددة التوزيع بأعضاء الكرملين فقط ، وهي تلقي الكثير من الضوء على السياسة السوفييتية فيما يتعلق بمنظمة حلف الاطلسي ، تستحق ادراج خلاصتها فيما يلي :

ــ **الموضوع : ازالة خطر منظمة حلف الاطلسي لمصلحة أمن الاتحاد السوفييتي في اوروبا** . ويمكن تحقيق ذلك بالطريقة التالية :

تحقيق ايقاع هزيمة عسكرية سريعة في قوات الحلفاء لوسط أوروبا « Afcent » . في الوقت نفسه تتم تصفية قوات الحلفاء لشمال اوروبا « Afnorth » وقوات الحلفاء لجنوب أوروبا « Afsouth » يليها تقدم الى خط وقوف اختياري في « هوك فان هولاند ، ونيميغ ، وماستريخ ، وسابروك ، وتريف ، والراين ، وبال » . وان غاية الاتحاد السوفييتي من الوقوف على هذا الخط ، بدون دخول الاراضي الفرنسية ، يجب توضيحه تماما في أرجاء العالم ، فمن المفروض ان تستمر حكومة الجبهة الشعبية في السلطة في فرنسا عندما يبدأ العمل . وعلى الرغم من وجود خلافات هامة بين فرنسا والاتحاد السوفييتي ، فمن المتوقع ان يتردد الفرنسيون على نحو كاف في التورط في معاداة الاتحاد السوفييتي ، وذلك لضمان ردمناسب للضغوط التي ستواجهها ، وعلى هذا يمكن ان نتوقع ، ولكن لا نضمن ، ان القوات الفرنسية سوف لا تشترك في هذه العمليات .

وبمجرد احتلال جمهورية المانيا الاتحادية كليا ، يمكن والحالة هذه ، تحييدها على الخطوط المعروفة ووفق اجراءات مقبولة . كما يمكن توقع انهيار

منظمة حلف الاطلسي انهيارا كاملا ، بسبب فشله ، وعندها يمكن البدء بمفاوضات ثنائية الجانب مع الولايات المتحدة الاميركية ، وفي الوقت الحاضر يمكن تجاهل بعض الحلفاء السابقين .

اما اتخاذ قرار حازم للعمل بموجب هذه الخطة ، فسيتخذ فقط في ضوء الوضع السائد ، وفيما يتصل بجميع التطورات الاخرى ذات الصلة ، علما أن الخطط العسكرية الكاملة ستبقى جاهزة لتنفيذ هذه الخطة بالذات . وعلى كل حال ، علينا ان نحسب حسابا للعوامل المعينة التي تؤثر في اختيار الوقت .

ولا شك أن نصرا عسكريا مدويا على الغرب ، يليه تفكيك قوة المانيا الغربية ، وانهيار حلف الاطلسي ، سيعزز من الهيمنة السوفييتية ضمن حلف وارسو ، وسيضعف الحركات الاشتراكية القومية المنشقة خارجه ، وان الاتجاهات الحالية تحبذ انجاز ذلك بسرعة كبيرة ، وقد يكون من الحكمة تأخير ذلك الى ما بعد عام ١٩٨٧ .

ومنذ عهد قريب أحدثت بلدان منظمة حلف الاطلسي ، بعض التحسينات في استعداداتها « الدفاعية » . وهذه الاستعدادات متواضعة في الوقت الحاضر . لكن الحفاظ على نفس معدل التوسع فيها ، مع الزمن ، سيضع قيودا خانقة على حرية عمل الاتحاد السوفييتي ، وسيصبح تحقيق الهدف العسكري صعبا جدا خلال خمس سنوات .

ونعتقد أنه توجد خطط للقيام بعمليات هجومية في وقت ما ضد حلف وارسو ، بدءا بهجوم على المانيا الديمقراطية ، على الرغم من أن الغرب ظل باستمرار ينفي بشدة وجود مثل هذه الخطط . ومن الواضح ان جمهورية المانيا الاتحادية تلاقي صعوبة كبيرة في التغلب على تردد بعض حلفائها بشن هجوم قبل عام ١٩٨٦ لكنها من الممكن ان تنجح في مسعاها هذا . وسياسة « الدفاع المتقدم » لا معنى لها من وجهة نظر عسكرية ، الا اذا انطوت على

عمل باتجاه عمق الحدود الشرقية ، ويمكن اتخاذ هذه السياسة فقط كستار لتخطيط غزو لالمانيا الديمقراطية(١) ، اذ من المختمل ان يكون قد اتخذ مسبقا.

والصين لاتشكل حتى الآن تهديدا رئيسيا ، وان كان يتوقع ان تبلغه في يوم ما بالتأكيد . ولذا يجب تصفية منظمة حلف الاطلسي قبل ذلك . على ان ما يجدر الانتباه اليه بشكل عاجل ، هو على كل حال التصرف الصيني بتأييد اميركي قوي لتنشيط الانشقاقات في الجمهوريات الآسيوية التابعة للاتحاد السوفييتي . وهذا يتزايد باضطراد . ومالم تحل مسألة حلف الاطلسي ، قبل خريف عام ١٩٨٦ . فقد يبدو ان موقفا أمنيا متدهورا في المناطق العسكرية في آسيا الوسطى والشرق الاقصى وربما في القاطعات السيبرية « والترانسبيكال » أيضا يمكن ان يصرف الاذهان عن اوروبا ،ويغري المانيا الاتحادية لاستغلال الموقف .

وعلى ذلك فان هناك ولا ريب فائدة في العمل على تصفية جمهورية المانيا الاتحادية ، وضمان انهيار منظمة حلف الاطلسي ، قبل صيف عام ١٩٨٦ .وقد يجبرنا سير الاحداث ــ خاصة على ضوء ما يتطلبه التدخل في يوغوسلافيا ــ على جعل اعمالنا المسبقة وترتيباتنا المتعلقة بالتعبئة ، تحت مراجعة مستمرة .

ولعل الفائدة القصوى بالنسبة للغرب ، كما تؤكد ذلك دراسات منظمة حلف الاطلسي ستكون في مدة الاربعة عشر يوما التي سيمضيها حلف وارسو في عملية التعبئة ، بالمقارنة مع الايام السبعة التي ستستغرقها عملية منظمة حلف الاطلسي لهذا الغرض . ويجب ان لايكون صعبا استغلال المناورات والمشاريع الصيفية لاخفاء العملية خلال الايام السبعة الاولى ، وباللجوء الى

(١) لعله من غير الضروري القول انه لم يكن هناك في وقت من الاوقات أية خطط لدى منظمة الاطلسي لغزو جمهورية المانيا الديمقراطية ولمثل هذا الافتراض قيمة دعائية في الاتحاد السوفييتي وبين المتعاطفين مع السوفييت في الخارج .

ترتيبات خداعية ، لتوحي اذا ما شوهدنا ، وتنبه الغرب اننا نعد لهجوم ممكن، بان تاريخ الهجوم سيكون متأخرا عن التاريخ الذي يمكن ان نختاره لذلك .

وعلى الرغم من بعض التحسينات الاخيرة التي طرأت على حالةاستعداد منظمة حلف الاطلسي ، بما في ذلك ترتيبات استخدام فرقتين أو اربع فرق لموقف طارىء ، فان قوات التعزيز لايتوقع وصولها الى المسرح الاوروبي ، اذا ما ابتدأت الاعمال العدوانية قبل (ي + ١٦) على أقصى حد ، ويتوقع ان يسهم التدخل البحري والجوي في الحد من تأثيرها وفعاليتها ، وليس تدميرها تدميرا تاما . وسيظل من الاهمية بمكان تأمين خط وقوف قبل وصول التعزيزات الرئيسية .

على ان الاهم من ذلك ، وفيما يتصل بمسألة مدة العمليات ، هو موضوع استعمال الاسلحة الذرية . وسيوضح الاتحاد السوفييتي ايضاحا لا لبس فيه ان استخدام الاشعاع الى اية درجة هامة في اسلحة هجومية حربية ، سيعتبر دعوة مفتوحة لتمزيق جميع القيود المفروضة على الحرب النووية . وبالتأكيد فان تصعيد هذه الحرب النووية ، الى التراشق بالاسلحة النوويةالاستراتيجية « كما يقول الاصطلاح الغربي » سيعقب استعمالها في ساحات المعركة .

ومما لاجدال فيه ان الشكوك والتردد ، ستستولي على الحلف فيما يتصل بالسبق في استخدام الاسلحة النووية . ولا شك ان المعارضة الواسعة للسماح باستخدام الاسلحة الذرية التكتيكية على أراضي الجمهورية الالمانية الاتحادية ، سيؤخذ في الحسبان في جمهورية المانيا الاتحادية نفسها ، اذ ان تأثير هذه الاسلحة في أرض المعركة ، لايختلف عنه الا من حيث الدرجة لهجوم نووي استراتيجي على أراضي الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية. وسيعتمد الاتحاد السوفييتي منذ البداية على تفوق عال في القدرة غير النووية، لكن ادخال الاسلحة النووية الى ساحة المعركة ، سيقلب هذا التفوق رأسا على عقب ، وعلى ذلك سيكون من الحماقة بمكان ان يعمد الاتحاد السوفييتي الى

انهاء حيرة منظمة حلف الاطلسي بشأن ادخال هـذه الاسلحة اذا ما سبقه الإتحاد السوفييتي الى ادخالها أولا .

وبقدر ما يكون الاسراع في انهاء العمليات العسكرية بنجاح في أوروبا ، بقدر ما يقل احتمال انهاء تفوق منظمة حلف وارسو بالاسلحة التقليدية ، من خلال وصول تعزيزات رئيسية او ادخال الاسلحة النووية . وان خلاصة دراسة دقيقة لهذه الاعتبارات تؤكد أن الوصول الى خط الوقوف ليس بعد مساء (ي + ٩) . وستحدد الخطة العسكرية وفقا لذلك .

* * *

وخلاصة الخطة العسكرية المتعلقة بتطبيق هذه السياسة توصف الآن بأنها شديدة الاهمية ، في دراسة الحرب العالمية الثالثة ، ولقد اختيرت من بين الوثائق التي تم الاستيلاء عليها ، والتي تستحق التأمل والاهتمام وندرج فيما يلي تلخيصا لها :

على الرغم من ان الهجوم من نقطة وقوف من مواضع اعتيادية ، قد يبدو مغريا ، فانه بالنسبة الى القوات الارضية لمنظمة حلف وارسو ليس قابلا للتحقيق ، وحتى في ظل غطاء المناورات او المشاريع . وبالرغم من التحرك عسكريا في ظل صعوبات امن داخلية حقيقية او وهمية في البلدان التابعة ، فانه في النهاية لا يمكن الاعتماد على تحقيق المفاجأة التامة . ويمكن التذرع بما يقوم به حلف الاطلسي من تحضيرات وقائية . ويتوقع ان تتضمن هذه التحضيرات نقل عناصر فرقة ثقيلة جوا ، وربما فرقتين من الولايات المتحدة الاميركية ، لاستلام تجهيزاتهما ومعداتهما من مواقع محددة مسبقا ، ونشر قوات الحلفاء في وسط اوروبا جزئيا ، بما في ذلك الجيوش البلجيكية والهولندية في مجموعة « جيوش الشمال Northag » ، ونشر جزء من الفيلق الثاني البريطاني الجديد . ومن الممكن ان تتضمن أيضا استنفار الدفاعات الجوية . وستظل مجموعة جيوش الشمال تشكل أكثر النقاط

اغراء ليتم الخرق منها . على الرغم من نقص عمق قطاع مجموعة جيوش الوسط بسبب عدم كفاية الاحتياط للقتال في معركة في العمق فانها ستتطور حتما في قطاع الشمال . وكان في نشر القوات في مواقع اماميه « وهو الاسلوب الذي تبنته جمهورية المانيا الاتحادية لاسباب سياسية محضة » دعوة لتوجيه الضربة الرئيسية باتجاه قطاع مجموعة جيوش الشمال .

ويترتب على خطة التمويه ، ان تحدد بدقة تاريخ بدء الهجوم ، ليس قبل (ي + ٩) أو (ي + ١٠) وعلى هذا ، فان على الهجوم الحقيقي في يوم الصفر (ي) أن يؤخذ الدفاع على حين غرة .

وفي ليلة (ي – ١) ستقع هجمات واسعة على أهداف مناسبة في المانيا الاتحادية ، ستقوم بها القوات السرية « المؤلفة من اربعمائة خلية تحت اشراف المخابرات الروسية « KGB » تعززها وحدات سوفييتية محمولة جوا . وقبل الضوء الاول بقليل من يوم (ي) ستقوم التشكيلات المحمولة جوا ، بالاستفادة التامة من قوات الخلايا السرية لغلق مداخل هامبورغ ومطار « بريمن » والاستيلاء على تقاطع الطرق وعقدها فوق نهر « الويزر » وان أمكن على نهر الراين أيضا . على ان تأمين مطار بريمن كرأس جوي سنيكون أمرا لاغنى عنه ، كما ستكون نجاحات العمليات المحمولة جوا أمورا مرغوبا فيها .

وقبل أول ضوء من يوم (ي) مباشرة وفي نفس الوقت مع اوسع تدخل ممكن من قبل الولايات المتحدة الاميركية باقمار استطلاع الفضاء ، كانت تشن عملية جوية في أعلى درجات الشدة ، تقذف فيها قنابل شديدة الانفجار وذخائر كيميائية ضد قواعد القوات الجوية الحليفة وعلى اجهزة القيادة والسيطرة التابعة لها ، وفي نفس الوقت على تحركات القوات البرية التابعة للحلفاء في وسط أوروبا ، وهي في طريقها الى مواقعها الدفاعية الرئيسية مستعملة القنابل شديدة الانفجار والذخائر الكيميائية . وعندما يتحقق تأثير الصدمة التي نتجت عن هذه العملية ويتحسن الموقف الجوي ، يمكن توجيه ثقل المجهود

الجوي ، الى الدعم المباشر لهجوم عام على طول جبهة القوات الحليفة في وسط اوروبا ، مستغلة تكتيكات هجوم كتلوي عادي والضرب في الاعماق ، بهدف قطع الطريق على عمل مضاد للدروع تقوم به منظمة حلف الاطلسي . أما في القتال الارضي ، فتستخدم الاسلحة الكيميائية بناء على توجيهات قادة الجيوش ، مع التأكيد على استخدام الغاز المؤثر على الاعصاب بشكل دائم التأثير ، وكذلك غير الدائم التأثير ، وتستمر الهجمات على الاهداف المناسبة ، وخاصة المطارات ومواقع الدفاع الجوية ومقرات القيادات ، ونقاط الممرات الاجبارية ، بينما تحظى كافة العمليات التي تقوم بها القوات الارضية بأقصى درجات الدعم الجوي التكتيكي .

أما جيش الحرس المدرع الثاني مع فرقتين بولونيتين وبعض القوات من جمهورية المانيا الديمقراطية . فتقوم بهجوم على شمال قطاع مجموعة جيوش الشمال بينما تقوم قوات جيش الصدمة بالهجوم على نفس القطاع من الجنوب يتبعها جيش الحرس مع فرقتين المانيتين شرقيتين تحت أمرته .

ويهاجم جيش الحرس الثامن على جبهة مجموعة جيوش الوسط وهدفه فرانكفورت . بينما يهاجم جيش الحرس المدرع الاول الى الجنوب وهدفه نورنبرغ .

وتتحرك فرقة بولونية واثنتان سوفييتيتان باتجاه الشمال عبر خط « شلزويغ هولشتاين » الى الدانمارك ، مدعومة بما هو ضروري ، ويكون للهجوم ، الاندفاع الرئيسي على القوات الحليفة في « شمالي اوروبا Afnorth » من خارج منطقة لينفراد العسكرية ، عبر كولا في الوهلة الاولى والقوات اللاحقة بالقطارات عبر فنلندا . ويجب ايقاف المقاومة الفعالة في منظمة القوات الحليفة لشمالي أوربا بحلول يوم (ي + ٦) . مع ان الارض الصعبة قد تعيق التقدم نحو الجنوب في النرويج .

ومع أول ضوء في يوم (+ ١) يجب ان تصل الارتال المدرعة في الشمال

الى قناة « دورتمند ــ امس » وتصليح معابر نهر « الويزر » شمال « مندن » بأسرع ما يمكن . وفي منطقة جيوش الوسط يجب تأمين « جيسين » للقيام بهجوم على مجمع « فرانكفورت ــ مينز » التي يتعرض منذ زمن الى ضغط كبير من الشرق .

وعلى التشكيلات المحمولة جوا والتي تعمل على الارض من رأس الجسر الجوي في « بريمن » ان تؤمن معابر النهر الى هولندا ، ليتم تعزيزها وتثبيتها من قبل المدرعات اللاحقة . وستستعمل القوات المنقولة جوا لمد عمق الاختراق الى هولندا . ولا بد من احتلال مجمع راديو وتلفزيون « هيلفرسوم » سالما . وفي أول فرصة وبحلول يوم (ي + ٢) يتوقع ان تصبح المقاومة في هولندا رمزية . ويجب احتلال كل هولندا حتى نهر « الوال » في الجنوب يوم (ي + ٦) .

وفيما يستمر الضغط القوي على منطقة مجموعة جيوش الوسط من الشمال الشرقي والشرق ، فسيكون الجهد الرئيسي من الآن ، في هجوم من الشمال الى الجنوب بمحاذاة الضفة الغربية لنهر الراين . ويتوقع ان يكون هذا الهجوم حاسما في الالتفاف حول منطقة مجموعة جيوش الوسط وتدمير مجموعة قوات الحلفاء في وسط اوروبا .

ويجب استغلال حركة اللاجئين الى الحد الاقصى في كل مكان ، والجرحى من المدنيين لاعلاقة لهم بالموضوع وقد يكونوا مفيدين ، كما يجب تجاوز المدن حيثما أمكن .

ويجب احتواء برلين ، مع الاهتمام المبكر بسلامتها عندما تنهار جبهة قوات الحلفاء في وسط أوروبا .

ويتوقع ان تستمر اعمال المقاومة في الاراضي الصعبة مثل « هارز » « سبيسارت » ومناطق غابات « ثورانج » وجبال بافاريا . الا ان من الممكن

تجاهل هذه الاعمال لكن من المحتمل ان تستمر في مدن « ريناني » و « الرور » وهنا يجب تصفيتها دون رحمة .

ويتوقع ان تعمد قوات مجموعة جيوش الشمال باديء ذي بدء ، عندما يتم اختراق دفاعاتها ، الى ان تأخذ مواقع جديدة شرق – غرب على طول « بون – ماستريخ » على أمل ان تمنع معابر الراين الادنى من السقوط بقيامها بمناورة بالعمق ، وسوف لاتتوفر لهم القوات الكافية لهذا العمل . وبالتالي ليس من أمل في النجاح بالنسبة لمجموعة جيوش الشمال .

وعندما يأخذ الهجوم الشمالي – الجنوبي بالتعاظم – عندئذ ، يتوقع ان تتجمع قوات مجموعة جيوش الشمال في محاولة لوقفه على خط شرقي – غربي على نهر الراين بين « بون وماستريخ » . ومما لا جدال فيه ، انه تتوفر تشكيلات جديدة من حلف وارسو ، وموارد جوية لعملية الاختراق ، او على الاقل ستتوفر ثلاث فرق من جيش الحرس للبدء بالعملية . والنجاح في هذه العملية سيؤدي الى طي مجموعة جيوش الوسط من الخلف ، وانهيار دفاعات منظمة حلف الاطلسي في المنطقة الوسطى .

ويجب ان يتم ذلك بحلول يوم (ي + ٧) حيث لايسمح بوجود جيوب مقاومة الا في جبال الالب البافاريه « بصرف النظر عن هامبورغ وعن برلين اذا لم يتم استسلامها بعد » .

وفي يوم(ي) ستتحرك ثلاث فرق سوفييتية، من هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا عبر النمسا الى ايطاليا حيث لايتوقع ظهور مقاومة ايطالية . ويمكن لهذه القوة، عند الضرورة ، ان تهيء القيام بهجوم على جناح مجموعة جيوش الوسط عبر بافاريا .

ويجب الافتراض ، ان الضغط السياسي على الحكومة الفرنسية في ظل ضمانة عدم تجاوز قوات حلف وارسو لخط التوقف سيدفع فرنسا للامتناع

عن الاشتراك في الاعمال العدائية ، ولسحب مجموعة الجيوش الفرنسية الثانية من المانيـــا .

وان انهيار قوات الحلفاء لوسط اوروبا وتصفية قوات الحلفاء لشمال اوروبا ، وكذلك قوات الحلفاء لجنوب اوروبا سيحيل قيادة الحلفاء في اوروبا الى جهاز عاجز ويسبب تفكك الحلف ، وتقبل الولايات المتحدة الاميركية وقف اطـلاق النار يوم (ي + ٨) أو بعد ذلك تماما . ثم تبدأ المباحثات .

وسيبدأ الحديث في تحييد جمهورية المانيا الاتحادية مع تصفية العناصر المعادية في صفوف الشعب ، كما تجري مناقـلات سكانية حسبمـا تقتضي الضرورة ، بالاضافة الى تفكيك المعامل الصناعية لازالتها او تدميرها في مواقعها وقد تم تحضير جميع التعليمات المتعلقة بهذه الامور .

ان خطة الهجوم على المنطقة الوسطى لمنظمة حلف الاطلسي من قبل حلف وارسو وهذه خلاصتها ، افترضت كشرط ضروري سيطرة مستمرة عاليـة الدرجة على بلدان وشعوب اوروبا الشرقية ، ومن المحتمل ان يشكل هـذا الوضع خطـرا .

* * *

الفصل الحادي عشر

على شفير الهاوية

١ ـ تنظيمات مجموعة جيوش الوسط

في الثاني من آب ١٩٨٥ ، كانت مجموعات الجيوش الاربع التي تشكل مجموعة جيوش الوسط من قيادة الحلفاء في أوروبا في مواقعها الامامية في قطاع مجموعة جيوش الوسط . ويمتد هذا القطاع من قرب مدينة « كاسل » في الشمال عند نقطة اتصالها بمجموعة الجيوش الاولى البلجيكية ، عن يمين مجموعة جيوش الشمال الى الحدود النمساوية جنوب ميونيخ .

وتتمركز مجموعات الجيوش الاربعة التابعة لمجموعة جيوش الوسط من الشمال الى الجنوب على النحو التالي : الجيش الثالث الالماني ، فالجيش الخامس الاميركي ، فالجيش السابع الاميركي والجيش الثاني الالماني .

أما مجموعة الجيوش الثانية فتتمركز هي أيضا على الشكل التالي : الجيش الثاني الفرنسي المتمركز في جنوب غرب المانيا مع بعض وحدات الجيش الداعمة . ولم تكن بعد تحت أمرة الحلف في أوروبا ، ومن غير المعروف على وجه اليقين ، كيف تنظر الحكومة الفرنسية الى التزاماتها بموجب معاهدة حلف الاطلسي ، في حال قيام اعمال عدائية مع حلف وارسو ، مع الاخذ بعين الاعتبار توجهها نحو اليسار ـ كما أعلنت عنه مؤخرا ـ . على كل حال كانت علاقات القيادة الفرنسية في المانيا مع قيادة مجموعة جيوش الوسط متينة وودية والاتصالات بين الطرفين ، برغم الحذر ، كانت حرة للغاية .

وفي أواخر تموز نقلت عناصر فرقة مدرعة من أميركا جوا وهي الاولى من الفرق الملحوظة للانضمام الى الجيش الاميركي العامل في أوروبا . وفي ليلة الثاني من شهر آب ، تلقت معداتها ومهماتها المعدة مسبقا في مواقع القتال التي احتلتها ، بما في ذلك أكثر من ثلاثمائة دبابة من طراز « XM-1 » وأجرت بعض وحداتها رمايات مدفعية ودبابات ورمايات أخرى في حقول رمي « غرافنووهر » قبل ان تتوزع في المنطقة الشمالية الغربية من « وبرزبورغ » تحت قيادة مجموعة الجيوش الاميركية الخامسة . وكان قطاع مجموعة الجيوش الاميركية الخامسة الذي يمتد من الشمال الى الجنوب عبر « فولدا » يعتبر خطرا بالنسبة الى مجموعة جيوش الوسط .

وكان خط الحدود مع الشرق يزداد تقعرا كثيرا نحو الغرب حسب اتجاه انحناء الراين وذلك بالقرب من فرانكفورت — مين بحيث لايبعد أقربها عن فرانكفورت اكثر من مائة كيلومتر واكثر من اربعين كيلومتراً فقط عن الراين ، بالاضافة الى ذلك تقع في الاراضي الجبلية « ثورانج » ثغرة هامة حول فولدا نفسها حيث تبدأ الارض بالانفتاح نحو سهل الراين — مين ، لتصبح سهلة المسالك . والمسافات هنا قصيرة كلها . ولا تتيح الارض هناك فرصة للعمليات المتحركة .

وكانت المنطقة امام وادي فولدا تسمح بالدفاع وتقدم العديد من المواقع الجيدة للدبابات والاسلحة المضادة للدرع مع عمق جيد لحقول الرمي . ولسوء الحظ انّ المسافة ما بين وادي فولدا حتى الحدود لاتزيد مع الاسف على خمسة عشر كيلو مترا .

وخلف وادي « فولدا » باتجاه الغرب تقع الكتلة العالية لجبال « فوجلسبرغ » والى الشمال المنطقة الحراجية على طول الطريق الرئيسية (الاوتوستراد) عبر « بادهرسفليد » الى « كاسل » بينما تقع في الجنوب أرض « الهوهيرنون » الصعبة غير الصالحة للاستعمال . وكمثال جيد على سير الاحداث في قطاع خطر سنعطي اهتماما كبيرا الى اعمال الفيلق الاميركي الخامس . كانت مهمة قائده سهلة

وبسيطة وهي ابقاء القوات السوفييتية شرق سهل فرانكفورت واقرب مايمكن الى الحـدود .

وكان اللفتنانت جنرال « هارول ج سلبي » القائد العام للفيلق الخامس ضابطا مجريا ، وكان صغيرا جدا عندما كان في الخدمة في الحرب العالمية الثانية، ثم انضم الى الحملة الكورية بعد الحرب مباشرة . وفيما بعد خدم في المدرعات في فيتنام . وقد تضمنت خدماته خلال السبع سنوات في المانيا ، بالاضافة الى جولة على عمليات الاركان في مقر قيادة جيش الوسط قيادة فوج ، ثم فرقـة فيما بعد ، وذلك قبل ان يتسلم قيادة الفيلق الخامس الاميركي عام ١٩٨٣ .

وقد تم تزويد قوة الفرقتين الاميركيتين الاصليتين التابعتين له بخمسـة عشر الف رجل ، واكثر من ثلاثمائة دبابة لكل منهما ، وحوالي خمسمائة سلاح مضاد للدرع . وبالاضافة الى الفوج المدرع المنتشر على طو لالحدود في قطـاع الفيلق الخامس ، كانت هناك سرية مدرعة في كل فرقة لدعمها اضافة الى مدافع ذاتية الحركة من عيار ١٥٥ ملم و ٢٠٠ ملم من مدفعية الفرقـة ، توفرت لكل فرقة مجموعة مدفعية اضافية وحوالي خمسين حوامة مضادة للدبابات . أما فرقته الثالثة وهي التي وصلت حديثا الى المانيا ، وتضم العديد من الضباط والجنود الذين تتوفر لهم الخبرة في مسرح القتال ، فكانت أقل قوة ، كما كانت أقل تعزيزا ، ولم تحتل مواقعها بعد .

وكانت الفرقتان الاماميتان تعرفان منطقتهما جيدا ، وكانت كل منهما مستعدة استعدادا تاما للاهتمام بأحد أهم محورين محتملين للهجـوم الى الشمال مـن « فوغلسبرغ » عبر « بادهرسفليد » حتى السهل الواقع شمالي فرانكفورت ، وجنوب « فوغلسبرغ » خلال « فولدا » وعلى طول وادي « كينزغ » عبر « هاناو » باتجاه فرانكفورت ، قدر قائد الفيلق ان القتال سيجري على محورين ، ولكنه كان مقتنعا ان احدهما سيكون محور الجهد الرئيسي للهجوم المعادي ، وكـان يعلم ان واجبه الملح هو تحديد اتجاه الهجوم الرئيسي للعدو ، قبل ان يتم سحق واجتياح القوات الصغيرة المواجهة للهجوم .

وكان دور الاستطلاع هنا هاما . فمنذ وصول هذا القائد الى قيادة الفيلق قام بدراسة مفصلة دقيقة للارض ، وخطط لعملية استطلاع تامة تغطي جميع محاور الاقتراب . وطلب من مجموعة جيوش الوسط تغطية كل ما لم يستطع تأمينه بامكانياته . ولكي يحصل على ما يريد ، اعتمد على الرصد والاستطلاع ومصادر الاستخبارات المتوفرة على كل مستوى من مستويات المسؤولية ، من الراصد الصغير المزود بمنظار وجهاز اللاسلكي وهو قابع في موقعه في حفرة ، على تل متقـدم ، الى الاجهزة الفضائية المعقدة جدا . وقد جرى تصميم نظام توزيع المعلومات التكتيكية المشتركة لتمرير حجم كبير من المعلومات الواردة اليه من مصادر متنوعة كأجهزة الاقمار الاصطناعية وعربات الاستطلاع التي تسير بشكل آلي وأخرى بالواسطة « معلومات الكترونية » ومعلومات اشارة ، ورصد أثناء المعركة من جميع الانواع . وتحويلها الى مراكز خاصة لتحليلها وتنسيقها وتقويمها ثم توزيعها . وكان قائد الفيلق على كل حال رجلا مجرباً لا يعتمد اعتمادا كليا على طرق لا تقع تحت اشرافه التام او على اجهزة معرضة لاجراءات مضادة . وكانت طريقته الرئيسية في تقدير وكشف نوايا العدو ، هي اشتباك بالقوات يقرر اجراءه في منطقة قوات التغطية القريبة من الحدود أمام نهري « هانوي وفولدا » وسيعتمد قراره النهائي في نهاية المطاف على بداهته المحضة بالرغم من المعلومات المتوفرة وتفسيره لها .

وكان الفوج المدرع المتمركز على الحدود يشكل قوة مدرعـة بحجم لواء معزز يتألف من دبابات خفيفة مفرزة بكتيبة دبابات متوسطـة ، وكتيبة مشـاة آلية اضافة الى مدفعية ذاتية الحركة وحوامات قتال . وتلقى القادة في قوة التغطية اوامر لتدمير عناصر الطليعة بالاشتباك من مدى بعيد او عن قرب بواسطة الكمائن ، وذلك لاجبار العـدو على زج احتياط قوي ونشر مدفعيته واستخدامها ، وعدم اخلاء الارض الا لتجنب تطويق مؤكد وشيك الوقوع وكذلك لتجنب دمار ساحق . وقامت عـدة قوات عملياتية مدرعة صغيرة بالاستطلاع ، وأعدت في كثير من الحالات المئات من مواقع القتال الجيدة قبل أن تبدأ المعركة ، وكان قائد الفيلق مقتنعاً تماما ان في اعمال قوات التغطية

يكمن مفتاح النجاح في هذه المعركة الاساسية . فاذا ما تم هذا العمل وفقا لما يريد ، فان من شأنه ان يحدد اتجاه الضربة الرئيسية للعدو وان يعطيه وقتا كافيا لتنظيم رده عليها ، وفي الوقت نفسه سيعمل ذلك على الحد من تقدم القوات السوفييتية الى درجة القاء الشكوك حول عقيدة السوفييت في ان الهجوم المدرع الشامل لا يمكن قهره ، وقدر قائد الفيلق ان هذا سيعود عليه بفائدة كبيرة .

وسنرى في سير الاحداث ان تصورات هذا القائد كانت على درجة كبيرة من الصواب .

* * *

٢ ـ منظر من «رنداهلين»

عندما أنهى الضابط المناوب في المكتب الثالث في شعبة العمليات ـ برئاسة الاركان لمجموعة جيوش الشمال ، التي لا تزال في مواقعهـا ايام السلم في « رنداهلين » بشمال المانيا ، تسجيل المخابرة الهاتفية الروتينية كل نصف ساعة الى قوات الحلفاء لوسط أوروبا ، انصرف الى كتابة رسالة الى زوجته . بينما كان اثنان من مرؤوسيه الواقفين في زاوية من غرفة الخرائط يعدان معا للمكالمة التالية . وكان الوقت بعيد الثالثة من صباح أول يوم أحد من شهر آب ١٩٨٥ ، وكان الليل دافئا ومرعدا ، ولم تفلح عاصفة مطر قصيرة هبت عند منتصف الليل تقريبا في تلطيف الحر .

لم يكن هناك الكثير لينقله الى مركز قيادة قوات الحلفاء لوسط أوروبا . وأكثر المعلومات الهامة كانت قد نقلت في وقت مبكر من الليل ، تقـارير عن حالة استعداد مجموعة الجيوش وأوضاع الفيالق الخمس ، التي تتألف منها مجموعة الجيوش(١) وحالة الدبابات والمدافع ، ووصول وحدات الاحتياط وعناصر التعزيز ، وكذلك تقرير الوضـع العام ، وغير ذلك .

أما الاستنفار العام الذي أمرت به قيادة الحلفاء في أوروبا على أثر أنباء الهجوم المحمول جوا على يوغوسلافيا ، والقوات اللاحقة ، لفرقتي البنادق الآلية ، السوفييتي القادم من هنغاريا ، والذي نجم عنه مباشرة تقريبا اشتباك مع قوات المارينز « البحرية » الاميركية ، لم يفلح في عمل شيء بتغيير الامور ،

---

(١) تتألف مجموعة الجيوش من الفيلق البلجيكي الاول ، والفيلق الالماني الاول ، والفيلق الهولندي الاول ، والفيلقين الاول والثاني البريطانيين ، والاخير مؤلف بشكل رئيسي من وحدات الاحتياط للسنة السابقة وقد وضع في حالة التأهب في المانيا وقد اسندت له مهمة هناك قبل شهر فقط .

سوى تعديلات طفيفة في المنطقة الوسطى . وكانت الاحـداث تتحرك باتجاه استنفار عام لبضعة ايام . مع أن كافة الدلائل تشير الى أن قيـام الحلف بهجوم في المنطقة الوسطى ، اذا ما تم ذلك حقا فلن يكون محتملا قبل شهر أيلول ، أو قبل منتصف آب اذا أمكن ذلك .

وخلال الليل ، كان الكثير من المعلومات يتدفق على غرفة العمليات من أركان الجيش البريطاني ، المتمركز على نهر الراين « الذي كان قائده العام أيضا قائدا لمجموعة جيوش الشمال » لكن معظم هذه المعلومات لم يكن جديدا ، واستمرت التقارير على نحو أخذ يصبح عاديا ، عن استعدادات خلايا سرية للتخريب ، عرف منها حوالي مائة هدفها ضرب مراكز مواصلات مدنيـة وعسكرية ونقاط أخرى هامة في جميع أنحاء جمهورية المانيا الاتحـادية ، ولتقديم المساعدة الى المظليين السوفييت الهابطين على الجسور على نهـري الراين والويزر ، وكان هناك الاختلاف المعتاد الذي يدعو للقلق والتشوش حول تحديد يوم (ي) أي تاريخ توقيت العملية ، وحول خلافات واسعة في التفاصيل المتعلقة بتلك العملية .

ان ما لم يكن موضع شك لاسابيع خلت وحتى قبل أزمة يوغوسلافيا ، هو أنـه اذا لم تكن المناورات التي تقوم بها مجموعة القوات السوفييتية في المانيا ـ وهي تجري حاليا على أوسع نطاق لم يسبق له مثيل ـ اذا لم تكن في الحقيقة تعبئة للحرب ، فانها كانت بديلا مقبولا لها . وتم اشعار القائد العام للجيش البريطاني في الراين بواسطة رئاسة البعثة العسكرية السوفييتية « مجموعة جيش الشمال كقيادة لمنظمة حلف الاطلسي ـ لم يكن معترفا بها من قبل الاتحاد السوفييتي » عن عزم القيادة السوفييتية ، على اقامة مناورات في منطقة مغلقة من المانيا الشرقية لكن تلك المنطقة كانت بحجم غير عادي ، كما كانت المشاريع ستمتد آجالا غير عادية . وقد عللت البعثة السوفييتية ذلك على أنها « تمرينات استعداد » عادية ولكن تجري خلال فترات طويلة .

ان الازمة في يوغوسلافيا ، والتدخل السوفييتي « على الرغم من أنـه

لا يمكن وصف أي منهما بأنه كان غير متوقع » ألقت ضوءا واضحا على الاحداث ، ويبدو معقولا أن الفكرة التي تقول بمحاولة دفع حلف وارسو بيسر وسهولة قدر الامكان الى مستوى حالة الحرب ، قبل القيام بمبادرة عسكرية في يوغوسلافيا (هذه المحاولة كان مخططا لها من قبل ومنذ زمن بعيد ، وقد لا يمكن التنبؤ بسهولة برد الغرب على محاولة سوفييتية ، لارغام يوغوسلافيا المفككة للعودة الى النظام) ولكن لم يكن من المحتمل أن تكون هذه الفكرة مقبولة ومألوفة مثل اخضاع تشيكوسلوفاكيا قبل سبعة عشر عاما، وعلى الرغم من كثرة ردود الفعل الممكن توقعها ، الا أن الهجوم على حلف وارسو من قبل منظمة الاطلسي ، لا يمكن أن يكون أحدها ، مهما يوفر احتمال القيام به من اغراض دعائية لصالح الاتحاد السوفييتي . ومن المهم على كل حال لقوات الحلف أن تكون مستعدة دائما سواء لعمل دفاعي ضد هجوم غربي أو بهجوم وقائي محتمل .

كان ذلك في شهر حزيران ، عندما بدأت الاشاعات تصل الى الاستخبارات الغربية بشأن ازدياد نشاطات المجموعات اليسارية السرية في جمهورية ألمانيا الاتحادية . وفي ذلك الوقت أيضا بدأت تتأكد صحة هذه الاشعاعات من مصادر موثوقة كثيرا ، وكان واضحا أن الخطط الموجودة كانت تستهدف التخريب على نطاق واسع . والقيام بعمليات لا يمكن أن يكون لها شأن الا اذا تلقت الدعم العسكري . وفي مطلع شهرتموز بدأتالدلائل تتضح ، وحدد تاريخ احتمال بدء العمل ، في منتصف شهر ايلول ، ومع ان الشك كان يحوم حول ما اذا كانت خلايا التخريب تستطيع انجاز الشيء الكثير . لم يكن هناك في المقابل دليل على احتمال قيام القوات المسلحة السوفييتية بمبادرة رئيسية ، وحتى ولو كانت « تدريبات الجاهزية » قائمة على قدم وساق .

من الطبيعي أن تكون جمهورية المانيا الاتحادية السباقة بين دول الحلف الرئيسية التي تنظر الى خلاصة هذه التقارير بخطورة واهتمام حقيقيين ،

ليس فقط بسبب حدة النشاطات العسكرية الحالية لمنظمة حلف وارسو ، ولكن أيضا بسنبب الوضع المشوش الخطير في يوغوسلافيا . وقد بدأت الولايـات المتحدة الاميركية في الوقت نفسه تحس بنفس الشيء ، وتتصرف على منواله ، وكذلك فعلت بلجيكا .

أما المملكة المتحدة ، فكانت صعبة الاقتناع ، فلم تعرف أي نوع من الاستنفار منذ عدة سنوات « منذ رحيل تيتو عن المسرح السياسي الدولي » ولم يصدق البريطانيون تماما ما كان يقال لهم ، ولعل السبب في ذلك أنهم أنفسهم لم يريدوا أن يصدقوا . وكان للانفراج الدولي الزائف تأثيره . ومن المعتقد بشكل عام ، أنه اتخذت مؤخرا داخل الحلف ، الاجراءات الكافية لردع الروس من محاولة القيام بأي شيء . وأيا كانت التحولات في الرأي العـام البريطاني خلال السنوات القريبة ، فان عـادة خداع النفس التي لا تـزال مستحكمة ، ولعدة سنوات في بريطانيا ، كان من الصعـب التغلـب عليها بسهولة .

أما الهولنديون فكانوا أكثر معارضة وكرها في تصديق أي شيء غير مربح من هذا القبيل . لكن النرويجيين والدانماركيين فقد رفضوا رفضا قاطعا دلائل اقتراب الحرب . بينما الفرنسيون احتفظوا لانفسهم بآرائهم ، مع أنهم أعضاء في حلف الاطلسي ، وان كانوا ليســوا بالطبع أعضاء في معاهدة منظمة حلف الاطلسي بالاضافة الى أنهم في ظل حكومة الجبهة الشعبية .

بدأت حركة مجموعة القوات السوفييتية المتواجدة في جمهورية المانيا الديمقراطية في منطقة المناورات ، خلال الاسبوع الاول من شهر تموز في ظل طقس صيفي حسن ، وكانت المعلومات القادمة من المانيا الشرقية الـى الغرب كثيرة كالعادة ، وتبين بعد وقت قليل أن هـذه المشاريع ستجري على نطاق أوسع مما كان متوقعا ، أما الجيش الاحمر البري ، والقوات الجوية

فكانا ينفذان العملية الحقيقية . وكان يجري نقل الذخائر والوقود والمعدات الحربية من مكان لآخر باتجاه ساحات القتال المقبلة ، وفي الوقت نفسه كانت ترتيبات استدعاء الاحتياط في الاتحاد السوفييتي نفسه ، تجري على قدم وساق ، وكان المساقون للخدمة يلتحقون بوحداتهم ، ويبدو أن نفس الاجراء كان يجري في كافة بلدان حلف وارسو .

ويعود الفضل الى جريدة النيويورك تايمس التي كانت أول من أثار الانتباه الواسع في الغرب ، عندما كتبت أن ما يجري في بلدان منظلة حلف وارسو يبدو تعبئة حقيقية . وبعد يومين كتبت صحيفة « الفرانكفورتر الجامين » نبأ صريحا مفاده ، أن ما قيل حول هذا الامر صحيح ، وفي نفس اليوم نشر صحافي يدعى « جاردين سناتشر » وبعنوان بارز : أنه يتحدى قانون الرقابة على الصحافة ، ليعلن للعالم أجمع أن رؤساء أركان الجيش البريطانيين مارسوا حقهم الدستوري في الوصول الى مكتب رئيسة الوزراء السيدة « بلومير » في « ١٠ داوننغ ستريت » ليعلموها ما يجري بالضبط .

وفي خارج أوروبا ، كانت التطورات الصاخبة المشار اليها في موضع آخر من هذا الكتاب ، تسبب قلقا متعاظما في العالم الغربي ، وأكثر ما يكون في واشنطن بالطبع . وكانت العلاقات بين الولايات المتحدة الاميركية والكتلة الشيوعية ، في البحر الكاريبي متوترة أكثر من المعتاد ، وتتجه نحو الاسوأ . أما الاحداث في أفريقيا الجنوبية وفي الشرق الاوسط ، فقد بدا أنها لا تسير نحو أزمة واحدة بل عدة أزمات . وكان النشاط السوفييتي المحدد في المناطق الثلاث يزداد تعاظما ، فيما أصبح ثلث اسطول الغواصات السوفييتية في البحار ، وان بعض وحداته مع قطع بحرية داعمة ، ذكر انها في المياه الاقليمية لكوبا وجامايكا ، وفي مياه الاسكندرية وشمال افريقيا ، وكذلك في مياه مالطا والخليج العربي . أما وحدات اسطول البحر الاسود ، فقد علم أنها تتحرك باعداد صغيرة ، من خلال المضائق باتجاه البحر الابيض المتوسط . وما لا يقل

أهمية ودلالة استخدام العديد من أسراب الطائرات السوفييتية المقاتلة على نطاق واسع في منطقة البحر الكاريبي وفي ليبيا ومالطا وشرق افريقيا وسورية . بينما ازدادت تحركات طائرات النقل .

وفي الاتحاد السوفييتي كان يتوقع أن تكون المواسم السنوية ، للحبوب اشد اجدابا منها خلال السنتين السابقتين ، وكانت المواد الغذائية الاساسية الضرورية شحيحة أيضا ، ويذكر أن بعض الاجراءات أدت في الماضي القريب ، الى قيام موجات من الاضطرابات في بولونيا ورومانيا وحتى في بعض أجزاء الاتحاد السوفييتي نفسه « في أوكرانيا مثلا ، وفي جورجيا » . مثل هذه الاجراءات يحتمل ان تتكرر وكانت يوغوسلافيا في الوقت نفسه على شفا حرب أهلية .

ويشير الذين يراقبون الكرملين ، الى الفرص المناسبة للاستغلال السوفييتي . تلك الفرص التي بدأت تتفتح لهم في أماكن مختلفة معا ، ويضيفون بغم واكتئاب انه لا بد أن يأتي حين من الدهر يحتاج فيه الاتحاد السوفييتي الى القيام بمغامرة خارجية لصرف الانتباه عن التململ في الدخل . وربما كانت هذه هي المناسبة – ولم تكن الصين ، وهي عدوة كلتا القوتين الرئيسيتين ، مستعدة لعمل عسكري رئيسي – . أما منظمة حلف الاطلسي فلم تتخلص بعد ، مما تعانيه من اهمال ظلت تتعرض له مدة عقد من الزمن ، على الرغم مما تم عمله خلال السنوات القليلة الماضية لاصلاح بعض نواحي النقص المعروفة . وبالطبع فان الذين يراقبون الكرملين قالوا كل ذلك من قبل ، وشيء واحد على الاقل كان واضحا أن الوقت لم يكن الى جانب الاتحاد السوفييتي .

وقد اتضح للمراقبين الغربيين الذين ألقوا نظرة على الاحداث الماضية ، ان التعبئة التامة في حلف وارسو بدأت يوم ١٤ تموز أو قريبا من هذا التاريخ . وقد توفر لسكرتير الدولة الاميركية « وزير الخارجية » المؤشرات التي تسمح بنصح الرئيس « تومبسون » في ١٨ تموز ، بوجوب قبول أن التعبئة العامة

السوفييتية حقيقة واقعة ، على الرغم من أنــه لم يسبق للاتحاد السوفييتي الاعلان عن ذلك . ثم بلغت النصيحة نفسها الى جميع رؤساء حكومات الدول الأعضاء في منظمة حلف الاطلسي ، في الوقت نفسه تقريبا وفي البلدان الشريكة الاساسية الثلاثة في منظمة حلف الاطلسي وهي الولايات المتحد ةالاميركية ــ والمملكة المتحدة ــ وجمهورية المانيا الاتحادية ، حث وزراء الدفاع على التعبئة فورا ، وجاءت الموافقة الفورية على ذلك من المانيا الاتحادية فقط .

عارض رئيس الولايات المتحدة الاميركية الذي كان يدرك مسؤولياته الفريدة في تصعيد حرارة الموقف . فاتصل برئيس دولة الاتحاد السوفييتي على الخط الساخن « تم ذلك بعد تأخير ــ فقد مرت عدة ساعات قبل أن يأتي الرئيس السوفييتي للرد على الهاتف » للاحتجاج بشدة ، وليحثه على الغاء جميع الاستعدادات الحربية التالية ، فكانت الدهشة السوفييتية هي الجــواب على هذا القلق الاميركي ، فالذي كان يحدث في جمهورية المانيا الديمقراطية لا يعدو كونه تمرينا تم الاعلان عنــه في حينه ، ومن المعروف ان تمارين التعبئة (وهي نادرا ما تجري بسبب النفقات الكبيرة) لا غنى عنها لتأمين فعالية القوات المسلحة . وعندما ينتهي هذا التمرين ، لا تقوم الحاجة لاعادته لوقت طويل . ويؤمل من الرئيس الامريكي أن لا يشجع على القيــام برد فعــل مذعور . ولعل أفضل خدمة تؤدى للسلام العالمي ، هي اسكات عواء المهووسين من النازيين الموتورين في جمهورية المانيا الاتحادية ، هــذه الظاهرة التي أخذت تزداد يوميا بسبب القلق في الاتحاد السوفييتي .

وتحت الضغط المتعاظم من قبل مجلس الامن القومي والاركان المشتركة للقوات الاميركية . ولوجود مؤشرات واضحة لدى الرأي العام في الولايــات المتحدة الاميركية ، تدل بقوة على تحبيذ التعبئة ، أصدر الرئيس « تومبسون » اوامره ، بهذا الشأن في ٢١ تموز . اما جمهورية المانيا الاتحادية ، فقد بدأت عملية التعبئة في اليوم السابق . ولم تنفذ المملكة المتحدة ذلك الا في ٢٣

منه ، وبشيء من المعارضة ، وفي البداية لم يكن واضحا ما اذا كانت النقابات والاتحادات لم تعد قوة مسيطرة على الحكم في بريطانيا ، كما كانت في السبعينات، وان كانت ما زالت بعد قوية . ولكن حدث ما هو متوقع ـ عدم موافقة اليسار ـ ، ولم تعط اشارة الانطلاق الا بعد جدال ومناقشات طويلة وشاقة . وحتى بعد هذا الحد ، صدرت الاوامر للتعبئة بشكل مخفف في الفترة الاولى ، فدعي البرلمان من عطلته وأقر بسرعة قانونا يسمح باجراء تحضيرات معينة « شمول الاحتياط الاختياري » تعتمد من الناحية الدستورية التعبئة الكاملة . وبدأت دعوة الاحتياط .

واثر اجتماع طارىء لمجلس منظمة حلف الاطلسي صدرت الاوامر في جميع الدول الاعضاء بالدعوة للتعبئة في نفس الوقت . ومن المعلوم انه لم يكن هناك اتفاق عام على توقيت الاستجابة لاجراء الاستنفار في كل دولة ، وتعتبر هذه المسألة شرخا في صرح منظمة حلف الاطلسي . وازدادت ظهورا في السبعينات ، وقد احتفظت كل حكومة بدرجة عالية ومتفاوتة من حسن التصرف والاستجابة . ولحسن الحظ أنه يوجد الآن ما يدعو الى المماطلة والتسويف .

أما موقف فرنسا فكان غير معروف ، فمع أنها لا تزال عضوا موقعا على معاهدة حلف الاطلسي ، الا أنها لم تعد ، ومنذ عشرين سنة ، عضوا في المنظمة العسكرية ، ومن غير المحتمل ان ترحب حكومة الجبهة الشعبية بامكان قيام أعمال عدائية بينها وبين الاتحاد السوفييتي ، وقد حاولت القيادة العليا المتحالفة في أوروبا ولكن دون طائل ، معرفة نوع الاوامر التي ستعطى ، في حال قيام الاعمال العدوانية الى الفيلق الفرنسي الثاني المتواجد في جنوب غرب جمهورية المانيا الاتحادية . وبدعوة الاحتياط في فرنسا يمكن استكمال النقص في الافراد والعتاد هنا ، كما في الاماكن الاخرى ، في حين تظل العلاقات بين القيادة الفرنسية والاركان في جمهورية المانيا الاتحادية من جهة ، وبينها وبين

مجموعة جيوش الوسط من جهة أخرى وثيقة وحميمة . وفي مناطق اخرى كسويسرا والسويد والنمسا تمت دعوة الاحتياط ووضعت قواتها على درجة عالية من الاستعداد والجاهزية .

وواجهت كل من بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية وكندا ، أيضا مسألة في مستوى صعوبة اتخاذ قرار التعبئة نفسها ، الا وهي ، ما اذا كان يجب استدعاء عائلات العسكريين الذين يخدمون في جمهورية المانيا الاتحادية وغيرهم من المواطنين المدنيين الى البلاد ، واذا تقرر ذلك فمتى يمكن تنفيذه ؟. هذه المسألة كانت مؤشرا للتساؤل ، عما اذا كان على الناس توقع الاعمال الحربية العدوانية . وأعطت كل من لندن وواشنطن في ٢٣ تموز مدة ٤٨ ساعة لجلاء مواطنيها وعودتهم الى البلدين . وبدأت حركة عودة المواطنين المدنيين الى بلدتهم مباشرة في ٢٥ تموز . بعضهم بالطائرات جوا ، وبعضهم الآخر برا الى نقاط تجمع محددة : في هولندا بالنسبة للبريطانيين ، وفي بلجيكا بالنسبة للاميركيين والكنديين ، وتم الجلاء في كل مكان في الثلاثين من الشهر .

في الوقت نفسه ، كانت تشكيلات منظمة حلف الاطلسي تتحرك الى مواقعها العملياتية في جميع أنحاء المسرح العملياتي الاوروبي — مقرات القيادة على مستوياتها المختلفة — فكان على مجموعة جيوش الوسط مع قائدها الاميركي في هايدلبرغ والقوات الحليفة في وسط أوروبا مع قائدها الجنرال الالماني في « برينسم » في هولندا ، والاركان العليا للقوات الحليفة في أوروبا مع قائدها الاعلى الاميركي ونوابه البريطانيين والالمان في « مونز » ببلجيكا ، تأخذ مواقعها الحربية في أوقات متفاوتة خلال الايام القليلة التالية ، هذا وكانت القطعات « الامامية » قد شغلت هذه المواقع وأجرت تجارب على مواصلاتها ووسائط اتصالها .

أما مقر القيادة العام فقد بقي حتى الآن في مواقعه ايام السلم بسبب ثقل العبء الاداري الذي اضطلع به خلال فترة الحشد ، فقد كان ذلك حملا

كبيرا على المواصلات ، وعلى الاركان على حد سواء ، وكانت افضل طريقة للقيام به عن طريق اجهزة مواصلات تابعة وتجهيزات عادية للعاملين عليها مع تسهيلات لهم . ومع ذلك بقي هناك متسع من الوقت وان كان ليس بالكثير . فيوم (ي) او « يوم الصفر » وعلى افتراض ان الروس جادون في الامر ، لا يتوقع ان يحدد قبل النصف الثاني من آب على أبعد حد .

أما القوات الجوية الحليفة ، فكانت بالطبع قادرة على الاستجابة بسرعة بسبب طبيعة وسائطها ، فقد هيأت فترة التوتر المتزايد ، والتعبئة العامة ، الوقت الكافي للقوات الجوية التابعة للمنطقة الوسطى ، لتأخذ وضعية تأهب تكون فيها على أتم الاستعداد ، وكانت وراءها تجربة سنوات طويلة ، في ظل آشد الظروف التي كانت تتم فيها الاختبارات التكتيكية الدورية التي تجريها القيادة العليا للحلفاء في أوروبا . هذه الاختبارات التي تجري دون انذار وقت السلم ، كانت تقتضي وضع القواعد في حالة حرب ، كما لو كانت مهددة بهجوم تقليدي وكيميائي . أما الزمن الذي كان يستغرقه الاختبار فيحسب ويقيم من قبل فريق من المفتشين المستقلين ، اما ما سيقومون به الآن ، فهو محفوظ عن ظهر قلب ، وسيجري تنفيذه في وقت أقل . وفي مقرات قياداتهم كان قائد القوات الجوية التكتيكية الحليفة الثانية ، وقائد القوات الجوية التكتيكية الحليفة الرابعة ، يستمعان بمزيد من الرضى ، الى التقدم في جاهزية القواعد ، والطائرات المستعدة للقتال فيها .

وبحلول منتصف ليل الثالث من آب كان ٩٠٪ من طائرات القوات الجوية الحليفة في وسط أوروبا ، جاهزا ومسلحا ومحميا تحت ملاجىء واقية . وخلال الاسبوع الماضي ، كانت القواعد البريطانية والمطارات الاميركية في القوات الجوية التكتيكية الحليفة الرابعة « 4 ATAF » تتلقى أسراب متواصلة من طائرات التعزيز عبر الاطلسي ، حيث تتزود بالوقود من الجو ،

وان الامور حتى الآن على ما يرام . لكن كان على الجنرال « دونكين » قائـد القوات الجوية الحليفة في وسط اوروبا ان يتدبر الكثير من الامور .

كان راضيا جدا . عن نجاح الطائرات والتعزيزات ، وان كان من المتوقع أن تؤدي دورهـا باتقـان ، بسبب كثرة الاختبـارات المماثلة زمن السـلم . وتحول تفكيره الى العـامل المضاد الذي يظل قائما في الميـزان العسكري ، وهو التفوق العددي لصالح منظمة حلف وارسو بمعدل ٢ الى ١ ، حتى عندما تكون قواته في أعلى درجات قوتها . وقد يكون حلف وارسو قد ضحى بالمفاجأة التكتيكية . لكنه من جهة أخرى يطيب له ، أن يأخذ المبادهة باطلاق النـار أولا ، يضاف الى هذا ، أن القائد الاعلى للقوات الحليفة في أوروبا فـرض الاحتفاظ بـ ٢٠٪ من الطائرات القادرة على حمل الاسلحة النووية ، الى الوقت الذي تدعو فيه الضرورة لاستخدامها بعمليات ضاربة نووية ، وكان القائـد الجوي واثقا من تفوق رجاله وطائراته وأسلحته ، وكان يعلم أنهم سيقدمون خير ما يستطيعون اذا ما دعوا للمعركة . لكن العامل غير الواضح والحرج في الوقت نفسه ، هو ماذا ستكون خسائره ، وما اذا كان سيبقى من العناصر بعد عدة ايام من القتال ، ما يكفي للحفاظ على خط الدفاع الى حين وصول التعزيزات للقوات الارضية ، بحيث تستطيع ان تتحمل عبء المعركة الارضية .

ومن خلال النافذة في مبنى أركان القيادة المشتركة الذي يضم مقـر القيادة لمجموعة جيوش الشمال ، ومقر قيادة القوات الجوية الحليفة الثانية ، ومقر قيادة الجيش البريطاني على الراين ، ومقر قيادة القوات الجوية الجوية الملكية في جمهورية المانيا الاتحادية (هذه القيادة جميعها ستصبح منظمات القاعدة) نظر الضابط المناوب الى الساحة الامامية المضاءة بشكل جيـد ، فتذكر ان التعتيم كظاهرة هامة للدفاع عن الاهداف الهامة الكبيرة خـلال الحرب العالمية الثانية لم يعد لها أهمية في عصر الاسلحة الدقيقة التوجيه .

ووقفت أرتال عربات النقل في صفوف طويلة ، محملة جزئيا ، استعدادا

للتحرك الى المواقع العملياتية في الليلة التالية . فأخذ الضابط المناوب يراقب الحارس الهولندي وهو يتحرك متمهلا بمحاذاة أحد الصفوف . كان شعره طويلا نسبيا (الضابط المناوب يلاحظ حتى الجندي الهولندي) . لقد أقيم هنا قبل شهر أو شهرين ، عرض للاحتفال بالذكرى الثلاثين لاستعمال هذه البنايات ذات التصميم الرائع التي بنيت من نفقات الاحتلال بعد الحرب العالمية الثانية . ويقف حي المتزوجين المريح الذي يعيش فيه الضابط المناوب الآن وحيدا بين الاشجار العالية .

كان هذا الضابط قد أرسل حاجيات عائلته في اليوم السابق الى بيت في « سواري » حيث تقيم زوجته مع أهلها . لا بد أنهم يفكرون في عيد ميلاد ابنته الكبرى الثانية بعد اسبوع اذ سيأخذونها الى لندن لترى فخ الفأر « MOUCE - TRAP » . لقد أخذ هو في عيد ميلاده عندما بلغ الثامنة من عمره الى نفس المكان لمشاهدة ذلك الفخ . وها هو سينام للمرة الاخيرة في حي المتزوجين الخالي ، قبل أن يتحرك للانضمام الى القيادة في موقع العمليات في مغاور كان قد عرفها من قبل أثناء التمارين وكان يكرهها باستمرار .

وأمسك بقلمه ليكتب رسالة ، ووضع عليها التاريخ ، وكان الرابع من آب ، عندما لاحت في السماء تباشير فجر يوم جديد .

ــ رن جرس الهاتف .

ــ ولما رد عليه ، سمع الصوت المألوف لضابط الارتباط البريطاني في الفيلق الالماني الاول .

ــ كان عاجلا ومضطربا .

« مظليون » قال الصوت « المظليون الروس قادمون ... »

واختفى الصوت فجأة .

ــ ورنت أجراس عدة تلفونات منها خط مباشر ، في غرفة العمليات ، وسمع صرخات في البناية وطلقات نار في الخارج وضجة محركات طائرات حوامة ثم انفجارا شديدا .

ــ وألقى « بزر » جهاز الانذار وفصل الخط المباشر الى القوات الحليفة في وسط اوروبا ، وفي تلك اللحظة نظر لأعلى .

ــ رأى جنديا سوفييتيا يقف في الباب .

ــ وقف الضابط المناوب على قدميه ثم أسرع الى مسدسه على الطاولة بجانب القناع الواقي من الغاز لكن رصاصة الجندي الروسي عاجلته فصرعته(١) .

* * *

(١) لقد اعتمدنا في اعطاء هذا الوصف عن التجربة الشخصية للضابط المناوب من الفياق الالماني الثالث ، الذي كان يمثل موته اول الخسائر المصيرية للقتال في المانيا ، على شهود عيان كانوا موجودين داخل غرفة العمليات في تلك اللحظة ، وعلى الاحتفاظ بالرسالة التي كتبها لزوجته. رويت القصة علي لسان احد الكتاب الحاضرين ، الذي كان صديقا حميما لذلك الضابط .

الفصل الثاني عشر

قوّات منظّمة حلف الأطلسيّ « NATO »

ان بنية وامكانية قوات منظمة حلف شمال الاطلسي التي صمدت ضد قوات حلف وارسو في صيف عام ١٩٨٥ ، يجب اخضاعها لاختبار الآن .

لقد تم التخلي تماما ومنذ زمن طويل ، عن المحاولات التي كان يقوم بها المجلس الاطلنطي في بداية ايام الحلف لتحديد نوعية وحجم القوات التي ستتم مواجهتها من قبل القوات الحليفة . فالدول الاعضاء في الحقيقة لم تقدم اكثر مما كانت تعتقد انه يكفي ، مدعية في معرض تبرير موقفها ان الحاجة لم تكن تدعو الى اكثر من ذلك .

فالبنية الفعلية لمنظمة حلف الاطلسي في عام ١٩٨٥ كانت لا تزال كما كانت عليه منذ عشرين سنة ، باستثناء بعض التعديلات التي طرأت على القيادات التكتيكية الجوية والبحرية « ويمكن الرجوع اليها في الملحق الثالث » فانه لم يطرأ عليها تغيير يذكر .

في رأس حلف الدول الخمس عشرة الموقعة عليه ، يقف مجلس شمال الاطلسي ، الذي يجتمع على مستوى الوزراء في الاحوال العادية مرتين في السنة على الاقل ، وله ممثلون دائمون على مستوى السفراء يجتمعون باستمرار . أما السلطة العسكرية العليا في منظمة حلف شمال الاطلسي ، أي البنية العسكرية زمن السلم التي كانت ظاهرة غير عادية وهامة في الحلف ، فكانت تتشكل من اللجنة العسكرية المؤلفة من رئيس مستقل ورئيس اركان كل دولة متحالفة باستثناء فرنسا التي انسحبت منها عام ١٩٦٦ وايسلندا التي ليست لها قوات عسكرية ، واللوكسمبورغ التي كانت تمثل من قبل بلجيكا،

وكانت اللجنة العسكرية بهيئة اركانها العسكرية في حالة انعقاد دائم ، وكانت هناك قيادتان حليفتان احداهما بإمرة القائد الاعلى للحلفاء في أوروبا والاخرى بامرة القائد الاعلى لحلف الاطلسي . وكلاهما تابعان لقائدين أميركيين . ثم هناك القائد العام «JACWA» للقيادة الحليفة المشتركة (المداخل الغربية) لبريطانيا . وينضوي تحت أمرة القائد الاعلى للقوات الحليفة في أوروبا ثلاث قيادات اقليمية ، وهي قيادة قوات الحلفاء لشمال اوروبا «AFNORTH» تحت امرة قائد عام بريطاني . وقيادة قوات الحلفاء الوسطى «AFCENT» تحت امرة قائد عام فرنسي ، حتى انسحاب فرنسا من المنظمة العسكرية لحلف الاطلسي عام ١٩٦٦ ، واصبحت بعد ذلك تحت أمرة قائد الماني . وقيادة قوات الحلفاء الجنوبية «AFSOUTH» تحت امرة ادميرال أميركي .

وفي زمن السلم ، كان ينضوي تحت قيادة قوات الحلفاء في شمال أوروبا التي تغطي « شليزويغ ــ هولشتاين » والدانمارك والنرويج القوات المخصصة من النرويج والدانمارك ، وفرقة المانية واحدة ، وكانت هناك خطط لتعزيزها ، من المملكة المتحدة وكندا وغيرهما . واذا أمكن يتم نقل هذه التعزيزات في الوقت المحدد في حالة طارئة .

وتضم قوات الحلفاء لوسط أوروبا ، مجموعة جيوش الشمال ، ومجموعة جيوش الوسط ، الاولى بامرة قائد بريطاني ، والثانية بامرة قائد أميركي ، وكان تحت امرة قوات الحلفاء لوسط أوروبا القوات الجوية الحليفة لوسط أوروبا ، التي عليها أن تؤمن سيطرة مركزية الى قوتي الجو الحليفتين الداعمين لمجموعة جيوش الشمال ومجموعة جيوش الوسط .

أما القوات الموضوعة تحت امرة القوات المتحالفة في الجنوب التي يقودها أدميرال أميركي ، فهي القوات المخصصة من ايطاليا وتركيا « ومن اليونان اذا استمرت في عضويتها للحلف » . علما ان الاسطول الاميركي السادس الذي يتجول في البحر الابيض المتوسط قد أفرد لهذه القيادة وان لم يخصص لها .

وكانت هناك قيادة جوية شاملة شمالية وقيادتان بحريتان فرعيتان . وقيادات منفصلة للدفاعات الارضية في ايطاليا ، تحت امرة جنرال ايطالي . واخرى في الجنوب الشرقي للمنطقة ، بما في ذلك تركيا ، تحت امرة قائد اميركي .

وعلى الرغم من الاهمية الكبيرة ، فان المنطقة الحرجة لمنظمة حلف الاطلسي على الارض ، كانت بوضوح ، المنطقة الوسطى التي تغطي جمهورية المانيا الاتحادية حتى دون ان تضم « شليزيغ ــ هولشتاين » والحدود الفدرالية مع هولندا ، ففي المنطقة الوسطى يوجد اكبر حشد مركز للقوات الارضية والجوية التكتيكية لمنظمة حلف الاطلسي في مواجهة قوات منظمة حلف وارسو ، عبر خط الحدود ، بين جمهورية المانيا الاتحادية ، وجمهورية المانيا الديمقراطية، ثم الحدود التشيكوسلوفاكية جنوبا حتى النمسا المحايدة ، على الجناح الجنوبي الشرقي .

كانت جميع القوات النظامية التابعة لجمهورية المانيا الاتحادية مخصصة لمنظمة حلف الاطلسي زمن السلم ، وتتألف هذه القوات ، من ثلاثة جيوش واثنتى عشرة فرقة ، وستة عشر لواء مدرعا ، وخمسة عشر لواء مشاة محمولة ، ولواءين جبليين ، وثلاثة الوية محمولة جوا . أما الجيش الاقليمي السادس ، الموزع في مجموعات بحجم اللواء ، والمخصص للدفاع الداخلي ، فلم يجر تخصيصه الا بعد محاولات مستفيضة ، انتهت عام ١٩٨٥ ، مع ثلاث قيادات اقليمية ، من خمس مناطق عسكرية ، تم وضعها تحت امرة القائد الاعلى لقوات الحلفاء في اوروبا . وقد قيض لهذه القوات ، ان تلعب دورا هاما في الحرب ، وكان من الممكن ان تكون اكثر فعالية لو انها وضعت تحت امرة القيادة الحليفة في وقت مبكر . اما الجيوش الالمانية الثلاثة فكانت موزعة كالتالي: الجيش الثاني والثالث تحت امرة مجموعة الجيوش الحليفة في الوسط الاوروبي ، والجيش الاول تحت امرة مجموعة الجيوش الحليفة لشمال اوروبا ، ويذكر ان

نصف عدد الجيش الالماني « بوند سوير » الذي يعد حوالي ٣٥٠٫٠٠٠ عسكري هم من المجندين الذين تمتد خدمتهم لفترة خمسة عشر شهرا .

واهتمت جمهورية المانيا الاتحادية بأمور التعبئة وبفعالية التعزيزات السريعة ، فأنشأت في منتصف عام ١٩٧٠ نظام استنفار الاحتياط ، ودعا اليه وزير الدفاع على نحو طارىء دون الرجوع الى البرلمان . ووضعت خطط لتمويل وتوسيع التشكيلات المؤلفة من الكوادر الى وحدات محاربة . وقد أسهم « الجيش الاقليمي Territorial Army » الذي يعد نيفا ونصف مليون عسكري ، في تقديم القيادات الاقليمية المشار اليها أعلاه ، بل في تقديم الوحدات الدفاعية ، ووحدات الدعم ، ووحدات المواصلات ، في جميع انحاء البلاد . وبذلك أعفيت القوات النظامية من جميع واجباتها باستثناء مهماتها الامامية . وكان التدريب قريبا من الجيد ، بسبب الاستفادة من المعرفة المحلية والمهنية المتوفرة ، ولان المراكز القتالية التي تحتاج الى رجال مدربين جيدا ، يمكن شغلها بالعناصر النظامية ، على ان يكون دور الاحتياط مساعدا لها . وكان العتاد جيدا ايضا . فأكثر من نصف دبابات الجيش الالماني الاقليمي «BUNDESWEHR» من نوع دبابات « ليوبارد ٢ » الجديدة المسلحة بدرع من طراز « شوبهام » الذي يعطيها حماية أفضل من الاسلحة المضادة للدبابات ، وبمدفع عيار مائة وعشرين ميلمتر موجه ضد الدبابات (ATGW) وتم توزيع أعداد كبيرة من الاسلحة الجديدة المضادة للدبابات الى الجيش الاقليمي ، والى القوات النظامية أيضا . أما المدفعية فكانت من النوع الحديث . وتضمنت مدافع اميركية جديدة ذاتية الحركة ، ومدافع متوسطة من نوع « اف اتش ــ ٧٠ » متطورة تم تطويرها بالتعاون مع بريطانيا وايطاليا . وهكذا أصبح بالامكان استعمال الذخيرة الموحدة ، كما قدمت الحوامات الدعم للاسلحة المضادة للدبابات ، والحركة لميدان المعركة . كما هيأت قاذفات الصواريخ الكثيرة الفوهات امكانية زرع الالغام أو بذرها من النوع الصغير

في وجه الدبابات المعادية المتقدمة ، وخلاصة القول أن الجيش الالماني الاقليمي كان قوة متينة الاساس بمعنويات عالية تستفيد من وجودها على ارضها ومشبعة بروح الدفاع عن بلادها .

أما جيش الولايات المتحدة الامريكية في أوروبا ، فيعد من مائتي الف رجل ، جميعهم ، باستثناء عشرة آلاف رجل منهم ، في الجيش الاميركي السابع في المانيا ، الذي كان قائده العام قائد مجموعة جيوش الشمال . وكان لادخال نظام التجنيد الاجباري في الولايات المتحدة الاميركية ، الذي تحدثنا عنه في موضع آخر « انظر الفصل الرابع عشر » الفضل في انقاذ جيش الولايات المتحدة الاميركية من وضع خطير جدا ، فيما يتصل بالطاقة البشرية الاحتياطية . واذا استثنينا لواء برلين فيمكن القول ان الجيش الاميركي السابع ، كان منظما في فيلقين ، الفيلق الاميركي الخامس ، والفيلق الاميركي السابع . وحتى السبعينات كان يوجد اربع فرق وثلاثة الوية اضافية للجيش الاميركي في المركز ، اضيف اليها بعدئذ ، لواءان آخران يمكن ان يتحول كل منها الى فرقة كاملة في حالة الطوارىء ، اما قوة الدبابات المتوفرة للقوات الاميركية في منطقةمجموعة جيوش الشمال « بما فيذلك الدبابات المأخوذة منالمستودعات » فكانت تقارب (٣٠٠٠) دبابة كان معظمها صنع عام ١٩٨٥ من نوع « XM - 1 » الجديد . وهي الدبابة الشهيرة ذات الهيكل المنخفض والدرع من نوع « شوبهام » وذخيرتها متطورة خارقة للدرع .

اتخذت الولايات المتحدة الاميركية منذ اوائل عام ١٩٧٨ خطوات لبناء قدرتها على نقل التعزيزات جوا ، الى أن أصبحت في عام ١٩٨٣ قادرة على نقل خمس فرق « اثنتان منها تتكونان من اللوائين اللذين سبق ذكرهما » جوا الى أوروبا خلال عشرة ايام لاستلام عتادها المكدس مسبقا . وفي نفس الوقت تقريبا ، تم توزيع المخزونات المكدسة في أماكن متفرقة ، للتقليل من

احتمالات ضربها . وجعل مستودعات الذخائر وغيرهـا أسهل وصولا أليها بالنسبة للقوات الامامية .

ان دبابة الـ « XM - 1 » هي مثال العتاد المتطور الذي بدأ يصل الى الوحدات الاميركية في المانيا في اواخر السبعينات وأوائل الثمانينات . وفي نفس الوقت ، وضعت في الخدمة اسلحة جديدة موجهة مضادة للدبابات بما في ذلك صواريخ « اطلق وانس » ذات التوجيه الاوتوماتيكي الكامل ، للاستعمال من الطائرة الحوامة التي تقوم بعدة ادوار منها تأمين النقل الى ميـدان المعركة .*أما المدفعية ، فقد جرت تقويتها « ولو بأعداد صغيرة » بالمقـذوفات الموجهة من قاذفات مدفعية من طراز «Clgp - Cannon - Launched Guideo Projectile» التي أعطتها قدرة حقيقية مضادة للدبابات . وأضيفت تحسينات لاصابة الهدف من خلال استعمالها أجهـزة «Rpn - Remotely - Piloted Vehicles» التحكم والقيادة الموجهة عن بعد التي تعطي معلومات فوريـة . هذا بالاضافة الى الزيادة العظيمة في القدرة النارية . وجرت تحسينات كبيرة على الدعم الجوي القريب ، باستعمال طائرات « A - 10 » الذي بدأ عـام ١٩٧٨ مع التأكيد على الاعمال المضادة للدبابات . من جهة أخرى أدى تزويد الطائرات التكتيكيـة «Pgm - Precision Guided Missiles» بالصـواريخ الدقيقة الموجهة ، بقدرة كبيرة في مواجهة الاهداف الارضية . واخيرا جرى تعزيز الدفاع عن الوحدات في الميدان بادخال صواريخ مثل سنام « صواريخ ارض ــ جو » وبنادق آلية مثل الكوبرا .

أما القوات البريطانية المخصصة لمنظمة حلف الاطلسي والمتمركزة في جمهورية المانيا الاتحادية ، فكانت منضمة الى الجيش البريطاني على الراين . حيث قائده هو ايضا قائد مجموعة جيوش الشمال . فاذا استثنينا قوة الآلاف الثـلاثة في برلين ، فانها تعـد حوالي اثنين وخمسين الف رجل زمن السلم . وهي موزعـة في اربع فرق مدرعة وفرقـة مدفعيـة ، مع تشكيلات اضافيـة

بحجم اللواء « قوة الميدان الخامسة » وجميعها ضمن الفيلق البريطاني الاول . أما القوات الملحوظ استخدامها في حالة الطوارىء من بريطانيا فهي الفيلق البريطاني الثاني الحديث التشكيل ، وهو يضيف الى المتواجدين في أوروبا ثلاثين الف ٣٠٠٠٠ رجل ، أما الدبابات الرئيسية بما في ذلك المكدسة في المستودعات ، فتصل الآن الى الف ١٠٠٠ دبابة كلها من نوع « شيفتين » ذات المحرك المطور وان لم يكن جميعها مزودا بدروع « شوبهام » .

وأسهم العتاد الذي أدخل الى الوحدات بالتدريج في تحديث معظم الاسلحة الرئيسية بحلول الثمانينات ، من ذلك ، السلاح الموجه المضاد للدبابات التي تم صنعه بالاشتراك مع فرنسا والمانيا . اذ تم توزيعه بعد تردد ، على أوسع نطاق في قوات الجيش النظامي ، والقوات الاحتياطية في الاقاليم ، والاحتياط المتطوعين « TAVR » من المملكة المتحدة . وأخيرا اصبحت لدفاعات الجوية عن الوحدات البريطانية في الميدان جيدة كدفاعات الجيش الالماني « بوند سوبر » والقوات الاميركية في اوروبا . وسمحت ترتيبات التعزيز ، الذي أصبح ممكنا بتوفر العتاد والاحتياطيين ، باعطاء القادة القدرة على تعويض الخسائر بسرعة . ومع توفر العتاد والمعدات الجديدة والتنظيم والتكتيك الجديدين الملائمين ، أصبحت الروح المعنوية لجيش الراين البريطاني عالية وأفضل مما كانت عليه في السبعينات .

أما القوات الهولندية العاملة في مجموعة جيوش الشمال المؤلفة من الفيلق الاول الهولندي ، فكان منها لواء مدرع ، وفوج دبابات وفوج استطلاع ، تتمركز جميعها في جمهورية المانيا الاتحادية . أما البقية فهي موجودة في هولندا . ويبلغ تعداد الجيش الهولندي خمسا وسبعين الف ٧٥٠٠٠ رجل أكثر من نصفهم « حوالي ثلاثة واربعون الف ٤٣٠٠٠ رجل » من المجندين الذين تمتد خدمتهم اربعة عشر شهرا فقط . وكان حلف الاطلسي يأمل في أن تبادر هولندا بوضع القوات المخصصة للحلف في مواقع امامية قريبة من المواقع الدفاعية في حالة الطوارىء . وقد نجحت الحالة المتوترة في أواخر عام

١٩٨٤ ، حيث اخفقت المحاولات السابقة ، فقد أدت هذه الى دفـع مواقع الفيلق الهولندي الاول في صيف عام ١٩٨٥ ، الى الامام أكثر مما كانت عليـه من قبل ، على الرغم من الانفراج المخادع في الربيع التالي الذي كاد أن يعكس الامر بسحب الوحدات الى الخلف .

ولم يكن وضع البلجيكيين مختلفا عنه في هولندا على الرغم من ان مدة خدمة المجندين « ثلاثة وعشرون الفا من المجندين من مجموع اثنين وستين الفا من العسكريين » ستقتصر على ثمانية اشهر اذا تمت في المانيا حيث يوجد لهم هناك زمن السلم فيلق واحد . ومقرات لفرقتين مع لواء مدرع واحد ولواءي مشاة . في حين تكون مدة الخدمة في بلجيكا نفسها عشرة اشهر ، وعدد دبابات الفيلق الاول البلجيكي هو ثلاثمائة دبابة من نوع « ليوبارد » كالفيلق الاول الهولندي الذي يضم اربعمائة وخمسين دبابة منها . ويخضع كل منهما لقيادة مجموع جيوش الشمال . وقد تلقى الفيلقان كميات كبيرة من الاعتدة الجديدة أهمها ناقلات جنود مدرعة من طراز « APC » واسلحة موجهة مضادة للدبابات ، واسلحة دفاع جوي .

أما تزويد التشكيلات والافواج الاحتياطية التي ستعزز كلا من الفيلقين فهي محدودة ، كما كان تدريب الاحتياطيين محدودا ايضا .

وبالاضافة الى القوات الوطنية الرئيسية ، تضم القيادة الحليفة في أوروبا مجموعة ألوية كندية . أصبحت في أواخر تموز تعادل فرقة مخففة(١) كانت قوتها تكمن في نظامها وهي ذات كفاءة عالية ، تشهد بها العناصر القديمة المجربة في القوات الحليفة التي عرفت الكنديين خلال الحرب العالمية الثانية « من البريطانيين خاصة » هذه العناصر التي رأت في انضباط هذه القوة ومهارات

---

(١) تضم ٣٥٠٠ رجل بين مشاة ودبابات مع كتيبة مؤلفة من ستين دبابة وكتيبة مدفعية عيار ١٥٥ ملمترا هاوتزر ذاتية الحركة وصواريخ مضادة للدبابات والطائرات وقوات دعم وسرية حوامات تكتيكية .

أفرادها التقنية حتى في الظروف المتغيرة في هذه الايام ، دليلا على انها ما زالت كعهدها من قبل . وكانت المجموعة متمركزة في منطقة مجموعة جيوش الشمال على مقربة من الفرق الفرنسية .

ومع أن فرنسا لم تعد عضوا في منظمة حلف الاطلسي منذ عام ١٩٦٦ الا ان الفيلق الفرنسي المؤلف من فرقتين ووحدات أخرى يبلغ عدده حوالي خمسين الف رجل ، بقي متمركزا في جمهورية المانيا الاتحادية ، وعلى ارتباط بمجموعة جيوش الوسط . وتعتبر الفرق الآلية الثلاث الموجودة في فرنسا قوام الجيش الفرنسي الاول ، الذي تنتمي اليه الفرق الفرنسية في جمهورية المانيا الاتحادية . وكان عتاد الفرق الخمس في الجيش الفرنسي الاول جيدا وحديثا ، ويتضمن أسلحة نووية تكتيكية « ميدانية Battlefield » بقيت في فرنسا وتحت اشرافها . ولم يكن سوى القليل من العتاد الفرنسي موحدا مع عتاد منظمة حلف الاطلسي ، مشيرا بذلك الى مسائل هامة في التموين ، بالاضافة الى قوات المناورة «Forces de Manoeuvre» التي كان الجيش الفرنسي الاول جزءا منها ، وهيأت فرنسا حوالي خمسين الف رجل من قوات الدفاع الاقليمية « Defenes Operationelle du Territiiriale » ، وكان لهؤلاء دور هام جدا بين بقية الادوار في الدفاع عن النقاط الهامة في العاصمة الفرنسية ضد أعمال التخريب والفوضى المدنية .

في الجناح الجنوبي تقع ايطاليا التي تمتلك اثنتي عشرة فرقة منها.« ثلاث فرق مدرعة » ومجموعة من الدبابات المختلفة . ويبلغ تعداد الجيش الايطالي مائتان وثمانية عشر الف رجل منهم مائة وعشرون الف رجل من المجندين . أما اليونان فعلى الرغم من ان عضويتها في المنظمة العسكرية للحلف كانت مشروطة منذ عام ١٩٧٤ ، الا أنها ظلت على اتصال من الناحية العسكرية . وعملت على تحديث جيشها الذي يقوم في معظمه على المجندين « كانت مدة الخدمة تتراوح من ثمان وعشرين الى ثلاثين شهرا » والذي يتألف من اثنتي عشرة فرقة احداها مدرعة مجهزة بعتاد فرنسي ، ويجب الاعتراف ان عين

هذا الجيش هو على تركيا اكثر منها على منظمة حلف وارسو . بينما تركيا التي تمتد الخدمة الالزامية فيها الى عشرين شهرا تستطيع أن ترفد الميدان باثنتين وعشرين فرقة « واحدة مدرعة واثنتان آليتان » وما تبقى فرق مشاة من جيش يبلغ تعداده ثلاثمائة وخمسة وسبعون الف رجل ، لكن الخلافات التي قامت بين تركيا واليونان حول قبرص والتي ازدادت سوءا خلال التنافس على بترول بحر ايجه ، لم تلبث أن خفت حدتها في مطلع الثمانينات وعادت الى ما كانت عليه من قبل ، وأسهم بذلك تقليص المساعدات العسكرية الاميركية الى البلدين . وقد استؤنف هذا التقليص في عام ١٩٨٢ وأدى الى تدن مستمر للقدرة القتالية عندهما ، علما انه بدأ يطرأ تحسن عليها في المدة الاخيرة . كان العتاد التركي ، بصورة عامة قديما وفي حالة اهمال ، وكانت القدرة على الحركة محدودة ، ولم يكن بالمستطاع الوصول الى مستوى عال من التدريب .

يجب ان نضيف الى هذا التعريف بقوات منظمة حلف الاطلسي البرية، شيئا عن الوضع الذي كانت عليه القوات الجوية التكتيكية . اذ لا يمكن الفصل بين عمليات الطرفين في أية معركة . وهنا لا تؤخذ بالحسبان الطائرات الموجودة الى جانب القوات الارضية فقط ، بل تلك الطائرات التي يمكن ان تعمل من قطاع ما ليس بعيدا عن مكان القوات البرية من بريطانيا مثلا أو من غرب الاتحاد السوفييتي أو من حاملة طائرات ، أو قد تعمل من قاذفات متوسطة تستطيع الطيران من مطارات بعيدة نسبيا « ينطبق هذا على قوات الاتحاد السوفييتي » .

من هنا فان احصاء دقيقا للقوة الجوية ليس سهلا بسبب مرونتها . ولكن اذا ما أخذنا الطيران المقاتل المنطلق من قواعد ارضية كمقياس ؛ نستطيع القول أن حلف الاطلسي وضع للعمليات في القطاع الاوسط « باستثناء القوات الفرنسية » حوالي الفين وثمانمائة طائرة ، يقابلها اربعة آلاف وخمسمائة طائرة في منظمة حلف وارسو . لقد أحدث هذا التفاوت وما يزال ، مشكلة تزيد في صعوبتها سهولة التعزيزات التي يتمتع بها حلف وارسو ، والنقص

في المطارات الامامية على الجانب الحليف ، وبعض الصعوبات العمليـاتية الداخلية التي يسببها تعدد انواع الطائرات المستعملة في القوات الجوية التابعة لمنظمة حلف الاطلسي .

على كل حال حدث تحسن ملحوظ شامل في القوة الجوية التكتيكيـة التابعة لمنظمة حلف الاطلسي خلال السنوات القليلة الماضية . فقد وضعت في الخدمة عدة طائرات جديدة من الطراز الاول ، تحتوي على احدث ما توصلت اليه التقنية . فقد كانت الطائرة الاميركية « إف ـ ١٥ » من أجـل التفوق الجوي « افضل من اية طائرة اخرى » سواء من حيث التسليح او الاداء ، تكملها الطائرة الأخف « إف ـ ١٦ » ، وتساعدهما كثيرا في تنفيذ مهماتهما بكفاءة ، أجهزة السيطرة والانذار المحمولة جوا (الطائرة اواكس) التي أدخلت مؤخرا في السبعينات لاكتشاف الطيران المعادي الدخيل ، وللسيطرة على عمليات طيراننا . ففي مهمات القذف «Strike» كانت الطائرة « تورنادو » التي تطير على ارتفاع منخفض جـدا ، تخلق لحلف وارسو مشاكل كبيرة ، تماما كما كانت تصنع طائرات « الجاكوار والالفاجيت الصغيرة وطائرة الهوك » المقاتلة الهجومية الارضية . وقـد أدى تبني أعـداد متزايدة من طائرات مطورة ومصنوعة بالتعاون بين دولتين حليفتين أو أكثر ، إلى خلق مرونة في العمليات الجوية في منظمة حلف الاطلسي ومرونة أحسن في العمليات الداخلية .

وكانت الطائرات الجديدة من نوعية جيدة ، ومثل ذلك كانت أيضـا الاسلحة والاجهزة والمعدات التي تحملها . وقد صممت خصيصا للقيام بالمهام الرئيسية المتعلقة بوقف دبابات السوفييت ومنع تدفق التعزيزات العاجلة الى ارض المعركة . ومن هذه الاسلحة والاجهزة ، الاسلحة الدقيقة التوجيـه ، والذخائر العنقودية ، والاجهزة الالكترونية الهامة جدا في التوجيه .

وكان لقرار المملكة المتحدة للدفاع عن فضائها الجوي الموصوف بالتفصيل

في الفصل التاسع عشر ، ان ساعد القوات الجوية التكتيكية على حل مسألتين من المسائل المذكورة سابقا : أولا أنها أمنت مطارات محمية ، يمكن ان تحول اليها طائراتها والطائرات الحليفة العاملة من خارج أراضيها على حد سواء ، وبهذا تقلل من الصعوبات العملياتية التي يسببها نقص المطارات . ثانيا : أنها مكنت التعزيزات من الاسراب المقاتلة، القادمة من الولايات المتحدة الاميركية، من الوصول بأمان مستفيدة من الخطوات التي وضعتها الولايات المتحدة لتأمين وجود الاعداد الكبيرة من طائرات الاحتياط بسرعة .

وكان الاتحاد السوفييتي بالطبع يزيد قدراته على الهجوم الارضي . والضرب بعمق والاعتراض ايضا ، وذلك منذ عدة سنوات ، الامر الذي خلق مشاكل دفاعيةجوية صعبة لقوات منظمة حلف الاطلسي الارضية والجوية. يضاف الى ذلك أن الدفاع الجوي السوفييتي الكثيف جعل مهمة طيران منظمة حلف الاطلسي صعبا جدا . ولكن بالرغم من هذا فان قادة الطيران في منظمة حلف الاطلسي لديهم الثقة بجودة وتنوع طائراتهم ، بالاضافة الى ما توفره الاسلحة والاجهزة الالكترونية ، من قدرات ومزايا ، وكذلك مستويات التدريب العالية لرجال الطيران في منظمة حلف الاطلسي . كل هذا سيفيد ولا شك في خلق حالة من عدم التوازن العسكري بين الطرفين .

وقد أحدث عام ١٩٧٦ تغييرا هاما في بنية قيادة القوى الجوية لمنظمة حلف الاطلسي ، عندما أنشىء منصب قائد قوات الجو المتحالفة ، في وسط أوروبا وكان من شأن هذه الخطوة أن زادت في مرونة وفاعلية القوات الجوية المتحالفة .

هذا كله سيساهم الى حد بعيد في تقويم عدم التوازن العددي الذي كان عليهم الكفاح في سبيل الوصول اليه .

ولعل التحسينات الملحوظة التي طرأت على قوات حلف الاطلسي ، في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات ، استندت وبشكل رئيسي الى

التكنولوجيا ، فأجهزة الاسلحة اصبحت الآن أكثر تأثيرا وأكثر تنوعا مما كانت عليه في أي وقت مضى ، كما جرت تحسينات مفيدة في المفاهيم التكتيكية وفي التنظيم .

وعندما نوقشت لاول مرة الاستراتيجية الجديدة لمنظمة حلف الاطلسي حول ((**الرد المرن**)) وهي الاستراتيجية التي أدخلت بين أواسط وأواخر الستينات ، ظهرت رغبة الولايات المتحدة الاميركية ، وهي التي تعي جيدا امكانية تعرضها الى الاسلحة النووية الاستراتيجية ، في وضع عدة خيارات دفاعية في أوروبا بدلا من أن تلجأ الى استعمال الاسلحة النووية في وقت مبكر . أما حلفاؤها الاوربيون ، فكانوا مبدئيا يعارضون في التقليل من قيمة العنصر النووي في أعمال الردع والتأخير — وهي ترى ذلك صلة وصل هامة بين الولايات المتحدة الاميركية وميدان المعركة الاوروبية — وغير راغبين في تحسين قواتهم التقليدية الى المستوى الذي تتطلبه الاستراتيجية الجديدة . واستمرت هذه المعارضة بشكل عام مدة عقد من الزمن تقريبا ، عندما بدأ الاهتمام بموضوع التزايد المستمر الثابت في القدرة العسكرية السوفييتية يأخذ سمات واضحة شعر بها في اول الامر المحافظون ثم عمت الرأي العام فيما بعد . ولقد أدى الاختلال الثابت للتوازن العسكري في اوروبا ، بالاضافة الى السياسة الانتهازية الخارجية للاتحاد السوفييتي ، وخاصة في افريقيا في أواخر السبعينات ، الى نمو مناخ سياسي في جميع الدول المتحالفة تقريبا أكثر تقبلا بمطالب الانفاق على شؤون الدفاع .

على ان هذه الحالة الجديدة من الحذر نحو الاتحاد السوفييتي توافقت مع وثبة مفاجئة في التقنية العسكرية النووية والتقليدية معا . ويذكر ان هذه الحالة قد أتت بعد ان خابت الآمال في الانفراج الدولي . وفي مجال الاسلحة النووية الميدانية فقد منحت ((**القنبلة النوترونية**)) الغرب القدرة على تصفية التفوق العددي بالدبابات السوفييتية فجأة ، في حين لاتخلف وراءها من الجرحى المدنيين مثلما تسببه الاسلحة النووية في ترسانات الاسلحة الحالية .

وفي الوقت نفسه ، تم ادخال اسلحة نووية صغيرة ((**ميني ــ ذرى**)) فيما ادخلت تعديلات لتحديث الاسلحة الاخرى . ومن جديد بدأت فكرة اعتماد الردع على الاسلحة النووية بشكل رئيسي تجد لها أنصارا ومؤيدين ، وان كان هؤلاء ليسوا في عداد الحكومات التي كانت تتلمس خطاها بحذر وحرص شديدين . ويرد ذلك جزئيا الى التقدم السريع في تقنية الاسلحة التقليدية ، وقد اتاحت التحسينات الدراماتيكية في دقة الهجوم وفي فاعلية الاسلحة الصغيرة ، التفكير باللجوء الى الاسلحة التقليدية لضرب أهداف ((كملاجيء الطائرات)) لايمكن تدميرها الا بالاسلحة النووية .

واستمر النقاش حول الاستراتيجية ومعها تخصيص الموارد لعدة سنوات، الى ان تم أخيرا تبني حل وسط : الاحتفاظ باستراتيجية الرد المرن ، كما استعملت تقنية جديدة لزيادة فاعلية القوات التقليدية ، وفي الوقت ذاته جرى تحديث الاسلحة النووية الميدانية أيضا ، وذلك على اساس انه اذا عرفت فاعلية الاسلحة النووية الجديدة ، وامكانية استعمالها ، فان الاتحاد السوفييتي لايخاطر بالتحريض على استعمالها . **وهكذا أمكن تقوية وجهين من وجوه الردع والتأخير، الا وهما الردع التقليدي والردع النووي .**

وتقبلت جميع الحكومات الحليفة فكرة الابقاء على هذه الدرجة من التقنية الغربية وتحسينها في اماكن تراجعها كوسيلة اولية لمنع تدهور الميزان العسكري اكثر فأكثر . على ان قدرة دفاعات منظمة حلف الاطلسي على الصمود في وجه هجوم تقوم به دبابات سوفييتية ضخمة ، بعد انذارها بساعات وليس بأيام ، ينظر اليها انها تعتمد على استعمال التكنولوجيا ، وان كانت بحاجة الى بعض التحسينات في جاهزيتها أيضا . ويجب ان يتوفر الى جانب هذه الجاهزية المتزايدة ، زيادة في عدد التعزيزات المتوفرة من خلال الاستفادة من الاحتياط .

وبخطوة ذكية من ادارة الرئيس ((كارتر)) الجديدة في عام ١٩٧٧ ، اخذ الحلفاء في منظمة حلف الاطلسي بالتحرك ، في الوقت الذي بدأت فيه بعض الاسلحة كالاسلحة الموجهة المضادة للدرع وصواريخ سنام المضادة للطائرات ،

تثبت فعاليتها كما حدث في حرب تشرين الاول عام ١٩٧٣ في الشرق الاوسط . وبدأ أيضا الشعور بالحاجة اليها . وأخذت المصانع في أوروبا والولايات المتحدة الاميركية تنتج اعدادا متزايدة من هذه الاسلحة ، التي أخذت كل دول الحلف بشرائها . كما أخذت الاسلحة المتقدمة طريقها الى قوات الولايات المتحدة الاميركية اولا ومن بعد الى قوات الدول الاخرى ، كالصواريخ الدقيقة التوجيه « PGM » ضد الاهداف المختلفة . أما الصاروخ الطواف ، ذو التوجيه الدقيق المدهش والثمن الرخيص نسبيا ، فقد استولى على التفكير سواء لامكانياته في دوره الميداني التقليدي ، او لخاصته كحامل للسلاح النووي ، بدلا عن طائرات استنفار رد الفعل السريع . يضاف الى هذا ، الجهود الكبيرة التي بذلت بدون ضجة اعلامية في ميدان الالكترونيات البحرية ، مثل الاجراءات الالكترونية المضادة « CEM » والاجراءات الالكترونية المعاكسة لها « CCEM » وقد ساعد تصغير العناصر الالكترونية ، على تحقيق تحسين في الاسلحة والتقنيات كانت قبل سنوات قليلة أشبه بالمستحيل ، ((**وهذه التحسينات تتصل بالقيادة وبالسيطرة وبجمع المعلومات وتوزيعها**)) ، ويعود الفضل في بقاء صناعة الالكترونيات في الغرب متقدمة تكنولوجيا عنها في الاتحاد السوفييتي ، بسبب نظام التطوير الذي يسير وفق خطى ثقيلة وبسبب غياب المنافسة التجارية في صناعة موجهة من قبل الدولة .

سار معا الاهتمام بالاسلحة الجديدة مع التفكير ، تطويريا وثوريا في التنظيمات الجديدة ، او اجراء التغييرات في القديم منهما ، من اجل الحصول على الافضل منهما . وقد أجرت معظم الدول الحليفة ، تجارب على التجهيزات والمعدات الجديدة على مستوى الفرقة ، فالولايات المتحدة الاميركية والمانيا جعلتها على نطاق واسع . بينما جعلتها بريطانيا وفرنسا على نطاق ضيق . وكان هدف التجارب في كل الاحوال ، هو الحصول على مزيد من القوة في القدرة النارية ، دون استخدام أعداد كبيرة من الرجال . في الوقت الذي كانت تجري فيه دراسات حول امكانية استعمال الاسلحة الصغيرة والقوية ، لتؤمن لقوات

الاحتياط الدفاع في العمق ، لدعم القوات النظامية الثقيلة المتواجدة في المواقع الامامية .

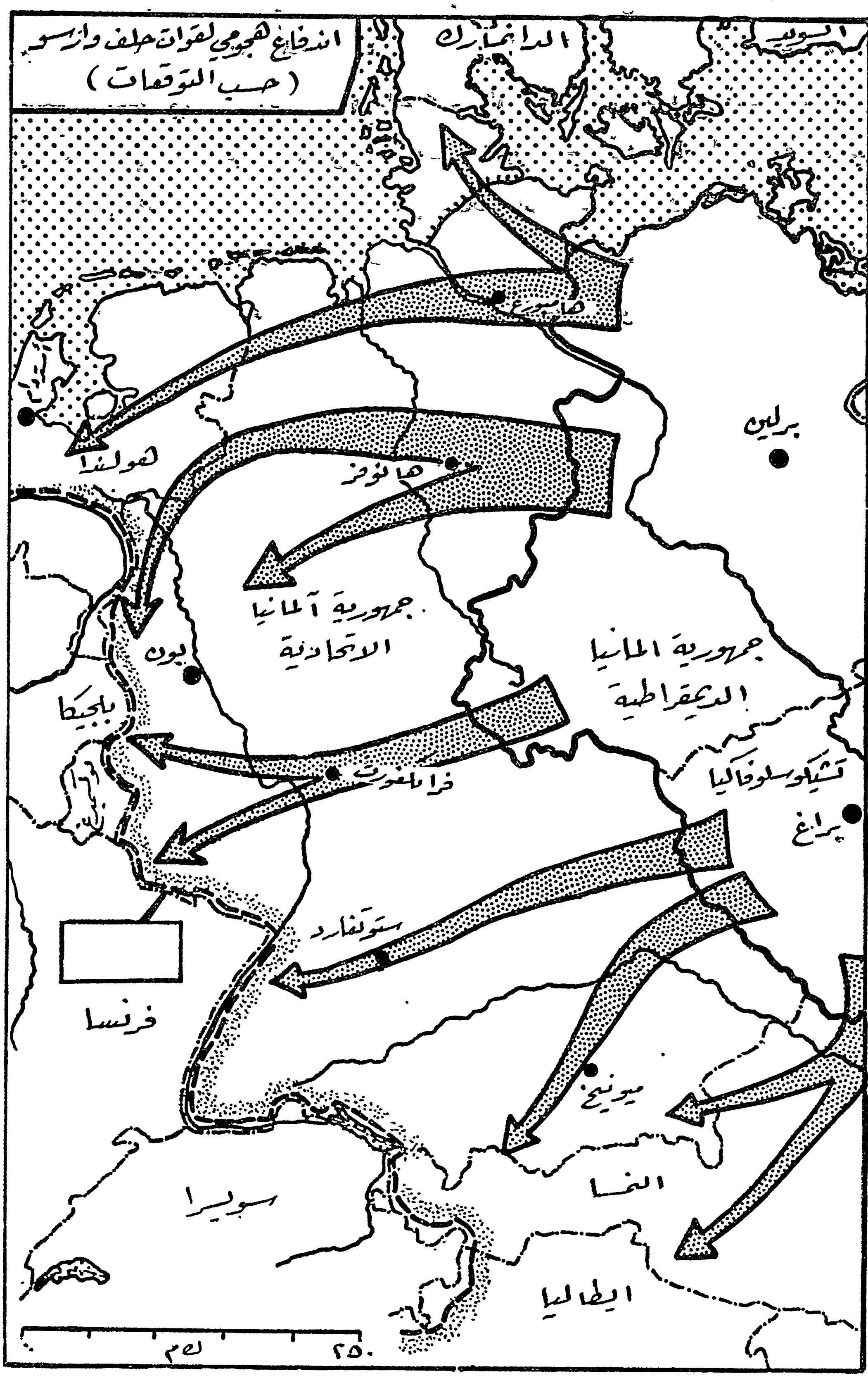
وهكذا في اواخر السبعينات بدأت عملية اصلاح على وسائل دفاع منظمة حلف الاطلسي ولتوضع موضع التنفيذ بعد طول انتظار . بعضها تم على عجل، مع المعارضة احيانا ، ودونما تفكير كاف يدعم هذه المعارضة . ولم تكن على كل حال كافية لردع الاتحاد السوفييتي . لكنها تمت اخيرا وعملت على خلاص الغرب ، ولاريب في ان الدافع لذلك ، هو التهديد المتزايد للقوات السوفييتية لاوروبا . وكان الاتحاد السوفييتي هذه المرة ، شأنه في المرات السابقة ، أفضل ضابط تجنيد في خدمة حلف الاطلسي .

مع ذلك ظلت هناك نقاط ضعف كثيرة . ولعل أهم اثنتين خطورة ، تكمنان كما هي العادة دائما ، في التفوق العددي للقوات الموضوعة في مواجهة الغرب من جهة . وفي المستوى المتدني لتوحيد الاعتدة بين قوات الغرب . فالاول يعطي حلف وارسو ميزة شاملة في المنطقة الوسطى من أوروبا حيث لم تكن اقل من نسبة اثنين ونصف او ثلاثة الى واحد ، تضاف اليها قدرة المهاجم على اختيار نقاط الخرق ، وتأمين التفوق الافضل . أما الثاني . فينشأ عما تمارسه الدول المستقلة من ميل للاخذ بما تمليه مصالحها الاقتصادية في معرض شراء المعدات العسكرية الخاصة . فمثلا تعتبر دبابة « الشفتن » و« الليوبارد » دبابة جيدة جدا ، لكنهما نوعان مختلفان بينما دبابة « XM 1 » كانت أحدث من كليهما ومختلفة عنهما أيضا .

ومن الناحية المثالية من المفروض ان يقتني كل جيش نفس النوع من الدبابة او الناقلات او المدافع ، لكن مثل هذا الحل نادر ، وعوضا عن ذلك كرس الحلف جهوده العاجلة فيما يسمى بالتعاون المشترك أي ــ القدرة على ان يعمل الواحد مع الآخر ــ كأن يكون هناك تردد لاسلكي مشترك مثلا اذا تعذر اقتناء

اجهزة متشابهة ، وان يكون هناك عيار واحد للمدافع والبنادق ، بحيث يمكن استعمال الذخيرة الواحدة فيما اذا تعذر استخدام الاسلحة نفسها . لقد تم تحقيق الكثير في هذا الاتجاه وخاصة في المدفعية وفي مدافع الدبابات ، كما في الوقود ، وفي الامدادات الاخرى . ولـم تكن الاجراءات العملياتيـة صعبة على التنسيق والتوفيق كما هي في سياسات التزود بالعتاد الثقيل . واستطاع حلف الاطلسي ان يمضي بعيدا على الرغم من صعوبات اللغة في تطوير ممارسات مشتركة . لكن أعضاء الحلف في هذا المجال الهام كانوا لا يزالون متخلفين كثيرا عن أعـدائهم .

* * *


اندفاع هجومي لقوات حلف وارسو
(حسب التوقعات)
الدانمارك
السويد
هامبورغ
هولندا
هانوفر
برلين
جمهورية ألمانيا الاتحادية
جمهورية ألمانيا الديمقراطية
بون
بلجيكا
فرانكفورت
تشيكوسلوفاكيا
براغ
شتوتغارد
فرنسا
ميونيخ
النمسا
سويسرا
ايطاليا
كلم
٢٥٠

الفصل الثالث عشر

قوات حلف وارسو

في نهاية عام ١٩٨٤ كان أكثر من اربعة ملايين ونصف بين رجل وامرأة تحت السلاح في الاتحاد السوفييتي ، وكانت القوات البرية تشكل مائة وسبعين فرقة ، نصفها موجود دائما في حالة الجاهزية رقم واحد ، أي انها كاملة بنسبة ٩٠٪ من العناصر ، والتسليح والمعدات ، حتى مستوى الدرجة الميدانية ، ومزودة بكافة الامدادات ، بما في ذلك الوقود والذخيرة ، تكفي لمدة أربعة ايام قتال . وكان خمس وأربعون فرقة « ضعف ما كان لديهم في الستينات ، وان لم تكن جميعها من التصنيف الاول » منتشرة قرب الحدود الروسية ـ الصينية وثلاثون فرقة أخرى في المناطق الجنوبية من الاتحاد السوفييتي .

على أن اشد ما كان يشغل بال منظمة حلف الاطلسي ، الاثنتان وثلاثون فرقة سوفييتية المتمركزة في بلدان اوروبا الاعضاء في منظمة حلف وارسو . هذه الفرق هي ست فرق دبابات ، وخمس عشرة فرقة آلية « Motorized » مع فرقة على الاقل « وربما اكثر » محمولة جوا ، وجميعها مصنفة في التصنيف الاول . وهذه الفرق تشكل اربع مجموعات قوات ـ على مستوى قيادات مجموعة جيوش ـ موزعة كما يلي: مجموعة واحدة في جمهورية المانيا الديمقراطية ـ مجموعة القوات السوفييتية في جمهورية المانيا الديمقراطية « GSFG » ومجموعة أخرى في بولونيا (المجموعة الشمالية) ، ومجموعة ثالثة في تشيكوسلوفاكيا « المجموعة الوسطى » . والمجموعة الرابعة والاخيرة في هنغاريا « المجموعة الجنوبية » ويبلغ مجموعها جميعا ما يزيد على نصف مليون رجل ،

وأحد عشر الف دبابة ، وثمان آلاف قطعة مدفع ، وما يزيد على الف طائرة . أما الجيش الجوي السادس عشر ، الموجود في جمهورية المانيا الديمقراطية ، فلا يمثل اكثر من رأس حربة من المصادر الجوية التكتيكية المتوفرة . وفي غرب الاتحاد السوفييتي كانت توجد سبعون فرقة أخرى « ثلثها فرق دبابات »القليل منها فقط ، كان يصنف باستمرار ، في فئة الجاهزية من الدرجة الاولى ، وهي جاهزة دوما لتقديم المزيد من التعزيزات .

وبالاضافة الى القوات السوفييتية الموجودة في المنطقة الوسطى ، قدمت البلدان الشمالية في منظمة وارسو « جمهورية المانيا الديمقراطية ، وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا » اثنتي عشرة فرقة مدرعة ، وعددا من الفرق الآلية ، جميعها منظمة ومسلحة ومدربة . حسب عقيدة القتال في الاتحاد السوفييتي . بينما في القطاع الجنوبي من منظمة حلف وارسو « هنغاريا ، وبلغاريا ، ورومانيا » كانت هناك فرقة مدرعة واحدة . وخمس فرق آلية من الجيش الهنغاري ، هي ايضا في وضع الجاهزية ، وتكمن الاهمية العسكرية لهنغاريا في منظمة حلف وارسو ، في استبعادها من الجبهة الوسطى في أية محادثات في الغرب حول تخفيض القوات الميدانية . وعلى ذلك فانه يمكن الاحتفاظ بالقوات التي يجب سحبها من المنطقة الوسطى كاملة غير منقوصة بادخالها الى هنغاريا .

ولعل في هذا يكمن السبب الرئيسي الذي ادى الى التراخي في محادثات تخفيض القوات بين الحلفين « وارسو ــ اطلسي » علما ان هناك اسبابا اخرى اضيفت الى السبب المتقدم للاقتناع بان لا فائدة ترجى من متابعة حوار كهذا .

ومع ان القوات المسلحة للدول التابعة للحلف ، كانت منظمة على الاسس السوفييتية ومماثلة لها في التسليح والعتاد والتدريب والاعتدة القتالية ، الا ان التوحيد لم يكن تاما ١٠٠ ٪ ، كذلك لم يكن التعاون العملياتي الداخلي تاما ايضا وهو في بعض الاحيان موضع حسد الغرب ــ حسد غير مبرر أحيانا ــ

وكانت هناك في البداية صعوبات في لغة التفاهم ، لكن الاهم من هذا كان تنـوع الاعتـدة .

وكانت هذه الفرق تبرز اكثر فأكثر عندمـا تزود الفرق السوفييتيـة بالاسلحة الجديدة ولا تزود بها قطعات بلدان الحلف الاخرى .

ولم يكن في منظمة حلف وارسو ، نظام تعبئة شامل ، اكثر مما كان في منظمة حلف الاطلسي ، على أن حلف وارسو في ظل هذه المعطيات لم تكن له بنية تنظيمية قتالية تقارن بتلك التي لدى حلف الاطلسي ، وبناء على ذلك كـان ينقص حلف وارسو بعض نقاط قوة الاطلسي ، وبعض نقاط ضعفه أيضا . مع ذلك كانت قوات الدول الحليفة في حلف وارسو تعتبر وتستخدم كجزء لايتجزأ من القوات السوفييتية .

وحتى نشوب الاعمال العدائية . كان الغرب يناقش مسألة الثقة في الاعتماد على قوات البلدان الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي من الناحية السياسية ، فمما لاشك فيه ان الولاء لموسكو بين قوات حلف وارسو على مستوى القيـادات العليا والوسطى كان منزها عن الشك . أما موقف الجماهير غير العسكريـة في تلك البلدان وتجاوب المرؤوسين نحو القيادات العسكرية العليا ، فكانت مسألة اخرى مختلفـة .

ولم يرتفع عدد القوات المواجهة للمنطقة الوسطى لحلف الاطلسي حتى عام ١٩٨٤ ، مع ذلك وبالرغم من زيادة عدد قوات الوضع الحليفة وقوتها ، مازال هناك تفوق مباشر ، في عدد فرق حلف وارسو بنسبة ثلاثة الى واحد . يضاف الى ذلك ان لدى الجانب السوفييتي القدرة على تركيز القوات بسرعة ، وخلال مدة انذار قليلة ، مما يدل على تفوقه الملحوظ في نقاط مختارة . ويتوقـع الحلفاء ان تكون نسبة هذا التفوق عالية جدا ، وقد تصل الى عشرين أو ثلاثين الى واحد ، في كل مناطق الانطلاق الاربع ، او الخمس المحتملة . أما العنصر الحرج

في المعركة ، والامر كذلك ، هو معدل نجاح الخرق الذي يقوم به حلف وارسو في مقابل سرعة تجمع القوات الحليفة في منظمة حلف الاطلسي لملاقاة تحرك قوات حلف وارسو ، اذا ما تم تحديدها في شمال المنطقة الوسطى لمنظمة حلف الاطلسي في الشمال من جمهورية المانيا الاتحادية ، حيث قوات حلف الاطلسي ضعيفة نسبيا ، كانت الحركة الجانبية أسهل . أما في الجنوب حيث كانت القوات الحليفة قوية كانت الحركة اصعب كثيرا . وفي القطاعين كانت خيارات قواعد الانطلاق بالنسبة للمهاجم محصورة الى حد ما بسبب طبيعة الارض . على ان التهديد الذي يخلقه تركيز قوة كبيرة من قبل مهاجم يملك المبادهة ، مازال يشغل بال منظمة حلف الاطلسي . من هنا كان للقوة الجوية حسب تفكير الحلفاء ، دور هام تلعبه ، على ان الامور الاكثر أهمية من أية زيادات في قوة حلف وارسو ، كانت تطوير وتحسين الاعتدة ، والتطورات الهامة في المشاريع القتالية والمناورات المتطورة جدا . ان هذه الامور كانت تسير في آن واحد ولذا وجبت معالجتها مجتمعة .

وفي منتصف الستينات عندما ادرك الفكر العسكري السوفييتي ان الاسلحة النووية ستظل تهيمن على الحرب ، بدأ بالابتعاد عن مفهوم أن العمليات الارضية يجب ان تكون منذ البداية عمليات نووية حتما ، لذلك أخذ بالتفكير في امكانية البدء بمرحلة تقليدية في مراحل القتال الاولى .

وهكذا بدأت دراسة ما وصف بأنه العنصر غير النووي المتغير . ولم يكن لدى الاتحاد السوفييتي ، في وقت من الاوقات ، تمييز في النوع بين العمليات النووية وغير النووية ، وانه يمكن تحديد اوقات لوقف النار بينهما كما سماها بعضهم في الغرب . فكل عمليات الحرب ، من وجهة نظر السوفييت واحدة . فمفهوم الردع النووي الذي قد « يفشل » والذي يتبع فشله « نشوب حرب نووية فعلية » غريب عن تفكيرهم . فكل أسلحة الحرب المعروفة جاهزة للاستعمال كما تملي السياسة وتحين الفرصة . ومع ذلك بدأت الاذهان تتقبل فكرة قيام حرب على أسس تقليدية ، برغم ان العمليات القتالية بأسلحة غير نووية قد تطول .

في كل الاحوال ظل الاستخدام الواسع للقوة المدرعة بالنسبة للاتحـــاد السوفييتي ، وسيلة الحرب الرئيسية في ساحات المعركـــة . فحتى منتصف الستينات ظلت الدبابة هي « الجوكر » أكانت اللعبة ستجري بالاسلحة النووية أو بدونها . ولكن ظهر فيما بعد تعقيد جديد ، اذ كاد « خروتشوف » ان يصعق في عام ١٩٦٤ عندما رأى مدى انكشاف وتدمير الدبابة بالنسبة لاسلحةالصواريخ الموجهة . وخلال سنوات قليلة كان واضحا ، ان الجنرالات السوفييت اعترفوا بتحول نوعي في حرب الدروع . لقد اثارت الحرب العربية الاسرائيلية عـــام ١٩٧٣ قلقا كبيرا بشأن مستقبل الدبابة ، واطلقت العنان للبحث العاجل عن وسائل تحييد الدفاعات المضادة للدبابات . واسهم « المارشال غريشكو »نفسه وزير الدفاع السوفييتي بدور رائد في هذا المجال .

يكمن الضعف الاعظم في تشكيلات الدروع في عنصر المشاة ، ولهذا كان ادخال عربة قتال مشاة جديدة من طراز « BMP » خطوة هامة في اتجاه تعزيزها ولم تكن هذه ناقلة للجنود فحسب ، بل كانت عربة مقاتلة مدرعة ذات قـــدرة نارية حسنة ، ومزودة بسلاح موجه مضاد للدبابات « ATGW » وبمدفع مضاد للدبابات من عيار ٧٣ ميلمتر مركب على البرج ، وتحمل أيضا قنابل مضـــادة للدبابات من نوع « RPG 7 » . لكن عربة القتال المدرعة « BMP » التي كانت الغاية منها نقل المشاة للمواقع الامامية لتصفية الاسلحة المضادة للدبابات ، كانت نفسها معرضة للنيران المضادة للدروع من انواع الاسلحة التي تستخدم ضدها في العمق .. ومثل هذا يمكن توقعه في ميدان المعركة النووية الذي صممت من أجلها هذه العربة المدرعة . وكان الحل مزيجا من تنفيذ رمايات ابطال جوي ومدفعي من جهة ، مع مناورة شديدة السرعة في العمق ، او ما يسمى بالاندفاع الجرىء من جهة اخرى .

على الرغم من أن مفهوم « الاقتحام الجريء » ــ وهو اندفاع شجاع تقوم به قوة من اسلحة متضافرة في العمق ــ شبيـــه بفكرة « الضربة الصاعقـــة « Blitzkrieg »الالمانية التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية ، فانه ــ كما

وصف ــ لم يتخذ التصميم ذاته ، بل اعتبر مفهوما كان قد جاء به « تيوخاشيفسكي » وبعض ضباط سوفييت الذين تخلص منهم ستالين عام ١٩٣٧ . وحتى عام ١٩٧٥ كانت العمليات السريعة في العمق ، سواء أكان ميدان المعركة ذريا أم لا ، تستخدم بصورة اساسية ، لاستثمار ثغرات تفتح بهجوم جبهي مركز وكثيف . ومنذئذ ، اصبح بالامكان فتح الثغرات نفسها عن طريق مناورة عالية السرعة ، تسمح بدورها بتوفير وسائل اسكات وتهديد للاسلحة الموجهة والمدافع المضادة للدبابات اللاحقة ، وتدميرها . وقد أصبح هذا المفهوم يدرس اكثر فأكثر في المعاهد العسكرية . وكانت المفاجأة والمناورة السريعة المفتاحين التوأمين لخرق المواقع الدفاعية ، مع ان الروس استمروا في تقدير عامل (دور) الكثافة ، الا انهم اتجهوا في اواخر السبعينات الى وضع الهجوم الجبهي الكثيف في المرتبة الثانية .

• وان التشجيع على المفاجأة ، يعني ان هجوما يشن على منظمة حلف الاطلسي يجب ان يكون توقيته محكما لكي لايسمح للمنظمة بنشر دفاعاتها المضادة للدبابات بكثافتها القصوى ، وهكذا ومع انه ليس من الضروري القيام به من قبل قوات مسرح العمليات نفسها (قوات الوضع قبل وصول التعزيزات) فانه من غير المحتمل ان يكون مسبوقا بفترة طويلة من التعبئة التامة . وكان هناك تأكيد كبير على حركة المعركة من اجل استغلال المفاجأة التكتيكية الى الحد الاقصى .

ولعل ماكانت توصف به من قبل الغربيين ولمدة طويلة انها « معركة تصادمية » ثم اطلق عليها بعضهم مؤخرا « معركة التلاقي » التي أخذت مكانا هاما في التعليم العسكري السوفييتي ، وتلعب الاسلحة المضادة للدرع جزءا هاما من خلال استخدامها هجوميا . ويكون دخول هذه الاسلحة المعركة بواسطة مجموعات من صنوف الاسلحة قائمة على أفواج المشاة المحمولة في عربات قتال المشاة المدرعة التي تقوم بفتح الطريق لدخول القوات المدرعة الثقيلة من اجل حسم المعركة . وقد اقتضى هذا عملا حاسما من قبل وحدات قتال صغيرة

تضم صنوف الاسلحة المختلفة ، وتعمل بحرية واستقلال كبيرين ، مع امكانية طلب الدعم بالنار فورا ، اكثر مما كان مألوفا في الجيش الاحمر . فالمدفع الذاتي الحركة أخذ ، جزئيا على الاقل ، يستجيب لمتطلبات القوة النارية مباشرة حيثما اقتضى الامر ، باشراف مستوى قيادي دون مستوى الفرقة .

ولعل ما كان يجري اشبه ما يكون بثورة تكتيكية ، يوافقها تغييرات في التنظيم والاعتدة التي كانت سببا حينا ، ونتيجة حينا آخر ، لما كان يحدث . وكانت الفرق المواجهة لمنظمة حلف الاطلسي في المنطقة الوسطى ، قد زودت بأفواج من عربات نقل الجنود المدرعة « BMP » في اواخر السبعينات ، وكان يتم على هذا المستوى من القيادة ، أي مستوى الفوج ، تحقيق تكامل في صنوف الاسلحة المختلفة ، بدلا مما كان عليه الحال من قبل على مستوى الفرقة ، أو حتى أعلى من ذلك .

وواجهت الجيش الاحمر مشاكل عديدة غير عادية في اتباع نظرية التكامل هذه للاسلحة المختلفة ، على مستويات ادنى ، من اجل تحقيق مرونة في تنفيذ العمليات وتطلب ذلك من القيادات بذل جهود غير عادية من اجل المراقبة والاتصال وتحقيق السيطرة . ولعل الاهم من ذلك هو المضامين البعيدة لما كان متوقعا من القادة ذوي الرتب الدنيا ، فالمعركة أصبحت لا تخطط مسبقا من قبل مستويات عليا ، والمواقف التكتيكية التي يمكن التنبؤ بها اصبحت مسألة محلولة من خلال تدريبات المعركة المعتادة . لذا فقد نشأت الحاجة لتوفر مؤهلات وخصائص للقيادات الدنيا ، الامر الذي لم يكن يتطلبه الجيش الاحمر من قبل . وان الجرأة في المبادهة والاستقلالية في المحاكمة التي تتطلب التكتيكات الحديثة وجودها في القادة الصغار ، كانت قد لاقت استجابة مألوفة في المجتمعات التنافسية في الغرب الرأسمالي . ولكن في الاتحاد السوفييتي لم تكن هناك خصائص يعمل على تنميتها وتشجيعها بين المرؤوسين .

وتعكس أساليب أي جيش نماذج عن اصل المجتمع الاب الذي ينتمي اليه ، فالجيش الاحمر كان يتجه نحو اسلوب قتال يتطلب نماذج سلوكية تختلف اختلافا حادا ــ مع تلك السائدة في المجتمع حاليا ــ الامر الذي يضعه في مواجهة صعوبة متزايدة .

كما خلق التموين الاداري صعوبات اخرى . وقد ظلت الممارسة السوفييتية لوقت طويل ، تعتمد على مبدأ الهجوم الكثيف وصولا الى حل تكتيكي سريع ، حيث تستبدل التشكيلات حسبما تدعو الضرورة ، وعندما تصل القوات المقاتلة الى مرحلة الانهاك فانها تسحب كليا ، لتحل محلها قوات جديدة. اذ لايجري تعويض خسائرها ، ثم تعزيزها لعمل مستمر كما هو الحال لدى الغربيين .

لقد أظهرت حرب الشرق الاوسط . ان العمليات الكثيفة بالاعتدة الحديثة، اسفرت عن استهلاك عال جدا للمخزونات من الاعتدة . لم يسبق له مثيل من قبل ، وبالنسبة الى فرق الدرجة الاولى السوفييتية العاملة في جمهورية المانيا الديمقراطية والجاهزة للقتال ، كان لديها تموين يكفيها لمدة يومين او ثلاثة ايام اثناء العمليات القتالية ، مخزونة في مواضع امامية ، يجب نقلها الى الامام في حالة القيام بهجوم جبهوي على دفاعات منظمة حلف الاطلسي ، ثم تقوم التشكيلات وهي محملة بالتموين الكافي بالهجوم في عمق دفاعات العدو ، الى أبعد مايصل اليه الخرق . أما فيما يتعلق بعمليات ما يسمى «**بالاندفاع العميق**» فان هذا النوع من العمليات ، يتطلب نوعا مختلفا من الدعم الاداري وذلك بتحريك أرتال مستقلة بذاتها ، قادرة على متابعة التقدم بالاعتماد على نفسها في معركة مرنة «Fluid» . وفي مطلع الثمانينات اجريت دراسات للتكتيكات السوقية « Logistic Tactic » هذه عن طريق التمارين بالطبع ، وعلى الطريقة السوفييتية ، بدلا من غرفة المؤتمرات ، مع فكرة عن الخبرة القتالية في الشرق الاوسط . ويذكر ان هذه التكتيكات السوقية كانت شبيهة بتلك المعروفة لسلاح المدرعات البريطاني خلال الخمسينات في جيش الراين البريطاني « BAOR » وعدلت عربة قتال المشاة

السوفييتية « BMP » لتصبح عربة سوقيات مدرعة . وخلال السنوات الثلاث التي سبقت نشوب الاعمال الحربية العدائية ، اصبحت طريقة تسيير الارتال المدرعة الخاصة بتعويض الخسائر والمحمية من قبل ألاسلحة المضادة للدبابات وللطائرات ظاهرة هامة في مناورات الجيش الاحمر .

في نفس الوقت كانت القدرة الهجومية للتشكيلات السوفييتية المدرعة والآلية تتحسن باضطراد. حيث أعيد تسليح وتجهيز الفرق المدرعة من التصنيف الاول ، وغيرها أيضا حتى عام ١٩٨٠ بالدبابة من طراز (ت ــ ٧٢) التي تزن اربعين طنا ، والمزودة بمدفع من عيار ١٢٥ ميلمتر ذي السرعة الابتدائية العالية، وبجهاز تقدير المسافات بأشعة « لايزر » ولها هيكل منخفض وبنية صلبة تحميها من الاسلحة النووية والبيولوجية والكيميائية . كما بدأت توضع في الخدمة الدبابة الاحدث وهي من طراز (ت ــ ٨٠) ذات الدرع المتباعد او المقطع « Cloisonner » والمزودة بسلاح موجه ضد الدرع من نوع « ATGW » وبمدفع من عيار ١٢٥ ميلمتر نموذج محسن . اما الدبابة طراز (ت ــ ٦٢) التي ازعج مدفعها الدبابات الاسرائيلية عام ١٩٧٣ ، قد جرى تنسيقها اخيرا من الخدمة .

وفي المشاة الآلية ، اصبح يوجد في كل فرقة مدرعة فوج مقابل ثلاثة أفواج مدرعة ، أي باتت النسبة معكوسة . كما هي الحال في فرق المشاة قبلا . فقد حلت عربة القتال الآلية من طراز « BMP-76-PB » السريعة والمسلحة تسليحا ثقيلا ، ذات الوقاية من الاخطار الذرية والبيولوجية والكيميائية ، محل عربات نقل الافراد من النماذج القديمة . ثم بدأت عربة جديدة احدث من عربة قتال المشاة من طراز « BMP » تظهر لدى القوات السوفييتية الموجودة في جمهورية المانيا الديمقراطية ، واول ظهور لها كان عام ١٩٧٧ وهي من طراز « MTLB » أي عربة القتال المدرعة المحسنة بما في ذلك تسليحها بمدفع من عيار ٧٦ ميلمتر. وفي ذلك العام ظهرت سبعة افواج « Regiment » مشاة في مجموعة القوات السوفييتية المتواجدة في جمهورية المانيا الديمقراطية « GSFG » وكان ظهورها

اولا على عربات شحن ثم استبدلت بعربة القتال العامة « MTLB » . وبحلول عام ١٩٨٢ ، تم تحويل عشرة افواج بنفس الطريقة . كما وضعت في الخدمة ، المدفعية ذاتية الحركة من عيار ١٢٢ ميلمتر ، وعيار ١٥٢ ميلمتر وذلك في وحدات وتشكيلات الانتشار المتقدمة الامامية . مع ان الميل لاستعمال المدفعية الكثيف للرمي المباشر باشراف من الخلف ظل قائما لدى السوفييت « في حوزتهم الآن مدافع من عيار ١٨٠ ميلمتر كرد على ما يملكه الاميركيون من مدافع من عيار ١٧٥ ميلمتر من طراز « M-107 » . وقد تمت زيادة كثافة النيران المدمرة بفعالية « Saturation fire » عن طريق استخدام نوع متطور من قاذفات الصواريخ من طراز « BM-21 » من عيار ١٢٢ ميلمتر ، التي تستطيع ان تقذف اربعين مقذوفا صاروخيا من عربة واحدة ، تزن القذيفة الواحدة منها ، خمسة وخمسين كيلو غراما ، ولمدى مقداره ستة عشر كيلو مترا .

ο

وفيما يتعلق بالدفاع الجوي العضوي في الفرقة ، فيشتمل على اعداد كبيرة من قاذفات الصواريخ من طراز سام « SAM-8 » ارض — جو ، للرمي على الاهداف المنخفضة جداً ، بالاضافة الى صواريخ من طراز سام ٧ وسام ٩ و سام ١٠ وكذلك سام ٦ وسام ٣ للاهداف المتوسطة الارتفاع ، والصواريخ من طراز سام ٤ وسام ٥ ضد الاهداف العالية ، وعدد مختلف من المدافع ، ويعتبر المدفع من طراز « زو — ٢٣ » عمودها الفقري .

اما في ميدان السلاح المضاد للدرع ، وهو الآن ذو اهمية اكبر في مفهوم الهجوم « الاندفاع بالعمق » حل المدفع من طراز « س ب ج ٩ » عيار ٧٦ ميلمتر محل الاسلحة عديمة الارتداد القديمة ، علما ان قاذفات قنبلة « ال ر ب ج » المعروفة لاتزال في الاستعمال ، وكذلك الاسلحة المضادة للدبابات الموجهة سلكيا مثل صواريخ المالوتكا . علما ان النماذج الاولى من الاسلحة المطورة ، التي استهدفت اصلا منافسة الاجهزة التي يطلق عليها الاصطلاح « اطلق وانس » التي تعتبر متطورة لدى الغرب ، كانت في الخدمة .

وقد زاد في تعزيز الاندفاع الهجومي تحسين المعدات الهندسية الهجومية

وتطوير بعض هـذه المعدات مع ما يتـلاءم مع المعركة الحديثـة : فتم تجهيز التشكيلات بعدد من الجسور المتطورة وكذلك بأنواع مختلفة من معدات العبور « معديات لاجتياز الانهر مثلا » ، وعربات برمائية ذات فعالية عالية . كما جرى من جهة أخرى تطوير وسائل الكشف عن الالغام وزرعها ونزعها ورفعها بسرعـة وبطريقة آلية ، اما بمعدات ارضية أو من الجو . وقد تم ذلك من خلال البحث عن الاشتباك باستخدام عمليات مرنة في العمق .

وعمليات من هذا القبيل ، اخذت تقترب اكثر فأكثـر من السيطرة على التفكير التكتيكي السوفييتي في وقت تجري فيه تجربة لاسابقة لها .

وفي المجال الواسع من النقاش حول سير المعركة البرية ، برزت مسألـة واحدة على انها الاكثر اهمية من غيرها . وكانت تلك تتعلق بالتنظيم الاساسي لتشكيلات الميدان . فهل اصبحت الفرقة تتجه نحو تجميع موحد لكافةالاسلحة بحيث يمكن أن نخصص منها مفرزة خدمة لمواجهة أية مهمة طارئة بسرعة ؟ كثير من الضباط الكبار كانوا يحبذون ذلك . أم هل يجب ان يحافظ علـى الفرق بين الفرق الثقيلة بدباباتها التي تضم عناصر مشاة وبين فرق المشـاة الآلية حيث الدبابة جزء لايتجزأ منها ؟

وليس هـذا السؤال ـ سؤالا عسكريا تنظيميا عسيرا كغيره . اذ يكمن خلفه (كما هو الحال) بالنسبة لموضوعات التنظيم العسكري ، سؤال آخر ذو أهمية سياسية عميقة . ويقول انصار الرأي المحافظ وهم كثرة ، وبينهم من يعترف بوضوح كبير « على الرغم من انهم يمتنعون عن قولهـم بصراحة » ان الخصائص الواجب توفرها في القادة الصغار خلال العمليات المرنة في العمق هي ليست ببساطة تلك الخصائص الموجودة في ظل النظام السوفييتي ، بل ان هذه الخصائص كانت موضع تثبيط وتيئيس . وتجدر الحاجة للتأكيد ، على ان استقلال المرؤوسين بصلاحيات عالية ، واعتمادهم على تقديرهم الخاص لموقف ما ، وعلى مبادئهم الخاصة بدلاً من الالتزام بالقواعد المكتوبة ، وتوجيه الرؤساء هي مسألة غريبة تماما عن النظام السوفييتي . فمثل هذا التصرف اذا ما اتسع

نطاقه ، يمكنه ان يعرض للخطر كامل البنيان السياسي للاتحاد السوفييتي . فالجيش الاحمر ليس العامل الصحيح الذي يمكنه ان يعزز هذا التصرف مهما كان انتقاء القادة الصغار دقيقا وحريصا . وهذه الفكرة بحد ذاتها ، كانت مصدر ازعاج لعدد كبير من الضباط الكبار .

وأيا كانت مشاكل القيادة التي تبرز في الجيش الاحمر ، فان مركزية التنظيم والتحكيم في القوات الجوية التي تتطلبها القوة الجوية ، تتلاءم تماما والنظام الاجتماعي والسياسي السوفييتي ، مع ذلك واذا ما سمح للقوات البرية ان تعمل بمرونة وبمبادرة على مستوى القيادات الدنيا اعتمادا على كيفية تطور المعركة ، فان القوات الجوية قد تحتاج الى التصرف على نحو شامل ، والتعلم كيف تتحول بسرعة الى رد فعل ذاتي . كان الروس يعلمون ان رجال الجو الحلفاء أكفاء في أدائهم لعملهم ، ومن المؤكد انهم تبينوا انه في حال قيام هجوم كثيف يزدحم الجو بحيث تصبح السيطرة الوثيقة من القيادة (التي تكون في مكان خلفي بعيد) أمرا غير مؤثر ، ويصبح من الصعوبة الالمام بالموقف الجوي والارضي الماما كاملا ومفصلا . وقد بلغت التقنية العسكرية حدا بالغا من الدقة والتعقيد . وكان لدى طواقم رجال الجو خلاصة هذه التقنية الاختصاصية العسكرية ، وربما كان لديهم ما يقلقهم أكثر مما لدى القوات البرية على المدى البعيد ، اذا دعت الحاجة العسكرية للانقاص من ادوارهم . في الوقت الحاضر ، على كل حال ، تظل الاهداف المحددة مسبقا في أي عملية هجومية هي القاعدة المتبعة حتى الآن ، بينما يعكف الجنرالات والمخططون الاستراتيجيون على التفكير في مسائل اخرى أكثر اهمية .

وفي السنوات العشر الاخيرة توصلت القوات الجوية الحمراء الى نظام جديد للقوات الجوية . ومنذ عام ١٩٧٠ وما بعد اصبح واضحا للمراقبين الغربيين ، ان المسؤولين في الكرملين قد تنبهوا اخيرا الى اهمية القوات الجوية . وظهر اتجاه هام تماما في دلالته بالنسبة لمنظمة حلف الاطلسي مثل أهمية ظهور الاتحاد السوفييتي كقوة بحرية عالمية . وقد قابل حلف الاطلسي التفوق

العددي لمنظمة حلف وارسو ، في القوات البرية والجوية ، معا بالكفاءة العالية لقواته الجوية ، وخاصة في قدرات القوات الجوية ، على تركيز النيران ،والسرعة والدقة، في أية مرحلة من مراحل المعركة . وحتى اذا توفر للحلفاء احتياط كاف لمواجهة هجوم ارضي واسع يقوم به حلف وارسو ، تظل المشكلة الدفاعية تكمن في عدم وصول هذا الاحتياط في الوقت المناسب للقيام بدفاع امامي متماسك ، في مواجهة هجوم مفاجيء أو شبه مفاجيء . لكن هذه الثغرة يمكن سدها وفق التفكير الاستراتيجي للحلفاء ، بالقدرة الجوية التي تستطيع ان تؤمن امكانية الضرب بقوة لمحاور التقدم ونقاط المرور الاجبارية،على طول الحدود بين الدولتين الالمانيتين، بحيث يسفر ذلك عن الحد من الهجوم السوفييتي . في الوقت نفسه يجري تشكيل القوة الجوية التكتيكية استراتيجيا ، بمعنى أن تأتي أعداد كبيرة من الطائرات الاميركية التكتيكية الى اوروبا ، من الولايات المتحدة الاميركية ، في أوقات المحنة . ان مفهوم قيام الطيران الحليف بالصمود على جبهة امام هجوم على هذا النحو ، شريطة ان تتوفر الطائرات باعداد كافية للقيام بهذا العمل ، لهو مفهوم صحيح ومطمئن ، خاصة وأن عمل الطيران التكتيكي الحليف الحديث ، وفاعلية ودقة اسلحته حققت مقدرة لم يكن يحلم بها من قبل بمقاييس الحرب العالمية الثانية .

في الحلف الاطلسي كان ينظر الى هذا التفوق على انه نعمة باقية الى الابد بصرف النظر عن الجهد الذي وضعه الغرب فيه . لكن الامور الان بدت تظهر مختلفة قليلا . فقد ظهر الطيران السوفييتي النفاث لاول مرة في الحرب الكورية وبحلول عام ١٩٧٠ سحب هذا الجيل الاول من الخدمة الا القليل منه في بعض البلدان التابعة لمنظمة حلف وارسو ، اما الجيل الثاني الذي نشأ في اواخر الخمسينات واوائل الستينات فقد وصل الى ذروة قوته في اوائل السبعينات. وفي مطلع عام ١٩٨٥ لم يبق في الخدمة من الجيل الثاني اكثر من ١٠ — ١٥٪ مختلفة قليلا. فقد ظهر الطيران السوفييتي النفاث، لاول مرة في الحرب الكورية. بسبب حلول الجيل الثالث مكانه . وكان اول ظهور لهذا الجيل عام ١٩٧٠ ، منذئذ ازدادت اعداده بثبات . ولدى القوات الجوية السوفييتية

الآن طائرات ذات كفاءة تقارن بنظيرتها لدى منظمة حلف الاطلسي . وعلى الرغم من ان الاخيرة لا زالت تحتفظ بتفوق ثانوي خصوصا حيثما يتصل الامر بالالكترونيات وتقنية السلاح . من الناحية العددية تخطت القوات الجوية التابعة لمنظمة حلف وارسو ، تلك التي تمتلكها منظمة حلف الاطلسي . وتلوح في الافق بوادر مساواة في العمل « Performence » بين الجبهتين ولم يكن هذا هو نهاية المطاف . فهناك امارات كثيرة تشير الى قرب ظهور جيل رابع من الطيران يشتمل على طائرات مقاتلة مختصة بالتفوق الجوي تقابل طائرات منظمة حلف الاطلسي من طراز (إف ١٥) و (إف ـ ١٦) وطائرات «فيستول» بسبب الجهد الذي يبذله الاتحاد السوفييتي في مجال البحث والتطوير للتقنية العسكرية . وهو جهد يزيد على ماتبذله قوى الغرب مجتمعة.

وفي مطلع عام ١٩٨٥ استنتج المحللون الغربيون ان قوة الجيوش الجوية التكتيكية السوفييتية في غرب روسيا وحدها زادت منذ عام ١٩٧٠ بنسبة تزيد على ٣٠٪ سنويا . وكانت القوات الجوية التابعة للبحرية السوفييتية ، تزداد بنسبة مماثلة اذ حدثت زيادة كبيرة في كل من الطيران التكتيكي والاستراتيجي . ووصل عدد الطائرات الحوامة الهجومية الملحقة بالمشاة الى ثلاثة أضعاف ماكانت عليه منذ عام ١٩٧٠ ، ويستطيع جنرالات القوى الجوية السوفييت ان يستعرضوا بالرضى والاعتزاز برامجهم الناجحة بمثل ما يراه الادميرال « غورشكوف » في البحرية السوفييتية . وفي الحقيقة كان هؤلاء الجنرالات يشعرون بالضيق لان الاضواء تسلط على الادميرال وبحريته في الوقت الذي كان فيه سجل الطيران متألقا بنفس القدر . ففي خمس وعشرين سنة أسفرت جهودهم التي لاتعرف الكلل عن تحقيق زيادة في مدى وحمولة الطيران السوفييتي بما يزيد عن ١٢٠٠٪ .

وهذا يعني ان الطيران السوفييتي يستطيع الوصول الى الاطلسي وان يهاجم أهدافا في المناطق الخلفية الاوروبية التابعة لمنظمة الاطلسي ، بما في ذلك المملكة المتحدة ، تلك الاهداف التي ظل الغرب يعتقد انها معصومة عن أي تهديد

جوي . ولدى الاتحادالسوفييتي أيضا طيران القتال للمطاردة والمراوغة ، ولقيام بالهجمات الخداعية ، يضاف الى ذلك ان جنرالات الجو هم الذين صمموا سلاحا واسعا ومتوازنا ، استطاع ان يضيق ثغرة التفوق النوعي الغربي السابق. وقد تجاوز عدد الطائرات الحاجات التي يقتضيها الدفاع المحض . واذا استمرت الامور على هذا المنوال فان الجنرالات يستطيعون في المستقبل القريب ان يتحدوا القدرة الجوية لمنظمة حلف الاطلسي وامكانياتها في حماية الاستخدام الاستراتيجي للاحتياط الحليف في حالة الطوارىء . ان حصول مثل ذلك يعني كسب الحرب وانه لأمل يبعث على الرضا .

وبقدر مساو من الرضا ، كانوا يراقبون ما يجري حولهم ويصغون للكثير الكثير طيلة السبعينات ، فيما كان العسكريون والمعلقون في أوروبا الغربية يحاولون تحذير بلدانهم حيال الدور الخطير الذي يترتب على قواتهم الجوية ان تلعبه في الدفاع عن أمن الحلفاء . ويعلموهم بالطريقة التي يضيق بها هامش الاطمئنان الذي يحتمي الحلف وراءه . **« ليس هناك أشد صمما ممن لا يريد أن يسمع »** بمثل هذه العبارة ، ربما كان الجنرالات يعلقون على ذلك بسرور حتى عام ١٩٧٩ ، حين عكفت المملكة المتحدة على اتخاذ اجراءات اساسية لزيادة القوى الجوية الملكية ، وخاصة دفاعها الجوي « إنظر الملحق الأول » . وكان معظم اعضاء منظمة حلف الاطلسي منهمكا ، وبقدر مماثل في زيادة مجهوداته الجوية . لكن القوات الجوية الملكية ، كانت تهم الجنرالات السوفييت بشكل خاص ، لان للمملكة المتحدة مكانة خاصة في الخطط الاستراتيجية . فلم يكن برنامجها التوسعي موضع ترحيب الكرملين ، او الجنرالات السوفييت ، لكنهم كانوا يعزون انفسهم بانهم قطعوا شوطا رائعا ، بينما الغرب ، وبمحض اختياره ، ينظر في الاتجاه الآخر . يضاف الى ذلك ان خبرتهم الخاصة خلال سنوات طويلة ، في المجهود الصناعي والتدريبي الضخم الذي يحتاج له بناء او زيادة قوة جوية حديثة ، جعلتهم يتساءلون ما اذا كانت الحكومة البريطانية تخبىء مفاجأة ، عندما وجدت انها تحتاج الى وقت طويل لتصبح خططها ناجحة ومتكاملة .

وفي مجال الفضاء ، عرفت القوات الجوية السوفييتية طريقة الاستخدام العسكري لعربات الفضاء ، في الاتصال والاستطلاع منذ فجر برنامجهم الفضائي ، وكان التنافس ما بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية ، الذي بدأ قبل ثلاثين عاما بالصاروخ السوفييتي « سبوتنيك » ، فيلما فضائيا طويلا يعرض أمام النظارة في العالم . ومع أن الطريق الهندسي عند الدولتين ألعظميين مختلف كثيرا ، وان الثقة في طريقة الولايات المتحدة الاميركية متفوقة عن نظيرتها لدى الاتحاد السوفييتي ، الا ان الاتحاد السوفييتي حصل على قدرات تضاهي تلك التي لدى الولايات المتحدة الاميركية . وقد أثبتت أنها ثمينة خلال السلم ، ويبقى الآن ان نرى ماذا ستكون أهميتها أثناء الحرب .

وكانت هناك مسألة حيوية أخرى قيل القليل عن مغزاها الكبير في الجيش الاحمر ، وربما لقلة ما يعرف عنها . انها تتصل بصلب طبيعة الحرب النووية ، مع أن اتجاه التفكير العسكري السوفييتي مؤخرا ، كان يتقبل قيام حرب رئيسية بعمليات غير نووية وان هذه العمليات يمكن ان تطول ، الا انه يجب التأكيد مرة اخرى على ان كلتا الحربين النووية وغير النووية ليستا من وجهة نظر فلسفة الجيش الاحمر تبادليتان « اي لا يمكن للواحدة ان تكون بديلة للاخرى » . كل شيء كان يأخذ مكانه في جهاز القدرة الشاملة للحرب ، كيما تستغل هذه القدرة حسبما تتطلب السياسة او المناسبة . وكما رأينا بوضوح فانه لم يكن لمفهوم « تصعيد » الحرب من تقليدية ، الى نووية ، ومن ثم تصعيد العمل النووي ، من ميداني الى استراتيجي ما يعادله في الحقيقة لدى الاتحاد السوفييتي ، وعلى الرغم من دراسة العامل المختلف غير النووي الاستعداد له لم ينقطع ، فانه من المتوقع قيام الاتحاد السوفييتي بحملة رئيسية ضد منظمة حلف ، الاطلسي تبتدىء بهجوم مكثف بالعمق بالسلاح النووي او الكيميائي او بكليهما ، ثم يتبع ذلك استثمار سريع وعنيف من قبل تشكيلات مدرعة في اغلبيتها ، وتهاجم من خارج خط الانطلاق . وباستعمال الاسلحة النووية ، ينتظر ان يكون عمق الخرق مائة وعشرين كيلو مترا خلال أربع وعشرين ساعة . وكانت المعدات في فرق الجيش الاحمر مصممة للعمل في ارض معركة من الناحية

الكيميائية او الاشعاعية . واذا ما تعرض الوطن ، خارج منطقة القتـال ، الى رد بالاسلحة النووية الاستراتيجية ، فان لديهم تدبيراً « ليس شاملا وان كان يفضل ما لدى الغرب في هذا المجال » لحماية بعض العناصر من السكان بهدف الحفاظ على الخدمات الاساسية من جهة وعلى استمرارية الحرب من جهة ثانية .

واذا ما رأى الاتحاد السوفييتي فائدة ترجى ، في القيام بهجوم نووي ، فانهم لن يترددوا في دراسة هذه الامكانية ، خاصة اذا ما استطاعوا تعميمه أو خنق الاسلحة النووية الغربية على نحو جيد قبل ان يتوصل أعضاء منظمة حلف الاطلسي الى اتفاق فيما بينهم بشأن اطلاق مثل هذه الاسلحة . وبصرف النظر عن التقليل من الخطر الذي يتهدد الوطن من جهة وغياب التدمير النووي اللاحق في مسرح العمليات « الذي قد يكون له فوائد وقد لا يكون » ، فان المفعول الرئيسي لفتح معركة برية هو ابطاء معدل التقدم . فبدلا من قطع مسافة تتراوح ما بين ١١٠ ـ ١٢٠ كيلو مترا في اليوم ، فان التشكيلات المهاجمة تنجز الشيء الكثير اذا استطاعت ان تقطع اربعين كيلومترا .

على انه مهما قيل او اتخذ من عمل حيال عمليات الحرب النووية سواء من قبل الرجال الواقعيين في الشرق او المعلقين في الغرب ، فان هناك أمرا واحدا معروفا عالميا ، وهو ان الاسلحة النووية لم تستعمل بعد في المعركة ، ولا أحد في اي مكان في العالم يدري ماذا سيحدث فيما لو استعملت ، حتى في حال الحرب الشاملة حيث تستعمل كافة الوسائل المتاحة . يظل القرار باستخدام السلاح النووي بحاجة الى مزيد من التفكير والتروي . وكلما كان الواقعيون اشد واقعية ، وهم المنوط بهم اتخاذ القرار باستعمال الاسلحة النووية ، كلما كانوا اكثر حرصا واكثر امعانا في تبصر النتائج غير المنظورة . ولا ريب ان استعداد الغرب المتعاظم للدفاع عن نفسه كان يلقي ضوءاً اكثر وضوحا على هذه الناحية بالذات .

* * *

الفصل الرابع عشر

المسرح جاهز

بعيد الساعة الرابعة من صباح اليوم الرابع من الشهر الثامن ، أصبح واضحا لقائد القوات الحليفة في أوروبا ومن ثم للعالم الذي يترقب الاحداث بقلق ووجوم ان حلف وارسو بدأ هجوما شاملا على قوات الحلف الاطلسي.

« ها هو قد بدأ غزو أوروبا الغربية .. »

كان وقع النبأ على بعضهم مترافقا بشعور الخلاص ، فلعلها انتهت مرحلة القلق والشك ، أما بالنسبة لبعضهم الآخر وخاصة منهم العاملين في خدمة القوات المسلحة وفي حكومات الدول الاعضاء في منظمة حلف الاطلسي ، فقد أثار الحيرة السؤال حول ما اذا تم عمل ما منذ السبعينات يكفي لاصلاح ما تدمر من دفاعات الحلف خلال السنوات العجاف . وهل ينجو الغرب من المحنة ؟. معظم الذين سمعوا الانباء ، في اوروبا على الاقل ، أحسوا بنذير الشؤم والتعاسة . فالتدخل السوفييتي في يوغوسلافيا والرد الاميركي العنيف **« والنقطة التي التقى فيها الخطأ في الحساب ، بسوء الطالع انطلقت منها الشرارة التي سببت هذا الانفجار الشامل »** كل ذلك يكاد يكون في طي النسيان. اما القضية المطروحة الآن فهي مستقبل الجنس البشري .

ومنذ البداية اغرقت الدعاية السوفييتية العالم كله ، مدعية ان ما يجري لا يعدو كونه اجراء دفاعيا ، أجبر عليه حلف وارسو بسبب أطماع النازيين الجدد والذين تؤيدهم الامبريالية الرأسمالية .

كان واضحا منذ زمن بعيد كما « ادعى البيان » ان النازيين الجدد عاكفون على توحيد المانيا بالقوة ، ثم السيطرة على أوروبا من بعد ، كخطوة في اتجاه السيادة على العالم . وان سياسة « الدفاع المتقدم » التي هي عبارة عن هراء عسكري واضح ، اذا لم تكن تعني قيام جمهورية المانيا الاتحادية بعمل الى الشرق من خط الحدود ، فانها لم تكن سوى غلالة رقيقة ، تتستر وراءها النية لغزو جمهورية المانيا الديمقراطية ، كخطوة اولى نحو تفكيك حلف وارسو ، ثم تدمير الاتحاد السوفييتي . ان تغيير الاسم من دفاع أمامي ، الى دفاع جبهوي ، لم يجد شيئا في التستر على السياسة الهجومية الرئيسية المكشوفة ، وان خطط الغزو المقررة والمصدقة « وكما قال الاعلان » هي في الايدي السوفييتية ، وأن واضعيها سيحاكمون عندما يحين الوقت . وفي هذه الاثناء بدا واضحا وضوحا كبيرا انه لاوقت يهدر لاجتثاث القرحة النازية ، والا فان الامل — كل الامل — بسلام دائم في اوروبا سيزول ويتلاشى .

ومضت الرسالة السوفييتية الى العالم لتؤكد ان الغرض من تصرف الحلف (وارسو) هو اولا ، اعادة السلام الى ربوع يوغوسلافيا ، حيث قامت قوات غربية رأسمالية بغزو دولة اشتراكية . وهو ثانيا وفي الوقت نفسه ، قمع المصدر الحقيقي لتعكير سلام العالم . وهذا يحتم احتلال وتحييد جمهورية المانيا الاتحادية . لا اكثر ولا اقل ، باستثناء بعض الاعمال الاخرى التي تقتضيها دواع الامن العسكري ، اما وحدة الاراضي الفرنسية فستكون موضع احترام خاص . وقد تم حث الحكومة الفرنسية على ألا تعطي للقوات المسلحة الفرنسية، دورا في مقاومة قوات منظمة حلف وارسو . أما الحكومة الايطالية فقد أمرت بلهجة قاطعة للعودة الى ضميرها الاشتراكي ، وألا تسمح بمقاومة القوات السوفييتية التي تضطر لدخول ايطاليا . ومضى البيان يقول **« ويؤمل كثيرا ان تتبصر المملكة المتحدة في دعم أعداء الامس ضد حلفائها السابقين ، وفوق ذلك كله ان تعترف الولايات المتحدة الاميركية بالاخطار الناجمة عن احياء روح النازية من جهة ، والآمال المحمومة التي تخامر صدر الاتحاد السوفييتي في سلام دائم من جهة اخرى »** .

ثم جاءت الاشارة الى الاسلحة النووية . فقال البيان ان الاتحاد السوفييتي لايرى في الوقت الراهن حاجة للاستفادة من ترسانة أسلحته النووية القوية ، في العمل الوقائي القائم حاليا . ومضى البيان يقول « **ان أي استعمال للاشعاع كسلاح حربي سواء ضد جنود حلف وارسو او ضد اوطانهم ، ومن أي مصدر كان ، سيسفر عنه الغاء الاتحاد السوفييتي لكافة القيود المفروضة على استعمال الاسلحة النووية ، وتوجيه هجوم معاكس ، على نطاق واسع الى العمق الذي تدعو اليه الضرورة . في هذه الحالة ستواجه مدن بلدان منظمة حلف الاطلسي نهاية مخيفة** » .

هكذا كانت رسالة الاتحاد السوفييتي الى العالم ، بدأت اذاعتها في الرابعة « بتوقيت وسط أوروبا » من صبيحة الرابع من آب ١٩٨٥ ، وأعيدت عدة مرات باستمرار في الايام التالية بطرق مختلفة عديدة حتى أصبحت معلومة في مختلف البلدان . وبلغات مختلفة عديدة . كانت المشاعر ازاءها متباينة، تتراوح بين الامل المذهل واليأس القاتل ، وكانت تستقبل بردود فعل تتراوح بين الترحيب الحار من قبل الاقلية والسخرية الصاخبة من قبل الاكثرية .

في الرابع من آب ١٩٨٥ ، بعد اسبوع من التعبئة العامة في دول منظمة حلف الاطلسي في اوروبا ، كانت القيادة الحليفة في وضع أحسن بكثير مما كانت عليه قبل عدة سنوات لمواجهة حالة طارئة ، وقد عملت حالة الانفراج الكاذب التي امتدت لعدة اشهر خلال النصف الاول من العام » شيئا ما لتخفيض معدل التحسن في حالة جاهزية القوات المسلحة التابعة لمنظمة حلف الاطلسي ، وقد أدى هذا الانفراج حقيقة الى ايقاف التحسن في عدة نواحي من الجاهزية . فقد عمت الآمال الخادعة التي تقول ان الفهد قد غيّر هذه المرة تنقيط جلده . بل كانت هناك أحيانا ادعاءات غريبة كثيرا ما سمعت في الاوساط اليسارية في بريطانيا ، تفيد ان المسألة ليست مسألة تغيير تنقيط جلد الحيوان . لان الحيوان كان دائما طاهرا وبلا دنس ، وان القوة الهجومية الهائلة للاتحاد السوفييتي ، وجدت لحماية اسلوب حياتها التقدمي ، وحرية الشعوب التي حررتها من قبل .

أما الاصوات التي ارتفعت ولمدة طويلة في اوساط الجناح اليساري البريطاني ومن حلفائهم الانفصاليين في الولايات المتحدة الاميركية ، تبحث على اجراء تخفيض حاد في النفقات العسكرية وانسحاب القوات ، فانها أصبحت موضع تشكيك متزايد لهذا كان من الممكن برغم هذه الجوقة ، وحتى خلال أشهر الانفراج الكاذب في الربيع ، وبداية صيف عام ١٩٨٥ الماضي ، تنفيذ برامج الدفاع كيلا يؤدي توقف العمل فيها الى زيادة البطالة الداخلية. فاستمرت مثلا ، تحسينات الدفاع الجوي في المملكة المتحدة ، بل كان من الممكن الاحتفاظ، في الولايات المتحدة الاميركية ، بنظام التجنيد والسوق الفعلي ولو في أضيق الحدود .

وقد لاتوجد حاجة للحديث مطولا عن الضغوط السياسية والاجتماعية التي نشأت في الولايات المتحدة الاميركية بين الاعوام ١٩٧٨ ــ ١٩٨١ ، حول ادخال نظام التجنيد ، (السوق) او لاعادة النظر بتاريخ الازمات العاصفة المتعلقة باعادة البحث عن التشريعات المناسبة . اننا معنيون اكثر بنتائجه ، كما ترى القيادة الحليفة لاوروبا عام ١٩٨٥ ، وبالخواطر الواعية التي تولاها . وبذلك أمكن وضع كتاب كهذا ، يسجل اسلوب البقاء الحر للغرب .

وقد يكون من المفيد ان نتذكر ان الجيش الاميركي في عام ١٩٧٧ كان يواجه وضعا خطيرا جدا من جراء اختفاء الاحتياط . فعندما أسفر الكره الشعبي لحرب الفييتنام ، عن انهاء التجنيد ، وعن خلق جيش من المتطوعين ، حل أيضا هبوط حاد في عدد المستجيبين لدعوات الاحتياط التدريبية . ففي عام ١٩٧٧ كان عدد أفراد جيش الحرس القومي والاحتياط حوالي مائة الف شخص خلال اوقات السلم . أما الاحتياط الفردي الجاهز للجيش (وهو عبارة عن تجمع الاشخاص المدربين الجاهزين لملء الوحدات وتعويض الخسائر) فكان في تناقص سريع ، الى حد أنه في عام ١٩٨٢ كان يقل بمقدار ثلاثمائة الف رجل عن متطلبات التعبئة . واما نظام التجنيد فانه في حالة الاستنفار الشديد لا يتم الدعم بموجبه قبل تدريب الافراد المجندين ، ومن غير الممكن ان يتم ذلك الا بعد

مضي اربعة اشهر على التعبئة . وكذلك فانه من غير المتوقع وصول عناصر مدربين الى القيادة الاوروبية الحليفة لتعويض الخسائر البشرية من جراء العمليات القتالية قبل مضي ثلاثة اشهر على ذلك .

وقد رفضت خطة وضعها الجيش الاميركي تقضي بصرف مبلغ /٧٥٠/ مليون دولار سنويا على تنفيذ اتفاقية تحسين جاهزية العناصر الاحتياطية . وقد تبين ان العمل بمشروعي :

– دعوة العناصر الاحتياطية الى الخدمة .

– وتجنيد العناصر الجاهزة للسوق .

كان غير مجد اطلاقا ، وكان البديل الوحيد الحقيقي هو تهيئة القوات العاملة مع استثناء (او اعفاء) العناصر الاحتياطية والمتطوعين من العناصر الجاهزة للسوق للخدمة . ولولا ذلك ، لكان الجيش الاميركي ولعدة سنوات قليلة غير قادر على الذهاب الى الحرب الا بعد انتهائها .

لم يقبل الرأي العام في الولايات المتحدة الاميركية عام ١٩٧٧ العمل بنظام التجنيد من جديد ، وقد اظهر استفتاء اجراه معهد « غالوب » ان ٤٥٪ من الاميركيين كانوا يعارضون المشروع ، وبينهم ٨٢٪ من الرجال متدرجون في سن من سن الـ ١٨ الى ٢٤ سنة .

وانتشر التأكيد في اميركا وفي كل مكان في بلدان منظمة حلف الاطلسي ، ان الروس كانوا يعنون ما يقولون مرارا ، وانهم كانوا يعرفون ما يصنعون أيضا . وعلى الرغم من الجهود المضنية التي أبداها أولئك الذين رفضوا الاعتراف بذلك التهديد ، او قالوا انه اذا كان هناك تهديد فذلك لا يهم ، او ادعوا انهم يرحبون بالعيش في ظل دكتاتورية ماركسية (سواء أصدقهم أم لم يصدقهم احد) . على الرغم من كل ذلك ، ازداد الشعور في الولايات المتحدة الاميركية ، بأنه قد يأتي الوقت الذي يجب أن يتخذ فيه قرارات حيوية حقيقية، وان من الحماقة ان تتنازل الامة الاميركية سلفا عن قوة الخيار فيها .

والواقع ان الدبلوماسية الدولية السوفييتية العنيدة التي لاتعرف المهادنة كانت عونا لاولئك الموجودين في الغرب والذين سعوا للتعريف بالخطر . لقد ادخل نظام سوق القوات العاملة عام ١٩٨٢ ، وبحلول عام ١٩٨٥ كان الاحتياط قد تخطى مستوى الازمة ، ولم يعد الجيش الاميركي في اوروبا ، في حال قيام اشتباك بينه وبين قوات حلف وارسو معرضا لمواجهة كارثة لايمكن تجنبها بسبب نقص القوة البشرية المدربة .

أما الآن فيجب الاهتمام بموقف فرنسا ، الشديد الاهمية بالنسبة لمصير الحلف ، ففي تاريخ الاتحاد السوفييتي الطويل ، الحافل بالخرق وخطأ الحسابات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، لم يثبت شيء ، في هذا السجل من الحماقة السياسية ، فقد فشلت المحاولة التي قام بها الاتحادالسوفييتي ، لاقناع فرنسا بالتخلي عن التزاماتها تجاه معاهدة حلف الاطلسي . ومنها أيضا الانتخابات الحرة التي سمح بها في النمسا عام ١٩٤٦ ، وكذلك اعادة تسليح جمهورية المانيا الاتحادية بسرعة من قبل حلفاء الاتحاد السوفييتي (منذ عهد قريب) ردا على التهديدات السوفييتية ، وابعاد الماركسيين الارثوذكس خارج الاتحاد السوفييتي واستبعاد الصين . او التدخل غير المجدي في الشرق الاوسط . هذا وقد وضع الجيش الثاني الفرنسي المتمركز في جمهورية المانيا الاتحادية ، الذي يضم فرقتين معززتين بوحدات دعم تحت تصرف القائد العام للقوات القوات الحليفة في وسط اوروبا « Afcent » في منتصف ليل (٣ ــ ٤) آب ، ومن المقرر ان يلحق بالجيش الثاني خلال ايام ثلاث فرق آلية من الجيش الفرنسي الاول . واعتبارا من ٤ آب تلقت القوات الجوية التكتيكية الفرنسية أمرا بتقديم الدعم للقوات الفرنسية وفاقا لما يقرره القائد العام للقوات الحليفة في اوروبا « Saceur » : كما وضعت في الوقت نفسه الموانىء الفرنسية والمواصلات والمنشآت العسكرية ، وفوق ذلك ، المطارات والفضاء الفرنسي تحت تصرف الحلفاء .

ولو بقيت فرنسا في منظمة حلف الاطلسي ، او لو أنها عادت اليه في وقت مبكر ، فان وجود مجموعة جيوش فرنسية في جنوب جمهورية المانيا الاتحادية، داخلة في القوات الحليفة في وسط اوروبا من شأنه ان يقوي المنطقة الوسطى ويؤخر فعلا « في غياب مبارزة بالاسلحة النووية » هجوما تقوم به قوات منظمة حلف وارسو . ولعل التفكير في هذه المسألة متأخر بعض الشيء ، على ان ماكان يبعث على الرضى ، وعلى الامل ، هو التعاون غير الرسمي الذي اتسمت بـه العلاقات بين أركان القوات الفرنسية في جمهورية المانيا الاتحادية ، وبين مجموعة جيوش الوسط .

لكن قيام الحرب في اوروبا ، خلق لتركيا بشكل خاص مشكلة حادة . فقد كانت في دور النقاهة (تتعافى) من ظلام اقتصادي عميق . وكانت قواتها المسلحة ضعيفة بسبب حظر تزويدها بالاسلحة والاعتدة الاميركية . فقد فرض هذا الحظر من قبل الكونغرس خلافا لرغبة الادارة الاميركية ، بمناسبة التدخل التركي في قبرص عام ١٩٧٤ . وقـد حصل تخفيف جزئي لهـذا الحظـر في اواخر السبعينات ، ولم يستأنف الامداد الكامل الا قبل ثلاث سنوات من الانفجـار الحالي . لقد اوضحت تركيا للولايات المتحدة الاميركية والى الحلفاء الآخرين ، ان القيام بمسؤولياتها تجاه الحلف يجب ان يتناسب وقدراتها المخفضة . لقد تحدثت كثيرا عن صمود الرجل التركي ، وعن الخوف التاريخي من العـدوان الروسي ، ولذلك فانها لم تذهب بعيدا في رد فعل على الاستياء الذي ابـداه الكونغرس ، ومن جهة ثانية أخذت العلاقات مع اليونان تتحسن بعدالهبوط الى الحضيض أيام وقوع الازمة القبرصية والجدل حول الحقوق البحرية في بحر ايجه . وكان الفضل في استئناف توريدات الاعتدة ، يعود للتقدم الذي تم على صعيد وقف الشجار بين البلدين ، مما حدا بالكونغرس الاميركي الى تخويـل الادارة الاميركية بهذا الاستئناف . لكن مـدة ثلاث سنوات كـانت قصيرة ، ولا تكفي لتعويض النقص او لتحقيق التآلف على الانواع الجديدة من الاسلحة ، والمعدات التي اصبحت متوفرة الآن .

وقد ساعد الحظر السوفييتي المتزايد عام ١٩٨٤ من الشمال ، والنفوذ

السوفييتي في مصر من الجنوب ، على توطيد العلاقات الحسنة التركية ــ اليونانية ، وبذلك أصبح الطريق ممهدا امام اليونان ، لاستئناف مشاركتها الفعالة في التخطيط والتعاون مع حلف الاطلسي ، الامر الذي كان متوقعا بعد حل المسألة القبرصية .

لم تكن الظروف التي ادت الى وقوع الانفجار الحقيقي في اوروبا مواتية بالنسبة لليونان وتركيا بشكل خاص ، فقد ادى تحرك مصر في الجزيرة العربية، الى قطع امداداتهما من النفط ، والى تأكيد التواجد السوفييتي في سورية والعراق ، وهما البلدان المجاوران لتركيا من الجنوب والشرق ، فيما أسفر انفجار الاعمال العدائية في يوغوسلافيا ، عن زيادة في الحشود السوفييتية في البلقان ، وعزز دور بلغاريا كنقطة انطلاق لهجوم نحو المضائق أو نحو بحر ايجه.

مع ذلك واجهت السياسة السوفييتية ايضا مأزقا حرجا ، فلم تكن الارض الوعرة في هضبة الاناضول ذات فائدة كبيرة لهم ، لكن المرور عبر البوسفور والدردنيل ربما كان حاسما لنجاحهم في طرد اميركا من شرق البحر المتوسط ، ومن الممكن حشد قوات كافية في بلغاريا لدحر الجيش التركي الاول من « أدرنه » وفتح الطريق لاحتلال « غاليبولي » والطريق المؤدية الى البوسفور، حتى لو كانت اسطنبول التي يبلغ عدد سكانها أربعة ملايين نسمة لقمة غير سهلة الهضم . لكن تحركات من هذا النوع ، حتى لو رافقها انزال قوات محمولة جوا ، ستظل تسمح بوقت كبير من أجل سد المضائق بالالغام، وبتدمير السفن وتكتيلها بحيث تحتاج ازالتها الى عدة اسابيع ، حتى ولو كان شاطئا المرين المائيين تحت سيطرة السوفييت . ولما كان المخططون السوفييت يريدون ان تكون كذلك هذه الفترة ، هي الفترة التي ستجري خلالها العملية الاوروبية ، فقد ادركوا كذلك عدم جدوى هجوم مسلح على المضائق .

ولا ريب ان المخططين السوفييت يدركون بالضرورة ان اتفاقية « مونرو» التي نظمت منذ عام ١٩٣٧ حق المرور عبر المضائق التركية ، تنكر تماما هذا الحق على السفن الحربية العائدة للاطراف المتحاربة . فبعد بدء العمليات في

اوروبا ، لايسعهم الادعاء بأنهم ليسوا في عداد هذه الفئة (المتحاربة) حتى ولو لم تعلن الحرب رسميا . بعض هؤلاء كان يفترض ان الاتراك ، اذا ما ووجهوا بأخطار القوة الهائلة ، لن يكون امامهم من خيار ، سوى الرضوخ والخروج على بنود اتفاقية «مونرو» بالسماح للسفن الحربية السوفييتية بالعبور باستمرار. أما بعضهم الآخر الذي كان يعرف تركيا جيدا ، فكان يقول انه لا يمكن الاعتماد على ذلك . وان تركيا قادرة تماما على الوفاء بالتزاماتها ، حتى ولو كلفها ذلك الكثير . وكان هذا الرأي هو الذي تغلب في النهاية . وتساءل بعضهم أيضا ، عن الفائدة من وجود قوات الاتحاد السوفييتي في اسطنبول ، في الوقت الذي يكون فيه مضيق البوسفور مغلقا . يضاف الى ذلك وبمعزل عن رد الاتراك ، ان الطيران الاميركي المنطلق من غرب المتوسط ، لا يجد صعوبة في جعل مرور السفن الحربية السوفييتية من المضائق خطرا جدا .

ولهذا وافقت القيادة السوفييتية اخيرا على ان الطريق الاسلم هو اخراج سفنهم من البحر الاسود الى المتوسط أولا . حتى اذا ما وصلوا الى المتوسط ، توفرت لهم تسهيلات في ميناء الاسكندرية مرة أخرى بعد تحول المصريين عن مبدئهم الحيادي . وهم يأملون ايضا في استعمال مالطا ، والاستيلاء على مرفأ من خلال عملية يوغوسلافيا . وقد تسنح الفرصة لتسوية حساباتهم القديمة مع البانيا ، فيحتلون من جديد قاعدة الغواصات في « فالونا » التي طردوا منها شر طردة عندما انضمت البانيا الى الصين عام ١٩٦١ . وهكذا لا تصبح السفن مضطرة للعودة الى موانيء البحر الاسود كما كانت من قبل للتزود بالتموين والقيام باصلاحات فنية عند الضرورة . أما السفن التجارية القادمة من البحر الاسود ، فيمكنها ان تسد ثغرات التموين . لا سيما وان مرورها عبر المضائق قد لايعرضها الى مخاطر رد فعل تركي . ولذلك عبرت المضائق من البحر الاسود الى البحر الابيض المتوسط خلال ربيع عام ١٩٨٥ كمية غير عادية من الحمولة البحرية السوفييتية للمناورات ، والتجارب ، والنقل الى محطات اخرى .

وبنشوب الاعمال العدائية في اوروبا ، كانت جميع الوحدات التي تحتاجها العمليات البحرية في المتوسط قد بلغته عبر المضائق . بالطبع كانت هناك مخاطر لتفسير هذه التحركات بأنها تعني وجود نوايا سوفييتية للتحضير لحرب اوروبية هدفها تنشيط الاحتياطات في الغرب ، واذا ارسل الروس جميع السفن تقريبا الى الاسكندرية اولا فهذا يعني انما كانوا يناضلون من اجل خلق الانطباع بأنهم لايزالون معنيين بالدرجة الاولى ، بالشرق الاوسط والمحيط الهندي .

وعندما بدأت اخيرا الاعمال العدائية ، ونجح الروس في اختراق ايطاليا ، نجم عن ذلك نقل ما امكن من تشكيلات (قوى) القوات الحليفة في جنوب اوروبا الى اسبانيا ، وكذلك قيادتها الامر الذي ألغى بشدة امكانية اشتراك تركيا واليونان . ولم يبق متيسرا سوى الدعم الجوي الاميركي من مسافة بعيدة اضافة الى مساعدة الاسطول السادس .

لم تكن هذه هي المرة الاولى خلال تاريخ تركيا التي تترك فيها وشأنها ، تواجه وحدها تقريبا جارتها الكبرى في الشمال . وكما حدث من قبل في الماضي، أوضحت تركيا بجلاء انها في الوقت الذي لاتضمر فيه نوايا عدوانية ضد احد ، لن تفرط بأرض تركية او بحقوق تركية ، وانها ستقاوم وستضحي من أجل ذلك عند الاقتضاء . وتناسى الخصمان عداوتهما المحلية ، في وجه خطر اكبر يهددهما والتقت القوات التركية واليونانية في « تراقيا » لمواجهة بلغاريا ، فيما قامت بقية القوات اليونانية بحماية حدودها الشمالية ضد أي غزو ممكن من يوغوسلافيا او البانيا .

كان خطر الهجوم من جانب حلفاء وارسو خطرا حقيقيا جدا ، واثار مخاوف شديدة . واخيرا لم يجد الروس فائدة في تحويل قوات لهذا الغرض ، معتقدين ، ولا ريب انه اذا سارت الامور وفق ما هو مخطط لها في الوسط وفي الغرب من أوروبا ، فان بوسعهم اكمال سيطرتهم وسيادتهم على البلقان ، وعلى تركيا فيمابعد فيوقت أقل انهماكا. هذا وقد تم اصلاح نقاط الضعفالسياسية والعسكرية في الجناح الجنوبي الغربي لحلف الاطلسي في الوقت المناسب ، لتمكين

هذا الجناح من الصمود حتى في حالة عزلته . لقد كان عملا طائشا من جانب جميع المعنيين ، ارجاء الاجراءات العلاجية الى هذا الوقت المتأخر .

ولما كانت القضية الاساسية هي الابقاء على جمهورية المانيا الاتحادية في الدرجة الاولى ، ولما كانت المعركة البرية الكبرى الاولى ستقع على أرض المانيا، لذلك فمن المهم القاء نظرة اخرى على القوات البرية لجمهورية المانيا الاتحادية.

تضم الجيوش الالمانية الثلاثة « ستة عشر لواء مدرعا » كل منها يضم ثلاث كتائب دبابات ، وكتيبة مشاة مدرعة وكتيبة مدفعية مدرعة ، وخمسة عشر لواء مشاة مدرع يضم كل منها فوجين من الدبابات وفوجين مشاة مدرعة وفوج مشاة من نوع « زاجر » وفوج مدفعية مدرعة والوحدات مشكلة على غرار الطراز الاميركي ، الى جانب لواءين جبليين ، وثلاثة الوية محمولة جوا ، وكانت جميعها بحالة جيدة من حيث النظام والانضباط والعتاد . تبلغ نسبة المجندين في الجيش الالماني الذي يعد حوالي ثلاثمائة وخمسين الفا ، النصف تقريبا .

وفي جيش كهذا ، لايتوقع ان يكون مستوى التدريب عاليا ، بنفس القدر الذي يكون عليه في جيش نظامي من المتطوعين كالجيش في المملكة المتحدة . أما الوحدات والتشكيلات ، فكانت على درجة من القوة أفضل منها لدى البريطانيين. وفي الجيش الالماني لم يجر الكثير من عمليات اعادة التنظيم لصالح الاقتصاد بينما في المملكة المتحدة تقدم هذه الاجراءات ، من الناحية السياسية ، على انها تحسينات في الفعالية العسكرية والجاهزية ، بل كان هناك مزيد من التدابير التي اتخذتها الحكومة الالمانية الاتحادية نحو تحسين التموين وكذلك تحسين العتاد في جمهورية المانيا « Bund Eswehr »وصيانته ، وهكذا لم يعان جيش الاتحاد الاتحادية من السياسيين في بلاده بقدر ما عانى شقيقه في السلاح في المملكة المتحدة ، حيث التعصب والكلبية(١) قد داستا لوقت طويل على الروح الطيبة والاخلاص اللتين كانت القوات المسلحة في البلاد تتحلى بهما ولم تقدم الحكومات المتعاقبة في احضان الحزبين الرئيسيين في هذا المجال ما تستحق عليه الثناء .

---

(١) الكلبية : نسبة الى « Cynicism » ، وهو مذهب الكلبيين الذي يشك في طبيعة الدوافع البشرية . (المترجم)

اما الاصلاحان الرئيسيان اللذان تم ادخالهما في جيش جمهورية المانيا الاتحادية خلال السنوات الخمس السابقة لنشوب الحرب . فأحدهما بنيوي والآخر عملياتي .

ويتعلق أولهما بالاحتياط ، فقد احدثت في البلاد ثلاث قيادات اقليمية « Terrotorial » يتألف كل منها من خمس مناطق عسكرية « Region » . وتشكل في هذه القيادات ستة الوية دفاع عن الوطن ، يبلغ عدد عناصر المقاتلين في قوة الاحتياط زمن السلم ثلاثة وستين الف رجل (بما في ذلك ثلاثين الف مجند لايزالون يؤدون خدمة الاحتياط) بينما تبلغ قوة الاحتياط عند تعبئتها تعبئة كاملة في الجيش الاقليمي ، نصف مليون رجل . ولم تكن الحكومةالاتحادية في البداية تميل الى وضع هذه الموارد تحت قيادة حلف الاطلسي . فقد كانت هذه (الموارد) كل ما يمكن لحكومة جمهورية المانيا الاتحادية ان توفره لقواتها المسلحة كدولة ذات سيادة ، ويجب ان تبقى تحت تصرفها وحدها . غير ان وجهة النظر القائلة بضرورة عدم تقسيم القيادة خلال الحرب تغلبت على الفكرة الاولى ، واظهرت الاحداث الحكمة التي انطوى عليها وضع قوات الاحتياط هذه عند التعبئة ، تحت امرة القيادة العليا لقوات الحلفاء في اوروبا .

اما الاصلاح الثاني ، فكان يعكس تحولا في النظرة الى افضل الطرق للدفاع عن أرض جمهورية المانيا الاتحادية . « فالدفاع الامامي » على الحدود ، لم يكن يعني ، من الناحية العسكرية ، أي شيء أكثر من دفاع امام الحدود ، « وهي نقطة لم يتوان المخططون في حلف وارسو عن التقاطها » أما البديل الاوضح فهو الدفاع في العمق الذي يعني مقايضة مؤقتة بالارض مقابل تأمين الوقت الكافي للقيام بهجوم معاكس . هذا مع أن الفكرة كانت تدل على تفكير بالدفاع الشامل عن وحدة اراضي جمهورية المانيا الاتحادية .

الا ان التطور السريع في تكنولوجيا القذائف المضادة للدبابات ، وزيادة الرقعة الحضرية في معظم ارجاء جمهورية المانيا الاتحادية ، وزيادة حجم القوات الاحتياطية التي تم تدريبها على الاسلحة المضادة للدرع والتي ادخلت ضمن

القوات المكلفة بحماية الحدود ، كل هذه العوامل قد اقتضت وجوب اتخاذ منحى جديدا .

وحوالي نهاية السبعينات ، تبلور في جمهورية المانيا الاتحادية مفهوم دفاعي ضد هجوم يأتي من الشرق ، هذا المفهوم يعتمد على ثلاثة أنواع من الدفاع :

١ ــ دفاع حدودي مؤلف بكامله تقريبا من وحدات المناوشة وقنص الدبابات . « Jaco Commandos) .

٢ ــ الدفاع بالقوات بالاتساع والعمق لمنع الاختراق .

٣ ــ الدفاع عن منطقة يطلق عليه « الدفاع عن ارض الوطن » ويعتمد على القوات الاقليمية المتمركزة على الخط الثالث في عمق البلاد .

اما قوات التغطية التابعة للقوات الحليفة في وسط اوروبا فيتوقع ان تخوض قتالا تأخيريا في معركة امامية . وفي اواخر السبعينات ، بلغت نسبة القوات الامامية المكلفة بخوض معركة قوات التغطية الى مجموع التشكيل من ٣٠ ــ ٥٠٪ وذلك على طول الجبهة في المنطقة الوسطى . لكن التكتيك الجديد في مجموعة جيوش الشمال ، الذي يتناسب مع أرض المعركة ، سمح بتخفيض هذه النسبة الى حد ما من القوات الامامية . ولم يأخذ مفهوم قوات التغطية مداه في مجموعة جيوش وسط اوروبا بسبب قلة العمق الذي فرض عدم التفريط في الارض الا في الحدود الدنيا .

وفي مجموعة جيوش الشمال كانت التجارب البريطانية تسير على خطوط مشابهة لخطوط المفهوم الجديد الذي يجري بحثه حاليا في جمهورية المانيا الاتحادية ، حيث تعتمد الدفاعات الخفيفة المضادة للدبابات باستغلال امكانية وضع الاسلحة الموجهة المضادة للدبابات على الحد الامامي البعيد . وقد بدا التفكير في نظام الدفاع الحدودي (مع وجود قوات مضادة للخرق متمركزة في العمق) من قبل الكثير من البريطانيين وبعض الضباط الالمان ، كبديل ممكن ، او كتعديل ، لمبدأ « الدفاع الامامي » الذي ظل سائدا الى الآن ، ولا زالت الفكرة قيد التجربة ولكنها تجربة تبشر بالخير كما اثبتتها التمرينات المستمرة طيلة السنوات الماضية .

ومن بين الاجراءات الهامة المتقدمة التي اتخذت على صعيد الاستعدادات للدفاع عن جمهورية المانيا الاتحادية كان ، بلا جدال ، تنظيم الدفاع عن البلاد والدفاع المدني « بما في ذلك حماية النقاط المعرضة للخطر والاهتمام بمسألة اللاجئين » وكذلك الاستخدام الجديد للاحتياط .

ومن بين القوات الحليفة المنتشرة في المنطقة الوسطى منذ الرابع من آب ١٩٨٥ بالاضافة الى أهم عناصرها وهو القوات التابعة للولايات المتحدة الاميركية في أوروبا الفيلق البلجيكي الاول ، والفيلق الهولندي الاول في مجموعة جيوش الشمال . وكانت هذه القوات جميعها في أوج قوتها « على الرغم » من ان تدريب الاحتياطيين لم يبعث كثيرا على الطمأنينة » ويتمركز معظمها في المقدمة . وبمرور السنين ، ازداد الضغط من أجل زيادة الخدمة الطويلة لهذه التشكيلات ، بحيث يقل الاعتماد على الاحتياط ، ومن اجل نشر نسبة كبيرة منها داخل جمهورية المانيا الاتحادية قريبا من المواضع القتالية « ونسبة قليلة في اوطانها المجاورة لجمهورية المانيا الاتحادية » ، ولقي هذا الضغط نجاحا لا بأس به . ولم يكن الفيلقان ، البلجيكي والهولندي ، أقوى الحلقات في سلسلة حلف الاطلسي .

أما الفيلق البريطاني الثاني غير المكتمل « المؤلف جزئيا من وحدات احتياط مزودة بعناصر نظامية سابقة ، ومن وحدات نظامية » فكان مقررا ان يقوم هذا العام ولاول مرة بتمرين التشكيل الكامل بجنود من جيش الراين البريطاني .

كان الفيلق يتجمع في شمال غرب جمهورية المانيا الاتحادية . أما معداته التي كانت مخزونة مسبقا ولم تكن في الوقت نفسه تصل الى المستوى المطلوب « كما لم تكن من احدث الانواع بالنسبة لوحدات الاحتياط » فقد سحبت من قبل . واما عناصره فقد كانت ذات مستوى عال من التجربة محصنة بنخبة من الوحدات النظامية وتعيينات من الفيلق البريطاني الاول . وكانت الروح المعنوية لدى جنود الاحتياط عالية ، أما مجموعة الالوية الكندية القوية جدا ، الموجودة في مؤخرة منطقة مجموعة جيوش الوسط فقد وضعت في احتياط هذه المجموعة .

* * *

الفصل الخامس عشر

العَاصِفَة تنفَجرُ على الجَبهَة الوسطى

بدأت الاعمال العدوانية الفعلية في الفضاء قبيل الساعة الرابعة ٠٠ر٤ . حسب توقيت وسط أوروبا ، من يوم الاحدالواقع في الرابع من آب ١٩٨٥ ، بهجمات واسعة ومحضرة جيدا على مراكز المواصلات وأقمار الرصد الاميركية. لقد كان معروفا ان قدرة التدخل السوفييتية تطورت كثيرا منذ ان استأنف السوفييت برنامجا بهذا الصدد ، كان قد توقف بعض الوقت عام ١٩٧١ . كان لوقع العملية بشرى غير سارة ، وتولت محطات التقوية المحمولة جوا التابعة للقوات الجوية الاميركية جزءا من عبء الاتصالات ، ولو بفاعلية متدنية نسبيا : كان لازالة مساحات واسعة من المجال الذي تغطيه أقمار الرصد أثر موجع أكثر مما خلفه نقص كفاءة وجودة الاتصالات . فهذه الاخيرة يمكن استبدالها بوسائط أخرى بعد انذار سريع ، كما يمكن اعادة المراقبة بالاقمار الصناعية في الوقت المناسب ، لكن هذا سيأخذ وقتا أطول .

وبعد دقائق ، او حوالي الساعة الرابعة ٠٠ر٤ . كانت الهجمات بالطائرات والصواريخ ، تنذر ببدء هجوم حلف وارسو على المنطقة الوسطى من حلف الاطلسي . كانت الطائرات تستعمل الذخائر الشديدة الانفجار كما تستعمل المواد الكيميائية وتصبها على المطارات ومراكز القيادة والسيطرة ومستودعات التموين ومواقع صواريخ «هوك» و « نايك » الدفاعية . وفي الوقت نفسه تحركت مجموعات تتراوح كل واحدة ما بين ٣٠٠ ـ ٤٠٠ عنصر تهاجم مراكز المواصلات المدنية والعسكرية والمكاتب الحكومية والدوائر الرسمية ومراكز

اطفاء الحريق ومراكز البريد والشرطة ومحطات القطارات ، ومحطات توليد الكهرباء ، والجسور الرئيسية على طرق المواصلات البرية والسكك الحديدية . وتعرضت في الوقت ذاته تقريبا مواقع الوحدات الامامية لحلف الاطلسي ، لهجمات الطائرات والمدفعية الثقيلة ، على طول الحد الامامي لميدان المعركة في المنطقة الوسطى .

لم تكن المفاجأة كاملة في كل مكان فقد كانت وحدات منظمة حلف الاطلسي (ناتو) في المواقع الامامية مستنفرة ومستعدة مسبقا ، ولقد كان لافتراض عدم وقوع هجوم سريع أثره في تخفيف فعالية الاجراءات الوقائية والدفاعية في المناطق الخلفية . ولم تكن حينئذ الضربات التي قامت بها مجموعات التخريب تلك الضربات المحضرة جيدا لذا لم تحرز نجاحات ملحوظة ، وقد تبين للمخططين في الكرملين ان من غير الممكن ان يقوموا بعمليات هجومية على نقاط عديدة في وقت واحد مع تحقيق المفاجأة التامة ، ولهذا فقد سعوا وراء تخطيط خادع خاصة فيما يتصل بالتوقيت . حتى هذا لم يثبت جدواه . فقد أدى اكتشاف عدد من هجمات المجموعات التخريبية قبل وقوعها بقليل ، بالاضافة الى توفر دلائل للاعمال الوشيكة الوقوع ، الى استنفار عام بين قوات الشرطة الاتحادية وقوات الاحتياط الاقليمية بعد انذار قصير . لقد كان هناك دمار خطير ، لكن الاشتباكات الاولى المسلحة بين قوات منظمة حلف وارسو والدفاعات الاقليمية لجمهورية المانيا الاتحادية ، أسفرت عن فشلها بنسبة ٧٥٪ على الاقل، ونوعا ما عن ارتفاع في معنويات المدنيين ((**اما الهجوم على مقر القيادة العامة « H. Q. » لمجموعة جيوش الشمال . فقد اسفر على الرغم من الخرق الاولي الذي وقع في بناء مقر القيادة ووقوع بعض الجرحى عن فشل ذريع كغيره من الهجمات**)) .

ومع ان القوات الحليفة في كل مكان كانت منتشرة ومتباعدة قدر الامكان

في وضع وقائي ضد الضربات الذرية ، الا انه لم يبلغ عن أي هجوم نووي في أي مكان . أما قوات حلف وارسو ،فكانت من جهة أخرى واثقة من أن قوات حلف الاطلسي الدفاعية لايحتمل ان تلجأ للاسلحة النووية في هذه المرحلة . ولهـذا قامت بنشاطها الهجومي على درجة من الانتشار في مواجهة هجمات جويـة تقليدية ، وهو انتشار اقل بكثير من الانتشـار في مواجهة الهجوم بالاسلحـة النوويـة .

لقد استعملت الاسلحة الكيمائية في الهجوم منذ البداية في بعض القطاعات على الجبهة ، ولكنها لم تستعمل ضد الفرقتين الاميركيتين ، وذلك ربمـا لان الجيش الاميركي في اوروبا يمتلك اسلحة كيميائية هجومية فعالة خاصة به ، لقد كانت السياسة الاميركية الثابتة حيال هذه المسألة تقوم على أساس الرد بنفس النوع اذا ما هوجمت بالمواد الكيمائية ، ولا مجال لاستعمالها في غير هذه الحالة . ويبدو ان القادة السوفييت ، قد اخذوا علما بهذا التهديد الخطير ، فلم يعمدوا الى استعمال الاسلحة الكيميائية ضد أي تشكيل في قوات مجموعة جيوش الوسط .

أما في قطاع مجموعة جيوش الشمال فلم تكـن القوات الوطنيـة تمتلك أسلحة كيميائية هجومية ، ولقد استمر هذا الوضع خلال الثمانينات على الرغم من ان امتلاك هذه القوات الوطنية للقدرة على الرد على الهجمات الكيميائيـة السوفييتية قد يكون الوسيلة الرادعة والرئيسية لثني الاتحاد السوفييتي عن استعمالها ، علما ان اقدامه على استعمالها سيضيف الى تفوق حلف وارسو غير النووي تفوقا جديدا لذا بدأ العدو في استخدام الاسلحة الكيميائية على نطـاق واسع لدعم هجماته ضد مجموعة جيوش الشمال بواسطة استخدام مقذوفات صاروخية من طراز « بم — ٢١ » ، وتستعمل هذه المقذوفات على مستـوى الفوج بمعدل ثماني عشرة لكل منها ، بحيث يسقط في الكيلو متر المربع الواحد ٧٢٠ صاروخـا اذا ما أطلقت مجتمعـة خـلال خمـس عشـرة ثانيـة . كما كـان الطقس الدافىء نموذجيا لاستعمال المواد الكيميائية غير دائمة الامر

مثــل « H.C.N » ولهذه المادة خطورة محدودة ضمن وقت معين لا يتعدى بضع دقائق بدرجة عشرة مئوية ١٠° في جو تكون فيه الريح معتدلــة مع مطر ، او بخمس عشرة درجة مئوية ١٥° في حالات الشمس مع نسمات خفيفة. ويمكن لهذه الغارات ان تميت الجنود الذين لا يرتدون اقنعتهم الواقية في المنطقــة الموبوءة بعد دقائق من استنشاق بخارها . ويتبخر هذا النوع من المواد بسرعة تسمح للجنود السوفييت المهاجمين بالدخول الى المنطقة الملوثة بأقل ما يمكن من الاحتياطات . من جهة اخرى كان عدد الضحايا كبيرا بين قوات الحلفاء في المناطق الامامية عندما بدأ الهجوم .

وفي الوقت نفسه تعرضت معظم المطارات الى الهجوم بالمواد الكيميائيــة « من مادة الخردل عادة او الغازات الشالة الاعصاب من طراز G او V » عن طريق قصفها بالصواريخ ، اذ يستطيع الصاروخ الواحد منها ان ينشر في منطقة الهدف مادة كيميائية دائمة بوسعها ان تشل المطارات ومنشآتها . وقد أجبرت الطواقم الارضية على ارتداء الملابس والاقنعة الواقية خلال قيامها بأعمال الصيانة وتزويد الطائرات بالوقود والذخيرة . الا ان هذه المواد ، شلت قدرة الطواقم على العمل وأدت بالتالي الى زيادة قيام الطائرات بالدوران حول منطقة المطارات عدة مرات ، مما ادى الى ازدحام بالجو وبالتالي الى الفوضى المؤذية في كثير من الحالات .

أما مستودعات التموين والمهمات ونقاط المواصلات التي كانت تديرهــا اعداد كبيرة من المدنيين بدون معدات وقاية ، فقد لقيت نفس الحالة ، وقــد تعذر ازالة التأثير الدائم لهذه المواد الكيميائية في الوقت الذي كانت الهجمات بالصواريخ تزيد في تلويث المنطقة تلوثا مميتا . تسببت هذه الهجمات علــى المطارات والمستودعات في اطالة امد تعطيلها اكثر بكثــير من استمرار القصف باستخدام القنابل المتفجرة .

وكان بوسع كمية صغيرة جدا من مادة سامة جــدا كمادة « H.C.N » سواء أكان وصولها عن طريق التنفيس او عن طريق الجلد ، ان تسبب الموت

خلال دقائق قليلة اذا لم تجر الاسعافات الطبية بسرعة . وترتب على الخدمات الطبية التي كانت مثقلة بجرحى ميدان المعركة ان تقوم أيضا بمعالجة الاصابات الناتجة عن الاسلحة الكيميائية .

وقد استخدمت أجهزة الانذار المستمر ، وارتداء الاجهزة والمعدات الواقية الفردية المناسبة في الفيلق البريطاني الاول ، منذ منتصف السبعينات . ثم وضعت هذه الاجهزة والمعدات فيما بعد في الاستعمال في بقية القوات المسلحة في الدول الاعضاء في حلف الاطلسي ، وقد برهنت هذه الاجراءات عن مدى فائدتها في الوقت المناسب . وبدونها كان يمكن أن تنجم اصابات خطيرة وعديدة عن الاسلحة الكيميائية الموجهة ضد جنود الوحدات الامامية ، ليس فقط بقاذفات الصواريخ وصواريخ من طراز « فروغ » ولكن أيضا باستخدام المدفعية التقليدية ، وباستخدام خزانات الرش المثبتة على طائرات قتال الدعم الارضي أيضا .

وقد سبق هجوم حلف وارسو ، استخدام واسع لاجراءات الكترونية معاكسة ، مما أدى الى تشويش على الرادارات الارضية بدءا من الشرق ، لكن هذا الجهد كان غير فعال منذ البداية ، ثم اثبت فيما بعد انه ادنى مستوى من الاجهزة الالكترونية الحربية المتوفرة لدى الغرب .

وبعد اقل من ساعة من بدء العمليات الاولية الممهدة للهجوم البري ، اندفعت اربعة ارتال مدرعة قوية ، كل منها على جبهة فرقة ، تتقدمها وحدة من مختلف الصنوف بقوام فوج معزز من خلال ثغرات محضرة بسرعة في دفاعات حدود جمهورية المانيا الاتحادية . كان شكل الهجوم غير متوقع ابدا ، اذ كانت تسبقه وحدات خفيفة تعمل بعيدا في العمق بقدر ما كانت تسمح الارض . تليها الموجة الاولى من قوة الهجوم الرئيسي على كل محور هجوم ، وهي مؤلفة من أفواج دبابات من طراز « ت ــ ٧٢ » من الفرق المدرعة العاملة على نطاق جبهة يتراوح اتساعها مابين كيلو مترين وثمانية كيلومترات حسب طبيعة الارض . وكانت تتبع افواج الدبابات المتقدمة عن كثب ، سرايا مشاة آلية محمولة على عربات قتال مدرعة من طراز « BMP » ، وعلى مسافة لاتزيد احيانا عن مائة

متر ، مهمتها الرئيسية ابطال تدمير الدفاعات المضادة للدبابات . وتتبع فرق الدبابات فرق المشاة الآلية ، وتتألف كل منها من فوج «Regiment» مدرع واحد وثلاثة أفواج مشاة آلية مستعدة لاستثمار الثغرة التي لابد ان تكون قوات الدروع المقتحمة في الامام قد احدثتها ، كما كانت هذه الوحدات تخرج عن محور هجومها لتقاتل في معارك جانبية ، هدفها كنس وتمشيط المقاومات من طريق تقدم ارتال الفرق المدرعة ، وفرق المشاة الآلية في النسق الثاني من الهجوم للحفاظ على زخم التقدم .

وهكذا بدا الهجوم العام في اوروبا ، وفقا للخطة « التي تم الحصول عليها والتي تم ذكر خطوطها الرئيسية في الفصل العاشر » . ومع ان تفصيلات هذه الخطة لم تعرف ، بالطبع ، من قبل الحلفاء الا بعد الحرب ، الا ان نمط الهجوم لم يحدث مفاجأة كبيرة . فقد توقعت القيادة العليا للقوى الحليفة في اوروبا مثلا ، ان يتطور الضغط القوي على طول الجبهة ، بحيث تقوم حشود مركزة بعد ذلك مباشرة بعمليات اختراق في نقاط منتقاة مسبقا ، وعمليات اختبار واستطلاع بالنار ، لاكتشاف واستثمار فرص تعميق نقاط الخرق . وقد ادرك قادة الحلف الاطلسي ان التحقق والكشف عن اتجاه محاور الهجوم الرئيسية المبكر مسألة بالغة الاهمية ، فعلى سبيل المثال : أين سيتوجه جيش الصدمة الثالث؟ هل سيذهب باتجاه جنوب ـ غرب ، ليتبع خط الهجوم وراء جيش الحرس الثامن المتجه نحو فرانكفورت؟ وهو أمر سيحمل مجموعة جيوش الوسط أعباء كبيرة . أم يتجه غربا ضد مجموعة جيوش الشمال ؟ وقد يكون ذلك أشد خطرا . وكان فقدان الاستطلاع بواسطة الاقمار الاصطناعية يشكل ضربة قاسية، على الرغم من انه امكن تعويضها جزئيا بواسطة مصادر أخرى . وعموما يظل الاستطلاع في العمق في محيط معاد صعبا الى حد كبير بالنسبة للطائرات بدون طيارين . وهي التي تعتمد على حجمها الصغير وانعكاسات الرادار لتفادي دفاعات العدو . أما بالنسبة للطائرات التي يقودها طيارون ، والتي تعمل بمفردها بالقيام بمهمات في العمق دون ان يتوفر لها اسكات الدفاعات المعادية، أو ان يكون لديها اجهزة الكترونية مضادة ، فان مهامها تلك صعبة جدا بل

وخطرة جدا أيضا . لكن الاهمية الاستراتيجية لتحديد محاور تقدم العدو الرئيسية كانت كبيرة الى الحد الذي وجب معه القيام بالتجربة مرة ثانية وثالثة أيا كان الثمن الذي يدفع مقابل ذلك .

واستجابت القوات الجوية التكتيكية الحليفة ، والدفاعات الجوية التي كانت قد استنفرت في وقت سابق ، للدعوة لفتح هجوم فوري ، وركزت أعمالها في البداية ، على القيام بعمليات هجومية ، وعمليات معاكسة للهجمات السوفييتية من أجل الحد من النشاط الجوي السوفييتي ، ومن اجل تحقيق موقف جوي معتدل فوق وخلف مناطق القتال ضمن المجال الجوي للقوات الحليفة في وسط أوروبا . ويقدم الفصل العشرون عرضا مسهبا لافضليات الحملة الجوية خلال الساعات القليلة من بدء النزاع المسلح ، بناء على تقديرات قائد القوات الجوية الحليفة لوسط أوروبا .

. ويمكن اعطاء وصف للصورة التي بدأت تتضح في مقر قيادة القوات الحليفة لوسط اوروبا « H.Q. Afcent » عن مجريات الامور بعد ظهر الرابع من آب ، من خلال سيل المعلومات الواردة كما يلي :

في الطرف الشمالي من المنطقة الوسطى ، سقط مطار « بريمن » في أيدي السوفييت . ومن سخرية القدر ان هذا المطار كان قد وضع منذ عهد قريب تحت حماية لواء اميركي ، وقد تم الاستيلاء عليه ، خلال عملية ناجحة قام بها الطابور الخامس « على قلة العمليات الناجحة المماثلة » أعقبها انزال مشاة محمولة جوا . ويقوم السوفييت حاليا بانزال فرقة محمولة جوا ، تحت غطاء جوي كثيف ، عند رأس الجسر الجوي الذي تم احداثه ، واضطرت ثلاث فرق من جيش الحرس المدرع الثاني ، ان تبطىء في وصولها « ولكن لم تتوقف » بسبب مقاومة قوات التغطيةالاميركية التي احضرت لدعم الدفاعات الامامية الهولندية ، وشقت هذه الفرق طريقها بالقتال عبر منطقة دفاع الفيلق الهولندي الاول ، الى رأس الجسر الجوي في بريمن ، ثم توجهت احدى الفرق السوفييتية من جيش الحرس المدرع الثاني نحو الشمال باتجاه « كييل » تتبعها ، كمايبدو،

فرقتان بولونيتان ، احداهما مدرعة ، والاخرى مشاة آلية . اما الفرقة المدرعة السادسة المحمولة جوا ، فقد عرف انها متمركزة في الشمال مع قوات اختراق عميق خاصة من « نيوروبين » ووحدات المانية شرقية من مصالح الخدمات الخاصة ومن بعض الخبراء البحريين .

والى الجنوب من مدينة « هامبورغ » كانت قوة من الجيش الأحمر قد عبرت نهر « البا » وعزلتها عن المناطق الجنوبية المجاورة ، وربما اجتازتها مؤقتا . وقد حث مجلس المدينة الحلفاء، على اعلان مدينتهم «هامبورغ» مدينة مفتوحة ، الامر الذي يعني عدم السماح لاي قوات من أي انتماء بالدخول اليها. ونظرا لانه لايسمح لاي من الطرفين المتحاربين استعمالها ، فانه لايجوز لاي منهما مهاجمتها . وبضغط شديد من قبل جمهورية المانيا الاتحادية وافق مجلس حلف الاطلسي على ذلك ، اما موقف السوفييت فلم يعرف للان .

كانت حركة اللاجئين القادمين من مناطق شمال « نايدرساكن » غير المزدحمة بالسكان ، بازدياد ، وكان ذلك توقع غير سار ، كما أنه زاد في مشاكل الجنوب ، المزدحم بالسكان ، وحركة النزوح من مناطق الوسط .

أما في وسط منطقة مجموعة جيوش الشمال ، فقد زج برتل مدرع قوي من جيش الصدمة الثالث ، مع أربع فرق في أثره ، كانت تتحرك نحو الغرب باتجاه « هانوفر » ، ولوحظ تحرك جيش الحراسة العشرين وراءها على نفس المحور .

وعلى جبهة مجموعة جيوش الوسط الى الجنوب من مجموعة جيوش الشمال كان رتل دبابات من جيش الحرس الثامن بقوام فرقتين في الامام يتقدم نحو « فرانكفورت » التي تقع على بعد مائة كيلو متر من خط الحدود ، مع وجود أرض صلبة وصعبة في ريف « تورنجروالد » يجب اجتيازها في طريق التقدم . وقد عرف ان اربع فرق أخرى كانت تلحق بالفرقتين الاوليتين .

وفي الجنوب على جبهة مجموعة جيوش الوسط كـان رتل آخر بقوام فرقتين في الامام ، تتبعها اربع فرق من جيش الحرس المدرع الاول يتجـه نحو « نورمبرغ » .

أما الهجوم بالاسلحة الكيميائية الذي كان شديدا على مجموعة جيوش الشمال لم يستعمل ضد مجموعة جيوش الوسط وتأثيره كان متفاوتا : فالاميركيون الذين لم يواجهوا الهجوم ، كانوا ، شأنهم ، شأن البريطانيين ، مستعدين لـه استعدادا تاما من الناحية التقنية . اما الالمان والبريطانيون فقد صمدوا لـه أفضل من غيرهم ، بينما كان تأثيره على البلجيكيين متنوعا واما على الهولنديين فكان سيئا نوعا ما .

كانـت حصيلة الهجـوم الكيميائي ، وقـوع اصابات قليـلة حيث لم تكن شـديدة بعـد الهجمات الاوليـة ، بقـدر القيـود الصعبة التـي فرضتها التدابـير الاحتياطيـة الدفاعيـة عـلى حريـة الحركـة لـدى الافـراد وخاصـة بعد ارتـداء الاقنعة الواقيـة ، وأجهـزة التنفـس . كان مردود المشاة المقاتلة قد تدنى الى ٦٠٪ من قدرتهم بسبب الاحتيـاطات التامة ، فقد أعيقت حركتهم بسبب الاضطرار لتفادي المناطق الملوثة . كـان الإستطلاع الكيميائي يحتاج الى الوقت ، وكان على الوحدات مرارا ــ وبسبب عدم وجود هذا الاستطلاع ــ ان تحارب في مناطق ملوثة . وتعرضت مقرات القيادة لمشاكل مشابهة ، فقد كان على ضباط الاركان ، بسبب خطر الهجوم الكيميائي ان يعملوا وهم يرتدون الاقنعة الواقية بما في ذلك القفازات واقنعة الغاز وأجهزة التنفس مما ادى الى تدن ملحوظ في القيادة والمراقبة .

أثناء اليوم الذي قام فيه السوفييت بالهجوم الكبير ، استعمل الطـيران المقاتل التابـع لقـوات حلف وارسو قنابـل النابالـم ضـد الوحـدات الامامية الحليفـة ، ولكن لحسن الحظ ، كان الانتشار جيـدا ، وكانـت الاصابـات التـي وقعـت قليلـة ، وان كانـت نتائجهـا بشـعة ومخيفة . كما وقعـت هجمات عـلى الدبابات ، ونتج عـن ذلـك خسائر فيهـا ، كان قـادة الدبابات الحليفـة قـد تعلمـوا أن يتقدمـوا دباباتهم بخـط

مستقيم خلال أي هجوم بالنابالم ، وبصورة عامة تمكنت الدبابات التي استمرت بالتحرك وفق هذه الطريقة ان تنجو من الخطر ولعل أهم الاهداف التي وجهت اليها قنابل النابالم ، وكانت اشدها تأثرا بالاصابات هي العربات غير المدرعة ، التي لم ينج منها الا القليل . لقد تعرضت وسائط النقل غير المدرعة الى اصابات كثيرة في الايام الاولى للهجوم .

ومع انه لم يكن لدى التشكيلات الحليفة أي رد على هجمات النابالم ، سوى يقظتها وانتباهها للطيران المنخفض . الا ان تلك الهجمات ، أخذت تتناقص في عددها ، وشدتها . عندما تبين للروس ان الدمار الذي تحدثه تلك الهجمات ، وخاصة ضد الدبابات الحليفة ، لم يكن يوازي الاسعار العالية للطيران ، ومع انه استمرت الهجمات المتقطعة خلال الايام اللاحقة ، الا ان استعمال النابالم لم يعد يشكل بنظر الحلفاء خطرا رئيسيا .

وانتهى اليوم الاول للحرب دون استعمال الاسلحة النووية من قبل أي من الطرفين . وبالرغم من البلاغ السوفييتي ، شعر القائد الاعلى للحلفاء في وسط اوروبا انه مضطر بسبب غموض الموقف ان يحتفظ ببعض طائراته الضاربة ــ بصورة رئيسية طائرات « إف ــ ٣ » ــ وطائرات « بوكانير » وطائرات التورنادو ، دون المشاركة في المعركة ، بسبب احتمال نشوب الاعمال النووية ، وقد ادى غياب هذه الطائرات الى زيادة ملحوظة في التفوق العددي السوفييتي في الجو .

وسواء أكان القتال الدائر بريا أو جويا ، فان معظم القوات المشتركة حتى الآن هي سوفييتية ، وقد علم ان ثلاث فرق بولونية مع بعض الاختصاصيين الالمان الشرقيين قد دخلت الدانمارك ، بينما اشتبكت فرقة دبابات وفرقتان آليتان من جمهورية المانيا الديمقراطية ضد مجموعة جيوش الشمال ، ولم يتم التعرف بعد الى هوية القوات المشاركة في حلف وارسو باستثناء قوات بولونية وأخرى من جمهورية المانيا الديمقراطية .

ولعل أعظم تطور حدث صباح اليوم الاول للاعمال العدوانية في أوروبا

كان ، بلا شك ، هو اعلان الحكومة الفرنسية عن عزمها تنفيذ كافة التزاماتها بموجب معاهدة حلف الاطلسي . وهكذا أصبحت فرنسا الآن ، في حالة حرب مع الاتحاد السوفييتي وحلفائه ، كعضو في حلف الاطلسي .

أما الفيلق الفرنسي الثاني المتمركز في جمهورية المانيا الاتحادية فيبلغ تعداده حوالي خمسين الف رجلا عند تخصيصه ، ليكون تحت تصرف القيادة الحليفة في اوروبا ، ولدى وضعه تحت قيادة القائد العام في المنطقة الوسطى أسندت اليه أولا مهمة احتياط المنطقة ، على ان يكون مستعدا لدى اول انذار للتحرك نحو الامام في بأفاريا . كما تلقت ثلاث فرق فرنسية أخرى صغيرة الحجم نسبيا — بسبب اعادة تنظيمها في اواخر السبعينات — أوامر بالتحرك من فرنسا « مجموع أفرادها ثمانية آلاف ومائتي رجل في الفرق المدرعة وستة آلاف وخمسمائة رجل في فرق المشاة » . وكانت تجري عملية تعبئة من شأنها ان تتمخض عن أربع عشرة فرقة . وكانت أسراب الطيران التكتيكي الفرنسي التي تعد حوالي ثمانية عشر سربا من الطائرات القاذفة المقاتلة موضع ترحيب خاص ، حتى ولو ان استعمالها سيكون قاصرا في اليوم الاول على كل حال ، لدعم التشكيلات الفرنسية . غير ان أهم شيء على الاطلاق في المستقبل القريب جدا كان امكانية استخدام الموانيء والمطارات الفرنسية ، العمق الذي يتطلبه مسرح العمليات وخاصة فيما يتعلق بالمجال الجوي .

أما القدرة الفرنسية النووية فقد ظلت حصرا في أيدي الفرنسيين .

ومع أن التدخل الفرنسي أسهم في تشجيع الحلفاء ورفع معنوياتهم الا أن الموقف البري في المنطقة الوسطى عند مغيب اليوم الاول من أيام القتال، كان لايبشر بالخير، انظر خريطة الموقف «الموقف في ٤ آب ١٩٨٥ الساعة ١٨,٠٠» فقد اندحرت باستثناء تلك القوات المتواجدة الى الشرق من فرانكفورت بين « ألسفيلد وبامبرغ » . أما في الشمال، فقد تمكن العدو بفضل تفوقه العدد الكبير ، من دفع مجموعات بحجم الكتائب تضم مختلف صنوف الاسلحة من دبابات ، ومشاة

مدرعة قوية مع دعم جوي تكتيكي كامل ، ليكون تحركها حول مراكز المقاومة التابعة للحلف الاطلسي والتي كانت قد ثبتت بفعالية كبيرة في مواقعها جنوب « هامبورغ » . في هذا الوقت ، كانت هذه المجموعات تتقدم لتلتقي بالوحدات والتشكيلات السوفييتية الاخرى التي نقلت جوا عند رأس الجسر الجوي في « بريمن » ، وكانت الوحدات السوفييتية المحمولة جوا ، تقوم بعمليات احتلال معابر على نهر « الوزر » في مواجهة مقاومة عنيدة ، لكنها غير منسقة فيما بينها ، من الفيلق الهولندي الاول والفيلق البريطاني الثاني .

وفي سهل الشمال بالمانيا ، استطاعت الوحدات المدرعة التابعة للجيش الالماني الاول ، والفيلق البريطاني الاول من ان تتخلص بصعوبة من التطويق ، وأخذت تتجمع شمال هانوفر ، لمواجهة التهديد الرئيسي الذي يزداد ضغطه عليها من الشمال والشرق ، ولم يعد سهل الشمال الالماني ملعب الدبابات كما كان الاعتقاد السائد الى ماقبل عقدين من الزمن ، فقد تحولت القرى الى مدن صغيرة ، وبذلك تهيأت فرص كثيرة للقيام بعمليات تأخير واعاقة ضد الدبابات حيث قامت القوات الالمانية والبريطانية بالاستفادة منها بسرعة وحولتها الى اعمال تكتيكية سبق الحديث عنها . وقد اظهر البريطانيون قابلية خاصة لما كانوا يسمونه « تكتيكات الاسفنجة » حيث كانوا يعملون في مفارزصغيرة غير واضحة مزودةبسلاح «ميلان» المضاد للدرع، وكذلك السلاح الجديد الذي أدخل عوضا عن بارودة « كارلغوستاف » عديمة الارتداد، كما كان توزيع قرى ومدن منطقة « نايدر ساكن » منتظما ورائعا حقا ، كما توزعت مجموعات المساكن في هذه المنطقة بحيث تبعد الواحدة عن الاخرى حوالي ثلاثة كيلومترات . كانت الطريقة الانكليزية « في المقاومة » تشبه كثيرا طريقةالفدائيينالمغاوير الالمان « JAGD Commandos » اذ تتمركز فصيلةفيآخر مجموعة مساكن في القرية ، مزودة بسلاحين مضادين للدبابات من طراز « ميلان» بالاضافة الى اسلحتها الفردية لحماية نفسها . ومثل هذا الترتيب معمول به في القرية التالية التي تبعد عن الاولى مسافة تزيد عن المدى المجدي لصاروخ ميلان أي الفي متر . ثم يسمح للدبابات الروسية الموجودة في مقدمة الرتل

بالدخول الى المنطقة دون اعتراض ، ثم تهاجم الدبابة الثالثة والخامسة والسابعة وتدمر من الطلقة الاولى ، واذا ما كانت عربات قتال المشاة من طراز « BMP » مع الدبابة الامامية فتدمر وتحترق ، وقبل ان توجه القوات المعادية حملة « تنظيف » ضدها تنسحب فصيلة حلف الاطلسي ، ربما عن طريق مبستطلع مسبقا ، للقيام بعمل مماثل في القرية التالية . وهكذا كان لرجال المغاوير الالمان هنا فعالية هامة بشكل خاص ، لان معظم الرجال في تلك القرى والمدن هم جنود احتياط محليون .

ولقد أثبتت هذه التكتيكات جدواها منذ اليوم الاول ، سواء في سهل المانيا الشمالي ، او في ريف « الهارز » المليء بالتلال ، اذ أظهرت قدرة ملحوظة في امتصاص زخم الدروع . ولم يكن الاختراق الذي قام به العدو في العمق عند غروب شمس يوم الرابع من آب في قطاع مجموعة جيوش الشمال كبيرا كما كان يتوقع له أن يكون .

وفي قطاع مجموعة جيوش الشمال ككل مكان في المنطقة الوسطى ، أخذت مشكلة خطيرة في الظهور ، اذ كانت مجموعات اللاجئين المدنيين الكثيفة من مدن وقرى « نايدر ساكسن » قد بدأت تخلق الصعوبات المرتقبة والتي كان يخشى وقوعها من قبل . لقد كانت من مصلحة الاتحاد السوفييتي زيادة الفوضى حيثما أمكن ذلك، في الوقت الذي يحاول فيه، ابقاء محاور هجومه نظيفة وخالية منها. أما الطيران فقد واظب على القيام بهجمات أرضية حيث كان الرصاص خلالها ينهمر من الرشاشات كالمطر وبدون توقف على طول محاور الهجوم ، مع بعض القنابل المتفجرة المضادة للاشخاص . ولم يكن هدف السوفييت انزال الاصابات بين المدنيين « على الرغم من أنهم لايهتمون بذلك كثير » بقدر اهتمامهم بابعاد اللاجئين عن الطرق التي يريدون استعمالها . فيما كانت معدات سلاح المهندسين المدرعة المتقدمة مع الدبابات ، تقوم بسحب سيارات المدنيين

المتروكة على الطرق حتى لا تعيق سرعة الارتال المتقدمة ، كانت الدبابات نفسها تتحرك بسرعة دون تردد وسط الجموع البشرية التي كانت تحاول عبثا الابتعاد ، فتعبر فوق الاجساد البشرية التي خلفتها وراءها العربات التي تقدمتها . وبسرعة اكتظت الطرق الجانبية بالكتل الفوضوية من السابلة والعربات والتي لم تستطع الجهود الجبارة التي قامت بها الشرطة الالمانية من السيطرة عليها .

اما في قطاع مجموعة جيوش الوسط حيث يتعرض الفيلق الالماني الثالث للضغط والتثبيت . فقد بدا واضحا اعتبارا من بعد ظهر الرابع من شهر آب ان تقدما رئيسيا باتجاه « هرسفلد » آخذ في الازدياد على يسار الفيلق الاميركي الخامس ، مع جهد ثانوي عبر « فولدا » باتجاه « هانوي » وعلى طول وادي نهر « الكينزيغ » وسلسلة التلال الممتدة نحو الجنوب الغربي الى سهل « الراين — مين » ، أما قوات التغطية التابعة لفرقة الفرسان المدرعة الاميركية المعززة ، فقد استعملت أسلحتها المضادة للدبابات ومدفعيتها على نحو مدهش منذ الضوء الاول وما بعد مستفيدة استفادة تامة ، من التضاريس الارضية المناسبة بهدف تأخير تقدم العدو . وأصبح بالامكان تحويل الاعداد الكبيرة من سيارات العدو لغير صالحه وذلك بوضعها كمتاريس وحواجز على الطرق ، بحيث يضطر الى وقت كبير لازالتها ، وهنا بدأت طائرات « الـ إف — ١٥ » من القوات الجوية الاميركية « USAF » التي سبق لها ان حققت تفوقا في مجال عمليات (جو — جو) في العمل بمهمة اضافية الا وهي دور القتال الارضي .

وفي قطاع مجموعة جيوش الوسط تمت الاستفادة على نحو جيد من المغاوير الالمان الغربيين الذين كانوا يعملون بعيدا الى الامام في مواقع محددة جيدا . اما بالنسبة لمجموعة جيوش الوسط فان التركيز كان موجها نحو الايقاف الفعلي — او على الاقل تأخير — تقدم قوة دروع قوات التغطية ، وكانت الارض بشكل عام كثيرة الغابات ومتموجة في الشمال وبذلك كانت مناسبة

كثيرا للدفاع ، ومن ناحية ثانية كانت ذات عمق قليل ، وبالتالي خطرة ، ولم يكن هناك مجال لتوفير الوقت على حساب الارض .

أما الاعمال القتالية التي استغرقت وقتا كبيرا فقد احدثت خسائر كبيرة في صفوف العدو ، قبل « فولدا » عند « هنفيلد » مقابل « شيلتز » وجنوب شرق « هرسفيلد » ومن حسن الحظ ان الطقس كان واضحا ومناسبا للدفاع ويسمح برؤية جيدة على طول المدى الاعظمي للاسلحة المضادة للمدرعات « تاو » وقد كان معدل خسارة قوات التغطية بالنسبة الى خسائر المهاجمين خمسة الى واحد تقريبا لصالح قوات التغطية ، لكنها كانت مضطرة بالوقت نفسه الى التخلي عن مسافة من خمسة عشر الى عشرين كيلو مترا من الارض .

كان الفيلق الالماني الثالث يقاتل بعنفوان وشدة على يسار قوات التغطية، ولا يتنازل عن أية بقعة أرض ، وكان الهجوم قد وصل الى أشد وطأته في الرابع من آب في منطقة مجموعة جيوش الوسط ، عندما جوبه في حوالي الساعة السادسة عشرة بفرقة مدرعة على الجانب الايسر للفيلق الاميركي الخامس .
وشقت أربعة أفواج مدرعة سوفييتية طريقها من خلال منطقة دفاع اللواءين الموجودين الى يسار الفرقة ، وسرايا المشاة الآلية في عربات القتال من طراز « BMP » لتصل الى ما وراء الدبابات المتقدمة مباشرة . ثم تبع ذلك فوج دبابات آخر وفوج مشاة محمولة . واصطدمت القوة الهجومية السوفييتية المتقدمة التي كان قوامها حوالي مائة دبابة (ت ــ ٧٢) بشبكة من نيران الاسلحة المضادة للدرع ، تلك الاسلحة التي لم تستطع رمايات المدفعية السوفييتية التمهيدية لمدة ساعة ، وكذلك جهود الدعم الجوي التكتيكي اخمادها . أما الكتائب الاميركية المتقدمة فقد انكفأت عدة كيلو مترات الى الخلف من دفاعاتها المضادة للدروع ، لكنها لم تلبث أن استعادت بعض الارض التي فقدتها بعد أن خفت حدة الهجوم. وبحلول الظلام، أحرزت الفرقتان السوفييتيتان المتقدمتان بعض الكيلو مترات ، ولكن مقابل خسائر جسيمة ، واستمر الضغط خلال الليل . وعندما استؤنف الهجوم بعنف جديد عند أول

ضوء من يوم الخامس من آب من قبل فرقتين مدرعتين سوفييتيتين جديدتين زجتا عبر مواقع الفرقتين السابقتين خلال ساعات الظلام ، قابلتهما قوة نار مركزة من قبل فرقتين اميركيتين ، احداهما وصلت حديثا ، وتوقفت الفرقتان السوفييتيتان مؤقتا على الاقل عن متابعة تقدمهما ، بعد خرق بسيط نسبيا أمام « البسفيلد » مباشرة ، وهكذا امتدت جبهة الفيلق الاميركي الخامس من « السفيلد » في الشمال ، الى « شلوختيرن » في الجنوب .

والى يمين هذا الفيلق ، نحو الجنوب ، واجه الفيلق الاميركي السابع هجوما رئيسيا ، في اليوم الاول لبدء القتال ، على غرار الهجمات الاخرى ، على محور « مينيغن-شينفورت » على طول نهر « الماين » قرب « ورزبورغ » . ومرة أخرى اضطرت القوات الاميركية الى التخلي عن جزء من الارض ، لكن فعالية الدفاعات المضادة للدبابات ، حالت دون حصول خرق حاسم .

وفي أقصى الجنوب ، كان الفيلق الالماني الثاني ، يقاتل بعناد قتال تأخيري في منطقة « نورمبرغ » دون أن يخسر أرضا ، الا بالقدر الذي تمليه الضرورة ، بانتظار وصول القوات الفرنسية ، حيث لم يكن لديهم الكثير مما يجب عمله . ولم تنجح قوات التغطية في « بايرشرولد » في كسب وقت كاف ، لمنع الروس من ضرب معبر فوق نهر الدانوب . وبحلول الظلام ، كانت الارتال المدرعة القوية ، من جيش الحرس المدرع الاول يجتاز « ميونيخ » الى الشمال . ولم يكن هناك من أمل لايقافهم في هذا الطرف الجنوبي من المنطقة الوسطى ، الا على طول نهر « ليش » .

على الرغم من الانباء المشجعة الواردة من فرنسا ، عن تحرك الجيش الفرنسي الاول ، نحو الشرق ، لتقوية الجناح الجنوبي ، وعن نشاط القوات الجوية التكتيكية الفرنسية « FATAC » أمام هذا الجيش ، الا أن يوم الخامس من آب ١٩٨٥ ، انتهى يلفه الشك والكآبة .

وقد اتضح الآن ، أن بوسع الروس ، أن يحرزوا تفوقا محليا عاليا ، في الهجمات المدرعة ، والمشاة الآلية على واحدة من ست نقاط ، على أي من جبهات مجموعات الجيوش ، بدعم كثيف من المدفعية ، ومساندة من قبل الطيران ، وان يستثمروا الفوز والنصر الذي يحققوه بقوة كبيرة ، دون أي اكتراث بالاصابات التي قد تلحق بهم . وان يحافظوا على زخم الهجوم ، بلجوئهم الى حشود هائلة مركزة من الدروع ، والى قوة النار ، على جبهات ضيقة ، دون الاهتمام بالجناحين . كان الخرق سيتم لا محالة في المكان الذي يوجه اليه الهجوم المركز والمكثف ، بارادة وحزم وتصميم . ولن تتوانى قوات الانساق الثانية ، التي تتحرك قريبا من أنساق الصدمة وخلفها ، بأن تستغل على الفور النجاحات التي حققتها الانساق الاولى ، وكان من المتعذر أن يستطيع الجانب الحليف — في المراحل الاولى على الاقل — من القيام بهجمات معاكسة ناجحة ، ولم يحاول الروس التمسك بالارض التي يستولون عليها، كما تعذر استغلال أية فرصة، تكون فيها القوات السوفييتية غير متماسكة، أو غير متزنة من أجل توجيه ضربة ضدها ، وكثيرا ماكانت الهجمات المعاكسة تصطدم بدروع الموجة التالية، فتتبدد قبل أن تأخذ مداها. حتى النيران المركزة ، من مدفعية الفرق والفيالق ، لم تستطع أن تخفف قليلا من قوة الهجمات السوفييتية العنيفة ، التي كانت تندفع بعنف شديد ، وبأعداد كبيرة . ودون أي اهتمام للخسائر ، كانت الهجمات الموجهة من الجو الى الارض واعمال مساندة الطيران للقوات البرية بالنار أكثر مما كان يتوقع قادة الفيالق والفرق ؛ وحتى قادة الوحدات الصغيرة ، لكن القوات الجوية الحليفة ، وبناء على أوامر القائد العام للقوات الحليفة في وسط أوروبا « CINCENT » كانت مكلفة بالرد على قوات العدو الجوية ، سواء في الجو ، أو على الارض ، في محاولة لخلق موقف جوي يمكن احتماله ، بالاضافة الى ما تقوم به من ضربات متواصلة على « نقاط الاختناق » في مؤخرات المعركة الرئيسية .

ونادرا ما أمكن ايقاف هجمات الدبابات ، والمشاة الآلية المدرعة السوفييتية ، حيث كانت الدبابات تقوم بالخرق ، ثم تندفع في أثرها ، موجات

من الدروع المهاجمة ، ولم تكن القوات الحليفة المدافعة ، أقل من القوات المهاجمة ، سواء في مجال العتاد أو الرجال أو الوحدات الفرعية ، بل كانت في أحد المجالات ، وهو مجال الالكترونيات تتفوق على القوات السوفييتية . ففي اليوم الاول ، كانت التشكيلات المدافعة ، قد أغرقت بأعداد كبيرة من المهاجمين ، يحدوها مبدأ الهجوم الشامل بثقة كبيرة .

لكن اليوم الاول أيضا ، حفل بنقاط الضعف التي ظهرت في الطريقة التي أدى بها الروس معركتهم ، ولعل في الطريقة التي تمت بها الاستفادة من المشاة المحمولة المدرعة ، مثالا يستحق الانتباه ، لما لها من أهمية كبيرة .

فعربة قتال المشاة المتطورة من طراز « BMP » لا زالت تحتفظ بمحركها القديم ، وقد صممت أصلا ، كعربة قتال للمشاة ، للاستعمال في حرب نووية . والغرض الرئيسي لها هو التحرك بسرعة لتدمير دفاعات حلف الاطلسي « الناتو » التي تنجو من هجوم نووي ، الى جانب الدبابات ، التي عليها يتوقف ، حسم المعركة ، وللحفاظ على وتيرة تقدم الدروع ، لابد من توفير حماية للدبابات من قبل المشاة ، لكن عربة قتال المشاة من طراز « BMP » نفسها ، كانت أيضا معرضة كهدف سهل للاسلحة المضادة للدبابات ، وقد أظهرت الصواريخ الدقيقة التوجيه المستعملة الآن بأعداد كبيرة في حلف الاطلسي أن الهجوم الراكب : « كثيرا ما يكون ثمنه غاليا بل انتحاريا أحيانا » . كانت حصيلة الخسائر في عربات قتال المشاة من ذلك الطراز في اليوم الاول جسيمة .

ويعترف الجيش الاحمر ، ومنذ زمن ، أن قيام المشاة الآلية بهجوم راكب في معركة غير نووية ، ليس سهلا أو ممكنا دائما ، على الرغم من أنه أمر يستحق التجربة خاصة في الهجوم الاول ، ويظل الشيء البديل هو انزال المشاة الراكبة . لتقوم وهي راجلة بهجوم على الدفاعات الرئيسية المضادة للدرع التي نجت من نيران الطيران والمدفعية . وقد نجحت اعداد كبيرة من قاذفات الصواريخ الحليفة ، حتى في اليوم الاول نفسه . ولم تستطع المشاة الراجلة ،

مجاراة سرعة الدبابات ، وعندما منعت مشاة البنادق الآلية من القيام بالهجوم راكبة ، بسبب الاسلحة المضادة للدبابات تباطأ الهجوم العام بكامله .

لقد رأينا ، كيف اعتمدت تكتيكات السوفييت ، للقيام بعمليات اختراق الدفاعات المعادية ، على أرض معركة غير نووية ، على المناورة ، بقدر ما اعتمدت على الهجوم الجبهي الكثيف . أما مناورة المشاة الراكبة ، فقد تطلبت المفاجأة التكتيكية من جهة واخماد نيران الاسلحة المضادة للدرع من جهة أخرى . وفي معركة المنطقة الوسطى ، لم يكن أي من الشرطين السابقين سهل التحقيق أمام قوات حلف وارسو ، حتى في اليوم الاول للهجوم .

لقد قال « البروفيسور ج. اريكسون » أحد مراقبي المسرح العسكري السوفييتي ، وأوفرهم اطلاعا وعلما في عام ١٩٧٧ « ان القيادة السوفييتية ، ستهتم قبل كل شيء بمعدل الخسارة خلال العشرة أو الخمسة عشر كيلو مترا من التقدم » .. كانت هذه الكلمات ، كلمات تنبؤية .

وقد ثبت للجيش الاحمر ، أن من غير الممكن ، ايجاد طريقة ، يمكن بواسطتها معالجة الاحتياجات المختلفة لكل اشتباك تكتيكي للاسلحة المتضافرة ، فمتى يجب أن تترجل المشاة ؟. وكيف يمكن التوفيق بين السرعات المختلفة للدبابات . وعربات قتال المشاة والمدافع ذاتية الحركة .. والمشاة الراجلة ؟.. كيف يمكن التنسيق بين نيران الدبابة ، وعربات المشاة، والمدافع ذاتية الحركة، ومدفعية الفرقة ، ونيران أسلحة الحوامات الداعمة ، مع نيران المساندة الجوية التكتيكية ، عندما يزج بها كلها ؟ .

هذا وقد انتقلت وبمقدار أكبر مسؤوليات القيادة التي كانت في الاصل على مستوى الفرقة في الجيش الاحمر ، الى مستوى الفوج ــ وهو ما يوازي اللواء عند الحلفاء ــ لكن العبء الاكبر في اتخاذ القرار كان يقع على قائد الكتيبة . وفي كتيبة البنادق الآلية المعززة بهيئة أركان مصغرة ، مؤلفة من أربعة ضباط وصف ضباط وثمانية رجال ، يترتب على قائدها أن يحاول السيطرة والاشراف

على قوة مؤلفة من سبعمائة رجل ، مع سرية دبابات مؤلفة من ثلاث عشرة دبابة ، وبطارية مدفعية من ستة مدافع ، « وحتى كتيبة من ثمانية عشر مدفعا » ، وبطارية هاون ، وأسلحة مضادة للطائرات وفصيلة من الاسلحة المضادة للدبابات ، وعناصر استطلاع وهندسة ، وثلاثين عربة قتال مشاة من طراز « BMP » ، وستين مدفع رشاش خفيف ، وثلاثمائة وست وخمسين من حملة البنادق الآلية . لا ريب أن ذلك ترتيب طويل وعدد كبير أيضا .

أما شعار الحلفاء فكان بسيطا وان كان العمل به يتطلب الشجاعة والجلد : ابق حيث أنت ، واخفض رأسك ، وتوجه الى الآمر للقضاء عليه ، فليس من العسير تحديد مكانه ، وغالبا ما تستطيع المعلومات الواردة من عدة مصادر والمنسقة عبر نظام التوزيع الفوري للمعلومات التكتيكية المشتركة « JTIDIS » تحديد مراكز القيادة على مستوى الفرقة والفوج . وعلى هذا يجب مهاجمتها وذلك أمر ليس سهلا كما انه ليس صعبا الى هذا الحد ايضا .

أما على المستويات الدنيا فقد كانت المشكلة بسيطة ، حيث تلقى القادة الصغار في حلف الاطلسي تدريبات على البحث والتعرف على دبابة القيادة في الوحدات والتشكيلات السوفييتية . فسلوكها على مستوى السرية مثلا ، يعطيها طابعا لا يصعب التعرف عليه أو تمييزه . وعلى العموم يجب مقاومة الاغراء بتوجيه الطلقة الاولى الى الهدف الاسهل ، اذ يجب توجيهها الى دبابة القيادة ، وقد لا يؤدي ذلك الى وقف الهجوم ، ولكنه سيؤدي على الاقل الى اضعافه ، والحد من اندفاعه وزعزعته ، أما القضاء على قائد الكتيبة فهو أصعب ولا شك لكن تحقيقه لا ريب يعود بالفائدة الكبيرة .

ولكن خلال معارك اليوم الاول كانت قلة من القادة الصغار هم الذين فكروا في اتباع هذا المبدأ في ظل الفوضى والضجيج والرعب ، والارهاق الشديد ، على أن ما كانوا يحاولونه ، لا يزيد عن الفصل بين أجزاء التشكيل ، مثلا (بين الدبابات والمشاة) ، وقد لا يؤثر ذلك في ايقاف الاندفاع ، ولكن تحقيق

ذلك حيال جيش الصدمة الثالث ، يعني تصفية « أو على الاقل تحييد » حوالي مائة وعشرين بطارية مدفعية والفين وثمانمائة عربة قتال مدرعة من طراز « AFV » ؛ فلوقف اختراق واحد ، على محور واحد ما ، فان ذلك يتطلب تصفية « أو على الاقل أن يحسب حساب » الثلاثين بطارية مدفعية ، وثمانمائة عربة قتال مدرعة من طراز « AFV » ، على أن ما كان يبشر بالامل ، اعتقاد القادة الحلفاء حوالي نهاية اليوم الثاني للقتال ، وربما حتى في نهاية اليوم الاول ، أنه اذا أمكن دق اسفين في العملية الهجومية السوفييتية ، فان العدو سيحال بينه وبين الاندفاع الى الراين . وفي الوقت نفسه ، كان يقوم لدى الجانب الآخر ، شعور متزايد بأن الوصول الى الراين خلال تسعة أيام ، قد لا يكون أمرا سهلا .

على أن المعركة التي كان ينظر اليها في البدء على أنها معركة هجوم مدرع ، ضد دفاعات مضادة للدرع ، أصبحت تتبلور في صيغة معركة لقوة النيران في مواجهة اجراءات مضادة ، أو ما يمكن أن يسمى بالاصطلاحات القديمة معركة مدفعية بين بطارية ، وبطارية معاكسة ، وبالاصطلاحات الجديدة معركة بين رشقات متعاكسة لاسلحة الكترونية .

في اليوم الخامس ، وبعد ليل ، كان الضغط فيه أكثر منه في النهار استمر التقدم وتمكن العدو في الشمال من تأمين معابر على نهر « الوزر » شمال « مندن » حيث أشير الى أن العناصر المتقدمة ، تتحرك غربا باتجاه هولندا ، وقد انكفأ الجيش البلجيكي الاول الى الغرب من « كاسل » فيما استمر الجيش البريطاني الاول بالقتال في مشارف « هانوفر » ، وفي المناطق المعمورة وتلال « هارز » مستثمرا مع مغاوير الاحتياط الالماني ، ميزة اتساع تكتيك « الاسفنجة » بينما كان الجيش الالماني الاول يحتل مواقعه شرق ــ غرب على طول « توتوبرغروالد » . وكان الفيلق البريطاني الثاني ، يدفع جناحه اليساري ، نحو الغرب ، الى الحدود الهولندية ، حيث تقوم تشكيلات الاحتياط باعداد

دفاعات سريعة ، خلف تلك الحدود في الاراضي المنخفضة ، التي بدىء الآن بغمرها بالماء .

وعلى جبهة مجموعة جيوش الوسط سحبت الفرقة الاولى من الفرق الاميركية التي وصلت حديثا ، وهي الفرقة التي قامت بعمل قتالي قيّم ، سحبت من الجيش الاميركي الخامس ، للالتحاق بمجموعة اللواء الكندي المعزز لتشكيل مجموعة جيش احتياطي . وقد اضطلع الجيش الفرنسي الاول ، وتحت قيادته الفيلق الالماني الثاني بمسؤولية الدفاع عن ذلك القطاع من المنطقة التي تمتد من « نورمبرغ » جنوبا الى الحدود النمساوية ، وبذلك أصبح في الوقت نفسه تحت قيادة مجموعة جيوش الوسط ، حيث كانت ولا تزال العلاقات الفرنسية معها وثيقة .

وبنهاية يوم الخامس من آب ، فتحت هجمات العدو المتتالية ، ثغرة على يسار الجيش الالماني الثالث في الشمال الاقصى لقطاع مجموعة جيوش الوسط على حدود خط الفصل مع البلجيكيين ، فيما كان تقدم سوفييتي يتبلور باتجاه « جيسين » . لكنه لم يلبث أن توقف نتيجة تدخل جناح الفيلق الاميركي الخامس ، بين « السفيلد وشلوختين » ومما كانت له دلالته ، أن فرق النسق الاول المهاجمة لدى العدو ، كانت مؤلفة في معظمها من فرق البنادق الآلية أكثر من فرق الدبابات ، كما أن البحث عن نقاط الضعف في دفاعات الحلفاء ، أخذت تستبدل بالهجمات الكثيفة للدبابات ، كما تم في الموجة الاولى . وكان تكتيك الحلفاء على مستوى الوحدة ، ينصب على الفصل بين الدبابات وبين المشاة التي تدعمها ، حيثما أمكن ذلك ، وقد بدأ يعطي ثماره .

وفي أقصى الجنوب ، استطاعت الدفاعات المضادة للدرع التابعة للفيلق الاميركي السابع ، المعزز بالمدفعية القوية والدعم الجوي التكتيكي ، احتواء محاولة خرق رئيسية ، جنوب شرق فرانكفورت حيث كان الضغط في تزايد وتعاظم . أما الموقف ، في « نورمبرغ » جنوبا ، فكان مشوشا ، لكن المعلومات

المتوفرة تفيد ، أن الجيش الفرنسي الاول ، مع الفيلق الالماني الثاني كانا لا يزالان يسيطران على طول نهر « ليش » .

وخلال الايام الخمسة التالية التي سادها طقس صحو وجيد ، بدا واضحا ، ان الجهد الرئيسي ، سيستمر في الشمال ، وخاصة وان القوة الفرنسية المتعاظمة في الجنوب ، قد قامت بدور جيد ، لتثبيت الجناح الايمن . وقد ألغيت الحدود بين مجموعتي الجيوش كي يتم ادخال منطقة « كاسل » مع قيادة الفيلق البلجيكي الاول الذي كان في حالة ضعف شديدة الى منطقة مجموعة جيوش الوسط . وبعد قتال مرير أمكن معه قمع محاولة تقدم نحو « فرانكفورت » من خلال منطقة « جيسين » وبذلك إعتقد قائد مجموعة جيوش الوسط ان الفرصة سانحة للمحافظة على منطقة تمتد جبهتها الامامية من « كاسل » الى « ورتزبورغ » مرورا في « السفيلد » ولو أن جيش الصدمة السوفييتي الثالث ، وضع خلف جيش الحرس المدرع الاول ، لاختلف الامر كثيرا ، لكنه كان مكلفا بعملية الهجوم في الشمال .

وبحلول السابع من آب ، أخذت الاجراءات الدفاعية الكيميائية ، التي فرضت باستمرار على مجموعة جيوش الشمال ، تثير القلق ، وبدأ ضغط القادة في الميدان ، يتعاظم من أجل اتخاذ اجراء مضاد من نفس النوع . لكن الرد النووي التكتيكي نظريا على الاقل ، كان ولا يزال ، من وجهة نظر البريطانيين ، احتمالا ممكنا ، لكن القائد الاعلى لقوات الحلفاء في أوروبا لا يشك قطعا في هذه المرحلة بأن مثل هذا الرد ، سيكون مخاطرة متهورة . لكنه كان على كل حال ، مستعدا لتقبل الرد بالاسلحة الكيميائية ، بل انه خول القادة الاميركيين المحليين باستعمال هذه الاسلحة ، وهكذا شعر قائد قوات الحلفاء في أوروبا انه يستطيع ، ان يقدم الدعم بالاسلحة الكيميائية الى مجموعة جيوش الشمال ، ولم يكن عسيرا على قائد القوات الجوية الحليفة في أوروبا تخصيص سرب من طائرات « الفانتوم ــ ٤ » المجهزة بخزانات رش ، الى مجموعة القوات الجوية التكتيكية الحليفة « ATAF » التابعة للقوات

« USAF »الجوية الاميركية . بينما خصصت كمية ، من الذخائر الكيميائية للمدفعية الاميركية من عيار ١٥٥ ميلمتر الى الفرق البريطانية والالمانية التابعة الى مجموعة جيوش الشمال ، وقد وضعت هذه الامكانيات قيد الاستعمال فورا .

وقامت طائرات الفانتوم بمهاجمة النسق الثاني واحتياط الفرق السوفييتية، بمواد كيميائية قاتلة ذات تأثير دائم، الامر الذي اضطر التشكيلات السوفييتية الى القيام بتحركات غير مخطط لها ، وظهر عليها بعض الارتباك . وكانت الاقنعة الفردية الواقية التي يستعملها الجنود السوفييت ، غير ملائمة للاستعمال مدة طويلة ، في ظل هجوم مستمر بالغازات السامة الدائمة التأثير . الامر الذي أصبح معه مصدر ازعاج ، يكاد لا يطاق . ولم يكن سهلا أيضا على تشكيلات مجموعة جيوش الشمال استعمال الذخيرة الكيميائية الاميركية في المدافع من عيار ١٥٥ ميليمتر ، كما لم تتوفر هذه الذخائر الا تدريجيا ، وذلك لان المشكلة السوقية المتمثلة في سحب الذخائر من المواقع الاميركية ، كانت تسبب التأخير ، بينما كانت قوات الحلفاء غير متمرسة في التآلف علىّ استعمالها فنيا وتكتيكيا . وكان التأثير الاجمالي لاستعمال الاسلحة الكيميائية ، ضد الهجوم السوفييتي ، موضع ترحيب . فقد كانت الالبسة والاعتدة الواقية ، التي أخذت من الاسرى السوفييت من نوع أكثر خشونة ، وأقل اتقانا في الصنع وملاءمة للاستعمال ، وأقل جدوى من تلك التي كانت لدى الحلفاء ، وهي من نوع حسن ومتطور على نحو ماكان في حوزتهم قبل سنتين أو ثلاث سنوات . وهكذا فان وحدات الجيش الاحمر ، قد تعرضت لمزيد من الاصابات الخطيرة من شدة هذا الهجوم ، مما زاد في عرقلة الاجراءات الشديدة في مجالي السيطرة والقيادة . ومن حيث التوازن ، اعتبر القادة السوفييت ان تبادل استعمال الاسلحة الكيميائية ليس في صالحهم ، وبما ان الحلفاء تمسكوا بمبدأ استعمال هذه الاسلحة الكيميائية ، للرد على هجمات مماثلة فقط ، فقد قل ميل السوفييت لاستعمالها على أرض المعركة .

كان اللاجئون ، يخلقون مشكلة حادة ومتزايدة في الجنوب كما في الشمال ، فقد تحركت اعداد كبيرة من الناس ، من « اغسبرغ » ومن « أولم » في اتجاه « شتوتغارت » . وازدادت بسرعة الكتل المذكورة من الناس في أرجاء منطقة « كارلسروهو » ، ومثل ذلك كان يجري في كثير من الامكنة ، حيث كانت جموع الناس الفارة من « نورمبرغ وفيرتزبورغ » تلتقي بجموع اللاجئين من الاماكن الصغيرة ، لتصب في « مانهايم » وكانت تجري حركة كبيرة من منطقة فرانكفورت باتجاه « وايزبادن ومينس » . وكانت الصورة العامة تشير الى تدفق واسع لا يمكن السيطرة عليه ، يتجه من الشرق الى الغرب ، راجلا في معظمه ، والامتعة والممتلكات مكدسة في عربات تجرها الحيوانات ، أو تدفع أو تجر باليد من قبل هؤلاء الهاربين من الجحيم ، الى جانب خليط فوضوي من السيارات من كل لون ونوع ، معظمها قد هجرها اصحابها بسبب نفاذ وقودها . وعلى معابر نهر الراين ، كان الضغط كبيرا جدا . وكان الابقاء على الجسور مفتوحة ، يعني زيادة الضغط والارهاق على الشرطة الالمانية والوحدات الاقليمية . وزادت في الفوضى ، الهجمات الجوية السوفييتية ، على ارتفاعات منخفضة ومتوسطة . تلك الهجمات التي تمكنت أحيانا من اختراق الدفاعات الجوية الحليفة . وكان الطرفان المتحاربان ، على جانبي نهر الراين يدركان ، أهمية الحفاظ على حرية الحركة ، عبر معابر الراين بالنسبة للحلفاء ، واغلاقها دون حلف وارسو . وبحلول اليوم الرابع استطاعت شرطة المانيا الاتحادية ، والوحدات الاقليمية فيها ، من خلال جهود مضنية ، السيطرة على تحركات اللاجئين ، وتحويلهم ، الى المناطق الريفية ، شرق نهر الراين . ولا شك أن هذا أسهم في تخفيف الضغط عن معابر الراين . ولكنه لم يمنع ، التدخل الخطير في تحركات الوحدات والتحركات العسكرية الرئيسية .

والى الشمال من المنطقة الوسطى ، كانت القوات الحليفة لشمالي أوروبا تثبت أنها ، ند صلب لحلف وارسو . أكثر مما كان يتوقع بعضهم في

الغرب ، ربما لان القليل يعرفون مصاعب الحركة من الشمال الى الجنوب في النرويج . وفي الرابع من آب، كانت قوة متحركة تابعة للقيادة الحليفة في أوروبا « ACE » مؤلفة من كتائب مشاة مع وحدات دعم وتعزيز ، قد انزلت جوا ، وانتشرت الى الشمال من « نارفيك » كما وصلت الى المنطقة وحدات مغاوير من الرماة البحريين تابعة للبحرية الملكية البريطانية عن طريق البحر ، وكذلك وحدات تعزيز حليفة عن طريق البحر والجو ، لتعزيز ودعم القوات الوطنية النرويجية المنتشرة في شمالي النرويج .

وفي الرابع من آب أيضا ، عبرت العناصر المتقدمة من فرقة المشاة الآلية السوفييتية الى النرويج ، من شبه جزيرة « كولا » ، بينما كانت فرقة ثانية تتحرك غربا عبر « لابلاند » الفنلندية الى « نارفيك » يتبعها من ثمان الى عشر فرق سوفييتية ، استطاعت عبور الاراضي الفنلندية بيسر وبسهولة ، لان أنظمة السكك الحديدية السوفييتية والفنلندية كانت موحدة ومتكاملة ، وكان التفوق الجوي السوفييتي تاما .

وعلى الرغم من أن القوات الارضية التابعة للقوات الحليفة في شمالي أوروبا لم تكن « متعادلة ــ متقاربة » مع قوات حلف وارسو ، لكنها لم تسمح مع ذلك باتخاذ الاجراءات الحقيقية لاستثمار النجاح الذي حققته قوات حلف وارسو ، وقد بدت أقل بكثير مما هي عليه في الحقيقة ، حيث كان الدفاع يملك أكبر قدر من أوراقه الرابحة بسبب الطبيعة الصعبة للاراضي التي كانت تعيق بل وتمنع احيانا أية امكانية لانتشار هجومي للقوات على نطاق واسع ، وحتى في ظل مساندة جوية مواتية . ولقد كان لقوة برمائية سوفييتية الفضل في القيام بانزال جنوب « بودو » بتاريخ العاشر من آب ، من اجل ارغام قوات حليفة ، انزلت في الجنوب على الانكفاء لحماية خطوط مواصلاتها الارضية نحو الشمال ما بين « تروندلاغ ونوردلاند » . وفي الخامس عشر من آب ، تمت اقامة دفاع حليف قوي يستند الى « تروندهايم » ومن المحتمل ان لا يتعرض لتهديد خطير ، ما دام العمل التأخيري الذي يجري

في الشمال ناجحا .

والى الجنوب من المنطقة الوسطى ، انتقلت قيـادة القوات الحليفة في جنوب اوروبا بتاريخ السادس والسابع من آب الى اسبانيا ، مع حكومة منفى ايطالية شكلت على عجل . حيث اصبح شبه الجزيرة الايطالية واقعا بأكمله تحت سيطرة السوفييت بقوات غير كبيرة من الجيش الاحمر .

اما العناصر الجوية الايطالية والاميركية المتمركزة في ايطاليا التي كانت تؤلف القوات الجوية التكتيكية الحليفة الخامسة « 5-ATAF » فقـد وجدت نفسها بعد عملياتها الاولية مغلوبة على أمرها نتيجة التفكك النهائي للمنطقة الجنوبية لحلف الاطلسي . وقد صادفت الاجنحة والاسراب فرصة لا تعوض فانتهزتها الطواقم الجوية للقيام بنقل الطائرات الصالحة الى اسبانيا ، والى جنوب فرنسا ، حيث وضعت في الاحتياط العام للقوة الجوية التكتيكية من أجل المعركة الحاسمة في جنوب المنطقة الوسطى بصورة رئيسية .

وبحلول العاشر من آب وقعت هولندا تحت الاحتلال السوفييتي حتى نهر « الموز » . ونقل مقر الحكومة الى « اندهوفن » وتفرقت البقية الباقية من الدفاعات الهولندية على الحدود في قتال وقع قرب « لنغن Lingen » في الثامن من شهر آب ، ومنذئذ لم يقف أمام قوة الهجوم سوى تنفيذ عملية طوفان ، وذلك بفتح السدود ، مع المقاومة النشيطة التي أبداها المدنيون في كل مكان .

وفي العاشر من شهر آب ، كان الفيلق البريطاني الاول ، وهو اليد اليمنى لمجموعة جيوش الشمال لا يزال باقيا ، وأن كان ممزقا ، وكانت نجاتـه في المنطقة المحيطة في « يادربون Paderbon » في دفاعاته المضادة للدبابات . فقد كان لتكتيك « الاسفنجة » الذي اتبعه ، الفضل في نجاحه وانقاذه من الدمار فقد استخدمه بنجاح عظيم . كانت مفارز المشاة التي تستخدم الاسلحة المضادة للدرع ، موزعة في منطقة معمورة بالبناء ، او في منطقة متموجة بالتلال ، وتنتظر جناحا مكشوفا ، للانقضاض عليه وتدميره ، وتحاول دائما أن تخفف من زخم

تقدم العدو ، عن طريق عرقلة ارتاله اللاحقـة ، واعتراض تموينه بهجمات فعالة . كان تركيز الهجوم على كافة المستويات ، وبكل الوسائل ، على جوانب العدو ، على عقد المواصلات ، على مقرات القيادة ، وكان كل ذلك يعطي ثماره. قد يدمر صاروخ موجه واحد دبابة واحدة فقط لكن اصابة واحدة لمركز قيادة فرقة ، من شأنه ان يحدث شيئا من الفوضى والاعاقة امام مائة دبابة . وحينما يتعذر الحاق الاضرار المادية بشكل او بآخر ، كانت امكانية التدخل في عقـد الاتصالات ، تكاد تكون مستمرة تقريبا ، علما ان الطرق المستعملة حاليـا تستطيع أن تحدد عقد الاتصالات وتدميرها أو التشويش عليها . وجديـر بالملاحظة ، أن تدخلا من هذا القبيل ، كان يقلل من فاعلية عـدو معتاد على اشراف رؤسائه عليه بصورة مباشرة ووثيقة .

والى يسار الفيلق البريطاني الاول ، كان الفيلق الالماني الاول ، لا يزال صامدا على طول « توتوبير غرنالد » ويهدد تهديدا خطيرا ، تقـدم العدو من الشرق الى الغرب ، حيث فكر العدو جديا بتوجيـه جهد رئيسي لازاحته من الطريق . وعلى يسار هذا الفيلق ، كان الفيلق البريطاني الثاني ، الذي أجبر على التراجع الى مواضع جنوب وغرب « مونستر Münster » وكان تحت امرته لواء اميركي على الضفة الغربية لنهر الراين . أما بقايا الفيلق الهولندي الاول ، الذي تعرض من قبل الى قصاص كبير ، خلال الايام القليلة الماضية ، فقد ألقي به بعيدا الى الوراء ، قريبا من « نيجمغن » .

وبحلول مساء الحادي عشر من آب ، تعرض الفيلق الالمـاني الاول ، لضغط شديد من الجنوب والغرب ، تعذر معه الاحتفاظ بالاراضي المرتفعـة على جانبي ثغرة « مندن » . أما الشغل الشاغل الرئيسي لمجموعة جيوش الشمال فهو الدفاع عن « الرور والراينلاند » ومنع خرق العدو للضفة الغربية على الراين في منطقة « فنلو » . لم يحرز الهجوم الذي قامت به قوات حلف وارسو في المنطقـة الوسطى النجـاح السريـع الغامر الـذي خطط لـه . ولعل السبب الذي يرد له عدم احراز النجاح كاملا ، هو التوقيت ، اذ كانت

القوات الحليفة في اوروبا ، تواجه وضعا خطيرا ، أصبح حرجا ايضا ، ولكن ليس الى درجة اليأس .

في الثالث عشر من آب ، اتخذ القائد الاعلى لقوات الحلفاء في اوروبا قرارين يعتبران خطيرين جدا ، بالنسبة لنتائج الحرب في اوروبا ، هما أهم المسائل الصعبة التي تشغله في هذه الايام الحاسمة . أول القرارين رفضه النهائي للموافقة على أي من الطلبات العاجلة التي تقدم بها القادة المرؤوسون لاستعمال الاسلحة النووية التكتيكية في ساحة المعركة . وثانيهما يتعلق باستخدام الاحتياطات .

لم يكن من السهل ، تقدير المدة التي سيستغرقها هجوم قوات حلف وارسو في المنطقة الوسطى من أوروبا في ظل الاخطار العاصفة التي ينطوي عليها العصيان الوطني الذي – كما سنرى – أخذ يلوح في مؤخرة الجيش الاحمر . ومما لاشك فيه ان الهجوم الحليف المضاد ، الذي سيقوم به قوات المنطقة الوسطى شمالا باتجاه « بريمن » سيعمل على خلق موقف عملياتي جديد تماما للحلف على ارض المعركة ، وليس هذا بالامر المستحيل على قوات الحلفاء . أما حلف وارسو ، ذو الموارد الكثيرة ، فلم يضيع منها سوى القليل ، لكنه يظل بحاجة الى اعادة تجميع قواته على نطاق واسع . في الخلف كان الغموض ، وعدم اليقين ، يلف البنية السياسية ، في حين كان يزداد الخطر الذي يهدد خطوط المواصلات . كما تتضاءل الثقة في التشكيلات غير السوفييتية وبامكانية الاعتماد عليها . فالفرق التي كان يتوقع ان تلحق بالمقدمة للحفاظ على زخم الهجوم ، أصبحت تسند اليها شيئا فشيئا ، مهمة البقاء في مراكزها للمحافظة على خطوط المواصلات نفسها التي كانت ستتحرك عليها . هذه العوامل وغيرها ، تضافرت معا ، على عدم استقرار الاساس الذي تقوم عليه عملية احتواء الهجوم المعاكس لحلف الاطلسي ، واستعادة زخم الهجوم بعد فشل هذا الهجوم المعاكس . وعلى هذا لا يمكن اعتبار ايقاف الزخم الامامي ، لغزو جمهورية المانيا الاتحادية نكسة مؤقتة ،

بل لعل من الاصح القول انه يعني بداية شيء أهم كثيرا .

ولعل الفضل في وقف الغزو ، يعود الى القائد الاعلى لقوات الحلف الذي اتخذ قرارا باستخدام الاحتياط في مسرح عملياته ، في أشد الظروف غموضا .

لم يكن موقف الحلفاء جيدا في المنطقة الوسطى ، عند حلول الظلام يوم الثاني عشر من آب « انظر خريطة الموقف ص ٢٥٦ » وأصبحت القيادة الفرنسية في الجنوب تشكل من الآن فصاعدا جزءا من مجموعة جيوش الجنوب متضمنة الفيلق الثاني الفرنسي والفيلق الثاني من جمهورية المانيا الاتحادية وما يعادل حوالي فرقة نمساوية ــ اصبح يطلق على جميع هذه القوات تسمية : جيوش الجنوب ــ وأخذت هذه المجموعة تتراجع وتتخلى عن الارض، بعد تعرضها لهجوم عنيف على طول نهر « ليش » ، ولذلك لم تكن الحالة بأفضل الى الشمال من خطوط الفصل الحالية بين مجموعة جيوش الجنوب ومجموعة جيوش الوسط التي تنتشر من « كارلسروهي » حتى « بايروت » حيث كانت في وضع مماثل بفيالقها الثلاثة ، وفرقها الثمان ، اذ كانت تسيطر على منطقة يمر حدها الامامي من غرب « كاسل Kassel » الى « فورزبورغ Würzburg » وكانت تتوقع ساعة فساعة هجوما تقوم به تشكيلات سوفييتية جديدة .

وتلقى المقر الرئيسي لقيادة مجموعة جيوش الوسط ضربة كبيرة ، خلال النهار ، عندما أصابه صاروخ اصابة مباشرة . أما القيادة التكتيكية المتحركة ، الموجودة في الامام ، فلم تصب بأذى ، بينما أصيب لسوء الحظ الجنرال القائد الاعلى الذي كان في المقر الرئيسي لقيادة مجموعة جيوش الوسط فقتل على الفور ، وعين خلفا له قائد الفيلق الامريكي الخامس ، الذي قام بدور كبير الاهمية في الدفاع بنشاط وحيوية عن منطقة « فولدا » على يسار مجموعة جيوش الوسط التي تعتبر المعضلة لموقف مجموعة الجيوش .

كان القائد الجديد لمجموعة جيوش الوسط ، هو قائد جيش الولايات المتحدة الاميركية في أوروبا ، ذا شخصية مألوفة على شاشات التلفزيون على جانبي الاطلسي . لقي تعيينه هذا استحسانا لدى الاميركيين الذين اصبحوا يرون فيه خلال الايام القليلة من رؤيته على الشاشة بطلا شعبيا تقريبا . كما كان مألوفا لدى القيادة التي استلمها .

والى الشمال من مجموعة جيوش الوسط انتشرت مجموعة جيوش الشمال في قوس كبير ، يمتد أولا شمالا من غرب « كاسل » الى مسافة عشرين كيلومترا تقريبا من « هانوفر » التي أصبحت الآن في ايدي العدو . ومن هنـاك بقي الحد الامامي ، كما كان عليه ، خلال الايام القليلة الماضية اذ يمتد نحو الجنوب الغربي على طـول « توتوبيرغر والد Teutoberger Wald » الـى « اوزنابروك Osnabrück » ثم غربا الى « الراين Rhin » بالقرب من « ويسل Wesel » . وهنا الى اليسار ، سقطت معظم الارض في قطاع مجموعـة جيوش الشمال بأيدي العدو بالرغم من الدفاع الصلب الذي قام به الفيلق البريطاني الثاني ، المعزز بلواء اميركي وبعض الوحدات الهولندية بالاضافـه الى فرقتين من الفيلق نفسه . أما في القرب من « الرايـن » فكان موقع « فنلو Venlo » لا يزال صامدا ، ولم يكن هناك شك في أنه سيتعرض عاجلا الى ضغط شديد جدا .

وقد احتفظ القائد الاعلى في أوروبا بقوات احتياطية مؤلفة من الفرقـة الاميركية الثقيلة ، التي سحبت بحالة جيدة من الفيلق الاميركي الخامس في اليوم الثاني للمعركة ، وفرقتين أميركيتين اضافيتين كانتا وصلتا الى مواقعهما وتسلمتا عتادهما خلال الايام القليلة الاولى من شهر آب ، ومن فرقة المانيا قوية نسبيا واخرى بريطانية ضعيفة نسبيا ، ومجموعة الالوية الكندية التي تعادل قوة فرقة ، ووحدات اخرى تصل في قوتها الى الفرقـة .

هذه القوات التي تصل في حجمها الاجمالي الى حوالي سبع فرق ، كانت

اسميا تحت امرة قائد جيوش الوسط ولكن لا يمكن ان تسند اليها أية مهمة بدون تخويل من القائد الاعلى للقوات الحليفة في اوروبا . وكانت هده التشكيلات في معظمها تتمركز في « هسن Hessen » و « راينلاند Rhine-Land » وأكثرها يتواجد شرق نهر الراين . ولحسن الحظ ان الجسور الرئيسية على نهر الراين ، كانت لا تزال صالحة للاستعمال ، وذلك بفضل الجهد الرئيسي الذي يضطلع به ، الدفاع الجوي الحليف ، والعمل البطولي الحقيقي من قبل مهندسي الجيش .

وازداد ضغط القادة المرؤوسين على القائد الاعلى لقوات الحلفاء في أوروبا للسماح لهم باسناد مهمات لوحدات الاحتياط من قبلهم . وردا على جميع الطلبات ، على الرغم من الالحاح المتكرر ، كان القائد الاعلى لقوات الحلفاء في أوروبا يجيب أنه على مجموعات الجيوش ، ان تتدبر أمرها بأية قوات احتياطية يمكن الحصول عليها .وتحتم بعد ذلك الاصرار الحثيث علىالاستفادة من الدعم النووي الميداني كوسيلة ممكنة وحيدة للحؤول دون الانهيار ، اذا لم تستخدم قوات الاحتياط .

غير ان القائد الاعلى للقوات الحليفة في اوروبا كان يعرف طريقة تفكير القائد العام وهو رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، فالرئيس الاميركي على استعداد للذهاب الى ابعد شوط لتفادي وقوع هجوم ذري على مدن الولايات المتحدة الاميركية ، ولم يكن سهلا تجنب ذلك اذا ما بدأ تبادل استعمال الاسلحة النووية الميدانية .

أما الحلفاء في أوروبا ، فقد كانوا منقسمين حيال استعمال الاسلحة النووية الميدانية ، في مثل هذا الوضع المضطرب والخطير جدا ، بالطبع كانت جمهورية المانيا الاتحادية تعارض هذا الاستعمال . أما المملكة المتحدة فكانت مترددة بين استعمال لاسلحة الذرية وعدمه ، بينما البلجيكيون ، يحبذون ، والهولنديون يعارضون ، اما الفرنسيون ، فقد احتفظوا بحقهم المطلق في تقرير

سياستهم النووية ، لكنهم تعهدوا في الوقت نفسه ان لا يستعملوا الاسلحة النووية الكثيرة ، سواء ، اكانت ميدانية ام استراتيجية بدون تشاور مسبق .

وفي الوقت نفسه كانت الهجمات الجوية التابعة لحلف وارسو من تقليدية وكيماوية لا تزال مستمرة على البلدان الحليفة ولكن مع تفاوت في شدتها . وهي الهجمات التي بدأت في الرابع من آب . ففي جمهورية المانيا الاتحادية والى حد ما في هولندا (الاراضي المنخفضة) كان يصعب التمييز بينها وبين القتال التكتيكي ، اما في فرنسا والمملكة المتحدة ، فقد كانت الهجمات استراتيجية .

ولقد تعرضت الموانيء الفرنسية ، وعقد المواصلات والمنشآت العسكرية، والجسور الى الكثير من الدمار ، ولكن ليس بنفس القدر الذي لقيته اهدافها في المملكة المتحدة ، تلك الاهداف التي كانت اكثر اهمية للمجهود الحربي الاميركي وأسهل وصولا اليها . ولم تقصف المدن الفرنسية ، وبدا ان من المحتمل ، في الوقت الحاضر على الاقل ، ان فرنسا ، لن تستعمل قوتها النووية الاستراتيجية ، الا اذا وقع قصف ذري سوفييتي عليها . لكن المملكة المتحدة ، على الرغم من المجهود الجيد الذي تؤديه دفاعاتها الجوية ، فكانت تتلقى الضربات في الوقت الذي تقترب فيه المعركة في المنطقة الوسطى من ذروتها .

لقد اتضح تماما للقائد الاعلى لقوات الحلفاء في اوروبا انه ، اذا كانت هناك امكانية ما ، في منع الموقف العسكري من التعرض الى كارثة شاملة دون استعمال الاسلحة النووية ، فانها تكمن في واجبه الواضح والمحتم ، على ان لا يلح على الرئيس الاميركي لاستعمال تلك الاسلحة . وكان يعني أيضا ، انه اذا ما ألح على استعمالها ، فانه سيجاب الى طلبه بالتأكيد .

كان القائد الاعلى لقوات الحلفاء في أوروبا وحده في الميدان ، الذي يدرك ذلك .

وقبل منتصف ليل الاثنين ، الثاني عشر من آب حسب توقيت وسط

أوروبا وقبل منتصف ليل الاثنين الثاني عشر من آب حسب نفس التوقيت ، ظهر الرئيس الاميركي على قناة صوتية ، اذ لم تكن مواصلات الاقمار الصناعية ، قد استعيد العمل بها . بينما كانت قنوات الرؤيا التلفزيونية غير موقوفة ومن الممكن ان يكون الرئيس الاميركي قد أراد الاتصال للتحدث فقط مع القائد الاعلى لقوات الحلفاء في اوروبا :

- ((**هل تستطيع القيام بذلك**)) ؟ جاءه السؤال من الرئيس .

كان السؤال بسيطا جدا ، ولم تكن هناك ضرورة للمزيد وساد الصمت للحظات .

- وأجاب القائدالاعلى لقوات الحلفاء في اوروبا ((**ان هذا يتوقف على ما يجري في الاطلسي - وما اذا كان الجسر الجوي قادرا على الصمود**)) .

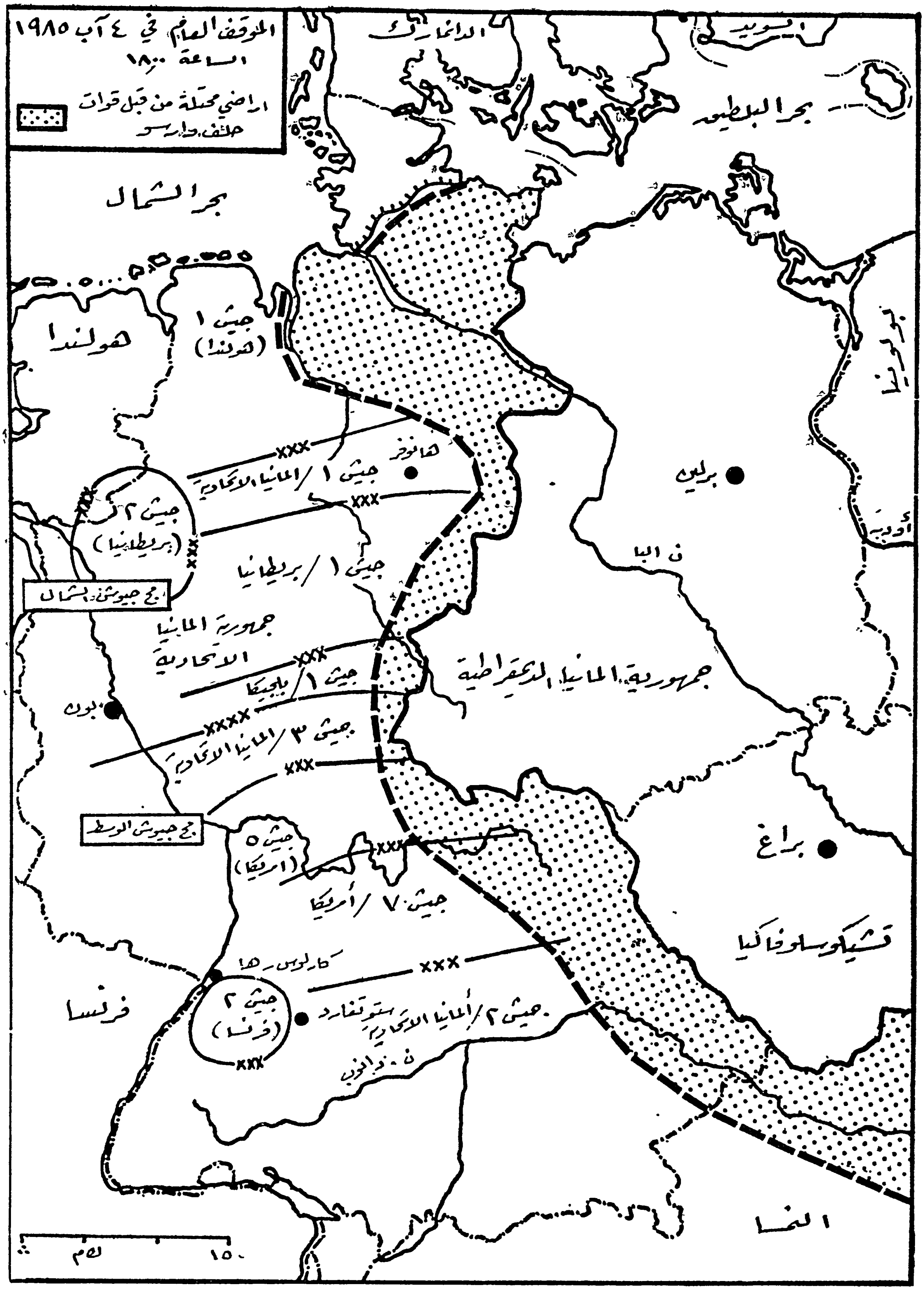
- وجاءه الرد ((**يبدو ان الجسر الجوي ، لا يزال صامدا وسنعرف ، ماذا جرى في الاطلسي خلال ساعات قليلة**)) .

كانت اربع قوافل تعبر الاطلسي ، وتحمل من الولايات المتحدة الاميركية جميع المعدات الثقيلة ، والعناصر المتبقية لفيلقين كاملين ، كانا قد نقلا جوا . وأبحرت هذه القوافل في الثامن من شهر آب ، ولم تلبث ان اصطدمت على الفور بهجوم سوفييتي عنيد ومستمر من الفواصات ، ومن الجو ايضا . كانت الخسائر كبيرة . ويقدر ان خمس السفن الناقلة قد أغرق . كما وقعت خسائر كبيرة في القوات البحرية المرافقة للحماية . هذا وقد أنقذ العديد من الناجين ، لكن كمية العتاد المفقودة تمثل في الوقت الحاضر ، نكسة خطيرة جدا « ولحسن الحظ انها مؤقتة » لمجهود الحرب الحديثة ، وهذه الخسائر تتألف من دبابات « MX - 1 » ومدافع ذاتية الحركة ، وعربات مدرعة لنقل الجنود من طراز « ابس APC » ومعدات الكترونية ، وفوق كل ذلك ، ذخائر من مختلف العيارات ، خاصة لاسلحة القوات الجوية ، والاسلحة المضادة للدبابات والصواريخ المضادة للطائرات .

اما عناصر تشكيلات التعزيز هذه ، والتي تعد حوالي سبعين الف ضابط وجندي تقريبا فقد نقل معظمها عبر الجسر الجوي ، الى المملكة المتحدة وشمال غرب فرنسا . وفي هذا المجال تمت الاستعانة ، على نطاق واسع بطائرات النقل المدني المرهقة . ولكن هنا وقعت خسائر ايضا وصلت الى عشر وسائط النقل هذه . ومع ان نسبة الذين تم انقاذهم من الناجين عالية ، الا ان الامر كان بحد ذاته يشكل نكسة ايضا .

كانت الوحدات الارضية في غرب أوروبا تنتظر عتادها المتنوع « من الدبابة الى الجهاز الالكتروني البسيط » والتي بدونه لا تستطيع أن تقترب من ميدان المعركة ناهيك عن القتال فيه . اما ما هي الكمية التي قد تصل وما هي التشكيلات التي يستطيع القائد الاعلى ان يزجها في هذه المعركة الخطيرة التي تحتدم من اجل مستقبل حرية العالم الغربي ، فان ذلك يعتمد والى حد كبير ، على سرعة القوافل البحرية في شق طريقها نحو الشرق عبر الاطلسي تحت مظلة جوية واقية ، تنطلق من قواعد ارضية في بريطانيا وفرنسا ضمن منطقة الدفاع الجوي البريطاني .

* * *


الموقف العام في ٤ آب ١٩٨٥
الساعة ١٨٠٠
اراضي محتلة من قبل قوات حلف وارسو
بحر الشمال
الدانمارك
السويد
بحر البلطيق
هولندا
جيش ١ (هولندا)
جيش ١ / ألمانيا الاتحادية
جيش ٢ (بريطانيا)
جيش ١ / بريطانيا
ج جيوش الشمال
جمهورية ألمانيا الاتحادية
جيش ١ / بلجيكا
جيش ٣ / ألمانيا الاتحادية
بون
ج جيوش الوسط
جيش ٥ (أمريكا)
جيش ٧ / أمريكا
جيش ٢ (فرنسا)
جيش ٢ / ألمانيا الاتحادية
فرنسا
برلين
ن البا
جمهورية ألمانيا الديمقراطية
براغ
تشيكوسلوفاكيا
النمسا
١٥٠ كم

الفصل السادس عشر

القوى البحرية

لم يكن من السهل تتبع الاحداث في البحر بالتفصيل ، بعد غزو حلف وارسو لا راضي حلف الاطلسي في الرابع من آب ١٩٨٥ . كانت الحاجة ملحة لدى السوفييت ولحلف وارسو للحفاظ على سرية نواياهم ، ولاستغلال المفاجأة التامة . وقد عكست ذلك ، الوثائق والسجلات القليلة المتفرقة التي تم الحصول عليها في وقت لاحق . اما جانب حلف الاطلسي « ناتو » فكان كل ما يمكن ان يقوم به العدد القليل من اركان الحرب ، عندما اصبحت الحرب وشيكة الوقوع ، هو البدء ، بتطبيق وتنفيذ خطط الحلف المعقدة ، التي أعدت من قبل ، لمواجهة مثل هذا الحدث الطارئ . واختفت التسجيلات التفصيلية مع أميال من اشرطة التلكس التي كان يجب اتلافها كلما تراكمت . كما اصبحت القرارات الخطيرة التي تؤخذ بالهاتف او بشبكة التلفزيون المغلقة من اختصاص التسجيل والتي لم يستطع أرشفتها . والواقع ان الخطوط الرئيسية للعمليات البحرية والجوية فقط هي التي يمكن التثبت منها عن يقين .

أما المسافة من خط البداية لجيش الحراسة المدرع الثاني على نهر «الالبا ELBA » بالقرب من « لوبيك Lübeck » الى « فلنسبورغ Flensburg » على مخارج البلطيق ، فهي مائة وخمسون كيلومترا . وعند فجر يوم الاثنين الخامس من شهر آب ، كان الروس قد وصلوا الى هناك ، وكانت قناة « كييل Kiel » في أيديهم .

كانت اعادة تنظيم بنية القيادة البحرية الرئيسية لحلف الاطلسي (انظر الملحق رقم ٣) مناسبة لاجراء مراجعة كاملة للجانب البحري من استراتيجية حلف الاطلسي : مفهوم عملياتها ، وخططها . ودعت القيادة الحليفة المشتركة للمداخل الاوروبية الغربية « Jacwa » التابعة لحلف الاطلسي اللجنة العسكرية التابعة للحلف ومجلس وزراء الحلف ، وأخيرا دعت حكومات دول الحلف ، الى اعادة تأكيد العناصر الاستراتيجية الرئيسية للحلف :

أولا ــ تحديد قوات حلف الاطلسي بشكل تصبح القوات البرية فيه قادرة على قيامها بأكبر قدر من المقاومة الممكنة ضد اي هجوم محتمل .

ثانيا ــ ان يحتفظ الحلف بموقف مرن فيما يتعلق باستعمال الاسلحة النووية الميدانية .

ثالثا ــ ان يظل الواجب البحري الاولي للحلف ، هو تأمين وصول التعزيزات المحمولة بحرا ، بسرعة وبأمان من شمال قارة اميركا وغيرها الى اوروبا .

على ان هناك ، اعتبارات معينة ناشئة عن هيكل القيادة الجديدة ، وذات صلة باستراتيجية الحلف ، يجب ان تأخذها القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب من الغرب عند تطوير خططها وهذه هي :

١ ــ ان الغرض الرئيسي لحلف الاطلسي كحلف عسكري ، هو الحفاظ على وحدة اراضي الدول الاعضاء واستقلالها السياسي ، وقوتها الاقتصادية.

٢ ــ ان العضو الرئيسي في الحلف ، وهو الولايات المتحدة الاميركية له متطلبات امن قومية ذات أهمية خطيرة ، الى جانب متطلبات الحلف . وخصوصا ان اسلحتها النووية الاستراتيجية لم تكن ملتزمة نحو الحلف، باستثناء بعض غواصات « SSBN » وهي «غواصات ،استراتيجية عابرة للقارات ــ بالستيكية ــ نووية » .

٣ ــ ان قوة « بـولاريس » وهـي غواصـات استراتيجية عـابرة للقارات ــ بالستيكية ــ نووية » من صنع بريطانيا ومسلمة الى الحلف الاطلسي « NATO » يمكنها في ظروف معينة ان تعود الى وضعها تحت الاشراف القومي البريطاني .

٤ ــ ان المشكلة الرئيسية للقيـادة والتحـكم « بصرف النظر عن تعطيـل الالكترونيات زمن الحرب » هي تنفيذ العمليات بصورة فعالة ، في منطقة الفصل ما بين القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب من الغرب والقائد الاعلى لقوات حلف الاطلسي « Saclant » الى الغرب والشمـال من جهة ، وما بين القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب الغربية والقـائد الاعلى الحليف لوسط اوروبا الى الشرق والجنوب من جهة اخرى .

٥ ــ لقد بدا جليا تماما ، انه اذا ما ظل عامل التفوق العددي لحلف وارسو على حلف الاطلسي قائما في جميع صنوف الاسلحة ، يرافق ذلك تعادل تكنولوجي حتى التفوق في بعض الحالات لصالح حلف وارسو ، فان الصدمة الاولية لهجوم حلف وارسو في وسط اوروبا ، يمكن ان توصل قواته الى مخارج بحر البلطيق ، وساحل بحر الشمال . على ان نقص العمق في المواقع الدفاعية البرية لمنظمة حلف الاطلسي ، والامر كذلك ، سيؤدي في المراحل الاولى للصراع الى ادخال الجزر البريطانية ، كمنطقة حليفة ، للجبهة الوسطى ، وفي وقت لاحق فان المملكة المتحدة ستصبح منطقة انطلاق للهجوم المعاكس ، وعلى هذا فان الحاجة تدعو لاقامة علاقات من التفاهم الوثيق بين القيادات في البحر وفي البر على مستوى القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب من غرب اوروبا والقائد الاعلى لحلف الاطلسي والقائد الاعلى الحليف لوسط أوروبا ، كما ينبغي تنسيق هذه العلاقات والمحافظة عليها .

٦ ــ ولتأمين وصول التعزيزات الاساسية المحمولة بحرا بالاضافة الى الامدادات

سالمة من شمالي اميركا الى اوروبا ، حينما تدعو الحاجة ، فان على القائد الاعلى لحلف الاطلسي والقائد الاعلى لمناطق التقرب الغربية ان ينسقا عملياتهما عن كثب ، وان يعطي احدهما للآخر ، الدعم الكامل في كل الاوقات .

٧ ـ ويجب الاخذ بعين الاعتبار الطبيعة الخاصة لقيادة المداخل الغربية التي تضم القوات البحرية « قوات سطح ـ سطح وسطح ـ جو ، وغواصات» والقوات الجوية البحرية التابعة للقوات البحرية ، والقوات الجوية الضاربة في المملكة المتحدة . أي ان هذا يجب ان يكون فريقا ذا ثلاث خصائص مختلفة . النقطة الرئيسية ، هي ان السفن الحربية يجب أن تتحرك بسرعة خمسمائة ميل في اليوم ، في حين تتحرك الطائرات بسرعة خمسمائة ميل في الساعة . ولكن ، بينما تمتد مهمة الطائرات لعدة ساعات فقط ، فان بوسع السفن والغواصات ان تبقى لاسابيع .

٨ ـ لقد مضى على آخر معركة بحرية شهدها البحر مدة اربعين سنة . فكيف يمكن لشبكات الاسلحة ذات التنظمات المعقدة ، ولاجهزة الاجراءات المضادة وكذلك للاجهزة المضادة للاجراءات المضادة ، ان تعمل ، اذا مابدأ اطلاق النار؟ ستكون هناك مفاجآت ولا ريب وسيحول ضباب الحرب، دون الاستفادة من الدروس القيمة التي يمكن تعلمها من خلال الاشتباكات الاولى مع العدو . ويجب ان يتاح لمجموعات تحليل العمليات كل فرصة، لمعرفة ماذا حصل بالضبط . وقد تقع خسائر جسيمة بين الطرفين . ومن الموضوعية ، والاهمية معرفة لماذا نجحنا هنا ، وفشلنا هناك ؟

* * *

لقد جرت العادة عند وضع خطط حلف الاطلسي NATO أن يؤخذ بعين الاعتبار أولا « التهديد » لكن القيادة العليا للقوات الحليفة المشتركة للمداخل الغربيــة «Jacwa» قررت عوضا عن ذلك ان تبدأ بالنظر وبالتفصيل الجزئي

فيما يجب على القيادة ان تقوم به أولا وقبل كل شيء ، خلال اي فترة انذار يتلقاها الحلف الاطلسي عن هجوم وشيك يقوم به حلف وارسو . وماذا يجب عمله خلال اليومين او الثلاثة الايام الاولى من بدء الاعمال القتالية . أما فيما يتعلق بالمرحلة الاولية من الحرب ، فقد تدارسوا كيف يستطيع القائد الاعلى لقوات الحلفاء في حلف الاطلسي والقائد الاعلى الحليف للمداخل الغربية تحقيق تفوق كاف على البحرية السوفييتية في الاطلسي وفي غيره من الاماكن ، وذلك من اجل تأمين وصول الامدادات العسكرية المحمولة بحرا والتعزيزات الاساسية الى القائد الاعلى للقوات الحليفة في اوروبا على نحو مأمون وفي المواعيد المحددة .

وفيما كانت القيادة الحليفة المشتركة للمداخل الغربية تستعرض الخطوط العريضة للاستراتيجية البحرية ، أعادت الى الاذهان ما سبق لاركان القوات الجوية ، والبحرية ، البريطانيتين ان وضعتاه معاً بصورة مشتركة في كراس حربي ، حول تقسيم مفيد لمهمة البحرية . وقد تضمن هذا الكراس الدروس التي أفادت بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية ومنها درس لم يسبق تطبيقه على الصعيد العملي . وجاء في الكراس ان كلمة « بحرية قد ادخلت كي تتضمن المهمات البحرية لسلاح الجو الملكي البريطاني » ، وتشمل الحرب البحرية عمليتين منفصلتين ومتكاملتين في آن واحد هما :

١ ـ ادارة الاستعمالات البحرية : مهمتها تنظيم وتحريك البواخر ، تحميل وتفريغ الحمولات والاشخاص ، الاشراف والدفاع عن الموانيء ، ثم استخدام وتدريب والحفاظ على القوات البحرية . وهذه مسؤولية بحرية في الغالب .

٢ ـ الصراع ضد القوات البحرية والجوية المعادية : عمليات دفاعية وهجومية من جميع الانواع ، دعما لهدف بحري ، بما في ذلك دعم مباشر من القوات البرية . وهذه في الغالب مسؤولية بحرية جوية مشتركة .

اما فيما يتعلق بالاستراتيجية ، فما هي القوات المعنية ؟ ان القوات

البحرية والجوية العامة المتوفرة مباشرة لكل من الحلف الاطلسي والاتحاد السوفييتي من اجل العمليات في شمالي الاطلسي ، والمداخل الغربية (حيث ان اشتراك قوات غير سوفييتية فيها لا يكاد يذكر) ، فهي كما يلي :

الفئــــة	حلف الاطلسي	الاتحادالسوفييتي
اسطول ناقل ، ضارب	—	١
مجموعات دعم اغراض عامة	٣	٢
مجموعات مرافقــة	٤	٢
غواصات « تدفع ذريا »	٤٤	٦٠
غواصاتدورية بدفع ديزلكهربائي	٤٠	٤٠
سفن دورية ومرافقة « بالاضافة الى الموجود في البنود ١-٢-٣ »	٥٢	٦٤
طائرات بحرية ضاربة « ثلثاهــا محمولة على حاملات طائرات »	٣٠٠	٢٥٠
طائرات دوريــة	٥٠	٥٠

ومن المقدر ، ان يكون لدى الجانبين ، عــدد من سفن الدعم السوقي «Logisitique»ومنزوارق زرع الالغام ومن كاسحات الالغام ، ومن البواخر والسفن المساعدة . وقد يشتمل الاسطول الشمالي السوفييتي على ما يزيد على خمسة وعشرين زورقا قاذفا للصواريخ ، من النوع السريع .

تضاف الى هذا بالطبع ، القوات البحرية الكبيرة ، والقوات الجــوية التابعة لها الخاصة بالسوفييت ، وبحلف وارسو ، وهي القوات التــي ستواجهها القوات البريــة والقوات الجــوية لجمهورية المانيــا الاتحاديــة والدانمارك . أما في البحر المتوسط ، فكان هناك الاسطول السادس الاميركي وقسم كبير من الاسطول الفرنسي . كمــا انبرت أيضا القوات البحــرية

الايطالية واليونانية والتركية للعمل لصالح القوات البحرية التابعة لحلف الاطلسي ، ومحاربة الاسطول السوفييتي بفعالية ، اذا ما بقيت حكوماتها صامدة ووفيــة .

أما مواقف الحكومات المختلفة في شمال افريقيا وقدراتها عـلى دعم العمليات البحرية السوفييتية ، فهي ذات أهمية خطيرة . ولقد كان لتخلي بريطانيا في السبعينات ، عن وجودها البحري في البحر الابيض المتوسـط لصالح بحرية الولايات المتحدة الاميركية من جهة وللقوات الحليفة لجنوب أوروبا « Afsouth » من جهة أخرى ، نتـائج خطيرة جدا ، شكلت نقطـة ضعف كانت لها نتائج سيئة .

وقد رأت القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب من غرب أوروبـا «Jacwa» عند تـدارس الاستراتيجية ، أن أول ما يجب عملـه ، خلال مدة الانذار ، هو تنفيذ المهمات الخمس التاليــة :

١ ــ وضع القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب من غرب أوروبا في حالة استعداد للحرب .

٢ ــ تصعيد مراقبة واستطلاع النشاطات البحرية والجوية السوفييتية ولحلف وارسو .

٣ ــ توطيد الاجراءات التي تسمح بالاشراف على النقـل البحري وحمايته .

٤ ــ حماية منشآت النفط وآبارها والغاز الطبيعي في منطقــة بحر الشمال ، بالتعاون مع القائد العام لقوات الحلفاء في شمال أوروبا « Cincnorth » الـذي هو بنفس الوقت قـائدا لقـوات حلف الاطلسي في أوروبـا في « أوسلو » التابع للقائد الاعلى للحلفاء في أوروبا .

٥ ــ ضمان حركة ابحار مأمونة ومنتظمة لجميع السفن ، بـين المملكة المتحدة والقارة الاوروبية بهدف دعم القائد الاعلى لقوات الحلفاء في أوروبا من الناحية السوقية .

لم تكن هناك حاجة كبيرة للتفكير في الشؤون الاستراتيجية ، فاذا ما بدأت

الاعمال القتالية ، على كل حال ، يبدأ معها اتخاذ القرارات ، كما هو الحال في ظل الصدمة التي تحدثها أعمال العدو ، حين ترد الطلبات الكثيرة على قوات لا تتمتع بالكفاءة .

ففي الحرب العالمية الاولى التي جرت في الفترة ١٩١٤ ــ ١٩١٨ والحرب العالمية الثانية التي دارت في الفترة ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ وباستحسان حار من قبل الاميرالية البحرية البريطانية انطلق أسلاف القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب الغربية الى البحر بأساطيلهم ، لكنس العدو من البحار . ولقد أسفر قطع آلاف الاميال ، من الملاحة غير المثمرة ، في تلف الآلات ، والاشخاص أيضا . ولقد نسفت سفن غالية الثمن ، باهظة التكاليف ، أو أغرقت من قبل الطائرات ، ولكن بدون ايقاع اصابات مقابلة في صفوف العدو . كان للقيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب الغربية ولجميع من يعمل معها ، سبب قاهر ، لرفض هذه السابقة ، على أن العمليات الهجومية الوحيدة هي التي يمكن تبريرها فقط ، على الرغم من قلة القوات الموضوعة تحت تصرفها ، وعدم وجود احتياط للتعويض عن الخسائر الكبيرة ، وهي التي يمكن أن تخفف على الفور ، من الاخطار التي تهدد أهداف حلف الاطلسي « الناتو » .

كان جليا ، أن أكثر القوات المعادية فعالية ، هي الغواصات النوويةالستون المخصصة للاهداف العامة ، وهي من نوع « SSN » وتتبع للاسطول الشمالي السوفييتي ، الى جانب مائتين وخمسين طائرة من طراز « باك فاير » البحرية الضاربة الموجودة في قواعدها في منطقة « مورمانسك » ، وبناء على ذلك ، كانت العمليتان الهجوميتان الاوليتان ، التي قامت بهما القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب تعتبران لصالح القائد الاعلى لقوات الحلفاء ، في الاطلسي ، بقدر ما هما للقيادة الحليفة لمناطق التقرب «Jacwa» ، لكن نظام دمج القيادات العاملة ، أمنت وضوح الهدف والقيادة والاشراف . كان قائد الغواصات البريطاني في بنية القيادة مع حلف الاطلسي ، قائدا للغواصات لشرق الاطلسي ، وقائدا للغواصات أيضا لمناطق التقرب الغربية . أما نظيره

في سلاح الجو الملكي ـ ضابط الجو ـ قائد المجموعة الثانية عشرة ، فكان قائدا للقوات الجوية التابعة للبحرية ، شرق الاطلسي ، وقائدا للقوات الجوية التابعة للبحرية لمناطق التقرب الغربية ، ولذلك توجب انزال غواصات حلف الاطلسي بمهمة مقاومة دوريات الغواصات المعادية بدون تأخير . وكذلك تكليف القوات الجوية التابعة للبحرية ، بانزال ضربات قوية على الطائرات الجاثمة على الارض . وعلى المنشآت الجوية في منطقة « مورمانسك » وهو الامر الذي كان مخططا له في أول فرصة ممكنة ، بعد نشوب الحرب مباشرة.

هذا وقد زادت بريطانيا من مساهمتها البحرية في حلف الاطلسي ، خلال المدة من ١٩٧٩ ـ ١٩٨٥ أثر صحوة فجائية متأخرة للرأي العام البريطاني ، حول امكانية تعرض تجارتها وامداداتها المحمولة بحرا الى مخاطر هجوم خطير . ويذكر ان بقية الدول الاعضاء في حلف الاطلسي « الناتو » في شمال غرب أوروبا ، أصبحت تحس بمثل هذه المخاطر . أما أهم العناصر في برنامج الطوارىء البحري فهي :

١ ـ ثلاث حاملات طائرات ، وهي عبارة عن هياكل سفن مجهزة ، بمدارج قصيرة للطائرات ، وأجهزة قياس لعمليات التحكم بالطائرات وعملياتها . وتحمل مزيجا من طائرات الاقلاع والهبوط : عمودية «V-STOL» مقاتلة قاذفة استطلاعية ، وحوامات عمودية مجهزة لمقاتلة الغواصات «ASW» . كانت هذه السفن التي تبلغ سرعتها ثمان وعشرين عقدة في الساعة ، والتي بنيت بمواصفات السفن التجارية ، باهظة التكاليف .

٢ ـ اربع فرقاطات اضافية ماركة « شيفلد » معدلة ومتطورة .

٣ ـ اثنا عشر طرادا لمهمات الدورية السريعة من نوع جديد .

٤ ـ ست سفن كاسحات للالغام اضافية .

٥ ـ خمس غواصات تسير « على الديزل والكهورباء » صغيرة للقيام بأعمال الدوريات .

لقد كان هذا البرنامج للبناء البحري ممكنا تنفيذه ، على الرغم من الضائقة الاقتصادية في بريطانيا العظمى في عام ١٩٧٠ ، لأن صناعة بناء السفن « باستثناء أحواض بناء السفن الحربية » لم تتلق طلبات كثيرة لبناء السفن في أحواضها ، ولذا فان أي طلب في هذا المجال يلقى ترحيبا حارا . وقد بدا ذلك حلا بديلا مفضلا لبناء سفن تجارية لحساب البلدان الدائرة في فلك السوفييت، ولو أدى ذلك الى خسارة ، إذ من الممكن أن تستعمل في منافسة شديدة ضد الاساطيل التجارية للمملكة المتحدة . وكان شكل وحجم الاسطول البحري الملكي في منتصف الثمانينات مناسبا الى الدورين الرئيسيين لواجب البحرية في المملكة المتحدة : أي ادارة استعمال البحر ، ومحاربة القوات المعادية . كما أصبحت هذه الصيغة مقبولة أيضا لدى الاساطيل الاخرى لدول حلف الاطلسي ، حتى أن اختلاط القوات ، كان يتجه تدريجيا الى نحو درجة نموذجية .

أما استراتيجية القائد الاعلى لقوات الحلفاء في الاطلسي « Saclant » كما تبلورت في ظل اولئك الرجال الاكفاء الذين شغلوا هذا المنصب في عام ١٩٨٥، فتتألف من ثلاثة عناصر رئيسية :

أولا ــ أن يقدم المساعدة المباشرة حيثما كان ذلك ممكنا ومناسبا لكل من القائد الاعلى لقوات حلف الاطلسي في أوروبا والقيادة الحليفة المشتركة للمداخل الغربية في عملياتها .

وكان تقدير القائد الاعلى للحلفاء في الاطلسي للقدرة القتالية للانواع المختلفة من القوات الجوية والبحرية قد قادته الى أن يقيم مفهومه للعمليات على أساس أن الصاروخ الموجه أو المبرمج ذا السرعة فوق الصوتية « سوبر سونيك » سواء أطلق من الارض ، أو من على سطح الماء أو من الغواصات ، أو من الطائرات هو الخطر الرئيسي على القوات البحرية ، وعلى سفن النقل التجاري في البحر ، لكن هناك مضادات فعالة ، وقيد الاستعمال العملياتي

لصد هذا الحظر . ويجب أن تكون « بديهيات العمل » ماثلة في الاذهان وهي : المفاجأة قبل كل شيء ، الحشد والتركيز ، والاقتصاد في القوى .

ونظرا لعدم استطاعة الغواصات على العمل تحت الماء بمجموعات كبيرة ، بنفس الطريقة التي كانت تعمل بها قوارب « قطعان الذئاب » على السطح ، خلال الحرب العالمية الثانية مثلا ، فان من الصعب اليوم على هجوم بالغواصات أن يتصدى بفاعلية للدفاعات المضادة للصواريخ لمجموعة مرافقة أو دعم بحري منظمة بشكل جيد . وباستطاعة طيران البحرية من جهة أخرى أن ينفذ هجوما قويا مركزا يمكن له ولو بصورة مؤقتة ، التغلب على الدفاعات .

على ضوء هذه الاعتبارات ، خططت عمليات القائد الاعلى للقوات الحليفة في الاطلسي . ولقد كان أساسيا وهاما ، بالنسبة لهذه الخطط استغلال امكانيتين تم تطويرهما خلال السنوات القليلة الماضية للانذار المبكر عن أي هجوم وشيك الوقوع . وأول هاتين الامكانيتين هو الغواصات ، وقد أخذت المعلومات ، عن تحركات الغواصات السوفييتية التي تم الحصول عليها بجهد خلال أيام السلم تزداد وفرة من خلال استعمال اجهزة تنصت سطحية ، تستخدم فوق سطح الماء « Stass » وتعمل في عدد من سفن الدورية ، بحيث تستطيع التنصت على أصوات الغواصات تحت الماء ، وخاصة عند تجاوزها السرعات البسيطة ، وهذه المعلومات التي يتم الحصول عليها على هذا النحو ، يزود بها نظام مراقبة الغواصات الشامل مع ما يتصل بها من تحسينات في درجة صحتها وشموليتها . أما الجهاز الهام الثاني فكان جهاز الانذار والتحكم المحمول جوا « Awacs » الذي يستعمل في طائرات الدورية الكبيرة . وبوسع هذا الجهاز أن يؤمن انذارا من مدى بعيد ، عن الطيران المنخفض أو الهجوم بالصواريخ . ومن هنا يستطيع أن يحبط والى حد ما مخاطر التغلب على الدفاعات من هجوم صاروخي مفاجيء .

لقد كان واضحا في أذهان أركان البحرية السوفييتية ، ماذا يجب عمله ،

عند التخطيط للعمليات البحرية التي تهدف الى دعم الاعمال الدفاعية لحلف وارسو اذا ما اقتضى الامر ذلك . لقد كان على البحرية السوفييتية ان تبين أن اسهامها في تحقيق الاهداف السياسية للاتحاد السوفييتي ، لا يقف عند حد دعم القوات الارضية فقط ، واذ تركز البحرية السوفييتية على عزل ميدان المعركة في شمال ــ غرب أوروبا ، فانها لا تساعد الجيش الاحمر مباشرة فحسب ، بل في اضعاف التزام الولايات المتحدة الاميركية تجاه أوروبا الغربية ، وعلى ذلك فان المهام الاساسية للبحرية السوفييتية خلال الايام العشرة الاولى من بدء القتال هي :

١ ــ الحفاظ على القوات النووية الاستراتيجية للبحرية السوفييتية، صحيحة ومستعدة ، في الوقت الذي تحد فيه والى أقصى الحدود من الدمار الذي قد ينجم عن استعمال حلف الاطلسي للاسلحة النووية الاستراتيجية أو التكتيكية في البحر .

٢ ــ مساعدة القوات الارضية والجوية للاستيلاء على مخارج البلطيق وقناة « كييل » وابقائها جميعا مفتوحة .

٣ ــ دعم القوات الارضية والجوية في غزوها للنرويج من الشمال .

٤ ــ تدمير أكثر ما يمكن من السفن والغواصات والطائرات البحرية التابعة لحلف الاطلسي في المحيط القطبي وبحر النرويج ، وشمالي الأطلسي ، وبحر الشمال والقناة الانكليزية ، وبحر البلطيق . أما خارج هذه المناطق كمنطقة الاطلسي جنوب خط السرطان وفي أماكن أخرى ، فيمكن الاشتباك مع قوات حلف الاطلسي ، أو قوات الدول الاعضاء في حلف الاطلسي ، عندما يلوح ، أن لامندوحة عن الاعمال العدائية ، أو عندما تكون قد بدأت .

٥ ــ اعاقة التحركات البحرية بين المملكة المتحدة والقارة الاوروبية .

٦ ـ تحييد أو تدمير منشآت الغاز والنفط في بحر الشمال .

٧ ـ الحفاظ على حرية حركة الغواصات السوفييتية في الثغرة الواقعة بين « غرينلاند ـ وايسلاند » ، والمملكة المتحدة ، وعدم السماح بهذه الحرية الى غواصات حلف الاطلسي .

٨ ـ منع النقل ، وبشكل خاص النقل البحري من الوصول الى الموانىء الاوروبية لحلف شمالي الاطلسي .

٩ ـ ايواء جميع السفن السوفييتية وسفن حلف وارسو بما في ذلك قوارب الصيد والابحاث في موانىء محايدة أو صديقة ، قبل الاستيلاء عليها أو تدميرها .

كان انذار حلف الاطلسي «ناتو » عن هجوم وشيك من قبل حلف « وارسو» مقتضبا ، وقد تم الاعتماد في ذلك والى حد كبير على التحريات التي تم التوصل اليها بشأن زيادة انزال الغواصات من اسطول الشمال السوفييتي ومقره في « مورمانسك » في مدخل « كولا » الى الاطلسي .

كانت قيادة البحرية السوفييتية على علم بذلك ، وعلى الرغم من وجود حركة نقل بواسطة سفن السطح من البحر الاسود عبر مضائق البوسفور والدردنيل « انظر الفصل الرابع عشر » الا أنه لم يسمح بأي تغيير على حركة الغواصات خلال الاسابيع الثلاثة التي سبقت يوم « ي » أي الرابع من آب ١٩٧٥ . حقا لم يكن هناك من داع لذلك .

فقد كان يوجد في البحار وفي مهمات متنوعة وعلى استعداد للقيام بالعمليات حوالي ثلث مجموع غواصات الاغراض العامة المسيرة بالقوة النووية ، وغواصات الدورية المسيرة بالديزل والكهرباء في الاسطول الشمالي . علما أن عدد الاولى ستون غواصة ، وعدد الثانية اربعون غواصة . وكان هذا العدد معنيا بالدرجة الاولى ، بمراقبة الغواصات النووية الاستراتيجية

الاميركية والبريطانية . وكذلك تمارين وتحركات القوى البحرية الاميركية الرئيسية ، وهكذا كانت الغواصات السوفيتية تقوم بمهمة الدورية وعلى استعداد لخوض الحرب في مختلف مستوياتها . وباستطاعتها أن تظل تقوم بواجبها اذا ما بدأت الحرب ، الى أن تستنفذ كافة أسلحتها أو أن ينفد احتياطها وتموينها من الطعام ومن الوقود «هذا بالنسبة للغواصات المسيرة بالديزل والكهرباء » . ان ما جرى في الرابع من آب وخلال الاسابيع القليلة التالية أظهر أن فاعلية قوة الغواصات السوفييتية ، قد تحسنت كثيرا منذ الحرب العالمية الثانية ، وأظهر أيضا ان الاجراءات المضادة للغواصات في حلف الاطلسي قد تحسنت بقدر مماثل أيضا .

كان الوضع في البحر ، يذكّر بالشهور الاولى من الحرب العالمية الثانية حيث نفذ ما يشبه الضربات الصاعقة « Blitzkrieg » في وسط أوروبا ، ترافقها عمليات دعم بحرية ، وهجمات من الغواصات على الملاحة في المداخل الغربية لاوروبا ، وهجمات متقطعة من الغواصات ومن سفن السطح ، ومن الجو ، على الملاحة الحليفة في أرجاء العالم . كما جرى اغراق واستيلاء وتدمير البحرية الحليفة .

لا شك أن هناك فروقا بين الامس واليوم . تلك الفروق هي قبل كل شيء فروق سياسية عسكرية ، فخلافا للوضع الذي كانت عليه المانيا بين عامي ١٩٣٩ ــ ١٩٤٠ كان الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٨٥ راسخ القدم في الشرق الاوسط ، وفي كل من غرب وشرق افريقيا . ومن جهة أخرى ، لم تقف الولايات المتحدة الاميركية في عام ١٩٨٥ جانبا ، كما وقفت بين عام ١٩٣٩ و ١٩٤٠ ، عندما كانت بريطانيا العظمى ودول « الكمنولث » تقف وحيدة في مواجهة المانيا النازية ، فالولايات المتحدة الاميركية الآن ، تقف ، ومنذ البداية على رأس تحالف عظيم ، من البلدان ، انشيء بهدف دعم كل بلد للآخر اذا ماهوجم برا أو اذا هوجمت سفنه أو طائراته في المحيط الاطلسي ، وهنا تكمن الصعوبة ، أو في شمال مدار السرطان « الحدود الجنوبية لمنطقة حلف الاطلسي» أو في البحر الابيض المتوسط . ومن سوء الحظ ، فان الحلف لا يستطيع ،

العمل خارج هذه المناطق البحرية المذكورة .

ولا ريب أن الازدياد السريع في عدد البلدان المستقلة منذ عام ١٩٤٥ ، ومعظمها ، ذو سواحل بحرية ومصالح بحرية تجارية وملاحية ، اقتصادية وعسكرية ، قد اسهمت في تعقيد الحرب في البحر .

ولعل خير ما كان يستطيع حلف الاطلسي عمله هو اقامة مجالس النقل البحري التابعة لحلف الاطلسي ، في الموانيء الرئيسية في العالم . وتألفت هذه المجالس من ممثلين عن وكلاء الشحن من بلدان حلف الاطلسي ، إذ يتواجد هؤلاء في كل مكان ، بالاضافة الى الممثلين الدبلوماسيين من ملحقين تجاريين وقناصل لهذه البلدان المعنية . وبوجود الاتصالات الوثيقة ما بين مجلس التخطيط والدراسات للنقل البحري عبر الاطلسي ، التابع لمنظمة حلف الاطلسي « ناتو » والسلطات البحرية التابعة للحلفاء أيضا كلا على حدة ، استطاع هذا الحلف ، تنظيم وحماية عمليات النقل البحري داخل وخارج مناطق نفوذ دول حلف الاطلسي . ولم تكن هذه الاجراءات ، بديلة عن النظام العالمي للقيادات البحرية ، وضباط الاشراف على السفن والنقل البحري ، والذي من خلاله ، استطاعت المملكة المتحدة ، وحلفاؤها البحريون ، ادارة ، شؤون البحر في الفترة مابين عام ١٩٣٩ و ١٩٤٥ كشيء أحسن من لا شيء . وهذا أفضل ، حقا ، من النظام السوفييتي الشديد المركزية، فالفائدة الناجمة عن المرونة ، والمبادهة اللتين تتحلى بهما مجالس الشحن أو النقل البحري التابعة لمنظمة حلف الاطلسي ، لا تقارن بالصعوبات التي يلاقيها ممثلو الاتحاد السوفييتي في الحصول على تخويل بالتصرف ، حسبما يقتضي الموقف ، على ضوء المعرفة المحلية بالظروف المتغيرة بسرعة .

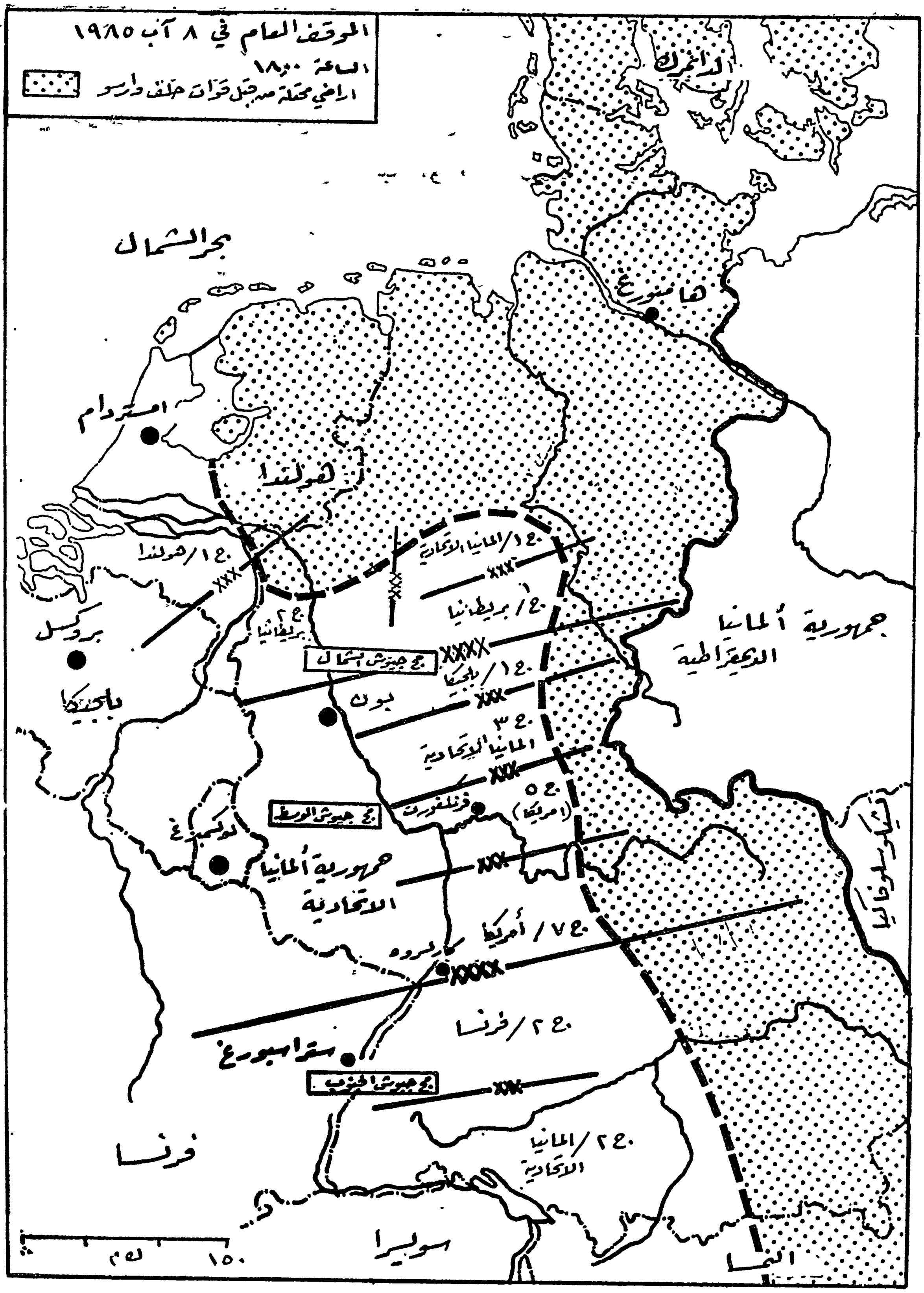
أما المجموعة الثانية من الفروق في الشروط العامة ما بين الحربين العالميتين الثانية والثالثة ، فكانت في معظمها فروقا فنية ، ولعل أهم العوامل الجديدة كان ادخال الغواصات التي تعمل بالطاقة النووية إذ بوسعها أن تدور

مرتين أو ثلاث مرات حول العالم ، دونما حاجة للتزود بالوقود ودونما حاجة للظهور فوق سطح الماء « باستثناء لحظات لاغراض الملاحة والاتصالات » . وتلك كانت أدوات فعالة في القوة البحرية ، بالمعنى السلبي للكلمة ، أي قوة منع دولة معادية أو ائتلاف معاد من استعمال البحر ، أما في الجانب الايجابي من القوة البحرية ، فالغواصات تستطيع ان تساهم بقدر أقل . لقد وصف ضابط بحري فرنسي ، الغواصات المسلحة بالصواريخ والمسيرة بالطاقة النووية ، بأنها « قصيرة النظر ووحشية » . والاتحاد السوفييتي ، إذ يركز اعتماده على قوة غواصات كبيرة كهذه لتكون اداته للوصول الى قوة البحر المزعومة ، فانه انما يؤكد سلوكه الوحشي « القصير النظر » كما قد يتبادر الى ذهن البعض . فخلاصة القوة البحرية ، كما مثلتها الامبراطورية البريطانية في أوجها ، هي المساهمة الايجابية في تنمية التجارة الدولية في جو سلمي ، أما طيران البحرية الضارب ، فعلى الرغم من كونه بعيد النظر فهو أشد وحشية وقسوة من الغواصات . فالاخيرة تستطيع على الاقل وفي ظروف معينة أن تعمل دون التنكر الى الجانب الانساني ، وذلك باستعمال الحد الادنى من القوة ، وبمساعدة الناجين ، الى الوصول الى شاطىء السلامة . وهو مالا تستطيع الطائرات التي تنطلق من قواعد على الشاطىء ، أن تقوم به . وفي عام ١٩٨٥ كان على الاتحاد السوفييتي ، ان يواجه حقائق معينة ، فهو لايستطيع تجاهل بعض الامور . ان امتلاك الاتحاد السوفييتي للقدرة الهائلة في اغراق السفن ، وعلى الاساطيل التجارية الكبيرة ، والتحكم بذلك مباشرة من موسكو، لايمكن أن يعتبر بديلا عن قوة سفن الغرب المنسقة بحرية وتحت حماية الاساطيل الحليفة التابعة للدول البحرية التي ترفع أعلامها .

أن أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، الذين كانوا يؤيدون خط الادميرال « غورشكوف » لمدة طويلة ، لم يتوصلوا إلى ادراك هذا الامر بسهولة ، وبدأ هؤلاء يلحون في طلب معرفة ، لماذا صدرت الاوامر الى كل سفينة سوفييتية أو تابعة لحلف وارسو ، بدخول الميناء ؟ وماذا يفعل الاسطول السوفييتي ؟ هل يدعم عمليات الجيش الاحمر في وسط وشمال أوروبا ؟ نعم . هل يدعم ، الحرب « الاخوية » في الشرق الاوسط ؟ بالتأكيد . ولكن ماذا عن الامدادات المحمولة بحرا والتي يحتاجها رفاقنا الاشتراكيون في الشرق وفي جنوب افريقيا ، وفي غرب افريقيا وفي البحر الكاريبي ؟ أما فيما يتعلق بالبحر الابيض المتوسط ، فلماذا تبقى سفننا ، وسفن الدول الحيادية والصديقة لنا مجمدة ومشلولة عن الحركة ؟.

وأجاب القائد العام للاسطول السوفييتي قائلا : **« حذار أن ينفذ صبركم أيها الرفاق فبمجرد أن يفرض الجيش الاحمر الباسل السلام في شمال غرب أوروبا ، ويأتي الاميركيون الى طاولة المفاوضات ، فسترون كيف تصبح قوة البحر السوفييتية هي العليا ، كما هو انتصار جيوشنا في البر ، وسترون أيضا أن البحرية السوفييتية ، هي التي حققت النصر »** .

* * *


الموقف العام في ٨ آب ١٩٨٥
الساعة ١٨٠٠
أراضي محتلة من قبل قوات حلف وارسو
الدانمرك
بحر الشمال
هامبورغ
امستردام
هولندا
١ج/هولندا
بروكسل
بلجيكا
١ج/ألمانيا الاتحادية
١ج/بريطانيا
٢ج بريطانيا
مج جيوش الشمال
١ج/بلجيكا
بون
٣ج ألمانيا الاتحادية
٥ج (أمريكا)
فرانكفورت
مج جيوش الوسط
لوكسمبورغ
جمهورية ألمانيا الاتحادية
٧ج/أمريكا
كارلسروه
٢ج/فرنسا
ستراسبورغ
مج جيوش الجنوب
٢ج/ألمانيا الاتحادية
فرنسا
سويسرا
النمسا
تشيكوسلوفاكيا
جمهورية ألمانيا الديمقراطية
١٥٠ كم

الفصل السابع عشر

معركة الأطلسي

وقع أول قتال بحري في الحرب العالمية الثالثة بين غواصتين احداهما بريطانية والاخرى سوفييتية ، التقتا عند ثغرة « شتلاند وفارو » التي يشكل امدادها الى «ايسلاندا »ومن ورائها الى «غرينلاند » ميدان معركة بحريةرئيسية في الحرب . وما يلي هو عبارة عن سرد لما حدث مأخوذا من كتاب الغواصات في الحرب بقلم « ج. هلر » منشورات « سدغويك وجاكسون » لندن في عام ١٩٨٧ .

« نادى القائد « بيتركين » من البحرية الملكية رفاقه في الغواصة قائلا : الى المنظار » . وأمسكه « ب.ك » بمقبضيه ، وأخذ يفتش قطاعا آخر من الافق ، كانت السماء زرقاء صافية والبحر هادئا ، وليس هناك ما يشاهد حتى الآن ، لكن ليس صحيحا أن يقال أن « ب.ك » كان منفعلا ، أو قلقا ، لكنه كان متوتر الاعصاب ، فقد ظل يقود غواصة « تشرشل » لمدة سنة كاملة . كانت هذه الغواصة التي تسير بالطاقة النووية قد أعيد أصلاحها وتسلم هو أمرتها ، وأجرى عليها سلسلة واسعة من التجارب والتمارين فكانت في حالة جيدة وكان طاقمها من الدرجة الاولى ، لكنه الآن يواجه واياهم والغواصة « تشرشل » ، امتحانا نهائيا . كان التاريخ الخامس من آب ١٩٨٥ عندما أبحروا من « فازلين » قبل يومين ، حين كانت بريطانيا ، تنعم بالسلم والهدوء . وإذ اندلعت الحرب أحس « ب.ك » أن فكره يعمل أكثر من طاقته وبالتأكيد كان يشعر أنه ليس متأثرا بالاحداث فحسب ، بل مختلفا بعض

الشيء ، كان يجب عليه أن يفكر ، هل أتخذ ، كل اجراء للاستعداد للقتال ؟ إذ يجب أن لا يكون هناك أي خطأ ، المسألة هي ، اما نحن أو هم :

« **أنزلوا المنظار ، خمسة وستون مترا** » . كان « ب.ك » قد احتاج الى وقت طويل نسبيا ليوعز بتحديد العمق بالامتار ، على الرغم من أن لوائح الادميرالية قد حوّلت الى النظام المتري قبل عشر سنوات وسقطت كلمة « قامة »(١) من اللغة البحرية .

كانت أوامر « ب.ك » القيام بدوريات مضادة للغواصات في المنطقة الواقعة ما بين « شتلاند والفاروز » حيث سيكون بمنأى عن غواصات حلف الاطلسي الاخرى . وبسبب أحوال الماء السائدة ، قرر أن يبقى في « منطقة السطح » إذ أن ذلك سيسمح له بالوصول ، بسرعة وبهدوء ، الى عمق المنظار ليستطيع تصنيف وتمييز الاتصالات التي تصدر عن أجهزة رادارات التنصت « سونار » وأجهزة تحديد الاعماق ، وأجهزة الكشف عن الاجسام بطريقة الصوت ، إذ لا يزال في عرض البحر بعض سفن الصيد ، وربما بعض القطع البحرية الاخرى .

وجاء صوت الميقاتي في جهاز الاتصال الداخلي « الانترفون » قائلا : « غرفة المراقبة ــ سونار » أحمر ، ثلاثة ، اثنين ، يا سيدي . اتصل « ب.ك » وأصدر الامر قائلا : « **جميع محطات العمل ، رقم واحد ، أعدوا جميع أنابيب الطوربيد الى وضع الاستعداد على عمق منظار الاعماق** » .

واتجهت الغواصة نحو الاعلى ، ثم استوت ، وجاء صوته يقول « **المنظار الى الاعلى** » وحملق « كين » باهتمام وأخذ يحرك المنظار الى الامام والوراء ، على جانبي الشعاع ، ثم أعاد المنظار الى وضعه السابق ، وقال « **أخفضوا المنظار** » .

كان الرجال قد أخذوا مواقعهم في غرفة المراقبة ، استعدادا للمعركة

---

(١) القامة : fathom مقياس لعمق المياه يساوي ٦ أقدام .

فالغواصات التي تسير بالقوة النووية تمضي معظم وقتها تحت سطح المـاء ، وقد استبدل الايعاز المقدس « المحطات الى الفطس » بايعاز آخر « المحطات الى العمل » لكن « أخطار البحر » بالنسبة الى الغواصات ، كانت دائما مصدر خوف أكثر من « عنف العدو » كما ستكشف لنا الدقائق التالية :

وجاء الرد من « جيك بوند » ضابط التحكم في الطوربيد من غرفـة السونار « كل الانابيب جاهزة للعمل . سيدي » شعاع أحمر ثلاثة ، صفر ، وأعلن « آه ياسيدي ديزل » .

وأوعز « ب.ك » المنظار الى الاعلى ونظر الى الشعاع ، ثم يمنة ويسرة ، لا شيء يشاهد في حقل الرؤيا ، قد تكون هناك غواصة تأخذ طريقها الى جهة ما ، وقد تكون قريبة . رقم واحد ، أبلغ أننا نهاجم غواصة معادية أنزلوا المنظار ، وقال الملازم الاول « توم ريتشاردسون » على الانترفون « أنت هناك » (بمعنى جميع المحطات) هل تسمعني ؟ وأبلغ الرسالة .

وجاء صوت « غوردن » رئيس عمليات السونار ، يقول « شعاع ، أحمر ، اثنان ، ثمانية ، سيدي غواصة ، ديزل ، مائتين واربعين دورة سيدي . ثمان عقد ، اذا كانت من نوع « تانغو » البوابة عشرين ، قف الى جانب الانبوب واحد ، والانبوب اثنين . الى الربان ، أعطني المدى بأسرع ما يمكن توجه ثلاثة ، صفر ، صفر » .

وكرر الربان الامر ، كانت غرفة المراقبة الآن هادئة جداً ، كـل واحد في مركزه ، ولكن التوتر يتعاظم ، وقال القبطان ، سألقي نظرة أخرى ، المنظار الى الاعلى ، وجاءه الصوت من غرفة السونار » شعاع أخضر ، أربعة ، ثلاثة ، يتحرك نحو اليمين ، وقال « هاري كلاي » الملاح « المسافة خمسة آلاف ومائتين يا سيدي » .

وقام القبطان بمطابقة المنظار على الشعاع « أعتقد ان هناك شيئاً ما ،...

نعم ، يا الهي انها قريبة جدا ، أنزل المنظار ، خمسة وستين مترا تحول الى السونار ، المسافة ثلاثة آلاف ، أنبوب رقم واحد ، وانتقل « ب.ك » الى لوحة التحكم بالنار . وقال : « جيك بوند » الطوربيد ينطلق يا سيدي » .

ورد « ب.ك » هذا جيد ؛ اذ كان قد قام بعشرات الهجمات التدريبية على الغواصات الصديقة ، خلال تنفيذ مناهج التدريب ، ورأى العديد من الطوربيدات المضادة للغواصات من طراز « تايغرفيش » يطلق للتمرين ، بعضها كان انطلاقه سيئا ، وحملق في اللوحة المضاءة ، وكأنه يستعد لتوجيه الصاروخ اذا اقتضى الامر ، لن يصدق ما رأى ، كان طوربيده يتحرك بخط مستقيم باتجاه الهدف ، ومضت دقيقة ، كأنها الابد ، ثم نصف دقيقة ، ثم جاء الصوت من غرفة السوناز :

ــ « تماس صوتي » وتبعه بعد سكون مضن « تونك » « أي طنين جسم غريب يرتطم بالغواصة » ثم تلا ذلك صدمة معدنية خفيفة .

وقال كين « يا للعنة » هناك خطأ ما ، لقد أصاب الطوربيد الهدف ، ولكنه لم ينفجر » . هذا ما قاله « كين » والخيبة تعتصر قلبه .

ــ وانفجر صوت غوردون قائلا : غرفة المراقبة ، هنا سونار أعتقد اننا أصبنا الهدف ، كان ذلك صوت انفجار . الشعاع الاخير ، أخضر ، خمسة ، وسبعة .

وقال « ب.ك » « جيد ، المنظار الى الاعلى » واستدار القبطان وتفحص الافق ، ثم عاد ، الى الاتجاه الاصلي .

ــ لايوجد شيء هناك » لقد قام الطوربيد من طراز « تايغرفيش » بمهمته أخيرا وان لم يسمع صوت انفجار .

« أيها الربان جهز تقريرك : لقد أغرقنا غواصة من طراز « تانغو » في موضع ، كذا وكذا . سنبحث عن الناجين أو الحطام أو أي دليل مادي آخر ، ولكن لا أظن أن هناك أي شك وها قد دمرنا واحدة ، ولكن بقي هناك ثلاثمائة وغواصتان » .

« نحيطكم علما ان الغواصة ــ تشرشل ــ قد دمرت بطوربيداتها الغواصة تانغو على بعد عشرين ميلا ، شمال غرب هيرما ييس ــ ياسيوني » كان هــذا أول خبر مشجع عن الحرب ، تتلقاه القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقــرب الغربيــة باعتبارها القيادة العامة لشرق الاطلسي ، وقائدها هو في الوقــت نفسه قائد طيران البحرية لشرق الاطلسي أيضا . في البداية كانت التقــارير الموجــزة عن الحــرب تصــدر عن هذه القيــادة المتمركزة في مقــرات قيــادة تحت الارض ، في « نورث وود ميدل اسكس » . أحس قائــد الغواصــات « فلاغ اوفيكس » الذي كان مقره في « نورث وود » منذ عام ١٩٧٨ ، بالحرج عندما وجه الادميرال ومارشال الجو ، في وقت واحد السؤال التالي أثــر اطلاعهما على النبأ : « **هل أنت متأكد من أنها لم تكن احدى غواصاتنا** » ؟ أثناء اجتماع عقداه لاعطاء التعليمات التكتيكية معا ، وحضره العديد من ضبــاط القيادة في البحرية والطيران . وتنفس الاثنان الصعداء ، عندما تأكدا من حقيقة الامر ، وأنه لم يكن ثمة شك في صحة الخبر أبدا ، فقد كانت غواصة تسير بمحركات على « الديزل أو الكهرباء » ولم تكن أية غواصة من غواصات حلف الاطلسي قريبة من المنطقة وأوضح النقاش الذي تلا ذلك ، فيما يتعلق بتداخل وتلاقي غواصات منظمة حلف الإطلسي وحلف وارسو . ان تجنب هذا التداخل المتبادل بين غواصات حلف الإطلسي ، بعضها ببعض من جهة ، وبين غواصات الحلف ، وقوات الصراع ضد الغواصات ، من جهة أخرى ، مسألة معقدة وخطيرة . لقد كان هذا متوقعا ولكن حله من شأنه أن يسيطر على جميع العمليات البحرية والجوية التي تقوم بها قوات حلف الاطلسي .

وتحول الحديث الى العمليات الراهنة . فذكر أن مجموعة الدعم الاولى « سابقا كان يطلق عليها اسم القوة البحرية الدائمة في المحيــط الاطلســي « Stanav Forlant » في طريقها ، وبسرعتها القصوى ، الــى الساحل النرويجي ، وخلال حوالي اثنتي عشرة ساعة ، ستصل الى منطقة يمكن منها الاستفادة من التغطية الجوية التي تقوم بها القوات الجوية العاملة من قواعد

على الساحل في المملكة المتحدة . كانت السفن والبواخر السريعة المكلفة بنقل التعزيزات والتموين الى الجناح الشمالي ، قد أبحرت منذ الرابع من آب . وينتظر التقاؤها مع مجموعة الدعم الاولى قريبا .

أما الهجمات الجوية التي كان مخططا لها ضد المنشآت السوفييتية على شبه جزيرة « كولا » وحولها عند نشوب الاعمال القتالية ، فقد شنت من قواعد في المملكة المتحدة . وجرى توقيتها كي تكون فوق الهدف في الساعة الحادية عشرة ، حسب توقيت « غرينتش » . كانت القوة الجوية مكونة من ست وثلاثين طائرة من طراز « تورنادو » وست عشرة من طراز « بوكانير » وهذه الاخيرة ، كانت من الطائرات القديمة ، أعيد اصلاحها وتسليحها وتقوم بأدوار ومهمات بحرية ، وذلك بسبب تخطيها من قبل طائرات « التورنادو » لتقوم هذه الاخيرة بأدوار ومهمات أكثر تعقيدا والحاحا في البر في وسط أوروبا . كانت هذه الطائرات ، موضع ثقة كبيرة ، لخصائصها العملية ، ومتانتها . وقد وصفها أحد الطيارين بقوله : « انها ليست مركبة تركيبا بل منحوتة من الصلب » .

كانت الاهداف ، عبارة عن اربعة مطارات للقوات الجوية التابعة للبحرية السوفييتية « SNAF » وهي قواعد تستخدمها معظم الطائرات من طراز « باكفاير » التابعة للاسطول الشمالي . وكانت المهمة حسب الامر التالي : **« دمروا الطائرات واجعلوا المطارات غير صالحة للاستعمال »** . وكانت خطة الطيران تتضمن توجيهات بحمل خزانات وقود اضافية . والاقتراب بقدر الامكان من جزر « لوفودن » وبقدر ما تسمح به الحيطة والحذر ، وقد يجري التزود بالوقود بالجو اذا لزم الامر . وتقتضي المهمة أيضا تنفيذ الاختراق على ارتفاع منخفض فوق الارض . وتستطيع طائرات « التورنادو » الاحتفاظ بخزان الوقود الاضافي لاستخدامه أثناء العودة الى المملكة المتحدة . أما « البوكانير » ، فستحتاج للتزود بالوقود في « بودو » وتبدأ الهجمات بتوجيه الضربات بالصواريخ المضادة للرادارات على جميع محطات الرادار

من مسافة بعيدة من قبل طائرات « التورنادو » وذلك بهدف تثبيط الإمور قليلاً . ثم عند الاقتراب يجري التركيز على قصف مدارج الطائرات ، ومنشآت الطيران المختلفة بالقنابل والصواريخ، على أن تتولى مدافع الطائرات وصواريخها الاجهاز على أية طائرة لم تصب نتيجة ذلك .

وهكذا بدت الامور بخطوطها العريضة ، بشكل يلفت النظر ، وكأن الروس قد أخذوا على حين غرة أو أنهم كانوا على غير استعداد للقيام بأي رد فعل ما.

ويبدو أنه تم التوصل الى تفاهم متبادل ما بين الاتحاد السوفييتي ، والولايات المتحدة الاميركية ، يمتنع بموجبه كل من الطرفين عن مهاجمة أراضي الطرف الآخر على الرغم من عدم قيام دليل مادي على هذا الافتراض . لكن اذا صح هذا الافتراض فانه سيكون افتراضا باهظ الثمن . ان تحليلا هادئا ، يظهر أن عشرات من طائرات « الباكفاير » الستين قد تم تدميرها أو على الاقل تعطيلها ، وتلك نتائج فاقت الآمال المنتظرة بكثير. ولكن ذلك كان مقابل ثمن، فقد فقدت أثناء الهجوم خمس طائرات « بوكانير » وتسع طائرات من طراز « تورنادو » . كما تم الاستيلاء ويا للاسف على جميع طائرات « البوكانير »، (باستثناء واحدة فقط) أثناء وجودها في « بودو » عندما حطت ، حسب التعليمات للتزود بالوقود أثناء عودتها ، بعد أن أدت المهمة الموكولة لها ، وذلك أثناء هجوم سوفييتي على ذلك المطار .

أما أسراب « الفولكان » الثلاثة التابعة للقوات الجوية الملكية « RAF » الخاصة باستطلاع الرادارات البحرية ، فكانت مشغولة في أعمال الاستطلاع الروتينية فوق بحر الشمال ، والبحار النرويجية ، وشرق المحيط الاطلسي لعدة اسابيع ، وقد ازدادت عملياتها عددا وشدة بالتنسيق مع أسراب الاستطلاع التابعة للقوات الجوية الاميركية العاملة فوق غرب المحيط الاطلسي « Westlantt » ، وفي الثغرة الواقعة ما بين « جوينلاندا وايسلندا » وقد أدى فقدان الاستطلاع باستخدام الاقمار الصناعية فوق الاطلسي ، عند بدء الاعمال القتالية ، الى زيادة العبء الذي تتحمله تلك الاسراب . وكان أول هدف رئيسي لها قد ظهر عشية الرابع من آب ، عندما

اكتشفت طائرة « فولكان » ، ما يتوقع أن يكون وهو مجموعة انزال مائية تحوم حول رأس الشمال « North cape » وقد خصص لمراقبتها سرب طائرات « فولكان » تعمل على مدى أربع وعشرين ساعة ، بالتعاون مع زوارق دورية سريعة نرويجية .

أما عمليات مقاومة الغواصات في شرق الاطلسي التي تستهدف تنظيف البحر أمام الاسطول الضارب . وخاصة في الثغرة ما بين « غرينلاند » والمملكة المتحدة « وتلك مهمة رئيسية ظلت البحرية الملكية تقوم بها لمدة طويلة » فكانت تنفذ ، على اساس استطلاعي ، وقد أصبحت الآن تمضي بهمة ونشاط ، وقامت ثلاث مجموعات مضادة للغواصات « ASW » من البحرية الملكية ، تدعمها وحدات سطح بحرية مضادة للغواصات هولندية ونرويجية بتمشيط المحيط الإطلسي وذلك بتنسيق عملياتها مع القوات الجوية الملكية « RAF » والقوات الجوية التابعة للولايات المتحدة الاميركية « USAF » وطائرات الدوريات البحرية التابعة للقوات الجوية الملكية النرويجية والمتمركزة في المملكة المتحدة وايسلندا والنرويج .

وكانت تؤمن التغطية الدفاعية ضد الجو، حاملة طائرات مرافقة ، ومقاتلات تنطلق من قواعد أرضية من المملكة المتحدة، تدعمها مقاتلات تزود بالوقود جوا ، وطائرات من طراز « النمرود » للانذار المبكر . والى الغرب تتولى طائرات « إف ــ ١٥ » من قواعدها في ايسلاندا تغطية العمليات وايا كانت الطريدة ، سواء الاسطول الضارب أو القوافل ، فلا بد من اكتشاف الغواصات السوفييتية ، وتدميرها هنا في هذه المنطقة .

أما فيما يتعلق في ادارة المجال البحري ، فان اعلان الحكومة البريطانية حالة الطوارىء ، قبل أسبوع أمر لا بد منه ، ولقد أدى ذلك الى اقامة الجهاز البحري للاشراف على السفن والى دعوة الاحتياط ، والى أحياء عدد من المناصب والتعيينات المنسية ، وتعيين ضباط بحريين مسؤولين في جميع الموانىء الرئيسية ، كما بدىء باتخاذ اجراءات مقاومة الالغام البحرية ، على نطاق محدود جدا نسبيا وبقدر ما تسمح به القوات المتوفرة .

وكان أول الاخبار الموجزة التي تلقتها القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب الغربية خلال الاجتماع ، بعد وصول أنباء المنطقة الشرقية لحلف الاطلسي تأتي في تقارير عبر الهاتف والطابعة والتلكس ، عن قتال شديد في شمال المانيا ، ومخارج بحر البلطيق والرسالة اليائسة التالية ، الموجهة من قائد القوات الحليفة لمداخل البلطيق « Combaltap » في كاروب في الدانمارك تعتبر نموذجا للرسائل الاخرى .

((الى القيادة الحليفة المشتركة ، الى نقاط التقرب الغربية « Jacwa »
والى القائد العام للقوات الحليفة في شمال أوروبا للاطلاع « Cincnarth »

١ ـ تقوم القوات الارضية السوفييتية ، مدعومة بالطيران بمهاجمة ((ارهوس)) .

٢ ـ تم زرع الالغام البحرية في الحزام الكبير وفي حزام لانغلاند بنسبة ٥٠٪ .

٣ ـ كافة القوات البحرية العملياتية أمرت بالتوجه الى البحر ، الغواصات ستقوم باعمال الدورية في ((كاتيغا)) ، قوات السطح ستشتبك مع القوات العائمة المعادية ، حالما تسمح الفرص ، وستلجأ الى ((ستافنجر)) للتزود بالتموين والوقود والذخيرة . السيطرة العملياتية الآن ، هي في أيدي القائد الحليف للقوات البحرية في المداخل الاسكندنافية .

٤ ـ علمنا أن الحكومة الدانماركية ، تنتقل جوا في طريقها الى المملكة المتحدة .

٥ ـ قائد قوات الحلفاء في مضيق ((البلطيق)) مع جزء من عناصر أركانه ، يتوقع أن يغادر ((كاروب)) الى ((كولساس)) جوا قريبا)) .

وأصبح جليا من خلال التصريحات السوفييتية ، أن الهدف السياسي ، من الاعمال العسكرية لحلف وارسو هو اجتياح ، وتحييد جمهورية المانيا الاتحادية . ثم الدعوة الى وقف القتال ، والسعي للمفاوضات مع الولايات

المتحدة الاميركية ، ولا ريب أن العمليات التي يقوم بها حلف وارسو في القطاع الشمالي من المنطقة الوسطى قد سارت وفقا لما هو مخطط لها . وعلى الرغم من شدة المقاومة التي أبدتها قوات حلف الاطلسي ، فان معظم الاهداف الاقليمية التي توخاها السوفييت قد بلغوها .

ويعود الفضل في ذلك ألى تفوقهم العددي ، ووقعت مخارج البلطيق في أيدي السوفييت ، على الرغم من أن معظم القنوات كانت قد أغلقت بالالغام وكان ساحل بحر الشمال، حتى هولندا ، قد أصبح تحت سيطرة القوات السوفييتية ، كما أصبحت حركة الملاحة البحرية بين المملكة المتحدة والقارة الاوروبية تتعرض لهجوم كثيف مستمر من قبل أعداد كبيرة من القوات الخفيفة السوفييتية ، كانت قد أرسلت عبر قناة كييل « جرت محاولة لاغلاقها ولكن بعد فوات الاوان » وعملت ليل نهار في ظل تغطية جوية قوية .

وقامت القوات المقاتلة الجوية والبحرية التابعة للقوات المشتركة لمناطق التقرب الغربية ، بمقاومة هذا التهديد للمواصلات عبر القناة بشدة وحيوية كبيرتين ، وقامت الفرقاطات التابعة لجمهورية المانيا الاتحادية وهولندا ، وزوارق الدورية السريعة الدانماركية من نوع « ف.ب.ب » التي وضعت من قبل القائد الاعلى لقوات الحلفاء في أوروبا بأمرة قائد القوات الحليفة المشتركة لمناطق التقرب والتي سبق لها أن وضعت تحت تصرف القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب الغربية وقامت بعدة هجمات ناجحة . وقد عززت الطائرات القليلة من طراز « تورنادو » التابعة للقوات الجوية لاسطول جمهورية المانيا الاتحادية « والتي كانت قد نقلت الى المملكة المتحدة » طائرات « التورنادو والبوكانيرز » القليلة التابعة للقوات الجوية الملكية ، التي يمكن الاستغناء عنها من قبل القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب الغربية في عمليات البحر النرويجي . وفي هذه المرحلة زجت طائرات « الهوك » التابعة لسلاح الجو الملكي « RAF » بعد أن تجررت من مهمات التدريب ، وسلحت بالمدافع والصواريخ . ويرأس هذا الخليط من القوات سرب « فولكان » استطلاع

بحري ، كان قد سحب بعد جدل طويل من بحر الشمال ، بهدف تزويد المهاجمين المحمولين جوا أو بحرا بالمعلومات الحيوية . وتعرضت القوات السوفييتية الى خسائر مادية في القتال الضاري ، ولكن بقيت النتيجة لصالحهم مرة أخرى بسبب تفوقهم العددي وحتى منطقة مرتفعات بولونيا في الغرب البعيد . وانضمت الى السفن السوفييتية الغارقة السفن « غريشنا ونانوشكا وأوزا » من « أسطول البلطيق السوفييتي » اعداد متزايدة من سفن حلف الاطلسي الى مقبرة قاع المحيطات .

أما على اليابسة ، فكانت قوات حلف الاطلسي « الناتو » تقاتل قتالا يائسا ، لكن قرار فرنسا بأن تعود لتلعب دورها في الحلف ، أنعش الآمال في مجالس الحلف ، إذ أن آمال السوفييت بهذا الشأن ستنهار في الساعة الحادية عشرة أو في اللحظات الاخيرة . ولكن الجدل الدرامي بشأن استعمال الاسلحة النووية والقرارات التي اتخذت بهذا الشأن ، كانت تجري أيضا في الطرف الآخر . ولقد سمحت التحسينات الاخيرة في دفاعات حلف الاطلسي بوقف الطوفان ، ولكن اذا ما أريد تحويل المد في الاتجاه الآخر ، فان ذلك سيعتمد على وصول التعزيزات المحمولة بحرا آمنة سليمة وفي مواعيدها .. كما أن نجاح حرية الملاحة عبر المحيط الاطلسي يعتمد الى حد كبير على نتائج عمليات معينة بحرية وجوية لا تزال تجري في الاطلسي وفي البحر النرويجي في وقت واحد ، بالاضافة الى مجريات الامور في جنوبي بحر الشمال والقنال الانكليزي .

كانت مجموعة الدعم الاولى ، تحاول منذ الخامس من الشهر دعم محاولة تعزيز شمال النرويج ، حيث كانت القوات المتحركة التابعة للمطار ، تقاوم الغزو السوفييتي القوي عبر الدانمارك منذ الرابع من آب ، وأصبحت « بودو » غير قابلة للاستعمال أولا ، بسبب الهجوم السوفييتي ، والرد النرويجي على الغزاة ، وكانت القوات الحليفة تناضل للصمود عند خط « تروندهايم » .

أما المجموعة البرمائية السوفييتية التي اكتشفت مساء الرابع من الشهر ،

فقد تعرضت الى هجوم فعال من قبل القوات الجوية والبحرية النرويجية وطائرات « تورنادو » التابعة للقيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب من المناطق الغربية التي تنطلق من المملكة المتحدة . وبحلول السابع من الشهر كانت مجموعة الدعم السوفييتية التي تحركت نحو الجنوب لتعزيز الرفاق المظليين قد استنفذت ونضبت .

لكن الحظ حالف الروس في ذلك الصباح ، عندما استطاعت مقاتلاتهم التي أخذت تنطلق من مطارات النرويج في أقصى الشمال تدمير طائرة واحدة ، ثم طائرتين أخريين من طائرات « فولكان » الخاصة بالاستطلاع البحري والتي كانت تقوم بالمراقبة بشكل حيوي في منطقة البحر النرويجي . وكان الروس قد أسرعوا في استغلال الفوضى التي استولت على تأمين تغطية القيادة الحليفة المشتركة في منطقة مناطق التقرب من الغرب لمسرح العمليات العائم .

وليلة السابع من آب ذكرت غواصة تابعة لحلف الاطلسي ، أنها هاجمت قوة سوفييتية للنقل البحري السريع ترافقها قوات سطح بحرية عند تقاطع خط العرض الذي يمر من « تروندهايم » مع خط طول « غرينتش » على طريق يفضي الى جزر « فاروز » ، وقد استخدمت في هجومها هذا صواريخ « هاربون » . واستطاعت طائرة من طراز « هارير ٣ » العمودية الاقلاع ، وهي واحدة من أربع طائرات مماثلة ، كانت على ظهر حاملة الطائرات « ارغوس» التي انضمت حديثا الى مجموعة الدعم الاولى ، قد تمكنت من تحديد مكان القوة السوفييتية المذكورة ، بعد أن حلقت نحو الشمال والغرب . وكانت الغواصة التابعة لحلف الاطلسي قد استنفذت صواريخها ، ولم تستطع تدمير أكثر من ثلاث قطع احداها كانت ناقلة للجنود ، ولهذا أوعزت القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب من الغرب بضرب القوة السوفييتية وكلفت بهذه المهمة ست طائرات من طراز « تورنادو » بأكبر عدد تستطيع

حشده . ونجحت هذه الطائرات في تدمير سفينة نقل ، وسفينة مرافقة ، ثم ارتدت القوة السوفييتية نحو النرويج ، وبدأت معركة فجوة غرينلاند — ايسلاندا — المملكة المتحدة . وربحت قوات حلف الاطلسي الجولة الاولى .

كان أحد ملامح المعركة ، هو تعطل الاتصالات بين الاساطيل والشاطىء وكذلك بين الاساطيل والطائرات ثم بين الطائرات والشواطىء . وذلك بالنسبة للقوات المتحاربة في الجانبين في حلف وارسو أو في حلف الاطلسي ، على حد سواء ، نتيجة التداخل بين أقمار الاتصالات . وتم اللجوء الى استعمال القنوات الثانوية وهنا حالف الحظ الفريقين نسبيا ، في اعادة الاتصالات وكان يمكن أن تفقد السيطرة كليا من أركان الطرفين المتمركزة على الشاطىء .

لم يتأخر كثيرا ، رد فعل السوفييت على فشل عمليتهم للسيطرة على جزر « فارو » فقد لاحظوا عن طريق الاقمار الصناعية المخصصة للاستطلاع — وثبت لهم ذلك خلال قيام طيرانهم بالاستطلاع الجوي أيضا — اقتراب مجموعة الدعم الاولى ، وكذلك قافلة التعزيزات النرويجية ، ولهذا أرسلوا يوم (ي + ٥) عشرين طائرة من طراز « باكفاير » مقاتلة تابعة للبحرية السوفييتية لمهاجمة القوات الاطلسية . ولكن من حسن الحظ ، أن مطار « بودو » كان قد دمر من قبل ، مما اضطر هذه الطائرات ، لأن تقلع من مطارات قريبة من « مورمانسك » وقد أعلم عن تحركها ، ولذلك تمكنت الطائرات المطاردة المقاتلة المنطلقة من قواعد المملكة المتحدة ، من اعتراض الموجة الثانية والثالثة من طائرات « الباكفاير » وتدمير خمس منها . من جهة ثانية ، أصيبت ثلاث سفن نقل أطلسية من ناقلات الجنود ، وغرقت احداها أما السفينتان الاخريان ، وهما من مجموعة الدعم الاولى فأصبحتا عاطلتين عن العمل ، بما فيها حاملة الطائرات المرافقة « أرغوس » وبالتالي نقصت القدرة العضوية للحرب المضادة للغواصات ، التابعة لتلك القوة وهي مؤلفة في معظمها من طائرات عمودية ، ووجب من جديد البحث عن تعزيز جديد لها . ولهذا نقلت وعلى عجل طائرات الدورية التابعة للبحرية من منطقة فجوة غرينلاند — المملكة

المتحدة ، حيث كانت تقوم بعملها بجد لا يعرف الكلل ، لكن غواصتين سوفييتيتين كانتا تقومان بمهمة دعم المجموعة البرمائية ، استطاعتا استغلال هذا الموقف ، والقيام بمهاجمة السفينتين المعطلتين ، واغراقهما ومن جهة أخرى قامت غواصة تابعة لقوات حلف الاطلسي أرسلت على عجل ، بمحاولة مساندة القوة الاطلسية الحليفة ، الا أنها أصيبت هي أيضا من قبل طائرات « الباكفاير » .

وقام السوفييت بعد ذلك بهجوم دون أن يواجهوا مقاومة كبيرة ، على منشآت النفط والغاز في بحر الشمال ، مستهدفين قطع خطوط الانابيب في قاع البحر ، باعتبار أنها كانت من أسهل العناصر تخريبا ، كما كانت أقلها حماية خاصة على طول الانابيب ما بين الآبار ومصبها على الشاطىء . وقد قرر السوفييت ، قطع هذه الانابيب ، ولم تكن هذه المهمة صعبة ، كما ذكرنا ، الا في الجزء الجنوبي من بحر الشمال ، وذلك بسبب صعوبة الوصول من قبل المهاجمين . أما في الشمال فقد تم انزال ست غواصات تسير بدفع (ديزل ـ كهرباء) وتوجهت فورا الى المناطق المحددة لها في قاع البحر مجتازة المياه العميقة في محاذاة الشاطىء النرويجي الى أن وصلت الى أهدافها ، فانزلت عربات برمائية خاصة ، تقودها عناصر بشرية مختصة ، وكانت مهمتها تحديد أمكنة وضع المتفجرات بطيئة الاشتعال وبالتالي وضعها واشعالها على الاثني عشر أنبوبا ـ أي على جميع الانابيب دون استثناء ـ وباستخدام المتفجرات بطيئة الاشتعال تسمح للغواصات بالابتعاد مع العناصر المهاجمة عن منطقة الانفجارات الى أمكنة أمينة ، وقام ثلاث من هذه الغواصات ، بزرع الالغام في منطقة الانابيب ، حيث سيجري التدمير ، وعندما أرسلت سفينتان أطلسيتان بتاريخ الثامن من آب للتحقق من الانفجارات والاضرار الناجمة في مكان الحادث اصطدمتا بالالغام المزروعة وغرقتا ، ولصرف الانتباه عن عمليات الغواصات ، قام السوفييت بتنفيذ هجمات متفرقة بالطائرات ، على بعض آبار البترول والغاز في نفس المنطقة ، مستعملة الصواريخ وقنابل الاعماق . الا أن الدفاعات الجوية التابعة للمملكة المتحدة تمكنت من ايقاع خسائر كبيرة

في الطائرات المعادية من طراز « بادجر » القديمة التي كان الروس يستعملونها غالبا في مثل هذه الهجمات .

أما الحدث الرئيسي الاخير ، من أحداث الحرب في البحر خلال مرحلة الايام الاولى من الهجوم الفارصوفي (اشارة الى حلف وارسو) فكان اعلان الحكومة السوفييتية ، في التاسع من آب أن المداخل الغربية لاوروبا ، هي منطقة حربية ، حيث تعتبر الملاحة فيها من أي نوع كان ، عرضة للمخاطر . وكانت السويد وفنلندا البلدين المحايدين والوحيدين داخل المنطقةالحربيةاللذين يعنيهما الامر ، وقد أخطر السوفييت الحكومة السويدية ، بأن المعاناة التي سيلاقونها من جراء هذا الامر ، لن تطول مدتها وأن هذه الاجراءات قام بها حلف وارسو بسبب النوايا العدوانية التي يضمرها حلف الاطلسي ، وأن هدف السوفييت في تحييد جمهورية المانيا الاتحادية سيتحقق قريبا ، بل ان ترابط القوات جعل هذا أمرا محتوما . أما الفنلديون فلم يجد السوفييت أي مبرر أو ضرورة لطلب موافقتهم أو أخذ رأيهم .

لم يكن اعلان المنطقة الموصوفة ، منطقة حربية كافيا بحد ذاته ، من وجهة نظر السوفييت ، ولهذا كلفوا بعض غواصاتهم ، التي كانت تقوم بأعمال الدورية ولو بصورة سرية ، على ان تبذل قصارى جهدها ، لئلا تنكشف ، وتحاول قدر المستطاع القيام بعمليات تعمية وتمويه ، والقيام بضرب بعض السفن الهامة التابعة لدول حلف الاطلسي باستعمال صواريخ تكتيكية خاصة لمثل هذه المهمات بعد التأكد من هويتها جيدا . ووضعت لذلك لائحة تفسيرية لأهمية هذه السفن ، وكان على رأسها ناقلات البترول من مختلف الاحجام والاوزان والسفن الناقلة للمواد الاولية الاستراتيجية وسفن الحمولات الخاصة. وتلقت هذه السفن ، وهي التي كانت قد ابحرت قبل عدة اسابيع من موانيء بعيـدة عن الطرق البحرية المعروفـة ، أوامر بمتابعة خط سيرهـا بأقصى سرعتها ، بعضها باتجاه بحر المانش ، او باتجاه قنال « سانت جورج » حيث ستقوم بملاقاتها ومرافقتها بعض سفن الحماية اللازمة ، حتى الموانيء المتجهة

اليها . أما السفن التي كانت تتواجد على بعد خمسة ايام ابحار من المياه الاقليمية لمناطق التقرب الغربية من اوروبا ، فقد تم اعطاؤها الاوامر بالتحول الى الموانيء القريبة للبلدان الصديقة للحلفاء او المحايدة ثم الرسو هناك ، وانتظار تعليمات اخرى .

وحوالي نهاية التاسع من آب وصلت تقارير الى القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب الغربية ، تفيد أن ناقلتي بترول من ذوات الحمولات الكبيرة ، وسفينتين شاحنتين تحملان مواد اولية جافة ، وسفينتي شحن لبضائع مختلفة ، قد هوجمت جميعها ، ودون سابق انذار بصواريخ من غواصات سوفييتية ، وقد حددت مواقع هذه السفن وكان اربع منها في خليج « بسكاي » واثنتان غرب ايرلندا . لكن تلك الاماكن لا تتفق مع المواضع المعلومة عن الغواصات السوفييتية من الجهات المتعددة المعنية بمراقبة وكشف تلك الغواصات . وهكذا تبددت سريعا الشكوك حول خطر التهديدات التي يمكن ان تشكلها الغواصات السوفييتية على النقل البحري والملاحة . ولعل أسرع السفن والناقلات التجارية بالنسبة للغواصات العاملة بالدفع النووي مدعومة بالاستطلاع الجوي ، والاقمار الصناعية ، تكاد تكون أهدافا ثابتة وليس امامها أية فرصة للهرب .

ولعل أول ما يجب عمله بعد احداث منصب قائد مناطق التقرب الغربية الجنوبية « COMWAS » ، المعني بتنظيم البحث عن الناجين وارسال سفن الجر للمساعدة بهدف جر ناقلات البترول المعطلة « التي لم يغرق أي منها بعد» والايعاز الى أية سفينة تجارية اطلسية تقترب من منطقة العمليات بالعودة ادراجها . اما الامر الثاني فهو النظر في مضاعفات هذه الهجمات مع القائد الاعلى للحلفاء في الاطلسي . وهكذا اصبح الموقف الذي يواجهه قادة البحرية في المحيط الاطلسي وفي مداخل مناطق التقرب الغربية من اوروبا حرجا وخطيرا ، ولقد اتضح بجلاء ، انه اذا لم يتأكد القائد الاعلى لقوات الحلفاء في اوروبا من انه سيعزز بقوات قتال جديدة من الولايات المتحدة الاميركية

قبل الخامس عشر من آب ، فانه لن يزج باحتياطه النهائي على الجبهة الوسطى خلال الايام الاربعة او الخمسة القادمة ويتمكن بالتالي من ايقاف تقدم قوات حلف وارسو الى الراين .

وبتاريخ الثامن من آب أبحرت من « هاليفاكس » مجموعة قوافل عسكرية بسرعة ثلاث وعشرين عقدة ، وسيكون بوسعها أن تنزل العتاد والجنود في موانيء فرنسا الشمالية بتاريخ الرابع عشر من آب ، لكن دلائل قوية تتوفر الآن عن موجة من الغواصات السوفييتية كانت قد أبحرت من مدخل « كولا » في الرابع من آب ، تجتاز الآن فجوة ـ غرينلاند ـ ايسلاند ، والجزر البريطانية . وبحرمان القوة السوفييتية المغيرة من الاستيلاء على جزر الفارو ، تهيأت الفرصة، ولحسن الحظ ، للاستمرار في المراقبة الاطلسية ضد الغواصات في تلك المنطقة الهامة ، حيث علم أن ثلاث غواصات سوفييتية أخرى ، قد دمرت اثنتان منها من قبل الغواصات الاطلسية والثالثة بجهد مشترك من الجو وقوات السطح البحرية . كما فقدت من جهة أخرى ، غواصة أطلسية بعد قيامها بمهمة الدورية في رأس الشمال . وخلال يومين من الزمن أصبح عدد الغواصات العاملة بالطاقة النووية في شمالي الاطلسي يقدر بأربع وعشرين غواصة .

ولو اتسع الوقت لامكن على الاقل تحويل بعض القوافل الحيوية الهامة الاولى على خط جنوب جزر « الازور » حيث ستكون بمأمن من طائرات « الباكفاير » الضاربة التابعة للبحرية السوفييتية التي كانت تطير من « مورمانسك » . ومن المعلوم أن نصف قطر دائرة مدى عمل هذه الطائرات هو أربعة آلاف متر تقريبا . لكن الامور كانت تسير على نحو لم يترك خيارا الا لتجميع أكثر ما يمكن الوصول اليه من قوات الدعم البحري المساندة والمرافقة القوية جدا ، ومن ثم شق أقصر طريق للقوافل عبر الاطلسي . كان من المتوقع أن تتمكن الغواصات الاطلسية العاملة الى الشمال من الفجوة المذكورة قبلا من التقليل من عدد الغواصات السوفييتية التي تصل الى

القوافل . ولعل أهم الادوار على الاطلاق ، هو دور الاسطول الضارب التابع للولايات المتحدة الاميركية في الاطلسي المدعوم بطيران البحرية في ايسلاندا وشمال سكوتلاندا ، هذا الدور الذي سيتولى تغطية هذه العملية بكاملها . فاذا ما هاجمت طائرات « باكفاير » السوفييتية القوافل في وسط الاطلسي ؛ فان بوسع الاسطول الضارب الاميركي أن يسحق قاعدة الاسطول الشمالي السوفييتي من مواقعه في بحر النرويج . على ان اقتراب هذا الاسطول من خلال منتصف الفجوة لايمكن اخفاؤه عن الاستطلاع السوفييتي . ولا يمكن أيضا تجاهله من قبل القائد العام للاسطول الشمالي السوفييتي ، وستكون معركة الفجوة مختلف تماما عن معركة « جوتلاند » أو « مدوي » وستكون هناك معركة على أية حال فالمعركة واقعة لاريب .

ومرة أخرى ، لا بد من مواجهة السؤال : هل تستعمل أولاً الاسلحة النووية في الحرب في البحر ؟ كان القادة البحريون يرون أن استعمال شحنات الاعماق النووية أو الرؤوس النووية ، أو الطوربيدات سيؤدي ولا شك الى مكاسب مؤقتة ، لكنها ستؤدي في الوقت نفسه الى تصعيد الاخطار . أما بالنسبة للضربات النووية على القواعد السوفييتية البحرية في الشمال، فالرأي أنه يمكن اللجوء اليها ، فقط في حالة استعمال الاسلحة النووية على الجبهة الوسطى .

كان القائد الاعلى للحلفاء في الاطلسي أقل تعرضا من رفاقه لضغط الاحداث دقيقة بدقيقة وساعة بساعة ويوما بيوم ، منذ نشوب الحرب في أوروبا بتاريخ الرابع من آب ، وفي مناطق التقرب الغربية . على أن مغادرة مجموعة القوافل العسكرية البحرية السريعة من « هاليفاكس » قبل أربعة أيام ، « وهي التي شكلت جزءا من قوات التدخل السريع « كافالري »لايمكن تجاهلها دون مراقبتها والاعلان عنها ، كما لايمكن تغيير الطريق الذي سلكته القوافل تغييرا كبيرا ، ولم يكن نشوب معركة ضارية أمرا مفاجئا ، بل ستكون نتائجها خطيرة

ومؤثرة على احداث الجبهة الوسطى . واذن لابد من نجاح عملية قوات التدخل السريع « كافالري » مهما كان الثمن .

كان قائد قوات الحلفاء في الاطلسي يعي تماما مدى الخسائر التي يمكن للغواصات السوفييتية أن توقعها بصواريخها المنطلقة من أمدية متوسطة ، ولهذا فقد اتخذت اجراءات للحد من فعالية أقمار مراقبة المحيط الاطلسي السوفييتية ، والاستطلاع الجوي ، وذلك منذ تدمير طائرات « بيرز » الاستطلاعية الثلاث التي كانت متمركزة في « كوناكري » في الرابع من شهر آب — وهي من النماذج القديمة التي تحمل أسلحة جوية بدائية — . كما تم ابعاد ثلاث طائرات من طراز « سوبر بيرز » أخرى . لكن الدلائل على ازدياد تحركات الغواصات السوفييتية ، كان قد أعلم عنها من قبل سفن « الستاس » الاربع التي كانت تقوم بأعمال الدورية . وبدا أن قائد الغواصات السوفييتية اوعز الى قواته بالتحشد أمام قوافل قوات التدخل السريع « الكافالري » . كانت كل قافلة منها تتألف من اثنتي عشرة سفينة في ثلاثة أرتال كل منها من اربع سفن مع مجموعة حراسة ، بما في ذلك ناقلة المجموعة ، موزعة توزيعا صحيحا في المنطقة . وعلى مسافة منها ، كانت هناك مجموعة دعم مضادة للغواصات قوية ، تتألف من حاملة طائرات خفيفة « طائرات استطلاع مقاتلة ضاربة عمودية الاقلاع والهبوط ، وطائرات حوامة ، مضادة للغواصات » وطرادات مضادة للصواريخ ، وأربعة فرقاطات مضادة للغواصات . وكان من المقرر أن تأخذ مجموعة دعم ثانية مضادة للغواصات مواقعها على جانبي تشكيل القافلة لان بوسع الغواصات ان تهاجم بالصواريخ من أي اتجاه كان « خلافا لايام الطوربيد حيث كان على الغواصة أن تحدد خط اقتراب الهدف وتنتظر اجتيازه لها لتدميره ، في أفضل شروط للرمي عليه » . لكن هجوما بالغواصات على مجموعة الدعم التي كان يجري تشكيلها في « هامبتون — رودز » قد ألحق عطبا كبيرا في الناقلة وأغرق الفرقاطة . أما بقية القوة البحرية فقد أمرت بمطاردة الغواصة ولا زالت تقوم بالمطاردة بهمة وتفاؤل ، كما يتبين ذلك من خلال التقارير الواردة من جهازي « سونار » في الغواصة المتتبعة لها .

وخلال اليومين الاولين من عملية العبور ، عهد الى طائرات استطلاع البحرية الكندية والاميركية المنطلقة من « نيوفوندين » بحماية القوافل . على أن تتولى في اليومين الاخيرين طائرات الاستطلاع البحرية التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني الحماية منطلقة من قواعد في جنوب غرب انكلترا . أما بالنسبة لليومين الخطيرين عندما تكون القافلة في وسط الاطلسي ، فان خير ما يؤمل عمله القيام بتغطية متقطعة من قبل طائرات الاستطلاع البحرية من طراز « اوريون » من القوات الجوية التابعة للبحرية الملكية منطلقة من قواعد في « لاجس والآزور » .

كان قائد الاسطول الضارب في الاطلسي الذي كان يعبر فجوة « ايسلاند فاروس » بتاريخ العاشر من آب ، يشعر بالامتنان لدرجة الشكر بسبب الحماية التي وفرت له خلال العبور من مقاتلات تنطلق من ايسلاندا في « نيوفاوندلاند» . هذه الطائرات التي كانت تتزود بالوقود من الجو ، وتعمل بصورة مستمرة مع أجهزة المراقبة والانذار المحمولة جوا « اواكس » . كانت الرياح الغربية تهب قوية بحيث تعمل على التقليل من سرعة تلك الطائرات وتحد من عملها ، فيما لو اضطرت الى تشغيل طائرات الاجنحة الثابتة منطلقة من على سطح الحاملات . ولقد اقلقه غياب الاتصال مع الغواصات ، واستنادا الى تقارير الاستخبارات والاستطلاع المأخوذة من أجهزة المراقبة في سفن السطح« Stass » ومراكز الاستطلاع على الشاطىء ، تم تحديد مواقع العديد من الغواصات السوفييتية في المنطقة الواقعة على خط سيره . كان يطمح الى كشف بعض هذه الغواصات بواسطة طائرات عمودية ، واجبارها على الدخول معه بمعركة . والا فكيف يستطيع تنفيذ مهمة الحد من خطر الغواصات ضد القوافل البحرية التي تتجه الآن نحو أوروبا ؟

لكن الاوامر الصارمة المعطاة الى الغواصات السوفييتية هي التركيز على قوافل نقل الجنود . ولم يكن لدى هذه الغواصات وقت تفقده ، وعلى كل

حال ، كانت هناك قوات أخرى تنتظر الاشتباك مـع الاسـطول الضارب الاميركي . وبحلول الحادي عشر من آب لم يكن هنـاك أقل من إحدى عشرة غواصة سوفييتية على مسافة مائة وخمسين كيلومترا من قوات التدخل السريع وعلى خط سيرها . وجاء الهجوم الاول، برشقات من صواريخ فوق صوتية ومن أمدية أفقية على القوافل منطلقة خلال عشرين دقيقة من غواصتين نوويتين مـن طراز « شارلي » ، وأمكن تحويل ثمانية صواريخ ، عن أهدافها ، أما الثمانية الاخرى من الصواريخ المنطلقة فقد أصاب اثنان منها سفينة نقل ، وأصاب ثالث سفينة أخرى ، بينما أصاب اثنان آخران ، واحدة من سفن المرافقة التي انفجرت وغرقت فورا ، فيما أصابت ثلاثة صواريخ ثلاث فرقاطات في نفس مجموعة المرافقة . كانت التعليمات لدى الغواصات السوفييتية ، والتي عليها ان تشتبك أولا مع تشكيلة القوافل ، أن تهاجم مجموعات الدعم والمرافقة. وبعد نصف ساعة من هجوم الغواصات ، قامت طائرة حوامة وتبعتها ثانية من مجموعة الدعم وتمكنتا ، على التوالي من قذف أربعة طوربيدات مضادة للغواصات.، نجم عنها انفجار في البحر تحتهما . وفي الوقت نفسه أصيبت فرقاطة على الجانب البعيد من التشكيل بصاروخ سوفييتي ، ورقدت هامدة في قاع البحر . ووقع الهجوم التالي بعـد أربع ساعات . ووصل من جديد ستة عشر صاروخا آخر بشكل مجموعات كل منها يضم أربعة صواريخ بفارق دقائق قليلة بين المجموعة والاخرى . ومرة ثانية يصل نصف الصواريخ الى أهدافها ، وأصيبت سفينة نقل وفرقاطتان حدثت فيهما اصابات مباشرة . ويبدو إن الحوامات التي تبحث عن الغواصات باستخدام أجهزة «السونار» ، لم تستطع ان تقدم تغطية ملائمة من امكنة بعيدة عن القافلة بسبب السرعة العالية جدا لتقدم القافلة نفسها. أما الهجومان التاليان فكل منهما كان يتألف من رشقات من أربعة صواريخ نفذا خلال ساعتين . ومرة ثانية كانا موجهين نحو مجموعة

الدعم ، ونجحا في اخراج ناقلة خفيفة مؤقتا عن المعركة ، وفي اغراق فرقاطة واحدة . ومن سوء الطالع أنها أصيبت بصاروخ كان قد تحول عن هدف آخر . كان القائد الاعلى لقوات الحلفاء في الاطلسي « SACLANT » يشعر بالرضى ، لان عددا من الصنواريخ ، قد دمر بالصواريخ المضادة للصواريخ من طراز « ايجيس » الذي زودت به مجموعة الدعم الكامل . ولان احدى الغواصتين المهاجمتين ، تم اصطيادها واغراقها .

وبالطبع كان القائد العام السوفييتي للاسطول الشمالي كما كانت القيادة البحرية السوفييتيةفيموسكو يتابعون تقدم قوات التدخل السريع عبر الاطلسي، ومع أن التقارير لم تكن كاملة ، الا انه قد اتضح وقوع ضرر كبير في مجموعات الدعم والمرافقة التابعة للحلف الاطلسي ، ولذا فقد حان الآن موعد الضربة الجوية على المخطط لها ، على ان تتزامن مع هجمات تقوم بها مجموعة ثالثة من الغواصات مزودة بأوامر صارمة بتركيز نيرانها على القوافل نفسها . ومن سوء طالع السوفييت فان الاسطول الضارب الاميركي الاطلسي ، كان في هذا الوقت يقترب من البحر النرويجي ، ولن تستطيع قوة ضاربة سوفييتية عائمة مع مجموعة الدعم المضاد للغواصات المرافق لها ، والتي كانت قد أبحرت من مضيق « كولا » في العاشر من آب أن تشتبك مع قوات الاسطول الضارب الاميركي خلال الاربع والعشرين ساعة التالية . ويمكن خلال تلك المدة شن هجمات جوية كثيفة على القواعد السوفييتية الشمالية . ولذا فقد رأى القائد العام للاسطول السوفييتي الشمالي أن يوجه ضربة مميتة بطائرات « الباكفاير » للاسطول الاميركي الضارب ، لكن موسكو عارضت رأيه بالقول : **« اننا لا نتوقع أن يلجأ الاسطول الضارب الاطلسي الى استعمال الاسلحة النووية فيهذه المرحلة انحدفنا الرئيسي هو تدمير قوافل قوات التدخلالسريع (الكافالري)ولهذا يخصصثلثا طائراتالباكفاير المتوفرة للهجوم على قوافلالجنود الاطلسية ويجب على غواصاتنا في البحر النرويجي أن تحتشد في مواجهة الاسطول الضارب الاميركي في الاطلسي ، مع هجمات جوية الى أن تستطيع قواتنا الضاربة من سفن السطح المشاركة في الاشتباك »** .

ووجه القائد العام للاسطول الشمالي السوفييتي ، أربعين طائرة من طراز « باكفاير » افراديا لتلتقي عند نقطة ازدلاف تقع عند منتصف المسافة بين « نيوفوندين » ، ومدخل بحر المانش ، وذلك بهدف مهاجمة قوافل قوات التدخل السريع «الكافالري»،ولم يتم الكشف عن اقتراب هذه الطائرات من أهدافها في الوقت المناسب ليسمح للقوات المرافقة لهذه القوافل باتخاذ ترتيبات دفاعاتها الجوية التي كانت مشغولة بتتبع الغواصات المعادية . ولهذا فان هجمات « الباكفاير » بصواريخ « AS-6 » جو ـ سطح فاجأت القوة الاطلسية في وضع غير ملائم ، وسارعت قوة الدعم المزودة بصواريخ « ايجز » لتأخذ مواقعها في القافلة . كانت الخسائر كبيرة ، فقد أصيبت سبع ناقلات ، غرق منها أربع على الفور ، أما الخسائر في الارواح فكانت مخيفة ومن بين الثمانين صاروخا من طراز « AS - 6 » التي أطلقتها « الباكفاير » من أمدية تتراوح بين ٢٢٠ ــ ٢٦٠ كيلو مترا ، لم يصل منها الى أهدافها أكثر من ثلاثين صاروخا . وتعرضت السفن الحربية المرافقة الى الخسائر التي تعرضت لها سفن الشحن . لقد كان عدد السفن الغارقة أو المدمرة من هذه الفئة خمسا وذلك لان بعض السفن أصيبت بصاروخين أو ثلاثة ، الامر الذي قلل من عدد الخسائر في السفن . أما عدد طائرات « الباكفاير » المدمرة فكان خمس عشرة طائرة .

وخلال ساعتين من هجوم طائرات « الباكفاير » بدأ الهجوم التالي للغواصات ولكنه لم ينجح بالقدر الذي كان يطمح اليه الروس . ونظرا لوصول مجموعة الدعم البريطانية في الوقت المناسب ولو بشكل جزئي ، وبسبب تغيير خط سير القوافل خلال الهجمات الجوية العنيفة ، وبسبب المضايقة التي كانت تقوم بها دوريات الطيران التي تقوم بها البحرية ، لم تتمكن الغواصات السوفييتية من تنسيق هجومها فيما بينها من جهة ، وفيما بينها وبين بعض طائرات « الباكفاير » من جهة أخرى . وخلال الاثنتي عشرة ساعة التالية ، أغرقت ثلاث غواصات سوفييتية ، مقابل سفينة نقل اطلسية .

وهكذا هبط عدد الغواصات السوفييتية التي تهاجم القوافل ، أكثر مما توقع كل من القائد العام للاسطول الشمالي السوفييتي ، والقائد العام لقوات الحلفاء في الاطلسي . وكانت أسباب ذلك كثيرة :

أولا : تم تدمير أربع غواصات سوفييتية عابرة ، كانت تسير بسرعة كبيرة مجتازة فجوة غرينلاند ـ المملكة المتحدة ، من خلال العمليات المضادة للغواصات ، وتلك حقيقة لم تكن معروفة بعد لدى القائد العام السوفييتي .

وثانيا : ان الغواصات السوفييتية الاخرى التي أوعز لها برقيا باتخاذ مواضع الدورية ، لم تستطع التنفيذ لعدم تمكنها من استلام تلك الاشارات ، وهذا الامر يشمل الغواصات التي سبق وأن أرسلت بمهمة مضادة للسفن قبل الاعلان عن المنطقة الحربية .

وثالثا : كانت قافلتان سريعتان ، قد أبحرتا ، قبل أربع وعشرين ساعة من قوافل قوات التدخل السريع (الكافالري) حيث سارت احداهما ، على خط في أقصى الشمال ، بينما سارت الاخرى ، على طريق يتجه الى اقصى الجنوب، واستطاع كل منهما أن يجتذب عددا من الغواصات السوفييتية نحو مواقع اعتراضية . واذ سمح لكل من هاتين القافلتين بأن تسلك خطوط سير لتضليل الغواصات ، فان ذلك حقق نجاحا في تخفيض عدد الغواصات التي يمكن حشدها لمهاجمة تلك العوامل .. وأخيرا تحققت القيادة السوفييتية مما يجري، ونظرا لان هذه الغواصات كانت مكلفة بموجب أوامر صارمة باعتراض قوافل « الكافالري » بأي ثمن ، ولاضطرارها بالتالي للسير بسرعات عالية ، فقد أدى كل ذلك الى اكتشافها بوسائل مختلفة ، ومن ثم مهاجمتها من قبل الطائرات البحرية والجوية الحليفة المتمركزة في ايسلندا وجزر « الآزور » .

وبالاضافة الى مجموعة الدعم البريطانية ، التي أرسلت لتعزيز القوات المرافقة لقوافل « الكافالري » الممزقة ، وفي عدادها الطراد المضاد للغواصات المسمى « H. M. S. » ، انضمت اليها أيضا مجموعتا مرافقة تابعتان للقيادة

الحليفة المشتركة لمناطق التقرب من الغرب « JACWA » احداهما مزودة بحاملة طائرات بريطانية، وبعدد من الفرقاطات والمدمرات الهولندية والالمانية والبريطانية أيضا وذلك بتاريخ الثاني عشر من آب . ولقد بدا أن القسم السيء من عبور المحيط قد انتهى ، اذ ان قوافل «الكافالري » ستدخل تحت مظلة منطقة الدفاع الجوي البريطانية .

وتمكن الاسطول الضارب الاميركي في الاطلسي في البحر النرويجي بنجاح من تدمير خمس من طائرات « الباكفاير » القاذفة السوفييتية ، وهي في طريق عودتها بعد هجومها على قوافل « الكافالري » ، كما تمكنت الغواصات الاطلسية من مهاجمة القوة الضاربة من قوات السطح السوفييتية قريبا من رأس الشمال وأغرقت حاملة طائرات خفيفة من طراز « كييف » ، وطرادا من طراز « كارا ». ومنذ صباح الثاني عشر من آب ، وخلال أربع وعشرين ساعة من الهجمات المشتركة التي قامت بها الطائرات والغواصات السوفييتية على قوافل « الكافالري » بدأ الاسطول الضارب الاميركي في الاطلسي يدك القواعد البحرية والمطارات السوفييتية في مدخل « كولا » . وليبرر الادميرال « ستارسكي » القائد العام للقوات البحرية السوفييتية قراره الخاص ، باستعمال قوة طائرات « الباكفاير » الرئيسية ، في مهاجمة قوافل الجنود ، بدلا من التركيز على تحييد الاسطول الضارب الاميركي ، فانه كان يتقبل بفرح وسرور التقارير التي كان يتلقاها عن تصفية قوافل « الكافالري » من خلال هجمات الغواصات والطائرات السوفييتية . ولذلك فقد أوعز الى القائد العام للاسطول الشمالي السوفييتي ، كي يرسل ، طائرات « الباكفاير » المتوفرة لديه لمهاجمة الاسطول الضارب الاطلسي . وفي الحقيقة وبعد خسارة سفينة نقل واحدة وسفينتين مرافقتين نتيجة لهجوم الغواصات ، أصبحت القوافل الآن في الثالث عشر من آب ، تحت غطاء جوي تنطلق الطائرات فيه من قواعد جوية من المملكة المتحدة وفرنسا . وبقي أن يتم التغلب على خطر واحد ، فقد كانت كاسحات الالغام التابعة لميناء « الهافر » تعمل طيلة اليوم بالكامل من أجل كسح الالغام في مداخل القناة عندما اكتشفت عددا منها

خلال ليلة الثالث عشر والرابع عشر من آب ، فاتجهت الآراء نحو امكانية تحويل قوافل نقل الجنود عن خط سيرها . وكانت « شيربورغ » على أية حال المكان الذي تقصده بعض السفن ، ومعلوم أن كل ساعة تأخير في زج الجنود وأعتدتهم في المعركة ، سيضعف ولا ريب من فرص تجنب استعمال الاسلحة النووية ، اذا ما أريد ، وقف التقدم السوفييتي . والخلاصة أن الامر ينطوي على توازن بين عدة مخاطر .

ويعتقد مدير المنطقة البحرية الاولى الفرنسي ان الالغام ، وضعت من قبل قوة صغيرة من السفن الساحلية الصغيرة في غمرة القتال الشديد الذي كان يجري في القتال الانكليزي ، قبل أربعة أو خمسة أيام . وقرر ، والامر كذلك بعد تفحص القنال وتنظيفها من الألغام ، قبول العدد المقرر من سفن الشحن التابعة لقوافل « الكافالري » أن ترسو في « الهافر » ، أما الباقي فقد حول الى مواني‌ء « شيربورغ وبرست » ويذكر أنه لم يقع مزيد من الضحايا ، بين قوافل نقل الجنود . ومن بين ثمان واربعين سفينة نقل كانت أبحرت من الولايات المتحدة وكندا ، فقد غرق أو دمر منها اثنتا عشرة سفينة . لكن قوات التدخل السريع (كافالري) الاميركية وصلت في الوقت المناسب .

والرسالة التالية التي كتبها في ذلك الوقت أحد الجنود الاميركيين الشباب تعطي مثالا وتسرد تجربة عملية قافلة فرق الفرسان (الكافالري) .

❋ ❋ ❋

مستشفى هاسلار

غوسبورت ـ انكلترا

تاريخ ٢٤ آب ١٩٨٥

أمي العزيزة ..

لا بد أنك سمعت أنني الآن على ما يرام ، صحيح أنه يوجد هنا وهناك

بعض الجروح والرضوض والحروق في جسمي ، ولكن صدقيني أنني بحالة جيدة ، وأظن أنني سأعود للخدمة خلال أسبوعين . وبعد ذلك لا أدري ماذا سيحدث ، ربما العمل في سفينة أخرى ، كما أتوقع . انني موضع رعاية وعناية حقيقيتين ، ولكن قد تتساءلين كيف وصلت للمستشفى ؟ حسنا ، تذكرين أنني دعيت للخدمة العسكرية ، الى قيادة النقل البحري العسكري في « نورفولك » فجأة ، ثم نقلت على ظهر سفينة شحن كبيرة ، في « بوسطن » ولا داعي لذكر اسمها . صدقي ، أو لا تصدقي ، أن رسائلك تخضع للمراقبة . على كل حال ، هذه السفينة كانت تحمل أسلحة للجيش ثم وضعوا على ظهرها كمية كبيرة من المعدات في أوعية كبيرة مختلفة وصناديق كثيرة يبلغ عددها حوالي مائة وعشرين تقريبا بالاضافة الى عدد من الجنود يقارب الالف جندي. أما عملي على السفينة ، فكان مع فريق اللاسلكي الاضافي الذي اصطحبناه في هذه الرحلة .

حدثت الامور بسرعة وبشكل عجيب ، فبعد يومين من سماعنا لغزو الروس لجمهورية المانيا الاتحادية ، أبحرنا من بوسطن ، ثم تريثنا في « هاليفاكس » في « ايكوس » الجديدة ، الى أن اكتمل تجمع القافلة . وعندما أبحرنا كان عدد السفن ثمان واربعين سفينة ، كلها كبيرة وسريعة ، ومعبأة بالجنود والمعدات ، وقد تم توزيع ذلك على أربع قوافل ، في كل منها ، اثنتا عشرة سفينة ، موزعة على ثلاثة أرتال ، في كل رتل قافلة من أربع سفن. كنا في الامام . وكان معنا في القافلة حاملتان للطائرات ، كانتا من الطراز القديم ، وتغصان بالجنود ، وكانتا تتقدمان الرتلين الخارجيين أيْ في الاجناب من الرتل . أما موقعي فكان يقع بالقرب من الممر الكبير في السفينة ، وكان عليّ أن انقل الاشارات الى القبطان ، أو لمن يحل محله في السفينة — ضابط المراقبة — وهكذا ، كنت أسمع وأرى الكثير . وفي اليوم الثالث لابحارنا ، أخذت الاحداث تتوالى ، واصطدمنا ببعض الغواصات التي أطلقت علينا الصواريخ ، لم نصب في ذلك الوقت ، لكنني استطعت أن أرى أعمدة الدخان تتصاعد من هنا ، ومن هناك ، بالطبع كانت هناك سفن نقل جنود ، أو سفن

مرافقة ، الصغيرة منها والكبيرة ، منتشرة في كل مكـان ، ومررنا قريبـا من موضع ، كانت فيـه طائرتان عموديتان منهمكتين في مطاردة غواصة معادية : ولم نفكر أنهما ستتمكنان من اصطياد تلك الغواصة ، ولكن فجأة سمعنا دوي انفجار كبير في البحر ، فقدرنا انهما تمكنتا منها .

وبعد ساعات قليلة ، عندما خيم الظلام ، وقع هجوم آخر بالصواريخ ، وأصيب المزيد من السفن . ومرة ثانية ، نجونا نحن من ذلك الهول ، وأصيبت سفينتان من قافلتنا ، حيث لم يصادفهما الحظ مثلنا ، وخلال لحظات ، كانتا تشتعلان وتخرجان عن خط سير القافلة . أما الباقي من القافلة ، فتابع المسير ، بعد ان صلّينا صلاة قصيرة من أجل من فيها . وفي اليوم التـالي جاء دورنا ، لتلقى مثل ذلك الجحيم ، فرأيت على شبكـة الرادار تحـذيرات تنبيء بغارة الصواريخ . في هذه المرة ، وفيمـا كانت الغواصات المعادية تفتـح نيرانها علينا ، كانت صواريخ جو ــ سطح تتساط هي أيضا علينا ، وكنـا على مسافة بعيدة من « مورمانسك » مع ذلك استطاعت هذه الصـواريخ الوصول الينا . وفجأة لاح بريق ، وسمع دوي ، في وقت واحد ، تبعه ثان ، بعد لحظة ، وألفينا أنفسنا مكدسين في كومة بشـرية عـلى أرض السـفينة ، وصاح القبطان « **أعتقد أنه القبطان** » « **انقل الدفة نحو أقصى اليسار ، تهيأ لوقوف طارىء فورا** » وهكذا كان علينا أن نخرج عن خط سير القافلة ، أترين يا أمي ؟. هذا كل ما أتذكره الى أن وصلت الى أحد زوارق النجاة ، عندها تساءلت « **أين السفينة ؟** » ورفع رأسي قليلا أحد رفاقي ، الذي كان يقف الى جانبي وأشار قائلا « **هناك ، انها لا تزال عائمة ولكنها على وشك أن تأتي النار عليها بالكامل** » . وشاهدت الدخان ، لم أكن أحس أنني عـلى ما يرام ، ولكن أعتقد أنني كنت محظوظا ، في الحقيقة لقد كنا محظوظين ، خاصة نحن الذين كنا نقف في الممر ، في وسط السفينة أو قريبا منـه ، لقد أصابت الصواريخ ، منتصف السفينة ، وقتلت معظم الموجودين حول مكان الاصابة ثم اندلعت النار ، ولكن بعد أن خرجنا عن خط سير القافلة ، وجه الاحياء منا السفينة بعيدا عن القافلة وسلمنا مؤخرتها للريح ، لابعاد اللهيب

عن القافلة . ثم بعد ان توقفنا حال الريح دون وصول النار الى قوارب النجاة حيث كنـا نتجمع ؛ مع بعض الجنود الذين قفزوا من السفينة هربا الى الماء ؛ عندما أصيبت السفينة وانقذوا من الموت ، بينما فقد المئات . لقد كان ذلك مؤلما حقا ، أن تري جلود البشر وهي تشوى ، لكن الكثير منا كان محظوظا ، فقد عثرت علينا فرقاطة بريطانية . وهذا هو سبب وجودي في مستشفى « هاسلار » في انكلترا ، يا أمي . وتدور نكتة كبيرة هنا ، وهي أن بريطانيا تم انقاذها بدخول « الفرسان » الاميركيين اليها على نحو ما كنت تشاهدينه في الافلام القديمة يا أمي ؟ آمل أن تكوني بخير .

قبـلاتي

ابنك المحـب « دان »

* * *

ولعل من الضروري ، عند تقييم نتائج الحرب في البحر ، التي استمرت مستعرة ، الى أن تمكن الهجوم المعاكس الاطلسي من وقف تقدم العدو في المنطقة الوسطى ، التعرف الى مقاصد واهداف القادة البحريين المعنيين ، والمدى الذي وصل اليه تنفيذها وتحقيقها . ومهما كان الثمن ، قد يقال : أولا ان اخفاق السوفييت في تدمير أكثر من ٢٥٪ من التعزيزات العاجلة المرسلة بحرا من شمال الولايات المتحدة الاميركية الى القيادة الحليفة في أوروبا ؛ يعني ان البحرية السوفييتية فشلت في دعم الجيش الاحمر ، دعما حاسما أو حسبما تتطلبه المعركة . أما القائد الاعلى الحليف لقوات الاطلسي وقائد القوات الحليفة المشتركة لمناطق التقرب الغربية فقد قاما بدعم القائد الاعلى لقوات الحلفاء في أوروبا بشكل فعال . وفيما يتعلق بالحرب في البحر بوجه عام ، سواء فيما يخص الخسائر في السفن الحربية والطائرات ، أو الغواصات من كلا الجانبين ، خلال المرحلة الاولى ، فان ميزان القوى ، لم يتأثر كثيرا ، منذ نشوب الاعمال القتالية . لقد كانت الخسائر جسيمة بالطبع ولم يكن هناك احتياطي اطلاقا ، أما التعويض عن طريق البناء الجديد لمعدات جديدة سيحتاج ولا شك لعدة سنوات .

وعلى كل حال ، كان حلف الاطلسي يتمتع بمزية واحدة على الاتحاد السوفييتي ، فقد كان أسهل على بحرية الولايات المتحدة الاميركية وبالتالي حلف الاطلسي ، التصرف بقواتها العائمة ، بعكس ما تستطيعه البحرية السوفييتية في هذا المجال . وهكذا كانت عدة وحدات أميركية هامة تبحر من المحيط الهادي فيما كانت تشق طريقها الى المحيط الاطلسي ، لتنضم

الى الاسطول الضارب ، بدلا من العناصر التي غرقت ، سواء بسبب الهجم ـ بواسطة الطائرات والغواصات أو خلال انسحابها من البحر النرويجي . لكن الاساطيل السوفييتية في بحر البلطيق ، والبحر الاسود ، وعلى الرغم من الاستيلاء على مخارج بحر البلطيق ونقل الوحدات البحرية من البحر الاسود الى البحر المتوسط ، لم تكن قادرة على تقديم الدعم ، أحدها للآخر . كانت الطائرات الضاربة التابعة للبحرية الاطلسية المتمركزة في المملكة المتحدة « حاملة الطائرات التي لا تغرق » والغواصات الاطلسية في البحر الابيض المتوسط ، كانت شبحا مخيفا باستمرار لتحركات البحرية السوفييتية . وقد نجحت القوات الجوية والبحرية السوفييتية في الشرق الاوسط ولمدة محدودة ، في السيطرة على البحر الاحمر ، وعلى بحر العرب . ولكن ، تمكنت قوة مشتركة أميركية وبريطانية واسترالية تعمل كلها في المحيط الهادي ، من تحييد القوات السوفييتية هذه . وفي النهاية كانت خسائر الجانبين جسيمة على أي حال .

كانت الغواصات السوفييتية ، والطائرات الضاربة التابعة للبحرية السوفييتية ، تعيق بشدة حركة نقل البترول والتموين ، والمواد الاولية والاعتدة الحربية الى شمال غرب أوروبا . لكن التمزق الذي أصاب القوات السوفييتية ، ادى الى اضعاف التقدم تدريجيا وحد من زخم هجومها . وفي عام ١٩٧٤ أبدى الادميرال « غورشكوف » الملاحظة التالية : ((**ان التقليل من أهمية الحاجة لدعم عمليات الغواصات بالطائرات وسفن السطح كلف القيادة الالمانية العليا غاليا جدا في الحربين العالميتين الاخيرتين**)) . والآن تقع حكومة بلاده في نفس الخطأ الاستراتيجي . ولو أن الغواصات ، كانت تملك القدرة على العمل بشكل مجموعات كبيرة تحت الماء ، على غرار ما قامت به ، قوارب « ريو U-BOATE » على سطح الماء خلال الحرب العالمية الثانية ، فليس هناك أدنى شك ، أن حملتهم ستنجح ، ولا ريب في ذلك . اذ يمكن مواجهة الغواصات فرادى ، أو أزواجا ، وكان ينجم عن الهجوم بالصواريخ اصابة سفينة أو أكثر من الانواع المضادة للغواصات . كانت

حاملات الطائرات المرافقة ، والسفن الحربية ، وسفن الدورية ، والحوامات ، وطيران البحرية ، قد بنيت خلال الفترة الواقعة ما بين الاعوام ١٩٧٩ و ١٩٨٥ بأقصى درجات السرعة . كانت مساهمة البحرية في جمهورية المانيا الاتحادية بالنسبة لدعم القيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب الغربية ذات أهمية كبيرة لتلك البحرية التي تمت تقويتها خلال تلك الفترة المذكورة بدعم من مجلس حلف الاطلسي . ونظرا لان حكومة جمهورية المانيا الاتحادية ، كانت تدرك الاهمية الكبيرة لوصول القوافل التي تحمل التعزيزات الكندية والاميركية ، الى منطقة الجبهة الوسطى ، في الاوقات المناسبة بأمان وسلام ، فقد زادت من قواتها البحرية الخفيفة ، وقواتها الجوية التابعة للبحرية في بحر البلطيق ، الامر الذي سمح بتوجيه الفرقاطات للعمل الى جانب حاملات الطائرات المرافقة البريطانية .

وعندما نستطيع تقييم نتيجة حرب عام ١٩٨٥ ككل ، فمن سخريات القدر ، أن يعزى **فشل** الاتحاد السوفييتي ، الى « غورشكوف » أعظم أدميرال روسي عبر التاريخ ، وهو « **صاحب الدفاع القوي الناجح** » من أجل زيادة **القوات البحرية السوفييتية باستمرار** ، **الذي** أدى الى جر الرفاق الى الكارثة ، وبالتالي الاتحاد السوفييتي ـ **عندما تعلو أمواج البحر يغرق الدب** ـ .

وحتى على اليابسة ، يبدو ان الاتحاد السوفييتي ، قد خدع نفسه . ففي الجبهة الوسطى الهامة في غرب أوروبا ، كان الجيش الاحمر يعول كثيرا على نجاح مبكر وحاسم أغرى القادة السوفييت ، وبدلا من ذلك أخفق هجومهم ، وانتابتهم هواجس حقيقية حول امكانية دعمهم من الداخل .

* * *

الفصل الثامن عشر

الحرب في الفضاء المحيط بالجو

في عام ١٩٥٧ خرج الناس في جميع أنحاء العالم الى الحدائق والى الشوارع ليشاهدوا « السبوتنيك » يزرع السماء . وفي وقت لاحق ، كانوا يلازمون أجهزة التلفزيون ، ليروا الانسان يمشي على سطح القمر . وتلا ذلك التحام مركبة « ابولو » الفضائية الاميركية ، « بسيوز » السوفييتية . كانت السياسة التي دلت عليها تلك المصافحة الفضائية المُضلّلة ، تجتذب النظارة في جميع أطراف العالم ، أكثر من اجتذابها لهذه التقنية التي حققت هذه الاعاجيب . وعندما خفض الكونغرس الاميركي،الاموال اللازمة والمخصصة لبرامج الفضاء « NASA الادارة القومية للملاحة الجوية والفضاء » ، فقد الناس العاديون على وجه الارض الاهتمام الذي كانوا يعلقونه على مثل هذه الامور . كانت أفلام حروب الفضاء ، التي عرضت لاول مرة عام ١٩٧٧ والتي ما تزال تعرض في لندن حتى نشوب الحرب ، وكذلك الكتب التي تتناول الحروب ما بين الكواكب في هذا الفضاء البعيد ، تخلب ألباب الناس ، وتجتذبهم لمشاهدتها ، في حين لم يحظ رجال الفضاء ، الذين ينفذون بمعداتهم وتجهيزاتهم مهام معينة أثناء الدوران في الفضاء ، وعلى مسافة لاتزيد على المسافة بين لندن ومانشستر باهتمام خاص . بالطبع تنطبق هذه النظرة على المجموعات العسكرية العلمية الصغيرة ، التي كانت مهمتها التفكير في هذه الامور ، وادارتها ، وخاصة في الاتحاد السوفييتي . على أن الذي كان يشغل اهتمامهم من الفضاء ، هو ذلك الجزء منه ، الذي يمتد ما بين

ثلاثمائــة كيلــو متر واثنين وثلاثــين الف كيلــو متر عن ســطــح الارض . وان الاستخدامات العسكريــة لهذه المنطقة الشاسعة التي يسيطر فيهــا الانسان على بيئته ، كانت على غرار ما استهدفــه الطيران من قبل ــ أي الاستطلاع والمواصلات ــ .

تمكنت الــدول العظمى بحلــول عــام ١٩٨٥ ، من تطويــر امكانياتهــا المدهشــة في تلك الاتجاهات ، وخــاصة في مجــال التصــوير الفضــائي ، الذي كان على قــدر من الدقــة ، بحيث يمكن معــه تعداد الجنود الــذين يسيرون بأرتال النظام المنضم . أما في حالة الحرب ، فقد كان الروس مهتمين برؤية ما كان يجري في الاطلسي ، وعلى السواحل الشرقيــة للولايات المتحدة الاميركية التي كانت معنية نيابة عن حلفائها في الغرب ، بمراقبة التطــورات العسكرية ، واستخدامها في قلب الاتحاد السوفييتي عــن طريق التصوير الفضائي ، والتنصت الالكتروني ، وخاصة خلال فترات التوتر ، أو الحرب الحقيقية ، مثلما كانت مهتمة بذلك زمن السلم . ولم تسهم أقمار المواصلات الصناعية التي كانت تعمل كمحطات تقوية في الفضاء على زيادة مدى الامكانات المتوفرة زيادة كبيرة فحسب ، بل دعمت نوعية البث والاستقبال بالراديو ، والثقة في تلك الاجهزة ، ووفرت أيضا مساعدات ملاحية ملحوظة بدقــة متناهية ، تعد بالامتار القليلة ، للسفن والغواصات والطائرات .

وبقدر ما أصبح الفضــاء القريب الآن امتــدادا للجو المحيط بالكــرة الارضية ، يمكن الوصول اليه بسهولة ، كذلك أثبتت امكانية الاستفادة منه من الناحية العسكرية ، انها غالبا امتداد للامكانيات القائمة حاليا في قواعــد أرضية . امكانيات ازدادت قوة ــ ولم تكن في الوقت نفسه غير مألوفة ــ وهي لذلك ، ليست أمرا لا يستغني عنه . كان هناك وجه معين من أوجه النشاط ؛ بالغ الاهمية بالنسبة للحلفاء وخاصة فيما يتصل بفوائــد الوقت أثنــاء الحرب . وكان وجه النشاط هذا ، هو الاستطلاع الالكتروني ، وكما يلاحظ ، في مواضع أخرى من هذا الكتاب ، كان الغرب يتفوق على الشرق الشيوعي في مجال الاجراءات المضادة للالكترونيات «ECM» . ولهذا السبب ، عمد الاتحاد السوفييتي أثنــاء أيام السلم ، الى اخفاء مواصلاته بكل حجاب ممكن

من السرية والتكتم ، ولو أن الغرب أراد أن يستغل تلك الفائدة الالكترونية الى أبعد مدى، لاحتاج ومنذ نشوب الحرب الى أن يعرف أنواع الترددات وطرق الارسال التي قد تستخدمها القوات السوفييتية . كانت هذه المعلومات الضرورية مطلوبة بسرعة منذ بدء المعركة ، اذ يجب تمزيق غلالة السرية السوفييتية . ان هذه المهمة يمكن القيام بها بسرعة وفعالية وسهولة وشمولية من قبل أقمار الاستطلاع الفضائية ، أكثر مما يمكن احرازها عن طريق الوسائل الارضية كالتنصت على شبكات المواصلات في مسرح الحرب ، على الارض .

وتمكنت الولايات المتحدة الاميركية وبسرعة من التقدم على الاتحاد السوفييتي ، في المنافسة في المجالات الفضائية ، على الرغم من ان الاتحاد السوفييتي ، قد أحرز السبق بأقمار « سبوتنيك » . فقد كانت العربات الفضائية الاميركية والاجهزة ذات الصلة أكثر قدرة ، وأكثر ايحاء بالثقة ، وأكثر قدرة على الاستمرار بالعمل من تلك التي يستخدمها الاتحاد السوفييتي . ونشأ عن ذلك النجاح الهندسي والتكنولوجي ، اختلاف في أساليب الوصول الى الاهداف ، ذلك الاختلاف الذي كان مقدرا أن تكون له أهمية استراتيجية أساسية . فقد استثمر الاميركيون امكاناتهم وخبراتهم في انتاج عربات معقدة ، تدوم طويلا ، متعددة الاغراض ، ومصممة لتأدية وظائفها في مدارها لفترات تمتد حتى السنة ، في حين كان الروس يلجؤون وبسبب ظروف قاهرة الى عمليات اطلاق متعددة لمركبات بسيطة ، وحيدة الغرض ، قصيرة الامد . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا ، في عام ١٩٨٥ : أنه كان لدى الاتحاد السوفييتي استطاعة عالية ، على اطلاق العديد من الصواريخ ووضعها في مدارات مختلفة . فخلال الاثني عشر شهرا السابقة ، استطاعوا أن يضعوا في الفضاء ليس أقل من اثنين وثلاثين قمرا اصطناعيا للتصوير والمراقبة . وفي الثالث من آب ، كان لديهم أكثر من عشرين قاذفا جاهزا ، في « بايكونور وبلستسك » مع مجموعة متنوعة من الأقمار الاصطناعية ، جاهزة للاطلاق .

من جهة أخرى لم يكن لدى الولايات المتحدة الاميركية أكثر من عدد قليل من صواريخ « تيتان ٢ » الجبارة ، والمصممة لحمل قمر « بيغ بيرد ٢ » الـذي يزن اثني عشر طنا في الفضاء ، وخمس عربات فضائية معدة لخدمة البرنامج الفضائي الاميركي المكوكي .

وفي أواخر السبعينات ، بدأ أن البرنامج الاميركي بخصوص الفضاء ؛ قد وصل الى مستوى عال من التطور والتحسين ، بينما استمر الاتحـاد السوفييتي في اطلاق مركبات مسيرة من قبل الانسان ، بمهمة القيام بأبحاث لم تكن أغراضها الحقيقية واضحة تماما وبصورة دائمة للمراقبين الغربيين ، وعلى كل حال ، فقد ثبت أن الروس كانوا يعملون على تطوير أجهزة مضادة للاقمار الصناعية تستخدم بالتأكيد بالاضافة الى تشويش أشعة لازر ، وأشعة حرارية عالية ايضا وفيعام ١٩٨٥، كان لدى الجانبين الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفييتي، قدراتمضادة للصواريخ، ولكن كان من المشكوك فيه،ان يكون الاتحاد السوفييتي متقدما في هذا المضمار ، فقد امتنع عن استعمال هذه القدرة حتى الساعات الاولى من الرابع من آب ، خشية التضحية بفائدة المفاجأة . لكنه ، وبمجرد بدء الهجوم في الجبهة الوسطى ، قام بمجهود شامل ؛ اثّر على الحرب الفضائيـة .

الامر الـذي أدى الـى الحـط من فاعليـة المواصـلات الحليفـة ، لكـن ذلك أمكـن التعويض عنـه والتغلب عليـه بالتحول الـى الاجهـزة الجويـة « Atmospherique » ، بانتظار وصول العربات الفضائية الى مداراتها . وعندما يكتب تاريخ حرب الفضاء سيتضح أن الدور الذي لعبـه مدراء الاتصالات في مراكز الاشراف الاميركية ، قد أسهم اسهاما ملحوظا وحاسما في مجهود الحلفاء الحربي .

وعندما أعلن حلف الاطلسي « الناتو » حالة الاستنفار في تموز عام ١٩٨٥ ، سارعت « الناسا » الشركة الوطنية للجو والفضاء ، ووزارة الدفاع

لاستعراض مواعيد اطلاق عربات الفضاء المكوكية ، فتبين أن واحدة فقط من بين العربات الخمس الموضوعة في الخدمة، كانت جاهزة للاستعمال، في حين كانت العربات الاخرى غير جاهزة . فالاولى كانت في ورشة لاستبدال قطع القرميد الحرارية . وثانية كانت تستبدل أجهزة الهبوط بأجهزة جديدة ، أثر هبوط عنيف في « فاندنبرغ »، وأخرى كانت في ورشة لاجراء مراجعة عامة عليها لمدة شهر ، في حين كانت الاخيرة في الفضاء على مدارها بمهمة استعادة أحد الاقمار الصناعية . أما المخبر الفضائي الاوروبي فكان ، يجثم على الارض اذ لم تكن اعادة اطلاقه مقررة ، قبل نهاية العام .

وفي الساعة السادسة بتوقيت «ايسترن ستاندار » من يوم الجمعة الثاني من آب ، اطلقت مركبة « الانتربرايز رقم ١٠١ » من كاب كندي وعليها طاقم من أربعة رجال ، برئاسة العقيد « سليم ويتنورث » من القوات الجوية الاميركية . وكانت مهمتها متعددة الاغراض ، بحيث يقتضي الامر ، تبديلا في ترتيب الافضليات . ولعل خير ما يحافظ على المرونة ، هو أن تكون العربة ، بقيادة فريق من الاشخاص خير من توجيهها آليا من الارض ، فالتصوير والاستطلاع الالكتروني هو ما يطلب من هذه المركبة خلال اجتيازها بصورة دورية لمنطقة الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية . يضاف الى ذلك ، أنها كانت مستعدة بما لديها من أشرطة تسجيل متخصصة بأكثر من اثنتي عشرة لغة موجهة لاغراض الدعاية ضد الاتحاد السوفييتي ، ولا تستعمل هذه ، الا اذا اقتضت التطورات السياسية ذلك خلال تنفيذ المهمة .

وعندما ازدادت حدة التوتر ، حوالي نهاية شهر تموز كلفت المركبتان « بيغ بيرد » بتصوير المواقع المتفرقة للضواريخ السوفييتية المتحركة« IBCM » عابرة القارات ذاتية الدفع من طراز « SS - 16 » ، وفي الوقت نفسه أوعز رئيس هيئة الاركان الاميركية المشتركة ، بتجهيز واعداد ، مركبتي « بيغ بيرد » أخريين ، لتعويض أية مركبة يحتمل أن تدمر ، على أن تكون الافضلية

للحفاظ على الاستطلاع والمراقبة الالكترونية ، التي ستكون هامة وحيوية للاجهزة المضادة للالكترونيات الحليفة ، عندما تنشب الحرب . وقرر هو وزملاؤه وضع ثلاثة أقمار ملاحية اضافية ، في مدار ثابت جغرافيا على ارتفاع ثلاثين الف كيلو متر فوق المحيط الاطلسي . وكان هذا النظام هو الذي يعطي امكانية ملاحية مدهشة تسمح طائرات من طراز « إف ـ ١١١ » التابعة لسلاح الجو الاميركي من تحديد اهدافها الارضية بدقة تصل الى حد اثني عشر مترا . ولم يكن ليخطر في البال ، ان هذه الاقمار الاصطناعية العالية ، ستتعرض للمخاطر . كان يعتقد أنه من الصعب الوصول اليها ، ومن المؤكد توفر طرق أكثر تأثيرا وفعالية في تعطيل هذا النظام من ارسال أقمار اصطناعية تتولى التشويش عليه من أمدية قريبة . وقد وقع ما يؤيد هذا الرأي، عندما تعرضت محطة الاشراف والمراقبة التابعة للبحرية في « فليتسساتكوم » على الساحل الشرقي للولايات المتحدة الاميركية الى اضرار كبيرة نتيجة عمل تخريبي من قبل مجهولين ، وذلك في الثاني من شهر آب . على أن الجانب المزعج في هذا العمل التخريبي هو أن هذا العطل يتم بوسائل الكترونية ، من قبل شخص ما على معرفة وثيقة بالمحطة وبأمورها التكنولوجية .

كانت الحرب في الفضاء أشبه ما تكون باجراء واجراء مضاد ، وكانت حصيلتها متوازنة . كان الاميركيون طيلة الوقت ، مهتمين بالاقتصاد في العدد المحدود المتوفر لديهم من الاجهزة القاذفة المتوفرة . ومن جهة أخرى كانت أقمارهم ، تتمتع بامكانيات أكثر شمولا وتنوعا في الفضاء ، من نظيراتها مما لدى الاتحاد السوفييتي ، يضاف الى ذلك أن هذه الاقمار تستطيع عن طريق مضاعفة أجهزتها مرتين أو ثلاث مرات ، أن تصمد أمام الاعطال الكثيرة ، وتستطيع بالتالي تنفيذ مهماتها ، على نحو مفيد كما تتطلبه مهمتها ، وأن تصمد بالتالي أمام التشويش الذي نتعرض له . وفي الحقيقة ، تم وفي وقت مبكر ، استخلاص المعلومات الهامة عن البث الالكتروني السوفييتي في ميدان معركة المنطقة الوسطى لصالح الحلفاء ، وقد

أمكن تأمين الانذار من الصواريخ ذات الدفع الذاتي « بالستية » بواسطة الاقمار العالية ، على نحو كامل ، خلال الحرب . ولقد عانى نظام الاتحاد السوفييتي كثيرا من التدخل الاميركي ، ومن قصور مركباته الفضائية ، بسبب قصر عمرها ، وعدم فعاليتها ، وقصوره التكنولوجي عن الولايات المتحدة الاميركية . واستطاع الروس مع ذلك ، بفضل الاستبدال المستمر في المركبات الفضائية من تأمين تغطية جيدة للمحيط الاطلسي والولايات المتحدة الاميركية نفسها ، لكن ذلك لم يرق الى مستوى الفائدة الذي كان الحلفاء يحصلون عليها من استطلاعهم الالكتروني .

على أن مثل هذا المفهوم ، لا يلتقي من قريب أو بعيد مع الافكار العامة لدى معظم الناس المستقاة من الكتب ودور السينما ، ولا ينتظر ذلك في يوم من الايام . لكنه وقع حادث قريب جدا من أساطير الخيال العلمي لما يحمل في طياته من بذور الخير والشر للمستقبل نسرده فيما يلي :

عند منتصف ليلة الثالث من آب ، كان قد مضى على المركبة الفضائية « انتربرايز ١٠١ » اربعون ساعة في مدارها ، كانت جميع أجهزتها تعمل بصورة ممتازة ولم يتلق « الكولونيل وينتوورث » أوامر للبدء بالبث الاذاعي ، لكن مركبته كانت تحت رقابة دقيقة ، من قبل الاتحاد السوفييتي ، الذي لم يكن راضيا عن المهمة التي تقوم بها ، والتي كانت معروفة جيدا لديه من مصادره الخاصة في الولايات المتحدة نفسها . وبصرف النظر عن الاضرار المحضة التي تأتي بها مهمة هذه المركبة الفضائية بالنسبة للاتحاد السوفييتي ، لم يحتمل المكتب السياسي والعسكريون على حد سواء ، ما يقوم به أربعة أميركيون حين يذرعون فضاء بلادهم عشر مرات يوميا دون عقاب ، خاصة في الوقت الذي يقترب فيه البلدان الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفييتي من حافة الحرب . كان الروس مستعدين جيدا ، بل أنهم وضعوا خططهم مسبقا لتعطيل مركبة « الانتربرايز » اذا ما استطاعوا ذلك .

في الساعات الاولى من يوم الرابع من آب . أطلقت المركبة الفضائية السوفييتية « سويوز ٤٩ » التي يتألف طاقمها من شخصين ، وعندما انتهت دورتها الرابعة ، كانت قد اقتربت من مركبة « الانتربرايز » حتى مسافة مائة وخمسين مترا . واتفق ان كان الكولونيل « ونتووورث » يتطلع خارج مركبته عندما اجتازت « سويوز ٤٩ » المركبة الاميركية « انتربرايز » ، فبهرته أشعة اللايزر وأفقدته بصره . واذا كان لدى طاقم « الانتربرايز » الكثير مما يجب عمله ، كان عليهم أن يعلموا مراكز التحكم بما كان يجري ، كما كان عليهم أن يتدبروا أمر القائد الذي فقد قدرته البصرية وأصبح عديم الفائدة ولا قيمة له . واستلم النقيب « جانس » وهو من البحرية الاميركية ، قيادة المركبة عوضا عن الكولونيل « وينتوورث » ، وأوعز على الفور بتفقدها للتأكد من عدم وقوع اضرار أخرى. كانت المركبة ، قد تعرضت لاشعة حرارية أخرى، وقد حمل لهم، تفقدها انباء سيئة، فقد تعطلت الفتحات الخمس في محركها. ولم يعد ممكنا اجراء سيطرة ناجحة على دخولها الاجواء الارضية ، بيد أن أسوأ ما وقع من أضرار هو احتمال ما يمكن أن تصاب به البطاريات الشمسية ، وتوقف توليد الطاقة الكهربائية . كانت لديهم بطارية ذات استطاعة كبيرة ، لكن النقيب « جانس » أمر فورا بتخفيض الخدمات الكهربائية الى الحد الادنى الذي يتطلبه الحفاظ على الحياة ، وللاتصال مع مراكز التحكم والمراقبة .

كان مركز التحكم والاشراف الفضائي مطمئنا ، فبعد سكوت دام حوالي خمس دقائق أعلن المركز أن مركبة « الانتربرايز ١٠٣ » التي عادت الى « فاندنبرغ » مع تابعها « Satellite » التي كانت تقوده ، وسيجري تجهيزها بالسرعة القصوى ، تمهيدا لارسالها بهدف استعادة « الانتربرايز ١٠٢ » وطاقمها . كان « جانس » ورفاقه يعلمون جيدا ، ان تجهيز رجل فضاء للتحليق مرة أخرى ، يحتاج في العادة عدة أيام وتساءلوا بهدوء عما اذا كانت البطاريات التي بحوزتهم تستطيع تأمين ما يقيهم أودهم ، الى حين وصول مجموعة الانقاذ المتجهة نحوهم .

لكـن الحرب كانت قد بدأت تدور الآن ، ويتطلـب ما تتعرض لــه عمليات المراقبة الاميركية من تدخل وتخريب ، اطلاق مركبتين فضائيتين من طراز « بيغ بيرد » لتدور حول مدارات فضائية دون تأخير . ولكن رؤساء أركان القوات المشتركة قرروا الاحتفاظ بالمركبة الفضائية « انتربرايز ١٠٣ » بعد اعادة تجهيزها ، لتكون بديلا للتوابع المتعطلة . وكان الكولونيل «وينتوورث» ورفاقه قد غادروا الارض الى الفضاء ، قبل بدء نشوب الاعمال القتالية ، وقد أمضوا المدة التي استمرت بها الحرب العالمية الثالثة وهم يدورون في الفضاء ، واستعيدت جثثهم من الفضاء ، في نهاية آب ١٩٨٥ . وكانوا من أول ضحايا الحرب في الفضاء ، وقد جرى دفنهم في مقبرة « ارلينغتون » القومية .

* * *


الموقف العام بتاريخ ١٣ آب ١٩٨٥
ساعة ١٨٠٠
أراضي محتلة من قبل قوات
حلف وارسو .
بحر الشمال
الدانمارك
هامبورغ
امستردام
هولندا
هانوفر
الجيش الأول (هولندا)
الجيش ٢ بريطانيا
الجيش الأول المانيا الاتحادية
الجيش الأول / بريطانيا
الجيش الأول / بلجيكا
الجيش الثالث (المانيا الاتحادية)
فرانكفورت
الجيش الخامس (امريكا)
مج جيوش الشمال
مج جيوش الوسط
مج جيوش الجنوب
الجيش السابع (امريكا)
بروكسل
بلجيكا
لوكسمبورغ
جمهورية ألمانيا الديمقراطية
تشيكوسلوفاكيا
شتوتكارت
الجيش ٢ (فرنسا)
الجيش ٢ (المانيا الاتحادية)
ميونيخ
فرنسا
سويسرا
برن
النمسا
١٥٠ كم

الفصل التاسع عشر

الدّفاع الجوّي عن المملكة المتّحدة وشرق الأطلسيّ

احتفظت المملكة المتحدة ، لعدة سنوات ، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بمستوى عال من الدفاع الجوي . وفي أعقاب الحرب ظهرت أفكار مثالية ، تنادي بالقاء السلاح فورا ، الا أن أزمة برلين ، والجسر الجوي اليها عام ١٩٤٨ ، ثم الحرب الكورية عام ١٩٥٠ أسهمت جميعها كثيرا في دحض هذه الافكار ، في الوقت الذي كان فيه التهديد بالحرب غير كبير نسبيا . الا أن ذكريات الحرب عام ١٩٤٠ كانت لا تزال حية وماثلة في الاذهان . ونتيجة لذلك بقيت أعداد الطائرات المقاتلة ، حتى النصف الاول من الخمسينات ، كثيرة ، بل أن قيادة القوى الجوية ، كانت تباهي عام ١٩٥٧ بأن لديها حوالي ستمائة طائرة مقاتلة نفاثة وعدد كاف من المطارات ومحطات الرادار اللازمة لها .

لكن عام ١٩٥٧ قد شهد تحولا سياسيا رئيسيا ، اذ كان يقضي بترك البلاد مجردة من أي دفاع جوي ملائم لفترة تمتد قرابة عشرين عاما ، بالاضافة الى أن تقويم التهديد الذي تنطوي عليه الصواريخ النووية السوفييتية في مطلع الخمسينات ، في وقت كانت فيه القوة النووية الاستراتيجية للولايات المتحدة الاميركية تتمتع بتفوق ساحق ، كل ذلك قد أدى الى تبني استراتيجية حديثة ، وهي استراتيجية الانذار والرد . وفي عام ١٩٥٧ تقرر على ضوء ذلك وبمنطق لا يخطىء ما تدعو الحاجة اليه وهو تأمين ترس واق من المقاتلات لحماية

قواعد قاذفات القنابل الذرية من طراز « إف ٧ » والتأكد من انها تستطيع ان تحلق في الجو لتؤدي مهمات الرد ، بمجرد صدور الانذار عن أجهزة الانذار المتخصصة ضد الصواريخ ذاتية الدفع « وللتذكير بذلك يمكن العودة للفصل الرابع لمطالعة مناقشة هذه المرحلة عن السياسة الدفاعية البريطانية » .

وقد تكون ، سياسة الانذار ثم الانتقام الشامل، أو لاتكون ، سياسة تتمشى مع الظروف السائدة في ذلك الوقت ، لكنها برهنت في وقت لاحق عن سوء فهم خطير . واذا ازدادت القوة الصاروخية السوفييتية ، أخفقت استراتيجية الانتقام الشامل لتفسح الطريق امام استراتيجية الرد المرن، مع التأكيد على القدرة على القتال بأسلحة تقليدية وأسلحة نووية أيضا . وبذلك اختفى المفهوم الذي بنيت عليه فكرة الحد الادنى من الدفاع الجوي . لكن الطلبات الكثيرة التي انهالت على الحكومة لزيادة نفقاتها في مجالات كثيرة ، لم تسمح باعادة بناء جهاز الدفاع الجوي بناء شاملا للتصدي للقدرة السوفييتية المتنامية على مهاجمة المملكة المتحدة ، في مرحلة حرب تقليدية .

وفي الوقت الذي اعترفت فيه مصلحة المخابرات ، ولو متأخرة بخطورة التهديد الجوي التقليدي ، فان المسألة لم تكن ، مسألة عدد الطائرات « والله يعلم أنها كانت محدودة جدا » بل كانت مسألة عدد العناصر في الجو وعلى الارض . ولم يكن سهلا توفير هذه العناصر في مجتمع مزدهر تجتذب فيه الصناعة والتجارة هذه العناصر . كأن نقص المطارات يشكل مصدر قلق خاص . وفي نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ ، كانت المطارات تنتشر في معظم أرجاء البلاد بمعدل مطار واحد كل خمسة عشر الى خمسة وعشرين كيلو مترا . أما الآن ، فلم يبق منها سوى عدد قليل ، أما المطارات الاخرى ،فقد سلمت الى ملاكها لفلاحتها وزراعتها أو أعيدت الى البلديات لاعادة استعمالها في أوجه مختلفة ، وهكذا أصبح نقص المطارات خطيرا ومحرجا حقا .

كان من الضروري خلال السبعينات ، أن يكون الدفاع الجوي على نطاق أوسع بكثير مما تقتضيه المعركة من أجل بريطانيا . ان الحاجة لتدمير الطائرات المعادية المغيرة التي تحاول أن تظل بعيدة عن الامدية المجدية للاسلحة الدفاعية المضادة ، تقتضي والامر كذلك أن تغطي نطاقات الدفاعات الجوية مئات الكيلو مترات . على أن حاجة بريطانيا لتوسيع دفاعها الجوي ، ليس مرده هذا السبب فقط ، بل لان المناطق التي يجب الدفاع عنها ، اتسعت لتشمل شرق المحيط الاطلسي ، حيث تتحتم حماية السفن وأجهزة الملاحة التي لا تتوفر لها الحماية ، وخاصة أنه لم تعد تتوفر لها تغطية جوية من طائرات ، تنطلق من حاملات تابعة للبحرية الملكية لعدم توفرها .

وبالاضافة الى المهمة الرئيسية ، للدفاع عن المملكة المتحدة وقواعدها . فقد أعطى القائد الاعلى لقوات الحلفاء في الاطلسي « Saclant » والقائد الاعلى لقوات الحلفاء في أوروبا « Saceur » الى بريطانيا العظمى مهمة الدفاع عن منطقة تمتد من بحر المانش ، حتى البحر النرويجي شمالا ، وحتى سواحل ايسلاندا غربا . واذا ما تحققت مخاوف حلف الاطلسي فان الامكانات الجوية المتوفرة في منتصف السبعينات ، ليست بالتأكيد كافية ففي تلك الظروف ، لا تأمن المملكة المتحدة أن تكون بمنأى عن أهتمام القوات السوفييتية بها ، « علما ان المملكة المتحدة تعتبر قاعدة خلفية للقائد الاعلى لقوات الحلفاء في أوروبا وقاعدة متقدمة للقائد الاعلى لقوات الحلفاء في الاطلسي وان ما يحدد الادوار الجغرافية الاستراتيجية للجزر البريطانية ليس واضعو الدفاعات وحدهم فقط » .

والمملكة المتحدة بالنسبة للقائد الاعلى لقوات الحلفاء في الاطلسي فانها بالاضافة الى ما تقدمه من دفاع جوي ، ودوريات طيران مضادة للغواصات لحماية السفن والملاحة في شرقي الإطلسي والقنال الانكليزي ، هي : قاعدة هامة وخطيرة يمكن منها تقديم الدعم الجانبي لاسطوله الضارب ، عندما يشق طريقه في بحر الشمال النرويجي ، في وجه مقاومة سوفييتية بحرية

وجوية . وهذا ما يتوجب على الاسطول الضارب ان يقوم به في الحرب . أما الإمر بالنسبة للقائد الاعلى لقوات الحلفاء في أوروبا فالمملكة المتحدة هي القاعدة التي ينطلق منها المجهود الجوي العميق وراء الخطوط المتقدمة للعدو في ميدان معركة القارة الاوروبية ، كما أنها المكان الذي تتجمع فيه الطائرات وطواقمها التي توضع في الاحتياط . ثم يأتي دور الجسر الجوي ، الذي يشكله ذلك الحزام المتصل من طائرات النقل العملاقة للنقل الثقيل التي ستكلف بنقل التعزيزات البشرية ومعداتها من الولايات المتحدة الاميركية الى أوروبا فور وضع خطط التعبئة التامة موضع التنفيذ . ومع وجود نظام الصواريخ البدائي ، جو ــ جو وحتى في ظل وجود الطائرات القديمة ذات المدى البعيد ، فان هذا السيل من النقل الجوي سيتعرض ولا شك للدمار ، وعلى ذلك يجب أن لا يحدث مثل هذا ، ومن واجب قائد الدفاع الجوي البريطاني « Cinçu Kair » أن يتأكد من عدم حدوثه ، ويعمل بكل ما في وسعه ليتجنب وقوعه فريسة للدمار .

على كل حال ، بدأت الامور تتطور نحو الافضل اعتبارا من عام ١٩٧٧ ؛ وان لم يكن تطورها ، من وجهة نظر قيادة القوات الجوية البريطانية ، يجري بالسرعة المطلوبة . وتم اضافة سربين من طائرات « لايتنيغ » المعترضة القديمة بعد تجديدها على نحو يطيل في أمد حياتها ، وجرت بعض التحسينات على تسليحها أيضا ، وبذلك تم احراز تقدم ملحوظ في هذا الاتجاه . وهكذا أصبحت طائرات الفانتوم من طراز « إف ــ ٤ » تشكل العمود الفقري لقوة اعتراضيــة، اذ رفعت قدراتها على كافة المستويات وكذا مقاومتها للتشويش الالكتروني ايضا ، وأعيد ادخال صواريخ « بلودهاوند » لتأمين الدفاع الجوي أرض ــ جو عن منطقة جنوب شرق المملكة المتحدة ، ضد الطائرات المغيرة على ارتفاعات منخفضة ، فيما تتولى الاسراب المتحركة « السيارة » من الصواريخ أرض ــ جو من طراز « رابيير » الدفاع عن المطارات الهامة في الشمال . واستمرت التحسينات باضطراد ، وتقرر أن تحــل طائــرات « تورنادو » محل طائرات الفانتوم في الدفاع الجوي خلال الثمانينات ، كما تمت التوصية بانتاج طائرات

من طراز « نمرود » تحمل رادارات الانذار المبكر الجوية. وتوالت أيضا الخطط لتحديث أجهزة التحكم والاتصال الرادارية الثقيلة غير المتجانسة التي تراكمت تدريجيا على مر السنين ، في الوقت الذي كانت فيه القوات الجوية الملكية « رافي » تناضل من أجل تحسين دفاعاتها الجوية في ظل سياسة الدفاع البريطانية المقتصدة . وعملا بسياسة بعيدة النظر ، كان على المطارات بحلول أوائل الثمانينات أن تزيد من اجراءات حماية الطائرات التابعة لها ، بينما يتولى نظام اتصالات جديد ، مرن ومعد لمقاومة التشويش ، تابع للدفاع الجوي البريطاني « Ukadge » ، ربط المقاتلات ومراكز المراقبة والتحكم والاشراف ، وانظمة الانذار المبكر ، المحمولة جوا ، والمجالات الجوية لها ، ربط كل ذلك بعضها مع بعض بتنسيق متكامل .

وعندما استفاق الوعي الوطني ، وبات يحس بالقلق من جراء ما يخلفه التوسع السوفييتي المندفع ، من أخطار لبريطانيا ، أصبحت الطريق سهلة ، أمام واضعي الخطط الجوية ، وأصبح بالامكان كسب تأييد سياسي من جميع اتجاهات مجلس العموم البريطاني ، لاجراءات واضحة لازمة للدفاع عن الوطن . وبالطبع فان الموافقة السياسية أمر هام جدا ، لكن تنفيذها شيء آخر أهم . فقد كانت المهمة جسيمة ، فليس بالامر اليسير السهل ، زيادة أو تسريع انتاج طائرات وأسلحة معقدة ، أو توفير التسهيلات اللازمة لدعمها ، وكذا الامر في وضع الاسس المعقدة لاقامة صناعة كهذه ، بل لعل من الصعوبة بمكان تأمين الفنيين والتقنيين الماهرين من الرجال والنساء القادرين على العمل لتشغيل نظام عسكري معقد ، بدون وضع برنامج حازم وبروية وتأن كفيلين بتحقيق التطور ، بطريقة منتظمة وحازمة ، على أن يجري تنفيذه على مدى عدة سنوات .

وبحلول عام ١٩٨٥ ، كانت طائرات « التورنادو » الاعتراضية قد وضعت في الخدمة بأعداد كبيرة ، بفضل زيادة الانتاج وبفضل الجهود الجبارة التي كان يبذلها جميع الذين يعملون في ذلك القطاع من الصناعة الاوروبية المشتركة .

كما استبدلت طائرات « الشاكلتون » بطائرات « النمرود » المخصصة لعمليات الانذار المبكر بواسطة رادارها المحمول جوا ، كما زيدت أجهزة الدفاع الجوي أرض ـ جو ، وجرى تحسين على أنواعها للتأثير على ارتفاعات مختلفة . وجرى تقييد على مبيعات هذه الاجهزة للخارج من جهة ، كما تم التزود بها من الولايات المتحدة الاميركية من جهة أخرى . وكان الصاروخ « يوروسام » من بين الاسلحة الصاروخية الجديدة التي تبشر بالفائدة في مجالات الدفاعات الجوية جو ـ جو ، أو أرض ـ جو وهو صاروخ أوروبي « مشروع انكليزي ـ فرنسي مشترك » ، وقد توفر منه لدى سلاح الجو البريطاني «RAF» سربان يعملان في البلاد نفسها . ووضعت في الخدمة ايضا طائرة النقل من طراز «إف س ـ ١٠» الضخمة المجهزة بخزان معدل، واضيف اليها طائرات بويينغ المشتراة من الولايات المتحدة الاميركية ، وبها ازدادت قدرة التزود بالوقود من الجو ، وهي مسألة هامة ، في عمليات الاعتراض البعيدة المدى فوق البحر ، شمالا وغربا .

كما أسفرت الابحاث العلمية في مجال الرادارات في « باودسي مانور » في منتصف الثلاثينات ، عن تحول التيار عام ١٩٤٠ لصالح الحلفاء في بعض المفاجآت الاستراتيجية ، فان أعظم تقدم ملحوظ ، كان انجاز نظام الاتصالات والمراقبة الجديد . ويكفي أن نقول هنا، ودونما حاجة للخوض في التفاصيل التقنية، ان هذا النظام الجديد ، كان يعمل من مركز تحكم ، بمساعدة مشتركة من البيانات الرقمية المتوفرة ، من سلسلة أجهزة الاحساس المساهمة في الدفاع الجوي ، حيث يتم نقلها الى الرادارات الارضية والجوية ، والى الرادارات المحمولة جوا التابعة للانذار المبكر مباشرة ، لتسهم في نظام الدفاع الجوي . وكذلك الى أجهزة الاحساس الارضية البحرية التابعة لحلف الاطلسي بما في ذلك تلك الاجهزة التابعة للقوات الفرنسية . وان ذلك النظام قد منح القائد الاعلى للقوات الجوية في المملكة المتحدة « Cincukair » . والى جميع المهتمين المعنيين بهذه الامور امكانية الحصول وفي أي وقت ، على صورة فورية محددة بدقة ، وفي أوقاتها اللازمة على الدوام ، عن التهديدات الجوية ، وعن الإمكانات المتوفرة

للرد عليها . وكان هذا النظام يشكل الجهاز العصبي المركزي ، او القاعدة « Plate-Forme » الرئيسية للقيادة التي منها ستدار المعركة المرتقبة .

لكن بالرغم من جميع هذه التحسينات في مجال المعدات والتجهيزات ، والتنويع الجيد في الاسلحة والطائرات فان سلاح الجو الملكي . « RAF » كان يعاني بعض النقص الخطير في أحد العناصر الرئيسية لأي معركة . الا وهو العنصر البشري أي الطاقة البشرية ، الفنيّة والمدربة . لقد جاء اعتراف السياسيين متأخرا ، ان راتب الخدمة في القوات المسلحة وظروفها في نهاية السبعينات ، جعل تلك الخدمة لاتجذب احدا من الشباب . وكان القادة في القوات المسلحة يشعرون بالقلق لاعراض الشباب والشابات عن الالتحاق بالعمل في القوات المسلحة وتفضيلهم العمل في مجالات الخدمة المدنية . لكن ذلك الموقف تحسن كثيرا وبسرعة ، بعد ان جرت زيادة كبيرة على الرواتب في عام ١٩٧٨ . وزاد استخدام الفنيين،في أعباء ميزانية وزارة الدفاع المجددة ، على حساب بعض الامور الاخرى ، الا ان المشكلة لم تكن حادة بدرجة خطيرة للتوقف عن الاستمرار فيها ، لابل تم رفع بعض مستويات المعيشة للعناصر العاملة لمواجهة متطلبات الخطوط الامامية ، لكن ليس للحد الذي كان يطالب به سلاح الجو الملكي وكذلك القائد الاعلى للقوات الحليفة في أوروبا . وكان قادة سلاح الجو الملكي يعرفون جيدا ، انه اذا ما قام سلاحهم بواجبه ، وتحمل مسؤوليته في أية أزمة مقبلة ، فان العنصر البشري ومن خلال قيادتهم الحكيمة ، سيتعرض هذا العنصر الاساسي في المعركة الى بذل اقصى طاقاته بل وربما أكثر .

ان الرواية التالية مأخوذة من مقابلة شخصية مع مارشال الجو« السيرجون هازل » القائد العام للقوات الضاربة والقائد العام للقوات الجوية في المملكة المتحدة « Cincukair » في قوات حلف الاطلسي .

* * *

« في الساعة السابعة من صباح الثلاثين من تموز ، كان مارشال الجو ينتظر في غرفةعملياته المحصنة من مركز عمليات المنطقة في« هاي ويكومب »بالقرب من«باكينغهام شاير »في انكلترا ينتظر تلقي تعليمات جديدة خلال السبعة أيام التالية، كان يعيش عمليا في مكتبه تحت الارض، ولم يخرج منه خلالها ، وسريره في فتحة جانبية ، وكانت عيناه شاخصتين تحدقان على شاشة التلفزيون في الدارة المغلقة الخاصة بعملياتهم ، فيما كانت الساعة الكبيرة تعلن عن الثواني القليلة الباقية لبدء تلقي التعليمات . وفي الوقت المحدد تماما ، ظهر الضابط المسؤول عن ذلك الاجتماع المنتظر على الشاشة ، وبدأ بالكلام الروتيني عن الحالات الجوية الفعلية والمتوقعة في جميع المناطق الواسعة التابعة له ، وتعداد الطائرات والطواقم الجاهزة وكذلك درجة الاستعداد في المطارات العملياتية ، وميادين اطلاق الاقمار الصناعية الجديدة ، والقواعد العملياتية الامامية وذلك مباشرة حسب معطيات نظام معالجة المعلومات بشكل آلي « ADP » التابع للقوات المهاجمة .

وعلى الرغم من برنامج التجديد خلال السنوات الثلاث الماضية ، مازالت المدارج ، والملاجىء ، ونظام انتشار الطائرات اثناء الاستنفار ، بعيدة عن الوصول الى المستوى الذي كان يرغب فيه المارشال ، القائد العام . وقد ازدادت فرص التعرض للمخاطر ، وكذلك المسؤوليات نتيجة الازدحام الذي احدثه تدفق أسراب القوات الجوية الاميركية الى قواعدها الحربية الواقعة في منطقة قيادته . كانت التعزيزات الكثيفة التي وصلت حتى الآن كبيرة ومؤثرة ، الا ان احدى نتائجها ان تحولت بعض المطارات وأصبحت أهدافا سهلة . وقرر في نفسه ان يناقش ذلك مع قائد فيلق القوات الجوية الاميركية الثالث بشأن موضوع انتشار قواته وبعثرتها بعد الانتهاء من تلقي المهمات . وقد تم الانتقال الى مستوى الاستعداد القتالي بيسر وسهولة ، وبشكل مرض . لقد أعجبه في غمرة هذه التحركات الجوية وتعقيداتها ومشاكلها ، الطريقة التي كان يتم بها تمييز وفرز الطائرات المختلفة . وراح يفكر ، كم ستكون الامور مختلفة ومعقدة ، اذا لم يتجاوب نظام الدفاع الجوي عن المملكة

المتحدة الالكتروني «Ukadge» حسب مقتضيات الظروف الراهنة . حقا كانت القدرة المتزايدة على تتبع وتمييز الطائرات شيء ثمين جدا من حيث أهميتها ، خاصة عندما يسمح رئيس الجمهورية الاميركية في تشغيل الجسر الجوي للتعزيزات بملء طاقمه ، وهذا مع ما سيتخذه بدون شك وسريعا اذا ما أريد لقائد قوات الحلفاء في أوروبا ، ان يحصل على التعزيزات في أوقاتها المناسبة المحددة .

ولقد اقتضى تعزيز المنطقة الوسطى بالطاقة البشرية من أجل تنظيم التراجع المحتوم للدفاعات الامامية عندما تتعرض للهجوم المدرع الكثيف للقوات السوفييتية ، استمرار تدفق طائرات النقل الضخمة ، بمعدل طائرة كل دقيقتين الى أربع دقائق ، يوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة . ومما لاريب فيه أن تحليق عدد كبير من طائرات النقل الضخمة ، فوق منطقة الدفاع الجوي ، دون ان تهبط فيها ، ثم التعرف الى هويتها ، والاشراف على تحليقها ، وفرزها وكذلك الحاقها بتحركات النقل الجوي البريطاني المحلي ، وكذلك مع القارة الاوروبية واليها ، كل ذلك سيجهد ولا شك وسائل الاشراف والتحكم الى اقصى الحدود . وفوق ذلك كله لابد من التفكير في مجال الرد العاجل على النشاط الجوي المعادي الذي يجب توقعه في فضائه الجوي الفسيح اذا ما بدأت الحرب ، وربما على مسافات بعيدة فوق المناطق البحرية بالطبع .

واستمر تلخيص الموقف أثناء تلقي التعليمات ، وكلفت طائرات «التورنادو» التابعة لقوات الانذار الاعتراضية الشمالية من « لوشار » خلال الليل بالتصدي الى محطة رادار طائرة سريعة ، وعالية . ربما كانت هذه طائرة استطلاع من « نوع ميغ ٢٥ فوكسبات » وذلك لانها استدارت باتجاه الشمال الشرقي بسرعة مرتين ونصف من سرعة الصوت وعلى ارتفاع عشرين الف متر ، وغابت عن شبكات راداراتنا قبل ان تتخلى طائرات التورنادو عن المطاردة ، والعودة

الى القاعدة . وقد تعرض معظم أجهزة الاحساس الرادارية الارضية الى بعض التشويش المتقطع والتداخلات الالكترونية المضادة ، عند نهايات المناطق التي تغطيتها، الا أن دوريات الطائرات الحاملة لاجهزة الانذار المبكر « AEW » تمكنت من الاحتفاظ بصورة واضحة أخذت على مستوى منخفض في مناطق عملياتها.

وعلى العموم، بدت القوات الموضوعة تحت تصرفه وقيادته تؤدي مهماتها بحالة جيدة، واتمت كافة الوحدات المتمركزة في المملكة المتحدة الاجراءات المطلوبة منها أثناء حالة الاستنفار واحتفظت بطائراتها دون الطيران، الا للقيام باختبارات او مهمات جوية أساسية لايمكن الاستغناء عنها. وتوقف نهائيا الطيران المدني بعد ان انتهت الرحلات الجوية الطارئة لاستعادة المصطافين والسياح ، وادخلت وسائل وامكانات الخطوط الجوية الوطنية في احتياط النقل العسكري . كان ضباط الاتصال في القواعد التي تستقبل قوات التجمع التابعة للقوات الجوية الاميركية « USAF » مشغولين بتزويد القادمين الجدد بالمعلومات الضرورية . وكان القائد العام واثقا ان اجراءات العمل المشتركة التي تم صياغتها وبلورتها خلال السنوات القليلة الماضية بين القوتين الجويتين « USAF و RAF » ستصمد أمام ضغوط الحرب . وقد اكتمل الآن تدفق الرجال والنساء من وحدات الدعم والاحتياط الى الاماكن المعينة لهم . وبعد ان قام « السيرجون » بزيارة الى مجموعة القوة الجوية الثالثة غادرها ، بعد أن أصدر الأمر الى نائب القائد العام ليقوم بزيارة بعض القواعد القريبة للوقوف على أوضاعها وتفتيشها عن كثب ، حيث تقدر عناصر المخابرات وكما تشير الدلائل الى احتمال استمرار لعبة الانتظار هذه حوالي مدة عشرة أيام.

وعندما اقتربت طائرته العمودية من « Wattisham » لاحظ بارتياح فعالية اجراءات التمويه الطبيعي الذي انقضى على اعداده حوالي سبع أو ثمان سنوات حتى الآن . بالطبع ليس بالامكان اخفاء مدارج الطائرات ، ولكن ليس من السهل أيضا تمييز المطارات من بعد ثلاثة أو اربعة كيلو مترات الا اذا كان المراقب خبيرا

ويعرف المنطقة بشكل جيد . يضاف الى ذلـك ، ان نظام التمويـه والانتشار يجعل من الصعب جدا على طيار مهاجم تدمير الطائرات وهي جاثمة على الارض.

وقال مخاطبا نفسه « **ليت هذه الطائرات لم تكن مربوطـة بهذه المدارج اللعينة** » ، ولما كان طيارا ممتازا كان يحس ضميره المسلكي بالاهانة بسبب عدم المرونة وسهولة التعرض للاخطار التي تنطوي عليها المدارج الطويلة للمطارات.

وفيما كان يتحدث الى طواقم طائرات سرب « التورنادو » في غرفة العمليات المحصنة ، كان يحسن بالارتياح بسبب كفاءتهم المسلكية والفنية واخلاصهم في تنفيذ مهماتهم . وكان سعيدا بالنتائج التي حققها السرب على الرغم من أنه لم تكن لهم من الخبرة أكثر من سنة واحدة على طائرات التورنادو .

وقال عنصر متحمس في أحـد طواقم الرادار « **رائع جـدا يا سيـدي وباستطاعتنا أن نتبعهم حتى الحشائش اذا ما ضطررنا لذلك** » .

ومن خلال حديثه الى قائد سرب « التورنادو » ، كان « Hazel » يشعر بالارتياح لحسن تنفيذ برنامج التدريب ، ولكون التعاون من الطراز الاول بـين طائرات التموين بالوقود في الجو وطائرات الانذار المبكر المحمول جوا ، وللإستفادة القصوى من أجهزة الاسلحة والملاحة الالكترونية في طائرات « التورنادو » مـن أجل تطوير طرق وتنسيق وتوحيد تقنيات الاعتراض الجوي بين مجموعـات المقـاتلات .

وعندما طار الى « بنت ووترز » تناقش مع قائد قاعدة القوات الجويـة الاميركية « USAF » الذي كان مشغولا بمشاكل استيعاب حوالي خمسـين طائرة حديثة من طراز (اف ــ ١٥) هبطت حديثـا لتوها عندما قدمت مـن الولايات المتحدة الاميركية مباشرة . كان الازدحام بالنسبة له المشكلة الرئيسية،

أما الذخائر والقطع التبديلية ، فقد جرى تخزينها من قبل . وكان عليه أن يوزع الطائرات الى مطارات انتشار معدة مسبقا بأسرع ما يستطيع . وكان كل همه ، ان لا يفاجأ ، وطائراته ما تزال على الارض . وقال : **« ستكون الطائرات هناك ، مشيرا بيده الى الجو ، تحارب وتطلق نيران الجحيم على الروس »** .

وعندما نزل السيرجون في « ستانمور » وهو في طريق عودته ، تحدث مطولا الى قائد المجموعة رقم ١١ والى قائد الدفاعات الجوية ، واستعرضوا معا حالة الاستعداد . لم يتوقع أن تحدث خسائر جسيمة في الجو فلديهم على كل حال طائرات عظيمة . وليس هناك من سبب يدعوهم للتعرض لخسارة الكثير من الطائرات في قتال ضد الطائرات المعادية المهاجمة ، أما الخسائر على الارض فتلك مسألة أخرى . وأما القلق الحقيقي الذي كان يستولي على تفكير القائد فكان يتمثل في قلة الموارد البشرية .

وقال أيضا : « لا ندري ما اذا كان الامر سيكون محدودا وحاسما ، ام انه سيطول عن غير رغبة ، ويؤدي الى استعمال السلاح النووي ؟ ان قلقي الرئيسي انه اذا امتد الامر الى اكثر من اسبوع او اسبوعين فان الطواقم الجوية والارضية ، ستضطر للعمل الى اكثر من حدود الانهاك » .

لم يكن الامر بالشيء الجديد بالنسبة للقائد العام، فقد كان يشارك الضابط الجوي المساعد له تحفظاته ، ولكن لم يكن بالوسع القيام بشيء حيال الامر . ونظرا سوية الى موقع القيادة المحصن تحت الارض ، الذي سيكون مقر عمليات تبادلي أول يوفر المعلومات لجهتين : الى مقر عمليات القيادة والى مقرات عمليات القيادات التابعة . ولا شك ان هذا الاجراء سيكون أحد التسهيلات الهامة اذا ما أسفر التدمير الناجم عن المعركة ، عن اخراج مقرات العمليات الاساسية في أي وقت عن العمل . وهو امر لابد ان يحاول أي عدو القيام به.

وعاد مارشال الجو بطائرته الحوامة الى مقر قيادته بعد ظهر ذلك اليوم

وهو يفكر ويتأمل . لقد تم انجاز الكثير في سبيل تحسين الدفاعات الجوية ، منذ ان ضحت الحكومات الغربية بالاموال اللازمة . وكان السؤال الحاسم ، هل هناك وقت كاف ؟ ولا شك ان الاجابة عليه لاتعتمد فقط على موقف المملكة المتحدة وحدها ، بل أيضا على بقاء جميع الدول الديمقراطية الغربية .

وبعد خمسة ايام ، وكما نعلم ، بدأ الهجوم السوفييتي على المنطقة الوسطى من اوروبا. ولم يكن « السير ــ جون هازل » بحاجة لمن يوقظه في الساعات المبكرة من يوم الرابع من آب ، ولم يفاجأ كثيرا ، عندما علم ان الضغط السوفييتي من طائراته المقاتلة ملزمة بالتدخل الفوري في العمليات الاعتراضية والعمليات الجوية المضادة ، بهدف تأخير وابطاء زخم التقدم السوفييتي. وكان يعلم أيضا ان أنواعا مماثلة لطائراته كانت مخصصة وموضوعة تحت تصرف القائد الاعلى لقوات الحلفاء في الاطلسي « Saclant » وهي ستقوم أيضا بهجمات وقائية على قواعد « الباكفاير » السوفييتية في شبه جزيرة « كولا » في الدائرة القطبية. وستتولى هذه العملية طائرات « التورنادو والبوكانير » بحيث تنطلق من قواعد في المملكة المتحدة تدعمها طائرات التزود بالوقود في الجو ، خلال تنفيذها هذه المهمات .

كان « هازل » يوافق تماما على هذه الخطة . اما فلسفة الدفاع الجوي البحري ، فكانت موضوعا لنقاش حيوي بين مدارس الفكر العسكري المختلفة، لكنه يرى في أن الهجوم على مصدر التهديد أو مصدر الخطر يتفق تماما مع وجهة نظره التي يؤمن بها بقوة . ان أفضل دفاع جوي بحري ، هو منع أكثر ما يمكن من طائرات العدو من الوصول الى منطقة البحر ، حيث تكون الوحدات . وهذا بالنسبة للمنطقة الشرقية للاطلسي « Eastlant » يعني التشديد على وجود حاجز دفاعي على الطرق التي فرضها الواقع الجغرافي على القاذفات السوفييتية البعيدة المدى . ولم تستبعد هذه المفاهيم التي لم يكن الجميع يؤمنون بها ،

تخصيص قوات دفاعية لمجموعة بحرية معينة ، لكن الوسائل اللازمة كانت قليلة ومتفرقة . وان استعمال الطائرات للدفاع عن غرض معين ، يعتبر طريقة فيها هدر وتبذير في استعمال الطائرات ، ومن المؤكد انه سيحتاج لاجراء نقاش وجدل مقنعين وتقديم براهين قوية وسيحتاج بالتأكيد الى قوة الحجة ، لاسقاط المعارضة القوية والهامة الموجهة ضد تكتيكه المكلف جدا ، الذي يستند على ضرب العدو من مناطق انطلاقه ، أو بالقرب منها .

وبعد أقل من ساعة ، ظهرت على شاشات الرادارات عناصر دخيلة تقترب من مناطق الدفاعات الجوية عن المملكة المتحدة، من الشمال البعيد . وقد تعرضت الدفاعات ، خلال الايام الخمسة التالية الى ضغط شديد حقا ، وكان عليها ان تصارع بشدة موجات الهجمات الجوية المعادية المتلاحقة ، التي كانت تشن على أراضي المملكة المتحدة . ولقد أوحت هذه الهجمات بأن القوات الجوية التابعة للبحرية السوفييتية البعيدة المدى تأمل في تحقيق أهداف رئيسية أربعة :

أولا : تحييد الدفاعات الجوية .

ثانيا : تصفية القوات القادرة على استخدام الاسلحة النووية على الارض.

ثالثا : تعطيل القيادات وأجهزة المراقبة والتحكم .

وأخيرا : عرقلة تدفق التعزيزات عبر الاطلسي المنقولة بحرا أو جوا .

من المعروف ، أنه مامن أحد الى الآن استطاع التوصل الى طريقة فعالة لاخفاء هوائي الرادار ، الا أن المعدات المتحركة عقدت مهمة المهاجم ، وجعلت مسألة ملء الثغرة أمرا عمليا ، عن طريق القوة الضمنية الكامنة في مرونة وديناميكية جهاز معلومات القيادة والمراقبة الجديد ، الذي يستطيع ان يتلقى ويعالج معلومات من أي مصدر . لقد تلقت الرادارات ضربة قاضية ، واسقطت طائرات الانذار المبكر « AEW » وأغرقت سفن الدفاع الجوي ، وانتهى الانذار المبكر للقارة الاوروبية من خلال سرعة التقدم السوفييتي في البر . ولم

يتعرض نظام الدفاع الجـوي في وقت من الاوقـات الى مثل هـذا النقص في المعلومات ، بحيث يمنعه من الرد في بعض الظروف السيئة فقامت طـائرات التورنادو ذاتيا مدعومة بطائرات التزود بالوقود بدوريـات قتال جوية وأمنت لنفسها المعلومات الضرورية للقيام بمهماتها ، موجهة عملياتها الاعتراضية ، ريثما يأتي البديل ، او استخدام اجهزة الرادارات المحمولة جوا « AEW » .

أما مشكلة المطارات ، فكانت أكثر صعوبة على الحل ، وقد يهون الامر ، لو توفر الوقت والمال لبناء مطارات وأماكن الانتشـار بل سيكون الامر أفضل أيضا ، اذا ما قل اعتماد المقاتلات على هذه السطوح الاسمنتية التعيسة . وكان من شأن الانتشار على الارض التقليل من الخسـائر ، ولو زاد في مشـاكل تشغيل القواعد التي كانت تعاني من نقص في الطاقـة البشرية ، وفي الوقت اللازم ، لارسال الطائرات للجو . ولا ريب ان تعطيل المدارج ، كان أشد انواع الاضرار الناتجة عن الهجمات ، قدرة على التعطيل : فالمطار ذو المدارج المخربة ، يعني ان جميع الطائرات الموجودة على الارض ، قد تم تحييدها أو تجميدها الى ان يصار الى اصلاحها ، ولذا كانت وحدات تصليح مهابط الطائرات السريعة ، وهي أهم ملامح البرنامج الاصلاحي ، قد أعطت الآن ثمارها جيدا ، وقد تعرضت هذه الوحدات نفسها الى خسائر كبيرة بسبب التأخر في بث الالغام ومن جراء الاصرار على متابعة اعمال الاصلاح الحيويـة . وفي ناحيـة معينة ظهرت الامور ، في وضع أفضـل مما توقعـه رجـال « هـازل » ، اذ لم تكن الهجمات على ارتفاعات منخفضة هي اقوى نقاط القوات الجوية السوفييتية ، فبعـد تحليق وفترة طيران استمرت حوالي الف وخمسمائة كيلو مترا أو اكثر قليلا واجتياز سلسلة الدفاعات الجوية ، فقد اخفق الكثير من هـذه الطائرات ، في تحديد اهدافها وضربها بدقة كافية . أما الطائرات التي كانت تصعد على ارتفاع خمسمائة متر او نحو ذلك للتحقق السريع من خط طيرانهـا هذا فكانت تقع ضحية لصواريخ « رابييرز » المتمركزة حول المطارات .

لكن ، وكما كان متوقعا ، لم تجر الهجمات كلها على ارتفاعات منخفضة فبعضها جاء على ارتفاعات متوسطة بسرعة عالية ، مع وقاية كثيفة من الاجراءات الالكترونية المضادة ، ، حتى النقاط الخارجة عن أمدية الاسلحة المضادة . وفي مواجهة هذه التكتيكات ، قامت طائرات التورنادو تساندهـا طائرات التزود بالوقود من الجو بدوريات قتال امامية ، كرد فعـال . ومنذ البداية ، كـان واضحا ، ان الحرب الالكترونية ، ستكون حربا شرسة كغيرها من وجوه معركة الدفاع الجوي . كانت السيطرة السوفييتية في هذا المجال عالية ، لكن المفكرين في الشؤون الجوية في الحلف ، توقعوا بذلك . وعندما حلت ساعة الامتحان أثبتت الاجهزة والمعدات المضـادة المركبـة في داخل الطائرات انها مستعدة له. ولا ريب ان لجوء سـلاح الجو البريطاني ، الى احيـاء التركيز على القتـال التكتيكي بعد سنوات من استراتيجية الانذار العقيمة قد أعطى ثماره جيدا .

وكانت النتيجة الطبيعية لتطورالاسلحة الموجهة بدقة الى حد أقصى ، هو انتقاء الاهداف ، بدقة شديدة ، وقـد بدا ذلك واضحا في اسلوب الهجمات السوفييتية الجوية. وبالاضافةللمطاراتوالنقاطالحيوية فينظامالدفاع الجوي، فقد حظيت الاهداف الهامة ، كالموانيء ، ومصانع المعدات الجوية والطائرات ، ومصانع الاسلحة ، والمعدات والاجهزة العسكرية بالإهتمام ، وتعرضت لدمـار كبير . وتعرض مبنى « الوايت هول » ومبان أخرى عديدة للدمار ، بما في ذلك وزارة المالية واجزاء من بناء وزارة الدفاع وقصر « ويست منستر » . لكن أعضاء الحكومة البارزين ، وأشخاص الادارات المركزية ، استطاعوا أن يلتجئوا في أماكن محصنة بديلة . أما الخسائر بين المدنيين ، فعلى الرغم من أنها لم تكن في مستوى خسائر الحرب في الاعوام ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ الا انها أصبحت كبيرة نسبيا. ونظرا لأن هذه الهجمات ، كانت على أهداف منتقاة ، لذا فقد كانت مؤثرة .

وباجبار قوات حلف الاطلسي الحليفة على التراجع في وسط أوروبا ، فقد أدى ذلك الى وجود فجوة في نظام الدفاع الجوي الاطلسي في المنطقة الشمالية،

الامر الذي افسح المجال امام القوات الجوية السوفييتية للاستفادة من ذلك والقيام بهجمات جوية مباشرة على المملكة المتحدة باتباع خطوط تقرب قصيرة، اذ تستطيع طائراتهم ان تعبر أجواء بحر البلطيق دون التعرض لاخطار كبيرة من قبل الدفاعات الاطلسية قبل ان تجتاز بحر الشمال . وكان الرد على ذلك ، بارسال دوريات جوية مقاتلة من طائرات « التورنادو » مع طائرات التزود بالوقود من الجو الى مواضع متقدمة لاعتراض الطائرات السوفييتية المهاجمة على طرق اقترابها ، تماما بنفس الطريقة التي تقوم بها الطائرات السوفييتية بالدوريات الجوية الاعتراضية المتقدمة من حول رأس الشمال وبحر الشمال النرويجي ، واذا لجأ الطيران السوفييتي الى التحليق على ارتفاعات منخفضة ، فانه بذلك يشكل خطرا كبيرا على الموانيء الفرنسية الواقعة على القنال الانكليزي . تلك الموانيء التي كانت هامة وحيوية بالنسبة للقيادة الحليفة المشتركة لمناطق التقرب الغربية من اجل استقبال قوات التدخل السريع « Cavalry » الكثيفة التي كانت تعبر الاطلسي. ومن هنا وجد الروس ، انه من الصعب ايجاد خط تقرب قصير ، وأمين نسبيا ، يمكن استعماله للقيام بهجمات شديدة وكثيفة . واذا ما استطاعوا ان يجتازوا بحر المانش على ارتفاعات منخفضة دون اكتشافهم فباستطاعتهم عندها ، احداث تدمير خطير لمنشآت ووسائط النقل البحري نفسها . وبالاضافة الى طائرات الدورية المعترضة ، عند مخارج بحر البلطيق وافق القائد العام واركان مجموعة القوات الجوية الثالثة ، التابعة للقوات الجوية للولايات المتحدة الاميركية ، وكذلك قائد القوات الجوية الحليفة لوسط اوروبا على ضرورة تخصيص طائرات الـ (إف ـ ١٥) التي وصلت مؤخرا والموضوعة في الاحتياط لمواجهة هذا الخطر وحماية الموانيء الفرنسية « بالتعاون مع القوات الجوية الفرنسية ». وقد حققت طائرات الـ (إف ـ ١٥) المتنوعة بتنفيذها هذه المهمة ، نجاحا باهرا في مواجهة تلك الطائرات المعادية المهاجمة التي استطاعت تفادي الدوريات الاعتراضية في الشمال .

كانت الخسائر في الجو ، تصل الى التقديرات التي تنبأ بها المحللون المعنيون ايام السلم ، لكن عدد الطائرات المطاردة التي فقدت على الارض ، كان اكثر منها

في الجو . أما الطائرات الحاملة لأجهزة الانذار المبكر ، فقد دفعت الثمن غاليا أيضا ، لوجودها بعيدا مع محطاتها ، وغير محمية نسبيا . ومثل ذلك ينطبق على طائرات التزود بالوقود من الجو ، التي فقدت لنفس السبب السابق في أكثر المرات . وكان قسم من المطارات ، لا يستعمل دائما ، لكن تلك النسبة ، لم تكن عالية الى الحدالذي تعطلت معه الدفاعاتالجوية. ولعل مشاكلالتعرف على الطائرات في سماء مزدحمة جدا بها وكذلك الفصل بين مناطق اطلاق الصواريخ ، وغيرالصواريخ ، كانت هي أيضا صعبة كما سبق ، وان دلت على ذلك التمارين التي اجريت في هذا المجال . وقد وقع بعض طائرات سلاح الجو الملكي « R.A.F. » التي كانت عائدة الى قواعدها من مهمة هجومية على اهداف فيالمنطقةالوسطى مناوروبا ضحيةلدفاعاتها نفسها ، وذلك امر محتوم ولاريب. كان دور الدوريات الاعتراضية او دوريات « المنع » في الشمال ، هو دور مانعة النزيف ومهمتها الحؤول دون تعرض القوات الجوية السوفييتية بعيدة المدى ، الي طائرات النقل التي تعمل على الجسرالجوي ، والىالتعزيزات المحمولة بحرا عبر الاطلسي، المتجهة نحو أوروبا، قادمة منالولايات المتحدة الاميركية . وكان بعض هذه الطائرات يجتاز شبكات الدفاع الجوي الاطلسية ، ودخل بعضها بصورة حتمية ضمن الشبكة ، ولكن حال حدوث ذلك فان امكانية اعتراضها على ارتفاعات منخفضة تصبح ضئيلة ولكن بعد ان تكون قد أوقعت تدميرا في الامدادات الجوية والبحرية .

على أية حال ، وفي حادثة معينة ، وبالتحديد في السادس من آب . وصلت طائرتان قاذفتان من طراز « بكفاير » ، مسلحتان بصواريخ جو ــ جو الى جسر النقل الجوي عبر الاطلسي ، حيث كانت طائرات النقل تطير بسرعة تسعمائة كيلو مترا بالساعة . كانت هذه الطائرات فريسة سهلة ، واستطاعت طائرتا « الباكفاير » أن تسقط ثلاث طائرات نقل من طراز « C-5 » وأربع طائرات من طراز ٧٤٧ قبل ان تنسحب بسرعة عالية نحو الشمال . على كل حال وقعت احداهما في كمين « التورنادو » وهي عائدة في طريقها الى قاعدتها.

كان هناك نظـام ، لتفريق وتباعـد طائرات النقل في حـال تعرضها الى الاغارات ، ولكن في تلك الحادثة ولسبب ما ، لم تصل اشارة الانذار الى تلك الطائرات . لقد سبق ان هوجم الجسر الجوي من قبل. وكان ذلك يوما اسود ، فقد خلاله ، الفا جندي من تشكيل مجموعة جيوش الوسط ، قبل ان يعلموا انهم في اشتباك مع العدو . لكن الخسائر في معظم الحالات كانت معقولة ومقبولة عسكريا .

وبعد ثمانية ايام بدا أن ميزان القوى بدأ يميل لصالح الدفاعات الجوية. لقد كان من المستحيل اعطاء جدول توازن دقيق ، مع ارقام محددة على لائحة دقيقة بالخسائر. لكنه كان من المؤكد، ان الخسائر الجسيمة في الطائرات كانت تدور حول نسبة أربعة الى واحد ، وكان ذلك مرضيا . واصبح كل شيء الآن يعتمد على مدى استمرار الروس بضغطهم ، والى متى تستطيع الدفاعـات الجوية في المملكة المتحدة ان تحتفظ برد فعلها .

* * *

ان ما يلي ، أكثر من رواية شخصية للاحداث في أحد أيام الاسبوع الثاني من الحرب . مأخوذ من رواية لم تنشر بعد ، لضابط في أركان القوات الضاربة. تصور هذه الرواية المفهـوم المشترك بين القـادة الكبار واولئك الـذين كانوا يتعاونون معهم .

في وقت متأخر من بعد ظهر الثاني عشر من شهر آب ، وللمرة الاولى ، لم يظهر اي شيء على شاشة الرادار . كان النشاط قويا في ذلك اليوم وكـان آخر الحوادث ، عندما اصطدم نيف وعشر طائرات ، بدورية قتال جوية « C.A.P. » من طائرات « التورنادو » خارج بحر البلطيق ، فاستدارت تلك الطائرات المعادية، وعادت ادراجها من حيث أتت بمجرد مقابلتها مع تلك الدورية . كانت عدة طائرات مهاجمة من المجموعة الاولى في طريق عودتها من طلعاتها المبكرة فوق المنطقة الوسطى ، وبدأت ، كما لو ان الامور ، ستبقى هادئة لمدة ساعة او نحو ذلك على الاقل ، ريثما يستعد خلالها الطرفان للهجوم التالي .

وصعد السيد « جون » من ملجئه الحصين تحت الارض ليستنشق الهواء قليلا ، فرأى ان مكتب قيادته فوق سطح الارض قد أصيب عدة مرات ، بينما كانت جماعات الاشراف على العمليات لاتزال تقوم بواجباتها على أحسن وجه . لقد أحس بالراحة وهو يسير فوق العشب ، على تلال « شلتيرن » بعد ظهر ذلك اليوم من ايام الصيف . كان الجو صحوا ، والسماء صافية ، والهواء عليلا ، وكانت هناك غلالة رقيقة من الغيوم ، تمتد فسيحة الى الافق . والواقع ان ذلك لم يكن سوى رتل طويل من طائرات النقل الضخمة التي كانت تعبر الاطلسي في طريقها الى المطارات المعينة لها .

في عام ١٩٤٠ كان ما يزال تلميذا في المدرسة في « كنت » . وكان يذكر كيف كان المعلمون والتلاميذ ، يشاهدون معركة بريطانيا من ملاعبهم الرياضية يصفقون ويهتفون عندما كانت طائرات (هيريكين) تطارد طائرات « الهنكل »، وتطارد « السبتفاير » طائرات « المسرشميت » . فكر لنفسه لحظة ، كيف ان طلاب المدارس في هذه الايام ، بل السكان المدنيين عموما ، يقفون حائرين ، عندما يسمعون انفجار القنابل ، ويرون نتائجها المحزنة دون ان يشاهدوا ما يجري في الاجواء . ولاريب انهم يعرفون ماهية طريق المجرة الضخم هذا ، طالما ان الكثير عنها قد قيل وشوهد على شاشات التلفزيون ، ولكن اتراهم يعرفون ، ان المجموعة الحادية عشرة ، وهي نفس المجموعة التي تحملت عبء المعركة عام ١٩٤٠ ، هي نفسها تقاتل مرة ثانية ليلا ونهارا لبقاء البلاد والغرب عموما . ولكن المعركة هذه المرة ، تجري بعيدا عن انظار وشواطيء البلاد . وبالتأكيد كان يأمل انهم في يوم ما ، واذا ما صحت آماله فانهم سيستوعبون هذه الامور لانها امور هامة ، يجب ان يفهمها الناس عامة . واذا ما قيض له ان يكون في موقع هام في نهاية هذه الحرب ، فسيبذل قصارى جهده بان لايدع السياسيين ينسون ذلك مرة أخرى .

وبعد خمس دقائق ، اطلق فيها العنان لافكاره وخيالاته ، نزل الى حجرة

ثانية ، واتصل هاتفيا مباشرة بقائد المجموعة الحادية عشرة وهو قائد دفاعاته الجوية .

كان الضابط المذكور نائب مارشال الجو « بيل ويليامز » ضابطا طيارا مجربا ، لكنه لم يكن بالطبع متقدما بالسن ، وعلى ذلك فلم يشارك في حرب ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ ، كان يحس على نحو أو آخر ان هذه الحرب لن تستمر طويلا. لم تكن لديه الرغبة ، في ان يروي لاطفاله ، انه امضى معظم تلك الحرب تحت الارض ولذلك عمل في صباح ذلك اليوم الى تكليف ضابط عمليات المجموعة بمهامه ، واستقل طائرة « تورنادو » بدورية قتال جوي ، عند مخارج بحر البلطيق ، كانت نفس الطائرة التي شاهدتها الطائرات العشر السوفيتية ، عندما عادت أدراجها . وتذكر فيما بعد محادثته الهاتفية مع القائد العام ، لانها بدت نقطة فاصلة في المعركة الضارية التي كان يديرها .

بالطبع كان يهمه ان يعطي رئيسه المباشر معلومات اولية من الخطوط الامامية للمعركة ، ولكن القائد العام الذي كان يلم بمعظم الامور التي كانت تجري في ساحة المعركة ، قاطعه قائلا :

ــ مرحبا يا « بيل »: ارى انك قد قمت بطلعة جيدة . أي نوع من الطائرات كانت ؟

ــ « أعتقد انها من نوع باكفاير ، يا سيدي ، الا اننا لم نستطع رؤيتها عن كثب . لقد عادت أدراجها مجرد مشاهدتنا على شاشات راداراتها ، لذا لم نتمكن من الاشتباك معها ، على كل حال ليس في هذا الطرف من البلطيق . لقد اعتقدنا أنها ربما كانت تريد مخادعتنا » .

ــ وسأله القائد العام ، **كيف تجري الامور في المجموعة ؟ فأجاب نائب المارشال : « حسنا . انتم تعلمون بنتائجنا ، وخسائرنا على الارض وفي الجو،**

٥٠

ومازلنا نحافظ على معدل الخسائر بنسبة اربع الى واحد بما في ذلك خسائر الطائرات على الارض وذلك شيء جيد .

لايزال افراد طواقم الطائرات بحالة جيدة من المعنويات والروح القتالية ، ونحن نفرض عليهم فترات استراحة ، بين كل طلعة واخرى . لكن الطواقم الارضية ، ومنذ بدء الاشتباكات كانوا يختطفون النوم اختطافا، حينما يستطيعون ذلك ، أي في مناسبات نادرة . ولقد وقعت بينهم اصابات جسيمة ، ولكنهم تلقوها برحابة صدر ، خاصة بين العناصر المكلفة بتصليح مهابط الطائرات ومدارجها . ولو قدر لنا ان نوزع ميداليات ، لرأيت الكثير من هؤلاء الشباب وقد حمل على صدره عددا لايحصى منها . لكن مع الاسف لقد اضمحلوا الآن، من كثرة ما يتعرضون للغارات الجوية . انني أكره أن أقول ذلك ، ولكنني لا أرى كيف يمكن ان نستمر على ذلك المستوى من النشاط لاكثر من يوم او يومين . لكن قل لي ، كيف ترى الامور تسير ياسيدي ؟ وتريث القائد العام في رده ، ظنا منه ان ذلك كان أعمق من جواب ، وقد يكون ذلك أيضا باعثا على التشجيع ثم قال :

لقد عاد العديد من طائراتهم المغيرة في الساعات الثماني الماضية ويجب ان يكون لذلك معنى ، اعتقد انهم ربما كانوا يقتربون من فكرة احتمال عدم ربحهم هذه الجولة . وصمت برهة ثم قال : آمل الا يفهموا ان بامكانهم ربحها اذا مازادوا من غاراتهم علينا لمدة اسبوع أو نحو ذلك . يابيل : عليك ان تدع رجالك مستمرين في عملهم ، فالوقت لا يزال طويلا بعد . وعندما انتهى القائد العام من مكالمته الهاتفية ، دخل عليه احد صف الضباط ، ووضع على طاولته مصنفا يحوي صورا وتقارير من الاستخبارات . فقام بدراسة هذه التقارير والصور بامعان ودقة ، وكانت عادته أن يهتم بمثل ذلك كثيرا . وبعد نصف ساعة وضع هذه التقارير والصور جانبا على طاولته . وامر باستدعاء قائد الدفاع الجوي ثانية .

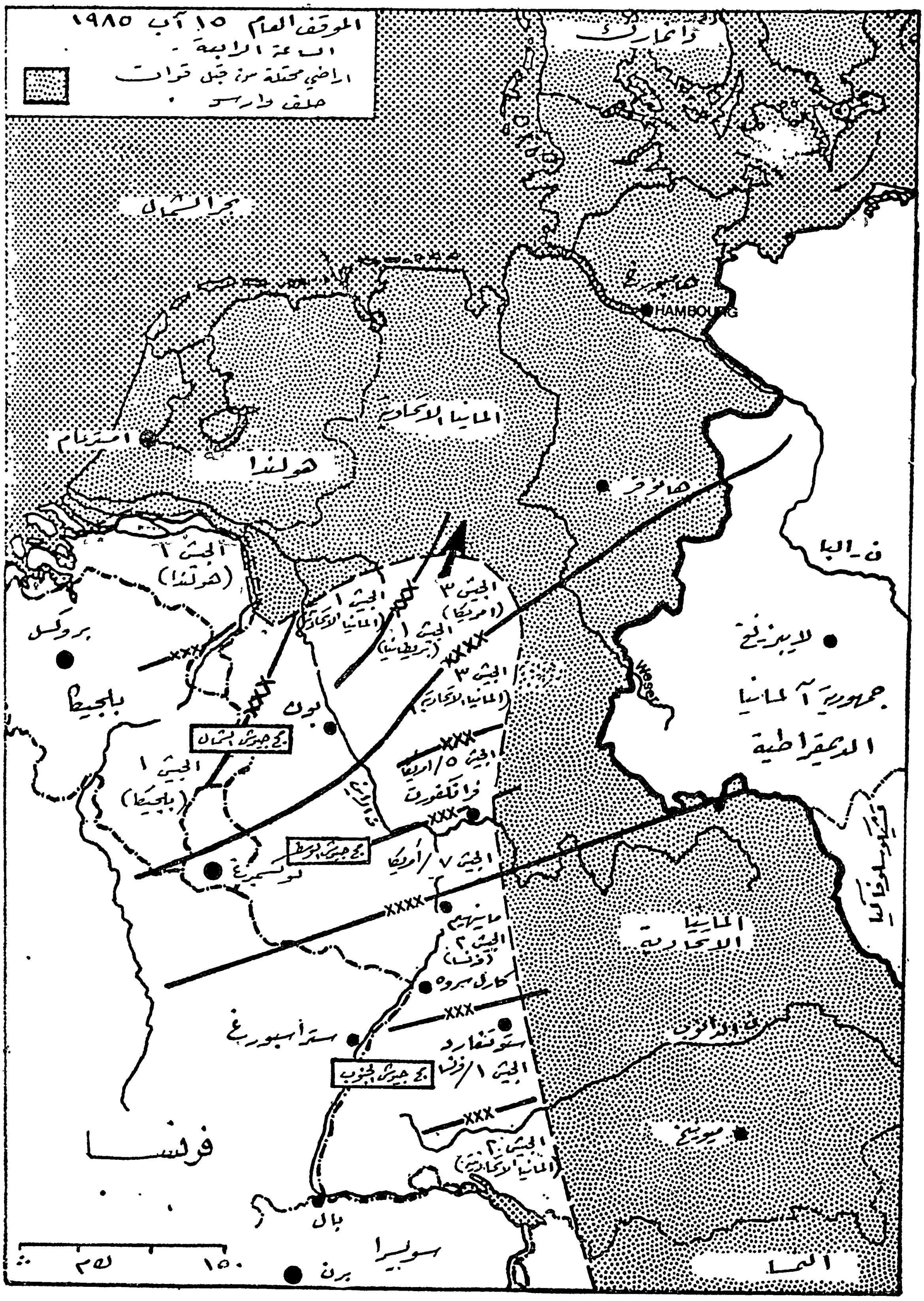
ـ يا بيل ، لقد توفرت لدينا معلومات جديدة ، وردتنا من الاقمارالصناعية

حول عملياتنا الموجهة ضد المنشآت الجوية المعادية ، والنتائج عموما جيدة ، فقد كانت خسائر المجموعة الاولى الالمانيــة وخسائر القوات الجويــة الاميركيـــة « USAF » من طائرات التورنادو وال « F-111 » جسيمة جــدا ، لكن قائد القوات الجوية الحليفة في اوروبا « Comaafce » يعتقد ان معدل التبادل في الخسائر هو جيد جدا ، وانا ايضا موافق على هذا الرأي ، ويبدو من خــلال ما يقومون به ، بالاضافة الى الصواريخ الطوافة « Cruise Missile » ، اننـا نحيل مطاراتهم الى ركام .

ـ وسأل « بيل » : هل أستطيع ان انقل هذه الانباء الى مجموعتنا ؟ أملا في أن يكون في ذلك ما يسري عنهم ويدفع عنهم الارهاق والتعب أيضا .

ـ ورد القائد العام ، بالطبع ، لك ذلك ، ولكن يا بيل ، وهذا الكلام لك وحدك ، اذا كانت هذه التقارير ، صحيحة كما تبدو لي ، فان رجالك سيحصلون على استراحة عما قليل أكثر مما يظنون .

* * *



الموقف العام ١٥ آب ١٩٨٥
الساعة الرابعة
اراضي محتلة من قبل قوات حلف وارسو
بحر الشمال
دانمارك
HAMBOURG
هولندا
امستردام
المانيا الاتحادية
هانوفر
لايبزيغ
جمهورية المانيا الديمقراطية
بروكسل
بلجيكا
بون
الجيش ٦ (هولندا)
الجيش ١ (بلجيكا)
الجيش ١ (المانيا الاتحادية)
الجيش ٣ (امريكا)
الجيش ١ (بريطانيا)
الجيش ٣ (المانيا الاتحادية)
الجيش ٥/امريكا
فرانكفورت
مج جيوش الشمال
مج جيوش الوسط
لوكسمبورغ
الجيش ٧/امريكا
مانهايم
الجيش ٢ (فرنسا)
كارلسروه
ستراسبورغ
شتوتغارد
الجيش ١/فرنسا
مج جيوش الجنوب
الجيش ٢ (المانيا الاتحادية)
ميونيخ
المانيا الاتحادية
تشيكوسلوفاكيا
فرنسا
بال
سويسرا
برن
١٥٠ كم

الفصل العشرون

الحرب الجوية فوق المنطقة الوسطى[1]

منذ الايام الاولى للحلف الاطلسي ، تركزت الانظار والافكار ، بشأن استخدام القوى الجوية ، كوسيلة لاخلال التوازن بدون منازع ، وذلك بالحشد السريع والتركيز على أهداف مختلفة لقوى هامة ، ولقد تغيرت طرائق تحقيق الاخلال بالتوازن العددي بين حلف الاطلسي وحلف وارسو عبر السنين ، بتحول التفوق في العدد والنوعية من جهة لاخرى وذلك بتطور الاعتبارات السياسية مع الزمن . ففي اواخر الخمسينات خفضت القوات الجوية التكتيكية الحليفة كثيرا ، بسبب تحول الاهتمام عن الانذار الى الرد النووي الكثيف على أهداف استراتيجية . وفي أواخر الستينات ، ومع تبني استراتيجية « الرد المرن » وجهت مجهودات الدفاع بالتركيز نحو تطوير الطائرات لتصبح قادرة على القيام بعمليات نووية وتقليدية . وبدا بمرور الزمن ان التفوق العددي الذي تم لحلف وارسو ، في الجو وعلى الارض ، سيبقى ظاهرة دائمة في ميزان القوى . وكان من شأن ذلك ان انصرف اهتمام الحلفاء بالتركيز على الحفاظ على التفوق التقني ، وكذلك ألانتباه الى طرق تحسين فعالية القوات الجوية لدى الحلفاء ، وكذلك الانتباه الى طرق تحسين فعالية القوات الجوية لدى بلدان حلف الاطلسي التي لاتدخل في تشكيل القوات الاطلسية ، وذلك من خلال توحيد اسلحتها وتكتيكاتها ووسائط دعمها السوقية ، والتقنية ، والهندسية . لم تكن هذه أهدافا سهلة التحقيق لاسباب قومية مختلفة ، لكن التقدم الذي تحقق بوفرة بحلول عام ١٩٨٥ ، كان في الوقت نفسه اقل من المستوى المطلوب ، حيث تميز بالبطء والتردد .

كانت القوات الجوية الاطلسية في المنطقة الوسطى ، تتألف من قوتين جويتين تكتيكيتين وهما : القوةالجوية التكتيكية الحليفةالثانية « 2-ATAF » المخصصة الى مجموعة جيوش الشمال ، والقوات الجويـة التكتيكية الحليفة الرابعـة « 4-ATAF » المخصصة الى مجموعة جيوش الوسط . وقد عمل بهـذا التنظيم بعد احتلال المانيا وكان أحد الآثار التي خلفها انتهاء الحرب العالميـة الثانية . وفي أواخر الستينات وأوائل السبعينات أصبح هذا التنظيم موضوع بحث لمعرفة مدى صلاحيته واهميته من الناحية العلمية . وفي أوائل عام ١٩٧٤ تم التوصل الى حل لهذا الموضوع وذلك عندما تم تعيين قائد عام اميركي للقوات الجوية الحليفة لوسط أوروبا . وقد خصص له أركان حرب ، بهدف ممارسة اشراف مركزي ، على القوات الجوية الحليفة الموضوعة تحت تصرفه في أعلـى مستوى من القيادة الجوية . ومن اجل استخدام القوات الجوية الحليفة الاقل عددا بتركيز ومرونة ، كان قائد القوات الجوية الحليفة لوسط أوروبا مسؤولا تجاه القائد العام للقوات الحليفة في وسط اوروبا « Cincent » ، وكان كل من قائد القوات الجوية التكتيكية الحليفة الثانية والرابعة ، المرؤوسين المباشرين له ، اللذين احتفظا خـلال ايام السلم على الاقل ، بنفس الاتصالات الوثيقـة مع مجموعات الجيوش التابعة لها .

وعلى الجانب الآخر من الستار الحديدي ، رأينا كيف استطاع الاتحـاد السوفييتي ، خلال السبعينات تطوير مفهوم القوة الجويـة ، فما كـان يعرف سابقا في التدريب العسكري السوفييتي بالذراع الجوي ذي الاغراض المحددة ، أي القيام بدور تكتيكي محض في ميدان المعركة ، قد تطور هذا المفهوم الآن الى قوة جوية ، حسبما يفهم الغربيون المختصون معنى هذا الاصطلاح . وقد رأى قائد القوات الجوية الحليفة في وسط أوروبا ، ان الحاجة تدعو لتنظيم قواته الجوية بشكل يسمح بمواجهة هذا الخطر المتزايد القادم من الشرق ، في الوقت الذي يستطيع فيه الاستمرار في دعم المعركـة الدفاعية الارضية في المرحلـة الحرجة ، قبل وصول التعزيزات . وفي الوقت نفسه ، ولمواجهة جميع الصعوبات المحتملة ، كان القادة الاطلسيون من بريين وجويين متفقين على ضرورة الاستخدام

الفوري المركز للقوات الجوية في الساعات الاولى من الهجوم المعادي . ولقد رأوا في ذلك مهمة استراتيجية في المرتبة الاولى من الاهمية ، وذلك بتحديد وتأخير اندفاعات العدو الرئيسية على الارض . كان قائد القوات الجوية الحليفة في وسط أوروبا في الوقت نفسه يدرك أكثر من أي شخص آخر ، ان نجاح أو فشل هذه الخطة يعتمد على أمن قواعده الجوية وسلامتها ، وكان يطيل التفكير بشكل خاص ، في حقيقة كون القواعد التي كانت تنطلق منها قواته الجوية التكتيكية الحليفة متقدمة تماما على نحو يبعث على القلق .

من جهة أخرى فانه كان واثقا من تقديره لاهداف العدو الجوية المحتملة. ففي هجوم جوي صاخب مع أخذ زمام المبادرة من جهة ، والتفوق العددي بنسبة اثنين الى واحد من جهة اخرى ، فان من الخطر والتضليل ، التفكير كثيرا بما سيكون عليه تسلسل الافضليات عند العدو ، فحلف وارسو يمكن ان يقوم بأي شيء يستطيعه في الجو على الفور دون تردد ، ومهما كانت النتائج . كما يرغب القادة في حلف وارسو تحييد القدرة الضاربة النووية الاطلسية في مسرح العمليات ، بهدف منع التدخل في المعركة البرية ، وخلق وضع جوي محتمل ان لم يكن ملائما . وهو يحتاج أيضا وفي الوقت نفسه الى تأمين حماية كافية لقواعده الجوية ، بالاضافة الى وضع كل ثقل قوته الجوية التي يستطيع تقديمها لدعم قواته البرية . وكان الامر يتعلق بالمجهود الجوي على كل مستوى، وعلى درجة من الشدة ، لم تعرف من قبل .

كان تطور القوات الجوية السوفييتية خلال الخمس عشرة سنة الاخيرة، مثار تفكير عميق ونقاش بين القادة الحلفاء الجويين وأركانهم . هذا التفكير قد عزز الردود الكلاسيكية الثلاثة على التهديد : عمليات جوية هجومية ضد قواعد العدو ، واشتباكات جوية، وأخيرا الدفاع عن مناطق محددة .

كان الطيارون الحلفاء يجمعون ، ولسنوات طويلة على أن افضل الطرق المؤثرة للتصدي للخطر الجوي السوفييتي ، يكمن في ((**مهاجمة الطائرات السوفييتية في قواعد انطلاقها**)) . لكن هذه الطريقة التي لم تكن في الاصل

عملا سهلا ، أصبحت شيئا فشيئا أكثر تعقيدا ، كما أصبحت مخيفة مع تقدم تطور الدفاعات الجوية السوفييتية حيث جرى تحصين المطارات السوفييتية جيدا ، كما جرى تنظيم الدفاع الجوي عنها بشكل حسن أيضا . وكانت هناك تحسينات رئيسية بالمقابل في القوات الجوية الحليفة فقد سمحت التحسينات التي جرت على عدد من الاسلحة والذخائر في بعث الثقة بنفس قائد القوات الجوية الحليفة في وسط أوروبا ، على الرغم من انه كان يتوقع أن الخسائر ستكون جسيمة . ومنذ السبعينات جرت تحسينات كبيرة ، على اسلحة الجو ــ جو ، أما المهمات الاعتراضية بعيدة المدى التي يتم الاشراف عليها من الارض ، فهي ماتزال ممكنة وضرورية ، خاصة للدفاع الجوي عن المملكة المتحدة والمناطق البحرية المجاورة . لكن ضغط العامل الجغرافي في وسط أوروبا والانذار السريع الذي يسمح به بالاضافة الى فوضى الاجراءات المعاكسة للاجراءات الالكترونية التي قد تسيطر على منطقة العمليات ، تقضي بتأمين قدرة قتال جوية أكثر شمولا ، ومرونة . كان قائد القوات الجوية الحليفة في وسط اوروبا مرتاحا الى ادخال طائرات (إف ــ ١٥) و (إف ــ ١٦) لتكملا دور (إف ــ ٤) « فانتوم » الذي قد قطع شوطا بعيدا في تلبية الاحتياجات المطلوبة ، اذ لم تكن هذه طائرات متطورة وقوية فحسب ولكنها كانت تتمتع أيضا ، بالخفة وسرعة المناورة وجودة التسليح ، وهي الصفات التي تميزت بها عن الاجيال الاولى من طراز هذه المقاتلات ، يضاف الى ذلك ان الاهتمام كان منصبا على الحاجة لمزيد من شبكات صواريخ « SAM » الارضية المضادة للجو ومن اجهزة المدفعية المضادة ؛ واجراء تحسينات على معدلات سرعة الاشتباك للدفاع عن القواعد الجوية ، وكذلك اجراء التحصينات اللازمة في المطارات من اجل حماية الاشخاص والمعدات . كما تبين ان اجراءات الدفاع السلبي هامة ايضا كالملاجيء الاسمنتية للطائرات ، ومنعات القيادة ، ومخازن الوقود ، والاسلحة المحصنة . ومن حسن الحظ فان وجود برنامج واسع لقيام حلف الاطلسي بهذه التحسينات ، قد انتهى الى خلق حالة اكثر تقدما مع حلول ربيع عام ١٩٨٥ .

وبالتحول عن المعركة جو ــ جو فان الغرض المركزي التكتيكي من المساهمة

الجوية الاطلسية هو في التدخل الجوي لصالح القوات البرية . لذا فان قائد القوات الجوية الحليفة لوسط أوروبا يرى تعيين مهمتين في هذا المجال أولاهما : المساهمة في وقف الهجوم المعادي الارضي بضربة عند نقاط المرور الاجبارية التي يترتب عليه المرور منها ، ثم العمل على تثليم الحد القاطع للاندفاعات المدرعة السوفييتية التي استطاعت ان تصل الى مناطق الحلفاء ، والمساهمة في الحد من تقدمها ، وهذا يتطلب قدرة على التدخل والعمل في جميع الاجواء ومعدل طلعات مرتفع ، وتلبية سريعة لمطالب القوات المسلحة الارضية ، في وضع بري متبدل . وثانيهما : الحد من زخم هجوم الدبابات السوفييتية وتدفقها الكثيف ، وذلك بازعاج وتدمير موجات الهجوم المتلاحقة. وكان يعارض معارضة شديدة ما يسمى « بالاهداف العامة » الموصوفة بغموض بعبارات مثل « نظام النقل عند العدو » . ومن خلال التجربة الكبيرة والممارسة العملية الصعبة التي اكتسبها رجال الجو ، من طائراتهم واسلحتهم ، كانوا على اقتناع ان افضل السبل لتدمير دروع العدو تتم باستعمال أسلحة الابادة والاسلحة العنقودية التي تزرع أعدادا كبيرة من القنابل الصغيرة ، ومن حسن الحظ ان تتوفر هذه الذخائر بكثرة بعد برنامج التحسينات الذي أدخل على الاسلحة والمعدات في الثمانينات .

في صبيحة الثالث من آب ، وبينما كان قائد القوات الجوية الحليفة في وسط أوروبا يفكر في خصائص ومميزات القوى الجوية ، والمعارك التي سيخوضها رجاله الجويون قريبا ، لايلبث أن يعود مرة وثانية وثالثة الى نقطة رئيسية غامضة على تفكيره . فقبل عشرين عاما ، وعندما كان قائد سرب في جنوب شرق آسيا ، تعلم أشياء أولية في مجال الحرب الالكترونية ، وكان يعرف نوع التأثير الذي يحدثه ذلك على وجوه جميع العاملين في مجال الحرب الجوية الحديثة . كان الحلفاء واثقين من تفوقهم التقني ، وخاصة في هذا المجال ، لكن مجتمعهم المغلق مكن الروس من احاطة طرق وتطورات الحرب الالكترونية الخاصة بهم بسرية كبيرة ، الى حد أنه لايمكن تمييز هذه الطرق وبالتالي لايمكن اختيار افضل الوسائل للرد عليها الا بعد قيام الحرب والكشف عنها .

أدت هذه التأملات الى إفكار تتعلق بالاختلافات السابقة بين الولايات المتحدة الاميركية واوروبا وبريطانيا بشكل خاص حول مفاهيم استخدام القوات الجوية التكتيكية . ففي السبعينات ، شددت الولايات المتحدة الاميركية الغنية بمواردها التقنية وتجربتها الزاخرة في الحرب الفييتنامية ، على أهمية قمع دفاعات واجهزة الاتصالات والقيادة والسيطرة الالكترونية . أما النظرة الاوروبية ، فتعتبر ذلك شيئا مكلفا ويعتمد أكثر مما يجب على التقنية ، ومعرضا لاخطار الاجراءات المعاكسة . وكانت الولايات المتحدة الاميركية ترى في القوة الجوية التكتيكية قوة مركزية تسمح بصب نيران كثيفة على أهداف محددة واضحة . من جهة أخرى ، وجد رجال الجو الاوروبيون أن خلق التكامل بين المعركة الجوية التكتيكية والمعركة البرية أمر ذو أهمية كبيرة ، واعتقدوا انه يمكن تحقيق المرونة القتالية ليس عن طريق التحكم الوثيق بالطائرات على ارتفاعات متوسطة فحسب ، بل من خلال اجراءات اكثر استقلالية واعتمادا على النفس ، مع معدلات عالية للطلعات الجوية على ارتفاعات منخفضة جدا .

ولاريب ان هذه الخلافات ، انبثقت بصورة طبيعية من اختلاف التجربة والوسائل ، ولكن الرأي اتجه مؤخرا ، الى ان هذا التنوع في العقيدة له ميزته الايجابية في مضاعفة المشاكل التي تواجه الدفاعات السوفييتية . يضاف الى ذلك انه اذا كان الاوروبيون على خطأ ، فانه يظل بامكانهم ان يميلوا الى التقنية الاميركية ليكملوا مهمة القوات الجوية الاميركية . اما الاميركيون الذين كانوا يدركون انهم يغالون في اعتمادهم على نظريتهم . فقد بدأوا باعادة مزيد من الاهتمام ، الى عمليات المستويات المنخفضة ، دون ان يهجروا فكرتهم الرئيسية لعمل قواتهم الجوية فوجهوا اهتماما متزايدا للفكرة الاوروبية .

وأخيرا ، عندما استعرض قائد القوات الجوية الحليفة لوسط أوروبا العنصر البشري ، بدا واثقا ، ان طواقمه الارضية والجوية بما وصلوا اليه من مستويات عالية في التدريب ، يبرهنون اذا ما تعرضوا لتجربة انهم دوما

في الطليعة ، كما كانت الاختبارات التكتيكية الدقيقة للقوات الجويـة لحلف الاطلسي خلال سنوات عديدة من التدريب الشاق والممارسة العملية مصـدر اعتزازه وثقتـه .

وكان مارشال الجو من القوات الجوية في المملكة المتحدة ، الذي يقود القوة الجوية التكتيكية الحليفة الثانية . يستعرض بارتياح حالة عناصر القيادة عنده . لقد كانت التحسينات التي تمت خلال السنوات القليلة الماضية مدهشة حقا ، وكان ذلك أشد ما يكون وضوحا بين عناصر قيادته في سلاح الجو الملكي. وفي أواخر السبعينات ، كتب « غوردن لي » في صحيفة « الايكونوميست » بتاريخ «١٧ كانون الاول عام ١٩٧٧ » : **« اذا ما كانت المقارنة بين رجل ورجل فان سلاح الجو الملكي البريطاني يظل أرفع قوة جوية في حلف الاطلسي ، ولربما في العالم أجمع ونعني بأرفع ، أحسنها تدريبا ، وأحسنها خبرة من الناحية المهنية »**. كان رجال سلاح الجو الملكي البريطاني عند قراءتهم هذا الكلام يشعرون بالرضا والاعتزاز لكن فرصتهم لم تدم طويلا ، اذ قال في السطور القليلة التالية ان نفس الاطراء لايمكن منحه للطائرات والمعدات الجوية . وفي الحقيقة لم يكن سـلاح الجو الملكي يعاني من شيء لاتستطيع الاموال معالجته . وعندما توفرت الاموال أخيرا وجهت الدفعات الاولى منها لتحسين الدفاع الجوي للمملكة المتحـدة . ولكن بحلول عام ١٩٨٢ أمكن اجراء تحسينات ملحوظة على سلاح الجو الملكي البريطاني في المانيـا .

في ذلك الوقت اثار موضوع قرار زيادة قوة سلاح الجو الملكي البريطـاني « RAF »، المتمركزة في جمهورية المانيا الاتحادية على الخطوط الامامية ، جـدلا سياسيا في جميع الاوساط المهتمة . وكاجراء سريع ، خصصت قيادة القوات الجوية شيئا من مواردها المالية لتحسين العتاد المتوفر لديها ، وتطلعت ايضـا الى زيادة اعداد الطواقم الجوية ، على الرغم من الصعوبات التي تواجهها بهـذا الصدد . كما واجرت أيضا تعديلات واسعة على طائرات « الجاكوار والهارير » وأمنت للعناصر اماكن محصنة ، تتمتع بالتهوية الجيدة ، وانشأت ستة اسراب

نظاميــة وســتة أخــرى اضافيــة في فــوج الجو الملكــي « R A F R » بهدف زيادة مستوى ونوعية الدفاعات الارضية في الميدان لمعظم القواعد الجوية، وكذلك طائرات الهارير . كانت القواعد الجوية والطائرات التابعة للقوات الجوية التكتيكية الحليفة الثانية قوية منيعة ، وهي الآن افضل منها قبل خمسة أعوام خلت .

لكن مارشال الجو « برودوود Broodwood » القائد العام للقوات الجوية التكتيكية الثانية « 2-ATAF » كان مشغول الذهن بمسألة ، تسبب له قلقا كبيرا . ففي أواخر السبعينات ، وللاسباب التي تم ايضاحها من قبل ، في موضع آخر « انظر الفصل التاسع عشر » تدنت كثيرا قوة الطواقم الجوية ، في سلاح الجو الملكي . ولم يكن من المستطاع التخلص من ذلك الوضع حتى عام ١٩٨٥ لمــا يحتاجه تدريب الشباب اللائقين في تلك الاختصاصــات من طيارين مقــاتلين وفنيين مستعدين للعمل لسنوات طويلة . ونتيجة لذلك ، كان معدل الطيارين بالنسبة الى الطائرات في سلاح الجو الملكي البريطاني « RAF » العامل في المانيا عام ١٩٨٥ ادنى معدل في أي من القوات الجوية الوطنية في المنطقة الوسطى . وصحيح انه كانت تتوفر فيهم المهارات والروح العدائية ، لكن ما كان يقلقهم هو الى متى سيظلون يحتفظون بتلك الروح في ظروف العمليات الكثيفــة الشديدة مع ما يرافقها من خسائر عالية وراحة غير كافية ؟!..

ولقد هيأ تعاظم التوتر في الحلف ، ثم التعبئة العامة التي لحقت به الوقت الكافي للقوات الجوية للوصول الى مستوى الاستعداد الحربي التام . وعنــد منتصف ليلة الثالث من آب ، كانت تشير لوحة العمليات بأن ٩٠٪ من طائرات القوات الجوية الحليفة في وسط اوروبا هي جاهزة للخدمة ، ومسلحة ومحمية في ملاجئها المحصنة . وخلال الاسبوع السابق تلقت القواعد الاميركية « USAF » في المملكة المتحــدة سيلا متواصلا من التعزيز بالطائرات عبر الاطلسي . وكان قائد القوات الجوية الحليفة في أوسط اوروبا جنرالا اميركيا سعيدا لان التعزيزات الاميركية الى اوروبا خلال الجسر الجوي عبر الاطلسي تمت بيسر وسهولة ، وكان

مرتاحا الى نسبة الطائرات العاملة ، والى التعزيزات . لكن التفوق العددي كان الى جانب حلف وارسو بنسبة اثنين الى واحد . ومع ان حلف وارسو لايستطيع ان يحقق المفاجأة التكتيكية ، الا انه يبقى يتمتع بتوجيه الضربات الاولى . ويضاف الى ذلك ان القائد الاعلى لقوات الحلفاء في اوروبا قد امر بوضع ٢٠٪ من الطائرات الجاهزة القادرة على حمل الاسلحة النووية في الاحتياط . وبالطبع كان لابد ان ينفذ الامر لكنه لم يكن ذا فائدة في لعبة الارقام.

وخلال الايام الاربعة السابقة ، تأثر الانذار المبكر الاطلسي « بالتدخل الالكتروني » من الجهة الاخري للحدود الالمانية . لم يكن الامر غيرمألوف ، فخلال المناورات العسكرية الحالية لحلف وارسو ، وضعت القوات الحليفة في تجربة مماثلة واستمر ذلك حتى الساعات الاولى من الرابع من آب ، دون تغيير . وفي الساعة (٠٣ر٤٥) اوقظ قائد القوات الجوية الحليفة في وسط اوروبا من نومه ، في مركز قيادته المحصن في المنطقة الوسطى ، ليقال له ، عن التطورات المشحونة بالخطر في الجانب الآخر من الحدود . وبعد دقائق وصل الى مكتبه، ٥
حيث التقى بالجنرال المناوب قائد القوات الجوية الالمانية « GAF » وأعلمه بالخرق الذي قامت به قوات حلف وارسو في منطقة دفاع حلف الاطلسي ، تحت غطاء كثيف من الاجراءات الالكترونية المعاكسة . وافاد الجنرال المناوب انه اتخذ الاجراءات القتالية الاولية ، واقلعت الطائرات من مطاراتها وهي الآن في الفضاء ، وبعد دقائق قليلة اخذت الانباء تتوارد عن هجمات تشن على مراكز انطلاق الصواريخ الحليفة ورادارات الدفاع الجوية ، والقواعد الجوية ، ومراكز تحشد القوات الحليفة ، حقا لقد بدأت الحرب .

ويتفق رجال الجو من الجانبين الذين بقوا على قيد الحياة بعد انتهاء الحرب ، على ان الساعات الاولي من القتال الجوي فوق المنطقة الوسطى، كان فوضويا ، بشكل يعجز الوصف ان يصور فوضويته. واذا ما استثنينا الاميركيين الذين اشتركوا في معارك جنوب شرق آسيا ، فان القليل منهم لم يسبق له ان اطلق طلقة واحدة وهو في حالة حنق وغضب ، او لم يكن قد سمع بصوت طلقة . ولقد

سادالاضطراب والخطر والفوضى العامة المعركة الجوية ، خلال يوم الرابع من آب ، فيما يبدو انه اضطراب وقلق لا مثيل لهما . ومع ذلك ، كان هناك ، في الحقيقة شيء من التماسك فيما يجري بين بعض الوحدات ، ولا ريب ان الفضل في ذلك يعود الى السنوات الطويلة من التفكير والتخطيط . وتظهر لنا النظرة الاولية الى السجلات ، انه بحوالي الساعة (٨٫٠٠) من الرابع من آب ، كان في الجو ، عدد من الطائرات التكتيكية فوق المنطقة الوسطى لايقل عن ثلاثة آلاف طائرة ، ومع ان القصة الكاملة للحرب ، لايمكن ان تروي بدقة قبل اكتمال التحليلات لتقارير القتال وتمحيصها . الا انه يمكن وصف التفاصيل الرئيسية العامة بالخطوط العريضة .

٥

بدأ الهجوم الجوي المعاكس ضد مطارات حلف وارسو ، فور سماح القائد الاعلى لقوات الحلفاء في اوروبا للطائرات الحليفة باجتياز الحدود . وكانت اولى الطائرات التي قامت بهذه المهمة هي من طراز (إف-١١١) التابعة للقوات الجوية ٥ الاميركية وطائرات « التورنادو » التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني ثم طائرات « التورنادو الالمانية « Luftwaffe » منطلقة على ارتفاع قمم الاشجار من قواعد في المملكة المتحدة وجمهورية المانيا الاتحادية . وقد تركز الجهد على المطارات في شرق جمهورية المانيا الديمقراطية، واستطاعت بنسبة عالية من الطائرات الحليفة الوصول الى أهدافها ، وكان من نتيجة ذلك زيادة الثقة بالنفس لدى الطواقم الجوية والقادة على حد سواء . ولا ريب ان السرعة العالية للطائرات المهاجمة على ارتفاعات منخفضة تقل أحيانا عن ستين مترا ، قد حققت ولا ريب مفاجأة تكتيكية ، كما دلت الاشتباكات الجوية القليلة التي قامت بها مقاتلات حلف وارسو على نقص الشعور بالثقة في الارتفاعات المنخفضة جدا . وعلى بعض نواحي الضعف في اجهزة راداراتها عند العمل في اتجاه الاسفل ، كما كان واضحا ايضا ان الروس لم يتمكنوا بعد من حل مشكلة استعمال الصواريخ والطائرات المقاتلة في نفس الاجواء .

٥

ولعل من غير الممكن وضع تقدير عددي لفاعلية الهجوم المعاكس ، لكن ما يتوفر من معلومات حتى الآن يسمح بالقول ، وبكل تأكيد فانها من خلال عملها المستمر أعاقت بشكل خطير تحقيق حلف وارسو لاهدافه الحيوية .

وفي صباح الرابع من آب خصص قائد القوات الجوية الحليفة في وسط أوروبا بعد التشاور مع القائد العام لقوات الحلفاء في وسط اوروبا ومع قبائد القوات الجوية التكتيكية الحليفة وقادة مجموعات الجيوش ، مجهودا جويا رئيسيا للاستطلاع وعزل طرق الاقتراب من ارض المعركة فور تحديد محاور تقدم العدو الرئيسية . وقد خصصت للقيام بهذه المهمة جميع طائرات « الجاكوار » و « الهارير » « والالفاجت » في القوات الجوية التكتيكية الحليفة الثانية ، كما خصصت له ايضا طائرات الالفاجت الاميركية وال « A-105 » وال « A-10 » التابعة للقوات الجوية التكتيكية الحليفة الرابعة « 4-ATAF » . اما القوات الجوية التكتيكية الفرنسية فقد اسندت لها مهام في الجنوب في منطقة القوات الجوية التكتيكية الحليفة الرابعة « 4-ATAF » لدعم القوات الموضوعة تحت أمرة القيادة الفرنسية ، وبناء على اوامر الحكومة الفرنسية .

وعندما اتضح في وقت لاحق ان الجهد الرئيسي للعدو يتركز في الشمال، وان الحرب في الجنوب اخذت في التوازن ، خول قائد القوات الجوية الحليفة في وسط اوروبا جزءا من طائرات القوات الجوية التكتيكية الحليفة الرابعة الى منطقة عمليات مجموعة جيوش الشمال والقوات الجوية التكتيكية الحليفة الثانية بحيث اصبحت نسبة الـ ٣٠٪ من قوات الدعم الجوي الهجومي التابع للقوات الجوية التكتيكية الحليفة الرابعة تحت تصرف القوات الجوية التكتيكية الحليفة الثانية . وهكذا اقتربت نقطة الحسم في الحرب الجوية في المنطقة الوسطى .

وتخضع هذه النقطة لثلاثة عوامل تؤثر تأثيرا حاسما في النشاط الجوي الداعم للمعركة البرية ، فاولا كان الطقس في جميع انحاء المنطقة جيدا ، وكانت الرؤية جيدة ايضا ، ولم يعكرها الا الضباب في ساعات الصباح الاولى وبعض

٥

زخات متفرقة من المطر بين حين وآخر ، وكذلك سحب الغبار والدخان التي كانت تنطلق من حركة القوات الالية السوفييتية ، وتشاهد من مسافة تزيد على ثلاثين كيلو مترا . وكان في ذلك عون كبير لطواقم الطائرات القاذفة من طراز « هاريير وحاكوار والالفاجت ١٠ » . ومن جهة اخري وعندما كانت قواتنا تتراجع ألفى طيارونا انفسهم يقاتلون في سماء ارض معروفة ، وبذلك قلت المدة التي يستغرقها رد الفعل تجاه طلبات القوات البرية لتقديم الدعم لها.

وقد أدت هذه العوامل مجتمعة لقلب ميزان التفوق العددي الذي كان يتمتع به حلف وارسو . ولكن هذه العمليات لم تنفذ بفعالية ، ودون خسائر مكلفة ومحزنة ، ففي تاريخ الحادي عشر من آب ، نقص عدد طائرات « الهاريير » والجاكوار » التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني بنسبة ٥٠٪ ، وفي الثالث عشر من آب وصل تدهور القوات الجوية التابعة لحلف الاطلسي حدا مخيفا ، خشي معه قائد القوات الجوية التكتيكية الحليفة في وسط اوروبا « Comaafce » الا يستطيع الحفاظ على مستوى نشاط قواته ، ان هي توقفت قليلا عن مهاجمة اهدافها ، فقد يتاح ذلك للعدو ان يستعيد توازنه ونشاطه بسرعة ، فيزج ويدفع بقواته الجوية الى الامام قريبا من خطوط القتال الامامية في ساحة المعركة ، خلال تقدمه نحو الغرب . وبنفس الوقت هناك ثلاث مسائل هامة تطرح على قائد القوات الجوية التكتيكية الحليفة في وسط اوروبا « Comaafce » اولها قرار القائد العام لقوات الحلفاء في اوروبا « Saceur » لاستخدام قواته الاحتياطية، وثانيها رفضه للطلبات الملحة خلال الفترة الحرجة لاستخدام الاسلحة النووية التكتيكية . وقد حدا ذلك بقائد القوات الجوية التكتيكية الحليفة في وسط اوروبا كي يسارع بطلب الموافقة على استخدام الطائرات التي كان قد تقرر الاحتفاظ بها للقيام بالضربة النووية عندما يقتضي الامر. وقد وافق قائدالقوات الحليفة في اوروبا على الطلب لكنه اشترط الاحتفاظ بنسبة ٥٪ منها لهذاالغرض. وثالث هذه العوامل وآخرها الوصول الوشيك لقوافل الفرسان (الكافالري) بسلام . وبناء على طلب قائد القوات الجوية الحليفة في وسط اوروبا ، وطلب القائد الاعلى لقوات الحلفاء في اوروبا من القائد الاعلى لقوات حلف الاطلسي

تمت الموافقة على أن ينقل اليه طائراته من طراز « تورنادو وبوكانير » . وفي الثالث عشر من آب ، قامت هذه الطائرات ، مضافا اليها التعزيزات من طائرات (إف ـ ١١١) القادمة حديثا من الولايات المتحدة الاميركية ، وطائرات الاحتياط الايطالية والاميركية التابعة للقوات الجوية التكتيكية الحليفة الخامسة « 5-ATAF » والتي كانت تتمركز في بعض القواعد الجوية الاسبانية والفرنسية؛ قامت هذه الاعداد من الطائرات على الفور في دك ارتال مؤخرات التشكيلات التابعة لحلف وارسو ، وكذلك المستودعات التموينية في طول وعرض السهل الشمالي . وبفضل هذا التصعيد المفاجيء للصراع بتركيز القوات الجوية الكثيف وباستخدام طواقم جديدة ، وطائرات كثيرة وصلت حديثا ، يمكن القول ان قوات حلف الاطلسي « الناتو » قد استردت المبادهة الجوية جزئيا .

أما فيما يتعلق بالمعارك الجوية ، فقد تم تسجيل اكثر من عشرة آلاف اشتباك جوي فوق ساحات المعارك ، والى الغرب منها خلال الايام السبعة الأولى . وكما توقع قائد القوات الجوية الحليفة في وسط اوروبا فقد زجت قيادة حلف وارسو بكتل من الطائرات على شكل موجات متلاحقة وعلى غرار ما فعله الحلفاء فقد دعمت الطائرات عملياتها باستخدام كافة الوسائل الالكترونية على اختلاف انواعها . ومع ان الهجوم الجوي احرز نجاحا وسبب خسائر جسيمة في صفوف قوات الحلفاء وخلق لحظات من القلق لدى اركان القوات الحليفة في اوروبا « Shape » . لكنه مع ذلك لم يستطع تحقيق السيطرة التامة في الجو .

أما مساهمة حلف الاطلسي الرئيسية في المعركة الجوية الدفاعية ، فوق المنطقة الوسطى ، فكانت من خلال عمليات طائرات الفانتوم « إف ـ ٤ » وال (إف ـ ١٥) وال (إف ـ ١٦) ، وقد انتهى النقاش الذي استمر وقتا طويلا بين البريطانيين والاميركيين بشأن استخدام الدفاعات الجوية ، بتبني مفهوم الدفاع في العمق ، وبذلك تم اقامة الحاجز الاول ضد مقاتلات العدو امام حزام الصواريخ الاطلسية بهدف تغطية القوات الارضية ، وقد انيط ذلك بطائرات « اف ١٦ »

البلجيكية والهولندية والاميركية ، بينما قامت طائرات الفانتوم التابعة لسلاح الجو الملكي « راف » و « اف ــ ١٥ » الاميركية بتنفيذ دوريات قتالية وراء مراكز الصواريخ بهدف اكمال الدفاعات الموضعية في الساحة الخلفية . لكن الدفاع الجوي في فرنسا بقي مسؤولية فرنسا القومية .

وخلال الايام الاولى للحرب ، عملت اجراءات العدو الالكترونية المعاكسة وهجومه على محطات الرادار في حلف الاطلسي ، على تدني قدرة حلف الاطلسي بشكل خطير في مجال الاعتراض الجوي الحاسم . لكن الطقس كان الى جانب الدفاع إذ ان الرؤية بقيت جيدة حتى ارتفاع ثلاثة آلاف متر . وقد اتاح طيارو حلف وارسو للمقاتلات المدافعة ، من خلال عدم قدرتهم أو امتناعهم أو ترددهم عن التحليق على ارتفاعات منخفضة ، امكانية مشاهدتهم عندما تعبر طائراتهم سلاسل التلال والمرتفعات. كانت النقطة القوية لدى الروس هي في تفوقهم العددي ومن غير المستغرب ان يستمروا في الحفاظ عليه ، ولهذا كان تكتيكهم المفضل في عمليات الاعتراض هو محاولة تفاديها . وبالمقارنة فان مهاراتهم القتالية الجوية ، كانت ادنى مستوى من تلك التي لدى طياري حلف الاطلسي .

لكن الدفاعات الحليفة دفعت ثمنا باهظا بسبب التفوق العددي السوفييتي فبينما كان معدل خسارة الطائرات ، الى جانب حلف الاطلسي بمعدل ثلاثة الى واحد ، كان حزام صواريخ « الهوك » قد تم تدميره ، وتعرضت محطات الرادار التي نجت في المرات الاولى من التدمير ، الى ضربات صاروخية محكمة . أما القواعد الجوية نفسها ، فقد تعرضت الى هجوم جوي شديد باستثناء القواعد الاميركية الجوية في منطقة القوات الجوية التكتيكية الحليفة الرابعة التي ظلت السيادة الجوية في سمائها وقفا على طائرات الـ (اف ــ ١٥) طيلة فترة الحرب .

ومع ان طائرات حلف وارسو ، استطاعت ، ان تحقق تفوقا جويا محليا، في عدد من المناسبات خلال الاسبوع الاول من الحرب ، لكنه استحال الحفاظ على دعم جوي تام للقوات الارضية في مواجهة معارضة قوية من طائرات

(إف ــ ١٦) وأحيانا طائرات « الهاريير » المسلحة بصواريخ جو ــ جو . لكن خسائر الطائرات الحليفة وحالة الدمار والارهاق التـي تخلفها المعركة تجعل النتائج النهائية لهذا القتال الجوي العنيف محاطة بالكثير من الشك . ومع انه يجب تتبع تطورات هجوم حلف وارسو في المنطقة الوسطى وما يجري فيها على أرض المعركة « وهو ما سيأتي ذكره في الفصل التالي » الا أن الترابط المنطقي، واتصال الاحداث ببعضها يجعلان التنبؤ بسيرة هذا الهجوم ونتائجه أمرا مرغوبا فيه ويكفي لانهاء قصة الحرب الجوية فوق أوروبا .

وبتاريخ الرابع عشر من آب جاءت اول اشارة عن تحول في مجريات الحرب لصالح قائد القوات الجوية الحليفة في وسط اوروبا ، عندما حاول السوفييت، شن هجمات بالطائرات والحوامات لدعم هجومهم البري على مواقع « الفنلو » لكنهم لم يستطيعوا ان يحققوا المفاجأة حيث ينقصهـم التركيز والتصميـم للحصول على التفوق الجوي المحلي . غير ان الفوضى التي سادت أجواء شمال وغرب لسان « كريفلد » استثمرت من قبل الجنود البريطانيين والالمان المنهكين الذين أطلقوا على منطقة (فنلو) فيما بعد تسمية « مصيدة الديكة الرومية » .

وعندما حققت قوات حلف الاطلسي « NATO » سيطرتها على الجو بعد زج الاحتياط في المعركة ، تم استثمار التفوق الجوي المحلي بتركيز الاسلحـة الدقيقة التوجيه على نقاط العبور السوفييتية على الراين الادنى ونهر المـاس «MAAS» الداخلي، الامر الذي عمل على تضييق الخناق على خطوط الامدادات الى تشكيلات العدو المتقدمة حتى مرحلة خطرة، واذا اصبحت الفرق السوفييتية الى الغرب من الراين معزولة ، بادر قائد القوات الجوية الحليفة في وسط اوروبا الى تشكيلات العدو المتقدمة حتى مرحلة خطرة، واذ أصبحت الفرق السوفييتية الجوية التكتيكية الحليفة الثانية ، تاركا ما تبقى من القوات الجوية التكتيكيـة الحليفة الرابعة وبقايا القوات الجوية التكتيكية الخامسة لدعم مجموعة جيوش الوسط . وخلال اليومين التاليين الحق ذلك الحشد الهائل من القوة النارية الجوية دمارا كبيرا في قوات العدو الى الغرب من الراين .

لكن صمود او انهيار المجهود الجوي ، يعتمد اساسا على الاحتفاظ بقواعد أمينة ، وتلك حقيقة يعرفها قادة الجو الحلفاء . ومنذ اليوم الاول للحرب ، امكن السيطرة على بعض المطارات على الرغم من تعرضها للقصف باستخدام القنابل الشديدة الانفجار ، والمواد الكيماوية دائمة التأثير . بينما لقي بعضها الآخر ، حصته الكاملة من البلاء والتدمير ، لكن التمارين التي أجريت زمن السلم على استخدام القوات الجوية استخداما مرنا ، اعطت ثمارها ، ومع ان المطارات تختلف عن حاملات الطائرات ، بأنه لايمكن اغراقها الا انه يمكن اجتياحها ، وهذا ما جرى خلال الايام الاولى للحرب ، عندما اضطر تقدم العدو في الشمال القوات الحليفة الى هجر عدد من المطارات الالمانية والهولندية لايقل عن ستة مطارات، ووضعت طائرات التورنادو « Tornado » الالمانية تحت تصرف المملكة المتحدة، بينما تحركت طائراتهم من طراز الفاجت الى الجنوب واعيدت الطائرات الهولندية من طراز (إف ــ ١٦) الى بلجيكا . وفي نهاية الايام الاربعة اللاحقة ، وعندما عبر العدو نهر الراين الادنى اضطر سلاح الجو الملكي البريطاني الى هجر مطاراته ، واعيدت طائراته « التورنادو والبوكانير » الى المملكة المتحدة ، بينما وضعت طائرات التورنادو المخصصة للاستطلاع في الجنوب . كان أحد اهم التهديدات الكبيرة للقواعد الجوية لحلف الاطلسي يكمن في الهجمات بالصواريخ أرض ــ ارض اثناء تقدم العدو ، واستعماله لنظام صواريخه المتحركة باتجاه الغرب . وقد اخفق هجوم منسق بالصواريخ على مطارات القوات الجوية التكتيكية الحليفة الثانية في اصابة الطائرات الحليفة قبل اعادة انتشارها او تفرقها للقيام بمهامها الجديدة . لقد استطاعت بعض الطائرات ان تنجو باعجوبة، ولم يفت قائد القوات الجوية الحليفة في وسط أوروبا الافادة من هذا الدرس. فوجه ردا جويا وسريعا وحاسما الى بطاريات الصواريخ السوفييتية التي اخلت مواقعها لتنتقل الى الامام استعدادا لمرحلة جديدة .

* * *

لم تستطع القوات الجوية التابعة لحلف وارسو تحقيق أهدافها كاملة . وذلك بسبب فشلها في احراز المفاجأة التكتيكية . وبسبب كون القوات الجوية

الحليفة لها بالمرصاد وجاهزة للرد . يضاف الى ذلك ان الحرب الالكترونية الاطلسية كانت من نوعية متفوقة خلال الحملة ، كما برهنت طواقم وطائرات الحلفاء « كما كان يؤمل منها دائما » انها ايضا اكثر تفوقا من ناحية المهارات والتكنولوجيا . كانت الخطط الدفاعية الحليفة تتطلب من القوات الجوية ان توقف طوفان حلف وارسو ، حتى يتم تعزيز الجيوش الحليفة وتصبح جاهزة للقتال . ولقد نجحت في تحقيق ذلك . فالاعمال الجوية الكثيفة ، سواء منها جو ـ جو او جو ـ ارض قد بررت الافكار الكلاسيكية بشأن القوات الجوية التي سادت خلال نصف قرن ، كما انها قد عدلت ، وبطريقة هامة بعض الوصايا العشر التي وردت في كتاب الطيران المقدس ، وكشاهد على ذلك ، كان الطيارون يقدرون حقا ان واجبهم ان يعطوا الافضلية المطلقة للمعركة الجوية ، الا ان ظروف هذه الحرب ، قد علمتهم انه من المستحيل عليهم ان يواجهوا مهمات متعددة حسب نظام افضليات محدد سبق أن تعلموه ، وتعتز به هيئة التدريس في كلياتهم الجوية . وقد تبدد مرة والى الابد ، اعتقاد رجال الجو ، ـ الامر الذي كان يغيظهم كثيرا ـ الذي ولدته الحرب العالمية الثانية وهو ان الترتيب الزمني لاحداث الحرب يجب ان يتيح لهم خوض المعركة الجوية ، وتحقيق التفوق الجوي قبل الالتفات الى مشاكل وصعوبات المعركة الارضية . ولكن هنا حدث كل شيء ، في وقت واحد .

وعلى ضوء الامكانات المحدودة التي كان الغرب على استعداد ليخصصها لشؤون الدفاع قبل الحرب العالمية الثالثة ، ادركت قيادة القوات الجوية ان التنافس يكون قبل كل شيء على أسس النوعية لا الكمية ، وكانت بالطبع محقة في ذلك ، بل انها كانت على صواب في كل الظروف ، اذ ان وجود قوات جوية من الدرجة الثانية لدى بلد ما ، انما كان يعتبر تساهلا في انفاق باهظ الثمن على حساب النمو القومي ، ويجدر بالذكر انه كلما ضاق هامش الكيفية بين الجانبين المتقابلين المتخاصمين ، كلما اصبحت الناحية الكمية ذات أهمية حقيقية . ولهذا السبب ، كان الهجوم الجوي المعاكس الذي أمر به قائد القوات الجوية الحليفة في وسط اوروبا حاسما وهاما جدأ ، ومن دواع السرور ان

الطائرات والاسلحة ومعدات الهجوم الالكترونية المعدة خصيصا لهذه المهمة ، اثبتت جميعها انها ناجحة جدا ، وعملت أكثر من أي شيء آخر على التقليل من قيمة فائدة الزيادة العددية التي كان يتمتع بها حلف وارسو .

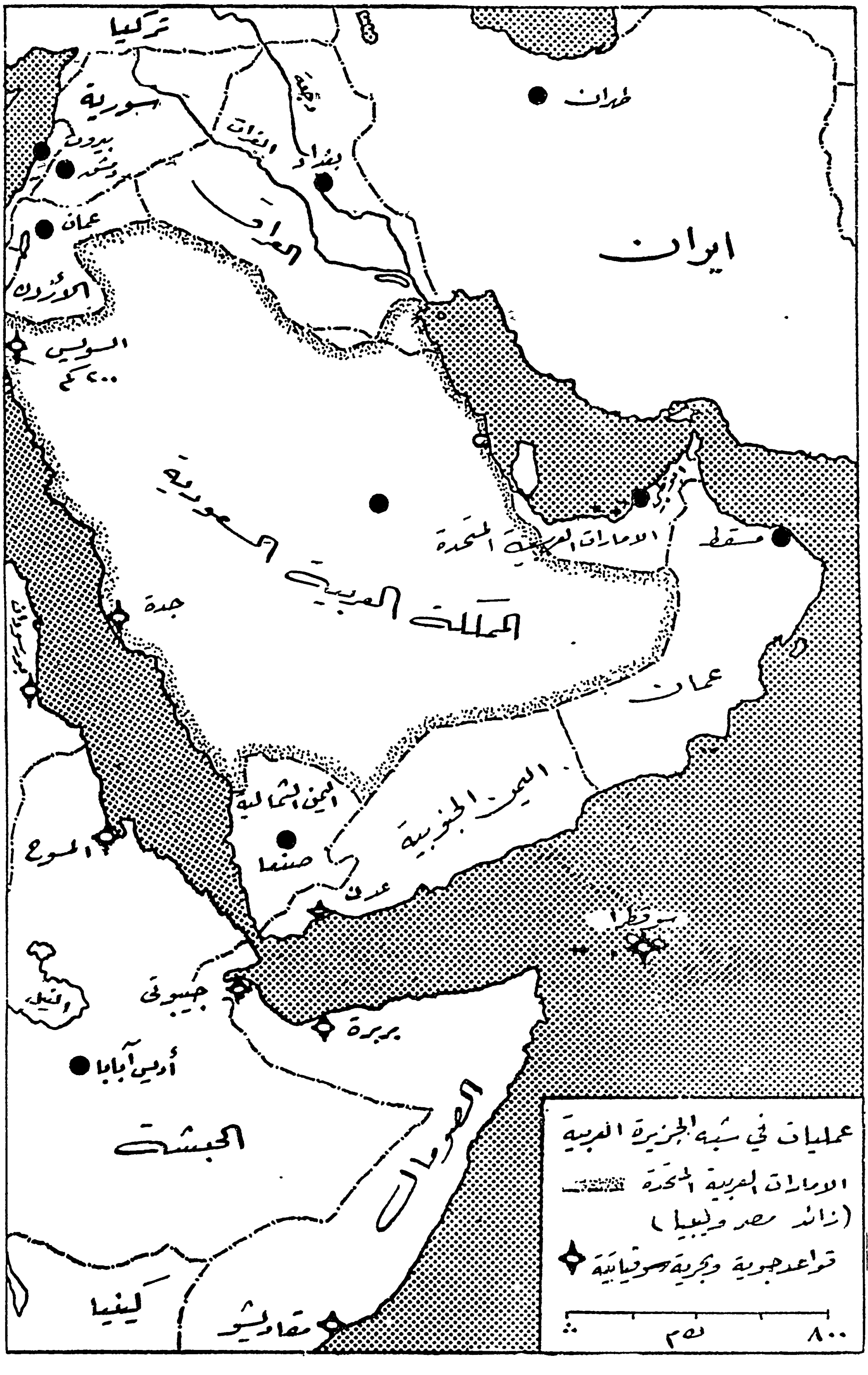
وقد برز عنصر جوي جديد ، في الجسر الجوي عبر الاطلسي ، وذو اهمية بالغة لمسرح العمليات الاوروبي ، فعلى الرغم من الدروس المستفادة من الجسر الجوي الى برلين في أواخر الاربعينات ، فان الاستراتيجيين الاوروبيين الغربيين رأوا في النقل الجوي ، امتدادا فقط للدعم السوقي القائم ، لا اكثر ولم يكن الامر كذلك عند المنظرين الاميركيين أو السوفييت ، الذين اقاموا جسرا جويا الى القرن الافريقي ، عندما نقلوا عليه الدبابات الى أثيوبيا ، بطائرات «انطونوف» الضخمة المخصصة للنقل ، في الفترة ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ . وفي الحقيقة ان النقل الجوي ، أصبح الآن أحد المظاهر الاستراتيجية الاكثر أهمية للقوات الجوية . ومن سخرية القدر ان يعمد البريطانيون عند وضع ميزانيات الدفاع في السبعينات الى التقليل من أهمية قوة النقل الجوي ، الامر الذي اكره القائمين على التخطيط على الاعتماد على العوامات البحرية وسفن النزهة التي كانت تقوم برحلات بحرية ما بين الشواطىء البريطانية والهولندية من اجل نقل التعزيزات البريطانية الى مجموعة جيوش الشمال . وتذكرنا هذه الاجراءات باستعمال سيارات الاجرة في باريس لنقل الجنود الى الجبهة في منطقة « المارن » في مطلع الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ . بقدر ما تذكرنا ، انها تطور غير ملائم للقوات الجوية في النصف الثاني من القرن العشرين .

وربما اهم ما يزكي التفكير بالنظريات الجوية الكلاسيكية هو تنظيم جهاز القيادة للقوات الجوية الحليفة في أوروبا في مطلع السبعينات ، وكان ذلك ، مطلبا قديما لرجال القوات المسلحة الجوية ، يقال انه اذا ما اريد استغلال مرونة القوات الجوية وقدرتها على التركيز ، فانه يجب تنظيم هذه القوات تنظيما مركزيا . وهذا ما جرى بالفعل ، ويعود الفضل في تنفيذ ذلك الى ضغط ونفوذ الولايات المتحدة الاميركية عندما قامت بتشكيل قيادة جوية واحدة تكون

٥

تحت اشراف قيادة القوات الجوية الحليفة في وسط اوروبا . فعندما أغلــق الجزء الشمالي من المنطقة وارتدت مجموعة جيوش الشمال بكاملها الى الوراء وتوقفت عند « كاسل » كالجدار الهائل تحت الضغط الشديد لقوات حلف وارسو ، مكن هذا التنظيم قائد القوات الجوية الحليفة في وسط أوروبــا من تحويل قواته الجوية تسعين درجة وذلك بتشكيل محور جوي ممتد من الشرق الى الغرب في مواجهة الشمال ، خلال ساعات . واستطاع بنفس الطريقة أيضا امتصاص الاحتياط الذي وضع فجأة في الخدمة ، والتحضير من أجل قذفــه بسرعة في هذه المعركة التي اسهمت فيها القوات الجوية اسهاما حاسما .

* * *



تركيا
سورية
بيروت
دمشق
عمان
الأردن
السويس
٢٠٠ كم
بغداد
الفرات
العراق
طهران
ايران
المملكة العربية السعودية
الإمارات العربية المتحدة
مسقط
عمان
جدة
اليمن الشمالية
صنعاء
اليمن الجنوبية
عدن
سوقطرا
مصوع
جيبوتي
بربرة
أديس أبابا
الحبشة
الصومال
كينيا
مقاديشو
عمليات في شبه الجزيرة العربية
الإمارات العربية المتحدة
(زائد مصر وليبيا)
قواعد جوية وبحرية سوفياتية
٨٠٠ كم

الفصل الحادي والعشرون

الوسط يصمد

وبتاريخ الثالث عشر من آب علم القائد العـام لقوات الحلفاء في اوروبـا بصورة أكيدة، ان القوافل التي تعبر الاطلسي قادمة من الولايات المتحدة الاميركية أصبحت أخيرا في نطاق منطقة الدفاع الجوي التابع للمملكة المتحدة ، تحت مظلة جوية تنطلق من قواعد في فرنسا والمملكة المتحدة . كانت الخسائر في الارواح عالية بين العناصر التي تم نقلها بالوسائط الجوية « معظمها من وحدات وتشكيلات التعزيز بالاضافة الى الجزء الاكبر من الاعتدة والمعدات الخفيفة والثقيلة » كمـا كانت الخسائر جسيمة أيضا بالسفن والبواخر ، التي كانت تنقل المعدات الثقيلة والاعداد الكبيرة من الرجـال والذخائر الثمينـة . مع ذلك يمكـن القول ان القيادة الحليفة في اوروبا تلقت تعزيزات تقدر بأربع فرق مع أركان جيش وجنود باعداد كبيرة لتشكيل جيش مقاتل . وهكذا فان الاستعدادات الكبيرة المكثفـة لحشد هذه القوات ، التي خطط الروس لمنع تدفقها أصبحت تجري على قدم وسـاق .

في الصباح الباكر ليوم الرابع عشر من آب من المتوقع ان تستأنف سفن قافلة « الكافالري » تزال حمولتها في الموانيء الفرنسية ، حيث ان الوحدات الاميركية تنتظر استلام عتادها، علما انه اتخذت لهذه العملية احتياطات أمنية جوية وبرية كتحشدات الدفاع الجوي والاجراءات الاحتياطية التي قامت بها الشرطة الفرنسية والوحدات الفرنسية المقاتلة لتجنب وقوع اضطرابات مدنية « انظـر الفصل الثاني والعشرين »، وبعد ذلك ستنطلق الوحدات المجهزة تجهيزا كـاملا

على الطرق البرية والسكك الحديدية بالسرعة الممكنة عبر فرنسا وبلجيكا الى المنطقة المحيطة « بآخن » .

ولكن عند ظهر يوم الثالث عشر من آب ١٩٨٥ أمر القائد العام بوضع أربع فرق من مسرح الاحتياط تحت تصرف قيادة مجموعة جيوش الشمال اعتبارا من الساعة الواحدة من صبيحة الرابع عشر من آب من أجل البدء بالهجوم من المواقع الامامية الحالية باتجاه «بريمين» . وكان من المقرر ان يبدأ هذا الهجوم قبل أول ضوء من اليوم التالي في الخامس عشر من شهر آب . كانت هذه العملية التي رمز اليها بكلمة « كالدون » يخطط لها منذ زمن بعيد .

وقد علم على نحو أكيد من مصادر الرصد والاستطلاع وعلى مستويات مختلفة ومن الاستطلاع اللاسلكي « Sigint » وتقارير أخرى ، ان فرق العدو التي تقوم بالاشتباك مع وحدات وتشكيلات حلف الاطلسي تأتي من جيش الحراسة السابع القادم من المنطقة العسكرية البيلوروسية « روسيا البيضاء » في الاتحاد السوفييتي « كما هو الامر بالنسبة لجيش الحراسة الخامس » وخلف فرق البنادق الآلية في المقدمة التي هي في النسق الاول للهجوم توجد فرقتان من الدبابات ، وعلى عمق أبعد في الخلف كانت هناك ثلاث فرق أخرى بوحداتها المتقدمة على مسافة ثلاثين كيلو مترا ، ويُعتقد ان هذه الفرق هي احتياط الجيش الثامن والعشرين القادمة من نفس المنطقة العسكرية السابقة ، وقد علم آنذاك ان الهجوم الجوي الفاشل الذي قامت به فرقة الحراسة (١٠٣) المحمولة جوا قد انطلق أيضا من هناك .

ولن يعرف الكثير عن تحركات وحدات وتشكيلات الجيش الاحمر التي حشدت للمعركة على حدود المناطق الامامية ، علما ان بعضها كان منتشرا في المؤخرة . وقد علم من مصادر محلية موثوقة أن أيا من الوحدات والتشكيلات السوفييتية التي اشتركت في الهجوم الاولي في الرابع من آب لم يبق منها أي اثر على تراب جمهورية المانيا الاتحادية حتى الآن ، حيث أصبحت طريقة السوفييت في استخدام قواتهم في القتال واضحة تماما . فهم يستخدمون الفرق

في هجوم شامل لمدة ثلاثة الى خمسة أيام وحتى درجة الانهاك تقريبا ، ثم تستبدل هذه التشكيلات ، بتشكيلات جديدة كاملة . أما في الجانب الحليف ، فقد شارك معظم التشكيلات في القتال اكثر من مرة .

وفي الساعة الرابعة من الرابع عشر من آب شنت قوات حلف وارسو ، بعد تمهيد مدفعي وجوي كثيفين ، بدون استخدام السلاح الكيماوي ، هجومها المتوقع على موقع «فنلو». لكن الهجوم الذي نفذ بقوات محمولة جوا، بقوة كتيبة على كل من الجناحين وعلى عمق خمسة عشر كيلو مترا خلف قوات الاطلسي في« نيوس»و« رويرموند» فلم يزد عن كونه مجرد ازعاج لا قيمة له. وقد تمكنت مجموعتان من الدفاع الوطني المحلي الالماني ، واحدة في كل جناح ، وكل منهما بقوة لواء من صد الهجومين بنجاح . وقد حالت الدفاعات الجوية الحليفة تماما دون السماح لتدخل القوات السوفييتية المحمولة بالحوامات في المعركة . فبقيت معابر نهري « الراين والموز » في أيدي الحلفاء وتحت اشراف المهندسين المنهكين ، مفتوحة ليلا وجزئيا نهارا . وهكذا باءت بالفشل محاولة العدو لعزل الوحدات الامامية لمسرح عمليات الحلفاء بواسطة القوات المحمولة جوا وأدت الى فشل ذريع .

وفي الهجوم على موقع « فنلو » انتشرت اربع فرق من قوات الحلفاء على جبهة تمتد ثلاثين كيلو مترا بين النهرين مدعومة بدفاعات مضادة للدبابات، دفاعات قوية ومنتشرة بشكل جيد ومنسق بالعمق ، بحيث جعلت استعمال العدو لقواته الخفيفة المتقدمة وبطريقتهم التي أصبحت معلومة ، وهي التغلغل في عمق هذه الدفاعات أمرا غير ممكن . وانطلق الهجوم العام بعد ثلاثين دقيقة من رمايات تمهيد بالمدفعية الكثيفة التي استهدفت ابطال الدفاعات المضادة الدبابات ، وتلا ذلك تحرك ثلاث فرق مشاة محمولة ، يتقدم كل منها فوج دبابات ، بحيث تكون سرايا الدبابات في الامام تتبعها سرايا المشاة المحمولة على عربات « BMP » المخصصة لقتال المشاة. وتلا ذلك على بعد مائتي متر الى الخلف من الدبابات — وقد اوحت الاصابات المباشرة من الاسلحة المضادة

للدبابات التي أوقعت بالعربات «BMP» المتقدمة ان الهجوم الراكب سيعجز عن التقدم — هجوم بالمشاة الراجلة ، وبقوة كبيرة تحت غطاء من نيران الدبابات والمدافع ذاتية الحركة ، والعربات «BMP» وتحشدات كبيرة من المدفعيـة الفرقية وقاذفات الصواريخ التابعة لمدفعية الجيش ، وهجوم بالصواريخ مـن الجو الى الارض . وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة بالطائرات تحت وطأة هذا الهجوم الكبير ، حيث كانت تتراكم الوحدة فوق الاخرى دونما نظر الى الخسائر الفادحة ، بدأت دفاعات حلف الاطلسي « NATO » التي غمرتها الاعداد الكبيرة من الجنود هنا وهناك ، بالانهيار وخلال ساعة او اثنتين اخذ العدو يحـرز نجاحا ملحوظـا .

وفي الوقت نفسه الذي كان فيه الهجوم الرئيسي يدور في منطقة «فنلو» كان السوفييت يشنون هجوما آخر بفرقة آلية الى الغرب من نهر الماس « Maas » جنوبا باتجاه « Roermond » . وقد اوقعت نيران الصواريخ المركزة المحتشدة بكثافة على معابر نهر الماس والراين الادنى ، التي قد فتحت بصعوبة كبيرة من قبل سلاح المهندسين السوفييت ، خسائر كافية في هذا الهجوم بحيث مكنت لواء اميركيا مدعما بفوجين من الهولنديين تحت أمرته وبدفاعات مضادة للدبابات موزعة في العمق ، وهي الدفاعات التي لم يستطع العدو اخمادها والاحتفـاظ بمواقعه . وبالطبع لقد تم التخلي عن الارض جزئيا ، لكن عددا كافيا من شبكـة الاسلحة المضادة للدبابات بقي مستمرا في الاشتباك مع العدو لاحباط محاولتـه الاولى — ولو على نطاق اضيق — لان يجعله في منطقة « فنلو » في الضفة الغربية من نهر «الماس» ، وهو ماكان الهجوم السوفييتي العام يحاول تحقيقه نحو القوات الحليفة في وسط أوروبا ككل ، أي ان يطويهـا من الخلف بهجوم يقوم بـه من الشمال الى الجنوب على طول الضفة الغربية من نهر الراين .

وفي الوقت نفسه بدا هجوم معاد الى الشرق من « الراين » أقوى مـن الهجوم الذي كان يدور الى الغرب من نهر « الموز » شاركت فيه وحدات مـن الجيش البريطاني الثاني ولواء هولندي ، وفرقة المانية حديثة التشكيل معززة

بشكل جيد ، وثلاث مجموعات من الدفاع الاقليمي الالماني ، وكلها وضعت تحت أمرة احد الجنرالات الالمان . وهنا اسهمت ثلاثة أمور في منع تحرك القوات المهاجمة المعادية ، باستثناء بعض القوات الخفيفة عبر العائق المائي لنهر الليب ، وفي تأخير تقدم العدو تأخيرا هاما جدا هي :

ـ أولا : غمر السهول الساحلية بالماء ، الذي أخضع تحركات القوات عبر ارتال محددة على طرق معينة من الشمال الشرقي .

ـ ثانيا : الاستعمال الواسع للالغام .

ـ ثالثا : واخيرا الدعم الجوي الوثيق ، وذلك باستغلال التحسن القليل في الجو الذي يتمتع به الحلفاء الآن ، وبالتفوق الواضح في مجال حرب الالكترونيات .

ولعل العون الكبير الذي لقيته معركة « الليب » في القتال الحاسم الذي كان الجناح الايمن من اجل الاستيلاء على منطقة « فنلو » كان في تصعيد الوقاية ضد الهجمات الجوية ـ تلك الوقاية التي اتاحتها للقوات الارضية الحليفة التقنية الالكترونية ـ وكذلك في صمود الدفاعات الفعالة المضادة للدبابات بالرغم من كل المحاولات التي جرت من قبل العدو بهدف اسكاتها وتدميرها ، يضاف الى ذلك القتال الذي لم يكن يقل أهمية في هذا المجال ، الذي كانت تقوم به قوات الاحتياط والقوات الاقليمية التابعة لجمهورية المانيا الاتحادية .

ومع انه يمكن تخفيض نسبة التفوق العددي لدى العدو . « حيث كانت تصل في بعض نقاط الهجوم الى نسبة عشرين وحتى ثلاثين الى واحد » الا ان ذلك لم يمنع ان يحرز العدو بعض المكاسب . وبحلول الظلام بتاريخ الرابع عشر من آب ، كانت المواقع الامامية لمواقع قوات الحلفاء والى الشرق من نهر الراين قد ردت الى الخلف على خط يمتد من « بادربورن » الى « دويسبورغ » لم تستطع حتى الوحدات الاقليمية الالمانية التي قاتلت قتالا مريرا والتي عززت

بمجموعة كاملة الاحتفاظ بمواقعها . على ان ما اصبح يعرف بمعركة الليب يظل شيئا من النصر حققته القوات الاحتياطية ، في جمهورية المانيا الاتحادية.

وبحلول الظلام أيضا انهار مركز جبهة « فنلو » مابين نهري « الراين والموز » اذ تمكن العدو من دق أسفين بين القوات المدافعة عن تلك المنطقة أي بين الفرقتين البريطانيتين من جهة وبين فرقتين احداهما المانيا اتحادية واخرى بلجيكية ، وقام بخرق عميق بينهما وصل الى حدود عشرين كيلو مترا . ثم تابع العدو محاولاته لاستثمار الفوز الذي حصل عليه خلال ساعات الظلام فاستأنف هجومه على نطاق واسع عند اول ضوء . وبناء على أوامر القائد العام للحلفاء رفض القائد الاعلى لقوات الحلفاء في أوروبا التوسلات المتكررة من الفيلق البريطاني الثاني للحصول على دعم بالاسلحة النووية ، وبدلا من ذلك قام بدعمه بتحشدات مكثفة من المدفعية الثقيلة ومن المدفعية الصاروخية ، الى جانب ذلك الدعم الجوي التكتيكي وعلى نطاق لم يشهد الحلفاء له مثيلا بعد ، الامر الذي كان له تأثير ملحوظ في الحد من تقدم العدو . اضافة لذلك فقد امكن خلال الليل ، تثبيت عدد من المواقع الدفاعية في العمق ، حيث وجد ان شبكة الدفاع المضادة للدبابات كانت لاتزال في أوج نشاطها الى حد يبعث على الدهشة . ولم يكن نشاط العدو في العمق كامل الفعالية بقدر ما كان يرغب بالنسبة للمواقع الحليفة . فقد وجدت دباباته المتقدمة ومنشآته المحمولة نفسها مرغمة على شق طريقها من خلال المواقع المضادة للدبابات المتشابكة المتعرجة ، والتي مازالت فعالة .

ان ما سبق ذكره يستحق أن يذكر مرة ثانية . ومع تطور القتال في المنطقة الوسطى خلال الايام القليلة الماضية ازداد شيئا فشيئا تفوق التقنية الالكترونية الحديثة سواء على الارض أو في الجو . ولسنا هنا في معرض الحديث مطولا عن تحسين التقنيات الالكترونية ــ التي غدا الغرب فيها متفوقا كثيرا على الشرق خلال السنوات القليلة الاخيرة ــ تلك التقنيات التي شهدت نقصا في حجم الاجهزة وقلة في اجزائها الالكترونية المعقدة ، وانخفاضا في معدل تعرضها للاعطال ، يرافق

ذلك كله تخفيض في التكاليف . ويكفي أن نقول ان الغرب ، الذي لم يعرقل اقتصاده بالطريقة الجماعية الصناعية تحت اشراف الدولة ، والذي ظل التنافس التجاري محركا لنشاطه ، قد حقق تفوقا على الشرق في جميع المجالات . لقد كان يدرك ذلك ، ولكنه أصبح يعلم الآن ، ان هذا التفوق كان اكبر مما كان يتوقع . ولقد ظهرت نتائج ذلك في عدة مجالات :

ـ أولا : في مجال استثمار هجوم وقدرات استطلاع طائرات الـ (إف ـ ١٥) والعربات الموجهة عن بعد بدون طيار « RPV » مثلا .

ـ ثانيا : في مجال استخدام الصواريخ الموجهة الدقيقة جدا من طراز « PGM » ذات التأثير المميت والبعيدة عن تناول التشويش المعادي في توجيهها ، وهي صواريخ أرض ـ أرض .

ـ ثالثا: في مجال توزيع شبكة الوحدات الالكترونية التكتيكية ، وفي الحد من قابلية التعرض لتداخل الاتصالات عن طريق زيادة عدد القنوات وبطرق أخرى لا حصر لها . وفي نفس الوقت كانت الاجراءات الالكترونية المضادة الحليفة والاجراءات الالكترونية المضادة للاجراءات المضادة تحد من تأثير وفعالية الطيران المعادي وهجمات الصواريخ دون الحاق أي أذى بطائراتهم وصواريخهم .

واثبتت عملية اعتراض الاتصالات المعادية والتداخل فيها ، ان فائدتها لصالح المعركة البرية لاتقدر بثمن : فتحديد مواقع قاذفات الصواريخ المعادية وتدميرها بسرعة بواسطة الصواريخ الدقيقة الموجهة « PGM » ، والتشويش على أجهزة التجسس واجهزة اعتراض الصواريخ المهاجمة ، واستخدام سلسلة واسعة من الاجهزة الالكترونية المضادة ، من خلف حاجز من الاجهزة معاكسة المعاكسة ، بهدف الحد من قدرة العدو على الرد ، وأخيرا وليس آخرا ، انتهاج سياسة الهجوم المركز على مقر قيادة العدو وسيطرته ، كل هذه الاجراءات والاعمال ، اثبتت نجاحها وجدارتها وحققت ماكان يؤمل منها . فالنظام السوفييتي في القيادة العملياتية كان دقيقا جدا ، اذ كان على درجة كبيرة من عدم المرونة ،

الى حد تعذر معه الصمود امام الجهود الدؤوبة لكشف وتدمير منشآت القيادات اما عجز القيادات على مستوى الافواج « Regiment » عن السيطرة على وضع مائع عند حرمانها من الاتصال باركان الفرق ، فقد أصبح ظاهرة واضحة اكثر من ذي قبل . وقد كشف اعتراض الارسال اللاسلكي من التشكيلات السوفييتية المتقدمة ، عن النداءات المتكررة التي تطلب الاوامر الجديدة في بعض المواقف غير المتوقعة التي تواجهها اثناء سير العمليات .

وتستطيع المواقع الدفاعية المضادة للدبابات المنتشرة جيدا في العمق ، في بيئة الكترونية ملائمة بشكل جيد ، ان تعمل الشيء الكثير للتعويض عن النقص العددي الكبير في القوات البرية ، خاصة وان القوات الجوية التكتيكية الحليفة اثبتت انها اشد فعالية وتأثيرا من نظيرتها لدى العدو ، على انها لايمكن ان تكون بديلا تاما لقوة المدفعية والمدرعات في ميادين القتال . لم يفقد قائد الفيلق البريطاني كل سيطرته التكتيكية ضمن نطاق مسؤوليته ، فما زال فيلقه يشكل كيانا عملياتيا وان كان الاختراق المعادي قد شق صفوفه ، الامر الذي اتاح للعدو متابعة التقدم بين وحدات لاتستطيع الواحدة منها ان تدعم الاخرى . وتعرضت مفارز الدفاع المضاد للدبابات الى خسائر كبيرة واصبح تزويد القاذفات بالصواريخ صعبا اكثر فأكثر . واستطاعت المشاة المحمولة السوفييتية بعرباتها من طراز « BMP » اجتياح الدفاعات المضادة للدبابات واحدا بعد الآخر . وبعد ظهر الرابع عشر من آب كانت العناصر المتقدمة من فرقة الدبابات السوفييتية تقترب من « Jülich » .

وفي الليلة السابقة كانت فرقة فرنسية مدرعة تتحرك في المنطقة المحيطة « بماستريخت » وهي جزء من فيلق فرنسي كان موضوعا اساسا تحت قيادة مجموعة جيوش الجنوب ثم حول الى هذا الموقع من قبل القيادة العليا الحليفة لوسط أوروبا بناء على الحاح عاجل من قبل قيادة القوات الحليفة لوسط اوروبا ، بعد المباحثات المكثفة مع الحكومة الفرنسية ، وتدخل واشنطن العاجل وذلك بتاريخ الثالث عشر من آب ، وعند

أول ضوء ليوم الخامس عشر من آب ، كانت هذه الفرقة الفرنسية ، في وضع مناسب ومتوازن ، مع انها لم تشتبك بعد مع العدو . وكان جناح الفرقة الايمن محميا من قبل قوة اميركية مؤلفة من لوائين معززين ومدعومين بوحدات اقليمية من جمهورية المانيا الاتحادية ، وأخذت تحتل خنادقها على طول غرب ــ شرق « دوريــن » .

أما مقر قيادة القوات الحليفة في وسط اوروبا «Hqafcent» زمن السلم، فكان غير بعيد عن « Brunssum » بالقرب من « دورين » ولقد أصبح الآن مهجورا . ومارست القيادة اعمالها من مقر قيادة ميداني ، يقع بالقرب من مدينة « ليبيج » ، وبدأت طلائع الفيلق الاميركي الجديد تصل تباعا الى منطقة « اخن» « Aachen » قبل فجر الخامس عشر من آب ، وكان قد اكتمل انزال معداتها الثقيلة في الموانيء الفرنسية .

والى الشرق مما أصبح الآن يعرف بلسان « كريفيلد » ، كانت ثلاث فرق « اثنتان منها بريطانيتان والثالثة المانية اتحادية » تقاتل وظهورها الى نهــر الراين ، ولكن نيرانها الموجهة الى جناح العدو ، لم تفلح في وقف تقدمه ، وعندما حاولت مجموعات من الدبابات القيام بمنــاورة لاستغلال تلك النــيران باءت محاولتها بالفشل أيضا . واستمر العدو في تقدمه نحو الجنوب ، وان كــانت جميع المحاولات السابقة قد اسهمت في عرقلة تقدمه بوتيرة عالية . كان يوم الرابع عشر من آب عصيبا على الجانب الآخر (الشرقي) من نهر الراين . فقد صممت مجموعة جيوش الشمال على الصمود في المنطقة الواقعة جنــوب نهر الليب وبأي ثمن ، وذلك من أجل اعطاء الوقت الكافي للتمهيد للهجوم الذي يجري تحضيره الآن ، كي يبدأ في صباح اليوم التالي بداية حسنة . لم يكن الامر سهلا على كل حال في وجه مقاومة قوية ضاغطة من الشمال ، لكن المعركة الدائــرة حاليا على ارض جمهورية المانيا الاتحادية ، وبجنود المان معظمهم من الجيوش النظامية والاحتياطية ، كانت تعرف في كل مكان بانها ذات أهمية حاسمة بالنسبة الى مستقبل المانيا لتبقى حرة . كانت معركة « الليب » فوق كل شيء وقفــة

سجلها الالمان لاتاحة افضل فرص النجاح للقيام بالهجوم المعاكس الذي تستعد للقيام به تشكيلات تابعة لست بلدان مختلفة تشترك في الحرب الدائرة . وبحلول الظلام كانت محاور تقرب الوحدات الحليفة لاتزال واضحة وظلت كذلك حتى الفجر .

وخلال الليل كانت الحدود بين مجموعتي الجيوش الشمالية والوسط قد جرى تقديمها باتجاه الشمال ، بحيث أصبحت تمتد من« كوبلينز » الى«هانو فر» . ولئن استعرضنا مجريات العمليات في هذه الايام القليلة من منتصف شهر آب بشيء من التفصيل لا مبرر له في كتاب محدد الموضوع كهذا . فلسبب بسيط جدا: وهو أن الخامس عشر من آب يوم حاسم ونقطة تحول رئيسية في معركة أوروبا بكاملها .

اننا في هذه الايام ، وعندما نعود بالزمن الى ألوراء ، سنجد ان ما حدث لم يكن يحدث ــ لو ان الحلف قام بالقليل من التحسين على دفاعاته خلال السنوات الخمس الماضية ، كما كان الحال بالنسبة للسنوات الضائعة التي سبقتها ــ يبدو ذلك واضحا تماما ويا للاسف . كان الروس سيشعرون بالإمان عند خط توقفهم على نهر الراين ، وكان التحالف الغربي سيتحول الى خراب ، ولكانت عملية مسح جمهورية المانيا الاتحادية بقسوة ووحشية قد استؤنفت من قبل ، ولكانت آمال الشعوب الخاضعة للاتحاد السوفييتي (في داخله وخارجه) في الحرية والتحرير ستذبل وتموت تحت غطاء من اليأس بعد ان كانت تلك الشعوب قد تحركت عند نشوب الحرب . ان ما اتخذ من اجراءات واعمال داخل حلف الاطلسي « ناتو » لم يكن كافيا لمنع الحرب ، وعلى الرغم من ان الروس قد جروا الى حافة الحرب نتيجة الخطأ في الحسابات ، أو لسوء الحظ أيضا ، علما ان الوقت لم يكن الى جانبهم ، فانهم لم يمتنعوا عن غزو أوروبا من خلال ادراكهم الواضح ان الغزو لابد سيفشل . بل على النقيض ، فان «الغزو» على الرغم من كونه أقل جاذبية من قبل ، لايزال امرا لايهون فقده وخاصة وانه قد لايتكرر ثانية ، وانه فرصة قد لاتعوض مرة أخرى ، أما ما قام به الحلفاء

الغربيون بدافع الثقة والتصميم عند بعضهم على الاقل ، فقد كان كافيـــا للتخفيف من حدة الضربة عند تلقيها ولمنع وقوع حل عسكري سريع تعتمد عليه روسيا السوفييتية لاتاحة الوقت والفرصة لاستغلال بعض الموارد والامكانيات المتوفرة في الغرب ، واخيرا لاحداث تفجيرات في البلدان التابعة له التي ستؤدي في النهاية الى انهيار الاتحاد السوفييتي من الداخل حسبما كان متوقعا .

وعند منتصف يوم الخامس عشر من آب ، وفيما كانت وحدات الفيلق الاميركي الجديد المجهزة حديثا بشكل جيد ، والمستعدة للقتال ، تسارع عبر فرنسا لاخذ مواقعها تحت مظلة جوية هائلـة على الطـرق البرية والسكـك الحديدية ، وبينما كانت السفن المحملة بالعتـاد تنتظم في قوافل بحرية عبـر الاطلسي ، وردت الانباء الجديدة الى قيادة قوات الحلفاء في وسط أوروبا ، ان هجوم جيوش الشمال قد انطلق وانه يحرز بعض التقدم .

ولاول مرة كانت القوات الارضية الحليفة ، تعمل في ظل ظروف التفـوق الجوي المحلي . وخصص الجزء الكبير من الطيران الاحتياطي التابع للقـوات الجوية التكتيكية الحليفة في وسط اوروبا الى القوات الجوية التكتيكية الحليفة الثانية،أما مجموعتا جيوش الوسط والشمال فكان دعمهما يتم بماتبقى من القوات الجوية التكتيكية الرابعة وبقايا الخامسة والقوة الجوية التكتيكيـة الفرنسية « Air F. F. » . وكانت هذه الاخيرة قد سمح لها مؤخرا بدعم القوات الجوية الحليفة ، بناء على اوامر من حكومتها . وفي الوقت الحاضر ، وبشكل مبدئي ، كان ذلك كافيا بالنسبة للجنوب ، حيث ان معركة الهجوم المعاكس الرئيسيـة قد دارت رحاها في الشمال . أما دور مجموعة جيوش الجنوب فانه لابد قادم .

وقع مطار « بريمن » في قبضة القوات الاميركية المحمولة جوا . ونقل اليه بعض الوحدات المحمولة جوا تحت غطاء من الدفاعات الجوية (جو ــ جو) التي اثبتت فعاليتها . كان الهجوم الرئيسي ، الذي كانت تقوم به ثلاث فرق ، وفرقتان ستلحقان فيما بعد ، يتحرك عبر نهر الليب قبل أول ضوء ، ترافقه اجراءات خداعية وتمويهية تشير الى ان الهجوم سيقع بعيدا نحو الغرب .ومن

الامور التي عملت على تقديم العون الكبير الى هذا الهجوم ، ظهور مجموعات المغاوير الالمانية « Jagd Commandos » المجهزة جيدا ، ووحدات الخدمة الجوية الخاصة البريطانية « SAS » التي تركت في الخلف في « توتبرغر » قبل عشرة أيام ، وقامت وحدات الخدمة الجوية الخاصة البريطانية تلك بهجوم ناجح باهر على مقر قيادة فرقة سوفييتية ، كان من شأنه احداث الارتباك في قوات حلف وارسو ، الى حد ان الوحدات الامامية من فرقة ألمانية ديمقراطية، عادت مرة ثانية الى « اوزنابروك » بحلول ليل الخامس عشر من آب .

وقد تكون هذه الطعنة الخاطفة الحليفة مفيدة وسارة ، لكنها لايمكن ان تكون نصرا على قوات حلف وارسو الغازية ، التي اعلن عنها من قبل الصحافة الغربية وشبكات التلفزيون في جميع انحاء العالم وخاصة في الولايات المتحدة الاميركية ، مما سبب الضيق والانزعاج لرؤساء اركان القوات المسلحة الحليفة . وفي غير هذا المجال ، لم يتغير الكثير على الوضع العام ، ففي النرويج مثلا ، كانت قوات الحلفاء في شمال اوروبا التي لم تكن تتلقى من الدعم الجوي ، الا القليل، من قبل طائرات تنطلق من قواعدها من المملكة المتحدة ، ومن حاملات الطائرات التي تعمل شمال جزر الفاروز ، ولكن بصعوبات كبيرة اذ كانت لاتزال تزعج وتضايق تقدم القوات السوفييتية في اراضي « ترومسو » و « نوردلاند » الصعبة جدا . أما الساحل الممتد من « سكاجراك » الى مفتاح هولندا الساحلية والاراضي الداخلية فيها على بعض العمق ، فكان لايزال واقعا تحت احتلال قوات من حلف وارسو بقيادة بولونية . اما الدانمارك فقد تم اجتياحها قبل اكثر من اسبوع مضى ، فيما اعلنت هامبورغ مدينة مفتوحة . على الرغم من ان الروس تجاهلوا هذا الاعلان ، فقد تركت لوحدها وتجاوزتها القوات على ان يتم الالتفات اليها في وقت لاحق ، كما جرت العادة . اما حامية برلين التي احاطت بها وحدات من الفرق المسحوبة من القتال من جمهورية المانيا الاتحادية فقد تركت وشأنها بازدراء واحتقار . كان حوالي عشرين فرقة سوفييتية تغادر المناطق العسكرية في البلطيق والكاربات في الاتحاد السوفييتي ، وتتحرك لتكون

النسق التالي باتجاه مسرح العمليات ، خلف تلك الفرق التي خرجت من قبل من « بيلورسيا » لتتبع مجموعات القوات السوفييتية العاملة في المانيا .

وفي الجنوب نحيت النمسا الصغيرة جانبا بقسوة ، وتم عزلها من المعركة ، وانضم لواءان او ثلاثة الوية جبلية نمساوية للقتال الى جانب الفرنسيين والالمان في « بافاريا » . ولا يزال المتدقمون في السن في « غراز « Graz » » يدركون كيف كانت الامور خلال الاحتلال الروسي سابقا . وتصدعت القوات الحليفة في جنوب اوروبا التي كانت قيادتها الاقليمية قد انتقلت من ايطاليا الى اسبانيا ، واصبحت سيطرة السوفييت على شبه الجزيرة الايطالية كاملة ، في حين استمرت الحرب الاهلية في يوغوسلافيا وجرى عزل جنود البحرية الاميركية « المارينز « Marinez » في « سلوفينيا » لم يعد بالامكان امدادهم سوى عن طريق الجو . أما اليونان فكانت تحمي حدودها مع بلغاريا ، لكنها كانت تتعرض في الوقت نفسه الى ضغط جزئي سوفييتي من الشمال ، لكن دون ان تصبح هدفا رئيسيا لهجومهم . كما تعرض القسم الآسيوي من تركيا الى ضغوط سوفييتية من الشمال الا انها لم تصبح للآن هدفا رئيسيا ، وكان اسطول البحر الاسود السوفييتي قد عبر المضائق من قبل . وقد اكتفى الاتحاد السوفييتي بهذا النشاط حاليا في جنوب شرق أوروبا .

وعلى ذلك لايمكن القول ان الموقف العام للحلفاء هو موقف المنتصر .

وفي المنطقة الوسطى نفسها بلغ عدد الفرق التي زجها حلف وارسو في المعركة حتى الآن ، اربعين فرقة ، منها خمس عشرة فرقة مدرعة ، ومع ان بعض هذا الحشد الهائل قد تعرض للهجمات الجوية والصاروخية الحليفة فان أقل من نصفه اشترك حتى الآن في قتال العدو على الارض . مع ذلك ، واستنادا الى أي معيار ، تبقى هذه القوات فعالة من حيث القوة النارية ثلاث أو أربع مرات أكثر من مجموع القوات الحليفة المحتشدة في مواجهتها . وحتى الآن مازال حلف وارسو يحتفظ بالمبادهة الكاملة . وبالرغم من ذلك ، كان الهجوم الحليف في يوم الخامس عشر من آب فاتحة تغييرات بالغة الاهمية . فأولا خلق وضعا عملياتيا جديدا في المناطق

الامامية . فقد فرض على العدو الآن ، ان يوفر الامن لجناحيه ولمؤخرته ، قبل استئناف الزخم الكامل لحركته الامامية التي تقضي الحصافة وبعد النظر الحد منها ، ولو في الوقت الحاضر . وكان من الممكن ولو لوقت قصير مواجهة التحدي العملياتي للقيادة العليا السوفييتية والسيطرة عليه ، فان النتائج السياسية لما كان يجري من احداث كان من الصعب مواجهتها والسيطرة عليها على الرغم من ان العمل العسكري يوم الخامس عشر ينظر اليه على أنه كان عاملا محرضا .

ان الخطة السوفييتية التي تعمل لانهيار المنطقة الوسطى لحلف الاطلسي مع احتلال المانيا الاتحادية ، وتفكيك حلف الاطلسي قبل ان يتمكن الغرب من تعبئة موارده المتفوقة ، أو يتوصل الحلفاء الغربيون الى اتفاق بشأن استخدام الاسلحة النووية . ان تلك الخطة اخطأت خطأ فادحا ، فالتدخل الفرنسي القوي لم يكن موضع ترحيب كما لم يكن متوقعا . ولما كان الوضع الدفاعي لحلف الاطلسي الذي طرأت عليه تحسينات خلال السنوات القليلة السابقة ، كافيا لجعل موضوع التغلب عليه امرا صعبا . من جهة ثانية كان التفوق في التقنية الالكترونية الذي يتمتع به الحلفاء ، وفي طليعتهم الولايات المتحدة الاميركية، واتقان استخدامها على أرض المعركة صدمة بغيضة لحلف وارسو، وقد حال ذلك دون اخماد الدفاعات المضادة للدروع ، وتلك المضادة للطيران وهي الدفاعات التي يعتمد على تدميرها النشاط التكتيكي السوفييتي سواء على الارض أو في الجو. كما اعاقت الى حد كبير عمليات التشكيلات المتحركة التي كان من المتوقع قياسها بمناورات في العمق ، من خلال التأثير المرير على مواصلات العدو ، هذا التأثير الذي جعلها تصل في بعض الاحيان الى حد العدم .

كانت عمليات تعاون الصنوف التي اعتمدت عليها العقيدة القتالية للجيش الاحمر بعيدة عن تحقيق النجاح . وقد استطاع الحلفاء ان يعملوا من خلال الثغرات والفرج بين التشكيلات والوحدات في هذه الطريقة . فيعزلون الوحدات عن بعضها بعضا ، تلك الوحدات التي تكمن قوتها في اعتماد كل منها على الاخرى في سد هذه الثغرات والفرج ، ولم يتح للعناصر الرئيسية الاربعة التي تؤلف

« مفهوم تعاون مختلف صنوف الاسلحة » ونعني بذلك القدرة على المناورة ، واخماد النيران ، والدفاعات العضوية والدعم القتالي ، ان تعمل معا بشيء من التنسيق المطلوب .

ولهذه الاسباب ، ولاسباب عدة اخرى ، قصر البرنامج الاستراتيجي كثيرا الى درجة الحؤول دون قيام بناء قوة عسكرية غربية كبيرة . واستمرت عمليات التعزيز بالجنود عن طريق الجسر الجوي الاميركي ، ولم تستطع البحرية السوفييتية منع وصول الاعتدة الثقيلة عن طريق البحر الى الاماكن المخصصة لها . وذلك امر لم يكن في الحسبان ، وكان مزيد من التعزيزات لاتزال في طريقها الى مناطقها المحددة وكان لابد من الناحية العسكرية البحتة طرح السؤال التالي: ما الذي يمكن كسبه من الاستمرار في تنفيذ خطة ثبت فشلها ؟

اما الآثار السياسية للنجاح العسكري المنقوص في المانيا ، فكانت ذات تأثير بعيد المدى . ولم تهزم القوة العسكرية في حلف وارسو ولكن ما حدث على كل حال كان كالهزيمة في أهميته . ولقد صور الجيش الاحمر على انه الجيش الذي لايقهر ، ولئن ساد الشعور بأن الجيش الاحمر محدوذ بقوته ، فان الامل أخذ يتعاظم في الاماكن التي ظهرت فيها بين الحين والآخر محاولات انفصالية جريئة، ومع انها لم تكن مجدية ، الا أنها ساعدت على تحرير بعض العسكريين أيضا من هذا الولاء الاعمى للجيش الاحمر .

وصحيح ان العصيان المدني لايزال بعيدا لكن بذوره قد تم زرعها هناك . ومع الانتشار السريع لاخبار عدم نجاح هجوم حلف وارسو في جمهورية المانيا الاتحادية بالرغم من الرقابة الصارمة على الانباء في ماوراء الستار الحديدي ، فقد تصاعد منذ أواسط شهر آب ومابعد نشاط الانصار ، واتسع نطاق التخريب في مواصلات السكك الحديدية في البلدان التابعة ، الامر الذي اخذ يسبب مشكلة متعاظمة على خطوط مواصلات قوات حلف وارسو ، وقد حدث هذا اولا في بولونيا ، حيث كان لذلك تأثير كبير من وجهة نظر الامداد العسكري ، واخذ

الشيء نفسه يحدث في تشيكوسلوفاكيا ، ثم امتد في هنغاريا ورومانيا ، لكن على نطاق أضيــق .

وأخذت المساعدات الحليفة التي كان يجري اعدادها منذ اشهر ، طريقها الى قوات الانصار على الفور ، وتم احياء الاساليب التكتيكية التي عرفت خلال السنوات الاخيرة من الحرب العالمية الثانية . وتم تجنيد الكثير من مجموعــات المغتربين وخاصة من البولونيين والتشيك وبنسبــة أقل من الهنغاريين تلــك المجموعات التي تقيم في الولايات المتحدة الاميركية . ثم من البولونيين المولودين لجنود سابقين في بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية والذين اقاموا هناك . وقد قطعت بعض المفارز من احجام معينة مرحلة متقدمة من التدريب ، ويجري الآن ، نقلها جوا ، وانزالها سرا في بلدانها الاصلية ، مع اسلحتها وذخائرهــــا ومعدات اتصالها مع امداداتها ، وكان واجبها الرئيسي بالاضافة الى انعــاش الآمال بخلاص قريب ، هو التدخل والى ابعد حد لتعطيل وسائط المواصــلات البرية على الطرق والسكك الحديدية .

ولقد برهن الجسر الجوي الاميركي عن امكانية التعويض عن عناصر التشكيلات العسكرية . كما وقد نظمت الخطوط الجوية السوفييتية « ايرفلوت » منــذ سنوات لممارسة مهمة التعزيز بالجنود ، وعلى القيام « بالتمارين » التي سبقت الغزو . وكان في الامكان اجراء حركة شحن ونقل للاحمال الثقيلة بواسطــــة الطائرات ، لكن نقل الذخائر والوقود لم يكن امرا سهلا ، ومثل ذلك ينطبق على المعدات الثقيلة والدبابات والمدافــع ذاتية الحركة والعربات من طـــراز « BMP » التي كانت ضرورية للتعويض عن الخسائر اثناء المعركة . والاكثر صعوبة من ذلك نقل تشكيلات كاملة مدرعة او عربات للمشاة المحولة ، بهدف تبديل تشكيلات خارجة من المعركة بسبب الخسائر التي لحقت بها . وبما ان الطرق البرية تعتبر وسيلة مواصلات لابأس بها ، الا ان السكك الحديدية ظلت واسطة النقل الاساسية للتشكيلات المقاتلة على الرغم من التلف والاستهــلاك الذي قد تتعرض له المعدات .

لقد أجريت خلال السنوات القليلة الاخيرة تحسينات كبيرة على نظام سكك الحديد في حلف وارسو واصبح عرض السكك الحديدية موحدا ، وكذلك تم توحيد المعدات ، كما ضوعف عددها ، واجريت تحسينات عليها . وبقيت مسافات طويلة من الطرق الدائمة معرضة لاي تدخل ، وغير آمنة الا في ظل حراسة مستمرة ومشددة ، الامر الذي كان يشكل استنزافا للقوة البشرية العسكرية . وأصبحت هجمات الانصار على المقاطع الطويلة من السكك الحديدية مشكلة كبيرة متعاظمة ، تمتص من اجل الحراسة والحماية اعدادا كبيرة من التشكيلات كان يجب توجيهها الى الجبهة . كان الاتحاد السوفييتي ، يتمتع دائما بفوائد خطوط مواصلاته القصيرة نسبيا ، مابين ساحة العمليات المحتملة في أوروبا ، والقواعد في أرض الوطن . أما الولايات المتحدة الاميركية فكان عليها ان تجتاز المحيط الاطلسي ، حيث أن المسافة أطول ، والنقل غير مأمون في ناقلات بطيئة وغير مأمونة ولا مجدية أحيانا . وقد عدل النقل الجوي الوضع ، وحدّ من المصاعب التي كانت الولايات المتحدة الاميركيةتجابهها دون ان تقوى على ازالتها كليا . وحاول الاتحاد السوفييتي دائما استغلال هذا الوضع « بنجاح يلقي ضوءا على سذاجة بعض السياسيين الغربيين » في كل مباحثات حول التخفيض المتبادل للقوات ، ولا شك ان فوائد الطرق البرية لاتزال تفضل على الطرق البحرية . لكن الاعمال التخريبية من قبل الانصار التي كانوا يقومون بها في وجه اجراءات القمع والانتقام العنيفة ، أخذت تقلل من قيمةهذه الفوائد.

يضاف الى ذلك، ووفقا للمعايير النهائية ، فانحجم وثقل« دونالتحدثعن التكاليف » كل ماهو مطلوب وخاصة الوقود والذخيرة للمحافظة على مستوى من الفعالية بالنسبة لجيش في عمليات ميدانية ضد خصم مشتابه في تجهيزاته، كان شيئا باهظا جدا . ولا ريب انه حقق قفزة من حيث الكمية منذ الحرب العالمية الثانية . ولقد اظهرت ذلك بوضوح الحرب في الشرق الاوسط خلال السبعينات ، وان يكن على نطاق صغير ـ ولم يعد ممكنا ، الاستمرار في العمليات الحربية لعدة اشهر في ظل المعدلات العالية التي يتم فيها استهلاك ونفاذ المخزونات المختلفة ، ولم تعد قدرة الجيش تقاس بعدد افراده او بعدد معداته ،

وقد تصبح التكيلاشت ذات الاعداد الكبيرة عبئا اكثر منها فائدة ، الا اذا ابقيت تعمل بفعالية ، عن طريق تأمين تمرينها اثناء المعركة .

كانت عقيدة القتال السوفييتية ، أيا كانت الاصول التي أخذت عنها ، صحيحة جدا في ظروف الثمانينات . كانت تقضي بالمبادأة بعمل هجومي شامل وعنيف ، يعقبه الاستيلاء على هدف هام . وتستغل من بعد المكاسب العسكرية في سبيل تحيقق أهداف سياسية . وكانت السرعة هي كل شيء ، والنتيجة الطبيعية في حال فشل الوصول الى الهدف في الوقت المناسب ، ينجم عنه حتما عودة لتقييم العملية ، بحيث يبدو الاصرار على نفس الهدف مسلكا أقل حكمة.

ولم تحرز قوات حلف وارسو في عمليات المنطقة الوسطى حتى في ذروتها في لسان «كريفلد» من تقدم أبعد من مدينة « جيولش ». أما الفيلق الاميركي الذي وصل حديثا والمجهز بالاعتدة من قوافل الفرسان للتدخل السريع قد استكمل بناؤه على الجناح الغربي ، اعتبارا من السادس عشر من شهر آب ، الامر الذي يشكل تهديدا يؤدي بالاضافة الى هجوم مجموعة جيوش الشمال باتجاه الشمال ، الى وقف تقدم القوات السوفييتية واجبارها على التحرك لاتخاذ موقف دفاعي « الامر الذي لايناسب الجيش الاحمر » أو الانسحاب .

وفور وصول القوات الاميركية الى المنطقة أعفيت الفرقة الفرنسية التي كانت انزلت في منطقة « ماستريخت » من متابعة القتال وذلك بتاريخ الثالث عشر والرابع عشر من آب ، ثم الحقت بما تبقى من مجموعة جيوش الجنوب التي كانت آنذاك في وضع الاستعداد للقيام بالهجوم المعاكس باتجاه الحدود التشيكوسلوفاكية بمساعدة القوات الجوية الحليفة . ثم بدأ الهجوم المعاكس بتاريخ السابع عشر من آب ، في هذا الوقت كان هجوم مجموعة جيوش الشمال باتجاه « بريمن » قد استرد « توتبرغ ولد » ، ولكنه لن يتقدم الى أبعد من ذلك في مواجهة الدفاعات الجانبية القوية لقوات حلف وارسو التي كانت تتحرك الى الخلف بهدف اعادة تجميعها ، تلك الحركة التي يصعب وصفها لانها بالواقع حركة تراجع « اعاقة وانسحاب » .

لقد استعرضنا بشيء من التفصيل الظروف التي أدت الى صرف النظر عن تنفيذ الخطة الاساسية لحلف وارسو والتجمع الذي لحق ذلك في اتجاه الخلف ، ويمكن تخطي أحداث الاسابيع القليلة التالية بسرعة أكبر . ولكن قبل ان نستعرض بعض التعليقات على ادارة المعركة من قبل القائد الاعلى للقوات الحليفة في اوربا . كان القائد الاعلى مصمما تماما على تجنب استخدام الاسلحة النووية الميدانية اذا استطاع الى ذلك سبيلا ، لاعتقاده ويشاركه في ذلك الرئيس الاميركي ، انه لن تكون لذلك نتيجة غير تصعيد القتال تصعيدا سريعا ليصبح كابوسا لتبادل نووي استراتيجي غير محدود ، نتيجة لايمكن الا ان تكون كارثة على العالم . وكان مصمما أيضا ، بوصفه قائدا لمسرح العمليات على الاحتفاظ بقدر ما يستطيع بقوات الاحتياط المتواضعة التي تؤلف الامكانية الوحيدة المتبقية للتأثير على سير المعركة . كان في معضلة حقة شبيهة تماما بتلك التي أسفرت عن انزعاج كبير خلال مناقشة « الدفاعات الامامية » عن جمهورية المانيا الاتحادية . كانت المسألة تدور حول صد قوات مهاجمة متفوقة ، دون التخلي عن الارض وذلك اما بزج قوات اضافية او باستخدام الاسلحة النووية.

كان القادة المعاونون للقائد العام للقوات الحليفة في أوروبا يلحون على تزويدهم باحدى الامكانيتين « الاحتياط ، او الذرة » . كانت الحاجة الى تخفيض الضغط عند النقاط الحيوية عن طريق الهجوم المعاكس مسألة ضرورية جدا . وقرر وفقا لتقديره الخاص ، المغامرة بالتخلي عن قوات الاحتياط لهذا الغرض قبل تأمين التشكيلات البديلة . ولعل ما يبرر اتخاذ هذا القرار ، هو قرب وصول قوافل التعزيزات القادمة عبر الاطلسي ، ويمكن ان نضيف ان ذلك القرار قد دعم كثيرا موقفه الرافض للضغوط المتواترة من اجل استخدام الاسلحة النووية .

وينشغل المحللون في مناقشة السياسة البحرية السوفييتية في السبعينات ونورد في الملحق رقم /٢/ تعليقا حول ذلك . ومن الواضح بهذا الصدد انه لولا البحرية الاميركية ومساعدة الدول الاوروبية الحليفة لما كانت هناك أية تعزيزات

للقيادة الحليفة في اوروبا سوى التعزيز بالتشكيلات الخفيفة عند بداية الحرب، وايضا كان تحرك القوات الى مسرح القتال وايصال المعدات الرئيسية سالمة كان عملا مستحيلا بدون القوة الجوية الحليفة . وفي غياب توقع وصول التعزيزات المبكر كان على قائد القوات الحليفة في اوروبا ان يختار بين تسليم آخر عنصر لديه للتأثير في المعركة ، او استعمال الاسلحة النووية الميدانية وبذلك يعرض العالم الى كارثة شبه أكيدة . ولولا الاعمال البطولية والقتال الضاري الذي قامت به القوات الاقليمية الالمانية بالاضافة الى البلاء المدهش الذي ابلته قوات الجمهورية الالمانية الاتحادية . لولا كل ذلك ، لما تخطى الهجوم المعاكس الحليف خط الانطلاق ، وأيضا لولا قوة ومرونة القوات الجوية التكتيكية الحليفة ، واستخدامها الجيد لكانت معركة المنطقة الوسطى قد فشلت قبل الشروع بها. على ان سلسلة المحاذير والمساوىء كثيرة كانت بالتأكيد أشياء على وشك الوقوع.

لم تكن الحركة التراجعية لقوات حلف وارسو في جمهورية المانيا الاتحادية حركة جيش منهزم . كانت قوات حلف وارسو على الرغم من تعرضها المستمر لضغط قوات الحلفاء التي كانت قوتها تزداد باضطراد وتقوم باعمال الخرق حيث ما امكن ، ولا تعدم الوسيلة للحفاظ على التماس الذي يعتبر ضمانا ضد هجوم نووي ، ماتزال قادرة على تحقيق التفوق المحلي في الوقت الذي تشاء ،والاحتفاظ بدرجة عالية من السيطرة التكتيكية على الحد الامامي لساحة معركتها . لقد فشلت هذه القوات في تحقيق ما انطلقت للقيام به ولايمكن خلق الفرصة المواتية من جديد . ولم تكن هناك أية فائدة من البقاء في مواقعها ، وسيزداد الوضع خطورة وصعوبة اذا ما حاولت تلك القوات ذلك . لقد كان الانسحاب هو اكثر السبل حكمة .

نحن معنيون هنا فقط بالموقف العسكري الذي يجابه القيادة الحليفة في أوروبا ، اما التطورات السياسية وعلى الاخص تلك التي كانت تشغل بال دول حلف وارسو ، والتي ستصبح على درجة كبيرة من الاهمية في مرحلة لاحقة فتلك مسألة أخرى . وقد جرى الحديث عنها مفصلا في الفصل السادس والعشرين .

بقيت منطقة القوات الحليفة في شمالي أوروبا « Af North » وكل الدانمارك وشمال النرويج محتلة ، واجرى السوفييت تغييرات طفيفة على العناصر الادارية مع ما يصحبها من عناصر الامن ووحدات الحراسة وهي لحسن الحظ كانت تشكل كل ماسبق ان دخل ايطاليا في الايام القليلة الاولى من شهر آب الى خارج منطقة القوات الحليفة في الجنوب « Af South » . وفي نهاية الشهر تركت الحكومة الايطالية التي يسيطر عليها الشيوعيون وشأنها لتتولى ماتستطيع ان تتوصل اليه من مصالحة مع حلفائها السابقين في حلف الاطلسي « ناتو ».

كان الانسحاب المبكر الذي قامت به الفرق السوفييتية في لسان كريفيلد في المنطقة الوسطى ، على أثر الهجوم المعاكس الذي قامت به مجموعة جيوش الشمال « Northag » في الخامس عشر من شهر آب، بداية حركة انسحاب منظم على طول جبهة قوات حلف وارسو « باستثناء اقصى الجنوب » تحت سيطرة سوفييتية تكتيكية حازمة . وقام تحشد من اربع فرق سوفييتية شمال « اوزنابروك » في مواجهة الجنوب ، بابقاء الباب مفتوحا في الجنوب أمام تشكيلات قوات حلف وارسو المنسحبة باتجاه الشرق من هولندا ومن أقاصي المناطق الغربية من جمهورية المانيا الاتحادية ، فيما كانت الهجمات الجوية الحليفة وضربات الفيلق البريطاني الثاني تلاحقها باستمرار . أما الجسر الجوي حول « بريمن » الذي كان يشكل نصف الباب الشمالي لمجموعة جيوش الشمال فلا يزال في قبضة العدو ، ولا بد من انقضاء بعض الوقت قبل ان يصبح الوصول اليه عن طريق البحر ممكنا ، وخاصة بعد ازالة حقول الالغام المحيطة به . وعلى الرغم من استمرار الضغط من الجنوب ، الا ان الثغرة بين « توتربرغروالد » وساحل بحر الشمال لم تغلق تماما . وبذلك ، استطاعت تشكيلات قوات حلف وارسو التحرك خلالها باتجاه الشرق ، خلال الليل غالبا . وقد الحقت نيران مدفعية قوات الحلفاء خسائر فادحة بها . وكذلك القوى الجوية لقوات حلف الاطلسي . على الرغم من ان القوات الجوية لحلف وارسو ، استطاعت بين الحين والآخر من تحقيق بعض التفوق الجوي المحلي . كما استطاعت ستارة من الفرق المدرعة وفرق المشاة المحمولة السوفييتية التي كانت تقاتل بعناد ان تقيم جبهة

دفاعية ، وأن تبعد بالتالي تهديد قوات الحلفاء لحركة مؤخرتها . كما اسهمت في ذلك الهجمات المعاكسة المحلية التي كانت تقوم بها تلك الفرق السوفييتية . ونجحت هذه الاعمال في احتواء التهديدات التي قامت بها قوات الحلفاء وخفضت من الضغوط الموجهة من الجنوب .

كان الحاق هزيمة بتشكيلات قوات حلف وارسو هدفا ثانويا بالنسبة الى هدفهم الآخر ، الا وهو اخراج هذه التشكيلات وبالسرعة الممكنة من اراضي جمهورية المانيا الاتحادية وبأقل ما يمكن من الخسائر والدمار الذي لحق اجناب قوات الحلفاء نفسها . واستمرت مجموعة جيوش الوسط ومن نقاط خط فصلها مع مجموعة جيوش الشمال ومن خط يمتد باتجاه الشمال الشرقي عبر « هايلدشيم » بالضغط وبعنف مستمر ، على تشكيلات قوات حلف وارسو التي كانت تتحرك باتجاه الشرق حتى نقاط خطوط فصلها مع مجموعة جيوش الجنوب ولكن دون ان يتحول ذلك الضغط الى معركة رئيسية . وفي الثامن عشر من آب ، خلت منطقة مجموعة جيوش الوسط ، من قوات حلف وارسو ، وحتى غرب خط الحدود على كل حال كان واضحا ، ان أي تقدم لقوات الحلفاء عبر خط الحدود مع جمهورية المانيا الديمقراطية سيلقى حتما مقاومة شديدة ، وكانت الاوامر المعطاة الى قيادة القوات الحليفة في اوروبا واضحة وهي الثبات في الوقت الحاضر .

في الشمال من جمهورية المانيا الاتحادية ، كان الموقف اكثر تعقيدا فقد انقذت « بريمن » في العشرين من آب ، وفي الثالث والعشرين منه قامت قوات حلف وارسو بتعزيز مواقعها على كامل الحدود باستثناء منطقة « هامبورغ » حيث كان نهر « الالب » هو خط الجبهة . أما هامبورغ نفسها ، فقد احتلها السوفييت على الرغم من اعلانها مدينة مفتوحة منذ البدء ، غير ان قوات الحلفاء لم تحاول بعد استعادة المدينة من القوات السوفييتية ، وذلك لتفادي تعريضها الى الضرر ولحقن دماء المدنيين من سكانها أيضا .

وكانت عمليات الهجوم تدور فقط في أقصى الجنوب ، وتحرز تقدما فعليا ،

حيث استطاعت مجموعة جيوش الجنوب مع الفيلق الفرنسي الثاني ، والفيلق الالماني الثاني ، وقرابة الفرقة من القوات النمساوية ، وجميع هذه التشكيلات كانت تحت قيادة فرنسية ، مدعومة بحشد كبير من القوات الجوية التكتيكية الحليفة ، اجتياز خط الانطلاق بين « نورنبرغ » و « ميونيخ » بتاريخ السابع عشر من آب متقدمة باتجاه «بيلسن» . وتحركت القوات الى داخل تشيكوسلوفاكيا في العشرين من شهر آب ، واخذت الآن تتقدم ولكن ببطء ولم يكن بين القوات التي كانت تواجهها قوات تشيكوسلوفاكية بل كانت فرقا تابعة للقوات السوفييتية من جيش الحرس الثامن ومن الجيش الثامن والثلاثين القادم من منطقة « كاربتيان » العسكرية .

وفي الحادي والعشرين من شهر آب ، تم ايقاف التقدم الجنوبي ولو مؤقتا وكان الجناح الايسر لهذه القوات يصل الى جنوب غرب « شيب » ، حيث كان ينتشر الفيلق الالماني الثاني . وعندها كان واضحا ان المجموعة الوسطى من تشكيلات القوات السوفييتية ، بدت قلقة من احتمال غزو جمهورية المانيا الديمقراطية من الجنوب . وان لديها أوامر مشددة ، بمقاومة أي غزو من هذا القبيل عند وقوعه . ويمكن القول ان الاندفاع الامامي الذي قامت به مجموعة جيوش الجنوب زعزع قوات حلف وارسو في المنطقة الوسطى لقوات حلف الاطلسي ، وساعد على تعجيل انسحاب قوات حلف وارسو عبر سهل الشمال.

انقضت ثلاثة اسابيع حافلة حتى الآن على صباح الرابع من آب ، حين استيقظ العالم ليجد نفسه في دوامة حرب كبيرة ، ولم يبق من أراضي جمهورية المانيا الاتحادية في أيدي العدو سوى جيب هام . ومع ان جمهورية المانيا الاتحادية ، مازالت منشغلة في الحرب ، الا انها تمكنت من الالتفات لاجراء احصاء اولي للخسائر والاضرار التي لحقت بها وبشعبها . كانت « بريمن » قد أصبحت خرائب ، اما « هانوفر » فقد اصيبت باضرار فادحة أيضا ، خاصة في جنوب المدينة وشرقها . ومن المحتمل الا تكون الاضرار في المدن الاخرى كبيرة ، استنادا الى سرعة العمليات في تلك المناطق . ولقد عانت كل من « كاسل » و « نورنبرغ »

و « ميونيخ » هي أيضا ويلات الحرب ، والحقت بها أضرار جسيمة كما لم تنج المدن الكبيرة في منطقة « الراين لاند »، الا أن برج كاتدرائية «كولن» قد نجا باعجوبة للمرة الثانية . ويمكن القول باختصار إنه قد أعلن تفادي وقوع ماهو أسوأ بكثير على الرغم من ان المستقبل لايزال غامضا ، وان السلام لم يلح بعد في الافق. وهكذا اخفق غزو قوات حلف وارسو لجمهورية المانيا الاتحادية وبذلك نجا حلف الاطلسي .

* * *

الفصل الثاني والعشرون

حرائق داخلية : مشهد عائلي في مجتمع تلفزيوني

بدأت الاعمال العدوانية في أوروبا منذ فترة حيث اتخذت فيها كل بلدان التحالف الغربي اجراءات متفاوتة ، وفقا لما تقتضيه حاجات واتجاهات كل بلد وذلك لمحو النتائج التي خلفتها السنوات الطويلة من استهانة الرأي العام بامكانية وقوع حرب جديدة .

ففي جمهورية المانيا الاتحادية ، اكثر البلدان تعرضا لويلات الحرب ، كان من الضروري ان يتم التحرك بذلك الاتجاه ، بحذر وبحيطة ، اذ لامفر من الحاجة لوضع ترتيبات اخلاء المناطق الامامية بالقرب من الحدود مع جمهورية المانيا الديمقراطية ، حيث يكون القتال الاولي شديدا ، مع الاخذ بالحسبان لحركة تدفق اللاجئين باتجاه الغرب وذلك بطريقة لاتمس بالثقة بسياسة الدفاع الامامي أو بالحماية والامان اللذين يوفرهما حلف الاطلسي . ولقد تم حقا عمل الكثير في هذا المجال باهتمام وموضوعية . كانت تدابير اخلاء الاطفال وخدمات الطوارىء تتمشى مع السياسة الرسمية التي كانت تشجع الناس على البقاء حيث هم في حالة الحرب الطارئة . وقد كان هناك تخطيط واقعي شامل لما يجب اتخاذه في حال فشل السلطات من عمل ذلك . فمعالجة التدفق الكبير من السكان من المناطق الامامية « ومعظمهم يستولي عليه الهلع في ظل الغارات الجوية » من حيث ادارة شؤونهم وتوجيههم واستقبالهم ثم توزيعهم والعناية بهم تبقى من المسائل الهامة والدقيقة معا . وان تطور الجيش الاقليمي بقياداته الاقليمية الثلاث ، ومناطقه العسكرية الخمس ، الذي قطع اشواطا ملحوظة من التقدم

منذ نهاية السبعينات وما بعد ، قد قدم بنية داعمة لعمليات خدمات الطوارىء. اذ اثبتت وحدات الاتصالات فيه والهندسة والشرطة والخدمات التي كانت تعمل بانسجام وثيق على الصعيد الاتحادي والاقليمي مع كل من الشرطة المدنية ومليشيات الحدود انها ذات قيمة لاتقدر بثمن ، وكلهم تحت قيادة تعكس الفعالية المعهودة للعسكرية الالمانية وفي السنوات نفسها ، حققت اجراءات الدفاع المدني تقدما ملموسا بما في ذلك بناء الملاجيء ومستودعات الطوارىء للاغذية والادوية ، وأماكن المواصلات والاتصالات ومصادر الطاقة المنيعة . وكان لزيادة هذه المخصصات في الموازنة الاتحادية وموازنة المقاطعات مايبررها حقا .

أما في فرنسا فكان الميل لاتخاذ مثل هذه الاجراءات والتدابير أقل منه لدى جمهورية المانيا الاتحادية وخاصة في مجال الدفاع المدني ، وكانت الحجة التي كان يقوم عليها النقاش ان ذلك من شأنه ان يمس بالثقة باستعداد البلاد للدفاع عن نفسها، واحداث التأثير الرادع. ويتضمن هذا الاستعداد بناء القدرة النووية الخاصة بفرنسا وتحت سيطرتها القومية « حقا لقد وفر هذا المنطق المال الكثير على الحكومة الفرنسية » .

على كل حال ، لم توضع القدرة الفرنسية النووية في الاستعمال وكان العنصر النووي في برنامج الدفاع متأخرا على لائحة الافضليات كما وضعتها حكومة الجبهة الشعبية . وحتى لو لم تضعه في هذا الترتيب المتأخر فان أي تراشق نووي متبادل بين فرنسا والاتحاد السوفييتي بدون التدخل الاميركي، فان فرنسا تظل هي الخاسرة . لقد تركزت الدعاية السوفييتية على هذه النقطة ، ولقد أوضح انه لن يكون هناك قصف على مناطق المدن الفرنسية ، ولكن أي ميناء أو هدف آخر يعمل للمصالح العسكرية الحليفة سيتلقى قصفا جويا دقيقا ومحددا . واذا ما ردت فرنسا ردا نوويا ، فسيؤدي ذلك حتما الى ان تتلقى المدن الفرنسية وابلا من الاسلحة الشديدة الدمار .

وفي الحقيقة جرت عمليات قصف سوفييتية تقليدية شديدة على الموانىء

وعقد المواصلات الفرنسية . وعلى الرغم من أن طيران حلف وارسو كان يضطر لاختراق مجال الجو الفرنسي وبالتالي نطاقات الدفاع الجوي ، خلال رحلاتـه فوق اليابسة على الارض الفرنسية في طريقه الى أهدافه ، فان الدمار الـذي كانت تحدثه الغارات على المجهود الحربي الحليف « في الموانيء الغربية خاصة» لم يكن كبيرا الى حد مخيف .

وبنفس القدر من التأخير والاعاقة وربما اكثر من ذلك قليلا ، فقد عملت الاضطرابات المدنية لتأخير متابعة الحرب في فرنسا بشكل غير مقبول نسبيا. لقد اسقطت الحرب مع الاتحاد السوفييتي الكثير من الاقنعة عن وجوه اولئك الذين يبشرون بالشيوعية الاوروبية في فرنسا ، كما هو الامر بالنسبة لايطاليا وغيرها من البلدان الاوروبية . فقد قامت فورا مظاهرات سلمية محضرة جيدا كـانت تجوب الشوارع ، وأدت هذه المظاهرات والاضرابات وأعمال التخريب والفوضى الى اشتباكات متكرر بين أنصار الشيوعيين وأنصار الديغوليين ، الامر الذي أرهق رجال الشرطة واقتضى في بعض الاحيان دعمهم من قبل رجال الجيش ، وقد رافق ظاهرة التخلف عن الالتحاق لاداء الخدمة العسكرية ارتفاع حاد في نسبة ارتكاب الجرائم الصغيرة . واخضع الغذاء والوقود على مختلف انواعـه الى التقنين الشديد ، عند الاعلان عن التعبئة العامة ولكن لم يجر التقيد بـه ، حيث لم يكن متوقعا الالتزام به . وعلى كل حال استكملت فرنسا استعداداتها للحرب دون هزات عنيفة تؤثر على جهودها هذه ، ويعود ذلك ، وبصورة رئيسية الى أن غالبية الشعب الفرنسي كانت تحبذ مقاومة المبادأة السوفييتية بالاعمال العـدوانيـة .

وكانت الاحوال في الاراضي المنخفضة (هولندا) مماثلة ، يضاف اليهـا الضغط الناجم عن خطر غزو وشيك لكل من بلجيكا وهولندا . ففي الحـرب العالمية الثانية كانت مقاومة الاحتلال في هولندا بطيئة في ظهورها وذلك بسبب وقوفهم مدة طويلة على الحياد في المشاكل الدولية. لكن المقاومة ، ومنذ وقفت على قدميها أصبحت ذات تأثير فعال . وعندما نشبت الحرب العالمية الثالثةكان

لايزال في هولندا عدد كبير من اولئك الذين يذكرون كيف كانت الامور في الماضي. وأخذت حركات المقاومة السرية تظهر للوجود فور اعلان التعبئة في البلاد . ومنذ ان اجتازت التشكيلات السوفييتية الحدود أحست بالمقاومة الهولندية العنيفة، وردت عليها التشكيلات بوحشية تفوق ماترسب في أذهان الهولنديين من اعمال النازية الالمانية في الماضي . ولعل من حسن حظ الهولنديين حقا ان هذا الاحتلال، الذي يقوم به عدو من نوع مختلف استمر لاسابيع قليلة فقط .

اما بريطانيا التي لم تكن في متناول الغزو والاحتلال فقد كانت لها ايضا مشاكلها الخاصة ، وفي الفصل الرابع « الرد المتيقظ في الغرب » وفي الملحقين الاول والثالث رواية عن الوعي المتنامي خلال السنوات السبع التي سبقت نشوب الحرب لحيقة الخطر السوفييتي الذي كان يتهدد التحالف الغربي ، والحالة المتردية التي وصلت اليها دفاعات المملكة المتحدة ، وأخيرا وضع البلاد المكشوف كرأس جسر للتعزيزات الاميركية باتجاه اوروبا . ففي مجال الدفاع المدني أدى ضغط الرأي العام المتزايد الذي بدأته هيئات غير رسمية مثل المتطوعين من أجل الطوارىء للحماية الوطنية « انظر الملحق الثالث » الى اجبار الحكومة المترددة على النظر في أمر التهديد نظرة جدية . وقد زيد في عام ١٩٧٨ انفاق الحكومة على الدفاع المدني زيادة كبيرة بمقدار مليونين في العام . او بما يعادل الواحد على عشرين مما خصص لهذا الباب قبل عشر سنوات خلت « ثم زيدت بشكل كبير حتى اقتربت في عام ١٩٨٣ من الارقام التي كانت عليها في عام ١٩٦٨ » . وقد ادى التشريع الخاص باحتياط الجيش « انظر الملحق رقم واحد » والذي ادخل نتيجة الضغط المستمر الذي قام به ضباط الشرطة في وزارة الداخلية الى اعادة انشاء ما كان يعرف بالاحتياط من المتطوعين الاقليمي الاضافي « Tavar 2 » من اجل القيام بأعمال حالات الطوارىء على المستوى القومي ، وذلك من اجل زيادة قوات الاحتياط عامة . وقد تضمنت التشريعات اللاحقة في عام ١٩٨٣ قانون الحماية المدنية « الطوارىء » الذي قضى بالتوسع في أعمال خطط الطوارىء على كل المستويات ، كما وأدخلت نظام الانذار المتعدد المراحل . وقد أدت التمرينات التي أجريت على المستوى القومي الى تحسن

واسع في الاجراءات واسفر عن استخلاص الدرس الواضح من أن القانون والنظام كفيلان بحل اصعب المشاكل .

ومن الواضح تماما انه لولا هذه الصلاحيات لوقعت بريطانيا بسبب الهجمات الجوية السوفييتية فيما يشبه الفوضى . ولم تطل هجمات الصواريخ أكثر من اسبوعين ، والى أن يبدي الاتحاد السوفييتي استعدادا بالمبادأة باستعمال الاسلحة النووية كعمل سياسي متعمد ، ويتقبل نتائج ذلك ، فان ظهور الصواريخ ذات الاندفاع الذاتي (البالستيكية) على شاشات التتبع الغربية يعتبر مغامرة خطرة وجنونية ويصبح جاهزا لتقبل الرد عليها . هذا وقد احدثت القنابل المحرقة والشديدة الانفجار التقليدية المزوجة بالمواد الكيمائية والمقذوفة من طائرات يقودها طيارون من مسافات خارج أمدية الاسلحة المضادة للطيران ، دمارا كافيا .

وكانت عمليات اخلاء النساء والاطفال وتقنين الاغذية والمحروقات واعادة العمل بخدمات الطوارىء وتنشيطها ، ولا مركزية الامور الادارية تجري بيسر وسهولة . وقد ارهقت هجرة المدن وخصوصا من مناطق « الميدلاند » والشمال باتجاه الغرب والجنوب السلطات المسؤولة على الرغم من الطاقات والوسائل الحديثة المتاحة ، كما تم خلال حركة الجموع المهاجرة مشاهدة ابشع اعمال العنف الغوغائي والاضطراب والنهب والسلب .

كان غياب القانون ، اشد ما يكون وضوحا في المدن . فكانت البيوت المهجورة تتعرض للسلب كما انتشر السطو المسلح في الشوارع وأصبح ظاهرة مألوفة حتى في وضح النهار . وهيأت الغارات الجوية الفرص المناسبة لارتكاب الجرائم مع ان الذين ادعوا تعرضهم لمثلها ، كانوا في مأمن اثناء وجودهم في الشوارع خلال فترات الانذار الجوي اكثر منهم بعد انتهائه . كان اعلان انتهاء الغارة الجوية ايذانا ببدء أعمال السطو والسلب والنهب من جديد . ومع ان

الحياة في تلك الاسابيع القليلة كانت شاقة بالنسبة الى العديد من الناس وخطرة بالنسبة لبعضهم الآخر ، فيما كان الموت والدمار في انتشار مستمر .

الا انه لايمكن القول حقا ان بريطانيا كمجتمع منظم تقترب من حافة الانهيار . وسارت الامور كما كانت في السابق. فقد كان الطقس جيدا ، والريف ممرعا ، والحصاد واعدا. أما الصناعة وسكك الحديد واستخراج الفحم فبقيت على ماكانت عليه من قبل مع أن الغاز الطبيعي من بحر الشمال كان قد قطع، وقليل من البترول كان يتدفق . كان التحرك صعبا ، لكن التقنين من الناس لم يلحق بهم ضرر الا قليل وكان توزيع الاغذية جيدا ، حتى في ظل ضغوط حركة اللاجئين التي كانت تتدفق من مناطق القتال : مارس الناس لعب الكريكيت والسباحة والتجديف وصيد السمك بل انه جرت بعض السباقات ، ولم تنته بعض العطل المدرسية ، مع ان بعض المدارس ، بعد انتهاء العطلة لن تفتح ابوابها في نفس المكان . وما زال الناس يميلون الى تمضية الجزء الاكبر من حياتهم اليومية مع التلفزيون أو من خلاله ، بل ربما ازداد ميلهم هذا أكثر من قبل . ولما كان التلفزيون وجها من وجوه الحياة فقد لعب دورا بالغ الاهمية خلال ايام الحرب ، كما ان الدور الذي لعبه خلال أحداث شهر آب عام ١٩٨٥ يستحق الدراسة عن كثب .

لقد فرضت الحرب رقابة فورية على شاشات التلفزيون في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الاميركية . وفي السنوات التي سبقت نشوب الاعمال القتالية، جرت مناقشات هامة وعديدة حول مدى الحكمة في تبني سياسة الرقابة المفتوحة على الرغم من المجازفة بفقدان فكرة الرأي العام بانباء التلفزيون الذي اعتبر ولمدة طويلة المصدر الرئيسي للانباء . لقد مسحت حقائق الحرب هذه الشكوك . ولم تعد واحدة من اشد المناقشات اقناعا بفرض الرقابة على اخبار الحرب العالمية الثانية صالحة في الوقت الحاضر « الحاجة لمنع العدو من الحصول على معلومات هامة بالنسبة له». لقد وفرت المركبات الفضائية السوفييتية بما تستطيع الحصول عليه من معلومات مفصلة صورة دقيقة وفورية لما كان يجري

أكثر مما يمكن اخذه من شاشات التلفزيون . ولو ان الخوف من اعلام العدو ، هو العامل الوحيد لكان يمكن الاقدام على مثل هذه المغامرة . لكن المغامرة التي لاتستطيع حكومة او زعيم عسكري في الغرب قبولها هي (التثبيط) الكبير للروح المعنوية لدى المدنيين اذا ما استمر عرض الثمن الباهظ الفظيع ، لمعاناة الناس من هذه الحرب ، ليلة بعد أخرى في بيوت الناس . كان لهذا العامل أهمية كبيرة في الولايات المتحدة الاميركية اكثر منها في المملكة المتحدة والقارة الاوروبية، حيث كانت الغارات الجوية تعرقل مشاهدة التلفزيون ، اذ كان الناس يضطرون خلالها للاختباء في الملاجيء والاقبية ، حيث لايستطيعون غالبا نقل أجهزة التلفزيون اليها . وهنا اثبت المذياع فعاليته كمصدر رئيسي للأنباء وتوجيهات السلطات . أما الحياة في القارة الاوروبية ، فقد استمرت طبيعية الى حد كبير وخاصة خارج المدن الرئيسية . وبقيت شاشات التلفزيون مركز الاهتمام ، ولهذا فان السلطات تبنت منذ البداية سياسة السماح لعناصر التلفزيون المختصة بتغطية انباء الحرب بقدر ما يمكن من الحرية ، بينما أصرت على فرض رقابة على المادة المذاعة ، ومن خلال التجربة والممارسة لم يثبت ان هذه المهمة كانت صعبة جدا ، اثناء التطبيق العملي ، وذلك لان طبيعة القتال ذات التقنية العالية والآلية بوتيرة عالية ، بالاضافة ألى تأثير الحرب الكيميائية المعرقل لجهود الجميع باستثناء أولئك المزودين بأقنعة وأجهزة الوقاية من تلك المواد ، كل ذلك قد حدّ كثيرا من امكانية تغطيتها اخباريا :تلفزيونيا أو اذاعيا حيث كانت الخسائر من بين المصورين التلفزيونيين في المعارك على الرغم من قصر المدة التي استمر فيها القتال ، عالية جدا في المعسكرين المتحاربين .

واستمرت سياسة الرقابة الصارمة خلال اسابيع الحرب الثلاثة في اوروبا، ولا أحد يدري ما اذا كانت هذه الحالة ستستمر على هذا النحو فيما لو طال أمر الصراع وقد ظهرت امارات التململ في الاسبوع الثالث . وفي بريطانيا تعرضت هذه السياسة لامتحان قاس عندما دمرت « برمنغهام » حيث فرضت السلطات خلال الاربع وعشرين ساعة الاولى من الهجوم حظرا تاما على جميع الصور المأخوذة للمنطقة المقصوفة ـ تلك الصور التي كان من الصعب على كل

حال الحصول عليها — وتركزت التغطية الاعلامية على حجم عملية الانقاذ وعلى مشاهد لفرق الاطفاء ومفارز الانقاذ ، وهي تتحرك الى داخل المنطقة وكذلك على الدمار الذي أصاب المناطق المحيطة لكن موجة الاشاعات والذعر التي انتشرت في طول البلاد وعرضها ، حدت بالحكومة الى الغاء قرارها السابق وقررت انه لن يسمح الا بنشر الحقائق فقط عن الموقف . وهكذا اتاحت للقصة ان تروى بكاملها . ولقد شجعها على ذلك عملها بان الضربة المعاكسة على « منسك » قد فعلت فعلها في زعزعة الروابط بين الاتحاد السوفييتي والدول الاوروبية الشرقية التابعة .

ولم يخض المتحاربون الحرب الدعائية التي كانت الى حد كبير حربا تلفزيونية بمخاطبة عقول شعوبهم فقط ، بل كانت حربا تستهدف التأثير في عقول الاعداء وعقول المحايدين ، وعقول حلفائهم ايضا . وقد رأى الجانبان ان الدعاية الاكثر فاعلية التي يمكن الافادة منها هي التركيز على معاناة جنودهم عن طريق ابراز مناظر الاصابات والدمار التي يتم انتقاؤها بعناية من قبل المشرفين على الدعاية التلفزيونية . واستطاعت الكتلة الشيوعية الاستفادة بسرعة من الموجات التلفزيونية لنشر مثل تلك الصور في كل من تشيكوسلوفاكيا وجمهورية المانيا الديمقراطية التي يمكن رؤيتها في اوروبا الغربية . وعززت ذلك للوصول الى بريطانيا ببث المادة الدعائية عن طريق الاقمار الصناعية ، باستعمال قناة التلفزيون الرابعة لهذا الغرض ، وهي القناة الموجودة على معظم الاجهزة البريطانية والتي لم تستعمل بعد حتى عام ١٩٨٥ في مجال الترفيه والترويح عن النفس ، على انه يجب أن يضاف هنا ان السبب الرئيسي وراء هذا الاجراء هو « ويالسخرية الاقدار » القرار بتحويل النفقات اللازمة لتمويل احداث تلفزيون جديد الى الاغراض الدفاعية . ومع ان السلطات البريطانية استطاعت التشويش على معظم هذه البرامج ، الا انه كان لايزال في وسع الاتحاد السوفييتي ان يغرق التلفزيون ويسرب حجما كبيرا من المادة الدعائية التي تستهدف تدمير معنويات المشاهدين الغربيين . ويدور معظمها حول الاصابات الرهيبة ، وتنشر مكبرة ومقربة لاسرى حرب منهكين ومصعوقين وللاميال الطويلة من الدبابات

المدمرة ، والعربات المحطمة ، وحطام كل انواع الاعتدة . واظهرت بعض اللقطات للجرحى من أسرى الحرب للحلفاء وهم يستغيثون ويتوسلون بأصوات « صادقة أو كاذبة » من أجل السلام .

وكان رد الحلفاء يتم على خطوط موازية ، بطريقة مشابهة ، اذ كانت توجه المادة الدعائية بمقدار ثابت عبر أجهزة البث في جمهورية المانيا الاتحادية الى كل من جمهورية المانيا وتشيكوسلوفاكيا ، وقد قدر الحلفاء تقديرا صائبا انه اذا ماحدث شرخ ما فسيكون ذلك الشرخ داخل الدول التابعة للاتحاد السوفييتي . واقيمت محطتان تلفزيونيتان للدعاية في جمهورية المانيا الاتحادية ، احداهما تبث باتجاه تشيكوسلوفاكيا والاخرى باتجاه جمهورية المانيا الديمقراطية . وبدأتا بالعمل بعد ساعات من نشوب الحرب . لقد أعدت هاتان المحطتان بمهارة بمساعدة المذيعين المنفيين والمهجرين والهاربين من ذينك البلدين ، بحيث يكون الشبه بالمحطات الشيوعية الرسمية تاما من جميع نواحيه . وقدمت المحطتان نفسيهما على ان احداهما تشيكوسلوفاكية والاخرى المانية ديمقراطية وتعملان على موجة منفصلة بسبب تدمير أجهزة البث على الموجة الرئيسية . واخذتا تقدمان برامج مشابهة للبرامج الرسمية وخصوصا شريط الانباء الذي كان ينتقى لاظهار الموقف الشيوعي في أسوأ حالاته ، ولما كانت المحطات الرئيسية لاتزال تبث برامجها فقد اكتشفت هوية المحطتين ، لكن التحقيقات التي تمت بعد الحرب ، اظهرت ان هاتين المحطتين كسبتا جمهورا كبيرا من المشاهدين بسبب قوة اجهزة البث واتقانها على الاقل . ومن بين الفقرات التي كان يجري بثها تسجيلات لسلسلات شعبية وبرامج موسيقية شعبية التي كانت تبث على القنوات الشرقية الرسمية ، وسرقت مسبقا من وكالات تابعة لجمهورية المانيا الغربية لاعادة بثها .

اما المعركة الدعائية الموازية لمخاطبة العقول خارج أوروبا والولايات المتحدة الاميركية . فقد خاضها الحلفاء من خلال محطات الاذاعة والتلفزيون في ثلاث مناطق ذات أهمية كبيرة وهي : افريقيا والشرق الاوسط والشرق الاقصى . ولقد سعى كل من حلف وارسو والقوى الحليفة الغربية منذ البداية عن طريق

استخدام التلفزيون ليبرهنوا نقطة جوهرية وأساسية لسكان هذه المناطق الا وهي ان جانبهم هو المنتصر دائما. ولم يتسع الوقت للتمحيص في الخطأ والصواب في هذا الكفاح المرير، لاعتقادهم ان مايؤثر على مواقف افريقيا والشرق الاوسط والشرق الاقصى هو ، من سيكون المنتصر حسب اعتقادهم . وركزت الدعاية السوفييتية جهودها من خلال محطات الاذاعة على نجاح هجماتهم ودعمت ذلك بانباء تلفزيونية مصورة لقواتهم اثناء عمليات القتال ، ثم لانتصارها . اما الدعاية الحليفة ، فقد كانت مشابهة الى حد كبير باستثناء ان الرسالة التي تود نقلها لم تكن تقدم نصرا مظفرا لقواتها ، بل عن النجاحات التي حققتها في مقاومة العدوان والقوات الغازية . وكان منع الروس يوميا من الوصول الى نهر « الراين » مكسبا دعائيا ذا قيمة عظيمة ، بل ان من شأنه تشويه صورة الاتحاد السوفييتي الذي لايقهر كما ادعى سابقا ، وعلى مدى طويل .

في هذا الكفاح الدعائي من الحرب النفسية كان الحلفاء يمتلكون منذ البداية تفوقا في الموارد والوسائط تقنيا وبشريا . وتبين ان لتعلق شعوب اوروبا الغربية واميركا بالتلفزيون خلال سنوات ما قبل الحرب حسنة كبيرة ، فقد تمكنت اوروبا الغربية وخاصة بريطانيا منها بالاضافة الى الولايات المتحدة الاميركية من بث الصور التلفزيونية بواسطة الاقمار الصناعية الى جميع انحاء المعمورة بشكل سريع وفعال . كانت هذه الامكانية قد صممت لاشباع رغبة الناس الواسعة لمشاهدة كرة القدم الاوروبية والمسابقات الرياضية التي تعتبر مثالية للدعاية العالمية . وخلال ايام السلم كانت وكالات الانباء المصورة والتلفزيون الاوروبي « Eurovision » وغيرها من هيئات التلفزيون العالمية تبث يوميا من مراكز في لندن ، ونيويورك وسان فرانسيسكو ومدريد سيلا من مواد البرامج . وقد درب على القيام بهذه المهمة اعداد الفنيين والخبراء ، وتم تعويدهم على القيام بها . وهكذا استطاع الحلفاء الاعتماد على مئات بل آلاف الفرق من المصورين التلفزيونيين المجهزين بعدسات تصوير خفيفة ، سهلة الحمل ، دقيقة وسريعة الاستعمال، « ENG كاميرات لتجميع الانباء الكترونيا» تلك الفرق التي عمل معظمها في محطات التلفزيون الغربية . وعند نشوب

الحرب عمدت الشبكات الاميركية من قواعدها الامينة نسبيا في الولايات المتحدة الاميركية ، كهيئة واحدة على تزويد بقية العالم بل اغراقه بسيل من المعلومات التي جمعتها وسجلتها فرق المصورين من البلدان الحليفة من مسرح العمليات الحربية .

وحظيت ثلاثة جوانب من معركة اوروبا بشكل خاص بتغطية حية :

أولها ـ كانت هناك عملية الجسر الجوي عبر الاطلسي ، اذ تولت شاشات التلفزيون في العالم عرض سيل لاينتهي من طائرات النقل التي تحمل الى اوروبا الرجال والمعدات الحربية والاعتدة المختلفة من معين لاينضب من الولايات المتحدة الاميركية .

ثانيا ـ ما قدمه المصورون الالمان الغربيون يوما بعد يوم وبشجاعة نادرة أيضا عن سير مقاومة الغزاة، وخاصة تلك التي دارت على طول نهر « الليب» . اذ لم يقتصر الامر على لقطات للقتال القريب ، لم تكن هناك لقطات مخيفة للقتال عن كثب فحسب ، بل كانت هناك مقابلات مع جنود المشاة الالمان اظهرت بجلاء قوة معنوياتهم وتصميمهم .

ثالثا ـ جرى تغطية للقتال في البحر بواسطة قوات قافلة (الكافالري)، وقد سقط حوالي خمسة مصورين قتلى في هذه العملية من بين العديد من المصورين الموزعين على سفن المرافقة وسفن النقل، وعلى طائرات البحرية. ومع ان ارقام السفن الغارقة كانت كثيرة ، الا ان ذلك اضاف صورة من الحقيقة الى تسجيلات وصول الحجم الاكبر من القافلة الى الاماكن التي تقصدها . وبلغت ذروة هذا الجهد الاعلامي الذي قدمه المصورون ـ من خلال مشاهد الجنود وهم يغادرون أرصفة الموانىء الفرنسية ـ بعرض وقائع هذه المعركة الهامة الى العالم الخارجي على أنها انتصار ، كما كانت عليه فعلا . وقد برهنت التقنية الغربية في مضمار الالكترونيات السلمية على تفوق هام كتفوقها في ميدان المعركة .

وكان في معركة الدعاية سلاح آخر ، ذلك هو المرونـة في اتخـاذ القرار والسرعة في تنفيذه ، فقد اتخذ رئيس الولايات المتحدة الاميركية قرارا على درجة كبيرة من الاهمية عند نشوب الاعمال القتالية . اذ عارض طلب اقامة مجلس رقابة يتولى توجيه وانتقاء المواد التلفزيونية التي تنشر في خارج الولايات المتحدة الاميركية . اذ قال : ((**يجب علينا ان نثق بشبكـات البث التلفزيـوني لدينا وبالافراد والفنيين المشرفين عليها وبالصحافيين ويجب ان نعتمد عليهم جميعا كوطنيين مخلصين لبلادهم ، ولهـم وجدان طيب**)) . واقيمت منظمـة لمحترفي العمل التلفزيوني ، وخولت صلاحية انتقاء المواد التي ترفد محطـات البث التلفزيوني باستمرار لتنشر بعد ذلك في العالم كله ، وتوجه هذه المنظمة من قبل مستشارين عسكريين ، مهمتهم التأكد من عدم اذاعة او بث معلومـات ذات قيمة عسكرية من حيث الامن ، قد يستفيد منها العدو ، .ومنحتهـم صلاحيات الاشراف على عمل المنظمة عند الاقتضاء . ومثال ذلك عدم تغطيـة أماكن انطلاق الحمولات الجوية المشحونة من الولايات المتحدة الاميركية ، أو أي تفصيلات عن أنواع الحمولات وأحجامها أو اماكن وصولها ، أو تاريخ هـذا الوصول الى أوروبا ، وما الى ذلك من الامور الفنية البحتة . وكذلك لم تكـن هناك تغطية لاماكن تحشد قوافل الفرسان أو أي ذكر لمحتوياتها او الجهـات المتوجهة اليها . مع ذلك لم تكن الرقابة مشددة على هذا النوع من المادة الاعلامية، كما كانت الامور تسير في الحروب السابقة . فكما سبق ذكره ، كانت هـذه المعلومات معروفة بشكـل أو بآخر لدى الاتحـاد السوفييتي بواسطـة طرق الاستطلاع الحديثة مثل اقمار الاستطلاع الاصطناعيـة . ومن قبل شبكـة الجاسوسية السوفييتية النشطة والحسنـة التنظيم قبل الحرب ، وكذلـك الاستيلاء المبكر على كثير من المعدات خلال الاعمال القتالية في جمهورية المانيـا الاتحادية وكذلك من استجواب الاسرى . وعلى العموم كان للمذيعين ، في وسائل الاعلام الصوتية والمرئية كامل الحرية التي يريدونها حيال نشر او عدم نشر هذه المعلومات أو تلك ضمن المفهوم العام الذي يقضي بحسن انتقائها ، بحيث تغطي صورة صادقة ومعقولة عن المسرح الواسع للاعمال الحربية في أي مكان تشاء .

سواء على المسرح المعلياتي أو الاستراتيجي . ويعني هذا ان تكون التغطية المتعلقة بخسائر الحلفاء وانسحاباتهم متوازنة مع تغطية مقاومتهم وهجماتهم المعاكسة وجميع أنواع المهارات الفردية في ميادين القتال . وعلى كل حال ترك للعاملين في حقول البث الاذاعي والتلفزيوني والصحافي ان يقرروا بأنفسهم مايجب نشره أو بثه ولكن ضمن تلك المفاهيم المحددة ، وترك الامر ايضا لمحاكمتهم الذاتية .

وكانت لذلك نتيجتان ، كل منهما ذات اهمية كبيرة بالنسبة لقضية الحلفاء :

فأولا : وقبل كل شيء ، اخذت المواد الاعلامية وبجميع الوسائل المتاحة تصل الى شاشات التلفزيون او محطات الاذاعة او الصحافة في العالم الخارجي، قبل وصول ما يقابلها من الكتلة السوفييتية .

ثانيا : كانت تصل الى وسائل الاعلام بصورة طبيعية الى حد ما على نحو يجعلها أكثر اقناعا . فقد كانت تحتوي صيغة مكيفة ، وان لم تكن الحقيقة كلها ، الا انها كانت بالنسبة للمشاهد اقرب ما تكون للحقيقة ، وبالتأكيد كانت أصدق بكثير من نظيرتها الموجهة من الاتحاد السوفييتي . وليس فقط لأن المادة الاعلامية الصادرة عن وسائل الاعلام الروسية لم تكن اقل من حيث الكمية بسبب النقص في وسائل التصوير منذ أيام السلم فحسب ، بل كانت تتأخر كثيراً في بعض الاحيان عن الاحداث الدائرة ، بسبب مرورها على أجهزة الرقابة المختلفة . اذ كانت صور القتال في حلف وارسو تستعرض على الشاشات من قبل الرسميين اولا ، حتى تتم الموافقة على نشرها وبهذا فانها تصل متأخرة عدة ساعات أخرى أو حتى أيام عن التغطية التلفزيونية في جبهات القتال الحليفة. ويوما بعد يوم ، كان الانطباع الاولي عن مجريات القتال الذي كان يصل الى اجهزة التلفزيون في العالم ، من مصادر الحلفاء ، كان انطباعا عن بلدان تقاتل وتتعرض لنكسات خطيرة وجسيمة ، ولكنها على الرغم من كل ذلك تصمد بقوة تكفي للسماح لقوة الولايات المتحدة الاميركية الهائلة بالوصول والتدخل الحاسم.

ولقد كان من شأن ذلك الابقاء على الروح المعنوية عالية لبعض البلدان كايران ، والمحافظة على استمرار الحياد ، وعلى الصداقة مع بعض البلدان ، ككتلة بلدان الشرق الاقصى ، كما أسهم حسبما دلت على ذلك الابحاث التي أجريت بعد الحرب ، في اثارة مخاوف وقلق بعض بلدان افريقيا والشرق الاوسط ، بأنها قامت خطأ بدعم للجانب الآخر ، حقا أم باطلا .

وفي المملكة المتحدة ، اكثر الدول الاوروبية تعلقا بالتلفزيون ، لعب التلفزيون دورا ضعيفا غريبا ، فقد اصبح عام ١٩٨٥ المصدر الرئيسي لمعلومات التسلية والترفيه بالنسبة للجمهور الانكليزي ، وقال الى حد كبير من تأثير الصحف . وعندما نشبت الحرب ، نظر الناس من جديد الى التلفزيون للاستماع الى اخبار الحرب وتلقي التوجيهات والتعليمات والمعلومات ، ولبرامج التسلية الترفيهية التي تتوق اليها نفس البشرية حتى في ظل مواجهة الكارثة . واستطاعت الهيئات المشرفة على التلفزيون ان تقدم الاخبار على نحو غزير ، وقد انصرفت الشاشات كليا تقريبا لتقديم البرامج الاخبارية المستمرة ، تتخللها من وقت لآخر تحذيرات عن الغارات الجوية ، او اعلانات عن خدمات الطوارىء ، مع تعليمات ادارية بصدد التقنين واعمال اخلاء الجرحى والمصابين ، كما كان تتخللها أيضا الخطب المتكررة من رجال الدولة ، ومن السياسيين من مختلف الفئات والاتجاهات والتي كانت تدور حول الاحداث القائمة .

كان المذيعون يجدون أنفسهم هنا على أرض أمينة ، فكانوا يقدمون البرامج الموسيقية والتمثيليات الكوميدية التي لم تلبث أن أصبحت مكروهة ثم سقطت فجأة . ومن جهة ثانية حظيت الموسيقى الحماسية التي انفردت محطة اقليمية باذاعتها ترحيبا واستحسانا حارين من المشاهدين ، ولكن كانت هناك حدود لمواصلة بث هذا النوع من البرامج ، ولذا عادت المحطات الى بث برامج مألوفة زمن السلم ، لقيت هذه بدورها قبولا لانها تذكر الجماهير بالاوضاع الطبيعية السابقة والتي يؤمل ان تعود سريعا مرة أخرى .

* * *

الفصل الثالث والعشرون

المناطق الحيوية ، الشرق الاوسط وافريقيا

قبل خمسين سنة مضت وأثناء وجود الجنرال « ويفل » في الشرق الاوسط فيما كان يفكر في المخاطر التي تنطوي عليها أزمة عالمية مبكرة ، لخص بفراسته التوازن الاستراتيجي بتصريح مشهور بايجازه اذ قال : **« ان السيطرة على منابع البترول والاشراف على طرق نقله البحري ، والسيطرة الجوية ، والقوة البحرية ، هذه جميعا هي مفاتيح الحرب ، ضد المانيا وايطاليا ، ويعتمد الواحد منها على الآخر »** . وبين القوة الجوية والقوة البحرية ترابط وثيق فكلاهما يحتاجان الى البترول ، والبترول يجب ان ينقل بالسفن ، وهذه الاخيرة نفسها تحتاج الى الحماية من قبل القوة الجوية والبحرية ، ومضى « ويفل » يقول : **« انه لما كانت الامبراطورية البريطانية تستطيع الوصول الى بعض بترول العالم ، ولما كانت تنعم بقوة بحرية وبقوة جوية ، وبتجربة عالمية متميزة في هذين النوعين ، اذن فلا بد اننا منتصرون »** .

ولكن الى أي مدى يمكن ان يبقى هذا النوع من التفكير صالحا بعد مضي نصف قرن من الزمان ؟ صحيح ان البترول كان سبب النزاع ووسيلته وصحيح أيضا ان القوة البحرية كانت ولاتزال تعتمد الى حد كبير ، على البترول وعلى السفن التي لايستغنى عنها لنقله ، وصحيح ان القوة الجوية والبترول كانا ولا يزالان متلازمين ، للاستعمال وللحماية وللحركة ، الا ان الذي لم يبق صحيحا هو اننا ــ الحلفاء الغربيون ــ لا نزال نحتكر هذه جميعها .

وما من امة عظيمة سعت ، دون ان تتوفر لها القوة البحرية ، لاخضاع

غيرها في الصراعات القارية ، الا انتهت الى اذلال نفسها من خلال القوة البحرية. لقد تعلم السوفييت هذا الدرس جيدا ، واهملته بريطانيا العظمى صاحبته ومبدعته علما انها كانت أعظم دولة كانت تفهمه وتطبقه .

كانت المعادلة مختلفة جدا ، كان لدى الاتحاد السوفييتي حوالي ثمانية آلاف سفينة مسجلة بحمولة اجمالية قدرها عشرون مليون طن . اما الولايات المتحدة الاميركية ، فلديها اقل من خمسة آلاف سفينة ، ولكن بحمولة اجمالية تقارب العشرين مليون طن ايضا ، ولدى السوفييت أيضا خمسمائة ناقلة بترول، ولدى الولايات المتحدة الاميركية ثلاثمائة منها . أما بالنسبة للاحتياط الزيت الخام ، فلدى الاتحاد السوفييتي حوالي ستة بلايين ونصف البليون طن مقابل اربعة وثلاثة ارباع بليون طن لدى الولايات المتحدة الاميركية . كان الاتحاد السوفييتي المنتج الأول للزيت الخام في العالم . وكانت الولايات المتحدةالاميركية تأتي في المرتبة الثانية ومع ذلك تستورد الولايات المتحدة حوالي خمسمائة مليون طن سنويا . كان نصف هذه الكمية تقريبا من بترول الشرق الاوسط وافريقيا والبحر الكاريبي . أما الاتحاد السوفييتي فلا يستورد منه شيئا ولم يكن ذلك كافيا ، اذ ان اسطول الاتحاد السوفييتي كان أكبر إسطول في العالم ويتكون من مائتين وخمسين قطعة حربية من قطع السطح وثلاثمائة غواصة ، منها مائتان تعمل بالطاقة النووية ، أما عدد الطائرات الملحقة بالاسطول السوفييتي ، فقد بلغ سبعمائة طائرة وكانت القوات الجوية السوفييتية تضم حوالي عشرة آلاف طائرة مقاتلة من مختلف النماذج منها الف طائرة قاذفة مقاتلة ، وخمس هذا العدد من النوع العابر للقارات وأربعة آلاف مقاتلة لدعم القوات البرية ، ومثل هذا العدد للدفاع الجوي . أما طائرات النقل الجوي ، بما في ذلك الحوامات فيصل عددها الى أكثر من الفي طائرة . ونحن اذ نلخص هذه الامكانات « يجدر بالذكر ان جزءا كبيرا منها سيوجه نحو الصين والمحيط الباسيفيكي » انما نريد ان نذكر ان السوفييت هم الذين تتوفر لهم عناصر وصفة الجنرال « ويفل » لاحراز النصر .

وخلال الحرب العالمية الثانية كان الصراع من اجل افريقيا والشرق الاوسط أمرا ثانويا ، فقد تحطمت قوة الجيش الالماني « فيرماخت » في روسيا. اما قوة اليابان فقد تحطمت هي أيضا على أيدي القوات الجوية والقوات البحرية التابعة للولايات المتحدة الاميركية . وكانت ايطاليا الدولة الوحيدة التي أخرجت من الساحة بفضل جهود مشتركة من الحلفاء . ومع ان الشرق الاوسط كان ثانويا بالنسبة لالمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية ، الا انه كان بالنسبة للحلفاء موضوعا رئيسيا ، يضاف الى ذلك ان الشرق الاوسط يعتبر أرضا صالحة لاجراء التدريبات العسكرية فكيف يبدو بعد اربعين سنة من وجود الاتحاد السوفييتي على جانبي البحر الاحمر ، وفي افريقيا الجنوبية ؟ وهل يؤثر ذلك على قدرة الغرب في حال اندلاع حرب ما ؟.

ان خسارة كامل بترول الشرق الاوسط ، وشريانه البترولي الى اوروبا الغربية وخسارة كل المواد الخام من البلدان الافريقية ، وخسارة الطرق البحرية أيضا « ويذكر ان حوالي ٧٠٪ من المواد الخام الاستراتيجية التي تصل الى بلدان حلف الاطلسي « ناتو » تمر بطريق رأس الرجاء الصالح » وخسارة نقطة الانطلاق الكبيرة للعمليات البحرية والجوية في اماكن أخرى ، وقطع العالم الى نصفين ، ان خسارة كل ذلك يعتبر مسألة خطيرة جدا ، فسيحرم الغرب من ٦٠٪ من احتياط بترول العالم الذي يأتي اليه من الخليج العربي ، كما سيحرم أوروبا الغربية كليا من الثروة المعدنية من قارة تعتبر الاغنى في المعادن وهي « افريقيا » ، وسيتعذر على الولايات المتحدة الاميركية استيراد ٥٠٪ من البترول الذي تستهلكه ، وستخسر أيضا أكثر من ٦٠٪ من وارداتها التي تمر حول جنوب افريقيا . كما سيصبح الموقف خطيرا جدا فيما لو تعذر مرور حوالي ثمانية ملايين برميل من البترول يوميا « وهو رقم يساوي ٩٠٪ من مجموع استهلاك اوروبا الغربية » لمسافة بضعة أميال داخل « Cape Towm » .

ان سياسة الاتحاد السوفييتي التي تقوم على محاولة حرمان الغرب من هذه الفوائد ، تعتبر انعكاسا واضحا للموقف ، والا فلأي غرض آخر يبني

الاتحاد السوفييتي بحريته الضخمة ؟ ولماذا اقام لنفسه نفوذا في اليمن والصومال وموزامبيق وناميبيا وانغولا ونيجيريا ؟ وسيتابع المحاولة بقدر ماتسمح له الظروف . أمن اجل شيء غير حرمان الغرب من هذه الاماكن الهامة استراتيجيا ؟ فلا غرابة اذن من اهتمامه الفائق في افريقيا الجنوبية ، وفي القرن الافريقي في السبعينات . والشرق الاوسط بالنسبة للولايات المتحدة الاميركية يأتي في المرتبة الثالثة على قائمة الصادرات العالمية ؟ أما افريقيا فقد اغلقت الطريق المؤدي اليها من الولايات المتحدة . ان الفقدان التام لنفوذ الولايات المتحدة الاميركية في افريقيا والشرق الاوسط ، والسيطرة على البحر ،والحرمان من البترول والمواد الخام ، والتخلي عن قطاعات كبيرة من الارض الى السيادة الجوية السوفييتية المطلقة ، ومع ان كل هذه النكسات لايمكن لها ان تخضع الولايات المتحدة الاميركية ، الا انها بالتأكيد ستحد من مكانياتها للتصدي للاتحاد السوفييتي بشكل فعال . لم يكن الشرق الاوسط وافريقيا مفتاحا للنصر ، بل كان مفتاحا لعدم خسارة الحرب العالمية ، كما أظهرت الاحداث ذلك التي ادت الى نشوبها .

ونرى لزاما علينا ان نتأمل ونمحص ماقامت به الولايات المتحدة الاميركية في منطقتين تؤثران تأثيرا عميقا في العمليات في افريقيا وفي الشرق الاوسط . اولا التدخل الاميركي في جنوب افريقيا ، فاذا كانت الولايات المتحدة الاميركيةتحرص الا تستبعد عن جزء ذي أهمية حيوية من العالم ، فليس أمامها من بديل سوى تثبيت اقدامها فيه ، باقامة قاعدة بحرية في افريقيا الجنوبية ، ولذا ارسلت في أواخر شهر تموز عام ١٩٨٥ لواء من مشاة البحرية الاميركية ، ومجموعة طائرات مقاتلة مؤلفة من اربعين طائرة ، ودعما من حاملة طائرات ، وقوة بحرية ضاربة مؤلفة من عشرين سفينة حربية للتمركز في مواقع « سيمونزتاون » وحولها .

وفيما اتخذت تلك القاعدة وضعا دفاعيا ، انسحبت البعثة البحرية السوفييتية بهدوء . لكن الولايات المتحدة الاميركية لم تلزم نفسها بدعم جنوب

افريقيا ضد الجيش الشعبي لاتحاد جنوب افريقيا « Caspa » ولم تشتبك القوات الاميركية في عمليات قتالية في جنوب افريقيا خلال الإشهر القليلة التالية الا في الدفاع عن قاعدة « سيمونز تاون » واصبح هذا الوجود الاميركي فيما بعد الاساس الذي مكن من هزيمة البحرية السوفييتية في جنوب الاطلسي ، ولعب دورا رئيسيا في تطور العمليات في المحيط الهندي ادى الى نجاح التدخل الاميركي في الخليج العربي .

وفي الوقت الذي تمركزت فيه قوة اميركية بحرية ضاربة في جنوب الاطلسي وحول الكاب ، كانت قوة أخرى تأخذ مواقعها في بحر العرب والجزء الغربي من المحيط الهندي ، اذ انزل لواء من جنود البحرية الاميركية مع قوات الدعم الجوية والبحرية في أواخر شهر تموز في « بندر عباس.» تنفيذا لتعهد الولايات المتحدة الاميركية الى ايران ودولة الامارات العربية المتحدة بحمايتها من الدولة التي قامت حديثا ـ الجمهورية العربية المتحدة ـ او حتى من الاتحاد السوفييتي نفسه . ولقد جاء هذا التعزيز في حينه ، اذ ان القواعد السوفييتية في الصومال واليمن جرى تعزيزها خلال الاشهر السابقة من فترة الانفراج الكاذب .

وعلى الفور قوبلت اعمال الولايات المتحدة الاميركية على جانبي القارة الافريقية بالشجب والاستنكار من قبل منظمة الوحدة الافريقية « Auq » وأكدت قراراتها السابقة التي تعلن عن تصميم الدول الافريقية على اقامة حكم الاغلبية السوداء في اتحاد افريقيا الجنوبية بقوة السلاح « ليس فقط السلاح الافريقي بل السوفييتي والكوبي والجامايكي والعربي أيضا » .

كادت أن تكون المعركة من اجل جنوب افريقيا بطيئة وغير حاسمة لولا التدخل الاميركي . ومما كانت تحتاج اليه من سرعة وتركيز وقرار عوضته في التنوع والتعقيد والاعمال الشريرة المهلكة .

اما في الشرق الاوسط ، فقد كانت الامور مختلفة ، اذ كان تدخل الولايات

المتحدة الاميركية حاسما ، ولعل طبيعة المنطقة والصراع مكنت القوة النارية « البحرية ، والبرية ، والجوية » للولايات المتحـدة الاميركية من الاستطـلاع والتدمير . ومن خلال السيطرة على المواصلات ، تمكنت من منع قيام هجمات معاكسة صغيرة ، تقوم بها الجمهورية العربية المتحدة « UAR » ، ومكنت ايران من البقاء بعيدة عن غزوها وساعدت الامارات العربية المتحدة على الصمود في وجه المحاولات السعودية لتصفية الحسابات القديمة بينهما ، وسهلت اعمال التحضير لهجوم معاكس من عمان يمكن ان يكتسح اليمنين بمعركة واحـدة فاصلـــة .

اما الفرق الهام بين القتال في افريقيا الجنوبية والقتال في مناطق الشرق الاوسط ، فهو ان الافارقة المشتركين فيه يعرفون من خلال التجربة ما تعنيه المعارك الدائمة في حين لاتتوفر لمعظم المتقاتلين في الشرق الاوسط « باستثنـاء مصر وسورية واسرائيل » أية خبرة باستعمال الاسلحة الحديثة المعقدة .

لقد ظل الاسرائيليون في حالة تأهب مستمر ، والاحتياط معبأ والبلاد على اتم استعداد لخوض الحرب ، وذلك منذ قيام الجمهورية العربية المتحدة في شهر تشرين الثاني عام ١٩٨٤ ، لكنهم لم يشتركوا في أي قتال . وقدم السوفييت بتاريخ كانون الاول عام ١٩٨٤ لاسرائيل ضمانات بعدم الاعتداء على إسرائيـل من أي هجوم يشنه عليها جيرانها بحدودها القائمة ، مقابل ضمانة اسرائيليـة بالتزامها الحياد التام تجاه أية تطورات تؤثر على أمن الاتحاد السوفييتي . وتم ذلك وقبلت اسرائيل العرض بناء على نصيحة من الولايات المتحدة الاميركيـة . ومنذ ذلك الوقت وخلال الازمة العالمية في الصيف التالي وما تلا ذلك من اقتتال بقيت اسرائيل محايدة .

أما مصر فقد لعبت ، بالرغم من امتلاكها لقوات مسلحة كبيرة دورا صغيرا وغير فعـال في القتـال الناشب في الشرق الاوسط . أما سورية فلم يكن لها دور عملي فعـال .

أما الولايات المتحدة الاميركية في الشرق الاوسط فقد وقفت الى جانب القوات الوطنية الحليفة لها في المنطقة بهدف حماية مصالحها ، وحماية تلك القوات الوطنية . وكانت ايران قاعدتها الصلبة بالدرجة الاولى، اذ تمتلك حوالي الفي دبابة معظمها من طراز « شفتين » واسلحة ممتازة مضادة للدبابات وقوة مشاة كبيرة ، تعد مع القوات الاحتياطية حوالي مائتين وخمسين الف رجل وما يزيد عن الفي ناقلة جنود مدرعة وحوالي الف مدفع ، وجميع المعدات والتجهيزات الحديثة الخاصة بأسلحة الدعم والطائرات بما في ذلك اربعمائة طائرة حوامة هجومية من طراز « كوبرا » . اما البحرية الايرانية ، فكانت تضم أكثر من خمسين سفينة حربية عملياتية بما في ذلك زوارق الدوريات ، وقوة جوية مؤلفة من اربعمائة طائرة مقاتلة . وقد ساعدت هذه القوات الكبيرة ايران على وضع القسم الافضل من قوأتها ، ثلاث فرق ، واخدة منها مدرعة ، واخرى مشاة محمولة مع عربات نقل ولوائين من القوات الخاصة ، في الامارات العربية المتحدة وعمان ، تدعمها جميعا صنواريخ ارض ــ جو ومدفعية وطائرات حوامة ووحدات ادارية ، وأسراب من الطائرات التكتيكية . وفي الوقت نفسه بقي لدى ايران اكثر مما يكفي حاجتها لتأمين نفسها من تهديدات الكويت أو مغامرات العراق . وكان من شأن ذلك وضع الحجم الاكبر من التشكيلات المدرعة الايرانية « حوالي الف دبابة « شفتين » في الاحتياط » وتلك حقيقة لم ترق لقادة الجيش السوفييتي في تركستان وشرق القوقاس . يضاف الى ذلك ان القوة الدفاعية لدولة الامارات العربية المتحدة ، لم تكن صغيرة الحجم ، وانها ذات كفاءة بدباباتها وبصواريخها المضادة للطائرات وأسلحتها المضادة للدروع والحوامات وطائرات « الميراج » المقاتلة وحوالي خمسة وعشرين الف رجل . وأخيرا تستطيع عمان ان تقدم قوات نظامية تعد حوالي خمسة عشر الف رجل بما في ذلك العربات المدرعة والمدفعية والاسلحة المضادة للدروع وعشرة زوارق دورية سريعة وخمسين طائرة مقاتلة .

كانت مساهمة الولايات المتحدة الاميركية لدعم هذه القوات ، هي في سد الثغرات . وقد وضعت لذلك قوة بحرية ضاربة قوية شرق أوسطية مؤلفة من

حاملتي طائرات واثنتي عشرة قطعة بحرية حربية عائمة . وعلى شواطىء ايران انتشر القسم الافضل من وحدات فرقة المشاة البحرية الاميركية وفرقة اميركية محمولة جوا وسرب من الطائرات المقاتلة ، مع وحدات الدعم والتعزيز من مختلف الصنوف .

والى جانب الاتحاد السوفييتي ، تقف الجمهورية العربية المتحدة الجديدة التي لم تكن قواتها قليلة العدد ، ولكنها كانت سيئة من حيث قدرتها على الحركة والانتشار ، بسبب سوء تسليحها في السنوات الاخيرة . وكان لمصر جيش كبير حسن التجهيز ، ومدرب يعد حوالي ثلاثمائة الف رجل أو ما يساوي حوالي اثنتي عشرة فرقة نصفها مدرع أو آلي ، وعشرة الوية مستقلة . اما العتاد فكان روسيا في معظمه ويتضمن نيفا والفي دبابة وكذلك حوالي الفين وخمسمائة عربة نقل جنود مدرعة وما يزيد عن ثلاثة آلاف مدفع وهاون ، بينما تضم القوى الجوية والدفاع الجوي المصرية قرابة سبعمائة طائرة مقاتلة وحوالي ستين طائرة نقل . اما بحريتها الصغيرة نسبيا ، فتضم اثنتي عشرة غواصة وثماني مدمرات وفرقاطة وخمسين قطعة دورية صغيرة . أما قوات الميليشيات فكانت تعد حوالي مائة وعشرين الف رجل .

لكن تجربة الجيش المصري ، من خلال العمل في بلدان عربية بعيدة كانت تجربة غير مشجعة، ولهذا بقي القسم الاعظم من قواتهم، يتمركز في المناطق التقليدية في سيناء وقناة السويس، والصحراء الغربية والبحر الاحمر ، والمناطق الوسطى، والجنوبية . أما القوة الميدانية ، فقد نظمت في ثلاثة جيوش تتمركز جميعها على الارض المصرية في الشرق وفي الغرب وفي الجنوب .

أما العربية السعودية القليلة السكان فلديها جيش صغير نسبيا ، مجرد خمسة الوية ، ثلاثة منها موضوعة في الاردن وسورية ولبنان كجزء من ترتيبات مؤتمر جنيف . أما الباقي ، فبالاضافة للحرس الوطني ، وقوات الحدود وخفر السواحل ، فانه يكفي لاغراض الامن الداخلي، وحماية القواعد البحرية والجوية.

أما جيش الكويت الصغير الفعال الذي يصل الى قوة فرقة مدعوما بحوالي اربعين طائرة مقاتلة وثلاثين زورق دورية ، فليست لديه الموارد الادارية الكافية لنقل الجنود وتموينهم وايوائهم . وليس لديه أيضا حتى الرغبة في خوض مغامرات خارج حدوده .

أما الجيش الليبي ، الذي يعد حوالي عشرين الف رجل فلديه اكثر مما يكفيه لمراقبة التحركات الشعبية في البلاد .

أما الاتحاد السوفييتي فلم يكن لديه ما يضيفه ، كانت قواعده البحرية والجوية في اريتريا ، وسوماطرا وجيبوتي ، وبوران والسودان ، والسويس ، وجدة ، وبربرة ، ومقاديشو ، وكيسماجو ، والظهران ، ويديرها حوالي خمسين الف فني مسلح . أما قواته الجوية بما في ذلك طائرات النقل ، فتعد حوالي خمسمائة طائرة من جميع الانواع ، ومن ضمنها طائرات النقل . اما قواته البحرية في البحر الاحمر وخليج عدن والمحيط الهندي فليست كبيرة . وكان الاتحاد السوفييتي يكتفي بما لديه ، ولا يسعى للحصول على المزيد . واذا كان الاتحاد السوفييتي على كل حال يبدو متبنيا استراتيجية دفاعية في الشرق الاوسط فانه لايمكن القول انه يفعل مثل ذلك في افريقيا الجنوبية ، اذ لديه في هذه المنطقة حلفاء أقوياء واكثر حبا للمغامرة .

لقد قررت القيادة العليا للجيش الشعبي لاتحاد جنوب افريقيا ، ان غزو جنوب افريقيا يجب ان يتم من قبل جميع دول المواجهة ، ناميبيا ، بوتسوانا ، زمبابوي ، وموزامبيق ، على ان تقوم قوات بوتسوانا وزمبابوي بأعمال العصابات ، وعلى نطاق واسع جدا ، وذلك لان صعوبات الدعم الاداري لاتمكنها من القيام بعمليات حربية متطورة . أما الهجومان الرئيسيان فستقوم بهما قوات كل من ناميبيا وموزامبيق مدعومة ن قبل الموانىء الساحلية ، الشرقية والغربية ، وبالقواعد الجوية وبجيوش ذات تجهيزات أفضل في معدات القتال والناحية الادارية ، وبفرص للدعم من القوات البحرية المحمولة من

الموزامبيق فستشارك قوات تصل الى ثلاثين الفا معظمها من جيش جبهة تحرير الموزامبيق « Frelimo » المليء بجنود « الماكوندي » القادمين من جبهة الموزامبيق المتحدة « Fumo » . أما القوة الثانية فكانت القوات الصومالية وهي عبارة عن لواء مشاة محمول مزودا بالدبابات وناقلات الجنود والمدافع. أما القوة الافريقية الثالثة ، فيأتي دور القوات النظامية الرئيسية لزمبابوي ، وهي عبارة عن لواء قوي ومعزز كما أضافت اليه « تنزانيا »كتيبتين . أما القوة الكوبية فيصل عددها الى اقل من عشرة آلاف رجل اسندت اليهم مهمة قيادة العمليات تحت القيادة الرسمية لجنرال موزامبيقي من رجال العصابات . وهو الحليف الجديد القوي لرئيس جبهة موزامبيق المتحدة « Fumo » . كان هذا الجنرال « شندي امهامباني » ، وهو اسم حركي ، رجلا يحب التفاصيل الصغيرة للادارة العسكرية ، أي أنه كان رجلا مناسبا كمدير مستودعات برتبة رقيب . صمم هذا الجنرال الرقيب على ان لايكون قائدا عاما فحسب بل ومستشارا رئيسيا للشؤون الادارية ، شؤون النقل والتموين والايواء ، مما الحق بالعملية بكاملها نتائج رهيبة . كانت خطة الحملة التي خطط لها وقررها هو بمعرفة المستشارين الكوبيين عبارة عن هجوم على « ترانسفال » يستهدف بريتوريا وجوهانسبورغ ، على ان يرافقه تحرك بمستوى فرقة من « ناتال » .

كانت الحملات من زمبابوي نفسها ومن «بوتسوانا» تهدف بصورة رئيسية الى جذب انتباه قوات الامن لجنوب افريقية التي كانت خطوط مواصلاتها المتجهة جنوبا من « ميزي وغابورون » على درجة كبيرة من الاهمية . وبما أن « بوتسوانا » فقيرة في الرجال فقد ترتب أن تجند « ناميبيا » قوة مؤلفة من عشرين الف مغوار ، على ان تكون القوة الزمبابوية في مثل حجمها .

أما العملية الرئيسية الاخرى فهي العملية التي تقوم بها قوات « سوابو » وانغولا وكوبا ونيجيريا بهجوم ينطلق من ناميبيا ، فتتجه قوة الى « بريسكا » بينما تتجه الاخرى الى مدينة « كيب تاون » و « سيمونس تاون » وقد قدم النيجريون ثلاثين الف مقاتل والكوبيون عشرة آلاف والانغوليون والسوابو معا

خمسين الفا ليشكل جميعها قوة متجانسة في عددها بالنسبة الى الجيوش الشرقية المقتحمة من الموزامبيق . هذا وكان المستشارون والفنيون الروس كثيرون بوضوح .

لكن أي نوع من العدو ستواجه هذه الحملات المختلفة؟ في المقام الاول، هناك الجيش النظامي لجنوب افريقيا ، يضاف اليه تعزيز من الجنود البرويسيين السابقين واللاجئين من ناميبيا وعدد متزايد من المتطوعين من «اوسترالازيا» ليصل الى قوة عددها تسعون الف مقاتل . ثم هنالك قوة بحرية اميركية في البحر ، حتى ولو لم تكن هناك تشكيلات اميركية مشتبكة بالقتال البري تتولى احكام الطوق . ويأتي خلف الجيش النظامي لجنوب افريقيا قوات « الفولكس ستروم» التي تعد حوالي مائتي الف مقاتل ، وهي قوة واثقة من قدرتها حسنة التدريب وهدفها النصر او الموت . وهي بذلك ليست هدفا سهلا للجيش الشعبي لاتحاد جنوب افريقيا .

كان هناك لقاء في بعض وجهات النظر ، كما كان هناك تباعد كبير بين بعضها الآخر أيضا، فيما بين اولئك المعنيين على نحو أو آخر، في أي من الجانبين ، بما ستكون عليه الامور . وتتلخص ببساطة ، بأن الولايات المتحدة الاميركية ، تريد ان تحافظ على ما تعتبره ضروريا لمصالحها الاستراتيجية الحيوية الاوهما : بترول الشرق الاوسط ، والقدرة على ابقاء حرية الملاحة والمرور لناقلات البترول وغيرها من السفن حول الكاب . أما بالنسبة للاتحاد السوفييتي فمطلبه هو دوام استمرار قبضته على افريقيا الجنوبية ، الامر الذي سيتيح له السيطرة على الطرق البحرية ، وكذلك السيطرة على الشرق الاوسط وعلى بتروله ، اما اولئك الذين يعنيهم الامر ، فلهم أفكار اخرى مختلفة . فشعوب افريقيا السوداء تريد تدمير السيطرة البيضاء على جنوب افريقيا ، والاستئثار بها لنفسها والسيطرة على ثروات البلاد وعلى الاراضي ، والنفوذ والامكانات الاستراتيجية . اما البيض في جنوب افريقيا ، فهم مصممون وبنفس القدر على الاحتفاظ بما يملكون ، ولم يكترث احد من الجانبين بالقضايا الاوسع ، التي

تتجاوز اقامتهم ومصالحهم المباشرة . ففي الشرق الاوسط ، كانت ايران مهتمة بالحفاظ على وحدة أراضيها المهددة باستمرار ، وعلى نفوذها الذي يمتد الى جنوب شبه الجزيرة العربية . أما الدول الصغرى ، فكانت تريد الاستمرار في تطوير نفسها وتقدمها الاجتماعي . ومن جهة ثانية ، كانت الجمهورية العربية المتحدة تطمح لان تصبح مركز السيطرة على العالم العربي . وفي الوقت الحاضر كانت نقاط الالتقاء السياسية كافية لتسمح لهذه المجموعات من الحلفاء بالعمل معا . أما نقاط التباعد فيما بينها فستبدو واضحة مع تطور العمليات .

ان السياسة شيء واسلوب تطبيق السياسة شيء آخر . فمفهوم الولايات المتحدة الاميركية بشأن كيفية الحفاظ على موطيء قدم لها في افريقيا، وعلى دعم حلفائها في الشرق الاوسط واضح وبسيط ، وفي نطاق امكانياتها . ولهذا المفهوم أربعة ميزات رئيسية :

أولا : تحطيم القوة الجوية والقوة البحرية السوفييتية في المناطق حيث السيطرة الاستراتيجية عليها ضرورية للولايات المتحدة الاميركية .

ثانيا : تقديم عناصر القوة الدفاعية التي لايمتلكها حلفاؤها في الشرق الاوسط والتي بدونها لايمكن لهم استخدام القوة العسكرية بفعالية .

ثالثا : الاستمرار في تزويد هؤلاء الحلفاء بما يتعلق بأمور النقل والتموين والايواء وتدريب قواتهم المسلحة حينما يمكن ذلك .

رابعا : واخيرا ، ابقاء قوات الولايات المتحدة الاميركية خارج نطاق القتال البري في افريقيا الجنوبية الا في الحالات التي يتطلبها أمن « سيمونستاون » .

ان كل ما تأمل الولايات المتحدة في عمله ، يعتمد على كسب الحرب في البحر ، الامر الذي يتطلب بدوره تفوقا في الجو . « ان مجريات المعركة في الاطلسي ذكرت في الفصل السابع عشر » . انما يهم هنا هو نتيجتها ، فلقد كان لهزيمة البحرية السوفييتية تأثيران هامان على المعركة في افريقيا :

أولا : ان قطع الصلة البحرية مع البحر الكاريبي تعني استحالة وصول تعزيزات جامايكية أو كوبية او امدادات عن طريق البحر الى غرب افريقيا .

ثانيا : ان الحصار البحري المفروض على غرب افريقيا من كوناكري شمالا حتى «.والفس باي» يضمن عدم وصول أي دعم عن طريق البحر الى الدول المتحاربة من أية جهة كانت . أما المعركة من اجل المحيط الهندي ، فقد كانت اقل عنفا واقل كلفة من معركة المحيط الاطلسي ، لكنها مع ذلك بقيت هامة . وقد توصلت البحرية الاميركية الى تأمين وجود قوى لها على طول الساحل الشرقي لافريقيا من مومباسا وحتى « بورت اليزابيث » . وفي البحر العربي وفي الخليج العربي أيضا والتفوق في المحيط الهندي بوجه عام . أما البحر الاحمر فقد استمر تحت السيطرة السوفييتية ومثل ذلك شرق البحر الابيض المتوسط .

ان السيادة على البحر وفي الجو ، كما اكتشفت ذلك الولايات المتحدة الاميركية في كل من كوريا وفييتنام لايعني بالضرورة السيطرة على الارض ، لكنها ستساعد مساعدة كبيرة، وخاصة في الشرق الاوسط ، حيث كان هناك أربع ساحات للعمليات للقوات البرية . احداها كانت هامة جدا ، اما البقية فكانت ثانوية في أهميتها . كانت الاولى للعمليات المشتركة بين الولايات المتحدة الاميركية وايران مدعومة من قبل الامارات العربية المتحدة وعمان ، هدفها تحقيق السيطرة التامة على الخليج العربي كما تضمنت تصفية الكويت وتدمير جميع قوات الاتحاد السوفييتي والجمهورية العربية المتحدة في الجزء الشرقي من العربية السعودية. وبادىء ذي بدء ، اخرجت الكويت من اللعبة . أما حياد العراق الذي تدهورت علاقاته مع سورية الى حد المواجهة العسكرية ، فقد مكن ايران من استبعاد أي تهديد يأتي من الكويت دون اللجوء الى القتال . وفي صيف عام ١٩٨٥ تمكنت القوات الجوية والبرمائية الايرانية القوية التي كانت في وضع الهجوم ومن خلال انذار وجهته الى الحكومة الكويتية اجبار المجلس الكويتي الحاكم على اعلان قطع علاقاته الجديدة مع مصر والعربية السعودية . كان ذلك تغييرا كاملا ومفاجئا مثلما حدث ذلك في ايطاليا عام ١٩٤٣ . فقد انتقل الكويتيون من كونهم الحليف

الذي لايتزعزع لشركاء الجمهورية العربية المتحدة ليصبحوا فجأة أعداءهم الالداء. وقرر المجلس الحاكم ان تغيير الموقف ومعه فرصة النجاة خير من الدمار الاكيد على أيدي ايران مدعومة بالقوة الاميركية البحرية والجوية .

وعلى الرغم من الهجوم الذي تعرضت له القاعدة السوفييتية في الظهران من قبل السفن والطائرات الاميركية فهو وان لم يكن داميا حقا الا أنه كان شديدا جدا . ثم استولت عليها قوة من جنود المشاة البحرية الاميركيين وسيطرت عليها . اما القوات الكويتية والايرانية فقد اقامت نطاق أمن بين الظهران والقوات السعودية العربية التي كانت مهمتها ضمان وحدة راضي الرياض ، واستمرت المناوشات ، والمناوشات المعاكسة ، لكن الوحدات الجوية والبرية التابعة للجمهورية العربية المتحدة وللاتحاد السوفييتي اخليت من الساحة . واصبح « الخليج » لايهم ماتفكر به الامارات العربية المتحدة حياله ـ سيدعى الفارسي مرة أخرى ـ . اذ ان القوات البحرية والجوية الايرانية مدعومة بالقوت الاميركية هي التي حققت ذلك . واحتلت القوات البرية الاميركية قاعدة الظهران وأمنت ادارة مواصلاتها .

كان المقدم أحمد عبد اللطيف القاسمي طيارا لطائرة حوامة في قوات دفاع الامارات العربية المتحدة ـ جيش الامارات العربية المتحدة ـ وكان قد كلف من قبل قائد الجيش ليكون مسؤولا عن فوج مختلط مجهز بطائرات لينكس « Lynx » الفرنسية وحوامات « غازيل » الفرنسية أيضا ، وهي القوات التي خصصت لدعم القوات الكويتية المساهمة في ابقاء الظهران حرة ازاء أي تدخل سعودي وانقضى اسبوع لم يكن لديهم ما يفعلونه سوى القيام بالدوريات ، وأصبح هذا المقدم يدرك على ان ثلاثة أرباع حياة الجندي تنقضي دون القيام بأي عمل . لم يكن يعترض على الانتظار الطويل لكنه كان يفضل ان يقضيه في بيته المكيف في أبو ظبي بدلا من قضائه في الصحراء . وفي أحد ايام شهر ايلول وبعيد الفجر مباشرة حدث شيء جعل تلك الاحداث شيئا للذكرى .

كان المقدم المذكور يصغي الى قائد دورية طائرة حوامة من طراز « غازيل »

وهو في عربته اللاندروفر وبجانبه ضابط عملياته . كان الاتصال لايزال مستمرا عندما ضغط على منبه سيارته لينبه سرب طائرات « اللينكس » من أجل البدء بالعمل .

واستمرت الرسالة الكلاسيكية كما يلي: **«في الساعة ٥١٢٠ وفي موقع احداثياته ٧٣٨٤٩٢ ، تتحرك قوة دبابات من طراز « AMX » وعربات مدرعة من طراز « غريهاوند » وعربات نقل الجنود من طراز « APC » ويقدر عددها بنحو ثلاثين عربة ، نحو الشرق ، والجنوب - شرق . واذا ما استمرت في اتجاهها الحالي وسرعتها الحالية فستصل الى ثغرة حقل الالغام عند الموقع ٨٥٠٤٣١ ما بين الساعة « ٠٦٠٠ و ٠٦٣٠ » انني استمر في المراقبة ولدي وقود يكفي لمدة أربعين دقيقة »** .

واستمع المقدم لضابط عملياته ، يشرح مضمون الرسالة ، ثم ينقلها الى مقر القيادة ، فيما امسك بالخريطة ، ووضع عليها بعض العلامات بقلم الحبر الصيني ، وقال : **« اخبر القيادة انني سأشتبك بأسرع ما يمكن ، واقترح تحريك سرية دبابات « سكوربيون » الى مواضعها المعدة مسبقا في هذا الجانب من حقل الالغام . سأقوم شخصيا بهذه المهمة . واخبروا دورية « غازيل » للبحث عنا وتوجيهنا »** .

وترجل من عربة اللاندروفر ، واسرع الخطى باتجاه الطائرات الحوامة من طراز « لينكس » الاثنتي عشرة المزودة بصواريخ « هوت Hot » حيث كانت الصواريخ تتدلى على جانبي الحوامة بمعدل ثلاثة صواريخ من كل جانب . كان قائد السرب ، وقادة رفوفه الثلاثة ينتظرون فيما كانت المراوح تدور ، ويتولى الميكانيكيون ورجال التسليح اجراء فحوصاتهم على الطائرات ، وامتطى بقية أفراد الطواقم ، طائراتهم واصدر المقدم أوامره بسرعة واضاف انه سيرافق سرب « اللينكس » .

ثم أضاف مخاطبا قائد السرب : « لقد جاء دورك » .

وخلال دقائق قليلة ، تم الانطلاق ، وأخذوا يحلقون فوق الصحراء على ارتفاع منخفض في أربع مجموعات كل منها من ثلاث ، وبعد عشرين دقيقة ، شاهد حوامتين من نوع « غازيل » اللتين كان يبحث عنهما . وجرى تبادل سريع في المعلومات بين قائد السرب ، وقائد دورية الغازيل ، وبعد ذلك اعطى قائد السرب أوامره .

« في الاتجاه « ٢٤٠ » ثلاثة أرتال عربات مدرعة ستهاجم من الشمال الشرقي على موجتين . مجموعتي ومجموعة الفا أولا . ستتناول العربات التي في المقدمة ، بينما تقوم بالاشتباك مجموعة « برافو » ومن ثم يشتبك تشارلي بعد خمس دقائق مستهدفا العربات في المؤخرة ، ثم العودة الى القاعدة للتزود بالوقود والذخيرة فورا بعد الهجوم . مفهوم . أعد ثانية » .

كان الوقت الساعة ٥٥٥ .

وبعد الساعة السادسة صباحا مباشرة ، كانت صحراء العربية السعودية تمتلىء بالعربات المحترقة ، وبالقتلى والجرحى من الجنود ، والانفجارات المتقطعة مازالت تتوالى . وما ان توجه سرب « اللينكس » الى الخلف للتزود بالوقود والذخيرة ، حتى ظهرت طائرتا الدورية « الغازيل » وتم المزيد من تبادل المعلومات وأرسل المزيد من التقارير الى القاعدة والى القيادة التي كانت تتشوق لمعرفة ما اذا كانت هناك حاجة لدعم العملية بمدفعية من الرتل المتحرك ، ومن دبابات « السكوربيون » البريطانية الخفيفة الموجودة في حالة التأهب . وانهى المقدم تقريره بهذه الكلمات : **« لا اعتقد ان هناك حاجة لسرية دبابات « السكوربيون » .**

وأضاف موجها كلامه الى ضابط عملياته متسائلا : « هل نجد نحن شيئا نفعله ؟ على أية حال سيكون خيرا اذا امتدت هذه الفترة » .

أما المرحلة الثالثة من هذه العملية الرئيسية ، والتي تستهدف كما رأينا أحكام السيطرة التامة على الخليج ، فقد تألفت من تعزيزات اضافية لعمان

بقوات ايرانية وبقوات من الامارات العربية المتحدة . وبدأت هذه القوات بالتعاون مع جيش سلطنة عمان وهو جيش كبير نسبيا ـ تنقصه الخبرة بضرب رجال القبائل المنشقين لاخضاعهم واجبارهم على الطاعة ـ يجعل اليمنيين والمتطوعين ، يتساءلون ما اذا كانت اللعبة تستحق هذه المشقة ، لكن تصفية اليمنيين واخضاع رجال القبائل كانت عملا طويلا .

وفي افريقيا الجنوبية في صيف عام ١٩٨٥ تحققت الضربات الحقيقية الاولى ، بالتقدم المتزامن لاربعة جيوش من بلدان الموزامبيق وزامبيا وبوتسوانا وناميبيا في جنوب افريقيا . اسفرت الحملة عن كونها الاسوأ بين الاخريات، بينما كانت الحملة الافضل هي المتجهة من ناميبيا . أما هجمات رجال العصابات من زمبابوي وبتسوانا فعلى الرغم من انها كانت مخادعة وعاتية في تخريبها ، الا انها لم تكن ذات تأثير كبير على نتائج المعركة العامة ، وقد كون الجيش المؤلف من قوات جبهة تحرير موزامبيق ، وزمبابوي والكوبيين والصوماليين ، خلال تقدمه في الترانسفال قوة محترفة من كافة الاسلحة ومدعومة بقوة جوية مناسبة ولكن بدعم اداري ضئيل . غير ان القوات المهاجمة اساءت فهم اعدائها ولم تقدرها تقديرا جيدا . اذ لم تتعلم هذه القوات شيئا من انتصاراتها السهلة على البرتغاليين أو من معاركها مع الروديسيين ، اذ لم تستطع قوات الفولكستروم التابعة لجنوب افريقيا من الدفاع عن وطنها بمهارة ووحشية ونجاح فحسب ، بل أن القوات النظامية لجنوب افريقيا أيضا تمكنت من ان تعمل بمباغتة وسرعة مؤثرتين ، لكن القوات الخاصة لجيش جنوب افريقيا تمكنت من نقل المعركة الى أرض الكاسبا حيث دب الرعب والهلع في القلوب ، وشنت هجمات شديدة على مطاراتها ومراكز تموينها وخطوط مواصلاتها وحتى على مدينة « مابوتو » نفسها .

وكانت المقاومة التي ابداها مغاوير جنوب افريقيا في كل من الترانسفال والناتال شديدة وبحماس جنوني . لقد قاتل الافارقة الجنوبيون والذين هم من أصل اوروبي بعنف هز المرتزقة ومغاوير القوات المهاجمة ، لكنهم مع ذلك لم ينجحوا دائما .

* * *

انتهى الملازم الثاني « بيتر فان دير هورست » لتوه من ترتيب كمينه الاول ، وكان قد تلقى معلومات باللاسلكي قبل ساعتين تفيد ان رتلين من حوالي خمسين من رجال العصابات الموزامبيقيين والزمبابويين تدعمهم دبابتان من طراز « ت ٣٤ » ينتظر ان يصلوا الى منطقة دوريتة في هذه اللحظات ، فاستنفذ كل دقيقة سانحة ليستعد للقائهم ، كان فصيله مؤلف من اثنين وثلاثين رجلا مسلحين برشيشات متوسطة فرنسية الصنع ، وقاذفي قنابل مضادة للدبابات من نوع « كارل غوستاف » ، ومدفعي هاون من عيار ٨١ ميلمتر من طراز « ماليزيان » . كان الفصيل محمولا على العربات بالكامل ، اذ انه مزود بثمان عربات من طراز اللاندروفر اليابانية . ولديه تموين يكفيه لمدة اسبوع كامل ولديه أيضا عربتان من نوع لاندروفر بقاطرتين منفصلتين محملتين بالذخيرة والوقود ، وقد زود كل جندي من جنوده بمائة مذخر مملوء ، وانتقى موقعا ممتازا لكمينه في مزرعة غير مستعملة ، يمر من خلالها الطريق الترابي المتجه الى « ليسوتو Lesotho » ونشر الكمين على جبهة ثلاثمائة متر، وقسمه الى عدة مجموعات ، وضعت المجموعة الاولى المؤلفة من عشرة رجال مع الاسلحة المضادة للدرع ومدفعين رشاشين متوسطين في المقدمة ، عند الطرف الجنوبي من المزرعة، أما مجموعة المؤخرة مع الهاونات ومدفعي رشاش ، فقد وضعت عند المدخل في الطرف الشمالي للمزرعة ، بينما تمركزت مجموعة قيادته ومجموعة الدعم في الوسط ، وهم عشرة رجال وكمية كبيرة من القنابل اليدوية » في حين كان رجال قيادته يحملون قاذفات اللهب على ظهورهم بالاضافة الى الاسلحة الفردية. كان كافة افراد الكمين مختفين تماما . وقد زرعت الالغام المضادة للدبابات والمضادة للاشخاص وشحنات التفجير ايضا .

ومن جهاز اللاسلكي ، كان « فان دير هوست » ، يتلقى المعلومات من حوامة الاستطلاع ، يبلغ عن مشاهداته : **« الرتل الآن على بعد ميلين من موقعك ، دبابتان في المقدمة ... بقية القوة الى فريقين ... قوة كل منهما حوالي عشرين شخصا أو اكثر قليلا ... بعضهم يحمل الامدادات على ظهره .. لاتوجد معهم اسلحة ثقيلة »** وعلى الفور اصدر « فان ديرهوست » اوامره

السريعة التوكيدية عبر قناة الاتصال الداخلي قائلا : ((**الى اثنين من ضباط صف المجموعة الاولى، كل شيء يجب أن يتم، كما هو مخطط له ،حيث يسمح للمجموعة الاولى من العدو مع دباباتها بالتقدم دون ازعاج حتى النقطة ((آ)) . وعندما تصبح المجموعة الثانية من العدو عند النقطة ((ب)) أما بأمر مني ، أو بمجرد فتح النار تدمر هذه المجموعة بالمدافع الرشاشة ونيران البنادق الآلية ، ثم تفتح النار ، من قبل مجموعتنا الخلفية، بينما تتولى المجموعة المتقدمة تفجير الحشوات المضادة للدبابات وللاشخاص ، وتشتبك مع دبابات العدو بالقاذفات عديمة الارتداد ، وتدمر مشاة العدو بالمدافع الرشاشة ، في حين تقوم مجموعتي نفسها باستعمال قاذفات اللهب ضد الدبابات . يجب تدمير اسلحة العدو وذخيرته ، واذا دعت الحاجة ، تستعمل شحنات التفجير لاغراض الخداع ، وبأوامر مني . أما اذا لم يدخل رتل العدو ، لاي سبب كان منطقة الكمين فستصدر أوامر اخرى باللاسلكي في حينه**)) .

وعندما دخلت القوة المعادية حقل الرؤية ، لم يبد عليها انها كانت تتوقع وجود أية مقاومة ، وفيما كانت تتقدم ، بدون اكتراث حتى بدون تشكيلة تعبوية ، بل كانت تسير بالرتل خلف الدبابات ، ودون حذر ، وبنادق المجموعة كانت معلقة على اكتاف حامليها ، بينما كانوا يتحدثون ، ويضحكون ويجرون أحيانا هنا وهناك ، وكأنهم في نزهة ، لا في ارض المعركة ، لابل كان بعضهم يلوكون العلكة في أفواههم ، وكانت المسافة بين الفريقين لاتزيد عن مائة متر ، حيث كان بالامكان ان تسمع أحاديثهم بسهولة ، وفي الوقت نفسه كان الملازم الاول ((فان ديرهوست)) يراقبهم وهم يقتربون ، كان يفكر ان خطته لابد ان تنجح .

كان يعتبر ان خطته جيدة ، لكن الخطط العسكرية الموضوعة مسبقا كما كان يقول ((مولتكه)) يندر ان تبقى على حالها بعد التماس مع العدو . وفي هذه الحالة أخذ العدو، الذي كان يبدو حتى تلك اللحظة غافلا غير منتبه، زمام الامور بين يديه . وعندما اصبح رتل المغاوير على مسافة لاتزيد على ثمانمائة متر عن الكمين ، اخذت الدبابتان موقعيهما على جانبي الطريق الترابي واخذتا بفتح

النيران ، اولا باستخدام المدافع الرشاشة ، ثم بالقذائف الشديدة الانفجار على ابنية المزرعة المهجورة . كانت الدبابتان حتى الآن خارج مرمى قاذفات الصواريخ فصيلة « فاندير هورست » . أما أفراد المغاوير فانتشروا بسرعة على جانبي الدبابات وأخذوا مواقعهم على الارض ، وأصدر « فاندير هورست » أمرا سريعا باللاسلكي ، « ردوا على النار بالهاونات والمدافع الرشاشة ولتتحرك مجموعة الطليعة بعد خمس دقائق من انذارها نحو الخلف لتصبح وراءهم لأخذهم على حين غرة » .

واستمرت الدبابتان باطلاق النار على نحو ثابت وبدتا منيعتين على نيران المدافع الرشاشة التي تشتبك معهما . وفي نفس الوقت ظهر ان مغاوير العدو كانوا يزحفون من خلال الادغال الى الشمال من مواقع فصيلة « فاندرهوست » في محاولة واضحة للالتفاف من على جانب مواقعهم ، الامر الذي اقلقه كثيرا . لقد شعر أن من الحماقة ان يسمح للدبابتين بتثبيت جنوده في مواقعهم فيما يستمر جنود المغاوير بالزحف والتقرب . وكان لايزال يتمتع بميزة السرعة على العدو ، وتكلم في جهاز اللاسلكي ثانية : « **يلغى الامر الاخير ، فلتستعد المجموعة الخلفية للركوب بعربات اللاندروفر والاستعداد للتحرك خلال خمس عشرة دقيقة ولتستعد المجموعة المتقدمة لتقديم نيران التغطية . أما مجموعتي فستلحق المجموعة الخلفية تحت غطاء المجموعة الامامية ، وسنقفز عائدين الى نقطة الازدلاف المتفق عليها « شارلي » . لتكن نيران التغطية على اشدها خلال التحرك . ولتنقل نيران الهاونات الآن الى التل ١٠٢ . تنسحب المجموعة الامامية ، عندما تصل مجموعتي الى شارلي التحرك بناء على أوامري** » .

ومن موقع قوة مستور ، اضطر « فاندير هورست » الى اللجوء الى الدفاع والمراوغة ثم الانسحاب . وذلك بهدف كسب المفاجأة والنجاح معا ، وذلك بسبب عدم وجود اسلحة مضادة للدبابات ذات مدى كاف . لقد تعلم الدرس جيدا ولم يحتج لان يتعلمه او يتلقنه مرة أخرى . فعما قليل ستزود وحدته والوحدات الاخرى المماثلة بصواريخ مضادة للدبابات بعيدة المدى من

طراز « ميلان » والتي اخذت تصل من اليابان . كما سيكون للحوامات صواريخ جديدة أيضا . أما في الوقت الحاضر ، فمن الضروري أن يفر اليوم ليحارب غدا . على كل حال كان لديه متسع من المكان ، وكثير من الوقت او الزمـــان وبالعادة تكون خسارة المعارك بسبب عدم توفر هاتين السلعتين . واذ لاحظ « فاندير هورست » بارتياح عدم اصابة أي أحد من جنوده ، استغل بعض الوقت ، ليكون على مسافة جيدة بين قيادته ودبابتي الـ « ت ٣٤ » .

عندما لقيت الارتال الغازية القادمة من الموزامبيق بعض النجاح في تقدمها، اضاعت الفائدة التي احرزتها في ذلك من خلال معاملتها الوحشية للسكان السود الذين ادعت انها تقدمت من اجل خلاصهم . أما القادة الكوبيون لعصابـــات «Frolimo» فكانوا نوعا من الرجال الذين لايهتمون بقليل أو كثير بموت الرجال والنساء الابرياء أو بتشويههم أيضا . كان قادة الجيش المهاجم على درجة من قصر النظر والحقد الاعمى ، الى حد انهـم مارسوا القسوة بكـل أنواعها ومع جميع الناس بدلا من الرأفـــة . وتسامحوا مع جنودهـم الذين اشنطـوا في تجاوزاتهم بدلا من الشدة في معاقبتهم .

وأوقف الهجوم القادم من الموزامبيق ، لكن الجيش الشعبي لاتحاد جنوب افريقيا ، لم يكن ليتخلى عن المعركة بسهولة ، فقد كانت قوات العصابـــات القادمة من بوتسوانا تتقدم في عمق اراضي العدو ، معززة بهجمات من قوات قادمة من زمبابوي . لكن الامر الذي أخذ يتضح بسرعة هو ان جنوب افريقيا كانت صامدة قبل أن ينتهي كل شيء .

لم يعد الاتحاد السوفييتي يسيطر على أي شيء يحدث في الشرق الاوسط او في افريقيا الجنوبية . حتى الاوامر الصادرة من موسكو ، التي كانت تزداد تشويشا وخروجا عن كونها ملائمة في الايام الاخيرة من آب عام ١٩٨٥ ، توقفت نهائيا بانتهاء الشهر .

---

(١) خلاصة من كتاب المرج الملتهب The Veld Aflame : معركة جنوب افريقيا من أجل البقاء ، بقلم عدد من المشتركين ، منهم « الميجر جنرال ك. آ. وايمر » ، لندن ، ١٩٨٦ .

أما الولايات المتحدة الاميركية فقد واجهت اذ ذاك مشكلة جديدة كانت تنتظرها ، لكنها جاءت أكبر واسرع مما كان متوقعا . فقد تخلت قوات سوفييتية كبيرة عن كميات كبيرة من العتاد الحربي ، وكانت هناك أعداد كبيرة من الفنيين والمستشارين والعاملين المدنيين من كل نوع منتشرين فوق مناطق واسعة بدون هدف ملائم ، ودون ان يكون هناك سبب لوجودهم حيث هم . واستمرت بعض التشكيلات والوحدات في القتال ، لفترة بسيطة على الاقل ، في الاماكن التي كانت تتواجد فيها ، من أجل تحقيق الاغراض المحلية التي رآها قادتهم معقولة ، بينما قامت قوات أخرى بالبحث عن أول فرصة لتستسلم الى أقرب قيادة اميركية من أي مستوى ، فمثلا ابرق نقيب من قوات الولايات المتحدة الاميركية وقد أذهله ما شاهده ، واصفا ذلك لرؤسائه ، ويعلمهم انه يوجد تحت تصرفه جنرالان سوفييتيان وعدد هائل من الضباط وأعداد ضخمة تقريبا من مختلف الرتب .

أما المحاربون المحليون ، فقد سعوا للحصول على الاسلحة والمعدات السوفييتية ، وهاجموا كأسراب النحل ، وقد اضطرت اكثر من وحدة سوفييتية للدفاع عن نفسها ضد المغيرين من العناصر المحلية ، وحتى من بعض حلفائهم السابقين ووجدت نفسها تشتبك معهم ، الى ان خف لنجدتها بعض القوات الاميركية التي كانت قد استسلمت لها في المعارك السابقة . أما السفن السوفييتية ، فقد توجهت الى الموانيء الحيادية او السوفييتية لترسو فيها . لكن طائرات كثيرة عادت الى قواعدها في الاتحاد السوفييتي ، أو أحيانا الى أقرب الامكنة التي كان يسمح لها بالتزود بالوقود منها ، بينما فر آلاف العسكريين مخلفين وراءهم اسلحتهم الثقيلة ومعداتهم ، ومستودعاتهم نهبا لمن أراد ذلك ، من أي طرف كان .

وليست مهمتنا هنا ان نسرد قصة منظمة العون والاغاثة التابعة للأمم المتحدة «UNRRO» التي اخذت عن الولايات المتحدة الاميركية مهمة ، تجميع بقايا القوات السوفييتية المشردة التي كانت تعمل في افريقيا والشرق الاوسط.

ومهمة اعادة الرجال والنساء أيضا الى ديارهم . هذا ومازالت العملية مستمرة فيما نحن نستمر بالكتابة أيضــا . ولكن الامم المتحــدة ستواجه الكثــير من الصعوبات اكثر مما صادفته من خلال منظمة الاشخاص المشردين التابعة للامم المتحدة «UNDPO» ، والتي كانت أقيمت في نفس الوقت في اوروبا . ان أي تاريخ معاصر لايمكن ان يكون كاملا على كل حال دون الاشارة الى المشاكل التي نشأت بعد الحرب مباشرة . تلك المشاكل التي ستظل آثارها ماثلة في افريقيــا والشرق الاوسط لمدة طويلة ، ولابد ستنقضي عدة سنوات ، على سبيل المثال ، قبل أن يصبح آخر سلاح أدخله السوفييت الى افريقيا والشرق الاوسط ــ ضمن فصل من فصول تاريخ العالم الذي انتهى فجأة عام ١٩٨٥ ــ صالحا لتحقيق غرض ما في يد جهة او أخرى .

ان تصفية الدعم السوفييتي ، سواء مباشرة او بالواسطة قد اذن بنهاية أي تدخل خارجي آخر . ولقد ضمنت جنوب افريقيا سلامتها وامنها من خلال النجاحات التي حققتها قواتها المسلحة في مقاومــة ومن ثم هزيمة الهجمــات التكتيكية التي تعرضت لها . وذلك بمساعدة جزئية من جهود القوات البحرية الاميركية تلك الجهود التي كانت موجهة اساسا الى العمليات الخارجية للاتحاد السوفييتي ، وكانت لها نتائج عزل القوات المحاربة باسم الاتحاد السوفييتي ، وكذلك المنظمات الوطنية المسلحة « العصابات » عن متابعة الحرب . وان انتهاء المعركة الخارجية الاستراتيجية ، لم يجلب معه نهاية لذلك النوع من الصراع الذي يؤرق الافارقة باستمرار ــ وهو القتال الداخلي ــ اذ كانت هناك معارك مريرة بين انغولا وجاراتها وحتى داخل انغولا نفسها ، وتجاريها في ذلك حوادث الحدود مع زائير ، وتجدد التمزق في موزامبيق . أما جنوب افريقيا فمع انها أخترقت من جميع الجهات ، الا انها بقيت صامدة في مركزها ، أمــا اعداؤها على الخطوط الامامية الذين مازالوا يتمسكون بفكرة المواجهة ، فقد بدأوا في النظر الى شؤونهم الداخلية ، اما اتحاد جنوب افريقيا الذي لم يكتمل بنــاؤه بعد فلم يزدهر أيضا . وقد بدأ بالتحلل من قبل اولئك الذين تحمسوا لاقامته من قبــل .

وفي افريقيا الجنوبية ، ظهر عجز القوات المتحالفة مع السوفييت . أما نجاح ايران ، في الخليج العربي وجنوب شبه الجزيرة العربية ، فقد كان تاما وفعالا الى حد انها بدأت تحشد قواتها على حدودها الشمالية من اجل غزو الاتحاد السوفييتي. وذلك قبل ان يحسم الامر تبادل القصف النووي في أوروبا. أما مناورات الجيوش المصرية على شواطيء البحر الاحمر والتي لم يكن لها هدف معين ، فلم تكن ذا تأثير يذكر ، وقد تعثرت المبادآت السوفييتية ، عند اطراف المعركة الرئيسية الامر الذي ابقى الميزة الاستراتيجية الكبرى في قبضة الولايات المتحدة الاميركية . وان لم يحتو هذا النجاح ضمنا التأكيد على أن الحلفاء الغربيين سيربحون الحرب حتما في أوروبا ضد الاتحاد السوفييتي وحلف وارسو ، الا أن أسهم في مجالين اثنين : اولهما تثبيت الموقف في الشرق الاوسط لصالح الغرب ، وثانيهما تأمين تدفق البترول عبر الطرق البحرية ، وبذلك تكون الولايات المتحدة الاميركية قد خطت شوطا بعيدا في ضمان عدم خسارة الحرب اذا ما طالت ، وبخلق موقف كانت معه المبادهة السوفييتية على المجنبات قريبة من الفشل ، كما أنها عجلت في خلق المفهوم العام من ان القوة العسكرية للاتحاد السوفييتي يمكن ان تقهر وبذلك شدت من عزيمة اعدائه في الداخل .

* * *

الفصل الرابع والعشرون

القرار النووي

توقف الهجوم السوفييتي البري في أوروبا ، وفي الوقت نفسه ابرزت الحرب في البحر ليس فقط ضعف الاتحاد السوفييتي كقوة بحرية ، بل وسوء ادارة جهوده بالتغلب على نواحي الضعف ، كما بدأت تظهر المؤشرات المختلفة لعدم الاستقرار السياستي داخل الاتحاد السوفييتي وخارجه على حد سواء . كأن هدف الحرب أولا وقبل كل شيء سياسيا في معظمه حيث يهدف الى استغلال الضعف التقليدي للغرب من أجل اذلال الولايات المتحدة الاميركية ومن ثم توطيد الحكم الاستبدادي في اوروبا الشرقية كضمانة وحيدة في مواجهة الانقسامات والتشرذم ، ولا شك ان الكشف عن هذه الاهداف الحربية بحد ذاته يظهر عدم توازن القوة السوفييتية ، وكونها جوفاء . ولقد بنيت الآلة العسكرية السوفييتية على حجم لانظير له ، من أجل دعم أعمال سياسية غير ناجحة على الصعيد الرسمي . ولم يكن الاتحاد السوفييتي قادرا على المشاركة في الداخل ؛ وفي الخارج كان سلبيا بصورة عامة . وكانت القوة أو التهديد بالقوة ضروريا للتصدي لعامل الجاذبية في السياسة الغربية من جهة والنزعات الانفصالية داخل حلف وارسو من جهة ثانية . ولقد اخفقت تجربة التماسك السياسي في أوروبا الشرقية للوصول الى السلطة ، حتى مساعي الاحزاب الشيوعية في الغرب لم تزد من النفوذ السوفييتي هناك ، بل ان تلك الاحزاب ضربت المثل بالانشقاق بالنسبة للبلدان الشيوعية الشرقية .

في عام ١٩٥٦ في هنغاريا ، وفي عام ١٩٦٨ في تشيكوسلوفاكيا ، كانت القوة

العسكرية السوفييتية كافية لاستعادة الاوضاع السياسية التي كات تنزلق بعيدا عن السيطرة السوفييتية . أما في عام ١٩٨٥ ، فلم تفلح الآلة العسكرية السوفييتية في نشر السيطرة السياسية السوفييتية في جنوب شرق أوروبا، ولا في جمهورية المانيا الاتحادية . فقد كان أحد أهدافها الرئيسية من هذه المحاولة هو السيطرة على حالة القلق العام وعلى تمرد وعصيان حكومات وشعوب أوروبا الشرقية . كان يتطلب تحقيق مثل هذا الهدف انتصارات حاسمة وسريعة في يوغوسلافيا وجمهورية المانيا الاتحادية ، لكن صد السوفييت وايقافهم كان كافيا ، حتى ولو لم ينته الى هزيمة حقيقية ، للسماح للقوى السياسية المكبوتة بالانفجار . وبدأ زعماء البلدان التابعة سابقا ثم القادة السوفييت انفسهم فيما بعد يتحققون من ان القوة العسكرية لم تعد العلاج الامثل للانشقاقات السياسية والعقائدية ولا يتيح الركود العسكري تعبئة امكانات وموارد الغرب فحسب ، بل انه ، سيدعم ويوطد الثورة في الشرق . تماما كما حصل في عام ١٩١٧ .

وانقسم صانعو السياسة السوفييتية على انفسهم مرة أخرى ، وهم يستشفون اخطار تفكك حلف وارسو والامتعاض في الداخل . فالصقور منهم أصبحوا أكثر تشددا للدعوة للتغيير عن طريق العنف ، بينما حبذ الحمائم العودة الى روسيا الام . فالفريق الاول يدعم حجته قائلا انه اذا كانت المعركة التقليدية لم تسر وفق الخطة المقررة فان ذلك يعني ان عنصرا واحدا فقط قد خرج عن الاستراتيجية الشاملة ، ومازالت الترسانة النووية كاملة غير منقوصة ، لم تمس بعد . ولعل ايقاع دمار متبادل في بلدان الطرفين المتحاربين خير من زحف التعفن السياسي والتفكك القسري ، ومن السهل على مساحات واسعة متخلفة في الاتحاد السوفييتي ان تصمد وتجتاز الكارثة على نحو أفضل بكثير من الولايات المتحدة الاميركية بعد تبادل التراشق النووي ، يضاف الى ذلك توفر كمية كافية من الرؤوس النووية لتوجيه بعضها الى الصين أيضا ، وبذلك يستبعد تهديدها لنا حتى لجيل آخر ، علما ان مخاطر الرد الصيني بالمثل لاتكاد تذكر ، واذا ما كانوا مستعدين للمضي أبعد من ذلك ايضا ، فان فرصة عقد صفقة مع الولايات المتحدة الاميركية قبل وقوع الدمار تظل قائمة . فبامكانهم ، مثلا ،

القيام بهجوم أو اكثر على أهداف في اوروبا ليثبتوا انهم جادون بالرد الحاسم، ثم يقترحون في الوقت نفسه على الولايات المتحدة الاميركية اتفاقا متبادلا حول الوضع الراهن ، وتقسيم العالم الى دائرتي نفوذ ، فالقوتان العظميان تقوم بينهما مصالح مشتركة ، اكثر مما تقوم بين احداهما والدول الحليفة لها . اذ من مصلحة كل منهما بقاء أوروبا منقسمة والشرق الاوسط منضبطا وذلك من خلال عملهما معا وتعاونهما المشترك ، كما يستطيع أي منهما التعامل مع الصين شريطة عدم تدخل كل طرف فما يخص الطرف الآخر .

كانت تلك صورة مقنعة ، لكن التقارير الواردة من اوروبا الشرقية ومن الجمهوريات التي تشكل الاتحاد السوفييتي ، والتي أصبحت تزداد حجما يوما بعد يوم ، فكانت تؤيد نظرية مخالفة ، تقدم بها جانب الحمائم . وكالعادة بدأ البولونيون الخطوة الاولى ، فمع نشوب الحرب ، فرض الاتحاد السوفييتي سيطرته واشرافه على بولونيا من خلال الوزارة البولونية وأجهزة الشرطة والامن . وقد ادى هذا الى انعاش وتنشيط المقاومة وتلك صفة طبيعية مألوفة في شعب ظل يرزح تحت نير الاضطهاد من قبل اقطار كبرى مجاورة لاكثر من مائتي عام .

وفي نفس الوقت ، كان الحلفاء الغربيون يواصلون على عجل جهودهم العقيمة لاجياء مكتب الخدمات الاستراتيجية الخاصة «OSS» وادارة العمليات الخاصة «SOE» وتحسين الاتصال مع جماعات المقاومة ، وخلال الفوضى التي سادت معركة نقطة التحول في المانيا ، سهلت وحدة مدرعة بولونية ، في الشمال، اجتياحها من قبل قوات اميركية متقدمة بصورة متعمدة، الامر الذي وفر للاستخبارات الغربية واجهزة مخابراتها ثغرة تعمل من خلالها ونواة لاتقدر بثمن لشبكة ارتباط اضافية ، ومقاومة عنيدة مفيدة جدا . ظل الغرب يتبع لبعض الوقت الطرق القديمة المعروفة خلال فترة الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ لكن اسس التمرد هذه المرة كانت مختلفة في الحقيقة . فالاهداف الاساسية في كل من بولونيا وغيرها من الاماكن كانت ترمي الى انزال الاتحاد السوفييتي من على ظهورهم والحصول على ما يكفي لطعامهم وسلوك طرقهم الخاصة الى مستقبلهم السياسي

الذي يختارونه لانفسهم ايا كان نوعه ، ولن ينطوي ذلك بالضرورة على رفض لمستقبل يتبع النظام الشيوعي ، ولكن بالتأكيد على رفض لتحقيقه على الطريقة السوفييتية . ففي المجتمع الذي يتوجه ، الى قيم ومفاهيم الطبقة الوسطى الاستهلاكية ، تبدو ديكتاتورية البروليتاريا مفهوما باليا عتيقا . لكن الامر الذي لايطاق حقا هو ديكتاتورية البروليتاريا السوفييتية كما يمثلها المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي والمخابرات السوفييتية « KGB » .

وقد اثبتت ظاهرة الشيوعية الاوروبية ، كما تنبأ بذلك المراقبون المتبصرون في الغرب ، انها اشد قتلا وفتكا بالامبراطورية السوفييتية منها للرأسمالية الغربية . على ان القوميات المضطهدة في أوروبا الشرقية ، وفي الاتحاد السوفييتي نفسه لم تكن معصوبة العينين عن عيوب المجتمع الغربي والمجتمع الرأسمالي بشكل عام . ولم تكن هذه الشعوب المسحوقة تتطلع الى ادارة اقتصادها من قبل شركات اميركية متعددة الجنسيات ولا من قبل المخططين السوفييت. لكن الفكرة التي راقت لهم هي فكرة مجتمع يقوم على الحرية القومية والمبدأ الاشتراكي معا وفي وقت واحد . وفي أعقاب توقف الهجوم السوفييتي في أوروبا ، بدأت الفرصة تتهيأ لتأكيد هذا المسعى . لم يكن هناك الكثير من الترابط بين مختلف الحركات الوطنية ، لكن حقيقة وجود العديد منها في أوروبا وفي آسيا جعل الاندفاع للاستقلال الوطني قويا وبدأ التحرك بنفس الوقت الذي أدى أيضا الى تحويل الانفجارات المحلية القليلة في وقت لاحق الى عصيان اصبحت تصعب مقاومته .

وبالاضافة الى المقاومة المتزايدة في بلدان شرق أوروبا، ظهرت حركات التمرد الوطنية في وسط آسيا بتحريض من الصين، الامر الذي حدا بالقيادة السوفييتية العليا لئن لاتعتمد على الوحدات التي تضم نسبة عالية من جنود تلك المناطق . وكان لابد من ارسال عدد كبير من وحدات موثوقة الى الشرق من مناطق عسكرية روسية محضة، مما قلل عدد الجنود المكلفين بالامن الداخلي في بولونيا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا إذ كان عليهم هناك أن يراقبوا ليس السكان المدنيين

فحسب ، بل ووحدات الجيش المحلي أيضا ، ذلك الجيش الذي أخذ ولاؤه للاتحاد السوفييتي يهتز يوما بعد آخر ، ولم تكن المقاومة مثلما كانت عليه خلال الحرب العالمية الثانية ، أي حركة سرية موجهة ضد السلطات ، فالسلطات نفسها الآن بدأت تقاوم ضغط وتوجيهات القيادة السوفييتية المدنية والعسكرية. وقد ظهر هذا من خلال الفشل في الحفاظ على المواصلات بين الاتحاد السوفييتي والمانيا الشرقية عبر بولونيا . فقد تعطلت السكك الحديدية ، والطرق البرية بسبب الاعمال التخريبية الامر الذي اعاق حركة تشكيلات النسقين ، الثاني والثالث الى الخطوط الامامية ، كما اعاق وصول الذخيرة أيضا ، وتسبب كذلك في اعاقة ايصال الاطعمة والمصنوعات المختلفة من بولونيا الى الاتحاد السوفييتي. وعجزت السلطات البولونية عن القاء القبض على المسؤولين عن تلك الاعمال التخريبية . وعندما حاولت القوات السوفييتية ذلك بنفسها مباشرة فانها لم تجمد فقط عددا كبيرا من الوحدات كان يمكن الافادة منها على نحو أفضل في مكان آخر وحسب ، بل أدت الى بدء احداث قتالية قامت بها عصابات المدن موجهة ضد ثكنات الجنود السوفييت وتحركات الحاميات السوفييتية .

لقد نجحت روسيا في صراعاتها السابقة ضد نابليون وضد هتلر بسبب عوامل ثلاثة : ١ ـ سعة البلاد غير المحدودة ، ٢ ـ القوة البشرية غير المحدودة، ٣ ـ وانقياد الروس وتصميمهم على التضحية الرهيبة من اجل الدفاع عن البلاد الام . أما الآن فقد سار كل شيء في اتجاه معاكس : فلا خير في التراجع داخل المساحات الشاسعة لا وراسيا « أوروبا وآسيا » اذ كان من شأن ذلك ان يزيد في أن يحكم الطوق من الدول المعادية ويزيد من الفئات المناهضة داخل المناطق التي كانت تشكل أجزاء من الامبراطورية السوفييتية ، يضاف الى ذلك ان القوة البشرية لم تعد موثوقة بكاملها ، فان الرجال القادمين من مناطق مقهورة بكاملها كانوا أقل استعدادا للتضحية من أجل توطيد حكم اجنبي في بلدان مجاورة . وفي الوقت نفسه كانت القوة البشرية السوفييتية مشدودة على جبهتين على نحو لايطاق بسبب حركات التمرد القومية ضد الاتحاد السوفييتي ، وبسبب مقاومتها لتجمع القوات الغربية في المانيا وأخيرا بسبب الحاجة الملحة لمواجهة الخطر الصيني الكبير .

لم يكن الخطر القادم من الشرق خطرا بالمعنى العسكري ، فالتفوق السوفييتي في المعدات وفي الخبرة يبدو كافيا للتعويض عن التفوق العددي الصيني . وفي المجال النووي كانت كفة الاتحاد السوفييتي هي الراجحة ، ولكن كان من المشكوك فيه ان يستمر هذا الرجحان مدة طويلة في المستقبل . ولم يكن الخطر موجها الى القوة العسكرية الروسية بل الى ضعفها السياسي . فالشعوب التي تشكل جمهوريات آسيا الوسطى من الاتحاد السوفييتي كان قد تم دمجها قسريا في الدولة في القرن التاسع عشر ، خلال فترة التوسع الاستعماري شرقا وجنوبا. لقد تقدمت روسيا الى الواجهة الامامية في عصر التنافس الامبريالي مع بريطانيا التي كانت تحاول التقدم من الهند باتجاه الشمال والغرب والاستفادة من فرصة ضعف الصين ، لكن الروس كانوا أحيانا أكثر نجاحا واكثر قسوة من البريطانيين . وقد ظلت الحدود الشمالية الغربية للهند ميدانا لمعارك خاضتها الجيوش البريطانية والبريطانية الهندية الى انانتهى الحكم البريطاني للهند في أواسط القرن العشرين . أما روسيا فقد تمكنت من تصفية المعارضة القبلية الماثلة في جورجيا والقوقاس قبل نهاية القرن التاسع عشر . وجدير بالملاحظة ان سيطرة الروس على مساحات هائلة من آسيا وعلى الملايين الكثيرة من الرعايا غير الروس تخطت ليس فقط الانتقال من الحكم القيصري الى الحكم البلشفي بل تخطت أيضا انهيار الامبراطوريات الغربية في آسيا ، ذلك الحدث الذي كان يمكن ان يشكل مثالا تقتدي به جمهوريات الاتحاد السوفييتي في آسيا الوسطى .

أما الآن فهناك عامل جديد ، انه قوة الصين وازدهارها . لم تكن الصين قوة يحسب لها حسابا حتى السبعينات . وقد قمعت واخضعت المسلمين في « سينكيانغ «SINKIANG» » بمثل وحشية الروس في اخضاع مسلمي طشقند « والماآتا «ALMA-ATA» وكانت المكافأة المادية التي قدمتها الشيوعية الصينية لهم أقل ارضاء من عضوية الاتحاد السوفييتي التي قدمت لنظرائهم . اما الآن فان الازدهار المشترك أخذ يغير ميزان الاوضاع المادية ، وأخذ الصينيون يستخدمون الاقليات في جانبهم من الحدود

للتسلل الى الجانب المقابل والتأثير في سكانه ، فبالاضافة الى العروض الخاصة بأوضاع اقتصادية أفضل ، كانت هناك مناقشات قريبة الى قلب العقيدة السوفييتية ، يمكن تمويلها ضد صانعيها كان مبدأ « التعايش السلمي » الذي ظل عنصرا أساسيا في الدعاية السوفييتية خلال فترة طويلة ، يتضمن أيضا تقديم الدعم الى حركات وحروب التحرير القومي . كانت هذه الحركات حتى الآن تنشط في أماكن بعيدة في افريقيا وجنوب شرق آسيا ، لكن السؤال الذي بدأ يطرح نفسه الآن ، لماذا لاينطبق نفس المبدأ على شعب « الاوزبك » و« الكازاخ » ألم ينص الدستور السوفييتي على حق الجمهوريات التي يتألف منها ، في الانفصال عنه اذا ما شاءت ذلك ؟ الم يحن الوقت خلال هذه الحرب الفاشلة لتتحقق مثل هذه الطموحات ؟.

وفي الوقت الحاضر يبقى جهاز الحزب الشيوعي والشرطة السرية على درجة من القوة تكفي لردع هذه الحركات ، لكن وجودها كان كافيا ايضا ليزيد في قلق السلطات المركزية . وفي حدة المناقشات بين اولئك الذين يقولون بتصعيد الازمة كوسيلة لاسترداد الامن والنظام، واولئك الذين يحبذون الارتداد عن التوسع الذي أدى بروسيا السوفييتية للوقوع في متاعب جمة .

ولجأت حمائم الكرملين أو الذين يسمون انفسهم بالواقعيين الى استخدام هذه الحقائق ، وتلك المناقشات لدحض نظرية الامر الواقع بين القوتين العظميين بشأن استخدام القوة النووية كما يتمسك بها المتطرفون في الجانب السوفييتي. اذ ما الذي يستطيع ان يحمل الولايات المتحدة الاميركية على الاعتراف للاتحاد السوفييتي بدائرة نفوذ في أوروبا الشرقية وسيبيريا ، في الوقت الذي لايستطيع النظام السوفييتي نفسه ان يمارس ذلك النفوذ في هذه المناطق ؟ وحتى لو بقيت القوات التي تواجه حلف الاطلسي « ناتو » بعيدة عن التخفيض بموجب اتفاق مع الغرب ، فلم يبق هناك من القوات ما يكفي للسيطرة على الشعوب الخاضعة والتي بدأت بالتململ للخلاص من نير سيطرتها على تلك الشعوب . ولعل من الخير تقبل الحقائق كما هي ، والإعتراف بالاخطاء الموروثة عن الاحلام القيصرية لانشاء امبراطورية مترامية الاطراف . وعن أوهام البولشفيك بقيام ثورة عالمية

« كان لايزال انتقاد « لينين » بالاسم أمرا غير مسموح به » . أن عظمة روسيا كانت دائما روحية اكثر منها مادية . يضاف الى ذلك ان المبادىء التقنية الخالصة للشيوعية شوهتها متطلبات بناء الامبراطورية وقد اضطرت الدولة لتشديد وجودها وعنادها . وقد يكون من الافضل للروس ان يبقوا وحدهم بدون أن تنضم اليهم شعوب أخرى يصعب اخضاعها لهم ، كما كان الامر من قبل .

وفي الجانب الغربي كانت تدور مناقشات عنيفة أخرى ، ولكن بدون نتائج مهلكة شخصيا كما هو معهود في المناقشات التي تدور في الكرملين . كان السؤال هو : أهل نغزو اولا نغزو ؟ كانت التعزيزات الاميركية تتدفق ، والطرق البحرية اكثر امنا واطمئنانا والحلفاء الاوروبيون قد استعادوا قواهم ولموا شملهم بينما كان اشتراك فرنسا مصدر قوة هائل ، في حين كانت الشواهد على تمزق السوفييت في كل مكان . ويطرح السؤال ، لماذا لانتحول الآن للهجوم ونتخلص هذه المرة والى الابد من خطر اوروبا الشرقية كي يعيش كل انسان سعيدا ؟ ولا حاجة لتكرار خطأ هتلر بالذهاب بعيدا في العمق ، ولا حاجة ايضا الآن الى خطأ نابليون ، اذ يمكن تحرير المانيا الشرقية وبولونيا والتقدم في اكرانيا حتى نهر الدنيبر ، فالسيطرة على محاصيل اكرانيا ومنشآت الطاقة الكهرمائية في حوض الدنيبر تكفي لشل المجهود الحربي لروسيا وجعله كسيحا بلا حراك، وقد يكون تحرير جورجيا والسيطرة على باكو امرا مغريا، لكن ذلك على المدى البعيد ينطوي على عواقب وخيمة ، لانه سيكشف خطوط مواصلات الغرب وستقوم الحاجة لتخصيص حاميات لتأمين سلامتها ايضا وبذلك نكرر في الشرق خطأ السوفييت في الغرب .

هذا الاتجاه من المناقشة التي اقترحها القادة العسكريون الاميركيون المتنفذون لقي تأييدا من اولئك الذين كانوا يفكرون من زاوية الجغرافيا السياسية والمساحات الارضية . لكن عنصرا واحدا في هذه المناقشة ، جاء مغايرا . الا وهو مخاوف الاوروبيين السياسية وخشيتهم وايقاظ عدم الثقة لديهم . واول

مرحلة في هذا التقدم ستكون تحرير جمهورية المانيا الديمقراطية من السيطرة السوفييتية واحتلالها بقوات غربية ، ستكون نسبة الالمان الغربيين فيها نسبة راجحة . وتساءل الفرنسيون والبريطانيون وصغار الحلفاء الغربيين : هل يصدق ان مثل هذا العمل لن يسفر عن توحيد المانيا من جديد ؟ في سنوات الحرب الباردة في الخمسينات ، كان موضوع توحيد المانيا صرخة تطلقها دائما الحكومات الغربية بشكل ببغائي . وقد أيد كثير من الاوروبيين هذا الخطلاقتناعهم الاكيد ان شيئا من هذا القبيل لن يحدث . وفي ذلك الوقت ، كانت هذه المسألة ترهيبا للروس وترغيبا للالمان الغربيين لشدهم أكثر فأكثر الى التحالف الغربي . لكنها لم تكن هدفا أصيلا بعيد المدى الا بالنسبة للقلة القليلة . وكثير من الالمان المفكرين أنفسهم ، كان يشعر بالتشاؤم فيما يتعلق باعادة توحيد المانيا ، وكيف سيكون ذلك ، وما تأثيره على جيرانها . وقد يكون هؤلاء واثقين ان ألمانيا الغربية على الاقل قد تغيرت تغيرا كبيرا ، وإنها لن تسمح لألمانيا الموحدة بأن تصبح قوة عدوانية من جديد . لكنهم رأوا وبنفس الوضوح ان الآخرين من الشعوب الاوروبية لايشاركونهم الثقة في نواياهم ومقاصدهم ، بالمقارنة مع الآمال المشرقة للوفاق في أوروبا الغربية من خلال السوق الاوروبية المشتركة ، لكن هل يمكن لالمانيا الموحدة ان تعود سيرتها في اذكاء العداوات القومية من جديد . لم تلق وجهات النظر هذه الكثير من الاستجابة والارتياح في المانيا ، لكن الناس تنفسوا الصعداء عندما أعلن « ويلي براندت » بحكمته السياسية الرفيعة انتهاج سياسة « الاوستْ بوليتيك » الشرقية في الستينات ، واعلن أيضا تخليه عن اعادة توحيد المانيا كهدف للسياسة الالمانية في المستقبل المنظور .

والآن واذا أصبحت الطريق الى برلين مفتوحة من جديد ، يقوم الاغراء وتقوم أيضا وبقدر أكبر المخاوف والشكوك . ففي جيش المانيا الغربية هناك عناصر ترى من الصعب عليها مقاومة انتهاز فرصة دعم انتفاضة المانية الشرقية ضد الاحتلال السوفييتي بهدم جدار برلين البغيض والى الابد ، وكذلك ابراج مراقبة الحدود . كانت القيادة الالمانية نفسها تشك في مدى قدرتها على كبح قواتها اذا مالاحت مثل هذه الفرصة . أما الفرنسيون والبريطانيون والبلجيكيون

والهولنديون والنرويجيون من جهة أخرى ، فقد رفضوا مطلقا الموافقة على التحرك الى ما وراء حدود المانيا الغربية .

وكان هؤلاء، بالاضافة الى مخاوفهم من المانيا الموحدة حتى لو كانت المانيا الغربية تسيطر عليها ، يجادلون باقتناع من ان هجوما في داخل الاراضي السوفييتية سيكون الشيء الوحيد الذي يعمل على احياء الارادة السوفييتية وقدرتها على المقاومة ، كما سيحثهم على الخروج من يأسهم واستخدام ترسانتهم النووية . بالطبع تستطيع الولايات المتحدة الاميركية ان تثق بقدرتها على تخطي مثل هذا الحدث ، أما مصير أوروبا الغربية فهو مظلم لابل اشد حلكة وظلاما . وسارت المناقشة في اتجاه دعوة القوات الغربية على جانبي الحدود لتراقب تفكك حلف وارسو لمساعدة المقاومة السرية في بولونيا وغيرها من البلدان التابعة .

كان هناك ممثل آخر في هذه الدراما أغفله ابطالها من المتشددين ، فالرأي العام في المانيا الشرقية ظل ولامد طويل في عداد أكثر الآراء تشويها وقمعا في أوروبا الشرقية . وقد اتاح فشل الهجوم السوفييتي والغليان اللاحق في بولونيا والجمهوريات السوفييتية الشرقية لاولئك الذين صمتوا طويلا ان يرفعوا صوتهم من جديد . لقد أزيحت الطغمة المسيطرة على «Apparatchiks» الحزب الاشتراكي الالماني الموحد «SED» وبدأ نقاش حقيقي يصل للاسماع بين الاكاديميين والفنيين والمدراء وضباط الجيش ، بل بين جميع اولئك الحرفيين الذين كان لهم فضل استمرار الدولة وجعل صناعتها شيئا هاما في العالم ، وعلى الرغم من التدخل الايديولوجي السوفييتي ، لم تكن آراؤهم مطابقة لما كان يتوقع لها ان تكون في الغرب أو في الشرق . فلم ترتفع أصواتهم موافقة بالانضمام الى اخوانهم الى الغرب من نهر الالب حيث لم يروا ما يبهجهم في المانيا موحدة يسيطر عليها المصرفيون وأصحاب البنوك في المانيا الغربية لصالح النمو الاقتصادي الرأسمالي وأصحاب المصانع . وقد وجدوا ان الامتثال والخضوع وكذلك السلطة في الغرب معرقلة كما هي عندهم . ورأوا المستقبل الافضل في دولة تقوم على بعض فضائل الروسية القديمة التي تمثلوها في نظامهم : وهي

الاقتصاد في الانفاق والالتزام الشديد بأهداب الفضيلة والشعور بالتفوق ، نحو الجيران على الجانبين ، وهو اعتقاد بأنهم أكثر تقدما من السلاف في الشرق ، وارفع مستوى أدبيا واخلاقيا من مزيج الانظمة الاقتصادية في الغرب التـي كانت من قبل ــ كما تراءى للالمان الشرقيين ــ تظهر علامات التدهور والانحطاط .

وقد ادرك الالمان الغربيون وجهات النظر هذه من خلال اتصالاتهم المتزايدة عبر المناطق الامامية لحلف وارسو التي كانت تسودها الفوضى ، ولقد استغربوا وأحسوا بالصدمة ، اذ وجدوا اشقاءهم الالمان في الشرق ، مترددين وممتنعين عن الانضمام الى المعجزة الاقتصادية والحرية السياسية في الغرب ، كان بعض هؤلاء يحس خفية بالخلاص لان المانيا لن تستوعب سبعة عشر مليونا من الالمان البروسيين الآخرين « أو عددا مماثلا من الاصوات الاشتراكية » التي ستسهم في تشويه المنظر السياسي الالماني . وعلى ضوء هذه التقديرات ، قل كثيرا ضغط المانيا الغربية من أجل غزو الشرق ، اذ لم يجد هؤلاء ما يبهج في دخول جيش المانيا الغربية الى شرقها كمنقذ ومحرر ليقول لهم اخوانهم المحررون بعد قليل من دخولهم « عودوا الى بيوتكم » .

لقد زاد هذا من صعوبة اقناع الحلفاء الاميركيين في الانضمام اليهم في هجوم معاكس ضد روسيا السوفييتية وحلف وارسو عبر المانيا الشرقية وبولونيـا واكرانيا . وفي محادثة أخيرة لفض المناقشة دعا رئيس الولايات المتحدة الاميركية الى اجتماع قمة يعقد في لندن ويحضره رؤساء حكومات بلدان حلف الاطلسي ، ودار البحث حول نقاط ثلاث هي :

١ ــ المكاسب الحاصلة من جراء انهاء المهمة وبالتالي ضمان السلم في عصرنا .
٢ ــ احتمال ان يؤدي الهجوم الغربي الى تفجير الحرب النووية .
٣ ــ المسألة الالمانيــة .

جادل الاميركيون في أنهم انقذوا اوروبا من جديد بجهدهم ، ويكفي فعل ذلك ثلاث مرات ولعل الضمانة الوحيدة لعدم تكرار ذلك مرة أخرى ، هي اخراج

الاتحاد السوفييتي من اوروبا . لم يكن الروس حمقى الى حد تفضيل ان يحل بهم الدمار النووي على فقدان الدول التابعة في اوروبا الشرقية . وحتى لو ادى بهم الامر الى فقد جزء من أراضيهم أيضا ، وان الاعلان عن أهداف حربية محدودة تعطيهم ضمانا للوجود الآمن في عقر دارهم ، ولكن ليس بالسيطرة على الآخرين . أما المسألة الالمانية فان حلها يخص الالمان أنفسهم . حتى اذا اختاروا ان يتحدوا ، فسينشغلون في اصلاح واعادة بناء الكثير مما خربته الحرب . ولن يكون لديهم متسع ليشكلوا تهديدا لغيرهم من الاوروبيين الغربيين الذين نجت أراضيهم نسبيا من الدمار ولم يكن لديهم الكثير مما يحتاجون لاعادة بنائه .

أما زعماء المانيا الغربية الذين مازالوا منقسمين فيما بينهم ويتعرضون لضغط مستمر من الجيش للتحرك الى الامام ، فلم تكن مشاركتهم في المباحثات تتصف باهتمام كبير . أما البريطانيون والفرنسيون والبنيلوكسيون والسكاندينافيون لم تدهشهم المناقشات الاميركية وكرروا الاعراب عن مخاوفهم من هجوم نووي، ومن المانيا موحدة في المستقبل ، يضاف الى ذلك ان سير الاحداث في الاتحاد السوفييتي كان يتجه نحو انهياره السريع حتى بدون هجوم غربي جديد . فاذا جاءت الهزيمة نتيجة تفكك داخلي وليس بسبب هجوم خارجي فان ذلك أفضل واقل كلفة كما قالت الاركان العامة الالمانية في عام ١٩١٧ . عندما قامت بتهريب « لينين » الى روسيا « ان أي محاولة سوفييتية في المستقبل لاثارة المشاعر القومية ضد الاجنبي لاستعادة مواقع مفقودة سوف لايلقى ولو قدرا بسيطا من التصديق اذا لم تكن الجيوش الاجنبية تغزو تراب روسيا » .

وفكر الاميركيون والى جانبهم العناصر المتشددة في القوات المسلحة الالمانية في التحرك منفردين . ومن يدري ماذا ستكون النتائج فيما اذا نفذوا فكرتهم ؟ لكن تحولا دراميا جديدا في النقاش الذي كان يجري في موسكو قد اعفى المتسائلين من مهمة الوصول الى استنتاج .

فالفريق النووي في حرم القيادة في الكرملين « الفريق الذي يؤيد استخدام الاسلحة النووية » الذي كان يرى ان الوقت يجري لغير صالحه عقد اجتماعا

سريا مع رئيس الجمهورية الامين العام للحزب الشيوعي السوفييتي ، استبعد من حضوره خصومه تحت التهديد باستخدام قوة السلاح وأصر هذا الفريق على ضرورة التحرك الفوري باتجاه التهديد باستخدام السلاح النووي لاظهار تصميمه للمضي في هذه اللعبة الخطرة . وفي الوقت نفسه توجه رسالة الى الولايات المتحدة الاميركية يقترح فيها الانسحاب الفوري لجميع القوات الاجنبية من افريقيا والشرق الاوسط ، والدخول في مفاوضات ثنائية لاقامة مناطق نفوذ اميركية وسوفييتية في جميع انحاء العالم . وقد يكون من المناسب، مهاجمة الهدف المذكور في انكلترا خلال انعقاد مؤتمر القمة الغربي المقرر هناك ، ليرى كل واحد من المشتركين وبأم عينه الاخطار التي قد تحملها أية منهجية أخرى غير تلك التي اقترحها الاتحاد السوفييتي . ويجب أن لاتكون لندن هي الهدف للضربة الذرية المقترحة . فتدمير العاصمة البريطانية سيكون له الاثر الكبير والعميق على المشاعر الوطنية ، قد يؤدي ذلك الى تصلب في المعارضة الحليفة وتصميم على متابعة الاعمال القتالية يجعل من الهجوم عملا ضارا ، وليكن الهدف « بيرمنغهام » ان بيرمنغهام هي مركز صناعي كبير لصناعة الاسلحة ، وقريبة من العاصمة لندن بحيث تحس بالانفجار دون أن تتعرض لاي نوع من الدمار ، لم يكن امام الرئيس السوفييتي « فورتنيكوف » من خيار سوى الموافقة .

لقد كان من الاهمية بمكان ان يوضح للاميركيين ان هذا الهجوم وحيد لاثاني له ، الغاية منه اظهار مايمكن ان يحدث اذا مارفضوا الاستجابة للمطالب السوفييتية . ويجب ان لاينظر اليه على أنه تمهيد أو مقدمة لهجوم نووي عام. ويجب توقع حدوث رد ، ولكن اذا ما فهمت الايماءات والاشارات فان هذا الرد سيقتصر على ضربة مماثلة عموما . وعلى الرغم من وجود حالة العداء بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية فان خط موسكو واشنطن الساخن لم يغلق ابدا . لقد وضعت الخطة بتفاصيلها ويجب ان يكون التوقيت دقيقا . ان نظام الانذار المبكر للصواريخ البالستية « BMEWS » لايعطي الا دقائق قليلة من الانذار بانطلاق الصاروخ قبل وصوله للهدف وارتطامه فوقه وتفجره . ومن

الضروري اعلام الرئيس الاميركي قبل انطلاق الصاروخ مباشرة ، ان هناك صاروخا قد انطلق واعلامه عن اتجاهه ، ولكن ليس قبل مدة كافية من اجل اتخاذ اجراء مضاد .

وأرسلت رسالة تحذير الى الرئيس الاميركي الى لندن عبر واشنطن تفيد ان الرئيس السوفييتي سيتحدث اليه على الخط الساخن (الاحمر) في الساعة ٢٠ر١٠ بتوقيت غرينتش في اليوم التالي العشرين من شهر آب . وفي كل من لندن وواشنطن انقضت الساعات الفاصلة في لعبة تخمين محمومة حول ماهية الرسالة ومضمونها . شيء واحد كان واضحا تماما ورافقه شعور بالارتياح . لايمكن ان يكون الامر متعلقا بالاعلام عن هجوم نووي واسع النطاق ، اذ ان المفاجأة تعتبر عنصرا اساسيا في مثل هذا العمل . على كل حال كان معظم وجهات النظر قريبة من الحقيقة فيما يتعلق باقتراح المفاوضات . لكن القليل تكهنوا انها سترافق تظاهرة من نوع هيروشيما أو ان جدول الاعمال سيكون ضيقا ومحدودا ومنطويا على التهديد كما كان الامر في الواقع . وعندما تحدث الرئيس السوفييتي بعد الاعلان عن اطلاق الصاروخ الوحيد طالب الولايات المتحدة الاميركية بارسال ممثلين عنها خلال اسبوع واحد للتفاوض حول الاقتراح السوفييتي ، وانه اذا لم يستجيبوا لهذا المطلب ، فان مزيدا من الضربات الذرية المختارة ستنفذ أيضا . واذا ما فكروا في منع ذلك بالقيام بهجوم نووي عام وقائي ضد الاتحاد السوفييتي فعلى الرئيس « تومبسون » ان يتذكر قدرة الاتحاد السوفييتي على توجيه ضربة مماثلة هامة .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

تدمير برمنغهام Birmingham

كان فريق المراقبة النهارية قد بدأ نوبته قبل ساعتين تقريبا ، وكان الوقت يقترب من الساعة العاشرة صباحا في غرفة التحكم والمراقبة الرئيسية في محطة أجهزة الانذار المبكر للصواريخ البالستية «BMEWS» القائمة في « يورك شاير » . كانت المحطة تطل على أرض سبخة ضبابية جميلة ، بينما كان المشرف ورجاله منهمكين فيما لديهم من أعمال أخرى حيث كانت الرادارات الضخمة تقوم بمسح ثلاثة آلاف ومائتي كيلو متر في الفضاء . كانت هذه الرادارات تبحث وتمحص في حوالي سبعة آلاف قطعة من الاجرام والتوابع التي تدور في الفضاء ، وهي التي أطلقها الانسان في الفضاء المحيط بالارض منذ غزوه له في عام ١٩٧٥ .

كانت هيئة التحكم والمراقبة بالطبع على اطلاع وثيق بالموقف الحربي ، وكانت تعرف من الناحية السياسية على كل حال ان خطر الهجوم النووي كان قليلا ، لكن وجود رجال هذه الهيئة هنا ليس لتقرير مثل هذا الموضوع . وان الانذار عن أي هجوم يعتمد على أجهزة آلية ذاتية تضاف الى أطباق المراقبة في القباب المحافظة على هوائيات الرادار الكبيرة، وأي شيء يكتشف يمكن التعرف عليه بموجب نموذج خاص يصبح عرضة لتحليل فوري في أجهزة حساب المثلثات الفضائية من قبل بطارية من العقول الالكترونية الضخمة . وهذه تستطيع ان تقيم احتمال اكتشاف الرادار لصاروخ . ومع توارد المعلومات التي تقدمها رادارات المتابعة يمكن اسقاط أو تقليل أو زيادة درجة احتمال وقوع الخطر، ونوعه،

واذا ما سارت الى هذا الحد ، فان العقول الالكترونية وحاملات الاشعة المهبطية (الكاثودية) تظهر بطريقة أكاديميــة تقريبا ، نقطــة الصدمة التقريبية لكــل صاروخ وعدد الثواني المتبقية على انفجاره .

ان جهازا تستطيع عبقريــة الانسان ان تصممه ويتمتع بأعلى درجــات الثقة يجب أن يكون حتما فائق الحساسية وان يكون العاملون عليه الذين هم على مستوى عال من التدريب لالتقاط نبضاته وردوده السمعية والبصرية قد وصلوا ، غريزيا الى تحسس مزاج العقل الالكتروني . أحيانا وحتى في زمن السلم يمكن لحرس الانذار أن يدق حين تجذب الاحوال الجوية ردا من الفضاء يستنفد العقل الالكتروني وقتا أطول من المعتاد في تحليله ، وعندما يثبت أنه شيء غــير مؤذ يقوم العقل الالكتروني بالاعتذار ، بعد ثوان لاحقــة ويفسر سبب حماسته الزائــــدة .

كانت هذه الطريقة هي التي يفترض أن يسير بموجبها العمل والتي اعتاد عليها المشرف وطاقمه من المختصين . وخلال الاسبوعين الاخيرين دقت أجراس الانذار بصورة متكررة في محطات « فايلنغد الس » والمحطات الشقيقة في آلاسكا وغرينلاند عندما كانت الصواريخ السوفييتية تطلق أقمارا صناعية في الفضاء من أجل استمرار نشاطاتها الفضائية .

كانت المحطة هدفا سهلا وثابتا لاي هجوم جوي ، لكن أي سلاح موجــه لن يقترب منها ــ ولم يكن في ذلك ما يدهش ، بل كان ذلك متوقعا ــ لان الامر في مصلحة الروس ، في سياسة الحرب غير النووية وذلك لتجنب المخاطرة باثارة رد نووي حليف . وللسبب نفسه لن يوجه التشويش الذي تعرضت له أجهزة الانذار الالكترونية الاخرى من البحر والجو الى أجهزة الانذار المبكر للصواريخ البالستية . على كل حال ، كانت بعض الاعتدة المحمولة جوا السيئة تذكر أحيانا أن المعركة الالكترونية مازالت مستمرة .

وفي الساعة ١٠٠٥ ورد هاتف من محطة انذار راداري مجاورة عــائدة

للدفاع الجوي يقول ان المحطة لم تعد تتأثر بالتشويش . وقام قائد المراقبة المقدم « وربورتون » بتدوين ذلك في سجل ملاحظاته التابع للمحطة ، واعتقد أن الامر سيكون مستغربا وباعثا على الدهشة لو قام باعلام زملائه المشرفين بذلك في المراكز العملياتية الاخرى . ودارت عليهم امرأة بالشاي تعمل في القوات الجوية الملكية البريطانية . لقد كان الوضع هذه المرة يختلف تماما عما هو عليه في المنطقة الوسطى ، حيث يسود الدخان والغبار والدم والرعب فيما المعركة المحتدمة هناك ، لكنهم هنا كانوا معنيين بنوع مختلف من أنواع الحرب . كان « ويربورتون » قد انتهى من احتساء قدح الشاي عندما هتف له مشرف أميركي من مركز المتابعة والتحري في « كولوراد وسبرينجز » ليقول أنهم اكتشفوا مقذوفا قد تم اطلاقه ، وتم كشفه بواسطة قمر انذار فوق المحيط الهندي .كان المقذوف قادما من مسافة بعيدة الى الغرب من « بايكونور » الموقع الذي انطلقت منه الاقمار الصناعية خلال الايام الستة عشر الاخيرة ، ولكنهم لم يتبينوه أو يحددوا هويته ، ولن يكون في استطاعة محطة « فايلنغدالس » رؤيته لبعض الوقت لوجوده خارج مدى عملها . وأضاف أنه سيتصل ثانية بمجرد توفر أية معلومات ناتجة عن مراقبته .

كانت المكالمة الهاتفية بين « كولورادو سبرينجز وفايلنغدالس » واضحة واصغى جميع أفراد فريق المراقبة الى المكالمة بآذان صاغية ، وحدوا فكريا موضع ظهور المقذوف على الشاشة قبل أن ينهي المشرف الاميركي ماكان يريد قوله ، وسارعوا الى أخذ أماكن لهم ليشاهدوا الامور من فوق كتفي المراقب . ومرت الثواني ، وبدت حركة الرادار بطيئة خاملة أكثر مما كانت عليه من قبل . وفجأة أظهر الرادار ومن بعد العقل الالكتروني أن صاروخا يقترب . وفي الحال لمع ضوء الخطر ، وابطأ الرادار في حركة تتبعه ، ووجه باتجاه متابعة ذلك الهدف .

كان رجال المراقبة التابعين لسلاح الجو الملكي البريطاني قد اعتادوا على المواقف الخطيرة المفاجئة التي تثيرها أصوات الاجراس في أجهزة العقول الالكترونية. لكن الشعور هذه المرة كان مختلفا ، اذ ان قذف صاروخ وحيد ضد

المملكة المتحدة أو ضد الولايات المتحدة الاميركية كان أمراً غير محتمل الوقوع . لكن قراءة العقل الالكتروني وصلت الى أعماقهم لتدل على أن أي شيء قد يحدث مادامت الحرب مستعرة في أوروبا . وبالتأكيد كان شيء ما يحدث الآن.

كانت الساعة تشير الى الدقيقة الرابعة والعشرين بعد العاشرة (١٠٢٤) عندما أظهرت المعطيات الرقمية فجأة شدة الخطر ، فيما كان الرادار يتابع الصاروخ المنطلق في الفضاء ، وأعلن العقل الالكتروني في الحال ان الصاروخ على مسار محدد « تحت مداري » وقد بقي على ارتطامه (٣٥٣) ثانية فقط . وصعق فريق المراقبة بكامله : اذا كان هذا هجوما نوويا حقيقيا ، فكيف يمكن أن يكون بصاروخ وحيد ؟ وأرسل الانذار الرقمي فورا الى بقية مراكز العمليات بما في ذلك غرفة الموقف العملياتي التابعة للحكومة . ولكن المشرف ، ضغط على زر ليضعهم جميعا على دارة صوتية واحدة ليسمعوه معا ، وليؤكد أن اجهزة الانذار المبكر للصواريخ البالستية كانت صالحة للعمل ١٠٠٪ وان أجهزة العقول الالكترونية تستمر في تصعيد تقييم الخطر .

وفيما كان يتكلم ، صاح أحدهم ، « صدمة في مكان ما في المملكة المتحدة يا سيدي » وأشارت الى ذلك لوحة العقل الالكتروني أمام عينيه . وتحرك مؤشر عداد الزمن الرقمي من (٣١٧) ثانية قبل الصدمة . وأبقى « ويربورتون» الدارة الصوتية مفتوحة بينه وبين زملائه المراقبين وبيده جهاز اضافي يصله مباشرة بالمشرف في القيادة الضاربة في « هاي ويكومب » حيث يقف القائد العام خلف مقعد المراقبة .

ويعتبر هذا الاخير أي القائد العام هو المسؤول في نظام الدفاع الجوي البريطاني عن الامر باستخدام صواريخ « بولاريس » والذي يقع على عاتقه عبء الاجراءات التنفيذية ، فيما اذا قرر رئيس الولايات المتحدة الاميركية ورئيس وزراء بريطانيا القيام برد نووي ، مع أنه من المشكوك فيه أن يوافقا على انطلاق أربعة وستين صاروخا من عيار « ميغاتون » من غواصات باتجاه قلب الاتحاد السوفييتي ردا علي ما تابعه الرادار . وقال « ويربرتون » مازلنا لانفهم الامر

عندما كان يؤكد وجود الخطر الذي ظهر على الشاشة مبينا ان منطقة الصدمة ستكون « ميدلاندس » . وكان اثنان من المراقبين يحملقان في اللوحة بانتظار معلومات حسابية عن الهدف . فيما نزل مؤشر الزمن الى الثانية ٢٢٧ قبل الصدمة . كان مشرف القيادة الضاربة في سلاح الجو الملكي البريطاني « راف » أول من تلقى النبأ: **« الامر حقيقي لقد أعلمنا مركز الحكومة المهتم بمراقبة الاحداث لتوه ان رسالة جاءت عبر الخط الاحمر الساخن » . أجب. أجب ، فايلنغدالس هل لديكم تقدير أفضل ، عن نقطة الصدمة ؟ »**

وظهرت الكتابة على الشاشة من جديد ومن خلال جزء من الثانية ــ ظهر عليها عرض ــ طول (٢٣ ٥٢°) شمالا ، (٤٩ر١°) غربا . وبظهور **ذلك** ــ في نفس الوقت على الشاشة العامة ــ لم تكن هناك حاجة لتسجيل الاحداثيات المذكورة آنفا على الخريطة . اذ ظهرت دائرة خضراء يتوبسطها صليب على مخطط الاشعة الكاثودية (المهبطية) للجزر البريطانية وتلك معجزة من معجزات الالكترون الحديث . ظهرت الدائرة فوق « برمنغهام » . وصاح « ويربرتون » من خلال الدارة الصوتية . انها **« برمنغهام » . أكرر « برمنغهام »** . وأيد المشرفون الآخرون هذه المعلومات المزعجة بالطريقة الميكانيكية المنضبطة التي اعتادوها لمدة طويلة أثناء التدريبات ، لقد حان وقت التفكير بالمعضلات الصعبة لكن ويربرتون لاحظ الارتباك والاضطراب في صوت مشرف القيادة الضاربة في « هاي ويكومب » عندما كان يقول بعد تلقيه النبأ « يا إلهي » . وعندما أعلنت التعبئة كان مساعد قائد المجموعة الوحيد في « هاي ويكومب » الذي يعرف ان قائد المجموعة أرسل زوجته وأطفاله الثلاثة للبقاء مع عائلتها في ضواحي المدينة المنكوبة الآن .

كان عداد الزمن يشير الى الثانية (١١٤) في العد التنازلي فيما كان مساعد المشرف في فايلنغدالس يتبادل المعلومات على الهاتف مع نظيره في مركز التحري والمتابعة في «كولارادو سبرينز» وكان ضابط برتبة رائد من قيادة القوات الجوية الاميركية يردد المعلومات بعد أن يتحقق منها بالمقارنة مع غيرها من المعطيات في

مركز المراقبة الرئيسي . وقد جمعت الآن المعلومات الواردة من الاقمار الصناعية ومن الرادارات الارضية في أجهزة العقول الالكترونية الرئيسية في كولوراد وسبرينز . وفيما كان الضابط الاميركي يدون التفاصيل الواردة من فايلنغدالس هتف قائلا : نعم . نعم انها تتطابق مع معلوماتنا هنا . وأضاف بصوت حزين وفيما كان المؤشر يصل الى الثانية « الثالثة والستين » (٦٣) « من المؤكد انها ستكون حامية في برمنغهام في انكلترا » .

وفجر الصاروخ س.س ١٧رأسه النووية على ارتفاع ثلاثة آلاف وخمسمائة (٣٥٠٠) م فوق سجن وينسون غرين في الساعة (١٠٣٠) من صبيحة العشرين من آب . وخلال جزء من الثانية ، كانت الكرة النارية الناجمة عن الانفجار بحرارتها التي تقارب حرارة الشمس وبقطر يزيد على الالفي متر تصل الى مركز مدينة برمنجهام . وقد شوهد الوميض الساطع الذي رافق التفجير من لندن . وحتى على تلك المسافة البعيدة ، تعرض الناس الذين كانوا ينظرون الى الكرة النارية الى نوع من العمى المؤقت وشعروا بلفحة الحرارة على وجوههم . وكان للحرارة الهائلة الناتجة عن الكرة النارية أكثر من تأثير على الناس والاشياء ضمن دائرة بقطر ثلاثين كيلو مترا .

واحس بعض الناس الموجودين فوق المراكب واليخوت في « شيزووتر » على بعد عشرين كيلو مترا من « وينسون غرين » ان جلودهم بدأت تحترق عندما كانت موجات الحرارة الصادرة عن الكرة النارية تلسع جلودهم بحرها ، فقفز العقلاء منهم للماء تفاديا للحرارة الحارقة . أما الذين تخلفوا فقد عانوا من حروق في الاجزاء المكشوفة من جلودهم واستحال الدهان على زوارقهم الى فقاعات بفعل الحرارة بينما انصهرت الاشرعة المصنوعة من مادة النايلون . وتحولت الصحف المبعثرة في الزوارق الى لهيب . ولم ينج من الحروق الشديدة الا أولئك الذين كانت ملابسهم تحمي جلودهم ، أو الذين يدرأون موجات الحرارة عن أنفسهم باللجوء الى حواجز عازلة .

كان تأثير الحرارة الناجمة عن الكرة النارية يزداد كلما اقتربنا من مركز الانفجار في « وينسون غرين » فتحولت خضرة أوراق الاشجار الى احمرار كما لو أنها كانت تذكر بحلول الخريف . وكانت الشجيرات الصغيرة تحترق فيما كان الدهان على الابنية والعربات يتحول بفعل الحرارة الى بثور وفقاعات . وفي « ألدريج » وغيرها من الاماكن التي تقع ضمن دائرة من اثني عشر كيلو مترا من الكرة النارية أصيب الناس الذين كانوا في العراء بحروق تحتاج الى معالجة فورية في المستشفيات . وعلى هذه المسافة أيضا تحولت الستائر والاشياء الاخرى داخل الغرف التي كانت معرضة لموجات الحرارة الى دخان. وفي بعض الحالات تفجرت الى نيران مشتعلة . واشتعلت أيضا الاشياء خفيفة الوزن التي كانت في العراء كالصحف والخيام والنوافذ والاغلفة الفارغة خلال ثوان معدودة .

وبالاقتراب من مركز الكرة النارية ازدادت الموجات الحرارية شدة الى حد أن كل شيء خفيف الوزن تقريبا قد تحول الى نار ملتهبة ، فيما احترقت وشوهت المعادن والاشياء الاخرى . وعلى هذا المدى ، لم تنفع الملابس في تقديم حماية مؤثرة ضد الحرائق ، فاحترقت الملابس . وأصيب الناس الذين كانوا في العراء بحروق شديدة من الصعب شفاؤها حتى في حالة الاسعاف الطبي من الدرجة الاولى . وأخذت النيران تشتعل الى حد كبير داخل البيوت وخارجها. وكانت تزداد كلما اقتربنا من بؤرة الانفجار الى أن اصبح الحريق الهائل كاملا وشاملا لثلاث الى أربع كيلو مترات من « وينسون غرين ». وخلال ثوان معدودات من الانفجار النووي اعقب موجة الحرارة ضغط هائل ، وضربت موجة الصدمة مركز المدينة تحت الكرة النارية فأحالت موجة الضغوط الهائلة الابنية تحتها في غمضة عين الى كتل هائلة من الانقاض . ثم ارتدت موجة الصدمة مزمجرة الى الاعلى بعد أن سحقت كل ما كان في طريقها . فلم يصمد عمران فوق مستوى الارض بفعل موجة الضغوط الهائلة والرياح السريعة العاتية . وعلى بعد ثلاثة كيلو مترات من « وينسون غرين » لم يبق شيء حي ، حتى البنايات والعمران استحال كل شيء الى انقاض مبعثرة هنا وهناك . وظهرت المنطقة بكاملها كومة

هائلة من الركام . وأخذت آثار الانفجار تخف تدريجيا كلما ابتعدت الى الخارج. وعلى مسافة تتراوح بين ثلاثة الى ستة كيلو مترات من مركز الانفجار بقيت بعض الابنية القليلة المتبقية ، كانت قد أصبحت على حال من الالتواء والتشويه يعجز معها التعرف الى بنائها الاصلي . وكانت محاطة ببقايا الابنية الخفيفة الحديثة البناء كالمستشفيات والمدارس . وقد تهدمت ولم تعد تعرف هويتها . كما انهارت أبنية السكن وخاصة تلك المبنية من الحجر ، متأثرة بموجة الانفجار.

أما أولئك الذين عانوا من آثار الموجة الحرارية المرهقة . فقد من الله عليهم براحة الموت نتيجة موجة الضغط التي تلت ذلك . ومثل ذلك ينطبق على أولئك الناس الذين كانوا داخل بيوتهم فقد ماتوا فيها تحت تلال من الانقاض ولقوا مصيرا مشابها . وخلال دائرة من ثلاثة الى اربعة كيلو مترات من « وينسون غرين » ، لم ينج الا القليل من الآثار الفورية للانفجار، وخارج هذه الدائرة وحتى سبعة أو ثمانية كيلو مترات عن المركز تم انهيار ودمار معظم الابنية فيما الناس يتساقطون بالمئات تحت الانقاض. كانت هناك وفيات كثيرة واصابات شديدة ، تستعصي على الاحصاء . كان الجو يمتلىء بالاشياء المتطايرة التي دفعت بها الرياح العاتية من « وينسون غرين » باتجاه الخارج بسرعة تقارب الـ ٥٠٠ كم/ بالساعة ، وحتى على مسافة أربعة أو خمسة كيلو مترات من المركز ، ساقت الريح الاشياء التي كانت تقف في طريقها كريش الطيور ، فدحرجت السيارات وغيرها من العربات وساقتها في طريقها عشرات بل وحتى مئات الامتار من مواضعها الاصلية . كما قذفت بالناس الذين كانوا في العراء ليرتطموا على أجسام صلبة . وقذفت كذلك قطع البناء كالقرميد من السطوح ، وكافة الاشياء غير المثبتة جيدا في الجو كالصواريخ شاقة طريقها عبر مايعترضها من عوائق بعنف وقوة محدثة الاذى للكثير .

على ان فائدة صغيرة نجمت عن موجة الانفجار ، وهي أن عددا لايحصى من النيران التي شبت قبل ثوان انطفأت ولم تشتعل من جديد ، وعلى كل حال كان ذلك رحمة ، اذا ما قورنت بالحرائق الاخرى الكثيرة التي زادت الرياح في شدة سعيرها .

في مطار برمنغهام الواقـع على بُعد اثني عشر كيلو مترا من « وينسون غرين » ، كانت الاضرار خفيفة نسبيا ، لكن سرعة الرياح هناك ، وصلت الـى حدود مائة وستين كيلو مترا في الساعة ١٦٠ كم /ساعة . فأحاطت بعدد من الطائرات حيث فقد بعضها أجنحته وذيله أو انقلب بعضها الآخر على أحد جانبيه بسبب الرياح العاتية . وتدنت آثار التدمير التي أحدثها الانفجـار خارج هذا النطـاق ، فانحصـر في كسر نوافذ الابنية وتطـايـر قرميد السطـوح والمداخـن .

وانتشرت موجة الانفجار من المركز باتجاه الخارج بسرعة تشبه سرعة الصوت لتصل الى مطار بيرمنجهام بعد ثلاثين ثانية تقريبا من الانفجار وحتى عند هذه النقطة ، كان دوي الانفجار يصم الآذان ويستمر مدة عشر الى خمس عشرة ثانية . وسمع نفس الدوي في لندن بعد ثمان دقائق تقريبا كضجة هادرة مزمجرة كالرعد من الاتجاه الذي ظهر فيه وميض الكرة النارية قبل ثمان دقائق سابقة . كان اولئك الذين يقطنون لندن لديهم المام بالاسلحة النووية ، لم يخامرهم أدنى شك بأن ما حدث هو انفجار نووي .

وتوقف بعد دقيقة التأثير الفوري للدمار الناتج عن الانفجار النووي هذا. وارتفعت سحابة هائلة على شكل الفطر فوق مركز برمنجهام المدمرة على ارتفاع خمسة عشر كيلو مترا ، ونشرت ظلها فوق مشهد من الدمار العجيب ، حيث كان كل شيء صامتـا الا من أصوات ارتطـام حطـام الابنيـة المتساقطـة وتوهج ألسنة النيران الهائلة . وفي دائرة نصف قطرها خمسة كيلو مترات من « وينسون غرين » بدا وكأن كل شيء كان يحترق . وخارج هذه المساحة والى مدى يمتد الى ثمانية كيلو مترات قل أن نجت الابنية الباقية من حريق يشب فيها على نحو أو آخر . ووقعت حرائق أقل خارج هذا المدى مع ان هنـالك بعض الابنية وقد شبت فيها النيران على أمداء تصل الى خمسة عشر كيلو مترا بل كانت هناك حرائق في مدن بعيدة مثل « ويلفرهامتون وستوربردج وبرون هيـلز » .

كان الدمار في وسط برمنغهام من الشدة بحيث انطمست معالم الطرق والشوارع تحت انقاض البنايات التي كانت تقوم على جانبيها . وخارج هذه المنطقة والى مدى خمسة الى ستة كيلو مترات ، كانت جميع الطرق مسدودة بفعل أنقاض الابنية المنهارة . وكانت وسائل التحرك المتاحة حول المنطقة من خلال طريق (م ٥) ، و (م ٦) اللذين يحيطان بوسط بيرمنغهام . كانت هذه الطرق عريضة ، ولا تحيط بها الابنية على الجانبين وسلمت نسبيا من الدمار . كما نجت أيضا الجسور القائمة عليها . وخارج طرق السيارات ، أخذ الدمار يقل شيئا فشيئا ، مع أن معظم البنايات أصبحت لاتصلح للاستعمال . ويكاد معظم الطرقات لايصلح لسير السيارات بسبب تناثر الانقاض عليها . كانت مراكز « ددلي ووالسول وستون كولدفيلو وهالسوون » لاتسمح بالمرور فيها على الاطلاق ، مع أن معالم الطرق في هذه المدن لاتزال ظاهرة ومرئية بوضوح ، وان مدى الخراب على الرغم من كونه كبيرا فانه يظل أقل عما هو الامر عليه في وسط برمنغهام . كانت الحرائق كثيرة وخاصة في الابنية التجارية في الشوارع الرئيسية والمراكز التجارية حيث كانت تضم كميات كبيرة من مخزون البضائع القابلة للاحتراق . وكانت شبكة توزيع الغاز في أماكن عدة قد تعرضت للتدمير ، وساعد الغاز المنطلق منها في تغذية الحرائق وزيادة سعيرها .

وأخذت الحرائق المشتعلة في دائرة نصف قطرها خمسة عشر كيلو مترا تقريبا من « وينسون غرين » تقوى وتشتد وخاصة تلك الحرائق الناشبة في خرائب وسط بيرمنغهام حيث أخذت تشتد أكثر فأكثر . وفيما أخذت ألسنة النيران ترتفع الى عنان السماء أخذ الهواء يهب من الخارج الى الداخل باتجاه ألسنة اللهيب . وقد أدى ذلك الى تأجج النيران خلال عشرين دقيقة من بدء الانفجار في مساحة تصل الى عشرين كيلو مترا مربعا في وسط برمنغهام ، وارتفعت ألسنة اللهيب والدخان مئات الامتار الى عنان السماء نتيجة اندفاع بالهواء نحو الداخل . لقد دفعت الرياح التي تهب باتجاه الداخل امتداد الحرائق

نحو الخارج . كانت آلاف الحرائق الصغيرة تشتعل بشدة خارج الحريق الكبير في وسط المدينة . وفي وقت السلم كان الكثير من هذه الحرائق يعتبر خطيرا ويحتاج الى مجهود جزء كبير من الامكانيات المتوفرة محليا لمكافحتها . ولما كان عدد الحرائق ينتشر فوق مساحة تقدر بستمائة كيلو متر مربع فان امكانية مكافحتها بالوسائل العادية المتوفرة تكاد تكون معدومة .

وكانت الخسائر البشرية الناجمة عن التفجير النووي مرعبة جدا . كان اليوم نهارا مشمسا . وكما هي العادة في مثل تلك الايام ، كان كثير من الناس يرتدون الملابس الخفيفة ، ولذا كانوا أكثر عرضة للاصابة بحروق في المواضع المكشوفة من أجسادهم . وكان وسط بيرمنغهام مزدحما بالناس المشترين ، وذلك بسبب ذلك اليوم المشمس وبالآخرين الذين كانوا في طريقهم مثلا الى أعمالهم . ومن حسن الحظ ان المدارس كانت خالية من الطلاب ذلك اليوم بسبب العطلة الصيفية . وأن الكثيرين أيضا من سكان بيرمنغهام لم يصلوا بعد من قضاء اجازاتهم في خارج المملكة المتحدة . ومع ذلك كان من يقطن بيرمنغهام وضواحيها أكثر من مليون من البشر حلت بهم أو بمعظمهم تلك الكارثة الرهيبة ، وقادتهم أقدارهم ليلقوا مصيرا مخيفا ، من حيث لايدرون . وقد مات من هذا المجموع خلال دقائق معدودة ما يقارب الثلاثمائة الف انسان بسبب حرارة الانفجار وموجة الصدمة أو بسبب عدم اسعافهم وانقاذهم في حينه . في حين أصيب حوالي مائتين وخمسين الفا باصابات أخف كان من الممكن علاجها من قبل المصابين أنفسهم أو باسعافات اولية . لكن نسبة صغيرة من سكان بيرمنغهام ، سلمت من التعرض للاذى . أصبحت التسهيلات الطبية والمستشفيات المتوفرة لمواجهة هذه النسبة من الاصابات ضعيفة الى حد بعيد، حيث قد دمر أو أصبح غير قابل للاستعمال نصف عدد المستشفيات في منطقة الانفجار ، بينما كان ربع العدد الباقي فيها فقط قادرا على معالجة مايزيد عن طاقته في الظروف الاعتيادية . وتعرض الاطباء وسيارات الاسعاف الى اصابات بنفس الدرجة التي حلت بالسكان المدنيين ، وعلى ذلك كانت امكانياتهم في

مواجهة الحالة الطارئة تكاد لاتذكر . وبالاضافة الى الدمار المادي والبشري . كان الكثير من الناجين مصابين بالصدمة ولا حول لهم ولا قوة في اسداء العون لغيرهم أو حتى لانفسهم .

كما تعرضت وسائل وعناصر وأجهزة مكافحة الحرائق للشلل كغيرها . فقد دمر ثلاثة أرباعها داخل بيرمنغهام ، وقتل معظم رجال الاطفاء الذين استجابوا للطوارىء ، حيث وجدوا أنفسهم عند وصولهم الى محطاتهم عاجزين عن القيام بأي شيء ، بسبب وجود معداتهم وسياراتهم مدمرة أو مندثرة تحت الانقاض ، حتى أولئك الذين استطاعوا الوصول الى المعدات والتجهيزات التي بقيت سليمة لم يتمكنوا من استعمالها في طرق المدينة المسدودة بالانقاض ، أو بسبب عدم توفر المياه الكافية . يضاف الى ذلك أن كثرة الحرائق لم تسمح لهم أو تمكنهم من اعطاء جدول أفضليات لاطفاء أي منها أولا . مع ذلك تم توجيه الاهتمام للحرائق القريبة من المحطات بما أمكن من جهود الاطفاء ، وكانت النتائج حسنة نسبيا . وفي برمنغهام وضواحيها القريبة وجد رجال الاطفاء الذين استطاعوا تشغيل معداتهم أن شبكة توزيع المياه ، قد تعرضت الى دمار كبير ، الى حد أن الضغط لم يكن كافيا لخدمة مكافحة الحرائق . ولم يكن الحال كذلك في المدن المجاورة والمحيطة ، حيث كانت شبكات المياه الموجودة تحت الارض سالمة وبالتالي كان ضغطها كافيا لاغراض مكافحة الحرائق .

وفي داخل مدينة برمنغهام انتهى وجود الادارة المركزية والتنظيم كما دمرت أيضا شبكات الهاتف التي تؤمن الاتصال بالشرطة وخدمات مكافحة الحرائق والتسهيلات الطبية والادارات المحلية . وفي الاسبوع السابق ، كان قد أقيم مقر فرعي لمكاتب الحكومة في جنوب « ياردلي » على بعد تسعة كيلو مترات تقريبا من مركز الانفجار . وكانت منشأة على طريقة البناء الحديث ولكنها تعرضت الى دمار كبير نتيجة الانفجار. بصورة عامة، لم تكن هذه المكاتب صالحة للاستعمال ، وأهم من ذلك أن شبكات الاتصال الهاتفي كانت مدمرة بالكامل . ومع أن الموظفين في هذا المقر ، لم يتعرضوا لاذى كبير ، الا انه كانت تعوزهم

الاتصالات بالوكالات والمؤسسات الخارجية ، حتى بواسطة الطرق لم يكونوا قادرين على عمل أي شيء أو القيام بأي نشاط . وقد انقضى الوقت قبل ان تبدأ اتصالات الطوارىء عبر شبكة الاذاعة المحلية ومحطات« رينتهام للهواة » .

أما المشكلة الاخرى فكانت انقطاع التيار الكهربائي بالكامل في منطقة بيرمنغهام وقد أدى الدمار الواسع لشبكات توزيع الكهرباء الى قطع التيار أوتوماتيكيا . كان هذا التخريب واسع الانتشار شاملا الى حد أن شبكات التوزيع في منطقة « ميدلاند » التي تتركز بالقرب من بيرمنغهام قد تأثرت أيضا نتيجة الاضرار الكبيرة التي لحقت بها . وتوقف العديد من محطات الطاقة التي كانت تزود المنطقة توقفا اوتوماتيكيا وهكذا كانت بيرمنغهام والمدن المحيطة بها بدون كهرباء .

وخلال دقائق من الانفجار ، تطورت وتحسنت المحاولات الفورية في مجالات مكافحة النيران وانقاذ المصابين واسعاف الجرحى ، ولكن نظرا لان تلك الجهود كانت فورية ومحدودة فقد آلت بسرعة الى الفوضى بسبب تدفق طلبات الغوث والمساعدة على ما تبقى من مراكز تنسيق خدمات الطوارىء . وقد انقضت عدة ساعات قبل أن تخف آثار الصدمة الاولية الى حد يسمح بالمباشرة بمحاولة تنظيم محلية . أما في بعض الاحياء مثل « فيرهامبتون وستور بردج وسيلوهول ووول سال وهاليسون » فقد سلمت الى حد ما شبكات الاتصالات الموحدة العامة من الدمار ، وكانت تستطيع الاعلام عن مدى الخراب المحلي والاصابات. لقد أصيبت هذه المدن اصابات شديدة وتعرضت الابنية الى دمار واسع والى عدد كبير من الحرائق ، وعانى عدد كبير من سكانها من حروق شديدة أو اصابات أخرى نتيجة الانفجار ، وكانوا بحاجة الى عناية طبية فورية . أما خدمات مكافحة الحرائق واسعاف المرضى ونقلهم التي لم تصب بضرر ما فقد بقيت تحت تصرف السلطة المحلية . ولعل أهم المشاكل التي واجهتها هذه الخدمات هي التحرك بمعداتها وبمهماتها في الشوارع المسدودة بالانقاض. يضاف الى ذلك أن النيران كانت في بعض الاحيان على درجة من القوة والشدة في بعض

المناطق بحيث تقضي الاحوال بضرورة تجنبها . كانت معظم هذه المدن تتلقى احتياطات أولية واسعافات تتصل بطبيعة الدفاع المدني ، خلال الايام الاولى من الحرب بما في ذلك تكديس الآليات الخاصة بجرف الارض وازاحة الانقاض من الشوارع الرئيسية . وهكذا كان بوسعها تنظيف الشوارع خلال مراكز المدن بحيث يمكن استخدام معدات خدمات الطوارىء باتجاه مراكز المدن حيث وقعت أسوأ حوادث التدمير والخراب وحيث كانت الحرائق أشد ما تكون عنفا في اشتعالها ، وحيث أيضا وقعت غالبية الاصابات . أما العدد الكبير من الحرائق التي شبت في مناطق أخرى من المدن فلم يؤبه لها ، ومثل ذلك ينطبق على المصابين . كان الدمار ، وكانت الاصابات بهذه المدن كبيرة جدا الى حد ان السلطات المحلية كان بين أيديها من المشاكل مالا يسمح لها بتوفير أو التفكير بمساعدة المناطق المتضررة خارج حدودها .

وتعرضت المدن القريبة من برمنغهام مثل « دادلي » التي تقع على بعد تسعة كيلو مترات تقريبا من مركز الانفجار الى أضرار أسوأ مما حل بالمدن الاكثر بعدا . كان مركز مدينة « دادلي » مشتعلا في أجزاء عديدة منه فيما كانت حركة أجهزة الانقاذ والاطفاء على شوارعها صعبة جدا ، بل ومستحيلة في كثير من الحالات . وبدأت الآن المعدات القليلة من الجرافات وغيرها التي كانت قد تجمعت في المدينة قبل الحرب بشق طريقها خلال الانقاض ، وانهارت عدة بنايات فوق ساكنيها وحين لم يتوفر سوى الجهد القليل لانقاذهم . وصحيح أن خدمات الطوارىء التابعة للسلطة المحلية بقيت سالمة الى حد كبير ، لكن معظم شبكات الاتصال الهاتفي تحطمت وقد استحال تنظيم عمليات الانقاذ بشكل مركزي ، واستمرت أعمال الانقاذ بأسلوب كيفي ، ولم يكن ذلك التنظيم قادرا على مواجهة احتياجات المدينة . وكان الامر نفسه يحدث في المدن المجاورة « سولي هيل وفيرهامبتون وستوربردج » . كانت حالة هذه المدن الصغيرة او الضواحي هي أسوأ مايكون في المنطقة . فكثير من الناس الذين لايزالون أحياناً، قد أصيبوا باصابات شديدة أما خدمات الطوارىء المتوفرة على نحو أو آخر فكانت بدون تنظيم ولم تستطع الضواحي هذه والمدن الصغيرة التي كانت

تناضل بمرارة من أجل بقائها في المناطق المحيطة أن تقدم أي شكل من أشكال المساعدة الى تلك المدن الموجودة على بعد من مكان الانفجار . وكان الامر أشد سوءا بالنسبة لتلك الضواحي القريبة من مركز الانفجار اذ تعذر تقديم أي نوع من المساعدة اليها . وهكذا تركت المدن الصغيرة التي تعرضت لاسوأ اصابات تداوي جراحها بنفسها . علما أن هذه المدن كانت أشد ماتكون بحاجة للمساعدة الفورية . ولكن كما هو معلوم لم يكن هناك شيء منها .

كان الموقف داخل مدينة برمنغهام نفسها وضمن نطاق شبكة الطرق فيها صعبا للغاية . فالحركة كانت مستحيلة نهائيا . ومع أن زوبعة الحرائق نفسها قد خفت قليلا الا أن النيران مازالت تشتعل في جميع أنحاء المنطقة التي كان من الصعب وصول العون اليها .

وتحيطها مدن عاجزة أيضا عن تقديم هذا العون الى ضواحي « هالسوين وسولي هول وستون كولد فيلد » واستمرت في الكفاح في ميدان عمليات الانقاذ واطفاء الحرائق ، وترك الكثير من الحرائق لتنهي نفسها بنفسها . أما عمليات الانقاذ فقد وجهت حيث تتوفر الموارد والوسائل ، وحيث يمكن ان ينتج عن هذا الجهد فائدة وخير . وتعذر توجيه أعمال الانقاذ الى الناس المحاصرين داخل الابنية المتهدمة أو تقديم الاسعافات الاولية للمصابين في أماكن عديدة ، وهذا يعني أن أناسا كثيرين محصورين في البنايات قد ماتوا أما بسبب امتداد الحرائق اليهم أو بسبب الاصابات التي حلت بهم من قبل .

وفي نهاية يوم العشرين من آب ، كانت قطعة من الارض بمساحة (٦٠٠) كيلو متر مربع حول بيرمنغهام مضاءة بنيران الحرائق الكبيرة ، تستنفذ نفسها بنفسها . وفي الوقت نفسه لتنشط في جيوب منها أعمال مكافحة الحرائق وعمليات الانقاذ ، واخراج المحصورين تحت الانقاض ، حيث استطاع عدد قليل فقط من الناس الحصول على المساعدة الطبية . لكن الآلاف من المصابين لم يستطيعوا الوصول الى مستشفى بسبب الاعداد الكبيرة من المصابين الزاحفين

اليها والمتكدسين حولها من الذين يطالبون بالعناية الطبية . وفي نهاية اليوم وجهت الجهود المنظمة في المناطق التي أصابها الانفجار النووي الى محاولة انقاذ واسعاف الاعداد الهائلة من المصابين . وامتلأت المستشفيات بموجات من الناس الذين قدموا يطلبون المعالجة . وكثير من المصابين بقي راقدا في موقع اصابته فلم تكن هناك وسيلة لجمعهم أو نقلهم . كان عدد الناس الذين توجهوا الى المستشفيات والمراكز الطبية كبيرا الى حد استدعاء الشرطة لتوفير الحماية لهـا ، ومع ذلك كان القلق مستبدا الى حد نشوب العنف وقيام اضطرابات خارج المستشفيات المتبقية .

أما حالة الناجين والفارين الى خارج المنطقة سواء بالسيارات أو على الاقدام فأخذت تزحم الشوارع الباقية كما أخذت تعيق بشدة خدمات الطوارىء ، الامر الذي اقتضى الاستعانة بالشرطة للسيطرة على ذلك . ولم تكن قوة الشرطة الاحتياطية المتوفرة كافية للقيام بهذه المهمة ولحماية المستشفيات وحتى بمساعدة الجيش . وأخذت الفوضى تدب على الطرق وخاصة بالقرب من المستشفيات وفي المناطق التي تعرضت الى اضرار أقل مما تعرضت له الاخرى ، وحيث تدفق الناس للبحث عن الطعام وعن الشراب والملجأ . ولما أتى الليل أدى فقدان التيار الكهربائي ، الى جانب الامور الاخرى مشكلة صعبة زادها سوءا . وهكذا انتهى اليوم بنشاطات غير منسقة سواء في مجال مكافحة النيران أو في عمليات الانقاذ التي كانت كثيرة جدا في محيط كانت فيه مئات الآلاف من الناس تبحث عن المساعدة والملاجىء وعن العناية الطبية بسبب الاصابات الشديدة . كان حجم الكارثة وآثارها كبيرا الى حد أن السلطات المحلية كانت عاجزة عن السيطرة على الاحداث .

كان الموقف في بيرمنغهام طيلة اليوم ، يستولي على أذهان الامة البريطانية بكاملها . كان كل فرد يعلم بوقوع انفجار نووي وكان معظمهم مقتنعا ان ذلك أول قطرة من الغيث . وأدى ذلك الى انتشار الذعر والهلع حيث كان الافراد يبحثون عن الحماية لانفسهم داخل بيوتهم أو بالخروج من أحياء المدينة الى

الريف ، حيث قدروا أنهم سيكونون في مواضع أكثر أمنا . كان تدفق الهجرة الكبير يسبب قلقا عظيما للسلطات الحكومية التي بذلت جهدا في ضبطه ومنعه من خلال الاذاعة . ومن حسن الحظ أنه لم يقع مزيد من الهجمات النووية . ومع ذلك كانت السلطات المحلية تقوم باستعدادات لضمان استمرار عملها . وبالتالي ، لم يكن لديها الاستعداد لتلبية طلبات تقديم المساعدة الى سلطات برمنغهام فيما لو قدمت مثل هذه الطلبات .

وأمرت الحكومة القوات البرية في المملكة المتحدة باتخاذ أي اجراء ممكن لدعم ومساعدة بيرمنغهام على أن لايؤثر ذلك على قدرتها القتالية ولمواجهة ضربات نووية أخرى . وتلقت قيادة منطقة « غرب ميدلاند » أوامر خلال دقائق من الانفجار لتقديم كل مساعدة ممكنة الى منطقة بيرمنغهام .

وعند منتصف ظهر ذلك اليوم كانت اثنتا عشرة وحدة رئيسية من الجيش النظامي وجيش المتطوعين مع وحدات من سلاح الجو الملكي (راف) تعد حوالي عشرة آلاف رجل بتجهيزاتها وخدماتها الطبية ومعدات مكافحة الحرائق ، قد وضعت لتنفيذ مهام عمليات انقاذ طارئة . وخصصت الوحدات المسحوبة من « غرب ميدلاند » ، ومن مناطق « ويلز » بما في ذلك الممرضات المتطوعات والجنود من مركز المشاة الخفيفة من « شوز بيري » للعمل في « وال وهامبتون وستور بريدج وسولي هول وول سال وهالسوون » وهنا احتفظت السلطات المحلية بقدر من السيطرة المحلية ولذا كانت عمليات الانقاذ والاسعاف قائمة بأشكال شتى . واصطحبت الوحدات العسكرية معها العربات ووسائط الاتصال والخيم والاغطية والمساعدات الطبية والمعدات الهندسية ومعدات مكافحة الحرائق . وأهم من هذا كله فان هذه الوحدات كانت تتمتع بكفاءة عالية وتعمل تحت اشراف محكم .

وبحلول مساء اليوم بدأت لجان الطوارىء التي كانت قد عينت أيام السلم عملياتها ، وكانت هذه اللجان تضم ممثلين عن الشرطة وخدمات مكافحة

الحرائق والاطفاء وخدمات الاسعاف والسلطات الطبية الى جانب ضباط ارتباط من وحدات الانقاذ العسكرية . وأخذت هذه اللجان تشرف على عمليات الانقاذ والاسعاف خلال مرحلة الاستشفاء . كان المساء قد حل قبل اكتمال عمليات توزيع المعدات والاشخاص المسؤولين ، وقبل أن تتمكن لجان الطوارىء من التعرف على الموقف بشكل جيد في مناطقها بسبب انقطاع التيار الكهربائي واستمرار الحرائق في كل مكان تقريبا . ولم يسمح المجال بغير عمليات انقاذ واسعاف كيفية في حدود التسهيلات المتوفرة في الوقت الذي كانت فيه الخطط قد وضعت لعمليات الاسعاف والانقاذ الرئيسية اعتبارا من فجر اليوم التالي .

ومنذ الصباح الباكر في الواحد والعشرين من آب تمكنت القيادة الفرعية في « سنوث ياردلي » من اقامة اتصالات لاسلكية وبرية مع الحكومة المركزية ومع لجان الطوارىء في الضواحي والمدن المحيطة . وبذلك تمكنت من تنسيق الاعمال بفعالية مع لجان الطوارىء التي أصبحت معززة الآن بتسهيلات الطوارىء السالمة الخاصة وبالمساعدات من اللجان العسكرية المختصة .

ومازالت جميع المستشفيات التي نجت من الكارثة محاصرة بحشود المصابين الذين يحتاجون للمعالجة ، علما أن عدد الاطباء المتوفرين سواء في المستشفيات أو في المناطق المحيطة كان قليلا . ومازال معظم الطرق غير صالح لمرور عربات الاسعاف وسواها ، وعلى ذلك لم تتمكن فرق الانقاذ والاسعاف ورجال الاطفاء من الاقتراب من المناطق الاكثر تضررا . فلم تكن هناك هواتف ولم يكن هناك تيار كهربائي ، وانقطع الامداد بالغاز وتعطلت شبكة توزيع المياه في كثير من الاماكن ، الامر الذي جعل أمر مكافحة الحرائق صعبا . يضاف الى ذلك وجود الألوف الكثيرة من الذين كانت جراحهم خفيفة ومازالوا بدون مأوى وطعام . وانتشر النهب والسلب والسرقة وخاصة في المباني التجارية بحثا عن الطعام حينا والربح والفائدة المادية حينا آخر . وكان كثير من الناس يحاولون مغادرة المنطقة ويزحمون الشوارع بعرباتهم ، كما يحولون دون تأدية خدمات الطوارىء والاسعاف بشكل فعال . من جهة أخرى مازالت الحرائق تشتعل

في أماكن كثيرة ، في حين أن آلاف جثث الضحايا المبعثرة في كل مكان في الشوارع والتي ترقد بين انقاض الابنية المهدمة تهدد مستقبل الصحة العامة بالاخطار .

ومن حسن الحظ أن القنبلة الذرية انفجرت على ارتفاع معين من الارض بحيث لم ينشأ عنها الكثير من الاشعاعات الذرية فوق المنطقة المنكوبة الامر الذي مكن فرق الطوارىء من ان تعمل حيثما وضعت دون قلق من اخطار الاشعاعات الذرية . ولو أن الانفجار حدث على مقربة من سطح الارض لكان الغبار الذري المتساقط قويا وخطرا . وقد تكون منطقة واسعة من بيرمنغهام قد تأثرت بشكل ملحوظ بالغبار الذري ، لكنها لم تعلن منطقة خطرة .

ومع انقضاء يوم الواحد والعشرين من آب أخذت فرق الانقاذ المدني والعسكري باحراز تقدم في استعادة الامن والنظام في المناطق المنكوبة ، وقامت لجان الطوارىء بوضع حواجز في أماكن كثيرة في جميع المدن للحد من حركة اللاجئين . وقد أمكن اخلاء بعض الاصابات الى مستشفيات أخرى في«الميدلاندز» كما ساعدت اجراءات الحد من تحرك اللاجئين بفتح الطرق امام خدمات الطوارىء ، تلك الطرق التي تم تنظيفها لتسهيل تنفيذ المزيد من عمليات الانقاذ والاسعاف ، وفتحت مراكز انقاذ واسعاف في الابنية السالمة الملائمة كالمدارس وقاعات الاجتماع ودور السينما ، وفيها وضعت امدادات الطعام والشراب لتغذية الذين يلجأون الى هذه المراكز ، كما خصصت أعداد كبيرة من الشرطة والحراس في جميع المستشفيات لضبط حركة دخول المصابين اليها أو خروجهم منها . كما نشطت أعمال الدورية من قبل الشرطة والعسكريين في جميع انحاء المنطقة وحيثما أمكنت الحركة لمنع أعمال السلب والنهب التي كانت قد انتشرت على أشدها . ونظمت فرق الطوارىء وعززت بالعسكريين والمتطوعين من المواطنين المحليين للقيام بمزيد من عمليات الانقاذ ولجمع جميع المصابين الذين ظلوا في أماكنهم بدون أن يعتني بهم أحد . والمصابون الذين جمعوا على هذا النحو أدخلوا الى مراكز العناية والاشراف حيث صنفوا في فئات المعالجة ، كالاسعافات الاولية ، أو العناية في المستشفيات المحلية أو اخلائهم الى المستشفيات الاخرى

في « الميدلاندز » وأسهمت وسائط النقل والاتصال العسكرية كثيرا في تحسين وتنسيق هذه الاعمال كما أحرز تقدم أخيرا في تقييم شدة الكارثة ، وفي تحديد الافضليات .

ومازالت مهمة استعادة الامن وانقاذ المصابين كبيرة جدا بالنسبة للموارد والامكانيات المتوفرة ، فالحرائق مازالت تستعر ، والآلاف من المصابين يحتضرون حيث يرقدون ، بينما دفن الكثير من الناس أحياء تحت الانقاض . وكانت جموع الناس المتفرقة هنا وهناك تهيم على وجهها في حال من الذهول واللاوعي، ووقعت حوادث عنف كثيرة بين أولئك الذين احتشدوا حول المستشفيات ومراكز الانقاذ ومخازن الاغذية التي أصبحت جميعها تحت حراسة الشرطة والعسكريين من الجيش الذين اضطروا في كثير من الحالات لاستعمال القوة ، وأحيانا لاستخدام أسلحتهم للحفاظ على الانضباط والامن والسيطرة .

وفي صباح الثاني والعشرين من آب تم توطيد الامن ظاهرا في الضواحي مثل « وولفرهامبتون » حيث أطفئت هنا أو انطفأت بنفسها جميع الحرائق ، ونجحت الجهود المشتركة للشرطة وللجيش أخيرا في الحفاظ على درجة من الامن والنظام في الشوارع ، الذين لا مأوى لهم، الى مناطق أخرى . وأتاحت وعمليات اخلاء المصابين الذين لا مأوى لهم منهم الى مناطق أخرى . وأتاحت عمليات الايواء القسري السكن لغالبية الذين كانوا يتسكعون في الشوارع بدون مأوى ، وأمكن الآن توجيه جهد عسكري للبحث والاستقصاء في اتجاه مركز المنطقة المنكوبة ، والقيام بعمليات انقاذ واسعاف في أبعد النطاقات المحلية الداخلية المحيطة بمدينة برمنغهام . كان معظم الناجين من سكان هذه الضواحي قد غادروها الى النطاق الخارجي من هذه المدن الصغيرة . وهناك قدم لهؤلاء المأوى والمساعدات الطبية بقدر ما سمحت به التسهيلات المتوفرة . مع ذلك ففي النطاق الداخلي لتلك المدينة في أماكن مثل « دادلي » مازالت الآلاف العديدة من الناس المصابين يرقدون بين أنقاض منازلهم . فيما وارى التراب أعدادا لاتحصى تحت الانقاض . لقد كانت الاضرار شديدة في هذه المناطق الى حد جعلت أعمال الانقاذ الممكنة محدودة جدا .

وقد ثبت أن لدى القيادات الفرعية في مدينة بيرمنغهام أنه لايمكن تقديم الكثير من العون في معظم منطقة مركز المدينة ، حيث تلقت الضربة على اشدها . وعموما التهمت النيران بعضها ، لكن الدمار قد امتد الى ساحات واسعة جعلت امكانيات فرق الانقاذ التي تضطلع بمحاولات انقاذ في المدن الموجودة في النطاق الداخلي محدودة جدا . وكان واضحا أن الوسائط والامكانيات في المنطقة لم تكن ملائمة لبدء عمليات انقاذ فيما تبقى من مدينة برمنغهام نفسها ، ولذا فقد أرجىء هذا الامر الى حين توفر الامكانيات على المستوى القومي . ولهذا فقد تم عزل المدينة على طول طرق السير في الشمال والغرب ، وعلى امتداد نهر « الكول » وقنال « ستراتفورد » الى الجنوب والشرق . وصدرت تعليمات بعدم القيام بعمليات انقاذ واسعاف داخل هذه المنطقة مؤقتا على الاقل . لقد شدد الحصار والعزل من قبل وحدات الشرطة والجيش ومنع الدخول الى منطقة المدينة .

وبتحديد الوسائل المتاحة لعمليات الانقاذ على هذا النحو تمكنت القيادات الفرعية من احراز تقدم في تنظيم وادارة المنطقة خارج نطاق المنطقة المعزولة .

وأخذ العديد من الآلاف الذين تعرضوا لاصابات خطيرة يموتون يوميا . وقد تدهورت الحالة الصحية الوقائية الى حد احتمال انتشار أوبئة خطيرة. ولقد اضطرت وحدات الشرطة والجيش الى تكرار استعمال اسلحتها للحفاظ على الامن والنظام بين جموع المصابين واليائسين الذين اكتظت بهم أماكن الايواء ولم يعد فيها متسع لاحد . حيث حشر الناس فيها حشرا . وكذلك أماكن الخدمات الطبية والخدمات الاخرى . وكانت أعمال اخلاء الجرحى تسير بالسرعة الممكنة ، لكن الاعداد كانت كبيرة لدرجة أنه أصبح من الصعب ايجاد أماكن ملائمة يمكن توجيههم اليها . وجرت محاولات اضافية لاخلاء وتنظيف الطرق الرئيسية حول مدينة برمنغهام لكن الامكانيات المتوفرة لم تسمح بتنظيف غير الطرق الداخلة والخارجة من المدن . وكان واضحا انه يجب تكريس عملية اخلاء

رئيسية من المنطقة كلها على أن تبقى فيها فقط العناصر الضرورية اللازمة لاستمرار عمليات الانقاذ .

ورأى سكان لندن وميض الانفجار النووي فوق بيرمنغهام وسمعوه ، وفيما كانوا يشاهدون غمامة الدخان الفطرية ، وهي تتجمع ثم تتفرق ، كانت الحكومة قد اتخذت قرارا بالتصرف ، وبدأت على الفور القيادات المدنية والعسكرية تطبيق خطط الطوارىء في حال الهجوم بالاسلحة النووية . وأعلن ان رئيس الوزراء سيتحدث للامة من خلال شاشة التلفزيون ومحطات الاذاعة عند منتصف النهار .

وكانت قد أحدثت مراكز حكومية بعيدا عن لندن ، كما كان قد نُفذت في الرابع من آب المراحل الاولى من خطة الاخلاء اليها بوضع طواقم رمزية في المواقع الحربية تحت الارض . ولحقت بها على الفور الهيئات الرئيسية للقيادات المدنية والعسكرية . وفي كل مكان في طول البلاد وعرضها أصبحت المراكز الاقليمية لاجهزة الاشراف والمراقبة المدنية والعسكرية موجودة في ملاجيء محصنة تحت الارض ، وكذلك المراكز الفرعية الاقليمية ، التابعة لها جاهزة للعمل . وكان على رأس كل منها وزير في الحكومة وعدد من ممثلي جميع السلطات المدنية والعسكرية منها ، وأجريت تمرينات تطبيقية لاجراءات العمل، تحت ظروف معركة ذرية . ووضعت وسائط الاتصال في أماكن منيعة وقوية لمواجهة دمار القنابل والتشويش حتى من الذبذبة الكهرطيسية التي تتولد عن الانفجار النووي .

كانت الغارات الجوية التقليدية على أجزاء عديدة من البلاد عنيفة ،وخاصة على الموانىء ومحطات توليد الطاقة ومراكز المواصلات محدثة دمارا شديدا وخسائر جسمية في الارواح ، وانتشر الخوف من هجوم ذري آخر ، ونتيجة لذلك لم يكن ممكنا تحويل أكثر من جزء ضئيل من وحدات القوات البرية للمملكة المتحدة الى المدن المنكوبة في دائرة التدمير الواسعة . فقد كانت قوات

الشرطة والدفاع المدني قد وصلت الى حد الارهاق الشديد ، أما الفرق المتطوعة التي دربت من قبل السلطات المحلية لمواجهة حالات الطوارىء المدنية اثناء الحرب وحالات الهجوم التقليدي أو النووي ، وكذلك مواصلات الراديو التي تصل للسلطات المحلية وشبكات الراديو العامة فقد كانت جميعها ذات قيمة كبيرة جدا كما كانت المعدات المكدسة لدى السلطات المحلية قد وصلت من مصادر مختلفة كهبة . وكان من المحتمل أن تعمل كارثة بيرمنغهام اذا ما قورنت بالدمار الذي لحق ببريطانيا خلال الاسابيع القليلة الاولى من جراء الهجمات الجوية التقليدية على دفع الموقف القومي للخروج عن امكانية السيطرة عليه ، لكن ماسبق أن اتخذ خلال السنوات القليلة الماضية في مجال الدفاع المدني كان كافيا للخيلولة دون ذلك .

وأنيطت مسؤولية السيطرة على موارد ووسائل الدفاع المدني العسكرية والمدنية بقيادة القوات البرية للمملكة المتحدة حيث يجتمع هناك أيضا ممثلون عن رئيس الوزراء والقيادات العسكرية الجوية والبحرية والوكالات والهيئات المدنية التي تسيطر على الخدمات الاساسية . وذلك في ملاجىء تحت الارض منيعة ضد الهجمات أو تشويش وسائط الاتصالات من مختلف الانواع. وتحتوي على جميع المعدات والتجهيزات الضرورية .

وقد استعملت وسائط الاعلام جميع امكانياتها لتغطية كارثة بيرمنغهام، علما أنه منعت جميع الصور عن التفجير النووي خلال الاربع والعشرين ساعة الاولى . أما الاقتراب بواسطة الطرق الى المدن الريفية المحيطة بمدينة بيرمنغهام فقد كان مستحيلا . أما التغطية المرئية فكانت تتم بواسطة مسح جوي على نحو مائل عن الارض . وكانت التعليقات مستمرة طيلة النهار على التلفاز والاذاعة. وعندما اذاعت رئيسة الوزراء كلمتها ، شرحت ماذا حل بأول مدينة بريطانية تتعرض لاول هجوم نووي ، بل أول مدينة في العالم الغربي . ولخصت ماتم اتخاذه من اجراءات لتقديم الغوث والعون وأهابت تكرارا بجميع الناس الموجودين

خارج منطقة الكارثة للبقاء حيث هم ، اذ لا أحد يدري أين سيكون الهجوم النووي الثاني في المملكة المتحدة .

ومضت رئيسة الوزراء فأعلنت أن العدو قد تعرض بدوره الى هجوم نووي وبقوة أكبر بكثير من تلك التي وجهت الى مدينة بيرمنغهام وكان هذا هو أول اعلان رسمي في المملكة المتحدة وهو أن مدينة « مينسك » السوفييتية قد جرى تدميرها .

وأعلنت رئيسة الوزراء أن صاحبة الجلالة الملكة وعائلتها ستبقى في لندن، وكذلك ستفعل هي بالطبع كرئيسة وزراء .

* * *

الفصل السادس والعشرون

الـــرّدّ المُـــدمّر

وبعد دقائق قليلة من الانفجار النووي فوق بيرمنغهام ، كان رئيس الولايات المتحدة الاميركية يتباحث مع رئيسة وزراء بريطانيا . فيما كان الدمار الـذي أحدثه الانفجار والحرائق السريعة الانتشـــار التي تلت ذلـك وسببت الذعر والهلع ، كان الملايين في نفس الوقت في جميع أنحاء الجزر البريطانية يستجيبون برعب مخيف الى نداءات الطوارىء عبر شاشات التلفزيون واجهزة الراديو . كان الوقت ١.٣٥ حسب توقيت غرينتش أو (٥٣٥) بتوقيت ايست . لقد تم الاتفــاق فورا على ضرورة الرد ، ولو من أجـل تجنب تدهور معنويـات العسكريين والمدنيين . وتم الاتصال بالرئيس الفرنسي الذي أعطى موافقتــه الفورية . وفيما كانت تجري الاتصالات مع الحلفاء الآخرين ، صدرت التعليمات الى غواصتين ذريتين « SSBM » احداهما اميركية والاخرى بريطانية لتقـذف كل منهما صاروخين من نوع « بولاريس » على مدينة « مينسك » على أن تكون بؤرة الانفجار موجهة مباشرة فوق وسط المدينة وعلى ارتفاع ثلاثة آلاف متـر (٣٠٠٠) م . وأفادت كل من الغواصتين أن اطلاق الصاروخين قد تم في الوقت المحدد بدقة ودون صعوبات . وان الرؤوس النووية للصواريخ الاربعة توجهت نحو هدفها ، وانفجرت فوق الهدف في تتابع سريع . كان التأثير مزلزلا . كان تكرارا للرعب الذي حل في بيرمنغهام ، ولكن أسوأ بمرات كثيرة . ودون أن يخفف منه اطلاقا أي احتياطات للدفاع المدني . لم يكن هنالك تلفزيون أو راديو ليعلم عن الهجوم مع ذلك انتشر النبأ كالنار في الهشيم في جميع أنحاء العالم ، وكانت

الصدمة عارمة في كل مكان . ولكنها لم تكن أعظم منها داخل الاتحاد السوفييتي والدول التابعـة .

وكان هناك عود على بدء الاستخدام الخط الاحمر مرة ثانية لاعلام القادة السوفييت ان ما حدث كان هجوما محدودا تم تنفيذه كعملية انتقامية محتومة. وسيعطى الرد على المفاوضات خلال ثلاثة أيام . لكن ذلك لم يكن ضروريا على الصعيد العملي للاحداث .

لقد تم تنفيذ هذا التبادل النووي في الجانب السوفييتي دون التشـاور مع الحلفاء التابعين ، ناهيك عن الجمهوريات الاقليمية للاتحاد السوفييتي نفسه. حيث أثبت انه الشرارة التي بدأت تشعل انفجارا وحريقا قوميا ولقد سبق أن تم وصف ازدياد امتعاض ومقاومة الناس في آسيا وفي شرق أوروبا . ولعل أسباب ذلك هو موقف الجيوش السوفبيتية في أوروبا وفي غيرها من المناطق ، والتناقض الرئيسي في الجهاز السوفييتي الحاكم كامبراطورية ثورية حيث تجبر الامم التابعة لها للقتال في حروب التحرر الوطني في افريقيا ، بينما تنكر عليهـا حريتها القومية في الداخل . وعروض المساعدات الخارجية من الصين الـى شعوب آسيا الوسطى ، ومن الغرب الى شرق اوروبا ، وأخيرا ادراك حقيقة أن روسيا يمكن أن تكون قد بدأت حربا نووية تبتلعهم جميعا ، الا اذا خلصوا انفسهم من هذا النير الروسي . وكانت الانقسامـات أسرع وأشد عنفـا في الشرق ، فيما كانت أكثر دهاء وتصميما في أوروبا .

وأخذ مجلس وزراء جمهوريـة كازاخستان الاشتراكيـة السوفييتية ، المبادأة بأن حصل على موافقة المجلس السوفييتي الاعلى المحلي علـى اعلان الانفصال عن الاتحاد السوفييتي ، والاستقلال وعدم الارتباط . وعلى الفـور اعترفت الصين بالنظام الجديد لهذه الجمهورية ، وقامت بمناورات عسكريـة واسعة النطاق على الحدود ، واستعد القائد السوفييتي في « ألما ــ آتا » لمهاجمة مبنى مجلس السوفييت الاعلى الذي كانت تحرسـه قوات الشرطـة

والميليشيات المحلية ، ولكن نظرا لعدم اعتياده على اتخاذ المبادرات والمبادهات بنفسه . فانه اتصل بموسكو لتزويده بالمعلومات وتخويله صلاحيات القيام بهذا العمل . لكن الكرملين الذي كان منهمكا بالاستعدادات للحرب النووية واتخاذ القرارات اللازمة ، والتي مازالت الخلافات الداخلية تمزقه ، كان مشغولا عن الجواب ، وبذلك ضاعت الفرصة التكتيكية وملأت الحشود المتحمسة الشوارع وهي تحمل الاعلام ، وتعلن ولاءها للشعب الروسي فيما تدعو القوات الروسية للعودة الى بلادها بأمان . واتضح أن الخطر الصيني كان كبيرا وخطرا، أكثر من الاضطراب المحلي ، ولذا اهتم الجنرال ، ومعظم ضباط حاميته بتعزيز الحدود .

ونجح اعلان الاستقلال ، بنفس القدر في جمهوريات أخرى ، متاخمة للصين أو لايران ، حيث كان النشاط العسكري على الحدود ، يصرف القوات السوفييتية عن دورها الامني الداخلي . أما في جمهورية اوزباكستان التي لم تتمتع بمثل هذه الفوائد على كل حال فقد قامت القوات السوفييتية في طشقند بأعمال انتقامية دموية ضد الزعماء الوطنيين ، وبذلك أوقفت مؤقتا حركة الاستقلال . وقد يكون السوفييت استطاعوا أخيرا اعادة الموقف السابق في مناطق أخرى . ولكن كانت تجري في الوقت نفسه اعمال اضطرابات واسعة في الغرب أدت الى توجيه طلقة الخلاص الى بنيان النظام السوفييتي .

وقد عجل تدمير « مينسك » بقيام الاحداث على الحدود الغربية للاتحاد السوفييتي . لقد كانت « مينسك » هدفا جيد الانتقاء . وهو قريب من بولونيا من جهة الغرب كما أنها كانت عاصمة جمهورية بيلورسيا ذات الحكم الذاتي نظريا ، وهي أيضا جارة أوكرانيا الى الشمال . واستنتجت كل من بولونيا وأوكرانيا بسرعة ، أن الدور الثاني سيكون دورهما ، الا اذا اتخذتا خطوات من شأنها تغيير مجرى التاريخ . واستعدادا لمثل هذه الفرصة ، كانت قيادة القوات المسلحة والدفاع البولونية ، كما كشفت الاحداث في وقت لاحق، تقيم اتصالات مباشرة سرية مع قادتهم منفصلة عن شبكة حلف وارسو التي

كان يسيطر عليها السوفييت . وقامت هذه السلطات أيضا بتنشيط صلاتها مؤخرا وأصدرت أوامرها الى الوحدات البولونية للوقوف بصلابة في مراكزها، ومقاومة ، أي أوامر أخرى للتحرك ، وأية هجمات على مراكزها من أي مصدر كان . وفي الوقت نفسه اجرت اتصالات مع المقاومة السرية « كانت هذه السلطات والمقاومة السرية على اتصال تام منذ مدة على الطريقة البولونية » ورتبت لها ارسال رسائل عاجلة على جهاز الراديو السري الى لندن لاعلامها بما حدث ولطلب تأكيداتها بأن هجوما حليفا لن يشن على المواقع التي تشغلها قوات بولونية ، وطالبة أيضا اسقاط امدادات ضرورية من الاغذية ومعدات الاتصال عن طريق الجو . وتلقت هذه ردا ايجابيا مشجعا ، واستعدت الحكومة البولونية بهدوء لاعلان انسحابها من حلف وارسو، وعزل الوحدات الروسية الموجودة على التراب البولوني .

وعلى كل حال فقد جاءت الضربة القاصمة من جهة غير متوقعة . كانت السياسة السوفييتية شديدة التحسس ازاء اعراض الاستقلال في أوكرانيا فتارة تلجأ الى قمعها ، وتارة تعمل على ترضيتها . ولعل اسهام اوكرانيا العظيم في امدادات الغذاء للسوفييت وموقعها في خط المواجهة للاتحاد السوفييتي وفي وجه الغرب وتحد كلا من بولونيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وهنغاريا ، ورومانيا ، بالاضافة الى طاقاتها الكهربائية ، وللاسباب هذه كانت تعتبر نفسها ، بعد روسيا أفضل الاقسام الذي كان يتألف منها الاتحاد السوفييتي حيوية ، بل انها كانت بحق حجر الزاوية . ولقد عانت أكثر من غيرها من الجمهوريات من تصرفات الدولة السوفييتية للحصول على امدادات الاغذية بالقوة بعد الثورة. ثم من اضطهاد أبناء الفلاحين . ولقد كوفئت بعد دمار الحرب العالمية الثانية ، وجارتها بيلوروسيا في الشمال بمنحهما حكما ذاتيا وهميا كعضوين منفصلين في الامم المتحدة .

وقد تعرضت المشاعر الوطنية الاوكرانية الى القمع عام ١٩٦٦ اثناء محاكمات كييف للمثقفين ولاعضاء اتحادات الفلاحين والعمال الاوكرانية .وكانت

جريمتهم الرئيسية ، هي تعميق فكرة الانفصال عن الاتحاد السوفييتي ــ وهو حق نص عليه دستور الاتحاد السوفييتي نفسه ــ . لم يفلح هذا القمع الا في تحويل هذه المشاعر الى قنوات من المقاومة السرية الشديدة . وفهم المفسرون المطلعون الحديثون الحكمة القائلة أن الثورة تبدأ من القمة ، ولهذا فقد صمموا على الاستفادة من الحريات الهامة المتبقية لسكان أوكرانيا ألا وهي حرية وصول الافراد الاوكرانيين الى مواقع القوة والسلطة في الجهاز المركزي للاتحاد السوفييتي. كان هناك العديد من الجنرالات الناجحين . ولعل احد الابناء المحببين الى الوطنيين الاوكرانيين ، كان رجلا من الشرطة السرية ، لقد تخرج « فاسيلي دوغلينكو » في عام ١٩٦٠ من أكاديمية الشرطة في كييف ، ونقل بعد تخرجه الى قيادة المخابرات السرية في موسكو بناء على توصية الى « خروتشوف » من قبل أحد اصدقائه الاوكرانيين ، وعندما سقط « خروتشيف » نجا من أعمال التطهير لاعتباره كان يشغل منصبا بسيطا . تدرج في السلطة الى ان وصل الى نائب القائد ، وأنيطت به مسؤولية خاصة ألا وهي أمن الكرملين نفسه ، وحافظ على صلات وثيقة مع الخلايا الوطنية في الحزب الشيوعي الاوكراني ، وعين عددا كبيرا من زملائه الاوكرانيين في مراكز مناسبة في المخابرات الروسية « KGB » وخاصة في الكرملين .

وهكذا كان له جهازه القومي ، وصلاته الوثيقة . وهيأت له الانفجارات في « مينسك » فرصة وضرورة استخدام ذلك الجهاز . ولم يشأ « دوغلينكو » وأصدقاؤه في جهاز الحزب الاوكراني أن يشاركوا في الفصل الاخير مع « غودار» أصدقائه ، ومع أنهم كانوا يعلمون علما غامضا وغير أكيد بما يجري في بولونيا الا أنهم رأوا أن لامستقبل لحركة انفصالية محصورة في اوكرانيا فقط . ولابد اذن من مهاجمة رأس القيادة المركزية للنظام السوفييتي .

وهناك في الرأس ، يستطيعون ان يضموا قواهم الى فريق الحمائم الذي سبق الحديث عنه في الفصل الرابع والعشرين ، ذلك الفريق الذي ازداد تأثيره وانتشر بعد الانباء السيئة الواردة من الشرق والغرب ، حتى بين قطاعات

من قيادة القوات المسلحة . ولعل من الاهمية بمكان أن يكون لهم أصدقاء هناك، اذا ما أريد للانقلاب أن ينجح في الساعات الخطيرة الاولى .

ولقد قررت جماعة الجيش التي كانت صغيرة في البداية ومتآمرة بالضرورة أن حربا نووية ، وحتى قبل الهجوم على بيرمنغهام لن تحقق أغراض الاتحاد السوفييتي في الغرب ، ولن تعيد الامن والنظام الى نصابهما في الشرق ، يضاف الى ذلك ، احتمال تفكك القوات المسلحة نفسها بسبب تدمير الحياة المنظمة في الاتحاد السوفييتي ، وأن عودة وحدات الجيش الاحمر الى الاراضي الروسية تتيح عملا أفضل في قيام حكومة منظمة تلعب فيها القوات المسلحة دورا فعالا، وينعم قادتها بحياة آمنة مطمئنة . ولم تنطو افكارهم على تقسيم راديكالي للاتحاد السوفييتي كما كان يفكر الاوكرانيون سرا . وقد يتفقون معهم على الحاجة للتخفيف من السيطرة المركزية على الحياة الاقتصادية للبلاد ، ليس بهدف ابعاد التدخل الحكومي فيها ، ولكن من اجل استعادة الفعالية ، ومحاولة التعادل مع القدرة الانتاجية للغرب صناعيا وزراعيا ، وليس المحور الصيني — الياباني .

واستطاع كلا الفريقين ، على الرغم من أن كلا منهما كان يخفي أهدافه لنفسه ، من اقامة صلات بينهما لتحقيق هدف تكتيكي ، الا وهو التغلب ، على الاصرار المحتمل لجماعة الخط المتشدد في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي ، على اقتراف الانتحار النووي .

ولم يكن هناك وقت لاضاعته ، كان مقررا أن يجتمع المكتب السياسي في الثاني والعشرين من آب ، لتقرير ما يجب عمله في حال عدم استجابة الاميركيين الى الانذار الموجه اليهم للدخول في مباحثات للحفاظ على الوضع الراهن .

وفي صباح يوم الاجتماع المشهود ، توفي « مدير المخابرات السرية « KGB » بحالة اصطدام سيارة ، وهو في طريقه داخل موسكو . كان « دوغلينكو » الموجود في الكرملين راضيا ، لانه سيحضر جلسة المكتب

السياسي . وكان يعتمد على أمرين اثنين : المفاجأة التامة ، لذلك لم يعرف أي شخص بتفاصيل خطته ، سوى عدد من الرجال في حدود اثني عشر من رجال الامن المكلفين بالتنفيذ ، ومعظمهم من مواطنه الاوكرانيين ، وثانيهما ، استعداد الادارة السوفييتية في ذلك الوقت لتنفيذ الاوامر الصادرة اليها من القمة ــ أيا كانت هذه الاوامر ــ وتلك خاصة كان مصمما على تغييرها ولكنها وفي هــذه المناسبة ستخدم أغراضه جيدا . وعندما التأم الاجتماع ودعي لتقديم تقريره عن الحادث الذي وقع لرئيسه وقف ، لاليخرج ورقة من جيبه ، بل مسدســا قتل به الرئيس « فورتنيكوف » . وكانت هذه اشارة الى زملائــه المتآمرين الذين كانوا يقومون بالحراسة خارج الغرفة لاقتحامها ونزع سلاح بقية أعضاء المكتب السياسي . وأعلن « دوغلينكو » نفسه رئيســا للجمهورية وأمينا عامــا للحزب . وأمر بطرد الاعضاء المتشددين تحت الحراسة ، بينما ، تلقى تأييــد وولاء البقية التي لم يكن لها خيار ، لاسيما وان البنادق ماتزال مُشهَّرة في الوجــوه .

كانت الساعات القليلة التالية سباقا محموما مع الزمن للسيطرة، سيطرة فعالة على القوات المسلحة ، قبل قيام تحركات مضادة ، وقبل اصدار أوامــر طائشة بحرب نووية وذلك من أجل طمأنة الشعب وطمأنة الاميركيــين أيضاً ، وثنيهم عن فكرة القيام بضربات نووية وقائية . كــان بعض القادة السوفييت ، كما سبق أن قيل عنهم ، يحبذون عموما فكرة النجاة بما أمكن من الوضع الحالي البائس ، كوسيلة وحيدة لابقاء القوات المسلحة في الوجود . لكن عددا قليلا منهم كانوا على علم بتفاصيل المؤامرة . لقد كان من الضروري بالطبع ، وضع واحد من هذه القلة في الواجهة في المنصب الذي يبرر أوامر الرئيس الى القــوات النووية الاستراتيجية ، حتى اذا ما استطاع « دوغلونكو » تنفيذ ما هو ضروري في موسكو أمسك بالخط لاحمر وتحدث ألى الرئيس « تومبسون » وطمأنــه بكل ثقة ان القوات النووية السوفييتية قد أمرت بالوقوف جانبا ، وطلب من ألرئيس الاميركي « تومبسون » بلطف ان يصدر أوامر مماثلة من جهته . واقترح

« دوغلونكو » بالاضافة الى ذلك وقفا تاما لاطلاق النار خلال اثنتي عشرة ساعة، ودعا الى مؤتمر مبكر في « هيلسنكي » لوضع شروط السلام .

وقد أذهل بالمفاجأة حتى اكبر مراقبي الكرملين معرفة في الجانب الغربي. وخلال الفوضى في الساعات القليلة التالية ، وبينما كان الرد الاميركي يعد ، تعالت أصوات تحث على أن في الامر خدعة ، أو اذا كان هناك انقلاب حقيقي في موسكو ، فهذا هو الوقت للاندفاع للأمام ، وانهاء الروس تماما . بينما كان بعضهم الآخر يقول ، وبتحديد أكثر ان ذلك لم يكن سوى تغيير في التكتيك الروسي . وان هذا التكتيك الجديد الذي يقول بشيوعية منفتحة وأقل مركزية والتي سمعوا بها لاول مرة عن طريق اذاعة موسكو ، سيكون على المدى البعيد أشد خطرا على الغرب من غموض سلفها . وعلى هذا يجب عدم تقديم تنازلات، ويجب أن يبقى الحذر على أشده ... الخ ولكن تم الاتفاق أخيرا على الاعراب عن الشكر للرحمة الكبيرة وليس بالضرورة الدائمة لاتخاذ موقف مماثل على صعيد تخفيض الاستنفار النووي ، وقبول وقف اطلاق النار والتحضير مع الحذر التام من اجل المؤتمر .

اما بالنسبة لموضوع مستقبل الاتحاد السوفييتي ، ففي اجتماع دعي اليه على عجل ممثلو الجمهوريات التي يتألف منها ، لم يكن هناك خيار في تقبل حقيقة كون الاتحاد السوفييتي يمر في طور الانحلال . وأعلن الآن وبشكل واضح أن هدف اوكرانيا هو الاستقلال ولقد تم الحصول عليه من قبل عدد من الجمهوريات في آسيا ، وكان على الروس الآن أن يقبلوا سواء أرادوا ذلك أم لا كونهم أصبحوا وحيدين .

وتم الاتفاق على تشكيل وفد مشترك الى مؤتمر « هلسنكي » وفي الوقت نفسه على وضع صيغ الانفصال . ومن نافلة القول ، أن الانتقال العنيف من الحكم الاوتوقراطي المركزي الى تعدد القوميات ، لن يتحقق في كل مكان على نحو منتظم . ولم تستطع جميع الجمهوريات اقامة ادارتها ، وكان لدى العديد

منها موارد اقتصادية عاجزة عن أن تعتمد على نفسها. أما المشكلة الكبرى المتمثلة في حل القوات السوفييتية السابقة في أوروبا وافريقيا والشرق الاوسط، فقد أنيطت بممثلين عن الامم المتحدة .

وتطور مؤتمر هلسنكي ـ كما هي العادة في المؤتمرات ـ الى سلسلة من الاجتماعات مايزال بعضها يجري حاليا، ويحتاج تدوين مداولاتها الى مجلد آخر . ان انهيار الاتحاد السوفييتي يعني نهاية العداوات في أوروبا على نطاق واسع، لكنها لم تكن تعني السلام العالمي الشامل .

* * *

الفصل السابع والعشرون

تأملات في الحرب

ان الوضع الدولي لم يتبلور بعد ولم تنته تلك الصراعات التي لم يبدأها الاتحاد السوفييتي . انه سعى دوما لزيادة حدتها واستمراريتها حتى مستوى الاشتباك المسلح ثم الاستفادة منها ، الا أنه لم يسلم هو نفسه من الانقسام بسببها .

كما أن دول منظمة حلف وارسو لم تبق بمنأى عن هذا الانقسام فهناك خلافات فيما بينها كما توجد خلافات أيضا بين كل منها وبعض الدول الاعضاء في التحالف الغربي ، وقد غدت تلك الدول أخيرا في حرب معه . ولا شك ان تسوية هذه الخلافات لن يكون أمرا سهلا اضافة الى أنه سيحتاج الى وقت طويل ، علما بأن الحروب لاتزال مستمرة خارج أوروبا وليس هناك شك في أنها ستستمر بشكل أو بآخر لبعض الوقت باستخدام الامكانيات والموارد المتوفرة لدى الدول المتحاربة « علما أن الروس خلفوا الكثير من العتاد وراءهم » .

ويمكن القول على كل حال ، ان الحرب العالمية الثالثة قد انتهت بانهيار حلف وارسو في أواخر شهر آب عام ١٩٨٥ وإن الاعمال العدائية المباشرة بين القوى الرئيسية قد توقفت . لقد ألقينا فيما سبق نظرة سريعة على النحو الذي كان عليه العالم . وفي الفصل الختامي ، سنلقي نظرة على المستقبل . ويجب أن يقال شيء أكثر عما كان من الممكن أن يحدث ، ولم يحدث . وعن عوامل أكيدة أسهمت في النتائج ، وعن بعض الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من الاحداث .

على أن أهم ما يميز المشهد الذي نراه حولنا الآن ــ وهذا شيء سنعتاد عليه من مرور الزمن ــ هو غياب امبريالية روسيا السوفييتية عن هذا المشهد. هذه الامبريالية التي اتصفت عبر الاحداث بالتوسعية والعقائدية العنيدة ، وبالقوة والقلق والشؤم .

وهكذا فقد افاق العالم من كابوس مزعج آخر تماما كما كان قد خرج من كابوس النازية ، ولكنه دام لمدة أطول . واستمرت الخرافة التي ولدت مع الثورة البولشفية عام ١٩١٧ ، قبل أن تتفجر مدة ثلاثة أرباع القرن ، كانت خرافة انبثاق الديموقراطية الحقيقية من انفجار بروليتاري بينما الذي حدث حقا عبارة عن قلب حكومة منتخبة ديموقراطيا من قبل قلة فاشستية متعصبة عن طريق القتل .

ويقول البعض أن التناقضات الاساسية في الماركسية اللينينية ستؤدي حتما مع الزمن الى سقوط أية دولة تبنى عليها . وأيا كانت مساهمة « كارل ماركس » في فكر القرن التاسع عشر ، فان الكثيرين اليوم يرون في فلسفته السياسية ، بعد قرن من الزمن شيئا غير علمي ، أو على الاقل شيئا رومانطيقيا قد عفا عليها الزمن . ولا يمكن ان يكون مفيدا ، كتوجيه لاي حكومة في القرن العشرين أكثر مما تكون روايات « شارلز ديكنز » ، كانعكاس للحياة هذه الايام في انكلترا من اجل تقدم الماركسية ، ولو أنه لم يقيض لعبقرية « لينين » الثورية تسخير مجموعة كبيرة من الشعوب المتخلفة والمتعودة على الخضوع للحكم المطلق الاستبدادي معظمها آسيوية وبعضها شبه همجي ، لكان محلها بين تفاهات التاريخ منذ وقت طويل ، ولما وقع ابدا هذا الكابوس . وانتهى الكابوس ، وقد لايتاح لنا أن نعلم ما اذا كان الاتحاد السوفييتي خلال وقت ما سينهار بنفسه أم لا ، بدون الحرب التي بدأها هو بنفسه . وقد يكون هناك أكثر من كابوس في المستقبل .

ولقد كانت هناك أقوال تبدو معقولة ، وتفيد أنه ، بالاضافة الى تضافر

سوء التقدير وسوء الطالع اللذين فجرا حرب عام ١٩٨٥ ، فـان هناك شعورا متزايدا بين قادة الاتحاد السوفييتي بوجود تشنجات داخل حلف وارسو وفي الاتحاد السوفييتي نفسه ، الامر الذي لايمكن احتواؤه بدون احراز نصر عسكري حاسم على الغرب الرأسمالي يضاف الى ذلك أن كبار رجال الحكم يساورهم خوف حقيقي من ألمانيا . وكان هناك بعض الخوف من قدرة ألمانيا الاتحاديـة الى جر الغرب ، وخاصة الولايات المتحدة الاميركية الى حرب عدوانية ضـد الشرق الشيوعي . وكان هذا خوفا لم يستطع الاصرار الالماني الغربي علـى « الدفاع الامامي » أن يضع حدا له (بغض النظر عما كان يعنيه هذا الاصرار، الا أنه وبوضوح كبير كان يحمل مدلولات مختلفة وتفسيرات متباينة من قبـل أناس كثيرين) . وفي وجه هذا كله كان ما أنتجته وسائل الدعاية السوفييتية قليلا وضحـلا .

وستظل الاسباب الحقيقية لهذه الحرب بين الكتلتين الشرقية والغربيـة ولمدة طويلة مسألة قابلة للنقاش . وأيا كانت هذه الاسباب ، فان اتخاذ قرار القتال كما يبدو الآن ، لايمكن أن يكون الا في أوروبا ، « اذا لم يتطور هذا القتال الى تبادل استراتيجي لاسلحة الدمار الشامل ، الامر الذي يفرغ مفهوم«القرار» من جميع معانيه » . على أن بؤرة هذا القرار ستظل جمهورية ألمانيا الاتحادية.

وستظل النقطة الحرجة في العمل العسكري بناء عليه مقيدة من جميـع الجهات على الاقل ، بقدر ما أن المعركة مستمرة على الارض ولهذا تم في حلف الاطلسي « ناتو » تعيين منطقة مركزية للقيادة الحليفة في أوروبا .

وقد بدا واضحا أيضا ان الخطة السوفييتية من اختراق مجموعة جيوش الشمال ، عبر نهر الراين في الاراضي المنخفضة « هولندا » ، وحشد القـوات الحليفة في وسط أوروبا بواسطة هجوم اندفع من الشمال الى الجنوب علـى طول الشاطىء الغربي لنهر الراين ، يهدف الى مفاجأة مجموعة جيوش الوسط وأخذها من الخلف ، وقد اقتربت تلك الخطة كثيرا من النجاح . ولقد كـانت معدة بشكل جيد ومحضرة تحضيرا تاما ، ولكن ليس دون تقييم غير معقـول

للصعوبات المعقدة ــ أن هذه الخطة الخاصة كانت عنصرا في بناء عام لتخطيط محتمل ــ وإن أي واحد من هذه العناصر المشكلة ، مهما كانت قيمته الفردية. وإذ أخذ الامر يتبلور بشكل منعزل فلن يكون له سوى حظ ضعيف من النجاح . فلقد كان الرد القوي الغربي غير المتوقع على التدخل السوفييتي في يوغوسلافيا هو الذي انقذها من الصدمات ، ــ على الصعيد الفعلي للاحداث ــ كما أنه ساهم في افشال الخطة الاستراتيجية الموضوعة لغزو المنطقة الوسطى وجعلها تنزلق متدحرجة الى حافة الهاوية .

ماذا يمكن أن يحدث في هذه المسيرة الطويلة ، اذا حققت هذه الخطة أهدافها ، ستكون الامور أعقد من ان تحصى ، يمكن أن يقال وبكل ثقة، أنه على المدى القصير ستأتي على تدمير كامل أراضي جمهورية المانيا الاتحادية . أما بالنسبة للحلف الاطلسي فسنيكون مصيره التدمير الكامل نتيجة لذلك .وفي مثل هذه الظروف فان امكانية القيام بهجوم معاكس تشنه الولايات المتحدة الاميركية ، سوف يكون صعبا ، وقد لايحقق أي نجاح كما أن اصلاح الموقف سيكون أبعد ما يمكن عن تناول اليد .

ان شبح شن هجوم مفاجيء بنطاق واسع على قوات الحلفاء في أوروبا من قبل قوات حلف وارسو ، خطط له بسرية تامة ، ونفذ بشكل مفاجيء تماما بقوات كانت تقف على أهبة الاستعداد ، وبمساعدة عمليات تقوم بها عناصر المقاومة السرية ، محضرة بسرية مطلقة ، لن تكون فقط مجرد شيء من الاشياء العادية التي تحرم الناس ذوي الحساسية من النوم في فترة ما قبل الحرب على الرغم أنه يمكن أن لايكون الانسان حساسا لدرجة تجاهل امكانية الحدوث، مع أن المخططين من الحلفاء كانوا يهتمون بما يحدث في الوقت الراهن : تحقيق خطط طارئة تحضر بشكل حسن ، تصل الى درجة عالية من الاستعداد ،وباعتبار أن الازمات في مثل تلك الاحوال يمكن ان تنشب في أي مكان ، فيجب أن تكون تلك الخطط قادرة على التجاوب مع جميع الحالات الطارئة .

ومع ذلك ، وعلى نحو غير مرتقب كان من المحتمل أن يقع في نهاية السبعينات

هجوم مفاجىء تقوم به قوات محلية من حلف وارسو في وقت كـانت قوات الحلفاء في أوروبا في حالة استعداد ضعيفة لدرجة لم يكن يشك في تحقيق نجاح كامل في المرحلة الاولى من المعركة ، سواء كانت فرنسا ستقف الى جانب الحلفاء أم لا . وكان جيش الولايات المتحدة الاميركيـة في أوروبا لايزال يعـاني آثار ما أصابه من حرب فيتنام . وبدأ يعتاد على حقيقة غياب متطلباته من الحاجات الفاخرة ، لكنه بقي على أي حال في وضع قابل لان يجره الى مصاعب غـير متوقعة . كحاجته لاحتياط من المواد التي فقدت ولم تعوض ، وكذلك لم يجر تعويض ما فقده بسبب الحرب العربية ـ الاسرائيلية وما سلم لاسرائيل مـن مستودعاته في اوروبا . وإن جرى تعويض بعضها فانه كان بطيئا جدا . ان اعادة صياغة برنامج يشتمل على ارسال قوات مسلحة من الولايات المتحدة الاميركية، يجري حفظ عتادها بمستودعات في أوروبا وخاصة في جمهورية المانيا الاتحادية لم تظهر تقدما كاملا كما حصل في السنوات التالية ، على الرغم من أنها كـانت تعد بانجازات عظيمـة .

كان الجيش الالماني يتحسن باستمرار ، ولكن على الرغم من ان وحداته كانت تعتبر أفضل وحدات الحلفاء بالنسبة للروس ، كان لايزال فقط في وضع مقبول الا أنه لم يبلغ المرحلة التي يفترض أن يصلها وذلك من خلال المعـايير الدقيقة التي يقاس فيها مستوى الجنود الالمان المحترفين . أما الجيش الالماني الاقليمي ، فكان لايزال في وضع بدائي ، على الرغم من الجهود المبذولة لتحسينه.

بينما كان جيش الراين البريطاني يناضل من أجل اعادة تنظيمه من جديد، للوصول الى درجة الجاهزية القتالية « وحجم القوات » وتجهيزه حيث ان هذه الامور كانت تسبب قلقا لقياداته ، كما كانت هناك عـدة وحدات مـن أحسن مالدى الجيش البريطاني من وحدات المشـاة تتمركز في ايرلندا الشماليـة للمشاركة في حفظ الامن . أما القوات المخصصة للدفاع في عمق منطقة مجموعة جيوش الشمال عندما يتم اختراقها بشكل لايمكن تجنبه ، وهذا ما حدث فعلا، كانت سيئة التجهيز وغير كافية العدد ، خاصة في ظروف لاتسمح باستخـدام

الاسلحة النووية « حيث أنه كان من المؤكد ان يجري كبح جماح هذه الفكرة » وكانت تماما غير ملائمة .

أما القوات المسلحة البلجيكية والهولندية فكانت تعتمد وبشكل كبير ــ ولو كان في هذا بعض الخطر ــ على الاحتياط ذوي التدريب المحدود الذين يتم استدعاؤهم من آن الآخر ، ولا يزالون يمانعون في تأدية هذا الواجب «بصورة خاصة في هولندا » . كما يرفضون أن يعيروا اهتماما لتقوية أنفسهم والتحضير للمعركة المقبلة، وخاصة فيما لو جرت على أرض جمهورية المانيا الاتحادية . وكان هناك أمل ضعيف جدا في أن تقوم القوات الهولندية في حال القيام بهجوم مفاجيء حتى في الوصول الى أماكن القتال المخصصة لها على الجبهة ، قبل أن يتم الاستيلاء على هذه الاماكن من قبل العدو .

أما في مجال القوات الجوية فلا زال الحلفاء يتمتعون بتفوق على قوات حلف وارسو من حيث النوعية، علما أن الفارق بينهما في هذا التفوق ليس كبيرا جدا وسيتلاشى مع الزمن . الا أن تقدم الغرب على الشرق في مجال التقنية الالكترونية فهو ولاشك أمر عظيم وملموس ولا يمكن الجدال فيه، وكذلك في مجال طواقم القوات الجوية ، لكن مما يؤسف له أن الاوروبيين من الحلفاء أو بعضا منهم لايعطي هذا الامر الاهتمام اللازم ، مما أدى الى حدوث خلل ما بهذا التفوق ، أما في مجال الدفاع الجوي « أرض ــ جو » بالاسلحة المضادة الارضية، فكانت أيضا وفي كل بلدان اوروبا في وضع لاتحسد عليه من الضعف ، على الرغم من أن بعض الدول كانت تملك معدات من النوع الجيد ، منها الصاروخ رابيير المخصص للدفاعات على ارتفاع منخفض . وفي الوقت الراهن ، لم يبت حتى الآن في أمر استخدامه . ولقد كان للمملكة المتحدة في عام ١٩٧٧ فقط فوجان من هذه الصواريخ تابعة للجيش البريطاني في منطقة الراين . من ناحية ثانية ، كان الدفاع الجوي أيضا في وضع ليس احسن من المجالات الاخرى فلا تجهيزات ، ولا وسائل حماية كافية ــ سواء في مجالات الحرب الكلاسيكية أو الذرية ــ .

فلو قام حلف وارسو في نهاية السبعينات بهجوم مفاجىء ، فمما لاشك فيه أنه سيتوج بالنجاح ، وسيجلب معه الروس الى ضفاف نهر الراين خلال أيام قليلة ـ اذا لم يقم حلف الاطلسي باستخدام الاسلحة النووية ـ ماذا يمكن أن يحدث عندئذ ؟ لايستطيع أحد بالطبع أن يتخيل النتائج ! وبالرغم من وجود احتمال كبير الى ان ذلك سيؤدي الى نوع من التصعيد في استخدام اسلحة الدمار الشامل فيما بعد وخاصة على المستوى الاستراتيجي ، ان هذا الاستخدام المتبادل لهذه الاسلحة سيجعل من المعركة البرية في أوروبا شيئا ، وكأن لاعلاقة له بالموضوع .

فلو فكرنا مليا ، بأن أي هجوم يمكن شنه مع تحقيق المفاجأة التامة في الظروف الراهنة ليس بالامر اليسير ، بالاضافة الى أنه يلزم ايجاد المبررات لمثل هذا الهجوم . لهذه الاسباب جميعا يمكن القول أنه ليس بالامكان أحسن مما كان . لكن ماذا حدث حتى بدىء بهذه الحرب عام ١٩٨٥ ، ومن الممكن أن تكون تلك الاسباب في زمن أبكر ، ويمكن شنها بطريقة أو بأخرى .

فلو أن أزمة عام ١٩٨٥ حدثت في عام ١٩٧٧ ، أو لنقل حتى في عام ١٩٧٨ ، فستكون النتائج ، كما رأينا بأن حظ نجاح الخطة السوفييتية لغزو أوروبا حتى ضفاف نهر الراين كبيرا ، وكذلك تقطيع أوصال حلف الاطلسي ، وتدمير جمهورية المانيا الاتحادية . ويمكن لمثل هذا الضعف أن يجعل دول حلف الاطلسي تهتم في الاستعداد للحرب في ذلك الوقت أفضل مما فعلت .

ان ماحدث في السنوات ، مابين ١٩٧٨ و ١٩٨٤ ، كان كافيا ليحول دون وقوع تلك الحرب . ولقد تمت الاشارة الى حكاية تلك الحرب بشكلها العام بصورة مختصرة وتروى هذه الحكاية على وجه الكمال باستخدام بريطانيا كحالة اختبار في الملحقين الاول والثالث .

ان فوائد البناء العسكري المعد ليؤدي مهمته أثناء السلم ـ كما هو الامر بالنسبة لقوات حلف الاطلسي ـ قد أصبحت ذات فوائد جمة ، أكثر بكثير مما

كان يظن من قبل . فخارج نطاق حلف الاطلسي كاطار عام ، فان الجهود الفردية للحلفاء لم يحسب لها حساب كبير ، لابل أقل بكثير من التأثير لو كانت تلك الجهود قد قامت على مستوى الحلف . أما داخل الحلف فغالبا ما كانت هذه الجهود غير منسقة مع بعضها بعضا ، اضافة الى ذلك ، فان مجموع مساهمات الدول الاعضاء في الحلف كانت أقل بكثير مما كان يتطلبه ، خلال السنوات الطويلة التي سبقت الحرب . وكان هم الولايات المتحدة الاميركية أن لاتغامر من جديد بما يذكرها بكابوس فيتنام . أما المملكة المتحدة فقد انطوت على نفسها وفقدت بريقها بفقدان امبراطوريتها ، وتقوقعت داخل جزرها تحاول معالجة مشاكلها الكثيرة . أما جمهورية المانيا الاتحادية ، فانها لم تعد ذات تألق جذاب من خلال ما حققته من نجاح في معضلتها الاقتصادية وفقدت الاغراءات السابقة بكونها دولة الرفاه. وحتى بلجيكا وهولندا، بدأت كل منهما تدرك، ولو ان الامر جاء متأخرا ومنقوصا ، ان الاتحاد السوفييتي كان في ذلك الحين في موقف يمكن معه أن يلتقي مع البلدان الرأسمالية الغربية من أجل معالجة المشاكل الحقيقية ومن أجل السيطرة عليها ، لكنه لايرغب حقا بالكشف عن هذه المشاكل مع الغرب . وقبلت دول حلف الاطلسي على وجه الخصوص أخيرا ان تواجه مسؤولياتها تجاه اقامة دفاع فعال عن بلادها وان كان الامر قد جاء متأخرا .

كما أن هذا التبدل الطارىء في مواقف تلك الدول ، جاء بعد أن اصبح واضحا لديها أن لامكان لها ان لم تفعل ذلك وعليها ان تعزز قواتها المسلحة وتزيد من فعاليتها ، وان توجه اهتمامها الى تحسين تسليحها في مجال الدفاع ضد الدبابات والدفاع الجوي . كان الخطأ في التقدير الذي وقع فيه الاتحاد السوفييتي عن احتمال مساهمة فرنسا في الحرب ضد القوات الروسية الغازية خطأ رئيسيا ، كما كان بداية سيئة . وعلى الفور شعر الاتحاد السوفييتي أن ذلك الخطأ في الحساب قد أوقعه بمشاكل استراتيجية أعمق مما كان يظن ؛ فلقد أدى به أيضا الى الوقوع بأخطاء أخرى . وكان يحاول أن يقبض بكلتا يديه على نطاق عالمي ، بجميع المشاكل ، كما أنه في الوقت نفسه كان يرغب في أن يسيطر على جميع مسارح العمليات وعلى نطاق العالم أجمع ، انطلاقا من

«بادو» في النرويج الى «بربرا» في الشمال الشرقي من افريقيا ومن« الكاراييب» الى القوقاس . وكان هذا الامر فوق طاقة نظام يتصف بالمركزية الشديدة في في الاشراف والسيطرة وبالتالي فان النظام السوفييتي يعتمد على تلك الطريقة كليا. وان أي درجة من الاستقلالية في القيادة ، وهذا أمر غريب كليا على أي منهم ، وجميع القادة السوفييت وعلى مختلف المستويات لم يتعودوا عليه ، وبالتالي عندما كان يحدث كان يسبب لهم قلقا ويؤدي في كثير من الاحيان الى الفوضى، فلا يستطيع أحد منهم أن يحتفظ لنفسه بأي نوع من المبادهة أو تحمل مسؤولية أي قرار ، وغالبا ما كانت النتيجة هي الفشل في مثل هذه الاحوال .

ولا يختلف الامر كثيرا في المجال التكتيكي ، لابل مشابه جدا ، وصورة طبق الاصل . لقد حاول الروس تطبيق طرق قتالية تتطلب من الضباط القادة درجة من الاستقلالية في اتخاذ القرار ، وخاصة في المجالات القيادية الدنيا في الوحدات الصغيرة . وهذه المسؤولية تتناقض مع تعاليم الماركسية ـ اللينينية، وجميع ما تعلموه من تعاليم تتفرع عنها .

كما أن طريقة القتال نفسها هذه ليست شيئا غير عادي بالكامل أو أمرا استثنائيا ، وهذا ما كان مجال ترحيب لدى بعض الاوساط الغربية في نهاية السبعينات ، وقد اعتبر في ذلك الوقت ثورة تكتيكية في الجيش الاحمر ، فالتحول من الهجوم الكثيف الى الاختراق العميق والمناورة بالعمق ، من الصدمة بالهجوم الجبهوي الى الاندفاع بالعمق ، وبالغارات الجريئة ، ولم تكن هذه الامور بالشيء الجديد ، ولا بالشيء الثوري ، كما كان يفكر بعضهم . وإن ماكان يجري في العمليات التكتيكية للجيش الاحمر ما هو الا عملية من نوع تعاون مختلف صنوف الاسلحة ، وإن هذه العملية أصبحت تجري على أدنى مستوى . ولم يكن الجيش الاحمر قد تعودها من قبل . وعلى الرغم من ذلك فقد ادى هذا الى تحول في مستوى الاصرار وهذا ما ميز تبدلا في التأكيد على ابراز الضعف الناتج عن الفهم الكامل لفكرة تعاون الصنوف في المعركة . فعربة قتال المشاة المدرعة « BMP » المخصصة أصلا للمعركة في ظروف حرب نووية ، ثبت أنها

لم تكن عربة القتال المثالية لنقل المشاة المدعومة في ظروف المعركة الكلاسيكية « غير النووية ». ولقد بدىء باستخدام عربة قتال جديدة،جرت عليها تحسينات هامة بعد تردد طويل ، وهي عربة القتال متعددة الاغراض من طراز « M T L B » وقد استخدمت عندما اندلعت الحرب . الا ان المشاكل المتعلقة باقامة علاقات متبادلة مشتركة ما بين عناصر مختلفة السرعة في المعركة بالاضافة الى خصائص أخرى بقيت بدون حل .

وهكذا بدت الصعوبات عندما تم تجمع عدة عناصر مختلفة اختلافا واسعا في تكتيك مركب وبظروف وأوضاع قتالية مائعة ، حيثما يجب توفر القدرة على الابداع والمبادهة والجرأة والحرية في اتخاذ القرارات لدى الضباط من ذوي المراتب الدنيا ، وأخذ كل هذه الامور بالاعتبار . فمنذ عدة سنوات حاول الجيش الاحمر اعطاء الحرية لاجراء مناقشات ذات أهمية ، وجرت بنشاط وحيوية بين الضباط من المراتب الدنيا وجرت هذه المناقشات على شكل مقالات صحافية في الجرائد والمجلات ، لتكون في متناول جميع الناس . وفي خارج الاتحاد السوفييتي بصورة خاصة ، جرت مناقشات تمت ممارستها بشكل طبيعي ولمدة طويلة لدى الغرب ، والاكثر من ذلك في الواقع ، أن هذه الاشياء كانت تمارس أكثر مما يفترض من الناحية العملية خلال الممارسة اليومية ، وكذلك في ميدان المعركة ، أكثر مما سمح به للضباط في الجيش الاحمر ــ الذين لم يكونوا يتوقعون أكثر من نقاش ــ وجدوا أنفسهم وكما هي العادة تحت يد قوية لكتم أنفاسهم بالنظام التقليدي ــ. وكانت هذه، هي التي جعلت من مراكز القيادة ، ومقرات المراقبة واجهزة الاتصالات التي تعتمد عليها طريقة الاشراف في حلف وارسو أهدافا سهلة للهجوم يمكن تصعيدها بدون عناء .

ولهذا يلزمنا أن نضع النقاط على الحروف من جديد ، ونوضح أن قوات الحلفاء الغربيين كانت فقط في وضع يسمح لها بالبقاء حية بعد هجوم تقوم به قوات حلف وارسو ، علما بأنها ومنذ البداية تعتبر أقل عددا ، ولن تكون قادرة أكثر من امكانية المحافظة على مواضعها وبشروط صعبة جدا . ولولا الجهود

التي بذلت بشكل فعال في الفترة الواقعة ما بين ١٩٧٨ ـــ ١٩٨٤ لكانت نتائج الحرب بحق كارثة .

لقد كانت المعركة البرية في أوروبا قصيرة حُرمَتْ من نصر سريع ، كان من الممكن أن يتحقق لو قامت بها قوات حلف وارسو قبل عدة سنوات . لكن الآن ، فلم تعد هذه القوات قادرة على تحقيق النصر ، وان تحقق فلن يكون سوى لفترة قصيرة ، لاتستطيع معه أن تعزز مواقعها وتحسن هذا الانتصار الاولي ، قبل وصول تعزيزات الولايات المتحدة الاميركية ، وبالتالي القيام بالهجوم المعاكس كما حدث بالفعل .

على أي حال ، فالمعارك في الظروف الراهنة ، وبشروط المعركة الحديثة لايمكن أن تدوم طويلا ، فليس من أحد ـــ هذا الجانب أو ذاك ـــ قادر على الاستمرار في المعركة الحديثة أكثر من اسابيع معدودة . فالاستهلاك غير المحتمل من طائرات القتال ، والصواريخ ومن المعدات ومن المخزونات من مختلف أنواع الاعتدة والذخائر ـــ دون أن ننسى ما تحتاجه المعركة من المحروقات والوقود ـــ . وهكذا فالحرب الحديثة تتطلب استهلاكا كبيرا في كل ما يمكن ان يملكه الجيش الحديث ، استهلاكا تعجز أية جهة عن اطالة أمد الحرب .

ان المفهوم السوفييتي في استعمال القوات المسلحة من اجل الحصول على منافع سياسية وأمنية في شروط العشرين سنة الاخيرة من القرن العشرين وفي الشروط الراهنة ، يعتمد بالدرجة الاولى على مواجهة عدو منقسم ، ضعيف الاستعداد في المواجهة الاولى لكن هذا العدو يملك بنفس الوقت تفوقا ساحقا في المصادر المختلفة على المدى الطويل ، وكما ذكرنا قبلا من أن الاعمال القتالية في السنوات الاخيرة من القرن العشرين تتميز بالاستهلاك الكبير للمعدات الحربية ، وتحتاج الى كميات ضخمة من الذخائر لاطالة أمدها . ولهذا ، كان لزاما **أن يضمن المهاجم تفوقا ساحقا ، بأقصر مدة ممكنة ، والقيام بأعمال قتال حاسمة ، وعنيفة وبشرط تأمين المبادأة القتالية وكذلك استثمار الفوائد التي**

تحققت عن طريق المفاجأة الى أقصى حد ممكن ، وعدم السماح للعدو أن يستيقظ من الصدمة ، كما يجب الوصول الى هدف استراتيجي هام جدا ، والاستيلاء عليه ، قبل أن يتمكن العدو من تجميع قواه ، واستخدام موارده الضخمة وبالتالي تحسين أوضاعه طالما يملك المهاجم من المخزونات مايكفي لمتابعة الهجوم الحاسم .

لقد شاهدنا ماذا حدث ، خلال السنوات الاخيرة قبل شن الحرب ، وكيف ان الغرب بدأ يستيقظ لمواجهة الاخطار التي بدأت تحيق به . ولقد جاءت تلك اليقظة قبل فوات الاوان وفي الوقت المناسب من أجل اصلاح ما أهملوه من وسائل القتال خلال السنوات الطويلة الماضية ، واعادة القدرة القتالية لها على الرغم من الشروط المالية غير الملائمة . ولقد حالف الحظ الحلفاء ، ومن الممكن أن يكون أكثر مما كانوا يستحقون . لقد كان الاتحاد السوفييتي مذنبا هو أيضا ، بسبب الخطأ الذي ارتكبه نتيجة لعدم تقديره موقف الولايات المتحدة الاميركية بشكل صحيح عند تدخله في يوغوسلافيا ، وكذلك تخبطه الخطر في افتراضهم أن فرنسا لن تأتي الى جانب الحلفاء اذا ما نشبت الحرب . وقد جاء غزو جمهورية المانيا الاتحادية من قبل قوات حلف وارسو في قمة هذه الاخطار بسبب سوء تقدير الموقف ، ثم تلت ذلك كارثة تبادل استخدام الاسلحة النووية لمرة واحدة على المستوى الاستراتيجي ، وكان ذلك الشرارة التي أدت الى انهاء حلف وارسو وأنحلاله ، كما شرع في تفسخ الاتحاد السوفييتي نفسه الى أجزائه التي كان يتألف منها . وهكذا انطفأت أنوار الماركسية اللينينية البراقة ، بعد أن أصبحت لاتطاق ، وهي نتيجة طبيعية لكل نظام بني على التوسع . وانتهى ذلك النظام الى دمار شامل ، كما أن العالم قد تعهد وبطرق عديدة مختلفة في المشاركة بتهديم ذلك البنيان والخروج منه .

وبعد انتهاء الاعمال القتالية وتوقف الاتحاد السوفييتي نهائيا عن كونه قادرا على متابعة الحرب في اوروبا . وانتهت تلك الحرب الى ما انتهت اليه ، وجه الحلفاء جل اهتمامهم بالدرجة الاولى الى عمليات تنظيف ماتركته الجرب

في ساحات القتال ، وقد خلفت اشياء لم يشاهدها الانسان من قبل ، ولم يتعود على رؤيتها ، حطاما من المعدات والتجهيزات وعلى مدى البصر ، لقد كانت بحق شيئا جديدا :

ولقد أثار تواجد العديد من الرؤوس النووية في أوروبا الكثير من مشاكل ما بعد الحرب ، مشاكل جديدة ومعقدة جدا . لم تكن من قبل ، فبقي العديد من هذه الرؤوس النووية بأيدي بعض الحلفاء وتمسكوا بها بشدة ، بينما هناك عدد هام قد احتفظ به في مستودعات خاصة كان السوفييت قد استولوا عليه في بداية الحرب . والآن لم يعثر على أثر لهذه الاسلحة . وهناك الكثير جدا قد تبدد وضاع في الجانب الآخر من الستار الحديدي السابق ، كما ضاعت خلال الفوضى والارتباك بعض من هذه الرؤوس النووية ، بعد توقف الاعمال القتالية. هذا وقد اختفى الكثير من المواد الفتاكة في هذه الاسلحة ولم يعثر لها على أثر. وقد بذلت منظمة الامم المتحدة الخاصة بالاشراف على المواد المنشطرة جهودا جبارة للبحث عن هذه المواد الخطرة المفقودة ما وسعها ذلك . ولا شك أن قسما كبيرا من هذه الاسلحة قد أخذ طريقه الى أيد كان من المفروض ان لاتصل اليها هذه الادوات الخطرة .

أما الدرس الاخير الذي يمكن استخلاصه من هذه الحرب. فهو التكنولوجيا المتطورة بشكل لم يسبق له مثيل . والشيء البارز أيضا هو تقدم التكنولوجيا الغربية الساحق على مثيلتها لدى الشرق .

لقد كانت الفترة التي جرت خلالها المعارك على أشدها بين قوات منظمة حلف الاطلسي وقوات حلف وارسو قصيرة جدا ، لم تتجاوز عدة اسابيع ،في الواقع وكانت لاتزال كافية لاظهار مدى الفرق الواسع في تكنولوجيا الالكترونيات وتقدم الغرب الكبير على مالدى الكتلة الشرقية بهذا المجال وبشكل مثير للدهشة والاستغراب . والاسباب كانت بسيطة للغاية وفوق كل جدال ، كما ان هذه الخبرة التي يتمتع بها الغرب تكمن في المناقشة التجارية بين الشركات المنتجة

لهذه المواد ، وفي عدم اشراف الدولة على هذه النشاطات التنافسية ، وفي عدم كون العمل جماعيا تعاونيا في حقل واسع من الاختراعات العلمية ، والمشاريع الصناعية ، كل هذه الامور يمكن أن تطور الانتاج وتحسنه بشكل كبير جدا ، كما هو الامر بالنسبة للصناعة الالكترونية في العالم خارج الكتلة الشيوعية .ان الانقاص في الحجم ، وفي الوزن ، وفي القوة وكذلك في تكاليف المواد الالكترونية في سوق تنافسية قد غدا ظاهرة واضحة كل الوضوح . ان التقدم الكبير الذي حصل في الميكروب — الكترونيك وكذلك التطور الكبير على هذه الميكروبات الالكترونية . وهذا ما يشبه انفجارا حصل في التكنولوجيا بشكل عام ، وفي الالكترونيات بشكل خاص .

ودعنا نضرب مثلا واحدا ، وهذا يكفي للدلالة على ماقلناه . في الخمسينات أخذ الترانسيزتور يحل محل الصمامات المفرغة ، وفي الستينات أخذ باستعمال الدارة الترانسيزتورية من عشرة ترانسيزتورات . وخلال العشر سنوات التي تلت بدىء باستخدام دارات ترانسيزتورية مصغرة مؤلفة من مئات الترانسيزتورات موضوعة في علب لاتتجاوز السنتميترات المربعة ، وهذا ما أصبح يسمى « بعملية الدمج على موجة متوسطة » « Medium-Scale Integration -MSI » ومنذ عام ١٩٧٧ بدىء باستخدام ما سمي بعملية الدمج على موجة طويلة « Long Scale Integration - LSI » ، وتجري هذه العملية باستخدام دارات تستعمل فيها عشرات الآلاف من الترانسيزتورات في دارة واحدة على مساحة صغيرة أيضا لاتتجاوز السنتميترات المربعة . وعندما اندلعت الحرب ، كانت هناك الدارات ذات الموجات الطويلة جدا تتألف من دارة من عشرة آلاف ترانسيزتور مركبة على علبة لاتتجاوز أبعادها أبعاد طابع الرسائل الصغير . وهناك أيضا الحاسب الالكتروني الصغير الذي بدأ يظهر منذ الاربعينات عندما بدىء باستخدام آلاف الصمامات المفرغة مع عدد من الكيلو مترات من الاسلاك وأحجام تحتاج الى أمكنة كبيرة لايواء مثل تلك المعدات ، ثم تطورت وأصبح حجمها الآن لايتجاوز حجم سوار الساعة .

هذه الموجة من التقدم والتطور التي طرأت على الاعتدة الحربية لايمكن حصرها ، وجرت بشكل مذهل ، فالتجهيزات والمعدات المستخدمة في الاتصالات، والسيطرة والتحكم ، والارشاد ، والكشف ، وتحديد مواقع الاسلحة ومصادر البث ، وكذلك التشويش والاعتراض ، والتحويل عن خط سيرها وآلاف المهمات الاخرى أيضا ، هذه التجهيزات والمعدات قد ظهرت في وفرة غزيرة حتى أصبحت أكثر مما يحتاجه الانسان للاستعمال . وبأحجام وبأشكال مختلفة . ان تجاهل هذه الامور بالنسبة للغرب ، خلال هذه الحرب الخاطفة ، قد خلق أمام بعض العسكريين بعض المشاكل الخطرة حتى على الانسان ، وذلك امام العجز الذي أظهره العسكريون في حل بعض المشاكل المعقدة التي استطاع المختصون الالكترونيون حلها .

بدأ هؤلاء العسكريون فقط ، عندما توقفت الاعمال العدوانية ، لقد بدأوا بالتعرف على استخدام هذه التجهيزات العجيبة التي وضعت تحت تصرفهم . وانهم لم يبدأوا مع ذلك بعد في سبرها والاطلاع على كل أسرارها . ان تطور هذه التكنولوجيا قد كشف عن تسارع مخيف وعجيب ، حتى وصلت الامور الى امكانية أن تقدم هذه التكنولوجيا يوميا حلا لمعضلة أو انتاجا جديدا كل يوم ... من أجل استخدامات لم يكن العقل يتخيلها من قبل .

لقد كانت الحروب التي جرت في أواخر القرن التاسع عشر (كالحرب الاهلية الاميركية مثلا ، والحرب الفرنسية البروسية) تعتبر حروبا حديثة. وقد سميت بحرب السكك الحديدية ، والتلغراف والاسلحة الصغيرة الفردية التي تلقم من مؤخرتها بواسطة المغلاق . أما البحار فقد هيمنت عليها السفن الحربية المدرعة . وفي بداية القرن العشرين اندلعت الحرب الروسية ـ اليابانية حيث سيطرت فيها أدوات الحفر كالمجاريف وسواها على ساحات القتال وكذلك الاسلاك الشائكة والاسلحة الاوتوماتيكية النارية . أما الحرب العالمية الاولى فقد عززت من استخدام ماكان قد استعمل خلال الحرب الروسية ـ اليابانية وزادت من استعمالها والاعتماد عليها ، كما زادت في تصميم استخدام الاسلحة

الاتوماتيكية ، وفي استخدام المدفعية والغواصات ، والقوات الجوية والعربات المدرعة وهذه الاخيرة أصبحت الميزة التي سيطرت على نتائج الحرب . أما الحرب العالمية الثانية فقد كانت حربا واسعة شاملة في البر والبحر والجو ، كما تطلبت تلك الحرب تحركا واسعا ، ساهمت فيه كل طبقات الشعب ،وكذلك استخدام جميع الصناعات في المجهود الحربي ، والاستفادة من جميع القوات البحرية ، والقوات الجوية . وأخيرا ، انتهت تلك الحرب في ظل ظروف استخدام الذرة كسلاح حربي . وأخيرا جاء دور الحرب العالمية الثالثة حيث كان من المتوقع أن تستخدم فيها الاسلحة النووية بشكل واسع — ومن الممكن ان تكون الحرب الاخيرة — ولكنها تحولت وأصبحت حربا الكترونية بشكل رئيسي .

ولانهاء هذه الانطباعات أو التصورات حول أسلحة الحرب العالمية الثالثة، فلا بد من ظهور أجزاء أخرى حول الحرب الالكترونية وقد يكون من غير المرغوب فيه أن تبدو هكذا لبعض القراء في المستقبل .

ان الحروب عادة تبرز سريعا في التقدم التقني على مختلف المستويات. أما هذه الحرب الاخيرة فقد عملت الكثير ، اذ كانت بمثابة رفع غطاء علبة « باندورا PANDORA » التي اذا مافتحت بدافع الفضول انطلقت منها كل الشرور والرزايا ، وضاع فيها الامل . فنحن الآن نتحرك باتجاه عالم تسيطر عليه تكنولوجيا الالكترونيات أكثر فأكثر كلما تقدم الزمن وكأننا نؤكد ان هناك عوالم متعددة ولا نعرف سوى عالمنا الذي نعيش فيه ، هذا العالم الذي اقترب كثيرا من أن يصبح دمارا خلال الحرب العالمية الثالثة . **— لقد كانت حربا نضالية، تحت ظل الضربات الذرية المدمرة ، وهذه هي الحقيقة . لقد عملت على اعادة الكشف عن اسس الثقة بالنفس لدول حلف الاطلسي والاستعدادات الدفاعية السريعة التي اعتمدت بالدرجة الاولى ولاشك على النجاحات التي تحققت لهذه الدول في تكنولوجيا الالكترونيات . اننا نستطيع أن نتكهن منذ الآن ، كيف**

ستكون عليها حالة حياتنا في المستقبل ، والاكثر من ذلك حياة أطفالنا .ستكون ولا شك متأثرة الى حد بعيد بالاحتمالات السريعة لتطور هذه التقنيات التي سيطرت على ساحات القتال خلال الايام القليلة من الحرب العالمية الثالثة ، وفتحت الابواب على مصراعيها أمام تقدم جديد ، وتآلف جديد معها ، وقد تكون من أسباب شقاء الانسان أيضا . ونستطيع الآن ان نقدم الشكر للظروف على اننا مازلنا أحياء ، واننا ننتظر لنرى .

* * *

الفصل الثامن والعشرون

بداية المستقبل

إننا نعتقد أن المؤرخين في المستقبل الذين سيكتبون تاريخ الحرب العالمية الثالثة سوف لن يغيروا بشكل كبير استنتاجاتنا حول أسبابها . وانتا نكتب ذلك باختصار موجز بعد نهاية الحرب مباشرة ، كما واننا نبذل جهودا من أجل ان نقدم أحسن تنبؤاتنا التي كوناها حول نتائجها وحقائقها ـ واننا نعي تماما الحكاية التي يتضمنها هذا الفصل ـ ان التاريخ ليس علما مجردا تماما كما ان المؤرخ في المستقبل سيمتلك من الامكانيات الفنية والعلمية والاكاديمية الشيء الكثير . لكن المتخصص بعلم المستقبل «Futurologist» لايمكن التعامل معه باستخفاف أو لامبالاة . فهو يبني استنتاجاته على اتجاهات حدسية واعية ، ومن المحتمل أن يكون لتنبؤاته نفسها بعض التأثير على المستقبل ، سواء من حيث العمل على تجنب حدوث ماتنبأ به في الواقع ، أو من حيث العمل على تحقيق هذه التنبؤات .

لايمكن لاحد أن يكون متأكدا مما جرى خلال العديد من اللقاءات أو من مواقف الصحافة الدولية خلال الثلاثة اشهر من مطلع عام ١٩٨٧ . اذ من الصعب جدا اجراء تصور عن مدى تأثير هذه الاحداث على المستقبل وحسب توقعاتنا هناك على الاقل وثيقة واحدة من الوثائق ربما تكون قد بدأت برسم صورة المستقبل .

وهي الوثيقة التي حضرت لعرضها في اللقاء الـذي تم ما بين رؤسـاء حكومات دول السوق الاوروبية المشتركة في كوبنهاغن ، ولقد جرى بحثها أيضا من قبل مجلس وزراء خارجية دول السوق وتمت الموافقة عليها .

ولم تحظ مثل هذه الوثيقة بالاهتمام من قبـل كمـا جرى في مؤتمـر كوبنهاغن ، الا ان هذه الوثيقة ربما قدر لها ان تلعب دورا في مستقبل اوروبا وقد يكون السبب في أنه سيكون لهذه الوثيقة دور ستلعبه في مستقبل أكثـر أهمية مما سبقها من وثائق مثل معاهدات روما ، فرساي فيينا وأوترخت . واصبحت تلك الوثيقة تعرف باسم « مذهب كوبنهاغن » ؛ التي نقدم فيما يلي فقراتها الرئيسية ، وهي طويلة نسبيا ، وصيغت بأسلوب تميز بالطابع القانوني، وأوجزت بشكل جيد ، لكنها تحوي كل التفاصيل الهامة ، وقد نشرت في مجلة التايمز بتاريخ الخامس عشر من شباط ١٩٨٧ .

ونحن بدورنا نقتبسها بالكامل :

١ ــ بعد حرب ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ أصبح هناك قوتان عظميان هما الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفييتي . أما في نهاية حرب ١٩٨٥ ــ وجدت أيضا قوتان عظميان : الولايات المتحدة الاميركية ومحور الازدهار الصـين ــ اليابان . والفرق بالنسبة لنا في هذا الوقت أن أوروبا ليست موجـودة بينهمـا .

٢ ــ ستواجه كل من اميركا ومحور الصين ــ اليابـان الواحدة كل منهمـا الاخرى ــ نأمل أن تكون مواجهة صداقة وتفاهم ــ عبر المحيط الباسيفيكي. وأنه سيكون للحوض الباسيفيكي أهمية خاصة لدى كل منهما ، أكثر من أهمية المحيط الاطلسي .

٣ ــ لقد عبرت مذكرة « شنيدر » من قبل عن أقصى ما يمكن من الانعزالية التي نشأت لدى القوى العظمى الواقعة على المحيط الباسيفيكي . فقد اشتاط

الجنرال الاميركي « آ.ت شنيدر » غضبا ، عندما أخذ رئيس الولايات المتحدة الاميركية « تومبسون » بالاعتبار الآراء التي طرحها السياسيون الاوربيون حول خشيتهم من غزو ألمانيا الشرقية ، وبذلك تأجل ذلك الغزو الذي توقع فيه « شنيدر » ان تكون مجموعة جيوشه هي رأس الحربة فيه علما أن « شنيدر » هذا كان معروفاً شعبيا « بأنه ذو دم حار ويملك شجاعة خارقة » . وربما سيكون « شنيدر » هذا المرشح الديموقراطي لانتخابات رئاسة الجمهورية في الولايات المتحدة الاميركية كمنافس للرئيس تومبسون في عام ١٩٨٨ ، أي في العام القادم « وهناك احتمال كبير كما يبدو بأن يصبح حاكم ولاية كاليفورنيا حيث مسقط رأسه » . وهذا منصب هام سيهيء له الكثير من أجل الانتخابات المقبلة . وهذا ما كتبه في مذكرته المشهورة :

من الآن فصاعدا ، علينا ان ندع أوروبا وأفريقيا تتخبطان في حروبهما القبلية ، والتي لاتستحق أن يموت من أجلهما ولو جندي أميركي واحد لمنعها ، خصوصا : آ ـ « لقد أظهرت القنابل النووية التي ألقيت على كل من ، بيرمنغهام ومينسك ، بأن العالم لن يتلوث كله اذا ما جرى تفجير لبعض القنابل الذرية بشكل فردي ومحدود » . ب ـ انه سيكون ضمان عدم استخدام الاسلحة الذرية ممكنا اذا ضمنت كل من الولايات المتحدة الاميركية والمحور الصيني ـ الياباني « **بأن أول استخدام لها في حال استخدامها ولو من نوع « النيوترون » سيكون على قصر رئاسة الجمهورية لكل بلد استخدم سلاحا نوويا ومهما كان صغيرا »** .

وبهذا فانه من الممكن خلال العشر سنوات المقبلة وقد يكون أكثر ، ان على كل بلد مجهز بتكنولوجيا مشابهة لتلك التي لدى الولايات المتحدة الاميركية واليابان أن يكون قادرا على انتاج اسلحة أكثر رعبا ، واكثر تدميرا . ومن الممكن أن تصبح هذه البلدان على جانب من المقدرة بحيث تستطيع أن تعلن عن وصولها الى اقامة نوع من « الحاجز الالكتروني » (السياج الدائري من اجهزة

الاتصالات البعيدة) القادر على حماية أراضيها من أي هجوم معادي . واذا ماحصل ذلك، فان حالة جديدةستنشأ، وتؤدي بهؤلاء الذين يملكون التكنولوجيا المتقدمة أن يستعيدوا مكانتهم في هذا المجال . وذلك بفضل خبرتهم بالاتصالات البعيدة وكذلك بنظام التوجيه عن بعد لاي صاروخ في الفضاء . وتوجيهه حسبما يرغبون . وهذا يعني بوضوح ، ان أي بلد يمكن ان يغامر ويطلق صاروخا ما يمكن أن يوجه نفس الصاروخ هذا ضد ذلك البلد الذي أطلقه « اعادة ارساله للمرسل » وذلك يعني بأن ينفجر بعد أن يحط في القاعدة التي انطلق منها ، ويعود الفضل في هذه التكنولوجيا المتطورة الى التقدم العلمي الذي حصل نتيجة التهديد بالحرب ، اكثر مما أثرت الحروب نفسها . وذلك بسبب قصر المدة التي دارت خلالها المعارك وأكثر ماظهرت هذه التطورات العلمية على وسائل الطاقة وعلى تكنولوجيا الاتصالات البعيدة .

٤ ـ ولهذا فانه من الامور الهامة جدا سواء بالنسبة للولايات المتحدة الاميركية او دول السوق الاوروبية المشتركة ان توجه اهتمامها بالدرجة الاولى الى اعادة بناء أوروبا خلال فترة السلام هذه اكثر مما يجب أن توجه اهتمامها الى هذه الحروب .

٥ ـ ان اتحدت الالمانيتان (الاتحادية والديموقراطية) فان بقية أوروبا سواءالشرقيةاو الغربيةستصاببحالةمنالذعر والخوفالشديدين حيثستشكلان بالتأكيد قوة مهيمنة في أوروبا . لكن من الهام أيضا ان تصبح كل منهما عضوا في مجموعة دول السوق الاوروبية المشتركة ، على ان لاتكون العلاقات بين المانيا الاتحادية والمانيا الديموقراطية أكثر من علاقتهما بالدول الاخرى من السوق مثل فرنسا أو غيرها ، وليس أكثر من ذلك .

٦ ـ وينطبق ذلك على جميع الدول الشيوعية سابقا ، ومن ضمنها ايضا الدول الاوروبية التي كانت من قبل جزءا من الاتحاد السوفييتي . ان مجموعة دول السوق الاوربية المشتركة بحاجة الآن الى توسيع حدودها بنفس الطريقة

التي تنبأ بها من قبل الجنرال « شارل ديغول » مرة بحيث تصبح مجموعة دول السوق ، تمثل اوروبا جديدة تمتد من الاطلسي الى الاورال .

لقد قبلت جميع الدول المشاركة في اجتماع كوبنهاغن هذه الوثيقة بما فيها جمهورية المانيا وبذلك فانه ينظر اليوم الى « شارل ديغول » كنبي اذا ما استعيد التأمل في احداث الماضي ، بينما غالبا ما اعتبر « ديغول » أثناء حياته بأنه رجل يبعث على الضجر والغيظ .

وتمت مناقشة قضيتين شائكتين في « كوبنهاغن » . الاولى : تتعلق بوضع أفضل الاسس والاهداف لتشكيل سوق أوروبية جديدة موسعة ، وهنا لابد من ملاحظة الحماسة والابداع والاندفاع والجرأة الفكرية في العقلية الاوروبية. ولدى العودة بسرعة الى تلك الروح الاوروبية في الخمسينات ستظهر لنا على انها كانت لاتزال حتى ذلك الحين غارقة في سبات عميق .

أما القضية الثانية التي كانت تشغل بال المهتمين فهي ايجاد الحلول الممكنة القادرة على القضاء على القلق المسيطر على المستوى السياسي ـ الاستراتيجي، نتيجة لطول الحدود البحرية لمجموعة السوق الاوروبية المشتركة لجديدة ، حتى وصلت الامور الى اليأس في ايجاد الحل المناسب .

وأول شيء بدىء بمعالجته ، هو موضوع وضع أسس وقواعد جديدة لمجموعة دول السوق الاوربية المشتركة الموسعة. فقد أدرك المجتمعون ان اقرار اسلوب التبادل التجاري الحر لجميع السلع التي تنتجها دول السوق ، (مع الاستمرار بالاخذ به كما كان قبلا) من المحتمل أن يكون أقل أهمية في المستقبل بالنسبة للاقطار الغنية في حرية الاتصالات بعيدة المدى أو داخل الوطن .

وقد أقرت دول السوق ، جعل المصانع لديها (ماعدا تلك الموجودة في البلاد ذات الدخل المنخفض) اوتوماتيكية « آلية » . وتحويل كل أجهزتها الى أجهزة آلية « مؤتمتة » على أن يجري التمويل تدريجيا ، فالشماليون الاغنياء

الذين يشكلون حوالي ثلث سكان العالم هم على الغالب موظفو مكاتب (ذوو الياقة البيضاء) ممن لايستخدمون أيديهم بل عقولهم . وسوف لن يكون من الضروري ان يقطن العاملون في مثل هذه الوظائف بالقرب من مراكز أعمالهم . أية جنسية ينتمي اليها ؟ (بل أي وضع ضريبي يمكن أن يأخذه) مثلا : مصمم أزياء بلجيكي يعيش في « مونت كارلو » أو في مدينة القديس « موريس » شتاء ؟ وفي « سترانفورد اون آفون » في فصل الربيع ، وفي « كورفو » صيفا ؟ ويقوم بعمله عن طريق قيامه بالاتصالات اليومية البعيدة مع زملائه ومساعديه (عبر جهاز تلفزيون أو راديو محمول) ومع الحواسب الالكترونية في مصنع للنسيج مكتمل الآتمتة عند منطقة « فولفوغراد » حيث هو يعمل ، أو بالاحرى حيث أصبح يعمل كجوال بين المناطق البعيدة .

وأخيرا توصل وزراء دول السوق الاوروبية المشتركة الذين اجتمعوا في كوبنهاغن الى تحديد مفهوم مشترك ينص على أن المواطن الاوروبي في المستقبل سيحتاج الى ما اسماه مستشار المانيا الغربية بالمواطن « ثلاثي الجنسية » ولكن رئيس وزراء اللوكسمبورغ أطلق على ذلك اسم المواطن « ثلاثي الاوضاع الضريبية » . ودعونا نستعمل تعبير رئيس وزراء اللوكسمبورغ في الاصطلاحات المستقبلية ، فهي أكثر جدة ، وأكثر سهولة على الفهم في هذا العصر المتبدل بشكل سريع .

وقبل كل شيء ، أن كل مواطن حسب ذلك التعريف اللوكسمبورغي عليه أن يدفع بعض الضرائب في المنطقة التي يعيش فيها . وهذه الضريبة تستهدف المحافظة على قدرة الادارة المحلية تلك في تقديم الخدمات اللازمة لهؤلاء المواطنين دافعي تلك الضريبة ، وهنا تنشأ خطورة واضحة يصعب تلافيها ، ألا وهي أن الاغنياء يمكنهم أن يتهربوا من دفع تلك الضرائب ، بأن يختاروا منطقة ليعيشوا فيها سوية وبالتالي لن تجد فقراء بينهم وهنا يتخلصون من دفع ضرائب التأمينات الاجتماعية التي تفرض على دخولهم عادة . أما الفقراء فيخشى أن يجدوا أنفسهم بكثافة كبيرة مهملين في مناطق تتطلب انفاقا كبيرا على التأمينات

الاجتماعية . لكن ليس بينهم احد من الاغنياء من يستطيع تغطية هذه النفقات، ولتجنب هذه العملية الغيتاوية « Ghettoization » على المستوى القاري أو الاقليمي في عصر الاتصالات البعيدة ، شرع وزراء دول السوق في كوبنهاغن في تحليل هذه المشاكل بعمق أكثر وايجاد الحلول الضرورية لها وذلك باجراء تغييرات جذرية في بعض هذه القوانين . « كما هو الامر بانشاء حكومة مركزية لمجموع دول السوق نفسها » . ولتصبح بعض الحكومات أو الحكومة المركزية مسؤولة عما يمكن تسميته « بالرفاه » او بتحويل الدخل وبالتالي تقوم بمسؤوليات الحماية الاجتماعية .

وتقوم بالتالي بكامل دور الحكومات التي يعود لها المواطنون في كل الامور. وهكذا يمكن التوصل الى ضريبة تصل تقريبا كحد أقصى الى ٥٥٪ بالنسبة لدخول الناس الاكثر غنى ، والى ضريبة نسبية قد تكون كحد ادنى بشكل لاتؤثر على دخول الفقراء ، وبحيث يجب أن لاتتجاوز الحد الادنى من مستوى المعيشة المحددة . وهذا يعني أنه يمكن اعفاء الفقراء من أية ضريبة .

وأمور من هذه القبيل لاتخص مثلا «مونت كارلو» ، حيث يمكنها ان تعلن عن ضرائب خاصة اضافة الى هذه الضرائب اذا تجمع فيها كل الاغنياء مثلا ، بينما سيتجمع الفقراء عموما في المدن القديمة ، مثلا « وارسو » وما شابهها ، حيث ستكون عاصمة للناس ممن لايدفعون الضرائب ، وبالتالي ستصبح عاصمة للعصابات في أوروبا .

وفي هذه الاحوال ، فمن المفضل اذن ، أن تكون هناك سياسة اقليمية أوروبية تهدف الى جلب الاغنياء الى المدن القديمة التي تحدث فيها الاضطرابات مثل مدينة « وارسو » ، بهدف الوصول لمستوى اجتماعي خليط من الفقراء والاغنياء « من أجل تحقيق هذا الغرض ، يسمح للقاطنين في « وارسو » بدفع الحد الادنى من الضرائب عند الوصول الى نسبة معينة من الدخل » . وبالمقابل خلق اغراءات للتأثير على الفقراء ليغادر بعضهم وارسو الى مناطق أخرى . وهذا

الامر يتطلب القيام باجراءات معينة ، مثال ذلك أنه في حال وجود بعض الشباب عاطلا عن العمل ، بعد مدة معينة يتلقى من التأمينات جعالة بطالة عن العمل أقل بكثير عن مثيلاتها في مدن أخرى فيما لو بقي في وارسو ، وهذا سيضطره للبحث عن عمل في أمكنة أخرى تكون فيها مستويات الدخول بالنسبة له أحسن .

فقد حدث ما يشبه ذلك قبل الآن في مدينة نيويورك . ففي السبعينات ، أخذت تعاني من عدم قدرتها على تنفيذ سياسة مماثلة لما ذكرناه . فهنا الضريبة المحلية مرتفعة جدا ، ونسبة الجرائم عالية جدا أيضا ، وهذا ما أدى الى هروب الاغنياء دافعي الضرائب من المدينة . وقد خلفوا وراءهم المنطقة التي أخذ الفقراء يزدادون فيها شيئا فشيئا ، وبالتالي أخذ سكانها يتحولون الى اليسار وأخذوا يصوتون في الانتخابات للجهات اليسارية ، وأخذت تلك السلطات المتنخبة تعلن اجراءات اجتماعية مكلفة ، ولكنها لاتملك الاموال اللازمة لتغطيتها.

هذا وقد أدت تلك الاجراءات الاجتماعية التقدمية الى جذب العديد من العائلات الفقيرة الى نيويورك من مناطق أخرى ، وذلك بحثا عن تلقي المساعدات والمعونات الاجتماعية ، وهكذا وقعت مدينة نيويورك في حلقة مفرغة وبدأت تتسرب هذه الحالة خارج مدينة نيويورك ، ثم أخذت تنتشر في العديد من مدن العالم في عصر التنقلات البعيدة « التليكومتينغ » وكذلك بالنسبة للمشكلة المزدوجة من الاغنياء . وهكذا اذا ما استمرت الامور على هذا المنوال من السياسة الاجتماعية ، فاننا نتجه نحو الكارثة دون لاشك .

أما المظهر الثالث فانه يتعلق بحالة الضريبة الثلاثية . بالنسبة للمواطن الاوروبي وموضوع اختياره للقومية التي يرغبها . وبالطبع هناك المنافع التي يبحث عنها كل شخص وهي المنافع المعقولة والمقبولة في كل قومية حيث يمكن أن يتم اختيارها . وهنا فالحكومات الوطنية لم يعد من الضروري أن تحكم مجموعات من الناس فقط لانهم متجاورون أو يعيشون جنبا الى جنب في منطقة معينة . وهكذا فالمشكلة البلجيكية تكمن في أن جزءا من الشعب يعتبر نفسه « فلمنكيا » والجزء الآخر « والونيا » . وفقا للنظام ثلاثي المواطنة فانه سيكون

من الممكن بالنسبة للفلمنكيين أن يختاروا حكوماتهم الخاصة بهم (فيما يتعلق بنظام التشريعات العائلية ، والقضايا الثقافية بما فيها التربية وكذلك من اجل أمور صورية أخرى منها التمثيل الدبلوماسي) .وكل ذلك وهم يعيشون جنبا الى جنب مع الوالونيين الذين سيختارون حكومتهم بأنفسهم بنفس الطريقة . وستطرح نفس الحلول أيضا امام الكاثوليك والبروتستانتيين الذين يعيشون معا في ايرلندا الشمالية ، والمشاكل بينهم لاتكاد تتوقف . أو أيضا بالنسبة للقاطنين في المناطق اليوغوسلافية الاتحادية . وفي الحالة التي تستمر فيها الاهمية بالحكومات الوطنية بالتزايد ، فعندها يصبح من الممكن في يوم من الايام أن يكون للدولتين الالمانيتين حكومة وطنية واحدة . ودون النظر للاهمية الحقيقية للحياة المحلية للمواطنين .

اذن فمن المحتمل في عصر « التلكوميتينغ » عصر التنقلات البعيدة أن تجد أي منطقة في العالم نفسها مجبرة على اتباع نفس النظام ثلاثي المواطنة ويكون لها : آ ـ حكومات على المستوى القاري . من أجل مواصلة السياسة الضريبية المركزية ، لتحول دون أن تصبح تلك المنطقة ملاذا أو مرتعا للاغنياء للتهرب من دفع الضرائب . وبالتالي تصبح في الجانب الآخر بعض المدن القديمة أحياء للفقراء . ب ـ حكومات محلية بمختلف جوانبها يمكنها في آخر الامر أن تصبح صغيرة بالمقدار الذي يرغبه مجموع الاشخاص من مواطنيها .وهكذا فاذا رغب بعض الناس أن يعيشوا مثلا في كومونات «أو بلديات مستقلة » فباستطاعتهم أن ينظموها بالطريقة التي تناسبهم كوحدة ادارية مستقلة أو على شكل حكومات محلية بالاتفاق مع من يجاورهم ، ولهم نفس الرغبة ، وفي الجانب الابعد تستطيع مجموعات أخرى أن تقرر استخدام مثلا شركة تجارية خاصة وتقيم عقدا معها من أجل أن تقوم هذه الاخيرة بالاعمال الادارية عن الحكومة المحلية . وهذا مثلا يجنبهم كثيرا من المشاكل ، خاصة ما يتعلق بالتصويت للجمهوريين أحيانا ، وأحيانا أخرى للديموقراطيين ، وكذلك ستكون الوسيلة الاحسن لانتخاب عمدة نيويورك واختياره بشكل ملائم بأن يكون قادرا على ايجاد تكنولوجيا جديدة

للتخلص مثلا من مشاكل تصريف أقذار نيويورك ومجاريها . ج ـ حكومات وطنية ، يكون لها سلطة أقل أهمية على مواطنيها ، وليس من الضروري أن تعيش في نفس المنطقة الجغرافية .

في نهاية الحرب العالمية الثالثة بدا أن ظروف دول مجموعة السوق الاوروبية المشتركة كانت مواتية تماما لاقامة نظام نموذجي ثلاثي ، حيث كانت بحاجة لمثله ، وقد ظهرت بعض العقبات ، أهمها مشكلة اختيار عاصمة أو عواصم متعددة لاوروبا الجديدة . فقبل الحرب كان يقال في ذلك الحين أن بروكسل مكتظة تماما ، ولهذا فهي لاتصلح لهذا الغرض . ومن الامور المعتبرة أنها تقع تماما وسط أوروبا . ففي الظروف الراهنة ، وعندما تصبح مدينة تقع في الوسط عاصمة ما ، فان قوة الجذب الى المركز تصبح ذات مفعول هائل . وتصبح بالتالي المنطقة المركزية هي المنطقة الاغنى والمناطق البعيدة عن هذه المنطقة المركزية تصبح أكثر فقرا . ففي السبعينات ، قيل في ذلك الحين ان أفضل حل هو اقامة عاصمتين توأمين في طرفين متباعدين في القارة الاوروبية ، واقامة صلات وثيقة بينهما عن طريق الاتصالات البعيدة . وتملك كل عاصمة مجموعة كبيرة من المعطيات المسلم بها ، مصارف كبيرة مصممة بشكل تتجاوب ومعطيات عصر جديد من المعارف والعلوم . وجاءت الفرصة السانحة الآن حيث اقترح رئيس وزراء هولاندا أثناء اجتماع كوبنهاغن : ان العواصم المطابقة لهذه الشروط من أجل أوروبا الجديدة يجب أن تشكل مدينة السلام الغربية ومدينة السلام الشرقية ، يتم بناؤهما في المواقع السابقة لكل من بيرمنغهام ومينسك .

وسيكون من أهم أعمال الحكومات هذه ، موضوع تنظيم الاستعدادات العسكرية والدفاع . وستكون معظم هذه الاستعدادات على المستوى الاقليمي . وبهذا تعتقد أوروبا الجديدة انها تستطيع أن تتجنب الحرب القبلية وهي واثقة من ذلك أيضا ، وعلى العكس ، فان حالة الفوضى التي تغلب على حدودها الجنوبية ، ما هي الا نوع من الانذار لتقوم بما يلزم كيلا تنتقل الى الداخل .

هذا وقد ظهر في اجتماع كوبنهاغن أنه كان يسيطر على المؤتمرين نوعان من القلق ، أولهما أن العالم أصبح حقا منقسما الى ثلاثة أقسام بارزة وان مجموعة دول السوق الاوروبية المشتركة مضطرة بحكم موقعها الجغرافي ولظروف أخرى أن تتعامل مع الجنوب المتخلف الاكثر تخلفا ، ومما يؤسف له أن الارض كروية .

ويتوقع كثير من الناس بأن يصبح محور الازدهار الصين ــ اليابان « بما في ذلك اوستراليا » في المستقبل مركز الجذب العالمي . واليابان هي في طريقها الآن لتصبح وبسرعة عجيبة بلد التكنولوجيا المتقدمة جدا في هذا العالم . والصين التي تملك أكبر قدر في العالم من اليد العاملة من الاميين ، ورخيصة جدا ، اذا ماقورنت بغيرها من البلدان ، كما ان العمال الصينيين يتمتعون بمقدرة عجيبة على العمل وعلى التقليد ، وبالتالي ، أصبحت الصين من أكثر البلدان سرعة في التطور والنماء . أما اوستراليا والجزر الواقعة شمالها فستصبح من بين البلدان الاكثر امتاعا وجمالا للعيش الاحسن فيها في عصر الاتصالات البعيدة . وان هذه المناطق لم تتعرض لاي نوع من الاخطار او المصاعب خلال الحرب العالمية الثالثة . لكن مع ذلك فقد شارك الكثير من الاستراليين والنيوزلانديين كمتطوعين في هذه الحرب . وقد مات الكثير منهم أثناء تلك الحرب . أما مابقي منهم فانه فضل العيش في أوروبا وفي شمال افريقيا بعد ان انتهت الحرب . ومع ذلك فلا تزال بعض المناطق من محور الازدهار الصيني ــ الياباني ، تخضع للانقلابات العسكرية بقيادة العصابات الريفية ــ خصوصا في اندونيسيا وتايلاند ــ على الرغم من ان هذه العصابات لاتزال صغيرة نسبيا ، ويمكن القضاء عليها بسهولة وعلى أي حال فان الصين واليابان هي البلدان الاكثر استعدادا وقدرة على السيطرة على أي نوع من العنف الفردي أكثر من أي مكان آخر .

أما المنطقة الرئيسية الثانية في العالم فهي أميركا من حيث الاهمية والكبر ولم تؤثر الحرب العالمية الثالثة بأي شيء من الدمار على أميركا الشمالية تماما

كما هي الحال في الحرب العالمية الثانية والاولى . وكان من أهم آثار الحرب الثالثة على المستوى الاقتصادي العودة الى تشغيل جميع اليد العاملة فيهـا . وخاصة بعد الحرب « كما حدث تماما في حرب عام ١٩٤٠ ــ ١٩٤٥ » أمـا أميركا الجنوبية فأصبحت أيضا محورا لازدهار عالمي . وقد تم القضاء على جميع الانظمة الشيوعية في بحر الكاريبي . أما الانظمة الموالية لموسكو في بحر الكاريبي « ومن ضمن ذلك كوبا وجامايكا » فقد أصبحت أنظمة شعبية تقريبا في نهاية الثمانينات . كما جرى الامر من قبل للموالين للنازية في أوروبا بعد عام ١٩٤٥ . ويبدو في الوقت الراهن أن العصابات الريفية توجد في وضع لاتحمد عليه وهي في تراجع مستمر في كل انحاء العالم وفي أميركا بصورة خاصة .

أما المناطق الواقعة الى الجنوب من مناطق دول مجموعة السوق الاوروبية الجديدة فقد أصبحت بحق بؤرا للمشاكل المتعددة . فالى الغرب من حدودها الجنوبية أصبحت افريقيا المنطقة الرئيسية في العالم لبيع جميع أنواع الفائض من الاسلحة الحربية وخاصة من الانواع التي استخدمت في الحرب العـالمية الثالثة . ولاتزال الاحقاد القبلية تسيطر على تلك المناطق . ومن المحتمل ان تدخل عصرا جديدا من الظلام . أما المناطق التي يقطنها البيض المنتصرون في افريقيا الجنوبية فمن المحتمل أن تعود لهم ثقتهم بأنفسهم وبقوتهم خلال فترة السنوات « ١٩٨٨ ــ ٢٠١٣ » وهم واثقون من ذلك . « بعد النجاح الـذي حققوه في المجال العسكري » . كما فعلت اسرائيل خلال الفترة « ١٩٤٨ــ١٩٦٧» وقد استفادت تلك المناطق من بعض الفوائد ، ولكنها تواجه أيضا بعض المشاكل كما تواجه اسرائيل .

يظهر أن محور الصين ــ اليابان سيؤدي الى تعاون وثيق مع اوستراليـا في المناطق الجنوبية وذلك بهدف مساعدة هذه المناطق للوصول بها الى عصر الاتصالات البعيدة والقضاء على المشاكل التي تعاني منها بعض المناطق الجنوبية وقد تؤدي جهودهم المشتركة الى الوصول بهذه المناطق من عصر قرصنة حديثة

الى عصر الاستعمار الجديد . وباعتبار هذا التعاون تشترك فيه شعوب من أجناس مختلفة فقد يؤدي ذلك الى بعض الحوادث العرقية والعنصرية . ومن المحتمل أيضا أن تقوم أميركا الشمالية بالتعاون مع البرازيل في سبيل خلق محور ازدهار جديد خاص بهم يسمى محور الشمال والجنوب . وستنشأ نتيجة ذلك منطقة ازدهار بينهما .

وستكون هناك مدرسة جديدة من المفكرين تعتقد أن على مجموعة دول السوق الاوربية المشتركة أن تسمح لنفسها باقامة نوع من التحالف مع افريقيا الجنوبية البيضاء . كما يتعاون المحور الصيني ـ الياباني مع اوستراليا ، والولايات المتحدة الاميركية مع البرازيل . لكن قد تواجه دول السوق في ذلك اثارة لبعض المشاكل العنصرية ، خاصة في المناطق الجنوبية نصف المتمدنة ، لابل أكثر من ذلك فقد يؤدي بالنتيجة الى عصيانات واضطرابات داخل دول السوق نفسها .

أما في المناطق الجنوبية الشرقية من أوروبا فلم يتخذ حل لاية أزمة من أزمات الشرق الاوسط ، بالاضافة الى ذلك من المعلوم ان حدود دول السوق المشتركة الجنوبية الشرقية تطل على البحر « بحر الكاسيبان » ومن ضمن ذلك تطل على جزء صغير من ايران .

ولما كانت ايران تقف الى جانب البلدان التي ربحت الحرب فقد أخذت تتطلع الى بناء امبراطورية فارسية خاصة بها . فمن الممكن ان تقوم بمحاولات لتوسع حدودها باتجاه الجزيرة العربية ، وستواجه حتما مقاومة مسلحة نتيجة لتلك الاعمال . وهذا سيؤدي ذلك الى كشف النقاب عن مشكلتين أخريين . وهما : أولا ، أن ايران في الواقع هي الآن ميدان صراع مابين مصالح كل من محور الازدهار الصيني ـ الياباني ومجموعة دول السوق الاوروبية المشتركة ، وثانيهما السؤال المطروح وهو الى متى سيبقى بترول الشرق الاوسط هاما ؟

ويقع العراق والخليج على حدود ايران الغربية ، وتطل في حدودها

الشمالية الشرقية على الجمهوريات الآسيوية التي كانت قبلاً تشكل جزءاً من الاتحاد السوفييتي وهي الآن واقعة تحت النفوذ الصيني . أما حدودها الجنوبية الشرقية فمع الباكستان . ولم تشارك كل من الهند والباكستان في الحرب العالمية الثالثة وأراضيهما لم تكن ميدانا لاي نوع من المعارك . ويلاحظ الآن ان الجيل الجديد من الشباب الذين يتخرجون من مدارسهم أنهم اميون تماما . « تماما كما كان الامر لدى الجيل الاول من الصينيين قبل خمسة عشر عاما ، لكن لنرى الآن كيف تغيرت الاحوال » . يعتقد بعضهم أن كلا من الهند والباكستان سيعيشان أخيرا مرحلة تطور اقتصادي سريع . وهناك بعض الدلائل تشير الى انهما سيصبحان منطقة صناعية لصناعة العديد من السلع لحساب محور الازدهار الصيني ــ الياباني . لكن هذه الامكنة تحولت الى مناطق ملوثة . وستبقى هذه المناطق تتمتع بالاهمية طالما بقي البترول المصدر الرئيسي للطاقة .

وقد يظهر بعض التناقض الظاهري هنا ، فاليابانيون يتذكرون جيدا كل شيء . فهم لم ينسوا أنه في أحد الايام من عام ١٩٤١ أي اليوم الذي شنوا فيه حربهم ضد الولايات المتحدة الاميركية قدمت وثيقة الى الحكومة الملكية تقول ان تلك الحرب كانت ضرورية بسبب النقص في تأمين البترول الى اليابان، وانه في ذلك الشهر ، كانون الاول عام ١٩٤١ لم يكن لدى اليابان من احتياطي البترول مايكفي لسد حاجاته سوى القليل من الاشهر . وكانت الحكومة اليابانية تعتقد أنها لن تستطيع الحصول على البترول بشكل كاف من جديد مالم تتمكن من الاستيلاء والاشراف على حقول البترول الاندونيسية ، ومن الممكن أيضا بورما . وقد ظهر أخيرا وبعد ثلاثين عاما أن التموين بالبترول الاندونيسي والبورمي كان أقل بكثير من تنبؤات جميع المتنبئين . ومع ذلك فقد خسرت اليابان الحرب . وكانت الصناعة اليابانية تستخدم كل ست ساعات كمية من البترول تعادل جميع مخزونها عندما شنت هجومها على « بيرل هاربور » ولم

تجد اليابان فيما بعد أية صعوبات في شراء البترول من الشرق الاوسط وبمقدار ما تحتاجه لصناعتهـا .

وكذلك كان من اسباب حرب عـام ١٩٨٥ في جزء صغير منها التهديـد باستخدام منع البترول عن بعض البلدان الصناعية الكبيرة . كما ان القـوى العظمى كانت ترغب أن تضمن سيطرتها على بعض المناطق المنتجـة للبترول . وهذا ما يذكرنا بما قامت به احدى الصحف النمساوية في عام ١٩٢٠ ، عندمـا نظمت مسابقة لاعطاء تلك الجريدة مايمكن ان نسميه بالعنوان الاكثر مأساوية. وكان الرابح هو أحد أمراء الاسرة المالكةالنمساوية « فرانز فيرديناند »والعنوان: **« الحرب العالمية وقعت خطأ »** .

ان تاريخ الامداد بالطاقة خلال الازمة الحديثة قد أثار بعض التساؤلات المتعلقة بالحاجة النفطية وفيما اذا كان انقطاع التزود بهذه الطاقة يعطي مكانا لعنوان مختلف .

فعندما اندلعت الحرب زادت البلاد التي كانت تملك الكثير من انتاجهـا الصناعي ، خاصة تلك البلاد التي ازدهرت حديثا مثل محور الازدهار الصيني ـ الياباني ، وأميركا الجنوبية وجدت نفسها وقـد تعرضت لانقطـاع في التزود بالبترول . لكن تلك الدول قد خزنت الكثـير من البترول كاحتياط لمثل تلك الازمات قبل اندلاع الحرب ، من جهة أخرى كانت مدة الحرب قصيرة جـدا أكثر مما كانوا يتوقعوها واحتاطوا لها . وبالتالي عادوا من جديد للتزود بالوقود بيسر وسهولة من مصادر مختلفة . وأصبح اليابانيون يملكون الآن تكنولوجيـا متقدمة على كل العالم . وكانوا يعتقدون أن الحرب ستدوم أطول مما كـانت عليه ، وبذلك كانوا يخشون من عدم قدرتهم على التزود ببترول الشرق الاوسط خلال مدة طويلة ولهذا فقد حققوا بعض التقدم والنجاح في تجاربهم ولكن بشكل مأساوي ، وذلك بحصولهم على آلاف الطرق الاخرى التي مكنتهم من الحصول على الطاقة المخزونة الكامنة في العديد من المواد ، مثل الطاقة الشمسية، والبحار،

والامواج والطاقة الكونية بالاضافة الى الطاقة النووية . وقد أمكن أيضا خلق مطر اصطناعي ، وخزنه في مستودعات كبيرة جدا ، وذلك بتحرير كتل من الهواء الساخن فوق البحار ، ومن ثم اجتياز طبقات الهواء المبردة ، وزيد في انتاج الطاقة الهايدرو – كهربائية . وقد قلّت الاحتجاجات كما كانت عليه من قبل ضد التجارب النووية اعتبارا من نهاية الحرب العالمية الثالثة .

وهذا لايعني اننا سوف نثق بالقدرة على التزود بوسائل الطاقة بسهولة بعد أن انتهت الحرب . ففي شباط ١٩٤٧ ، وخلال أزمة الطاقة المسماة بأزمة «شاينوويل» عندما صرح رئيس وزراء بريطانيا كليمنت اتلي ان القلق لن يساور أي عامل منجم يعمل في مناجم الفحم من الآن وحتى نهاية القرن بسبب عمله . ولكن تلك النبوءة خابت تماما فبعد اثني عشر عاما فقط اغلقت جميع مناجم الفحم في أوروبا واليابان ابوابها . وربما تثبت الحاجة النفطية المتوقعة في التسعينات بالكامل ذلك وايضا يستطيع الشرق الاوسط في مثل هذه الاحوال أن يصبح حاله كما حدث تماما لمناجم الفحم عندما انتهى عصر الفحم الحجري، وبالتالي ستعجز الدول المنتجة للبترول عن الاستمرار في تأمين مستوى المعيشة الذي اعتادته شعوبها أيام تدفق نفطها . ويعتقد بعضهم الآخر ان تلك البلدان ستبقى في جميع الاحوال المصدر الرئيسي لهذا المورد الطبيعي الثمين السائر في طريق النضوب .

وفي جميع الاحوال . فلن يكون الشرق الاوسط جارا مريحا الى الجنوب من مجموعة دول السوق الاوربية . فاذا نضب البترول ، فستصبح المنطقة منطقة مزاودات سياسية ، وسيزداد الفقر ولا شك وستزداد وتيرة الانقلابات العسكرية . في السنوات ١٩٧٠ – ١٩٨٠ كان الكثير يفترض ان الدبلوماسية الناجحة هي القدرة على كسب صداقة الحكومة الايرانية والبلدان البترولية المختلفة ، الا أن مشايخ البترول الذين يملكون بلايين الدولارات من المحتمل أن لايصبحوا ابطالا شعبيين خلال العشر سنوات الاخيرة من القرن العشرين .

بعد كل حرب عالمية ، وعلى مدى القرن العشرين . برزت ظاهرة تاريخية واضحة ، الا وهي في نهاية كل حرب عالمية كبرى تختفي امبراطورية كبيرة . ففي نهاية الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ اختفت الامبراطورية الهنغارية ـ النمساوية ، وفي نهاية حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ اندثرت الامبراطورية المنتصرة فيها وهي بريطانيا العظمى ، وأخيرا بعد حرب ١٩٨٥ خسر الاتحاد السوفييتي الحرب . وهي النتيجة الوحيدة لهذه الحرب الاخيرة نتيجة يمكن اعتبارها حقيقة ولمدى طويل . أما بالنسبة للباقي ، فالتنبؤات المستقبلية أظهرت دقة في تصورها وأكدت على صحتها الوقائع وكأنها جرت أمام واضعيها .

يجري الحديث عن قصة طريفة تروى على لسان متنبىء سياسي عاش في ميونيخ عام ١٩٢٨ . وقد سئل مرة عما يتنبأ به ولما يمكن أن يحدث لمواطني مدينته بعد خمس سنوات ، وخمس عشرة سنة ، وعشرين سنة واربعين سنة .

ـ فأجاب « في عام ١٩٣٣ ستصبح مدينة ميونيخ جزءا من ألمانيا التي سيكون لديها خمسة ملايين عاطل عن العمل ، وسيحكمها دكتاتور مجنون يعاني من كل أنواع الامراض العقلية » . فرد عليه الجمهور الذي كان يستمع اليه .

ـ آه . . تعتقد اذن ، انه خلال خمسة عشر عاما سنجد أنفسنا في أوضاع محزنة ؟ .

ـ « لا ، انني اتنبأ بأنه في عام ١٩٤٣ ستصبح ميونيخ جزءا من دولة المانية عظمى ، والتي سيرفرف علمها من نهر الفولغا حتى مدينة بوردو ، ومن شمال النرويج الى الصحارى » .

ـ آه . . اذن ، اذن تعتقد ولا شك . اننا سنصبح أقوى قوة على الارض بعد عشرين عاما ؟ .

ـ كلا أجاب المتنبىء « انني اتصور ان ميونيخ في عام ١٩٤٨ ستكون جزءا من المانيا التي ستمتد فقط من نهر الالبا الى نهر الراين وسينزل مستوى الانتاج الصناعي للمدن الالمانية المدمرة الى أقل من ١٠٪ من انتاجها الذي كانت عليه في عام ١٩٢٨ » .

ـ اذن تعتقد اننا سنصبح بعد أربعين عاما في أشد حالات البؤس المظلم ؟.

ـ « كلا . انني اتنبأ أن دخل الفرد الحقيقي في عام ١٩٦٨ في ميونيخ سيصبح اربع مرات اكبر مما هو عليه الآن ، وفي العام الذي يليه اتنبأ لكم انه سيكون هناك ٩٠٪ ممن بلغوا سن الرشد في المانيا سيشاهدون برنامج بث مباشر وهم يجلسون في صالوناتهم عن عربة تحط على القمر تحمل في داخلها أشخاصا أرسلهم الانسان من على الارض . وسيشاهدون ذلك الانسان يدوس بأقدامه على سطح القمر » .

وبالطبع أخذوا ذلك المتنبيء الى مستشفى المجانين ليقضي هناك بقية حياته .

* * *

الملحق الاول

سياسة بريطانيا الدفاعية

ان الاجراءات المتعلقة باعادة تنظيم المساهمات البريطانية في القوات البرية لقيادة اوروبا الحليفة ، غالبا ما كانت تمثلها الحكومات البريطانية المتعاقبة بالنسبة للسياسة الدفاعية آنذاك على أنها تحسينات في فعالية الجيش البريطاني في ألمانيا ، حتى ولو كانت النتائج العملية لهذه التحسينات تؤدي الى انخفاض شديد وملحوظ في القدرة القتالية . (علما ان الكثير من عمليات اعادة التنظيم هذه قد جرت في السنين الماضية) . ولم تكن تعديلات عام ١٩٧٤ حالة استثنائية كما لم تكن مجموعة جيوش الشمال (الموضوعة تحت قيادة بريطانيا والتي كانت تشتمل ، كما نذكر ، على جميع القوات البرية البريطانية الموضوعة تحت أمرة حلف الاطلسي) في يوم من الايام في وضع يتلاءم مع المهمات الموكولة اليها ، لتكون قادرة على الرد على أي غزو يمكن أن تقوم به قوات حلف وارسو على شمالي جمهورية المانيا الاتحادية . ولم يصدق أحد في الحقيقة أن تكون مجموعة جيوش الشمال قادرة بفيالقها الاربعة التي تتشكل منها وهي البلجيكي والبريطاني والهولندي والالماني على أن تقوم بأي عمل قتالي ، وحتى ان تتحرك من معسكراتها البعيدة باتجاه مواضعها القتالية المعدة لها مسبقا على جبهات القتال، ولتكون قادرة على صد أي هجوم بالطرق الكلاسيكية على أي مستوى قتالي متوقع . ولهذا فلم يكن هناك من الناحية العملية أي احتياط لهذه القوات في العمق من أجل توجيه ضربة لاية قوات قد تخترق الانساق الاولى . أما

التحسينات التي طرأت على اعادة تنظيم قوات الجيش البريطاني في عام ١٩٧٤ فقد أدت الى اضعافه أكثر من تقويته .

لقد أدت الحاجة للقوات في العمق الى تمركز لواءين من قوات الولايات المتحدة الاميركية في شمالي جمهورية المانيا الاتحادية . هذه القوات ذات قيمة كبيرة ، لكنها لاتزال بعيدة جدا عن أن تكون كافية لاستعادة السيطرة التكتيكية على جبهة مجموعة جيوش الشمال في حال خرقها . ان الاهمية الرئيسية لهذا التحرك من جانب الاميركان ــ بالرغم من ان هدفه الاساسي كان عسكريا محضا يمكن ادراكها على أنها سياسية أكثر من كونها تكتيكية ــ قد أظهرت ببساطة أن الولايات المتحدة الاميركية لم تقبل بالتورط الواضح للقوات البريطانية بشكل يؤدي الى استخدام الاسلحة الذرية على مستوى المعركة التكتيكية في ساحات القتال . وقد يجر ذلك الى نتائج خطيرة أهمها الانتقال الى تبادل الضربات الذرية الاستراتيجية . وأن تلك الاستعدادات المسبقة لم تكن قط ضرورية للمعركة البرية في العمق . لقد كان الاميركيون على يقين تام بأن أخذهم لمثل هذه الاحتياطات أمر ضروري . ولذلك فقط خصصوا لهذين اللواءين عدة مهمات قتالية للدفاع في العمق وفي منطقة تقع مسؤولية الدفاع عنها بالدرجة الاولى على عاتق القوات البريطانية ، وذلك لكي يبينوا بجلاء وبطريقة مباشرة أنهم يميلون الى تفضيلهم تأمين أمن الولايات المتحدة الاميركية من ضربات نووية استراتيجية أكثر مما يتركون حق الاختيار في التورط لغيرهم ، وخاصة ان لاتكون مثل تلك الامور معلقة بشكل مباشر بسياسة الدفاع البريطانية .

لكن مثل تلك الامور لم تمر دون ابداء الملاحظات عليها في بريطانيا ، فقد أثارت هذه الاقتراحات ضجة كبيرة في الصحافة البريطانية واتهمت الحكومة بأنها تستمر في اعتمادها على الولايات المتحدة الاميركية لتقدم لبريطانيا ما يجب أن تقوم به نفسها ، وقد أثارت تلك الامور حقا حفيظة الرأي العام البريطاني ضد حكومته ، فقد جاءت هذه الانتقادات في وقت بدأ فيه انتعاش الثقة

الوطنية على الصعيد الشعبي . لقد كانت تلك العملية جزءا من مشكلة اكبر ولكنها كانت جزءا هاما . وهذا الجزء هو موضوع اعادة الثقة للرأي العام البريطاني الذي أصبح يصر على أن تزيد بريطانيا من مساهمتها في القوات البرية التابعة لحلف الاطلسي ، التي سنسبر غورها فيما يلي :

لقد كانت أهم المميزات الرئيسية في برنامج اعادة بناء القوات البريطانية تشتمل على اعادة النظر في البرنامج الدفاعي الذي اقترح عام ١٩٧٤ ، والذي تمت فيه مراجعة شاملة وتقديم مقترحات عملية على النحو التالي :

ـ اجراء تعديلات على الفرق لتصبح أصغر مما كانت عليه من قبل ، والغاء مستوى واحد من مستويات التشكيل القتالي وهو « اللواء » . وسيكون نتيجة ذلك بأن يقل حجم الفرقة وقيادتها باجراء تعديلات على وحداتها بحيث يزداد عدد الوحدات ويقل عدد القوات ضمن كل وحدة . أما القدرة لوحدات الجيش البريطاني على الراين (كما تم الإعلان عنه) فكان يجب الاحتفاظ بها ، وتعزيزها في بعض النواحي ، ومع ذلك لم يصدق أحد أن تعديلات جوهرية ستجري ، حتى ولا السياسيين الذين أدلوا بهذا الاعلان . كما أن بعض الوظائف الاختصاصية « مثل الطيارين في سلاح الطيران » ، وكذلك سائقي حاملات قواذف الصواريخ المضادة للدبابات ، وسائقي ناقلات الامدادات ستكون جميعها مركزية تتبع لادارة واحدة من ادارات الجيش .

أما الجيش ككل ، فكانت المحاولة تقترح انقاص القوة البشرية فيه بينما تتم المحافظة على القوة القتالية . لقد تم الاحتفاظ بعدد المعدات والتجهيزات القتالية في الخدمة ، كما تم الاحتفاظ بنفس المستوى السابق لها . وهو مستوى منخفض بشكل خطير كما وصف بالقول : « حاد قاطع في الذنب لكنه يقي الاسنان » . وهذا يعني أنه حتى ضمن الاعداد غير الكافية من الرجال الذين يتم تحويل هذه المعدات لهم ، ليس هناك مايكفي للقيام بصيانة هذه الاسلحة والمعدات واستعمالها حتى ولا بتحصينها . وكان من الاهداف الرئيسية من

هذه العملية بالطبع هو الاقتصاد في معظم أسبابه . وهكذا تدنى في السنوات التي تلت تلك العملية عام ١٩٧٤ ، مستوى القدرة القتالية في الجيش البريطاني الى أدنى مستوى بلغه في يوم من الايام .

ولكن هذا لايعني ان كل شيء قد تحول الى صورة بائسة . فالتعزيزات النظامية بالامداد والتموين التي كان على الجيش البريطاني « القوات البرية للمملكة المتحدة » أن يقدمها لقواته المتمركزة في جمهورية المانيا الاتحادية قد نقصت بشكل كبير جدا ، ولكن لملء هذا الفراغ ، فقد تم تعزيز بعض الوحدات الاقليمية والوحدات المساعدة في تشكيلات القوات الاحتياطية للمتطوعين . كما تم دمجها في تشكيلات قتالية نظامية هذه التشكيلات التي تعتبر ألوية بكل خصائصها وميزاتها ــ ماعدا اسمها ــ ولم يكن بالامكان تسميتها الوية دون انتهاك أحد مبادىء التدريب المعلنة . ولكن جرى تنفيذها بشكل غامض . وبالرغم من كل ذلك كانت احدى الخطوات التي نبهت الى الاخطار المحيقة بالسياسة الدفاعية البريطانية ، وتنبه بعض المطلعين الى الاخطار التي ستواجهها بريطانيا في المستقبل اذا ما بقيت الامور على حالها ، واعتبرها البعض الآخر بأنها الخطوة الاولى على الاقل الى تنفيذ خطوات أخرى ضرورية باتجاه اجراء تعديلات على نظام استخدام الاحتياط ليصبح فعالا وقويا .

وكان التأثير المباشر في اعادة تنظيم القوات البريطانية هذه بأن عززت من خطط حلف الاطلسي . واعتبر هذا التأثير بمثابة تنبيه للخطر . فقبل ذلك كانت القوات البرية للمملكة المتحدة مسؤولة فقط عن ارسال الامدادات الى القوات البريطانية المتمركزة في جمهورية المانيا الاتحادية والتابعة لقوات حلف الاطلسي وخاصة بالرجال. وكان عدد هذه القوات يتراوح بين(٦٠٠٠٠ــ٧٠٠٠٠) مقاتل ، يتشكل منها ثلاث فرق كاملة وستة عشر لواء مظليا ، وتشكل هذه الوحدات مايشبه الفيلق المعزز حسب الطريقة القديمة ، ويتبع له وحدات استطلاع محمولة بعربات قتالية ، وهناك وحدات تعزيز ووحدات تغطية ،يضاف

الى بعض الوحدات الخاصة المجهزة بشكل تستطيع الانتقال الى بعض المناطق البعيدة في حلف الاطلسي ، « مثل البلدان الاسكندنافية ، ايطاليا ، اليونان ، تركيا » .

ولم تكن القوات مجهزة بشكل كاف من عربات النقل ، الى أن تمت الموافقة على برنامج اعادة تنظيم القوات المسلحة البريطانية الذي تم في عام ١٩٧٨ . وكانت مشاريع تعزيز الوحدات هي نفسها من حيث جوهرها لما كان مقررا عام ١٩٧٤ . لكن كانت بالطبع تستهدف تعزيز قوات الجيش البريطاني على الراين ، حيث قامت هذه القوات نفسها باعادة تشكيلها على أسس جديدة. وبناء على ذلك أصبح الفيلق البريطاني ، يتألف من أربع فرق مدرعة « أصبحت الفرقة المدرعة أكثر من لواء مدرع موسع » ووحدة من المشاة الخفيفة أطلق عليها اسم الوحدة الميدانية الخامسة ، ووحدتين ميدانيتين أخريين والوحدة الميدانية السادسة من الرماة ووحدة الميدان السابعة . وجميعها تشكل جزءا من وحدات تابعة للقوات البريطانية البرية ، والمخصصة لتعزيز قوات الجيش البريطاني في المانيا الغربية . وكانت هذه الوحدات نفسها تتألف جزئيا من وحدات نظامية . وفي جزء آخر من الوحدات الاقليمية المساعدة من المتطوعين الاحتياطيين . والجزء الاخير مهمته القيام بمد الوحدات بالامدادات الادارية المختلفة ، أو حسب خطة التعزيز . وبالرغم من ان المعدات المخصصة لوحدات القوات البريطانية على نهر الراين كانت هزيلة ، فقد استطاعت تلك الوحدات الاستفادة منها الى أقصى حد . كما تم تزويد تلك الوحدات بأسلحة موجهة مضادة للدرع وقد تم التنسيق لحمايتها على الفور .

لايزال الرأي العام البريطاني يبدي عدم رضاه عن حلف الاطلسي وعدم رغبته بالانضمام اليه ، طالما هو مقتنع بأن التحضيرات العسكرية السوفييتية لاتزال لاتظهر أي دليل على الاسراع فانها تحضر للقيام بعمل ما ، بينما يرى جهودا مكثفة من جانب الحلفاء الاطلسيين للقيام بأحسن ما يمكن وعلى نحو

مستمر لتحسين أوضاعهم ، وبنفس الوقت يلحون على الحكومة البريطانية ان تقوم بانشاء جيش احتياطي في عام ١٩٧٩ . كانت أغراض تشكيل هذا الجيش الرئيسية امتصاص القوة البشرية غير المستخدمة واستخدامها في القوات المسلحة . أدى هذا العمل الى التأكيد على القيام بالتدريبات السنوية وكذلك على تجسيد الثقة بهؤلاء الذين يخافون من كل طارىء ، يكون الوطن فيه غير جاهز تماما لمثل هذه الامور الطارئة على المستوى القومي . وكذلك من أجل هؤلاء الضباط وهؤلاء الرجال الذين يعيشون حياة عسكرية كل عام والذين لهم حتى الآن قابلية للخدمة واستعداد دائم للتضحية . ولقد كانت هناك فئتان رئيسيتان من هؤلاء الرجال . الفئة الاولى ممن خدم لفترة نظامية ولمدة وجيزة وأصبح ضابطا وتشمل كل من أتم الخدمة القصيرة ومدتها ثلاث سنوات « ليست دفعة واحدة » . أما من أراد ان يكون جنديا عاديا منهم يخدم ثلاث سنوات أو ست أو تسع لكن بدون اختصاص « ولهذا تم اتخاذ قرار بأن لاينظر لعدد سنوات الخدمة الطويلة ويمكن ان تستمر الخدمة حتى سن الخامسة والخمسين » .أما الفئة الثانية فتتألف من الضباط الذين حدموا في وحدات قامت بمهمات نظامية خاصة ، ويمكن أن يستمر الضابط بالخدمة حتى سن الستين ، أما من أراد أن يكون جنديا فليس عليه الا أن يقوم بالخدمة لمدة سنتين متقطعتين عندما يبلغ سن الثانية والعشرين ، ومع ذلك فان هذه الفئة الثانية عليها ان تلبي الطلبات في بعض الحالات الطارئة وليس مطلوب منها أن تحضر التدريبات السنوية . وهكذا نجد أن القانون الجديد لايسمح للحكومة ان تدعو للاحتياط ضباطا حديثين وجنودا في آن واحد بل تترك حرية الاختيار للشخص عندما يريد الخدمة بالفئة التي يرغبها ، فمن اختار أن يكون ضابطا يمكن ان يدعى في بعض الظروف للخدمة الاحتياطية لمدة شهرين كل عام كما ويمكن دعوته للعمل في أي نوع من التشكيلات البحرية او الجوية أو البرية أو غير ذلك ويستمر عندئذ احتمال دعوته في أي ظرف طارىء حتى سن الخامسة والاربعين . وهكذا

فان الـ (٢٠٠٠٠) ضابط وعسكري يمكن أن يتدربوا سنويا على المعدات المتوفرة وعلى التقنيات الحديثة ، لتوزيعهم على جميع وحدات الجيش بعد ذلك . واصبح هذا القانون ساري المفعول أعتبارا من عام ١٩٨٠ .

كانت هناك أربعة متطلبات لتحويل ماهو متوفر من الرجال الى مساهمة فعيلة في منظمة حلف الاطلسي : أسلحة لتجهيزهم وابنية لاستيعابهم ضمن الوحدات والتشكيلات ، تمرينات وتدريبات سواء على أرض الوطن أو في مواقعهم ضمن حلف شمال الاطلسي ، ومن ثم ما يلزم من الذخيرة، ومن وسائط النقل. وما يلزم من الناحية الادارية لامدادهم بكل ماهو ضروري لجعلهم ذوي فعالية عملياتية . وبدأت تصل الى تلك الوحدات تجهيزات من أحدث ماوجد ، وجرت تعديلات على تشكيلات المشاة والمدرعات ، فقد تم انقاص كل منها وحدة وبذلك تحولت من رباعية الى ثلاثية السرايا . وأصبح يحق لجميع هذه الوحدات أن تطلب الدعم بالطريقة التي تراها مناسبة ، وفقا لبرنامج اعادة تجهيز الوحدات الخاص بالوحدات النظامية ، وكان مستوى العطاء في أغلب الامور للوحدات النظامية ، أقل بكثير مما خصص للتشكيلات الاحتياطية الجديدة من الاسلحة ووسائط النقل . أما مجموعات المدفعية والمهندسين فقد تشكلت على شكل أفواج ، وتم دعم الحرس الوطني بعربات نقل الجنود المدرعة وابقي على تشكيلها الرباعي ، وأعيد تنظيم وحدات الاشارة ووحدات الامداد والتموين ، وجرت هذه التعديلات بشكل يتلاءم مع تطور الاسلحة والمعدات الحديثة ، حسب المفاهيم القتالية الجديدة . وتحولت الوحدات شيئا فشيئا الى وحدات منقولة ومسلحة بالاسلحة الخفيفة المتطورة واسندت لها مهمات ، سواء في الوطن ، أو في وحدات حلف الاطلسي .

ومنذ عام ١٩٨٤ تبدلت جميع المواقع العسكرية فتحولت الوحدات المؤلفة من خمس وحدات ميدانية والمتمركزة في « أوسنابردك » الى فرقة ، وأصبح بامكانها مع الوحدات الاقليمية ووحدات المتطوعين الاحتياطيين ووحدات التعزيز النظامية أن تشكل جميعها قوة قتالية يمكن ان يحسب لها حساب . أما في

«سالزبوري» فكانت القوات فيها تتشكل من الوحدات التي كانت تتمركز فيها والمؤلفة من وحدات الميدان السابعة والثامنة، وهي من الوحدات المكلفة بالدفاع عن الوطن. تضاف الى ذلك الوحدات الاقليمية ووحدات المتطوعين من المنطقة نفسها وبذلك شكلت فرقة مدرعة على نفس النموذج الذي تم فيه تشكيل الوحدات البريطانية المتواجدة في جمهورية المانيا الاتحادية . وكانت بريطانيا مستعدة لارسال فيلق آخر لينضم الى مجموعة جيوش الشمال . وقد تم تشكيل قيادة وأركان ذلك الفيلق في « بلفورد » من عناصر تم الاستغناء عنها من قيادة وأركان القوات البرية في المملكة المتحدة ومن قيادة وأركان وحدات سابقة من المناطق الجنوبية الغربية في بريطانيا . يضاف الى ذلك بعض الوحدات التي تم تخفيضها . أما قوة الميدان السادسة فقد أصبحت وحدة قتالية بمستوى الفرقة المخففة وأضيف اليها بعض الوحدات الاقليمية من المتطوعين وبعض وحدات المظليين ، وكانت مهيأة للتدخل سواء على أجناب قوات حلف الاطلسي أو في الوسط .

أما وحدات الدفاع الاقليمي ووحدات المتطوعين عن الوطن ، مع بعض الوحدات النظامية من وحدات التدريب ، ووحدات بعض القواعد وتشكل في مجموعها حوالي (٣٠٠٠٠) مقاتل ، تم تشكيلها لتصبح وحدات قتالية قادرة على تنفيذ مهمات قتالية مختلفة . وأعطيت لها مهمات تأمين الحماية للنقاط الهامة . وتملك احتياطا متحركا وذلك من أجل القيام بالمهمات الطارئة . ويجري امداد هذه الوحدات بالدرجة الاولى من قبل وحدة الميدان السادسة . ومن ثم من قبل وحدات المؤسسات التعليمية ،

واعتبارا من عام ١٩٨٥ ، خطط أن تكون القوات المسلحة البرية البريطانية مؤلفة من أحد عشر فيلقا مع قياداتها وأركانها بالكامل ، تتمركز أيام السلم في بريطانيا ، أما في زمن الحرب فتنتقل الى مراكز معدة بالقرب من نهر «الراين» على طول قناة « دورتموند ــ امس » ، وستنفذ سنويا مناورات بالاشتراك مع القوات البريطانية في المانيا وستعطى أحسن الفرق الى مجموعة جيوش الشمال حيث يحتاج لمثل ذلك منذ وقت طويل .

وفي هذا الوقت الذي أخذت تستيقظ فيه روح الاهتمام بالدفاع عن الوطن « ومن المحتمل أن لايكون هناك أي سؤال من أي بلد باستثناء امكانية توجيه نقد بما يتعلق بالاحتياط في الولايات المتحدة الاميركية ، حيث سنعود لبحث ذلك الموضوع » بدأت تظهر في الوقت نفسه عدة صعوبات محلية تتعلق بالدفاع الجوي عن المملكة المتحدة . أن تعرض حلف الاطلسي للضربات النووية كان يبدو احتمالا واردا جدا ، وانه كان اكثر تعرضا لذلك ، حتى أنه اكثر تعرضا للهجمات الجوية من الجزر البريطانية . فالمهمة التي ستأخذها بريطانيا على عاتقها في حرب قصيرة وحاسمة هي تقديم العون الى أي بلد من بلدان حلف الاطلسي يشعر بالخطر وذلك عندما تنشب الحرب مع حلف وارسو . وتعتبر المملكة المتحدة قاعدة حليفة بالنسبة لاوروبا ، وقاعدة متقدمة في الوقت نفسه بالنسبة للولايات المتحدة الاميركية في أي هجوم جوي محتمل .

ان النظرات المحزنة تلقى اليوم على الماضي وبعض آثاره المشؤومة وبشكل خاص على ورقة عام ١٩٥٧ البيضاء حيث كانت توضح معسكرات القوات الجوية الملكية وهي معرضة تماما للهجوم كأهداف هامة لاية طائرات يمكنها أن تخترق الحدود البريطانية ، وكان موضوع استعادة بريطانيا لمواقعها السابقة في قدرة قواتها الجوية أمرا عسيرا . وقد بدا أن اقامة القواعد الجوية في المستقبل من أجل تخفيف الاعباء التي ستتحملها القوات الجوية الاميركية والتي بلغ عدد طائراتها المتمركزة في القواعد الجوية البريطانية عام ١٩٧٧ أكثر من ٢٠٠ طائرة من طراز «إف-٣س» ، والمخصصة لتعزيز العمليات الجوية عند الحاجة، والقيام بدعم العمليات الارضية وما الى ذلك من مهمات أخرى جزءا من برنامج أكبر لبناء قواعد جوية . وقد حسبت تكاليف هذه المتطلبات بـ ١٠٠٠ مليون جنيه استرليني موزعة على ثلاث سنوات .

وقد ظهر جليا أن تمركز أسراب من القوات الجوية الاميركية في المستقبل في قواعد جوية في المملكة المتحدة، وغالبا ما سيقع ذلك على الشواطىء الغربية ؛

أمر لايمكن تجنبه . وقد أدى ذلك الى نقاش تم تناقله في الاوساط البريطانية المختلفة على الرغم من السرية التي أحيط بها تمركز هذه القوات . وقد تركز السؤال حول دور كل من القوات الجوية الاميركية والبريطانية في الاحوال الطارئة .

وقد دارت مختلف التساؤلات حول الدور الذي يمكن أن تلعبه القوات الجوية الاميركية وخاصة في العمليات الجوية « جو ـ جو » انطلاقا من قواعدها في المملكة المتحدة . كما كان هناك نقاش حول مهمة القوات الجوية الاميركية الرئيسية ألا وهي تأمين الدفاع الجوي عن جميع مراكزها التي تقيم فيها في المملكة المتحدة ، وكذلك مساهمتها في الدفاع الجوي عن المملكة المتحدة بالكامل . أما الدور المخصص لان تلعبه القوات الجوية الملكية البريطانية ، فينحصر في مهمتها الرئيسية بالدرجة الاولى في الدفاع عن كافة أراضي المملكة المتحدة الوطنية .

كان ذلك الدور في الحقيقة عبارة عن دليل احياء المسؤولية الوطنية في بريطانيا في نهاية السبعينات ، وكذلك في موضوع الدفاع الجوي ، وفي المجالات الاخرى .

أما في البحار ، فقد توقفت البحرية الملكية عن أن تلعب الدور الاول في العالم ، وتنازلت عن هذا الدور لبحرية الولايات المتحدة الاميركية واحتفظت لنفسها بنقل البترول الخام ، وكذلك نقل المواد الغذائية والمواد الخام الى مناطق غرب أوروبا ، والتي يمكن ان تصبح هامة في بعض الحالات الطارئة .

وقد تقلصت القوات الجوية البريطانية بشكل خطير ، خاصة فيما يتعلق بدعم قواتها البرية الموجودة في المانيا الاتحادية ، وفوق ذلك كله فقد نقلت كل مهمات الطيران للدفاع عن المملكة المتحدة فقط . بالاضافة الى تخفيض بريطانيا لقواتها البحرية ، كل ذلك قلل من أهمية مجموعة جيوش الشمال في البر ، كما ساهم في تثبيت القواعد المتقدمة في الجزيرة البريطانية بواسطة الهجمات الجوية .

ومع ذلك فكان بين المشاكل الهامة موضوع مساهمة القوات البريطانية في

قوات حلف الاطلسي،والحالة السيئة التي كانت عليها القوات الجوية البريطانية، أما حالة الدفاع الجوي البريطاني لم تكن أحسن بالطبع من حالة القوات الجوية ان لم تكن أسوأ منها .

وهكذا انطلقت برامج وخطط اعادة تنظيم القوات المسلحة ببطء في بداية العام المالي ١٩٧٩ ــ ١٩٨٠ ، ثم اندفعت بقوة أكبر في السنوات التالية . وباعتبار ان النسبة المخصصة للدفاع يجب ان لاتتجاوز الـ ٥٪ من الدخل القومي الخام في البداية ، فقد بدأت هذه النسبة تزداد الى أن بلغت ١١٪ ، ولكن تمت هذه النسبة على الورق دون ان تتحقق عمليا ، اذ لم تتجاوز الـ ٩٪ حتى انـدلاع الحرب . لكن منذ ذلك الحين ، بدأت تلك النسبة تزداد بشكل مقبول ، بسبب زيادة الدخل القومي الخام وقابل ذلك في الوقت نفسه زيادة في الانفاق . وقد تم تزويد جميع النقاط الحساسة بنقاط دفاع جوي « أرض ــ جو » بالمعدات الحديثة . وشملت هذه الاجراءات جميع النقاط التي يمكن أن تتعرض للهجمات الجوية مثل الموانيء الرئيسية المطارات والمناطق الصناعية ، ومراكز القيادات والاشراف ضد أي نوع من الاسلحة الموجهة . واستخدمت لهذا الغرض أنواع من الصواريخ قدمتها الولايات المتحدة الاميركية لبريطانيا . كما تم أيضا اجراء تحسينات على المطـارات وجرى توسيعهـا أيضا وتقويـة مدارجها ، وتـم انشاء مجموعة جوية تكتيكية جديدة كتلك المجموعات التي خصصت للدفـاع الجوي في المانيا . كما تم انشاء غرف عمليات ومراكز مراقبة وما الى ذلك ، وكذلك تنشيط انتاج بعض أجهزة التوجيه الحديثة . وجرى تغيير برامـج تدريب الدورات العسكرية بشكل يتـلاءم أيضا مع التطور الـذي طرأ على المعـدات .

أما في مجال المعدات، فكان في قمة الاهتمامات ايجاد طائرة من نوع قـادر على القيام بمهمات متعددة في المعركة الجوية ، وكان في طليعـة ذلك طـائرة « التورنادو » ، كما تم تزويد القوات الجوية الملكية بطائرات فانتوم (إف ــ ٤)

وكذلك للمساهمة في الدفاع الجوي « جو ــ جو »، وتم تغطية المناطق الحساسة من البلاد بالرادارات الخاصة ، وزودت القوات الجوية أيضا بطائرات التــزود بالوقود من الجو ، وذلك من أجل زيادة مدى عمل الطائرات المقاتلة التي كــانت تساهم في الدفاع الجوي عن المناطق الاسكندنافية أثناء ملاقاة الطائرات المعادية، وكذلك للدفاع عن مناطق التقرب من الغرب . وجرت تحسينــات حقيقيــة وفعالة على معظم المعدات اللازمة لقيادة وتوجيه الطائرات من المحطات الارضية، كما جرى تحسين على وسائل الانذار البعيد . وتم تخصيص بعض الطــائرات الخاصة للقوات البحرية ، يضاف الى ذلك المهمات الموكولة للقوات الجوية التي كانت تتمركز في قواعد جوية في المملكة المتحدة .

أما في مجال العمليات الهجومية الجوية فلم يكن من السهل التوسع فيه ، اذ يحتاج الى معدات وتجهيزات أكثر دقة والى عناصر كثيرة ، كانت تعجــز الاموال المخصصة عن القيام بهذه الاعباء بالظروف الراهنة . لكن جرى تنظيم العمل للقيام بهذه المهمات ــ وعلى نطاق محدود ــ مع القوات الجوية التكتيكية التابعة لحلف الاطلسي ، والقوات الجوية الاميركية الموجودة على أرض المملكة المتحــدة .

* * *

الملحق الثاني

«غورشكوف» وقيام القوة البحرية السوفياتية

« **يرفرف علم الاتحاد السوفييتي فوق محيطات العالم** » ــ هذا ما نوه به أمير الاسطول « سرجي . ج . غورشكوف » في عام ١٩٧٤ ــ « **وعلى الولايات المتحدة الاميركية أن تفهم عاجلا أم آجلا انها لم تعد تملك أية سيادة على البحار** ». طيلة فترة الستينات والسبعينات حتى وبعد أن أحيل « غورشكوف » على التقاعد وتوقف عن الاستمرار في الخدمة الفعلية ، كانت فرضية : « **ان سلام العالم** ــ والمقصود به انتصار الماركسية اللينينية في كل أرجاء المعمورة ــ **يجب، ولا يستطيع الا ، أن يعتمد بالدرجة الاولى على احراز السيادة على البحار** » مقبولة من قبل المكتب السياسي بالتعاقب .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، سيكون من الضروري ان نخصص نسبة عالية بصورة استثنائية من موارد الاتحاد السوفييتي المادية والبشرية ،للاغراض البحرية والملاحية وان تستثمر بالطرق العلمية . وكان لابد من تأويل جديد المبدأ الكلاسيكي للقوة البحرية الذي أوجده « ماهان » على ضوء النظرية الماركسية ــ اللينينية والظروف التقنية والسياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في الربع الاخير من القرن العشرين . ولهذا فمن الضروري توفر غواصات قادرة على اطلاق صواريخ استراتيجية تحمل رؤوسا نووية ، على أن يتناسب ذلك وينسجم مع الاهداف التي على البحرية ان تحققها بمساندة القوات الجوية،

والقيام بأعمال مضادة ، بقدر ما تسمح بـه الظروف لمقاومة الغواصـات الاستراتيجية المعادية . ومن الضروري أيضا ان يجري تطوير نظرية « ماهان» الخاصة بالقيادة العامة للبحرية سواء في القيادات المحلية أو المهمات المؤقتة التي تكلف بها من حين لآخر ، وخاصة ما يتعلق بتقديم الدعم لبعض الدول التي تهم الاتحاد السوفييتي . وتضاف الى ذلك الاهداف العامة للقوى البحرية والقوات الجوية التي قد يطلب منها تحقيقها . نتيجة لذلك ، تم استخدام البحريـة بمهمات خاصة في مناطق محددة ، بغرض تحقيق أهداف معينة .

ان هذا النوع من التبريرات ، قد أضفى غالبا الطابع العالمي على المهمات التي كلفت البحرية السوفييتية بتنفيذها في جميع أنحاء العالم .. وبدأت نشاطات القوات البحرية السوفييتية تصيب نجاحات بارزة ، وبرزت هذه النجاحات بشكل ظاهر بعد حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ ، عندما دخلت القوات البحرية السوفييتية ميناء بور سعيد والاسكندرية ، واستعدت مع القوات المصرية لان ترد على أي عدوان من أية جهة كان .

في الحقيقة ، ان ظاهرة عدم التوازن الواضحة اليوم لدى المجابهة بـين القوى العظمى والتي برزت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، قد أخذت تدخل ميدان المناقشات والابحاث . الا أنه يمكن التوصل الى طريقة للتعايش بين أمم من طبائع مختلفة أو بالاحرى فان هذا التعايش موجود في الواقع .

فعندما تنبأ « اليكسيس توكفيل » عن روسيا الاوتوقراطية وعن اميركـا الديموقراطية قال : **((ان نقاط البداية لديهما مختلفة ، ومنهج كل منهما مختلف أيضا ، ومع ذلك فانه يبدو ـ وكأنها إرادة إلهية ـ أن كلا منهما يتميز بتحكمه بمصائر نصف الكرة الارضية))** . ان اليكسيس لم يتوقـع الحرب بينهمـا ، بالرغم من ذلك فان فكرة السيطرة الفردية على البحار التي سبقتها بالتالي فكرة السيادة الديموقراطية على القارات ، مـن المحتمل أن لاتلغي الاختلافات بـين

المتحكمين بمصائر الشعوب ، هذه الاختلافات التي يقوم عليها تعايشهما السلمي ـ بالرغم من الاتفاق على وجود التغير في طبيعة هذا التعايش ـ .

وأيا كانت حتمية الخطر السوفييتي وما يمكن ان يسببه هذا الخطر على السلام العالمي ، فان الفلسفة الذرائعية «PRAGMATISM» الاميركية في ذلك الحين قد ضاعفت من هذا الخطر ، وذلك عندما تورطت في حربها في فييتنام . ان ما ساهم به التدخل الاميركي في جنوب شرق آسيا بالنسبة للامن القومي كان سلبيا الى أبعد الحدود . فقد أخطأ هذا التدخل المكان والزمان والمنهجية الملائمة . وكانت جميع النتائج سلبية ، انعكست بشكل سيء على سياسة الولايات المتحدة الاميركية . ان سياسة أكثر من ذلك فائدة ، وأقل عقما سياسيا ، وأقل تمزقا اجتماعيا ، كان يمكن ان تؤدي الى جذب الخليج العربي والمحيط الهندي الى الوقوع في فلك سياسة الاساطيل البحرية وما الى هنالك، كما طالب باتباعها الادميرال « أرليف بورك » رئيس عمليات البحرية و«جون . س بكين جونيور » قائد اسطول الباسيفيك في عام ١٩٥٠ . وعلى نحو أفضل فيما بعد وصفت من قبل المراسل الحربي لصحيفة « نيويورك تايمس » ، عندما كتب بتاريخ ٢٠ نيسان ١٩٧٣ ... « إن المنافع الاستراتيجية للولايات المتحدة الاميركية والاستراتيجية الشاملة بشكل عام سوف تتركز فيما بعد على الخليج العربي خلال هذا العقد كنتيجة للتنافس على مناطق البترول في العالم » .

على الرغم من الزيادة السريعة في حجم الاسطول التجاري واسطول الصيد للاتحاد السوفييتي « وأساطيل الدول التابعة له » لصيد الاسماك خلال الستينات ، والسبعينات فانها لم تترافق مع توسع بحرية « غورشكوف » مع أنها كانت متزامنة معها . وبصرف النظر عن السفن المتخصصة المستخدمة لابحاث علوم المحيطات ، والبواخر الخاصة لقياس البحار والبحيرات والانهار وبرامج عمليات دعم الابحاث الفضائية ، فقد كان الاتحاد السوفييتي كما كان العديد من الشعوب في الماضي يسعى للوصول الى منافع سياسية وبحرية

واستراتيجية ، واكتفاء ذاتي في النقل البحري ليؤمن لنفسه نفوذا وهيبة ، وسمعة ملاحية حسنة بالاشراف على الملاحة ، والمحافظة على الاستمرار في صناعة السفن في الاتحاد السوفييتي ، وبالاضافة الى ذلك ، على وجه الخصوص، تأمين المتطلبات السوفييتية والقدرة على تحمل الصراع من الناحية الاقتصادية والسياسية وتغلبه فيها على المعسكر الرأسمالي . أما اساطيل صيد السمك « والحيتان » فقد أخذت تصنع على نطاق واسع ، لتقديم البروتينات للمساعدة على تغطية العجز الحاصل بنتيجة سوء المواسم الزراعية في الاتحاد السوفييتي.

وهنا نلاحظ تناقضا حقيقيا في مركز صانعي السياسة البحرية السوفييتية غدا واضحا اثناء اقامة سلسلة من المؤتمرات الدولية حول قوانين البحار التي عقدت خلال السبعينات . بينما كانت البحرية السوفييتية منسجمة مع بحرية الولايات المتحدة الاميركية والبحرية « التقليدية » للبلدان الاخرى البحرية ، وذلك للبحث عن سبل المحافظة على حرية الملاحة لكافة الشعوب في جميع أعالي البحار ، والممرات المائية البحرية التي تربط بعضها ببعض . وقام الخبراء السوفييت في العلاقات الخارجية بهدف الحصول على منافع سياسية فأيدوا المطالب التي تقدمت بها وفود العالم الثالث ، فبعضها كان قديما وبعضها الآخر كان جديدا . وتتضمن هذه المطالب توسيع سيادتها على أوسع مدى في البحار والمحيطات الممتدة على طول سواحل تلك البلاد ، والمضائق التي تربط بينها ، وهذا يعني تآكل جميع مفاهيم البحرية في أعالي البحار . وبالطبع فمن المعروف ان حرية البحار من الناحية التاريخية كانت على الدوام هدية القوى البحرية المهيمنة .

ويمكن ان نشاهد الآن لتلبية عدد من المتطلبات الملحة بما في ذلك الحاجة الى تخفيف الضغوط على الاتحاد السوفييتي والبلدان التابعة له . فان القيادة السوفييتية قد قدمت خططا محتملة لاوضاع أفضل قد تضع الاتحاد السوفييتي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أمام اختيار صعب . وقد جاء الآن الوقت الذي

يجب فيه دفع الحساب الى غورشكوف . فقد تضمنت تلك الخطط بالدرجة الاولى استخدام الاساطيل البحرية والقوات الجوية في سبيل دعم العمليات السياسية المخصصة من أجل استبعاد ردود الفعل الاميركية العنيفة ، على الاجراءات التعسفية التي يقوم بها الاتحاد السوفييتي ولتأمين التفوق على الولايات المتحدة الاميركية في مجالات متعددة . واحدى هذه الخطط هي اثارة المشاكل والقلاقل والعنف في منطقة الخليج العربي ، وبالتالي خلق نوع من حالة عدم الاستقرار هناك وكذلك منع المحاولات لاجراء أية تسوية سلمية في الجنوب الافريقي . وهذا ما سيؤدي الى أن يصبح تموين الولايات المتحدة الاميركية ببترول الشرق الاوسط في خطر شديد فورا ، وعلى حد سواء في مناطق تدفقه في منطقة الخليج أو على طرق نقله عن طريق رأس الرجاء الصالح .

ففي ٢٩ كانون الاول عام ١٩٨٤ وردت أنباء نبهت العالم الى ما سيحيق به من أخطار . فلقد تم اغراق ناقلة جنود ايرانية بواسطة طوربيد ، مع خسائر كبيرة في الارواح . وقد قامت بهذه العملية غواصة سوفييتية كانت موجودة في مضيق هرمز . وتعرضت باخرة تجسس أميركية الى هجوم بالصواريخ انطلقت من عدن .

وبقي قائد الاسطول الاميرال « غورشكوف » مسؤولا عمليا عن البحرية السوفييتية ، وخاصة في الظروف التي لاتسير فيها الامور بشكل صحيح بالنسبة للاتحاد السوفييتي. وكان يبحث في معظم تصرفاته عن السبل التي يتم من خلالها اظهار الاتحاد السوفييتي بمظهر القوي الجبار . والا لما كان به حاجة لارسال غواصة لمنطقة الخليج العربي واغراق ناقلة جنود ايرانية ،وبالتالي يعلن عن تحقيق هجوم ناجح قامت به بعض وحدات البحرية السوفييتية بالرغم أنه من المعروف ان عمق المياه في منطقة الخليج هو غير كاف بالنسبة لعمليات الغواصات الذرية لتكون فعالة في مناورتها ، ولهذا يعتقد أن الغواصة التي قامت بتلك العملية هي من غواصات الدورية المزودة بمحركات الديزل ، ومن المعروف

أيضا أن البحرية الايرانية تملك صواريخ مضادة للغواصات « ASW » واسلحة اخرى مضادة وبخاصة أسلحة بريطانية . كان المارشال يتوقع أن نجاح الهجوم الذي قامت به الغواصة وسحبه الغواصة على الفور من ذلك المكان . وكذلك الهجوم على سفينة التجسس بالقرب من اليمن قد يعطيه نوعا من (الهيبة). الا أن ذلك لم يكن مرغوبا فيه تماما وخاصة استخدام الصواريخ في ذلك الهجوم على سفينة التجسس الامريكية . فقد كان من المحتمل أن يتسبب هذا الهجوم في جعل الولايات المتحدة الامريكية تقوم بعمل انتقامي مماثل ضد سفينة جمع المعلومات السوفييتية الموجودة في نفس المنطقة . بالاضافة الى قدرة الولايات المتحدة الامريكية على تجميع قوات بحرية بسرعة لنجدة أية قطعة بحرية اذا ماتعرضت للخطــر .

هذه الاحداث المأساوية ، أشار لها تقرير القائد الاعلى للقوات البحريــة السوفييتية في اجتماع ضم الرفاق في المكتب السياسي ، لمناقشة الخطط التي جرى فيها هذا التحدي المفاجيء للقوات البحرية الامريكية ، وشعروا بصورة مفاجئة انه ربما يصبح ضبط الاحداث والتحكم بها أمرا عسيرا . لقد كان أمرا جوهريــا بالنسبة للعقيدة السوفييتية السياسية والعسكرية ان النشاطات العسكرية يجب ان تخدم بشكل مباشر فعال أهدافا سياسية منتقاة سواء على المستوى العالمي أو على المستوى الاقليمي . وتتابعت العمليات من هذا القبيل في منطقة الشرق الاوسط . وانطلقت هذه الاحداث اعتبارا من الستينات ، ويمكن القول بعــد فشل الغزو الاستعماري والانكليزي والفرنسي وظهور زعامة الولايات المتحــدة للعالم الرأسمالي وذلك بعد فشل انكلترا وفرنسا بالهجوم على مصر . ومنــذ ذلك الوقت أيضا بدأت تظهر على البحرية السوفييتية بقيادة الاميرال «غورشكوف» تطورات وتوسعات كبيرة وذلك بهدف تحقيق غرضــين منفصلين ، يعكســان خصائص السياسة السوفييتية ، وأول هذين الغرضين هو ــ المتابعة الممكنة ــ لما يطلق عليه السوفييت اسم برنامج السلام الذي تدعيه وأعلنت عنه في مؤتمر الحزب الشيوعي الرابع والعشرين عندما قبل التعاون ما بين الاتحاد السوفييتي

والكتلة الغربية كأمر لايمكن تجنبه ولكن يجب ان يسود هذا التعاون الكثير من الحيطة والحذر مع المحافظة في الوقت ذاته على التوازن الاستراتيجي . وساد العالم بعد ذلك نوع من الانفراج الدولي ، واستبعدت الحرب النووية ، أما الحاجة الثانية فكانت حاجة تنافسية . ففي الحرب العالمية الثالثة تنافس الاتحاد السوفييتي بقوة مع الغرب لتحقيق نجاحات في المجال السياسي ، بواسطة دعم أصدقائه ، والانكار على الغرب أية فائدة يمكن ان تسبب ضررا لو بسيطا في مصالح الاتحاد السوفييتي أو في مصالح زبائنه . وكان على البحرية السوفييتية ان تقدم الدعم في مظهرين أو حالتين من حالات السياسة السوفييتية . ومن الناحية النظرية لم يتراءى فقط أن هذه المظاهر معقولة بل أيضا أقوى حجة للتوسع البحري . ولكن من الناحية العملية بدأ البحث في كيفية تحقيق ذلك .

وان أعظم النشاطات السوفييتية الجديدة في منطقة الشرق الاوسط ، قد شكلت جزءا من الاستراتيجية العامة للسوفييت التي تمت صياغتها في عام ١٩٨٣ . وبعد ان تم التنبؤ باحتمال « ظهر ذلك في وثيقة خطية خاصة بالكرملين محدودة التوزيع » أن تتحول هذه النشاطات الى مهمة يجب تنفيذها بالقوة اذا تطلب الامر ذلك كما أن منظمة حلف الاطلسي أصبحت مهددة بسبب متطلبات أمن الاتحاد السوفييتي في أوروبا . وان نية الروس في ان يلعبوا دورا في « الحروب الاخوية(١) » قد أعيد تأكيده من جديد . سواء بشكل مباشر أو غير مباشر ، لكن بدون اثارة نزاع مع القوى الغربية وان هذه السياسة سرعان ما تبنتها الاحزاب الشيوعية المحلية بنفاق ظاهر واصبحت من أهم أهداف عقيدتها الماركسية ــ اللينينية ، وساهمت هذه الاحزاب في تحقيق هدفين استراتيجيين متممين . أحدهما سياسي في طبيعته والآخر عسكري ويتمثلان في انكار الاعتماد المتزايد للولايات المتحدة الاميركية وحلفائها في حلف الاطلسي على

---

(١) المقصود بهذه الحروب هو : الحروب بين أطراف مختلفة من أمة واحدة (المترجم) .

البترول المستورد من منطقة الخليج العربي ، وبنفس الوقت القيام بمنعها على الطريق من الاعتماد على هذا المصدر . هذان الامران يعطيان فوائد جمة للاتحاد السوفييتي ، ويمكن ان يكونا حاسمين . ونظرا للمساعدات الأخوية التي كانت تقدم باستمرار الى الجمهورية العربية المتحدة الجديدة ، والى جيوش التحرير الشعبية في الجنوب الافريقي ، فقد تم تدعيم هذين الهدفين . لكن الآن بدأ اطلاق النار ، وكانت المحافظة على المبادهة ، من الامور الاساسية ، كما كان موضوع المحافظة على ترابط وثيق بقدر الامكان بين الدبلوماسية الروسية والنشاطات البحرية من الامور الجوهرية . وان المسؤولية يجب ان تأخذ مكانها وبحزم حيث يجب أن تكون ، وعلى عاتق من تكون ! ولقد كان كل من المكتب السياسي ووزير الدفاع ، « رازكولينكوف » على وفاق تام مع القائد العام للبحرية السوفييتية الاميرال « ستارسكي » .

وقد جرى فورا اتفاق على اجتماع مجلس الدفاع العسكري الذي انعقد بعد اربع وعشرين ساعة ، وحضره كل من ممثل رئيس الوزراء ووزير الدفاع ، وكذلك القائد العام للقوات البرية . والقائد العام للقوات الجوية وقائد قوات الصواريخ الاستراتيجية ، وبالطبع قادة الاساطيل الرئيسية ، فالوزراء والمسؤولون عن تأمين الامداد بالانتاج الحربي ، من تجهيزات ومعدات ووسائط نقل جميعهم حضروا الجلسة ، كما حضر ممثل عن وزير الخارجية . وقد افتتح الجلسة وزير الدفاع نفسه ، فلخص الحوادث التي جرت مؤخرا في جميع أنحاء العالم ببراعة ، ثم شدد على الحاجة للمحافظة على المكتب السياسي ، وخصوصا على رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي ، ويجب ان يتمتع هذا المكتب بشمولية في المعلومات وبتوجيه ومنهجية واضحتين ، ثم تحدث عن التنسيق ما بين قيادة النشاطات الدبلوماسية والاشراف عليها والعمليات البحرية ، والح على أن هذا التنسيق يجب أن يكون فعالا وحاسما ، كما شدد على المحافظة على التوازن بينهما بفعالية ، في دعم القوى « الاخوية » وتجنب الدخول بمعركة رئيسية مع الامبريالية ، وفي نهاية

الجلسة ، أمر المجلس باجراء عدة دراسات على ان تنفذ خلال ثمان واربعين ساعة ، وتم تكليف اركان البحرية باجراء احدى الدراسات حول الترابط ما بين القوات البحرية في البحر الاحمر وفي البحر العربي ، وفي الخليج العربي .

وقد كان ممكنا التنبؤ بشمولية وتعقيد التقرير البحري الذي تم انجازه بعد يومين ، فعلى الرغم من التأييد الذي لا قاه من قبل « غورشكوف » بكل حزم الذي كان المسؤول عن القوات البحرية السوفييتية خلال ربع قرن كونه كان القائد العام لها ، كما انه كان صاحب معظم الاقتراحات الرئيسية والاداة المنفذة لها . فقد بقي العديد من الامور الهامة لم تحز على قناعة البعض . فلقد كان العديد من الاعضاء ذوي النفوذ في المجلس العسكري من المدنيين وسكان الارياف الروس البعيدين عن البحر الذين يعتبر مفهوم القوة البحرية أمرا غريبا بالنسبة لهم اذ لم يكن سهلا تكييفهم معه من خلال العقيدة الماركسية ــ اللينينية ، حيث لم يكن لديهم ــ بشكل عام ــ اية إمكانية للاتفاق فيما بينهم حول ما اعتقدوا انه تحول غير متكافىء في الموارد المخصصة لعملية التوسع البحري . ولهذا فان أركان البحرية السوفييتية لم تحسب حسابا لهم أثناء عرضها للاوضاع البحرية في الشرق الاوسط ، وخلاصة هذه الوقائع ، كالاستنتاجات والتوصيات التي رافقت التقرير كانت مصاغة بشكل يستحق الثناء ، الا أن التقرير نفسه لم يكن كذلك وقد بدأ باعتبارات عامة ، وفيما يلي ما يؤكد ذلك :

١ ــ تبقى البحار والمحيطات في العالم ــ على الرغم من التحسينات التي طرأت على النقل البري والجوي ــ الطرق الرئيسية العريضة التي يجري بواسطتها نقل حوالي ٩٠٪ من السلع ، والمواد المعدنية ، والمواد المصنعة ، والبترول . بالاضافة الى ان ٧٠٪ من سكان العالم يعيشون داخل ثلاثين ميلا من شواطىء البحار .

٢ ــ ان الضرورة الاقتصادية ، قد أجبرت الاتحاد السوفييتي على تنمية

أسطوله الخاص بصيد السمك بالدرجة الاولى « اسطول صيد الحيتان حتى أنه لم يبق هناك حيتان للصيد » كما توسع السوفييت في اسطولهم التجاري باستمراره وان توفر اسطول الصيد أمر ضروري لتوفير البروتين للشعب الروسي. أما الاسطول التجاري فهو ضروري للتوسع الخارجي ، خصوصا لاجراء النقل البحري ما بين الاجزاء الكبيرة الواسعة في الاتحاد السوفييتي ، واستخدامه لدعم النفوذ السوفييتي من الناحية السياسية في هذا العالم الواسع .

٣ ـ للمساهمة في اجراء أبحاث علوم المحيطات وأعماقها . وقد كان الاتحاد السوفييتي قادرا علميا على فهم البحار وعلى استثمار قيعانها .

٤ ـ تأمين الامن القومي ويتطلب بالدرجة الاولى الدفاع البحري عن جميع الاراضي الاقليمية للاتحاد السوفييتي ضد أي نوع من حاملات بحرية ضاربة للقوى النووية التابعة للولايات المتحدة الاميركية ، بالاضافة الى القدرة على منع البحرية العسكرية الاميركية من تقديم التعزيزات لاوروبا الغربية من أميركا الشمالية ، وكذلك تطوير الغواصات الاستراتيجية التي تسير بالطاقة النووية حاملة الصواريخ عابرة القارات ، كما يجب وضع المسؤولية الرئيسية على الاسطول السوفييتي لتدمير قوة الصواريخ الاميركية في حال احتمال قيام حرب نووية .

٥ ـ ويجب على البحرية السوفييتية أن تلعب دورها في القوات المسلحة المشتركة للاتحاد السوفييتي عن طريق تقديم الدعم للجناح المتقدم نحو البحر من القوات البرية وذلك من خلال القيام بعمليات برمائية مشتركة . وكذلك الدفاع ضد أي هجوم بحري . والقيام بعمليات الامداد والتموين .

٦ ـ استغلال المواقف الطارئة ، على ان يقوم الاسطول السوفييتي في زمن السلم ـ من وقت لآخر ـ بدعم المهمة التاريخية للنظرية الماركسية ـ اللينينية المدعوة للمشاركة في التغييرات الاساسية . ومن اجل هذه الغاية ، فمن الضروري أن يشارك بالكفاح ، من أجل قهر قوة الولايات المتحدة الاميركية وحلفائها

الامبرياليين . وهكذا يهدف تحقيق تفوق الاتحاد السوفييتي في البحار ، كما في البر ، لان يصبح تفوقا واضحا ومعترفا به .

أما الجزء التالي من تقرير هيئة أركان البحرية السوفييتية فقد كان بعنوان « مقارنة القوى البحرية » ، ويوضح انه لم يكن ينظر للاساطيل البحرية على أنها القوة البحرية بحد ذاتها وانما الوسائل والادوات للوصول الى القوة البحرية . ويتابع التقرير تقديم لمحة تاريخية حول ذلك . فبعيد نهاية حرب الباسيفيك الكبرى عام ١٩٤٥ ، كان صحيحا بصورة موضوعية القول بأن للاتحاد السوفييتي قوة بحرية قارية طاغية يمكنها مواجهة قوة بحرية حليفة تؤلف الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى العناصر البحرية الرئيسية منها ، يضاف الى ذلك أن الغالبية العظمى من السفن في العالم كانت مملوكة ، وتعمل لصالح ذلك التحالف الاميركي ـ البريطاني البحري . وكان هذا التحالف يملك أو يشرف على أغلب الموانىء الهامة وكذلك الطرق البحرية في جميع أنحاء العالم .

ان البحرية المذكورة تطورت خلال العقود الثلاثة الماضية في نواح ثلاث : اولها أن البحرية السوفييتية قد كبرت وتوسعت ، أما الامر الثاني فهو ان الاتحاد السوفييتي قد مد نفسه بأسطول تجاري كبير يعبر المحيطات ، وكذلك الامر بأسطول كبير لصيد الاسماك بطاقة كبيرة . والامر الثالث فهو اخفاق الامبريالية والاستعمار في ابقاء السلطة السياسية على الشعوب التي كانت مغلوبة على أمرها ، وأخذت هذه الشعوب بالاستقلال وأصبح بعضها يملك أساطيل خاصة بها ، كما أنها فقدت الكثير من الموانىء . ولما كان الاتحاد السوفييتي يحاول دوما مصادقة بلدان الشعوب المتحررة ، فقد ربح الكثير من الموانىء التي خسرها الجانب الآخر ، وأخذ يستفيد من القوى البحرية لهذه البلدان في الكفاح من أجل السلام ، وكان في بعض الاحيان يقف حيال استخدام هذه الموانىء من قبل القوى الامبريالية . وهكذا تحول الاتحاد السوفييتي الى قوة بحرية ، كما أصبح في حينه قوة برية قارية .

وفي مقارنة بين الكتلتين من الناحية الجغرافية ، تظهر أهمية عامل القوة

البحرية ، وتظهر هذه المقارنة ان الجزر البريطانية يمكنها أن تقوم دوما بدور حاملة طائرات غير قابلة للغرق ، وخاصة بالقرب من المداخل الغربية لاوروبا وللقوافل القادمةمن القارة الاميركية. والامر الثاني أن المخارج من « مورمانيسك» الى الاطلسي ومن البلطيق الى بحر الشمال لايمكن اعتبارها مأمونة من الخطر، ولا حتى الدردنيل طالما أن تركيا قد طوقت ضمن المعسكر الرأسمالي . وفي الشرق الاقصى ، فان اليابان بحسب موقعها كانت قادرة على الحد من حرية الملاحة في « فلاديفوستك » .

لننتقل الآن الى مقارنة القوى البحرية الفعلية ، اذ أشار التقرير في بدايته الى موازين القوى الرئيسية التي كانت قد استخدمت في تقرير حجم وشكل البحرية السوفييتية وفقا لمهماتها المختلفة ، أما الآن فان ميزان القوى الذي تقاس به القدرة البحرية يجري حسابه بواسطة الرياضيات التحليلية ، وبحل عدد من مسائل المقارنةالمتعلقة بعدد منالاوضاع والتشكيلات المختلفة وبعناصرها المختلفة ، وبأمور فنية أخرى .

ان المفهوم المركزي في المقارنة الحديثة مابين القوات البحرية ــ وهذا ما يؤكد عليه التقرير ــ كان يعتمد على نظام التسلح وليس على القطعة البحرية ، فالغواصة ، أو حاملة الطائرات ، أهدافا لمختلف صنوف الاسلحة . ومن جهة أخرى ، تجري المقارنة بالنسبة للغواصات بمقارنتها مع ما تحمل من صواريخ ذات اندفاع ذاتي . وفي سياق حديثنا الحاضر فان العناصر الحساسة اعتمدت على نظام التسلح . وكانت النتيجة :

١ ــ امكانية كشف تلك القطعة البحرية وتحديد هويتها .
٢ ــ الرؤوس الحربية القادرة على تدمير أو تحييد ذلك الهدف .
٣ ــ الادوات الناقلة القادرة على حمل هذه الرؤوس وايصالها لاهدافها.
٤ ــ قاذفات صواريخ .
٥ ــ امكانيات كشف القذائف المعادية قبل وصولها الى أهدافها .

٦ ـ حماية المقذوفات والرؤوس الحربية ضد أي اجراءات معاكسة تهدف الى منع هذه المقذوفات من الوصول الى أهدافها أو تحييدها عنها .

ويتابع التقرير ، فيشير ، اذا كان الهدف موجودا تحت سطح الماء ،فيجب عندها أن يعتمد النظام على العلوم الصوتية ووضوح السمع تحت سطح الماء وخصائص مياه البحار والمحيطات . أما اذا كان الهدف فوق سطح الماء فيجب عندها الاعتماد على الطاقات الاشعاعية ، الكهربائية ـ المغناطيسية . وعلى نظام اسلحة يتطلب أن يكون قادرا على تضليل الكشف عن الهدف الحقيقي .وبالتالي تعتمد معظم هذه الانظمة على توجيه من بعيد بواسطة الاجهزة الالكترونية . لكن تركيز عدد كبير من القوات البحرية يتطلب المتابعة في اعادة توحيد انظمة الاسلحة المختلفة والمعقدة .

وقد أظهرت الدراسات المختلفة النتائج التالية :

١ ـ ان السفن العائمة معرضة للهجوم من قبل أسلحة تنطلق سابحة فوق الماء وتقذف من غواصات تكتيكية ومن صواريخ من نوع سطح ـ سطح ومن صواريخ الطوربيدات ، والالغام .

٢ ـ أما الغواصات فهي معرضة لخطر الصواريخ التي تقذف بطوربيدات موجهة ، كما أنها معرضة لحاملات الطائرات التي تقذف قنابل وطوربيدات عميقة والى الاسلحة الذرية ولسفن قاذفة للطوربيدات .

٣ ـ أما الطائرات فهي معرضة لاخطار صواريخ سطح ـ جو قصيرة المدى ، والى صواريخ سطح ـ جو ذات المدى المتوسط او البعيد ، والى الطائرات القاذفة للصواريخ .

ويتابع التقرير : ان نظام الاسلحة السوفييتية يمكن أن يؤدي مهمته بشكل حسن ، وقد يفوق ما يماثله مما هو لدى الولايات المتحدة الاميركية . ولهذا يعتمد السوفييت على الانتشار الاستراتيجي لقواتهم ، وعلى التصرف التكتيكي، ولهذا فانهم يتوقوا دوما الى تحقيق تفوق عددي حاسم . أما في مجال المعدات القتالية تحت سطح الماء فهناك عاملان خاصان يجب أن يتبادرا للذهن . العامل

الاول : أن سرعة الصوت في القاع منخفضة . وحتى تتم قيادة الغواصات وتوجيه نيرانها الى أهدافها كان لزاما عليها ان تكون بتشكيلات متقاربة ، سواء كان ذلك الهدف غواصة أو هدفا عائما . لذا لاتستطيع الغواصة ان تعالج اكثر من هدف واحد ، وفي هذه الحالة لايوجد هناك نصر حاسم . وانما هناك عملية قنص تعتمد على من يكتشف هدفه قبل غيره ، من جهة أخرى يمكن استخدام الالغام المضادة للغواصات وبتأثير فعال في بعض الظروف المحددة .

ونذكر هنا في هذه العجالة ، أن من الامور الهامة جدا في المعارك البحرية متابعة الاستطلاع والكشف عن الاهداف المعادية ، ويمكن تحقيق ذلك بالوسائط الحديثة عن طريق الاقمار الصناعية أو بواسطة حاملات الطائرات ، كما ان تحركات معظم سفن السطح سواء الحربية او سفن شحن البضائع التجارية وما الى ذلك ، يمكن مشاهدتها على شاشات التلفزيون بشكل مباشر وفي أي مكان من العالم وتبقى الغواصات في هذا المجال في مأمن عن هذه المراقبة المباشرة .

ويستعرض الجزء الاخير من تقرير هيئة أركان البحرية السوفييتية الاوضاع في البحر الاحمر ، والبحر العربي والخليج العربي ، وذلك باجراء مقارنة مابين القوات البحرية والقوات الجوية ، ويشير أيضا الى أن مهمة البحرية السوفييتية في تلك المناطق هي دعم السياسة الخارجية السوفييتية ، وكذلك بذل الجهود لممارسة الضغوط على قوات الولايات المتحدة الاميركية في المنطقة ، والمساهمة مع قوات الجمهورية العربية المتحدة الجديدة في محاولتها السيطرة للاشراف على جميع مداخل الخليج العربي وحتى ايران ، ويمكن الاستعانة في بعض الاحيان بسرب اضافي من طائرات « باكفاير القاذفة » وبسرب آخر من طائرات « فوكس بات » المقاتلة .

وهكذا تم التصويت على تقرير أركان البحرية السوفييتية من قبل المجلس العسكري وتمت الموافقة عليه .

* * *

الملحق الثالث

تكوين القيادة البحرية للحلف الأطلسي

لقد كان من الطبيعي أن يتم في عام ١٩٥١ انشاء قيادة حليفة في أوروبا بهدف تحقيق توطيد وتدعيم قوات الولايات المتحدة الاميركية في أوروبا، وبهدف تحذير الاتحاد السوفييتي من التقدم غربا ومن أي عمل يقوم به من أجل كسب أراضي جديدة . وكان من الطبيعي أيضا انشاء قيادة حليفة لحلف الاطلسي ، بهدف تأمين التعزيزات لاوروبا عند الضرورة ، وامداد القوات الارضية التابعة لقوات الولايات المتحدة الاميركية . وكان من الامور التي لايمكن تجنبها أيضا أنه يجب أن يكون القائد على الغالب من الاميركيين . وقد كاد أن يكون هذا طبيعيا ان لم نقل مفروضا لولا « ونستون تشرشل » الذي لم يرغب أن تكون هذه القيادة بأمرة الولايات المتحدة وحدها ، ولهذا فقد تم وضع قائد أعلى ، ليكون صلة الوصل مع القيادة البريطانية العليا وتم تعيين أدميرال بحري بريطاني في هذا المنصب ، وهذا شرط أصر عليه « تشرشل » للمشاركة في القيادة العليا للحلف الاطلسي « Saclant » . وقد اقتصر عمل الادميرال البريطاني ليكون صلة الوصل فقط في المهمات المتعلقة في أقصى شمال بحر الشمال والقنال الانكليزي . وكان من المأمول أيضا أنه في أسوأ الاحتمالات يمكن ان تسند هذه المهمات الى ضباط بريطانيين من الذين يؤدون أعمالا في القيادة البريطانية ، وفي الوقت نفسه يمكن تخصيصهم ليكونوا خاضعين للقيادة الاطلسية الحليفة تحت امرة القائد الاعلى الاطلسي ، ويمكن أيضا أن يكلف بالمناصب الثانوية لقيادة القنال . وفي زمن الحرب قد تكون مهمة القيادة الاطلسية الحليفة المحافظة على طرق المواصلات البحرية في المحيط الاطلسي ، بشكل يضمن بقاءها صالحة لنقل

المعدات والتعزيزات على نحو دائم . وكذلك قيادة أي نوع من العمليات التقليدية أو الذرية ضد القواعد البحرية وضد حاملات الطائرات المعادية . وكذلك القيام بعمليات الدعم التي يمكن أن تقوم بها القيادة العليا الحليفة في أوروبا . أما مهمة القائد الاعلى الذي كان بمثابة ضابط الاتصال فستكون الاشراف وحماية بواخر النقل ، وبذل الجهود لاقامة والمحافظة على الاشراف على المنطقة . وكذلك دعم العمليات في مناطق التقرب من المداخل الغربية الاوروبية .

ومنذ عام ١٩٥١ ، جرت تطورات هامة ، سواء على المستوى السياسي أو الاستراتيجي . ومع ذلك فليس هنالك من دليل أو مؤشر يمكن ان يبرز التغييرات التي طرأت على بنية القيادة . وكانت أهم التطورات التي حدثت :

١ ــ يقظة اوروبا الغربية بعد الحرب بالرغم من المشكلات الاقتصادية الحادة التي واجهتها ، هذه اليقظة التي حولت العلاقة مع الولايات المتحدة الاميركية من استقلالية الى اتكالية .

٢ ــ ومن ثم حلول الغواصات العاملة على الطاقة النووية والحاملة لصواريخ بالستية ، الأمر الذي جعل اسطول الولايات المتحدة الاميركية الضارب، الذي كان يعتبر القوة البحرية الاستراتيجية الاولى في البحر يهبط الى المرتبة الثانية لقوة بحرية لتنفيذ مهمات عامة ، وانتقلت هذه المهمة الى القوة الضاربة الذرية الاولى .

٣ ــ السرعة التي ازدادت بها الغواصات من حيث عددها كقوة ذرية مخصصة لاغراض عامة في كلتا القوتين البحريتين السوفييتية والاميركية .

٤ ــ الفشل المستمر في عمليتي البحث العلمي والتطوير التكنولوجي من أجل ايجاد الوسائل الفعالة لكشف وتحديد أماكن الغواصات على نحو دقيق « بينما بقي هذا الفشل فقط في امكانية تطوير القوة الضاربة الثانية الى قوة غواصات استراتيجية بالستية نووية « SSBN » التي ساهمت منذ ذلك

الوقت في المحافظة على استقرار الاستراتيجية النووية ، كما زادت من تهديد هجمات الغواصات على الملاحة وعلى السفن البحرية ، وأصبح تهديدها فعالا أكثر من أي وقت مضى ، كما اتضح ذلك في معركة الاطلسي خلال الحرب العالمية الثانية .

٥ ـ اكتشاف واستثمار البترول والغاز الطبيعي في بحر الشمال وفي بحر النرويج .

٦ ـ انسحاب القوات البحرية البريطانية خارج المقرات الرئيسية لمناطق حلف الاطلسي .

٧ ـ الاعتماد الكلي على قوات حلف الاطلسي ساهم في المحافظة على الامن القومي .

٨ ـ المشاركة السياسية المحكمة بالنسبة للدول الاوروبية الاعضاء في حلف الاطلسي ، ورغبة هذه الدول في أن يكون لها الصوت الاعلى في ادارة شؤون الحلف بالمقارنة مع الولايات المتحدة الاميركية .

٩ ـ تبني قيام شبكة اتصالات واسعة ، وتبادل المعلومات والمعطيات العلمية وأنظمة الانذار ، وأنظمة الدفاع الجوي التي يجب ان تلحق بقيادة ملائمة وبترتيبات مناسبة اذا أريد الاستفادة الكاملة من هذه التقنيات .

١٠ ـ حقيقة ان الغواصات الذرية ذات الاغراض المتعددة العاملة بفعالية أقل بكثير ، كما أنها في الواقع أكثر تعرضا بكثير للكشف سواء من حيث تحديد مكانها وامكانية تدميرها ، وفي المياه الضحلة التي تحتوي على طبقات صخرية « ٢٠٠ متر أو أقل » فهي معرضة للخطر بشكل أقل مما هو الامر في المحيطات العميقة .

١١ ـ وأخيرا أنه لمن الامور الهامة جدا ، بل الاهم هو تبني استراتيجية

« الرد المرن » عوضا عن الاستراتيجية التقليدية « الانتقام الشامل » ضد العدوان المحدد الاول .

وهكذا فبينما تبقى المتطلبات الرئيسية تقتضي تعزيز القوات البرية لقوات حلف الاطلسي العاملة في أوروبا الغربية ، فانه يجب تعزيزها وامدادها بكل ما يلزم عبر المحيط الاطلسي . أن كل شرط يحكم بناء قيادة حلف الاطلسي الاصلية على الغالب يجب أن يكون ، نافذ المفعول ، ويجب أن لانستمر بالطرق التي تم بها ربح الحرب العالمية الثانية ، فذلك تاريخ قد مضى .

ان استراتيجية الرد المرن لاتعني شيئا ، اذا كانت لاتعني اظهار الاستعداد لخوض الحرب عند الاقتضاء . وكذلك اظهار القدرة على اجبار العدو على زج معظم قواته دفعة واحدة في البر ، وفي البحر والجو واذا وضع في موضع الاختبار ، فيجب اعطاء الاهمية لسرعة الحركة وتركيز الهجوم الذي يمكن توقعه ، وبمقدار ما يكون مدى الصواريخ التكتيكية ، فان جميع المناطق البرية والبحرية الاقليمية لدول شمال غرب أوروبا ، يجب النظر اليها منذ البداية على أنها جزء من جبهة في ساحة القتال . حقا ان طبيعة العمليات ، بناء على ذلك ، ستكون ثلاثية الابعاد برية بحرية جوية وتحتفظ المنطقة بطبيعتها .

* * *

الجدول الاول ، يبين توزيع

	عابر قارات ، مدى طويل يزيد عن ٢٤٠٠ كم				
	ICBM	IRBM	SLBM	قاذفات	SSM
الاتحاد السوفييتي	١٤٠٠	١٠٠	٩٥٠	١٠٠	٧٠٠
بلدان اخرى في حلف وارسو		—	—	—	١٠٠
المجموع	١٤٠٠	١٠٠	٩٥٠	١٠٠	٨٠٠
الولايات المتحدة الاميركية	١٠٠٠	—	٩٠٠	٣٥٠	—
دول أخرى في حلف الاطلسي	—	—	—	—	—
المجموع	١٠٠٠	—	٩٠٠	٣٥٠	—
المملكة المتحدة	—	—	٦٤	—	—
فرنسا	—	١٨	٨٠	—	—
الصين	٥٠	٢٥٠	—	١٠٠	١٠٠

الحاملات الذرية كالصواريخ وغيرها

مدى قصير مابين ١٦٠ ــ ٢٤٠٠ كم			مدى قريب دون ١٦٠ كم		ملاحظات
GLCM	SLCM	مقاتلة قاذفة	SSM	مدفعية	
—	١٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٥٠٠	ذات المدى الطويل محددة بمعاهدة سالت
—	—	بعضها	٢٠٠	—	
—	١٠٠	+ ١٠٠٠	٧٠٠	٥٠٠	
١٠٠	٣٠٠	٥٠٠	١٠٠	٥٠٠	ذات المدى الطويل محددة بمعاهدة سالت
١٠٠	—	١٠٠	١٠٠	٣٠٠	
٢٠٠	٣٠٠	٦٠٠	٢٠٠	٨٠٠	
٥٠	—	٢٠٠	—	—	
١٠٠	—	٢٠٠	١٢٠	—	
—	—	١٠٠	—	—	

الجدول الثاني ـ القوات الارضية والقوات

البلدان	القوى البشرية بالآلاف	فرقة أو ما يعادلها	دبابات متوسطة	دبابات خفيفة
حلف الاطلسي المجموع بدون فرنسا	١٢٧٧	٣١	٧١٧٥	١٧٥٠
بلجيكا	٤٧	٢	٤٠٠	٢٠٠
بريطانيا	١٣٨	٥	١٠٥٠	٥٠٠
كندا	١٢	١	١٥٠	—
هولندا	٣٠	٢	٤٢٥	١٠٠
ألمانيا الغربية	٨٠٠	١٤	٣٠٠٠	٣٥٠
الولايات المتحدة الاميركية	٢٥٠	٧	٢١٥٠	٦٠٠
فرنسا	٩٠	٥	٧٥٠	٢٥٠
المجموع مع فرنسا	١٣٦٧	٣٦	٧٩٢٥	٢٠٠٠
حلف وارسو المجموع	١٤٢٥	٩٣	٢٤٧٠٠	١٦٥٠
تشيكوسلوفاكيا	١٦٥	١٠	٣٠٠٠	—
ألمانيا الشرقية	١٠٠	٦	١٧٠٠	١٠٠
بولونيا	٢٤٠	١٥	٣٠٠٠	٢٥٠
الاتحاد السوفييتي	٤٢٥	٢٨	٨٠٠٠	٦٠٠
في أوروبا الشرقية وفي أوروبا الغربية	٤٩٥	٣٤	٩٠٠٠	٧٠٠
مجموع الاتحاد السوفييتي	٩٢٠	٢٦	١٧٠٠٠	١٣٠٠

الجويـــة التكتيكية فى المنطقة الوسطى

أسلحة موجهة مضادة للدرع ATGW	مدفعية صاروخية وهواون ثقيلة	هيلوكبترات مسلحة	مقاتلات تكتيكية	ملاحظـات
١٣٦٧٥	٢٧٥٥	١٣٥٠	٢٨١٥	من ضمن ذلك حاملات الطائرات بدون القوات الجوية في قواعدها الارضية في المملكة المتحدة
٦٧٥	٨٠	١٠٠	١٥٠	
٣٥٥٠	٣٢٥	١٥٠	٦٢٠	
٥٠٠	٥٠	٥٠	٧٠	
٧٠٠	١٠٠	١٠٠	١٧٥	
٥٧٥٠	١١٥٠	٦٠٠	٦٥٠	بما في ذلك الجيش الاقليمي
٣٥٠٠	١٠٥٠	٣٥٠	١١٥٠	
١٢٥٠	١٢٠	١٢٥	٥٥٠	بما في ذلك فرقتين معززتين
١٤٥٢٩	٢٨٧٥	١٤٧٥	٣٣٦٥	
١٢٥٠٠	١١٢٥٠	١٧٠٠	٤٤٥٠	
١٠٠٠	٩٠٠	٥٠	٥٠٠	بعض هذه القوات لايفضل أن تقوم بأعمالها القتالية خارج اراضيها الوطنية
٦٠٠	٧٥٠	٥٠	٣٥٠	
١٤٠٠	١٥٠٠	٥٠	٨٠٠	
٤٣٠٠	٣٦٠٠	٧٠٠	١٣٠٠	
٥٢٠٠	٤٥٠٠	٨٥٠	١٥٠٠	
٩٥٠٠	٨١٠٠	١٥٥٠	٢٨٠٠	

الجدول الثالث : يبين القوات الحربية البحرية

الفئـــة	الولايات المتحدة	كندا	بريطانيا	بلجيكا	هولـنـدا	المانيـا الغربية
غواصات تحمل صواريخ نووية بالستية	٥١	—	٤	—	—	—
أغراض عامة ذرية	٨٨	—	١٦	—	—	—
ديزل	١٠	٣	٢٣	—	٦	٢٤
المجمـــوع	١٤٩	٣	٤٣	—	٦	٢٤
حاملات طائرات ــ عريضة	١٣	—	—	—	—	—
حاملات متوسطة	٢	—	—	—	—	—
حاملات صغيرة	—	—	٣	—	—	٢
طرادات	٢	—	٣	—	—	—
المجمـــوع	١٧	—	٦	—	—	٢
سفن حربية اخرى فوق ٨٠٠٠ طن	١٢	—	٢	—	—	—
٥٥٠٠ ــ ٨٠٠٠ طن	٦٣	—	٨	—	—	—
٣٥٥٠ ــ ٥٥٠٠ طن	١٣٥	٥	١٣	—	—	٥
١٠٠٠ ــ ٣٥٠٠ طن	١٨	١٩	٧٨	٧	٢٣	٢٢
المجمـــوع	٢٢٨	٢٤	١٠١	٧	٢٣	٢٧
سفن برمائية سفن هجومية	١٦	—	٢	—	—	—
سفن انزال	٦٠	—	٦	—	—	٦
المجمـــوع	٧٦	—	٨	—	—	٦
الطيران البحري من قواعد ارضيـــة	٢٥٠	٦٠	٨٢	—	٢٥	٢٥
من حاملات طائرات	١١٦	—	—	—	—	—
قاذفة متوسطة من قواعد أرضيـــة	—	—	—	—	—	—
قاذفات مقاتلة من قواعد أرضيـــة	١٠٠	—	١٠٠	—	٢٤	١٥٠
قاذفات مقاتلة محمولة	١٠٢٠	—	٤٢	—	—	١٢
المجموع	١٤٨٦	٦٠	٢٢٤	—	٤٩	١٨٧

وحاملات الطائرات فى حلفي الاطلسي ووارسو

دانمارك	نرويج	برتغال	ايطاليا	يونان	تركيا	فرنسا	مجموع حلف الاطلسي	مجموع حلف وارسو	
—	—	—	—	—	—	٥	٦٠	٥٣	بالنسبة للولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي محددة بمعاهدةسالت
—	—	—	—	—	—	—	١٠٤	١٥٠	
٦	١٥	٣	١٢	٦	١٤	٢٣	١٤٥	١٠٠	
٦	١٥	٣	١٢	٦	١٤	٢٨	٣٠٩	٣٠٣	
—	—	—	—	—	—	—	١٣	—	
—	—	—	—	—	—	١	٣	٨	
—	—	—	—	—	—	—	٥	—	
—	—	—	٢	—	—	١	٧	٤	
—	—	—	٢	—	—	٢	٢٨	١٢	
—	—	—	—	—	—	٢	١٦	١٢	
—	—	—	—	—	—	١٣	٨٤	٢٧	
—	—	—	٩	٢	٣	١٨	١٩٠	١٢٥	
١٠	٩	١٥	٢٧	١٣	١١	٤١	٢٩٣	١٣٥	
١٠	٩	١٥	٣٦	١٥	١٤	٧٤	٥٨٣	٢٩٩	
—	—	—	—	—	—	—	١٨	—	
—	—	—	٢	٦	١٠	١٠	١٠٠	٥٠	
—	—	—	٢	٦	١٠	١٠	١١٨	٥٠	باك فاير Backfire
—	٥	—	٣٠	١٠	—	٤٠	٥٢٧	٣٠٠	
—	—	—	—	—	—	—	١١٦	—	
—	—	—	—	—	—	—	—	٤٠٠	
—	٢٤	١٢	٥٠	٢٤	٢٤	٥٠	٥٥٨	١١٠	
—	—	—	٢٤	—	—	٣٦	١١٣٤	١١٠	
—	٢٩	١٢	١٠٤	٣٤	٢٤	١٢٦	٢٣٣٥	٩٢٠	

الجدول الرابع ـ القسم الرئيسي من البواخر الحربية،

المناطق البحرية	غواصات ـ أغراض عامة		سفن سطح	
شمال وغرب الاطلسي	ذرية	ديزل	حاملات	أخرى
الولايات المتحدة	٤٠	٥	٥	٦٠
بريطانيا	١٢	١٧	٥	٦٠
بلدان أخرى من حلف الاطلسي	ـ	٢٠	ـ	ـ
فرنسا	ـ	١٠	ـ	٣٨
الاتحاد السوفييتي	٦٠	٢٠	٢	٢٥
بحر البلطيق				
حلف الاطلسي	ـ	٣٤	١	٤٢
حلف وارسو	٢٠	٢٠	ـ	٥٠
البحر المتوسط وبحر البلقان				
الولايات المتحدة	٣	ـ	١	٢٠
البرتغال	ـ	٢	ـ	١٢
فرنسا	ـ	٧	١	٣٥
ايطاليا	ـ	٧	٢	٣٠
اليونان	ـ	٥	ـ	١٢
تركيا	ـ	١٠	ـ	١٢
الاتحاد السوفياتي البحر المتوسط	٥	ـ	١	٣٠
الاتحاد السوفياتي البحر الاسود	ـ	١٠	١	٢٥
الولايات المتحدة	٣	ـ	١	٣٠
فرنسا	ـ	ـ	ـ	١٠
الاتحاد السوفياتي	٥	ـ	١	٣٠
الولايات المتحدة	٢	ـ	٢	١٢
الاتحاد السوفياتي	٥	٤	١	٢٠
الولايات المتحدة	٢٠	٣	٥	٦٠
كندا	ـ	١	ـ	١٠
الاتحاد السوفياتي	٤٠	٢٠	٢	٤٥

وحاملات الطائرات ، والطائرات البحريـة

طائرات قتال بحرية		طائرات دورية بحرية	ملاحظـات
من حاملات	من قواعد أرضية	من قواعد أرضية أو حاملات	
٣٠٠	٥٠	١٠٠	المناطق الواقعة الى غرب وشمـال المحيط الاطلسي
٤٠	٥٠	٥٠	
ـ	٥٠	١٠٠	
ـ	٢٠		
٥٠	٢٥٠	٥٠	
١٢	٢٠٠	٤٥	في شبه جزيرة ايبريا والبحر المتوسط والبحر الاسود
ـ	٥٠	٢٥	
٧٠	ـ	٢٥	
ـ	١٢	ـ	
١٢	٣٠	١٢	
٢٥	٣٠	٢٥	
ـ	٢٤	١٠	
ـ	٢٤	ـ	
٦	٢٥	٢٥	
ـ	٥٠	٥٠	
٧٠	ـ	٥٠	جنوب المحيط الاطلسي جنوب المحيط الهندي
ـ	ـ	٦	
١٢	ـ	٢٥	
٧٠	ـ	٢٥	البحر الاحمر ـ والبحر العربي والخليج « العربي »
١٢	٢٥	٢٥	
٣٥	٥٠	٥٠	المحيط الهادي
ـ	ـ	٢٥	
١٢	١٠٠	٥٠	

الاختصــارات

ـ قوات جوية حليفة في وسط أوروبا
— AAFCE : Alliedir Air Forces Central Europe

— ACANT : Allied Command Atlantic ـ قيادة الحلفاء في الاطلسي

— A/C : Air Craft ـ حاملة طــائرات

ـ التحليل الاوتوماتيكي للمعطيات
— ADP : (Automatic Deto Processing)

ـ أجهزة انذار مبكر محمولة جوا
— AEW : Airborne Early Warning

ـ قوات الحلفاء في وسط أوروبا
— AFCENT : Allied Forces Central Europe

ـ قوات الحلفاء في شمال أوروبا
— AFNORTH : Allied Forces Northern Europe

ـ قوات الحلفاء في جنوب اوروبا
— AFSOUTH : Allied Forces Southern Europe

— AFV : (Armoured Fighting Vehicles) ـ عربات قتال مدرعة

ـ القوات الجوية الحليفة في وسط اوروبــا
— AIRCENT : Allied Air Forces Southern Europe

ـ القوات الجوية الحليفة في جنوب اوروبــا

ـ صاروخ موجه جوي باندفاع ذاتي
— ALCM : Air-Launched Cruise Missile

ـ صواريخ مضادة للغواصات تطلق من الجو
— ASM : Anti-Submarine Air-Launched Missile

— ATAF : Allied Tactical Air Force ـ قوات جوية تكتيكية حليفة

ـ اسلحة مضادة للد بابات موجهة
— ATGW : Anti-Tank Guided Weaponcs

— AWS : Anti Submarine Warfare ـ الحرب المضادة للغواصات

— BAOR : British Army of the Rhine ـ جيش الراين البريطاني

ـ شبكة الانذار المبكر للصواريخ الباليستية
— BMEWS : Ballistic Missile Early Warning System

ـ عربة قتا لمدرعة للمشاة(سوفييتية)
— BMP : Boevaya Mashino Pekhoty (Soviet)

— CAP : Combat Air Patrol(s) ـ دورية جوية للقتال أو الكشف

ـ جيش اتحاد شعوب افريقيا الجنوبية
— CASPA : Confederation of Africa South Peoples Army

ـ الاجراءات المضادة للاجراءات الالكترونية المضادة
— ECCM : Electronic Counter - Counter Measures

— CDU : Cristian Democratic Union ـ الاتحاد الديموقراطي المسيحي

— CD : Civil Defence ـ الدفاع المدني

— CENTAG : Central Army Group ـ مجموعة جيوش وسط اوروبا

ـ القائد الاعلى لقوات الحلفاء في وسطأوروبـا
— CINCENT : Commander-Chief Central Region

ـ القائد الاعلى لقوات الحلفاء في شمالأوروبـا
— CINCNORTH : Commander-In-Chief Allied Forces Northern Europe

ـ القائد الاعلى لقوات الحلفاء في جنوبأوروبـا
— CINCSOUTH : Commander-In-Chief Allied Forces Southern Europe

ـ القائـد الاعلى للقوات الجويـة في المملكة المتحدة
— CINCUKAIR : Commander-In-Chief United Kingdom Airforces

ـ صواريخ موجهة تطلق من مواقع
— CLGP : Cannon-Launched Guided Projectile

— CME : Elec ـ اجراءات الكترونية معاكسة

ـ قائد القوات الجوية الحليفة في وسط أوروبـا
— COMAAFCE : Commander Allier Airforce Central

ـ قائد قوات الحلفاء في مضايق البلطيق
— COMBALTAP : Commander Allied Forces Baltic

ـ قائد مجموعة الجيوش في وسـط أوروبـا
— COMCENTAG : Commande Centre Army Group

ـ قائد مجموعة الجيوش في شمـال أوروبـا
— COMNORTHAG : Commander Northern Army Group

ـ قائد مناطق الاقتراب من الغرب
— COMWAS : Commander Westhern Approaches South

ـ نظام للانذار والمراقبة محمول جوا
— CTS (AWACS) : Air Borne Warning and Control System

ـ المنطقة الشرقية من المحيط الاطلسي
— EASTLAND : Eastern Atlantic

ـ الاستخبارات بالطرق الالكترونية
— ELINT : Electronic Intelligence

— ENG : Electronic News Togethaing ـ الجمع الالكتروني للانباء

ـ صواريخ أرض ـ جو اوروبية
— EUROSAM : European Surface - to - Air Missile(s)

ـ قوات الحلفـاء الجويـة في وسط أوروبـا
— FAACE : Force Allied Air Forces Centre Europe

ـ نظام نقل أو تمويل بواسطة توابع تابعة للبحرية
— FLEETSATCON : Fleet Satelillite Comminacation

ـ الجبهة الوطنية لتحرير انغولا
— FNLA : Angola National Liberation Front

ـ الاميرال قائد الاسطول في الشرق الاوسـط
— FOSMEF : Flagofficer Soviet Middle East Forces

ـ جبهة تحرير موزامبيق
— FRELIMO : Mozambique Liberation Front

— FUMO : Mozambique United Front ـ الجبهة المتحدة لموزامبيق

ـ صواريخ أرضية موجهة
— GLCM : Ground Launched Cruise Missile

ـ القوات السوفييتيةفي المانيا الشرقية
— GSF : Group of Soviet Forces in Germany

ـ صواريخ بالستية عابرة للقارات
ICBM : Inter-Continental Ballistic Missiles

ـ صواريخ بالستية متوسطة المدى
— IRBM : Intermediate Range Ballistic Missiles

— IRR : Individual Ready Reserve ـ الاحتياط الفعال

ـ القوات الحليفة الموحدة (المشتركة) لمناطق التقرب من الغرب
— JACWA : Joint Allied Command Weastern Approaches

ـ نظام مشترك لتوزيع المعلومات التكتيكية
— JTIDS : Joint Tactical Information Distribution System

— LSI : Large Scale Integration ـ تكامل على نطاق كبير

ـ الحركة الشعبية لتحرير انغولا
— MPLA : Popular Movement for the Liberation of Angola

— MRCA : Multiple - Range ـ طائرة قتال متعددة المهمات

— MSI : Medium - Scale Integration ـ تكامل على نطاق متوسط

ـ عربة سوفييتية نموذجية للقتال
— MTLB : Soviet Universal Combat Vehicle .

ـ الوكالة الوطنية للطيران والفضاء
— NASA : National Aeaonautics an Space

— NBC : Nuclear Biological Chemical ـ ذرى بكتريولوجي كيميائي

ـ متطوعي الطوارىء الوطنيين
— NEV : National Emergency Volunteers

ـ وكالة الاشراف على بحار الشمال
— NORESCA : Northern Seas Environmental Control Agency

ـ مجموعة جيوش شمال وسط أوروبا
— NORTHAG : Northern Army Group

— OP : Observation Post ـ موقع مراقبة

ـ منظمة البلدان المصدرة للنفط
— OPEC : Organization of Petroleum Exporting Countries

— OSS : Office of Strategic Service ـ مصلحة المخابرات الاميركية

ـ منظمة معاهدة شمال الاطلسي
— NATO : North Atlantic Treaty Organization

ـ منظمة الوحدة الافريقية — OAU

ـ الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي — PCUS

ـ صاروخ أرض ـ أرض بتوجيه فعال
— PGM : Precision - Guided Missile(s)

ـ طائرة في حال الانذار للرد السريع
— QURA : Quick - Reaction Altert

— UAR : United Arab Republique ـ الجمهورية العربية المتحدة

ـ دائرة تحسين استعداد الاحتياطي
— RCRIP : Reserve Component Readiness Improvement Package

ـ الجمهورية الشعبية الديموقراطية اليمنيـة
— RPDY : People's Democratic Republic of Yemen

— RPV : Remotly - Piloted Vehicle(s) ـ مركبة موجهة عن بعد

ـ القائد الاعلى لقوات الحلفاء في اوروبا
— SACEUR : Supreme Allied Commande Europe

ـ القائد الاعلى للحلفاء في الاطلسي
— SACLANT : Supreme Allied Commande Atlantic

ـ مباحثـات الحـد من التسلـح الاستراتيجي
— SALT : Strategic Arms Limitation Talks

— SAM : Surface - to - Air Missile(s) ـ مقذوف أرض ـ جو

— SAS : Special ـ وحدات خاصة من الجيش الجوي

ـ الحزب الاشتراكي الموحد (في جمهورية المانيا الديموقراطية)
— SED

القيادة العامة لقوات الحلفاء في أوروبا
— SHAPE : Supreme Head Quarter Allied Powers in Europe

— SIGINT : Signal Intelligence

— SITREP : Situation Report ـ تقرير عن الاوضاع

ـ غواصات قاذفة لصواريخ بالستية
— SLMG : Submarine - Lounched Ballistic Missites

ـ غواصات قاذفة لصواريخ طوافة
— SLCM : Submarine - Lounched Cruise Missiles

— SNAF : Soviet Naval Airforce ـ القوات الجوية البحرية السوفييتية

ـ غواصات بالدفع النووي قاذفة صواريخ بالستيكية
— SNLE

ـ مدير العمليات الخاصة (من ناحية العلمية كاشفة)
— SOE : Special Operation Executive

ـ مجموعة جيوش شمال وسط أوروبا
— SOUTHAG : Southern Army Group

— SSBS/LP ـ صواريخ باندفاع ذاتي (بالستيكية) عابرة للقارات

— SSBS/PI ـ صواريخ باندفاع ذاتي (بالستيكية) ذات مدى وسيط

ـ صواريخ سطح ـ سطح
— SSM : Surface - to - Surface Missilees

— SSN : Submatrine Nuclear ـ غواصة شيربا بالطاقة النووية

ـ قوات بحرية دائمة للاطلسي
— STANAVFORLANT : Standing Naval Force Atlantic

ـ نظام تنصت (استماع) متطور سطحي
— STASS : Surface Towed Army Surveillance System

ـ منظمة شعوب افريقيا الجنوبية الغربية
— SWAPO : Soutth - West Africa People's Organization

ـ احتياط اختباري اقليمي اضافي
— TAVR : Territorial Volunteer Reserve

ـ القوات البريطانية البرية

ـ منشآت الكترونية للدفاع الجوي في المملكة المتحدة
— UKLF : United Kingdom Air Defence Ground Environment

ـ مؤتمر الامم المتحدة حول قانون البحار
— UNCLOS : United Nations Conference in the Low of the Deas

ـ منظمة الامم المتحدة لاستعادة المواد الانشطارية
— UNFISMATRECO : United Nations Fissile Materials Recovery Organization

ـ الاتحاد الوطني للاستقلال الكامل لانغولا (حزب سياسي)
— UNITA : National Union for the Total Independance of Angola

ـ وكالة الاغاثة والاعادة الى الوطـــن التابعة للامم المتحدة
— UNRRO : United Nations Relief and Repariation Organization

ـ القوات الجوية التابعـــة للولايـــات المتحدة الاميركية
— USAF : United States Air Force

— UAR : United Arab Republic ـ الجمهورية العربية المتحدة

ـ الامارات العربية المتحدة في الخليج العربـــي .
— UAE : United Arab Emirates

ـ القوات الارضية للولايات المتحـــدة الاميركية في أوروبا
— USAREUR : United States Army in Europe

— VB عربة قتال مدرعة

— VBTP عربة مدرعة لنقل الشخصيات

— VICM عربة قتال للمشاة الآلية

— WESTLANT : Western Atlantic ـ منظمة الاطلسي الغربية

— WP : Warsaw Pact ـ حلف وارسو

* * *

الفهرس

الصفحة

الصفحة

* * *

الجـداول

الصفحة

الخرائط

الصفحة

هذا الكتاب

★ يتحدث عن « حرب عالمية ثالثة » اندلعت صبيحة يوم الأحد في الخامس من شهر آب ١٩٨٥ . إنها الحرب تقلق هواجس أنصار السلام ، كما رجال السياسة والحرب والتنظير الاستراتيجي في العالم ...

★ ولئن دامت الحرب العالمية الثالثة في كتابنا هذا ثلاثة أسابيع لا أكثر ، وتلك سمة تتميز بها الحروب المعاصرة ، إلا أنها حرب تكاد تنخلع لها القلوب لمجرد التفكير في ويلاتها ، وفيما وصلت اليه آلة الحرب المتطورة من قدرة على التدمير الشامل ، وإفناء الملايين من البشر ، وتحطيم العمران والحضارة ، وإنهاء الحياة في أية بقعة على سطح كوكبنا الأرضي ...!!

★ ماذا وقع في هذه الحرب ، هل استخدمت فيها القنابل النووية ، وماهو مصير البشرية إذن ؟ أم كانت حرباً تقليدية تصارعت فيها القوى والجيوش والأساطيل في الجو والبر والبحر ؟ من كان المنتصر فيها ، قوات حلف الأطلسي بزعامة الولايات المتحدة الأميركية ؟ أم قوات حلف « وارسو » بزعامة الاتحاد السوفييتي ؟ .

★ هذا ما يعالجه الجنرال « جون هاكيت » بالاشتراك مع ستة آخرين من كبار جنرالات حلف الأطلسي « الناتو » في هذا الكتاب .